

الإهداء

إلى

فرع الدوحة الهاشمية

ملك العراق جلالة

غازي الأول

جعل الله عهده سعادة موفورة

للعراق والعرب

رياض

مختصر

تاريخ العرب
والتمدن الإسلامي

بحث في نهضة المسلمين وتدهور سلطانهم وتطور المناحي الاقتصادية والاجتماعية والفكرية

في الأمة العربية من أقدم العصور حتى اغارة التتر على بغداد

A Short History of the SARACENS

تأليف

سيد أمير علي

العضو في مجلس شورى الملك بانكلترا

ومؤلف «روح الإسلام» والقانون الإسلامي الخ

نقله إلى العربية

رياض رأفت

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٨

فهرست تفصيلي لموضوعات الكتاب

الفصل الأول

صفحة

بلاد العرب — جغرافيتها وحالتها الطبيعية — العرب القدماء ١

الفصل الثاني

التاريخ القديم — قصي — عبد المطلب — سطو الحبشة — المولد النبوي —
رسالة النبي (ص) — الهجرة ٥

الفصل الثالث

هجرة النبي (ص) — الفتن في المدينة — الوثيقة ١١

الفصل الرابع

أبو بكر — تمرد الأعراب — الحروب مع الفرس والرومان — وفاة أبي بكر —
الفتوح في كلدة وما بين النهرين وفارس — هزيمة الرومان — الفتوح في الشام
وفلسطين ومصر — موت عمر ٢٠

الفصل الخامس

عثمان — حروبه — قتل عثمان — علي — معاوية — وقعة صفين — الخوارج —
اغتيال علي — نهاية الجمهورية ٤١

الفصل السادس

نظرة عامة — الحكومة — السياسة — الإدارة — الجيش — الحياة الاجتماعية ٤٩

الفصل السابع

الحسن — تنازله — معاوية — اغتصاب الخلافة — النزاع بين القبائل — بنو مضر —
بنو حمير أو اليمانيون — تأثير النزاع بين القبائل على الإسلام — توسع الإمبراطورية —
وفاة معاوية — يزيد — الحسين — موقعة كربلاء — الثورة في الحجاز — انتصار
جيش الشام في الحرة — نهب المدينة — موت يزيد — معاوية الثاني — عبد الله
ابن الزبير — مبايعة أهل الحجاز ٦١

الفصل الثامن

مروان بن الحكم — انتخابه رئيساً لبني أمية — موقعة مرج راهط — مصر —
خيانة مروان — التوابون — وفاة مروان — عبدالملك حاكم الشام — قتل الحسين —

صفحة

قتل المختار — مصعب — عبد الملك يغزو العراق — حصار مكة — قتل عبد الله ابن الزبير — الحجاج الطاغية — التوسع فى أفريقيا — الحرب مع الروم — الخوارج — موت عبد الله ٧٧

الفصل التاسع

الوليد الأول — الفتوحات فى الشرق — التوغل فى أفريقيا — موسى بن نصير — حاكم المغرب — شؤون الأندلس — استبداد رودريك — طارق بن زياد يعبر جبل طارق — موقعة مدينة سيدونيا — موت رودريك — فتح الأندلس — الزحف على فرنسا — استقدام موسى وطارق — الإدارة العربية فى الأندلس — الولايات — نتائج التنافس القبلى — وفاة الوليد الأول — أخلاقه وصفاته ٨٩

الفصل العاشر

بنو أمية (٩٦ — ١٠٥ هـ)

(٧١٥ — ٧٢٤ م)

خلافة سليمان — موسى وطارق — وفاة عبد العزيز بن موسى — الخصومات القبلية — اليمانيون — ثورة يزيد بن المهلب — حصار القسطنطينية — كارثة المسلمين — وفاة سليمان — استخلاف عمر الثانى — حكمه — انسحاب الجيش من القسطنطينية — وفاة عمر — استخلاف يزيد الثانى — ثورة يزيد بن المهلب — هلاك اليمانيين — الخصومات القبلية — الكوارث التى حلت بالإمبراطورية — وفاة يزيد الثانى — العباسيون ١٠٥

الفصل الحادى عشر

الأمويون ١٠٥ — ١٢٥ هـ (٧٢٤ — ٧٤٤ م)

مبايعة هشام — حالة الإمبراطورية — أخلاق هشام — الشؤون فى الشرق — فى أرمينيا وفى أفريقيا وفتنة الخوارج والبربر — موقعة الأشراف — حنظلة — انهزام البربر — الأندلس — النزاعات الداخلية — سرعة تبديل الحكام — تعيين عبد الرحمن الغافقى — غزو شمالى فرنسا — موقعة طوروس — مبالغة مؤرخى الرهبان — الغزو فى فرنسا — الاستيلاء على أفنون — انتصارات عقبة — مقتله — المشاحنات والمنازعات — فشل العرب فى فرنسا — سقوط خالد القصرى — ثورة زيد فى العراق — مقتله — الدعاية العباسية — ظهور أبى مسلم الخراسانى — وفاة هشام ١١٨

الفصل الثانى عشر

الإمبراطورية العربية حين وفاة هشام — قسوته نحو أقاربه — مقتل خالد القصرى — ثورة يحيى بن زيد ومقتله — تأثيرها على أهل خراسان — حالة أسبانيا — حسام (أبو الخطاب) حاكم الأندلس — خضوع جميع الأحزاب — عدالته — تعصبه لليمانيين — فتنة المضريين — موقعة شقوندا — انتخاب ثعلبة — وفاته — انتخاب

صفحة

يوسف — فارس الأندلس — وفاته — وصول عبد الرحمن حفيد هشام — هجوم ببين القصير — مذبحة المسلمين — حصار أربونة — الاستيلاء عليها — زوال حكم العرب فى فرنسا — أفريقيا — الفتنة على الوليد الثانى — وفاته — خلافة يزيد الثالث — وفاته — تولية إبراهيم — قيام مروان — موقعة عين الجر — فرار إبراهيم — اعتلاء مروان عرش الخلافة ١٣٧

الفصل الثالث عشر

بنو أمية ١٢٧ — ١٣٢ هـ (٧٤٤ — ٧٥٠م)

مروان الثانى — أخلاقه — التمرد — الثورة فى خراسان — أبو مسلم الخراسانى — الثورة فى فارس — انهزام نصر حاكم خراسان ومقتله — موت إبراهيم الإمام العباسى — هزيمة بنى أميـــة فى نهاوند — هزيمة حاكم العراق — مبايعة السفاح بالخلافة — موقعة الزاب — انهزام مروان — فراره — سقوط دمشق — انتقام العباسيين — موت مروان — آخر بنى أمية — أسباب سقوط دولة بنى أمية ... ١٤٥

الفصل الرابع عشر

الحكومة — الإيرادات — الإدارة — الخدمة العسكرية — اصـــلاح العملة فى خلافة عبـــد الملك — دمشق — الحياة فى البلاط — الحيـاة الاجتماعية — مركز المرأة — نظام الحريم — الملابس — العادات — الأدبيات — الفرق الدينية والفلسفية ١٦١

الفصل الخامس عشر

١٣٢ — ١٥٨ هـ (٧٤٩ — ٧٧٥م)

السفاح والمنصور

حكم السفاح — وفاته — استخلاف المنصور — صفاته — فتنة عبد الله بن على — مقتل أبى مسلم — تأسيس بغداد — محمد وإبراهيم الحسن — انهزامهما ومقتلهما — غزو أسبانيا — فشل الحملة — ثورة الخزر — إغارة جيش الروم — وفاة المنصور ١٨٠

الفصل السادس عشر

العباسيون

١٥٨ — ١٧٠ هـ (٧٧٥ — ٧٨٦ م)

المهدى والهادى

خلافة المهدى — حكمه الفخم — إنسانيته — الزنادقة — الحرب مع الرومان — إيرينى تدفع الجزية — وفاة المهدى — خلافة الهادى — انفصال المغرب — وفاة الهـادى ١٩٧

صفحة

الفصل السابع عشر

العباسيون

(١٧٠ — ١٩٨ هـ) ٧٨٦ — ٨١٤م

الرشيد والأمين

خلافة هارون الرشيد — أخلاقه — حكمه الزاهر — البرامكة — الحكم — استقلال أفريقيا الذاتى — شؤون الدولة فى آسيا — تدابير ولاية العهد — الأمين والمأمون — تقسيم الإمبراطورية — سقوط البرامكة — جان دارك العرب — الحرب البيزنطية — خيانة نيكو فورنس — انهزامه — عقد معاهدة جديدة — الدولة البيزنطية تنقض العهد — نتائج ذلك — وفاة الرشيد — مبايعة الأمين بالخلافة — أخلاقه — إشهاره الحرب على المأمون — طاهر يهزم جيوش الأمين — حصر بغداد — مكة والمدينة تبايعان المأمون بالخلافة — مقتل الأمين ٢٠٤

الفصل الثامن عشر

العباسيون

١٩٨ — ٢٣٢ هـ (٨١٣ — ٨٤٧ م)

المأمون العظيم — المعتصم — الواثق

المأمون فى مرو — الاضطرابات فى بغداد — وفاة الإمام على الرضا — المأمون فى بغداد — الحروب مع الروم — المذهب العقلى — وفاة المأمون — أخلاقه — تطور حياة العرب العقلية فى عهد المأمون — خلافة المعتصم — تغيير العاصمة — تأليف الحرس التركى — القبض على بابك — انهزام الروم — وفاة المعتصم — خلافة الواثق — أخلاقه — وفاته ٢٢٦

الفصل التاسع عشر

العباسيون

٢٣٢ — ٤٥٤ هـ (٨٤٧ — ١٠٦٣ م)

من عهد المتوكل إلى القائم

المتوكل أو نيرون العرب — انحلال الإمبراطورية العربية — المنتصر — المستعين — المعتز — ثورة الزنوج — المعتضد — الدولة الفاطمية — القرامطة — المكتفى — استرداد مصر — السامانيون — المقتدر — القاهر — الراضى — المتقى — آل بويه — رجال البلاط — المستكفى — الغزنيون — المطيع — الطائع — القادر — القائم — السلجوقيون — طغرل بك ٢٤٧

صفحة

الفصل العشرون

العباسيون

من عهد القائم إلى المستظهر

٤٥٥ — ٥٠٣ هـ (١٠٦٣ — ١١١٠ م)

بدء الحروب الصليبية

الخليفة القائم بأمر الله — طغرل بك — الحروب مع الدولة البيزنطية — وفاة طغرل — تولية ألب أرسلان — غزو جيوش الإفرنج — موقعة ملازكرد — انهزام الجيوش الصليبية — أسر رومانوس — معاهدة الصلح — مقتل رومانوس — وفاة ألب أرسلان — تولية الملك الصالح — وفاة القائم — مبايعة المقتدى بأمر الله — عهد الملك شاه الزاهر — الحشاشون أو الباطنيون — حسن الصباح — اغتيال نظام الملك — وفاة الملك شاه — الخلاف بين أولاده — وفاة الخليفة المقتدى — تولية المستظهر بالله — بدء الحروب الصليبية — حصار أنطاكية — الاستيلاء عليها — مذبحة المسلمين — تدمير معرة النعمان — مذبحة بيت المقدس — نهب طرابلس ٢٦٨

الفصل الحادى والعشرون

العباسيون

المستظهر — المكتفى — المستنجد

٤٩٢ — ٥٦٩ هـ (١٠٩٩ — ١١٧٤ م)

الصليبيون

الخليفة المستظهر — السلطان برقياروق — حروبه مع تتش وأخيه محمد — وفاة برقياروق — تولية محمد السلطنة — النزاع بين أمراء الإقطاعات — تقدم الصليبيين — وفاة السلطان محمود — وفاة الخليفة المستظهر — مبايعة الخليفة المسترشد — السلطان سانجار — سلطان المشرق — السلطان محمود سلطان العراق والشام — السلطان عماد الدين زنكى — وفاة السلطان محمود — تولية السلطان مسعود — اغتيال المسترشد — مبايعة الراشد بالخلافة — عزل السلطان مسعود — مبايعة المكتفى — حروب زنكى مع الصليبيين — تولية نور الدين محمود — فوزه على الصليبيين — وفاة المكتفى ومبايعة المستنجد — إرسال شركو إلى مصر — الاستيلاء على مصر — صلاح الدين الأيوبى — وفاة المستنجد — مبايعة المستضىء — وفاة نور الدين محمود ٢٨٦

الفصل الثانى والعشرون

العباسيون

٥٧٦ — ٥٨٩ هـ (١١٨١ — ١١٩٣ م)

الصليبيون

الخليفة الناصر — الملك الصالح إسماعيل ، أمير دمشق — صلاح الدين الأيوبى يدعى

صفحة

إلى دمشق — الحرب بين صلاح الدين والملك الصالح — تولية صلاح الدين على سورية — تلقيبه السلطان — وفاة الملك الصالح — سلطة صلاح الدين — مملكة بيت المقدس — الصليبيون ينكثون بشروط المهادنة — موقعة طبرية — انهزام الصليبيين — الاستيلاء على عكا ونابلس وأريحا وغيرها — حصار القدس — شروطها — مروءة صلاح الدين — الحرب الصليبية الثالثة — حصار عكا — دفاعها المستميت — انهزام الصليبيين — وفاة فردريك بارباروسا — وصول ملكي فرنسا وانكلترا — الاستيلاء على عكا — قسوة ريكاردوس قلب الأسد — صلاح الدين يفوض عسقلان — الصلح مع ريكاردوس — وفاة صلاح الدين — صفاته وأخلاقه ٣٠١

الفصل الثالث والعشرون

العباسيون

٥٨٩ — ٦٦١ هـ (١١٩٣ — ١٢٦٨ م)

إغارة التتر

أولاد صلاح الدين — قيام الملك العادل — الحرب الصليبية الرابعة — أولاد الملك العادل — نظرة عامة فى العالم الإسلامى فى المشرق — الخلافة — الخليفة الظاهر — الخليفة المستنصر — الخليفة المعتصم — إغارة التتر — سقوط بغداد — تقويض المدنية الإسلامية ٣٢١

الفصل الرابع والعشرون

نظرة عامة

الخلافة — البيعة — صفاتها المقدسة — الحكومة — دولاب الدولة — السياسة — الإدارة — الأمراء والعمال — الوزير — الدوائر — محاكم العدل — الزراعة — الصناعات — إيرادات الدولة — الجيش — الشؤون العسكرية — البحرية — المهندسون — انحطاط قوة العرب العسكرية — نظام الإقطاع العسكرى — الموالى ٣٤٦

الفصل الخامس والعشرون

نظرة عامة (تتمة)

بغداد — عمائرها — نمط البناء — بلاط الخليفة — الحياة الاجتماعية — الملابس — النساء — مركزهن — الموسيقى — الآداب — الفلسفة — العلوم والفنون — المذهب العقلى — إخوان الصفا — البوصلة البحرية — اكتشافات العرب — التاريخ — الطبرى — ابن الأثير — النجوم والفلك — الشعر — الخط العربى — تدهور الممالك الإسلامية ٣٨٢

صفحة

الفصل السادس والعشرون

العرب فى أسبانيا — دولة بنى أمية

١٣٨ — ٣٠٠ ﻫ (٧٥٦ — ٩١٢ م)

عبد الرحمن الأول (الداخل) — هشام — الحكم — عبد الرحمن الثانى (الأوسط) — محمد — المنذر — عبد الله — عبد الرحمن وعبوره إلى الأندلس — موقعة المصعرة — ثورة الأشراف — دسائس الفرنج — غزوة شارلمان — موقعة رونج فال — أخلاق عبد الرحمن ووفاته — هشام الأول — أخلاقه — قتال عبد الرحمن للفرنج — المذهب المالكى — وفاة هشام — الحكم الأول — أخلاقه — سخط الفقهاء عليه — الثورة فى قرطبة — قمع الثورة — نفى الثوار — طليطلة — وفاة الحكم — عبد الرحمن الثانى — غارات قبائل النصارى — قمع الثورة — ظهور النورمان — تعصب النصارى فى قرطبة — وفاة عبد الرحمن — ولاية محمد — أخلاقه — قمع ثورة النصارى — ثورة النورمان — انهزامه — الثوار — وفاة محمد — ولاية المنذر — وفاته — ولاية عبد الله — انتشار الثورة — وفاة عبد الله — العرب فى بيومون وسافوا وسويسرة ٤٠٦

الفصل السابع والعشرون

عرب الأندلس

الأمويون

٣٠٠ — ٣٦٦ ﻫ (٩١٢ — ٩٧٦ م)

عبد الرحمن الثالث (الناصر) — الحكم الثانى (المستنصر) — ولاية عبد الرحمن الثالث — قمع الثوار — الحروب مع قبائل النصارى — تلقيبه بأمير المؤمنين — ثورة الجلالقة — إدخال الصقالبة فى الجيش — موقعة الخندق — القبائل تطلب الصلح — مد الحدود إلى إبرو — الحرب فى أفريقيا — استئناف الحرب مع الجلالقة — طرد سانكو — سانكو يستنجد بعبد الرحمن — ليون — قشتالة — نافار — وفاة عبد الرحمن — أخلاقه — ولاية الحكم الثانى — حكمه — انتصاره على الجلالقة وأهل نافار — غزو أفريقيا — حب الحكم للعلم — قرطبة — عظمة قرطبة — حدودها — الزهراء — الفروسية ٤٢٢

الفصل الثامن والعشرون

العرب فى أسبانيا

بنو أميـــة

٣٦٦ — ٤٢٨ ﻫ (٩٧٦ — ١٠٣٧ م)

هشام الثانى — المهدى — سليمان — عبد الرحمن الرابع — محمد الثانى — هشام الثالث — تولية هشام الثانى — الحاجب المنصور — مؤامراته — قبضه على

صفحة

السلطة — انتصاره على قبائل النصارى — وفاته — خلافة ابنه المظفر — حكومته — وفاة المظفر — الحاجب عبد الرحمن — المهدى — تنازل هشام الثانى عن العرش — الفتك بالمهدى — ثورة قرطبة ٤٤٢

الفصل التاسع والعشرون

العرب فى أسبانيا (تتمة)

٤٢٨ — ٨٧١ هـ (١٠٣٧ — ١٤٦٦ م)

ملوك الطوائف — انقساماتهم ومنازعاتهم — توسع سلطان النصارى — الملثمون أو المرابطون — يوسف بن تشفين — موقعة زلاقة — وفاة يوسف بن تشفين — ولاية ابنه على — وفاته — تدهور سلطان دولة الملثمين — الموحدون — عبد المؤمن — أبو يعقوب يوسف — أبو يوسف يعقوب (المنصور) — موقعة الأرك — وفاة يعقوب — ولاية محمد الناصر — موقعة العقاب — انهيار دولة الموحدين — ظهور بنى الأحمر — مملكة غرناطة ٤٨٤

الفصل الثلاثون

العرب فى الأندلس (تتمة)

٨٧١ — ١٠١٦ هـ (١٤٦٦ — ١٦١٠ م)

الكفاح الأخير — حصار غرناطة — تسليم غرناطة — غدر فرديناند وإزابلة — اضطهاد مسلمى أسبانيا — إخراجهم — العرب يفقدون أسبانيا ٤٦٣

الفصل الحادى والثلاثون

نظرة عامة

مملكة غرناطة — مدينة غرناطة — الحمراء — الزهراء — الفنون والعلوم فى غرناطة — الملابس — نظرة عامة فى أسبانيا تحت حكم العرب — الحكومة — الإدارة — الحالة الاقتصادية — الصناعة — الزراعة — الفنون الجميلة — العلم — مركز النساء — الأديبات والمثقفات — الملاهى ٤٧٥

الفصل الثانى والثلاثون

العرب فى أفريقيا

١٦٩ — ٥٦٧ هـ (٧٧٥ — ١١٧١ م)

دولة الأدارسة — الأغالبة — غزو صقلية — احتلالها — سقوط دولة الأغالبة — الفاطميون — احتلال مصر — تأسيس القاهرة — احتلال الشام والحجاز واليمن — تدهور الدولة الفاطمية — انقراضها — محفل الإسماعيلية الأكبر ٤٨٧

مقدمة المؤلف

من بين شعوب العالم الذين انساحوا فى القارات الفسيحة وتركوا آثاراً تدل على عظمتهم وأثروا فى الفكر الإنسانى بالاكتشافات التى توصلوا إليها، يعد الشعب العربى أحدث هؤلاء عهداً؛ ولا جرم أن أوروبا الحديثة لا تزال تسير على هدى تراثهم الزاخر بشتى العلوم والفنون. ولكن مما يؤسف له حقا أن تاريخ هذا الشعب المجيد تقتصر دراسته فى الغرب على المستشرقين والمتخصصين ولعل ذلك يرجع فى الأصل إلى قلة المصادر الموضوعة فى اللغات الأوربية.

ولهذا رأيت أن السبيل الوحيد لإلفات نظر الغربيين اكتساب عطفهم واستثارة اهتمامهم هو أن أتقدم إليهم فى هذا الكتاب بشرح وافٍ عن حالة ذلك الشعب الاجتماعية وتطوراته الاقتصادية والسياسية علاوة على ذكر وقائعه الحربية. ولعلى بذلك أكون قد وفقت إلى إزالة التعصب الأعمى الذى أوجدته الحروب فى العصور السالفة.

كذلك سيجد القارئ أنى ألفت فصول هذا الكتاب على تلك الأسس واضعاً نصب عينى وصف الحركة الأدبية والأخلاقية وأنظمة الدول المتعاقبة والعوامل التى أدت إلى سقوطها.

وسيجد أيضاً أننى لم أتبسط فى تاريخ ما قبل الإسلام (الجاهلية) ولا فى عهد الرسالة، بينما أسهبت بعض الإسهاب فى سرد الحوادث فى زمن الجمهورية وعهد الدولة الفاطمية وغيرها من العهود، كما عقبت على كل عصر بنظرة إجمالية فى كافة المناحى الاجتماعية والإدارية والسياسية وما إلى ذلك.

المؤلف

الفصل الأول

بلاد العرب — جغرافيتها وحالتها الطبيعية — العرب القدماء

بلاد العرب
جغرافيتها وحالتها الطبيعية

بلاد العرب شبه جزيرة مترامية الأطراف ، واقعة فى الجنوب الغربى من آسيا ، تحدها من الشمال بادية الشام ، ومن الشرق خليج فارس ، ومن الجنوب المحيط الهندى ، ومن الغرب البحر الأحمر ، وتنقسم تلك الرقعة الفسيحة التى تبلغ مساحتها ضعفى مساحة فرنسا — حين كانت فى أوج عظمتها — إلى عدة أجزاء أو أمصار ، يختلف بعضها عن البعض الآخر — قليلا أو كثيراً — من حيث التربة والمناخ وأحوال السكان .

كذلك يقع فى شماليها القسم المكون من التلال حيث كانت تسكن فى الأزمنة القديمة قبائل الأدوميين والمديانيين الذين جاء ذكرهم فى التوراة ، كما يلى ذلك القسم سهول الحجاز ، ومن أهم مدنه « مكة المكرمة » مسقط رأس النبى (صلى الله عليه وسلم) ، و « المدينة المنورة » أو « يثرب » كما كانت تسمى من قبل ، وميناء جدة وهى ثغر الحجاج المسلمين . ويمتد ذلك الإقليم من الشمال إلى الجنوب بين البحر الأحمر وبين سلسلة الجبال الممتدة من خليج السويس إلى المحيط الهندى .

أما الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة ، فتعرف ببلاد اليمن ويطلق اسم « تهامة » على سهول الحجاز واليمن كما يقصر هذا الاسم أحياناً على جنوبى الحجاز .

كذلك تقع حضرموت فى شرقى اليمن على ساحل المحيط الهندى ؛ كما تقع عمان فى منتهى شرقى حضرموت وتشرف على الخليج المسمى باسمها . أما « الأراضى

المرتفعة » الممتدة من جبال الحجاز شرقاً حتى صحراء الأحساء والبحرين على الخليج الفارسي فتسمى بلاد « نجد » ، وهى أرض واسعة ذات أغوار وصحارى رملية ، مبثوثة فيها مزارع مزهرة تسمى بالواحات وتشكل عدة موانئ أمينة فى الصحراء . وليس بهذه الرقعة الفسيحة أنهار صالحة الملاحة ، إنما يوجد فيها نهيرات وسهول قليلة مبعثرة هنا وهناك ، حيث تخصب التربة ويندر المطر ، ولذلك كانت قاحلة مجدبة ، اللهم إلا حول الأمواه حيث تتوفر الخصوبة .

ويطلق على أرض « اليمن المرتفعة » اسم جبال اليمن ويكاد يبلغ ارتفاعها ارتفاع جبل « مونت بلانك » . وهى تنشطر إلى عدة أودية فسيحة خصبة يزرع فيها البن والنيلة والنخيل وصنوف الخضر وأشجار الفاكهة على أنواعها . ومناخها معتدل بالرغم من وقوع الجليد فى الشتاء وحلول موسم المطر فى فصلى الخريف والربيع .

أما الحجاز فبلاد وعرة كثيرة الأنجاد والوهاد ، وبخاصة فيما جاور « مكة » الواقعة على بعد خمسين ميلا من ساحل البحر الأحمر ، وحوالى ثلاثين ميلا من روابى جبل القرى الغرانيتى . وفى ذلك القطر تتكشف الطبيعة عن أبرز أوصافها حيث الصخور الجرداء التى تسطع عليها أشعة الشمس المتلظية ، والقيعان الجافة ، والأودية المقفرة ، يعلوها الكلأ القليل الذى ترعى فيه الأنعام فلا تكاد تنال كفايتها . بينما يقع فى شرقيها صقع باسم يطلق عليه اسم « الطائف » مزدهر بالخضر وأشجار الفاكهة كالتفاح والتين والرمان والخوخ والعنب .

العرب القدماء

استوطن جزيرة العرب فى مختلف الأزمنة أجناس متنوعة ، ويقال : إن أول من نزح إلى تلك البلاد قدم من الأصل الذى ينتمى إليه الكلدانيون القدماء ، وكانوا قد بلغوا شأواً عظيما فى الحضارة لا تزال آثارها باقية حتى اليوم فى جنوبى الجزيرة . ومن المظنون أنهم بسطوا سلطانهم على مصر والجزيرة كما يظهر أنهم كانوا قد بنوا قصوراً شامخة ومعابد ضخمة ، وإليهم يعزى تشييد

« سد مأرب » الذى لا يزال قائماً حتى اليوم بالقرب من عدن .

القحطانيون

وقد قضى على هؤلاء القوم قبائل من الجنس السامى كانت قد نزحت مما يلى الفرات شرقاً ونزلت باليمن و بعض أنحاء « حضرموت » . و يقال : إن تلك القبائل ترجع فى نسبها إلى قحطان أو « جوتان » وقد أطلق اسم أحد أولاده المدعو « يعرب » على تلك البلاد وأهلها ؛ كما تسمى ملوك تلك الدولة « بالسبئيين » نسبة إلى حفيد « يعرب » عبد شمس الملقب « بسبأ » و يجب أن نذكر أن ملوك قحطان كانوا غزاة فاتحين نالوا شهرة واسعة فى تشييد المدن ، وظلت دولتهم قائمة فى اليمن و بعض أنحاء بلاد العرب حتى القرن السابع الميلادى .

الإسماعيليون

و يعرف آخر من استوطن تلك البلاد بالإسماعيليين نسبة إلى « إسمعيل » ولد « إبراهيم الخليل » الذى عاش فى مكة ، ثم انتشر أولاده وأحفاده فيما بعد فى أنحاء الحجاز ، وهؤلاء فى الواقع هم مشيدو مجد الجزيرة ؛ ويقال إن « إسماعيل » [1] هو الذى شيد الكعبة التى يقدسها العرب منذ أقدم الأزمنة ، وهى تعد الآن أقدس بقعة فى العالم الإسلامى ، كما يوجد فيها الحجر الأسود المشهور .

الأعراب

و ينقسم العرب عامة إلى قسمين : حضر وهم سكان المدن ، وبدو وأولئك هم الذين يقيمون فى البادية فى مساكن من بيوت الشعر ، و يهيمون مع أنعامهم وأسرهم فى الصحارى والهضاب انتجاعا للمرعى . و يظهر أن شمالى بلاد العرب ووسطها لم يقعا تحت سيطرة الأجانب فى أى وقت من الأوقات ، إنما اليمن وحدها هى التى عنت لسلطان الأحباش ردحا من الزمن ، حتى قيض لها أحد رؤساء القبائل العربية المسمى « بسيف بن ذى يزن » فأجلاهم عن البلاد بمساعدة ملك الفرس الذى ولى عليها حاكما فارسيا يسمى « بالمرزبان » لمدة قرن أو أكثر .

دياناتهم

وقد بقى المسيحيون واليهود ، الذين استوطن عدد كبير منهم فى بلاد العرب على دينهم ، أما العرب أنفسهم فكانوا على الأغلب يعبدون الأوثان والنجوم . وكان لكل مدينة ولكل قبيلة آلهتها ومعابدها . وفى مكة وحدها — التى كانت تعتبر مركزاً للحياة الاجتماعية فى بلاد العرب — بلغ عدد الأصنام المنصوبة حول الكعبة المقدسة ٣٦٠ صنما تمثل جميع الآلهة التى يعبدونها ؛ كذلك كان تقديم القرابين البشرية عادة مألوفة بينهم .

وكان العرب المستوطنون فى تلك البلاد الفسيحة وبخاصة الرحّل منهم ، الذين يهيمون فى البادية الممتدة إلى غربى الفرات يعرفون عند اليونان والرومان باسم « سراسين » وهو الاسم الذى أطلقه عليهم الغربيون عند ما نزح أولاء من أوطانهم لتدويخ العالم . ومن المظنون أن عبارة « سراسين » مشتقة من كلمة « صحارى » وكلمة « نازحين » أو من كلمة « شرقيين » فحسب .

أسواق العرب[1]

اتفق العرب فيما بينهم على جعل أربعة أشهر حُرُما ، تبطل فى خلالها المنازعات ، وتحتقن الدماء ، وقد استغلوا هذه السانحة واستعملوها لتبادل المتاجر ، وعقدوا أسواقا كعكاظ وذى المجاز للمباراة فى ميدان الفصاحة شعراً ونثراً ، فتقاربت أفكار العرب ولهجاتهم ، وأخذت لغة قريش تسود غيرها من اللغات حتى نزل القرآن الكريم بها وأصبحت اللغة الأدبية والرسمية .

(١) قد أضفنا هذه الفقرة إلى الكتاب إتماما للبحث .

(المعرب)

الفصل الثانى

التاريخ القديم — قصىّ — عبد المطلب — سطو الحبشة —
المولد النبوى — رسالة النبى (ص) — الهجرة

التاريخ القديم

يستقى المؤرخون معلوماتهم عن التاريخ القـديم لجزيرة العرب من مصدرين هامين :

(١) القرآن الـكريم .

(٢) الرواية الشفوية التى من عادة العرب فى جميع الأزمنة أن يتناقلها الخلف عن السلف .

وقد اهتم المؤرخون منذ القرن الثامن الميلادى وما بعده بجمع شتات تلك الآداب والروايات بالرغم من الصعوبات التى كانت تجابههم فى ذلك السبيل ؛ كما أن النقوش التى اكتشفها الأثريون فى جنوبى اليمن ، والرموز التى استطاعوا حلها فيما بعد تؤيد إلى حد بعيد تلك المعلومات والروايات .

قريش

والشعب الذى نعنى خاصة بدرس تاريخه ونتتبع تطورات حياته هو عرب الحجاز واليمن ، الذين حازوا منزلة سامية فى العصور الوسطى ، وقد اشتهرت من بين تلك القبائل قبيـلة « قريش » المتحدرة من « فهر » الملقب « بقريش » ومعناها « تاجر » فى اللغة العربية القديمة ، وهو من أولاد « معد بن عدنان » من نسل إسماعيل عليه السلام ؛ وقد كانت هاته القبيلة تفتخر دائما بنسبها ، وتعتبر نفسها أشرف جميع القبائل العربية على وجه الإطلاق .

قصىّ

وفى القرن الخامس الميـلادى تغلب « قصىّ » على أمر « مكة » وأصبح زعيم الحجاز دون منازع ، ولم تـكن « مكة » فى الواقع حتى أوائل حكمه غير

قرية حقيرة مؤلفة من عدة أكواخ وخيم مبعثرة هنا وهناك ، فأعاد بناء الكعبة وشيد داراً خصص بهوها الكبير للشورى حيث يجتمع كبار قريش للتشاور فى أمورهم . ومن مآثره أيضاً أنه حمل شعبه على تشييد منازلهم بالحجارة حول الكعبة كما سن القوانين لحكمهم حكما صحيحاً ، وجمع الضرائب وعين السقاية والرفادة للحجاج الذين كانوا يؤمون مكة من أنحاء الجزيرة فى أوقات الحج .

عبد الدار

ولما توفى « قصى » عام ٤٨٠ م ، ولى بعده ابنه « عبد الدار » الذى حمل لواء الزعامة ردحا من الزمن حتى أدركته منيته ، فنشب خلاف شديد بين أحفاده وبين أولاد أخيه « عبد مناف » حول من يتولى الحكم من بعده ، بيد أنهم أجمعوا أمرهم فيما بعد على حسم الخلاف بطريق اقتسام السلطة بينهم فجعلوها على النحو التالى :

(١) السقاية والضرائب لعبد شمس أحد أولاد عبد مناف .

(٢) السدانة والندوة والعقاب لأحفاد عبد الدار .

هاشم بن عبد المطلب

ولكن لم تكد تمضى مدة وجيزة حتى تنازل عبد شمس عن الزعامة لأخيه « هاشم » ، الذى كان تاجراً ثريا مشهوراً بإكرام الضيف واستقلال الشخصية ، غير أنه لم يلبث أن لاقى حتفه عام ٥١٠ م فآلت الزعامة من بعده إلى أخيه « مطلب » الملقب بالكريم . وقد توفى هذا أيضاً فى أواخر عام ٥٢٠ م فخلفه ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم .

أمية

وبالرغم مما كان يتمتع به أحفاد عبد الدار من السعة والثراء فقد حسدوا بنى هاشم على رفيع مكانتهم وحاولوا أن ينتزعوا حكم مكة منهم ويستأثروا بالحكم دونهم ، فانحاز إليهم فى سبيل تحقيق تلك الغاية « أمية بن عبد شمس » الطموح النفس ، ولكن عبد المطلب برغم هذه المحاولات تمكن من الاحتفاظ بالزعامة نظراً لما كان يتمتع به من سمو المكانة وعلو الهمة ، فظل مضطلعاً بأعباء

الحكم فى مكة زهاء تسع وخمسين سنة ، يساعده فى تصريف الأمور رؤساء الأسر العشر الشهيرة .

عام الفيل

وفى عهد « عبد المطلب » أغار على الحجاز جيش جحفل من الأحباش بقيادة « أبرهة » الذى كان فى خلال زحفه على مكة يمتطى فيلاً ضخما لم يكن للعرب عهد به من قبل ، فعرف عام ٥٧٠ م الذى وقع فيه هذا الغزو « بعام الفيل » ؛ ولكن القوة المغيرة لم تلبث أن هلكت عن بكرة أبيها نظراً إلى انتشار مرض وبأى بين الجنود من جهة ، وإلى هبوب رياح شديدة وهطول أمطار غزيرة من الجهة الأخرى .

محمد (ص)

وقد كان « لعبد المطلب » أبناء وبنات كثيرون اشتهر منهم فى تاريخ العرب أربعة هم : عبد مناف الملقب « بأبى طالب » ، و« العباس » جد الخلفاء العباسيين ، و « حمزة » ، و « عبد الله » ، كذلك كان له ابن عم آخر اسمه « أبو لهب »[1] ذكره القرآن الكريم لاضطهاده المسلمين . أما عبد الله أصغر أولاد « عبد المطلب » فهو أبو النبى العربى تزوج من آمنة بنت وهب إحدى فتيات يثرب ، ووافته منيته وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، وبعد وفاته بأيام وضعت[2] آمنة ولدا أسماه جده « محمداً » ولكنها ماتت عنه طفلا فى السادسة من عمره فكفله جده الكهل الذى قبضه الله عام ٥٧٩ م . وكان قد أوصى به قبل وفاته إلى « أبى طالب » الذى خلفه فى حكم مكة ، فقضى « محمد » صلى الله عليه وسلم فى بيت عمه عهد الطفولة ، وكان رضىّ الشمائل ، رقيق الحاشية ، مرهف الحس ، فياض القلب ، محبوباً من إخوانه ومعارفه القليلين ، ولكنه مع ذلك لم يستمهد الراحة فى صباه ، إذ لم يكن عمه ثريا كأسلافه ، فقام بنوه وابن أخيه « محمد » برعاية الغنم .

(١) يقول فيه تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » . (المعرب)

(٢) ٢٩ آب سنة ٥٧٩م .

وكان (صلى الله عليه وسلم)[1] منذ صباه ينزع إلى التأمل والتفكير، فسافر مرتين مع عمه «أبي طالب» إلى الشام حيث شاهد بنفسه ما كان عليه أهلها وقتئذ من الانحطاط الخلق والانقسام فى الدين، ولخمس وعشرين سنة من مولده تزوج من خديجة المشهورة فى تاريخ العرب بنبل أخلاقها وحميد خصالها. فولد لها عدة أولاد، توفى الذكور منهم فى سن الطفولة. أما البنات فقد أمد الله فى أعمارهن حتى رأين جسام الحوادث التى تخللت حياة أبيهن، وقد تزوجت صغراهن «فاطمة» الملقبة «بالزهراء» من على بن أبى طالب، وكانت آية فى الجمال والذكاء والظرف، ولهذا سميت «بالزهراء».

قضى «محمد» صلى الله عليه وسلم بعد زواجه خمسة عشر عاما فى حياة هادئة، لم يظهر خلالها فى الحياة العامة إلا مرة أو مرتين: الأولى لإحياء المجلس القديم «دار الندوة»، الذى كان قد تأسس فى الأصل لإنصاف المظلومين، وإيواء الغرباء، وحماية الأرامل والأيتام. والمرة الثانية: لكى يحسم النزاع[2] الذى كان قد نشب بين زعماء العرب، وكاد يؤدى إلى نتائج خطيرة، لولا سرعة خاطره وحدة ذكائه.

ومع أن هذا هو كل ما نعرفه عن حياته الأولى، إلا أننا نعلم علم اليقين أن وداعته وطهارة قلبه وحبه للواجب وأمانته كلها أكسبته محبة مواطنيه حتى لقبوه «بالأمين»، وكان من أخص صفاته كلفه بالصغار الذين كانوا كلما رأوه التفوا حوله فرحين مهللين. ويقال إنه لم يكن ليمر بهم قط دون أن يحييهم بابتسامته الوديعة؛ كذلك كان يقضى شهراً واحداً من شهور السنة فى عزلة التأملات

---

(١) لقد كان سيدنا محمد (ص) أكرم الناس خلقاً، متواضعاً، حليما، كريماً، شهماً، غيوراً، مقداماً، جلداً، بعيد النظر، عادلا، متسامحاً؛ ولقد أجمل القرآن الكريم وصفه فى قوله: «وإنك لعلى خلق عظيم». (المعرب)

(٢) اختلف أشراف مكة أيهم يضع الحجر الأسود مكانه فى الكعبة فحكم الرسول بينهم وأرضاهم بأن وضع الحجر فى ردائه وطلب إليهم جميعاً أن يرفعوا الرداء. (المعرب)

الروحية فى غار « حراء » بضواحى مكة . ومن المعلوم أنه بينما كان نائما ذات ليلة فى ذلك الغار خاطبه[١] ربه أن يقوم وينذر الناس ، ومنذ ذلك الحين قصر حياته على انتشال الناس من دركات الهوان وحضهم على ترك الشرور والآثام ، وتعليمهم ما لهم وما عليهم من الواجبات .

الرسالة

وكان أول من آمن برسالته زوجته « خديجة » ، ثم على بن أبى طالب ، وأبو بكر ، وحمزة ، وعثمان ؛ ولكنه ما كاد يجهر بالدعوة حتى سخرت منه قريش ، وطفقت تسومه صنوف العذاب ، وتفتك بأتباعه حتى اضطر بعضهم أن ينزح إلى الحبشة ، بينما ظل البعض الآخر يلازمه متحملا فى ذلك كل أذى بصبر جميل . وعلى أثر وفاة « أبى طالب »[٢] و « خديجة » من بعده بالغت قريش فى اضطهادها حتى يئس الرسول من أن يصيب نجاحا بينهم وحول وجهه شطر الطائف ، غير أن أهلها حصبوه فعاد أدراجه حزيناً مهموما ، وراح يقصر همه على الأعراب الذين كانوا يؤمون « مكة » فى أوقات الحج لعله يجد بينهم من يستمع إلى قوله فتكلل سعيه بالنجاح ، وآمن به نفر من أهل يثرب ، ثم بايعوه على الإسلام على ألا يشرك أحدهم بالله شيئاً ، ولا يسرق ، ولا يزنى ، ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ، ولا يعصيه فى معروف فإن وفى ذلك فله الجنة ، وإن غشى من ذلك فأمره إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر[٣] . وعندما رجع هؤلاء إلى مدينتهم طفقوا يذيعون خبر ظهور

(١) نزل عليه الوحى يناديه : « اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئ ، فكررها عليه مرتين ، ثم قال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » . (المعرب)

(٢) كانت قريش قد شكته إلى عمه أبى طالب فنصح له . فقال الرسول : « والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . (المعرب)

(٣) لقد تحدته قريش بأن يأتى بالمعجزات فنزل قوله تعالى : « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم القرآن وهو أقوى =

ذلك النبي الجديد الذى جاء لهدايتهم . وفى عام ٦٢٢ م عند حلول موسم الحج أرسلوا إليه وفداً يدعوه للعيش بين ظهرانيهم فأثارت تلك الدعوة سخط قريش وزادت فى لهيب المنازعات التى كانت تستعر وقتئذ بين المدينتين ، وفر عدد غير ضئيل من المؤمنين إلى يثرب ، فراحت قريش تدبر مؤامرة لاغتيال الرسول (ص) وكان قد تخلف فيها مع أبى بكر وعلى بن أبى طالب ، ولكنه ما أن علم بما بيتوا له حتى أسرع هو وأبو بكر إلى غار[1] على مقربة من مكة ، كذلك كان قد أوعز إلى « على » أن ينام فى فراشه لكى يضلل الأعداء ويؤخرهم عن اللحاق به . فلما بلغهم خبر فراره استشاطوا غضباً ، وراحوا يبثون العيون والأرصاد للقبض عليه ، ولكنه أقام هو وصاحبه بالغار يومين كاملين ؛ وفى اليوم الثالث ركبا راحلتين إلى يثرب ، فوصلاها يوم الجمعة ٢ تموز سنة ٦٢٢ م ، وبعد قليل لحق بهما « على » ، وقد أرخ المسلمون سنتهم بالهجرة ، وأصبحت تدعى السنة الهجرية .

الهجرة

= معجزاته وبلغ من غلو قريش فى العناد والجحود أن قالوا بلسان القرآن : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أوائتنا بعذاب أليم » . (المعرب)

(١) وفى مطاردة قريش « لمحمد » وفى قصة الغار نزل قوله تعالى فى سورة التوبة : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ؛ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » . (المعرب)

الفصل الثالث

هجرة النبي — الفتن فى المدينة — الوثيقة
١ — ١٠ هجرية (٦٢٢ — ٦٣٢ م)

المدينة

استقبل أهل يثرب « محمداً » صلى الله عليه وسلم وأصحابه المهاجرين استقبالا حماسيا منقطع النظير ، واستبدلوا اسم « يثرب » باسم مدينة «النبي» التي عرفت فيما بعد باسم المدينة على سبيل الاختصار . وتقول لنا الرواية العربيـة إن النبي (ص) لما استقر بها شيد فيها مسجداً من الآجر والتراب ، وسقفه بسعف النخيل . ومن المأثور أنه عمل أيضاً بيـديه الـكريمتين فى بناء ذلك المسجد المتواضع الذى أخذ يبشر فيه بدين الفطرة الجديد ، كذلك لم يكتف بتعليم الناس عظمة الخالق ووحدانيته فحسب بل راح أيضاً يضع الدساتير الأخلاقية السامية ، ويبشر بالأخوة والبر باليتامى وأبناء السبيل .

وثيقة النبي

وفى تلك الآونة كان يسكن « يثرب » الأوس والخزرج وهما قبيلتان كان الخلاف قد استحكم بينهما منذ عهد بعيد ، فلم يلبث الرسول أن قضى على تلك البغضاء القديمة ، وأطلق على أهل المدينة الأصليين اسم الأنصار ، كما أطلق على المـكيين الذين وفدوا معه اسم « المهاجرين » .

ولا يخفى أن العرب لم يكن لهم فى ذلك الحين نظام أو قانون ، بل كانت الجزيرة تعصف بها ريح الخصومات والمنازعات ، وتعيث فيها الفتن والفوضى ، فأقدم محمد (ص) على وضع نظام ثابت للمدينة ، وأسس إدارة [1] قوية الدعائم

(١) وضع الرسول أساساً للحضارة الجديدة وتتلخص فيما روى عن على بن أبى طالب أنه سأل رسول الله عن سنتـه فقال : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيق ، والعلم =

كما وضع الصحيفة التى قضى فيها على الفوضى والشحناء ، وساوى اليهود الذين كان يعيش منهم عدد غير قليل فى المدينة وضواحيها ، بالمسلمين فى الحقوق على أن ينصروهم على أعدائهم .

وفى هذه الظروف التى جئنا على ذكرها أصبح « محمد » (صلى الله عليه وسلم) لا داعياً للدين الجديد فحسب ، بل رئيساً أعلى للمدينة التى دعاه أهلها إلى العيش بين ظهرانيهم ، ووكلوا إليه حمايتهم ، فاتجه همه فى مبدإ الأمر إلى القضاء على الخصومات ، ولكن ما هى إلا برهة حتى سخط المكيون على أهل المدينة لإيوائهم الرسول وأتباعه الذين كانوا فى نظرهم شرذمة قليلة من الثوار ، واستحكم الخلاف بين الفريقين حتى نشبت أول معركة بينهما فى واد يقال له « بدر » على بضعة أميال من المدينة ، فانهزم المكيون شر هزيمة تاركين وراءهم عدداً غير قليل من الأسرى الذين أحسن المسلمون معاملتهم .

وقعة بدر

سنة ثلاث هجرية
٢٦ نيسان
٦٢٤ م

انقضت السنة الثانية فى هدوء تام ، فيما عدا مناوشات طفيفة قام بها أهل مكة على المدينة ؛ فلما كانت السنة الثالثة أغار « أبو سفيان » بن حرب بن أمية أعظم منافسى بنى هاشم على أطراف المدينة فى قوة كبيرة من قريش وحلفائها ، وكان المسلمون الذين تقدموا لصدهم قليلى العدد ، فنشب القتال بين الفريقين على سفح (جبل أحد) ومنى فيه المسلمون بهزيمة منكرة ، غير أن خسارة المكيين كانت فادحة بحيث لم يستطيعوا إعادة الكرة على المدينة فانسحبوا إلى مكة ، وأخذ اليهود الذين كانوا لا يزالون يقيمون فى المدينة وفى القرى المحصنة فى ضواحيها يثيرون الفتن والقلاقل حتى أصبحوا عنصراً خطراً على الدولة الناشئة ، كذلك كان نفر منهم يتجسس لحساب المكيين ، وكثيراً ما نجم عن مكائدهم

= سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة » .

(المعرب)

ووشاياتهم إراقة الدماء ، فأمر النبي بإجلاء قبيلتين من تلك القبائل اليهودية وهما بنو قينقاع و بنو النظير وكانا يسكنان فى ضواحى المدينة .

وفى سنة خمس هجرية زحفت قريش فى عشرة آلاف رجل على المدينة ؛ ولما لم يستطع المسلمون أن يحشدوا أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل حفروا خندقاً أمام القسم المكشوف من المدينة ، واعتمدوا فى الدفاع فى الأقسام الأخرى على بنى قريظة ، وهى قبيلة يهودية بقيت على ولائها للمسلمين ؛ وكانت تملك عدة حصون فى جنوب المدينة غير أنها نقضت عهدها وانضمت إلى المكيين الذين كانوا يحاصرون المدينة ، ولكن النبي (ص) قاومهم مقاومة شديدة ؛ و يلوح أن العوامل الطبيعية كانت قد تضافرت مع المحصورين ضد القوة المغيرة إذ هطلت الأمطار وهبت العواصف فكفأت القدور وطرحت الأوعية وقتلت الخيول حتى تفرق شملهم .

بنو قريظة

وعندئذ رأى المسلمون أنهم لا يأمنون جانب تلك القبيلة اليهودية طالما هى تعيش بالقرب منهم إذ كان غدرها يؤدى حتما إلى تدمير المدينة فى أى وقت من الأوقات ، وفى الحال أمرهم النبي بالجلاء ، ولما رفضوا النزول على طلبه حاصرهم حصاراً شديداً حتى أجبرهم على الإذعان والتسليم دون قيد أو شرط ؛ غير أنهم عادوا وطلبوا أن يحكم فيهم « سعد بن معاذ » أحد الزعماء المشهورين وكان قد أصابته فى المعركة السابقة جروح شديدة مات على أثرها فى اليوم التالى . ومن سوء حظ تلك القبيلة أنها طلبت تحكيمه ؛ بالرغم مما عرف عنه من صعوبة المراس وقوة الشكيمة ؛ ولا سيا أن قلبه كان يضطرم سخطاً وموجدة عليها لغدرها الشائن فقضى عليها بقتل رجالها وسبى نسائها وأطفالها .

ولعل هذا الحكم يبدو الآن صارماً غير أنه لم يكن فى الواقع إلا شيئاً عاديًا إذا قيس بقوانين الحروب التى كانت نافذة فى ذلك الحين .

ومذ منيت « مكة » بهذا الفشل المريع أخذ الدين الجديد ينتشر و يمتد

سلطانه فى شبه الجزيرة كما أسرعت القبائل تقلع الواحدة بعد الأخرى عن شركها وتدخل فى دين (الإسلام)[1] أفواجاً .

وثيقة النبى

وفى سنة ستة هجرية أعطى النبى (صلى الله عليه وسلم) رهبان دير « سان كترين » خصوصاً والنصارى عموماً وثيقة تعتبر آية من آيات التسامح والتساهل وهى تنص على رعاية حقوقهم وعلى منحهم الامتيازات والوفاء لهم بالعهود ، وقد ألزم فيها المسلمون الذب عن النصارى وحمايتهم من الأذى وصيانة كنائسهم وأسقفياتهم ، وألا يحملوهم بالخراج إلا ما طابت له نفوسهم ، وألا يخرجوا أسقفا من أسقفيته ، ولا راهباً من رهبانيته ؛ وألا يحولوا بينهم و بين هوى دينهم ، وألا يمنعوا حاجا من أداء فريضة الحج ، وألا يهدموا كنائسهم أو بيعهم ، وألا يدخلوا من مال كنائسهم فى بناء مساجدهم ، وألا يحملوا على الرهبان والأساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة ، وأن يعاونوهم فى إصلاح الكنائس والأديرة ويحفظونهم تحت جناح الرحمة ويكفوا عنهم أذية المكروه حيثما كانوا وحيثما رحلوا .

البعوث إلى الخارج

كذلك بعث النبى (ص) وفوده إلى إمبراطور الروم وملك الفرس يدعوهما إلى الإسلام فأحسن الأول استقبال الوفد بينما أساء الثانى معاملته ؛ كذلك أرسل وفداً آخر إلى أحد أمراء النصارى التابعين للدولة البيزنطية على مقربة من دمشق فسخط الأمير عليه وفتك به .

وقعة خيبر

وفى سنة سبع هجرية ثار يهود خيبر على المسلمين بيد أن النبى قمع ثورتهم فى الحال ولكنه أقرهم على أراضيهم وأملاكهم ودينهم ، على أن يدفعوا الجزية للمسلمين عن يد وهم صاغرون ، ثم عقد مع أهل مكة عهداً يسمح فيه للمسلمين بزيارة الكعبة و بموجبه أخلى السكان بلدهم حتى لا يحتكوا بالمسلمين ،

---

(١) الإسلام معناه السلام ؛ ولذلك جعل مقابلا للجهل وهو السفه . ويؤيد هذا المعنى تفسير الرسول (ص) للمسلم بأنه من سلم الناس من يده ولسانه . (المعرب)

و بعد ثلاثة أيام عاد كل إلى بلده ؛ ولكن لم تكد تمضى برهة حتى هجم أهل مكة مع بعض حلفائهم على قبيلة محالفة للمسلمين ، وفتكوا بعدد غير قليل منها ، فأنفذ الرسول إليهم فى الحال جيشاً قدره عشرة آلاف مقاتل ؛ وفيما عدا مناوشات طفيفة دخل المسلمون مكة دون مقاومة . وهكذا رجع «محمد» (ص) ظافراً منتصراً إلى البلدة التى آذته وعذبته وأصبحت الآن تحت رحمته ؛ ولكنه مع ذلك نسى فى ساعة الظفر كل إساءة نالته وصفح عن كل أذى لحق به ؛ فأصدر أمره بالعفو العام عن أهل مكة[١] جميعاً . كذلك لم ينفذ حكم الإعدام إلا فى أربعة مجرمين كانوا قد حوكموا لجرائم ارتكبوها عند دخول القائد المظفر مدينة أشد الناس لدداً فى خصومته : وقد حذا الجنود حذوه ودخلوا جميعاً مكة بسلام دون أن يتعرض أحدهم بأهلها . وقد قيل بحق : « لا يوجد فى تاريخ الفتوحات على وجه الإطلاق فتح يعدو هذا الفتح المبين » ؛ وعندئذ أخذ أصحاب الرسول يحطمون الأصنام من غير ما شفقة ولا رحمة بمرأى ومسمع من المشركين ، فانبلج فجر الصدق وارتفع ذلك النداء الذى طالما ضحكوا منه وسخروا به يلعلع فى الفضاء قائلا : « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً » ألا ما أحقر هذه الأوثان التى لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرا . ! !

سنة الوفادة

وتعرف سنة تسع هجرية فى التاريخ الإسلامى بسنة الوفادة ، نظراً لقدوم عدد كبير من الوفود من جميع أنحاء الجزيرة تطلب اعتناق الإسلام ؛ فكان النبى (صلى الله عليه وسلم) يكلف كبار الصحابة وزعماء المدينة بإكرام مثواهم وإنزالهم فى ضيافتهم كما كان يردهم مكرمين إلى بلادهم مزودين بنفقات السفر ،

---

(١) لما قضى النبى (صلى الله عليه وسلم) طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة فوقف محمد على بابها وتكاثر الناس فى المسجد فخطبهم ثم سألهم يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل فيكم قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . ألا ما أجل العفو عند المقدرة ! وما أعظم هذه النفس التى سمت فوق الحق والانتقام وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الإنسان . (المعرب)

والهبات التى كانت تمنح لهم حسب درجاتهم الاجتماعيــة وكثيراً ما كان يعقد معهم الوثائق التى تضمن لهم الامتيازات ، ويرسل معهم المعلمين لــكى يفقهوهم فى فروض الدين ويطهروهم من رجس الوثنيــة ، وكان النبى (ص) دائماً يوصى هؤلاء الذين كان يرسلهم إلى مختلف الأمصار قائلا : « يسروا ولا تعسروا و بشروا ولا تنفروا ؛ وإنكم ستقومون على قوم من أهل الـكتاب يسألونكم ما مفتــاح الجنة فقولوا هو قول الحق وعمل الخير »[١] .

ولمـا توالت الوفود تترى على المدينة لاعتناق الإسلام وأحس النبى أن مهمته قد كملت ، وشعر بقرب منيته ، عزم على أداء فريضــة الحج . وفى الخامسة والعشرين من ذى القعدة سنة عشر هجرية (٢٣ شباط سنة ٦٣٢ م) سار يتبعه جمع زاخر إلى بيت الله الحرام فوصله فى ٨ ذى الحجة ، وقبل أداء جميع مناسك الحج اعتلى جبل عرفات ونادى فى الناس بهذه الـكلمات التى لا تزال مطبوعة على قلوب المسلمين كافة .

خطبة الوداع

« أيها الناس اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً .

أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا .

وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

وإن كل ربا موضوع (أى مهدد) ولـكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون .

قضى الله أنه لا ربا وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله .

---

(١) « شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » . (المعرب)

وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب .

أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه أن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ورجب مفرد ، الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة بينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً : كتاب الله وسنة رسوله .

أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه . تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم »[١].

---

(١) ثم نزل قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » . (المعرب)

وبعد أن عاد الرسول إلى المدينة وجه عنايتـه إلى تنظيم شؤون البلدان والقبائل وبعث عماله إلى الولايات لتعليم أهلهـا فروض الدين ، وجمع الزكاة ، والفصل فى المنازعات . وقد عرف فى أيام مرضه الأخيرة بهدوء البال ، وصفاء الذهن ، مما أعانه على أن يصلى بالنـاس رغم ضعف جسمه وانحلال قوته . وفى ذات ليلة قبيل وفاته ذهب إلى مقابر المسلمين حيث يرقد أصحابه القدماء فبكاهم واستغفر لهم وصلى عليهم ؛ ثم اختار أن يمرض فى بيت عائشة لقربه من الجامع وظل يصلى بالناس حتى شوهد فى المسجد لآخر مرة معتمداً على « على بن أبى طالب » و « الفضل بن العباس » . ولما فرغ من صلاته قال : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقر منى ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقر منه ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء فهى ليست من شأنى ؛ ثم دعا للحاضرين وترحم على الشهداء ودعا للمسلمين إلى التمسك بفرائض الدين والتعاون على البر والتقوى ؛ ثم ختم كلامه بقوله تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » . وعندئذ عاد إلى بيت عائشة [١] فأخذ يزداد فى كل لحظة ضعفاً ، وكأنه شعر بقرب المنيـة فتوجه إلى الله يدعوه الهون ؛ وبينما كان يبتهل ، ارتفعت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى ، وكان ذلك ظهر يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول عام ١١ هجرية والمصادف ٨ حزيران عام ٦٣٢م . وفى خلال السنوات العشر التى رأس فيها شؤون المسلمين ، تطورت أخلاق الشعب العربى تطوراً محسوساً إذ كان لبعث الوفود إلى مختلف القبائل والمدن للفصل فى الأمور

---

(١) وبعد وفاة خديجة تزوج النبي حسب العوائد العربية والطرق القبلية القديمة بعدة زوجات ليوحد العشائر المتنازعة من جهة ويعيل النساء من الجهة الأخرى ، أما عائشة فهى بنت صديق الرسول الحميم أبى بكر الذى أراد أن يوطد دعائم هذه الصداقة بالمصاهرة الـكريمة .

الداخلية والمنازعات القبلية ، تأثير وأى تأثير على القضاء على نظام الثأر القديم ، وتشجيع التجارة والصناعة . كذلك أدخلت فى تلك الفترة تغييرات ذات بال على نظام المعيشة ، وطراز الملبس ، ولا سيما الخاص منه بالنساء وأقلع الناس عن حرية الجاهلية الأولى واجتنبوا تعاطى الخمر والميسر ، وغدت الأخلاق تقاس بمعايير دقيقة صارمة وأفردت فى المنازل أجنحة خاصة بالنساء وهى عادة لم تكن مألوفة من قبل .

الفصل الرابع

الجمهورية

١١ — ٢٣ هجرية (٦٣٢ — ٦٤٤ م)

أبو بكر — تمرد الأعراب — الحروب مع الفرس والرومان — وفاة أبى بكر
الفتوح فى كلاة وما بين النهرين وفارس — هزيمة الرومان — الفتوح فى الشام
وفلسطين ومصر — موت عمر

أبو بكر

يستدل على تأثير شخصية النبى العربى (ص) على عقول أتباعه أن أحداً منهم لم يصدق لأول وهلة أنه قد مات ، وأنهم لم يستطيعوا أن يدركوا بسهولة أن الرجل الذى غير معالم شبه جزيرة العرب فى بضع سنوات هو عرضة للنواميس الطبيعية كغيره من الناس ، ولو أنه عاش فى عصر أكثر توغلا فى القدم ، أو لو كانت أقواله[1] التى يشير فيها إلى شخصه الكريم بعيدة عن التمسك بالمنطق العقلى ، لعده قومه على الأرجح فوق مرتبة البشر ، كذلك توهم البعض فى بادئ الأمر عند ما لحق بالرفيق الأعلى أنه فى غيبوبة بيد أن أبا بكر لما استيقن موته خرج إلى القوم وهدأ من هلعهم بقوله : « أيها الناس إن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » ثم تلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » .

---

(١) ولعل المثل الآتى أكبر دليل على ذلك وهو أن موت إبراهيم وافق كسوف الشمس فرأى المسلمون فى ذلك معجزة وقالوا إنها انكسفت لموته وسمعهم النبى « صلى الله عليه وسلم » فقال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة (المعرب)

وما أن انتهى من كلامه حتى أجهشوا جميعاً بالبكاء هلعاً وأسى على فقد نبيهم ؛ وعندئذ أثيرت مسألة من يخلف النبى (ص) فى خلافة المسلمين إذ لم يكن قد ترك قاعـدة معينة للانتخاب ، فانفسح بذلك المجال لوقوع الفتن ونشوب الخلافات ......

ليست رئاسة القبيلة عند العرب وراثية ، إنما هى انتخابية محضة ، يراعى فيها مبدأ الانتخاب العام بأجلى مظاهره ؛ ولجميع أفراد القبيلة حق إعطاء أصواتهم فى انتخاب رئيسهم ؛ ويجرى الاقتراع على أفراد أسرة الرئيس المتوفى على أساس الأسبقية فى السن والجاه . وقد روعيت تلك العادة القبلية القديمة فى انتخاب خليفة النبى ، إذ أن العجلة أوجبت الإسراع فى البيعة دون أى إبطاء فانتخب «أبو بكر» على جناح السرعة ، وقد كان يتمتع بتقدير العرب كافة نظراً لـكبر سنه وسمو مكانته بين أهل مكة ، كذلك كان رقيق القلب ، سديد الرأى ، فبايعه «على» وكبار آل البيت غيرة منهم على الدين ، وحبا فى توحيد كلمة المسلمين .

مبايعة أبى بكر

وعند ما تمت البيعة قام أمير المؤمنين خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخـيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن صدفت فقوموني ، الصـدق أمانة ، والـكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ؛ إن شاء الله لا يدع أحد منكم الجهاد ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، وأطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم» .

تمرد القبائل

ولم يكد ينتشر خبر وفاة الرسول (ص) خارج المدينـة حتى ثارت نفوس الأعراب الجامحة ، واشتد هلع المؤمنين المخلصين كما ارتدت بعض القبائل التى لم تتأثر بعد بأثر الإسلام ، وظهر كثيراً من المتنبئين[١] الأدعياء الذين كانوا قد

(١) من هؤلاء الأدعياء : طلحة ومسيلمة (المعرب)

ظهروا فى حياة النبى فى الجهات البعيدة ، وأضحى الدين الجديد فى خلال مدة وجيزة مقتصراً على المدينــة وحدها ؛ وهكذا أخذت « يثرب » على عاتقها من جديد أن تحارب القبائل العربية المرتدة إلى الوثنية . ويمكننا القول أن ارتدادهم عن الإسلام يرجع إلى سببين :

(١) المبادئ الأخلاقية الصارمة التى فرضها الإسلام فرضاً .

(٢) نفور العرب من أداء الزكاة .

ولـكن المسلمين بالرغم من نشوب الثورات حولهم فى أنحاء الجزيرة أظهروا رباطة جأش نادرة المثال ؛ إذ حملهم الإيمان والحماس مرة ثانية على بلوغ القصد مهما كلفهم الأمر ، فكان أول ما اعتنى به الخليفة بعد دفن الرسول أن نظم شؤون الإدارة وقاتل المرتدين . وكان النبى (صلى الله عليه وسلم) قبل وفاته بقليل قد أعد حملة على الشــام للقصاص من قتلة[1] البعثة الإسلامية ولـكنها توقفت عند ما علمت بمرضه ؛ فرأى الخليفة من مصلحة المسلمين أن يواصل العمل على تجهيزها ؛ ولا سيما عند ما بلغه خبر ارتداد قبائل الشمال بعد كارثة « مؤتة » التى قتل فيها زيد بن حارثة . وتنفيذاً لرغبة الرسول من جهة ، وتوطيداً للأمن فى الحدود الشمالية من الجهة الأخرى . أصر الخليفة على إرسال الحملة إلى الشام بالرغم من شــدة حاجته إليها وقتئذ ، ويقال إنه أوصى رئيسها أسامة بن زيد ، بقوله « لاتخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له فسيروا على بركة الله »

وفد أسامة

حروب الردة

وفيما كان « أسامة » يسير بجيشه إلى الشمال ، هجم بعض المتمردين على المدينة ولـكنهم ردوا على أعقابهم مثقلين بالهزيمة ، وتحدثنا الرواية العربية أن « أسامة » بالرغم من النصر الذى أحرزه فى الشــام أسرع إلى الحجاز لنجدة الخليفة الذى

---

(١) بنو غسان (المعرب)

تمكن الآن من إرسال « خالد » المعروف بالحنكة والبطش لإخضاع القبائل المرتدة ؛ فلم يلبث أن أخضع بعضها كما اشتبك مع البعض الآخر فى عدة معارك منى فيها الطرفان بخسائر فادحة ، ولكنه مع ذلك أوقع بقبيلة « بنى حنيفة » شر إيقاع فى موقعة « اليمامة » وفتك بزعيمها « مسيلمة » الكذاب . وبعد هذا النصر أخذت القبائل الأخرى تعود بالتدريج إلى حظيرة الإسلام .

الحروب مع الفرس

ويحدثنا المؤرخون أن حروب الردة فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة قد أدت إلى تصادم المسلمين مع القبائل الرحل الخاضعة لسلطان الحيرة التى كانت تدين وقتئذ بالطاعة والولاء لدولة الفرس . ولو ألقينا نظرة عجلى على خريطة آسيا لاستطعنا أن ندرك تماماً كيف نشأ فى بادئ الأمر ذلك النزاع الذى تطور بمضى الزمن وأصبح نضالاً مضطرماً فى سبيل تأسيس إمبراطورية واسعة الأطراف . فمن « حجر » فى الركن الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة على تخوم كلدة التى كانت عندئذ فى قبضة الفرس إلى غربى القسم الأسفل من الفرات يمتد صقع محدب هو أحد أجزاء صحراء العرب متجهاً إلى البحر الميت وإلى أرض حوران المرتفعة ، ثم يصعد شمالاً إلى تدمر وفى هذا الصقع كانت تهيم كما لا تزال تهيم حتى الآن قبائل رحل ، وهى وإن كانت قد بدلت أسماؤها ؛ إلا أن أخلاقها وعاداتها لم يطرأ عليهما أى تغيير . ومن المعروف أن معظم تلك القبائل كان يدين بالمسيحية فكان من يسكن منها فى الشام « كالغساسنة » خاضعاً للدولة البيزنطية ، ومن يقطن فى الجهة الشرقية « كبنى تغلب » يدين بالطاعة للفرس ؛ ولكنهم جميعاً كانوا مرتبطين بلحمة النسب وروابط الصداقة مع القبائل العربية المجاورة كما كان يسكن « دلتا الفرات » عرب مستوطنون نبذوا حياة البداوة جانباً ، وضربوا بسهم وافر فى الحياة الزراعية ، ولهذا كانت المعارك التى تنشب بين المسلمين وبين القبائل المرتدة الساكنة على الساحل الغربى للخليج الفارسى تترك أثراً عظيماً فى القبائل العربية الخاضعة للفرس . كذلك كانت كلما دارت معارك

فى الشمال قامت القبائل الأخرى بأخذ الثأر لإخوانهم العرب ؛ شأنهم فى ذلك شأن القبائل الهندية عند ما توغلت الجيوش الإنكليزية فى الهند .

أما المنطقة التى يرويها النهران العظيمان دجلة والفرات منذ أقدم العصور ، فقد كانت هدفا للملوك الذين يتطلعون إلى تشييد إمبراطورية مترامية الأطراف ؛ ولو ألقينا نظرة على خارطة تلك المنطقة لألفينا « دجلة » ينبع من جبال أرمينيا كما ينبع « الفرات » من أعالى طورسوس ، وكلاهما ينحدران جنوبا صوب خليج فارس حتى يتقابلا على بضع مئات من الأميال من البحر ثم يفقدان اسميهما ومعالمهما ، ويتخذان لهما اسماً جديداً هو « شط العرب » .

كذلك كان الجزء الأعظم من المنطقة المحصورة بين هذين النهرين يعرف فى العصور القديمة باسم الجزيرة (ميزوبوتاميا) ؛ أما القسم الأسفل وهو أرض غرينية مسطحة ، فكان يطلق عليه اسم بابل وكلدة ، ويسميه العرب (العراق العربى) . وعلى ضفاف هذين النهرين ازدهرت مدن كثيرة منها نينوى عاصمة ملوك آشور (الواقعة على نهر دجلة بالقرب من الموصل) و « المدائن » عاصمة ملوك الفرس و « بغداد » مقر الخلافة فى القرون الوسطى وعاصمة العراق الحديث . أما نهر الفرات فتقع عليها مدينة « بابل القديمة » و « الحيرة » و « الكوفة » التى شيدها العرب ، وقرقيسيا والرقة ، كما يقع فى شرقى جبال زاغروس فيما وراء دجلة « عراق العجم » الذى يتوسط بلاد فارس الحديثة .

ونعود الآن فنقول إنه لم تكد تنتهى حروب الردة فى شبه الجزيرة حتى اشتبك خالد بن الوليد والمثنى بن حارث الشيبانى فى معارك شديدة مع العشائر الساكنة فى جانب الحيرة انتهت بإخضاعهم .

سقوط الحيرة

كذلك اشتبك حاكم كلدة الفارسى فى معركة رائعة مع المسلمين على الحدود ولكنها أسفرت عن هزيمته . أما الحيرة فلم تلبث عقب مناوشة طفيفة أن أذعنت بالتسليم وحذا حذوها دهاقين كلدة فأبقاهم الخليفة على أراضيهم مشترطاً

عليهم دفع الجزية عن يد وهم صاغرون ، كما أقر الفلاحين على حالهم ، بيد أن استيلاء المسلمين على الحيرة أدى بحكومة الفرس أن تدرك الخطر المحدق بها من وجود دولة فتية متحمسة على حدودها . ولو كان الفرس وقتئذ قد أوتوا شيئاً من الحكمة و بعد النظر لعززوا حامياتهم الدفاعية ووطدوا دعائم إمبراطوريتهم التى كانت تعصف بها ريح الاضطرابات والفتن ، ولعلهم كانوا أيضاً يستطيعون التفاهم مع العرب ، إذ كانت دولتهم لا تزال على جانب عظيم من القوة وشدة البأس ، فقد كانت تتألف من بلاد إيران الحالية والبختيارية والولايات الصغرى فى أواسط آسيا إلى حدود الصين والهند ؛ كما كانت تبسط سلطانها على العراق والجزيرة ، بيد أن ملك الفرس حشد جيشاً كبيراً وأنفذه لإجلائهم عن كلدة ، وكان الخليفة فى ذلك الحين قد أرسل « خالداً » على رأس جيش كثيف إلى الشام ، كما أرسل « المثنى » على رأس قوة صغيرة إلى فارس ، ولكن هذا لم يلبث أن سحب مراكزه الأمامية وعاد مسرعاً إلى المدينة ليتفاوض مع الخليفة الكهل فى أمر تعزيز قوته فألفاه على فراش الموت . وفى ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ هجرية توفى أمير المؤمنين بعد أن بقى فى الخلافة سنتين ونصف سنة ؛ وكان ناصع بياض البشرة دقيق تقاطيع الوجه ، نحيف الجسم مع انحناء قليل . والمعروف أنه كان قبل أن يصبح أحد رجال الصحابة المقربين يتمتع باحترام قريش وتقديرها بصفة كونه أحد زعمائها المشهورين ؛ كذلك أكسبته ثروته الواسعة وكياسته الفذة نفوذاً عظيما عند أهل مكة . وكان كسيده بسيطا فى عاداته إلى أبعد حدود البساطة ، رقيق القلب مع صدق فى العزيمة . ومن المأثور عنه أنه قصر جميع أوقاته على إدارة شؤون الدولة الفتية ، ورفاهية شعبها . فكان يخرج خلسة أثناء الليل لإغاثة الملهوفين ، ومساعدة الفقراء والمعوزين . وظل مدة من الزمن بعد مبايعته بالخلافة يعيش من كسبه ، بيد أنه وجد أخيراً أن إدارة شؤونه الخاصة قد تشغله عن أمور الناس ؛ فرضى أن يتناول ٦٠٠٠ درهم سنويا من بيت المال .

ولما حضرته الوفاة أحس بشبهة فيما أصاب من أموال المسلمين فأمر ببيع قطعة أرض كانت له ودفع ثمنها إلى بيت المال .

ذلك هو المبدأ الأخلاقى النبيل الذى سار عليه أقرب المقربين إلى الرسول فى حياته ! !

وكان قد رأى قبيل وفاته أن يستخلف « عمرا بن الخطاب » فرضى المسلمون بمبايعته ، وتعد خلافة « عمر » ذات قيمة عظيمة للإسلام إذ كان الرجل ذا نسيج خلق وحده ، حازماً ، عادلا ، شديداً فى الحق ، وكان أول ما قام به بعد إعادة تنظيم الإدارة الداخلية فى شبه الجزيرة أن بعث الأمداد إلى « المثنى » ، وكان أول منتدب للمسير « أبو عبيد »[1] الذى تولى القيادة العليا عند وصوله ميدان القتال ، فاشتبك — من غير أن يستمع لنصيحة المثنى — فى معركة دامية فى موقع لا يصلح أبداً للقتال ودارت الدائرة على المسلمين كما جندل « أبو عبيد » قتيلا ، غير أن جند الفرس برغم انتصارهم لم ينتهزوا فرصة هذا الفوز الباهر ، وظلوا متمسكين بمواقعهم حتى حمل عليهم « المثنى » وسد عليهم منافذ النجاة فى موقع يسمى « بالبويب » على فرع يأخذ من غرب الفرات ، وأوقع بهم شر إيقاع ، ثم دخل « الحيرة » عنوة .

وفى تلك الأثناء اعتلى « يزدجرد » عرش دولة الفرس ، وكان شابا طموح النفس ، لم يوطد العزم على طرد العرب من الحيرة فحسب ، بل عقد النية أيضاً على اجتياح بلادهم ، فأرسل إلى كلدة جيشاً مؤلفاً من مائة ألف رجل لقتال المسلمين . فلما رأى « المثنى » قلة جيشه انسحب من كلدة إلى حدود الصحراء ، وراح ينتظر وصول الأمداد من المدينة .

واقعة القادسية

وفيما كان المسلمون يترقبون هجوم الفرس من حين لآخر إذ بهم يفقدون قائدهم الكبير الذى فتكت به حمى « كلدة » فتولى أمر القيادة من بعده « سعد

(١) هو أبو عبيد بن مسعود بن عمر الثقفى (الإصابة ج ٤ ص ١٣٠) (المعرب)

ابن أبى وقاص » ، وكان قد جاء على رأس قوة كبيرة لتعزيز جيش « المثنى » فبلغ بذلك عدد جند العرب ثلاثين ألفاً ، وظلت الحرب بين الفريقين سجالا مدة ثلاثة أيام أظهر فيها الطرفان بسالة منقطعة النظير ، وفى اليوم الثالث انتصر العرب عليهم وقتلوا قائدهم وأعملوا السيف فى رقابهم ، وبهذا قررت واقعة « القادسية » مصير كلدة والجزيرة ، فدخلها العرب ثانية دون مقاومة ، وفرضوا على أهلها الجزية عقاباً لهم على نكثهم العهود مع المثنى . وبعد أن تقبل « سعد ابن أبى وقاص » خضوع المدن الواقعة بجوار « الحيرة » زحف على بابل حيث كانت قد تجمعت فلول الجيش الفارسى بقيادة الفرزان والهرمزان ومهران . فدارت معركة رائعة بينه وبينهم أسفرت عن هزيمة الفرس وتمزيق شملهم ففر « مهران » إلى المدائن قاعدة ملكه ، وسار الهرمزان إلى الأهواز فيما وراء سلسلة جبال إيران ، كما اتجه الفرزان صوب « نهاوند » .

ولكن « سعداً » رأى أن الاستيلاء على كلدة لا يتم نهائيا طالما تعسكر جنود الفرس فى المدائن بقيادة مهران ، ولهذا زحف على عاصمة الفرس التى كانت فى موقعها تشبه بغداد ببعدها ١٥ ميلا من أعالى مجرى النهر . وكان القسم الغربى منها يسمى « سلوسيا » على اسم « سلوسيلة » أحد قواد الإسكندر المقدونى ، كما كان القسم الشرقى يسمى « استيسفون » أو « طاق كسرى » ؛ وقد سميت تلك العاصمة بالمدائن لكونها مؤلفة من مدينتين ، كذلك كانت قصور الملوك ودور الأشراف تجمع إلى الجمال وبهاء الرونق الترف والبذخ . وقد تأثر البسطاء بمشاهدة تلك المناظر الخلابة فى مبدإ الأمر ؛ وتقول لنا الرواية العربية إنه بعد أن حوصرت المدائن ردحا من الزمن اضطرت أن تفتح أبوابها صاغرة كما أعقب احتلالها خضوع المدن الواقعة فى غربى دجلة ، وقد صلى « سعد » صلاة الفتح مع الجند فى قصر كسرى أنو شروان .

والآن وقد أصبح « سعد » حاكما مدنيا عسكريا على العراق (ومن ضمنه

الجزيرة) فقد اتخذ المدائن مقرا لحكمه ونزل فى القصر الملكى كما خصص بعض أجنحته للدوائر الرسمية ؛ وكان يصلى بالمسلمين صلاة الجمعة فى الإيوان الكبير. ومن هذا القصر طفق يدير شؤون الولاية ؛ ولكن ما انقضت مدة وجيزة حتى رأى المسلمون أنفسهم مضطرين إلى امتشاق الحسام ، إذ أن ملك الفرس المقيم فى حلوان أنفذ جيشاً كثيفاً لاسترداد المدائن فتقابل الفريقان فى « جلولاء » على بعد حوالى ٥٠ ميلاً من الشمال الشرقى من العاصمة ، فتقابل الفريقان فى « جلولاء » ودارت بينهما معركة رائعة أسفرت عن هزيمة الفرس وانتصار العرب.

ويقال إنه لما أرسل « سعد » الغنائم التى كان قد استولى عليها فى المدائن وحلوان إلى المدينة المنورة وشاهدها الخليفة [1] ذرفت عيناه بالدموع وقال : « كأنى أشاهد فى هذا المغنم والفىء هلاك العرب » ، ولم يكن فى الواقع مخطئاً فى حدسه إذ أن النجاح المنقطع النظير الذى أحرزه العرب أدى إلى ضياع أهم ميزاتهم — وهى تحمل مشاق الحياة وعنائها الشديد والتضحية بالنفس — تلك الميزات التى كانت فى الأصل عاملا من عوامل النصر والغلبة.

ولم يكد العرب يستولون على حلوان حتى عقدوا معاهدة صلح مع الفرس نص فيها على جعل سلسلة جبال فارس الحدود الفاصلة بين الإمبراطوريتين وأصدر الخليفة أمره يحظر على جميع العرب اجتياز الحدود مهما تكن الظروف ؛ وبذلك أصبحت البلاد الممتدة من شمالى الخليج الفارسى حتى سلسلة الجبال شرقا فى أيدى العرب الذين فتحوا أيضاً فى ذلك الحين مرفأ « الأبلة ».

ليس ثمة ما ينهض دليلا على مقدرة « عمر بن الخطاب » كحاكم نافذ البصيرة يقيم الحق وينشر العدل ، ولا على كفاءة مجلس الشورى الذى كان يساعده فى

(١) يقال : إنه لما نظر إلى ياقوتة وجوهرة بكى . فقال عبد الرحمن بن عوف : « ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ وهذا موطن الشكر » . فقال : « والله ما أعطى الله هذا قوما إلا تحاسدوا وتباغضوا ، فيلقى الله بأسهم بينهم » (المعرب)

تصريف شـؤون الدولة ؛ كذلك النشاط الذى أظهره المسلمون فى إحياء تلك الولاية وتحسين مواردها ؛ فقد أمر الخليفة فمسحت الأرض ، وأدخل نظام جديد فى تقدير الضرائب وخفف العبء الملقى على كواهل الفلاحين ، وأبقوا على أملاكهم وأرضهم ؛ وخففت الضرائب التى كان ملوك الفرس قد فرضوها على الدهاقين ، وأصبحت فى البلاد شبكة كاملة من الترع والمصارف ، وصدر نظام لتسليف المزارعين كلما دعت الضرورة . كذلك منع الخليفة بيع الأراضى خشية انتزاعها من الفلاحين أصحاب البلاد الأصليين ، كما أمر فى الوقت نفسه بمصادرة الضياع الملكية ، وغابات الصيد وأملاك الأمراء وكبار الأغنياء الهاربين ، والأوقاف المحبوسة على معابد النار التى هجرها الكهان ووضعها جميعاً تحت إدارة وكلاء جاءوا خصيصا من المدينة .

وكان الجنود قد طالبوا بأن توزع عليهم هذه الأراضى وسهول كلدة المسماة بالسواد كأسلاب حربية ؛ غير أن أمير المؤمنين رفض تلبية طلبهم بحزم وإصرار شديدين ، واكتفى بتوزيع إيراداتها على العرب النازحين بعد حسم النفقات العامة منها .

الفرس يخلون بشروط المعاهدة

وقصارى القول لم يغن حزم أمير المؤمنين ولا نزاهة القواد العرب فتيلا فى الحيلولة دون نشوب حرب جديدة مع الفرس إذ ظل « يزدجرد » يحرق الأرم على ضياع عاصمة ملكه ، وولايتين من أخصب ولاياته ، كذلك كان جيشه لا ينى عن الإلحاف فى الزحف على جند العرب . أما « الهرمزان » عامل الأهواز فكان يهاجم العرب النازحين ؛ والغريب أنه كان كلما منى بالهزيمة طلب الصلح ، ولكنه برغم ذلك كان ينقض العهد عند سنوح الفرصة .

١٧ هـ ٦٣٨ م

وفى عام ١٧ هـ (٦٣٨ م) أنشئت مدينتان جديدتان فى العراق . «البصرة» على شط العرب ، وقد نزلها على الأغلب عرب الشمال وحلت محل « الأبلة » ، وأصبحت الثغر الجديد للعراق . والثانية « الكوفة » ، وقد شيدت على الشاطئ

الغربى للفرات على بعد ثلاثة أميال من جنوبى الحيرة ، وقد استوطنها عرب يمانيون ، وحلت محل « المدائن » التى هجرها العرب بالمرة لسوء مناخها . ومما يذكر بهذا الصدد أن هاتين المدينتين شيدتا على مناهج منظمة ، فخططت فيها الشوارع والميادين العامة وبنى فى وسطها المسجد الجامع ، كما امتدت فيها الأسواق العامرة والحدائق الغناء .

والآن عندما ضاق العرب ذرعا بهجمات الفرس المتوالية ، ورأوا أن « يزدجرد » يستعد للقيام بهجوم خطير بدليل حشده الجيوش الكثيفة فى الشمال أرسلوا وفداً منهم إلى الخليفة يطلب إليه أن يسمح لهم بالهجوم فاستفسر « عمر » من الوفد عن سبب هجوم الفرس بقوله : « لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى بأمور لها مما ينتقضون بكم » فقالوا . « مانعلم إلا وفاء وحسن ملكة » . قال : « وكيف هذا ؟ » . فقال له رئيس الوفد : يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما فى أيدينا ، وأن ملك فارس حى بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه ، وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذى يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعن أمته ، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس[1] . وقد أيد هذا القول « الهرمزان » الذى كان قد حمل أسيرا إلى المدينة ثم اعتنق الإسلام ، وعندئذ فقط سمح أمير المؤمنين للجيش بالانسياح ؛ إذ ليس ثمة ما يمنع فى سبيل الدفاع عن النفس من سحق سلطان كسرى والاستيلاء نهائيا على بلاده .

أما الفرس فقد لبوا نداء مليكهم بقلوب مفعمة بالأمل واستعدوا إلى إنزال الضربة القاضية بالعرب الفاتحين الذين طردوا الملك من عاصمته وفصلوا عن مملكته

---

(١) ابن الأثير .

أخصب ولاياته ؛ وكان عدد الجيش الذى جمعه « يزدجرد » يفوق عدد أية حملة أخرى حشدها حتى الآن ؛ فأحدث خبر هذا الاستعداد قلقا بالغا فى المدينـة ، وعنـدئذ سارع الخليفة ببعث الأمداد إلى الحدود ، وولى القائد النعمان الذى كان يقاتل أهل فارس فى الجنوب إمارة الجيوش العربيـة . وقد قررت موقعة « نهاوند » التى دارت على سفح جبل البرز مصير آسيا وسميت « بفتح الفتوح » فمنى الفرس بشر هزيمة مع أن عددهم كان يبلغ ستة أضعاف عدد جيش العرب ، وفر يزدجرد ضاربا فى الآفاق حتى فتك به أحد أتباعه فى قرية قريبة من تركستان ، وباندحار هذا الجيش وبموت يزدجرد عنت بلاد الفرس لسلطان المسلمين .

واقعة نهاوند

وفى الحـال اتخذ الخليفة كما اتخذ فى الجزيرة من قبل تدابير فعالة لإقرار الفلاحين على حالتهم ، وإنقاذهم من ربقة العبودية وعسف كبار الملاكين (الدهاقين) ؛ وأصلح نظام الضرائب ، وأمر بترميم الجداول وشق الترع ، كما أقر الملاكين على أراضيهم على أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وضمن حرية العبادة ، وحظر على المسلمين التعرض لدين أهل البلاد الأصليين ، وأطلق على الذين بقوا على دينهم القديم اسم « الذميين » . وكان الشىء الوحيد المغرى لاعتناق الإسلام — إن صح أن يسمى هذا إغراء — أن يدفع الذمى الجزية وهى ضريبة أكثر بقليل من العشر الذى كان يؤديه المسلم ، ولم تكن هـذه الزيادة القليلة إلا لقاء إعفائه من الانخراط فى سلك الجندية ، فأخذ الناس يدخلون فى دين الإسلام طوعا على عكس ما تتخذه الدول العصرية من الأساليب لتغيير عقائد أبناء المستعمرات ؛ كذلك حصل التزاوج بين معتنقى الإسلام وبين العرب النازحين ، وسمى الـكثير من الفرس بالموالى ، وكان الذين يؤدون أجل الخدمات للدولة تسجل أسماؤهم فى سجل خاص لمنحهم رواتب شهرية . وقد ظل الـكهنة ردحا من الزمن كما كان شأنهم فى عهد الإسكندر

فتح فارس

المقدونى يقلقون مضجع الدولة الفتية ؛ إذ طالما حرضوا السكان الباقين على دينهم القديم ، على شق عصا الطاعة والولاء ، وكانت الدولة ترتكب فى سبيل القضاء على تلك الفتن أروع ضروب السفك والتنكيل ، غير أن السياسة الرشيدة التى اتبعتها الدولة العباسية من جهة وانتشار الإسلام بين السكان من الجهة الأخرى أزالا أسباب النفور والبغضاء بين المحتلين و بين أصحاب البلاد الأصليين

الحروب مع الروم وأسبابها

لم يطل الحال بعد مبايعة أبى بكر حتى خاض المسلمون غمار الحرب مع الروم ، وكانت البلاد الواقعة غربى الجزيرة وكلدة خاضعة وقتئذ للدولة الرومانية الشرقية . كذلك كان يقطن فلسطين وسوريا كما يقطن العراق شعب عربى . أما بادية الشام فكان يضرب فى آفاقها رعاة من الأعراب لم يلبثوا أن وقعوا تحت صولة الدولة الإسلامية ، ولذلك أثارت الحملة التأديبية التى قادها «أسامة» حفيظة القبائل العربية الضاربة فى الشام فقاموا بطبيعة الحال يثأرون لإخوانهم الذين تربطهم بهم أوشاج الدم ولحمة القرابة .

ولو نظرنا الآن بعين الخيال إلى ذلك الميدان الجديد الذى دارت فيه رحى القتال لنلم بشىء عن موقعه الجغرافى لرأينا فلسطين كما يصفها جغرافيو العرب بلاداً واقعة فى جنوبى الخط الممتد من جبل الكرمل إلى أقصى شمال بحر الجليل (بحيرة طبرية) ثم تمتد من نهر الأردن حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط .

وقد كان للرومان فى تلك البلاد معاقل محصنة تحرسها حاميات قوية كقيصرية على البحر ، وأريحا ، والقدس ، وعسقلان وغزة ويافا ، أما مدينة سيفر (زوغار) والمنطقة الممتدة من أقصى جنوبى البحر الميت حتى خليج العرب فكانت تابعة لفلسطين كما كان يقع فى شمالى ذلك الخط ولاية الأردن التى تتألف من حاميتى عكا وصور .

كذلك كان يقع فى شمال فلسطين تلك البلاد الجميلة الخلابة التى أطلق عليها الرومان اسم سوريا وسماها العرب بر الشام أو الشام فحسب ؛ وأهم مدنها

التاريخية دمشق وحمص وحلب وانطاكية ؛ وكانت تحرسها كلها حاميات رومية قوية . وثمة بلاد مرتفعة فى شرقى وادى الأردن وجنوبى طبرية اسمها حوران ، وفى ذلك الميدان منى المسلمون بهزيمة منكرة فى أول حملة بعثها أبو بكر . ويجب أن نذكر هنا أن الخليفة بدلا من أن تخور عزيمته أخذ يثير النخوة فى صدور المسلمين ويبث فيهم روح الحمية والنشاط ؛ فقسم الجيش الذى سارع بإرساله إلى ميدان القتال إلى أربعة كراديس (Corps) ، وعين لكل كردوس قائداً ؛ فكان أبو عبيدة الرقيق القلب على رأس كردوس حمص وقاعدته الجابية ، ومن جملة أفراده عدد كبير من المهاجرين والأنصار السابقين . أما كردوس فلسطين فكان بقيادة عمرو بن العاص فاتح مصر المشهور . وكردوس دمشق تحت إمرة « يزيد بن أبى سفيان » ، الذى كان يتألف معظم جيشه من أهل مكة وعرب تهامة ، وفيهم عدد من أشراف مكة الذين تصدوا للنبى وحاربوه ولكنهم وقد حفزتهم الآن مغانم الشام انتظموا فى عقد الجيش العربى بقيادة يزيد .

وكان بين أهل مكة وعرب تهامة من جهة و بين هؤلاء وأهل المدينة من الجهة الأخرى عداء شديد وحزازات قديمة ظهرت نتائجها بعد أمد قصير .

أما الفرقة الرابعة التى كانت بقيادة شرحبيل فكانت وجهتها وادى الأردن وكان ثمة كردوس آخر بمثابة الاحتياط على رأسه معاوية ثانى أولاد أبى سفيان .

زحف ابن العاص على فلسطين السفلى مهدداً غزة و بيت المقدس بينما أخذت الكراديس الثلاثة الأخرى بقيادة أبى عبيدة وشرحبيل ويزيد تناوئ بصرى[1] ودمشق وطبرية ، غير أن مجموع جيش المسلمين لم يكن ليزيد عن ٣٥٫٠٠٠ فبدا قلة لا يستطيع مناهضة جيش الروم الذى كان تحت إمرته موارد لا حصر لها من الجنود والعتاد .

---

(١) كان لها المكان الأسمى فى زمن اليونان والرومان ، وكان فيها الراهب « بحيرا » صاحب القصة المشهورة مع النبى (ص) قبل الرسالة وتعرف بصرى الآن باسم « اسكى شام » . (المعرب)

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الإمبراطورية الرومانية وعاصمتها القسطنطينية — حتى بعد أن انفصلت عنها الولايات الأوربية — كانت شديدة الحول متسعة الأطراف ، لا حصر لمواردها الطبيعية وكنوزها وأدواتها . فقد كانت تتألف من آسيا الصغرى (المحاطة بالبحار من جهاتها الثلاث ، والمبثوثة على سواحلها الموانئ الحافلة بضروب الغنى والثراء) والشام ، وفينيقية ، وفلسطين ، ومصر . وكانت جميعها تعتبر أسواقا هامة للأمم المتاخمة كما كان يدخل فى نطاقها الشق المستطيل الممتد من ساحل مصر حتى المحيط الهندى ، ومن ضمنه قرطاجنة التى عفا على آثارها الزمان .

ويقال إنه لما علم هرقل بزحف العرب أسرع إلى حمص وحشد فيها أربع فرق ، أما القواد المسلمون فلم يلبثوا هم أيضاً أن حشدوا قواتهم فى صعيد واحد فى « جولان » بالقرب من نهر اليرموك ، الذى يصفه لنا الجغرافيون بأنه نهر صغير ينبع من أعالى جبل حوران ويصب فى نهر الأردن على بضعة أميال من جنوبى بحيرة طبرية ، ثم يستدير على بعد ثلاثين ميلاً من التقائه بنهر الأردن ليكون شبه دائرة تحتضن سهلا فسيحاً منبسطا يصلح لأن يكون معسكراً لجيش كبير . أما ضفافه فمنحدرة وعرة كذلك به انحناء يؤدى إلى فضاء مسطح يسمى بالواقوصة المشهورة فى تاريخ المسلمين . وقد رأى الروم فى ذلك الموقع معسكراً طبيعيا محصنا من أطرافه فحشدوا جيوشهم فيه دون أن يحسبوا حسابا للمسلمين الذين ما أن شعروا بخطأ عدوهم حتى عبروا النهر وعسكروا بجانب الوادى الضيق الذى يقع على استدارته وأعدوا عدتهم للهجوم على الأعداء حالما يخرجون من مكامنهم ، وراح الجيشان يتراقبان حوالى الشهرين حتى سئم الخليفة الانتظار وأرسل « خالداً بن الوليد » من كلدة ليلتحق بجيش المسلمين فى الشام ، وكان جيش هرقل يبلغ ٢٤٠٫٠٠٠ فى حين كان عدد جنود العرب لا يزيد عن أربعين ألفاً ؛ ولكن الروم بالرغم من كثرة عددهم كان

واقعة اليرموك
٣٠ آب ٦٣٤م

اليأس قد تسرب إلى أفئدتهم بعد أن فشلوا مراراً فى التخلص من الفخ الذى وقعوا فيه . وفى صباح آخر يوم من أيام جمادى الثانية المصادف ٣٠ آب سنة ٦٣٤ م وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين ، فحمل العرب عليهم حملة صادقة وظلوا يوقعون بهم حتى أفنوا البعض وأغرقوا البعض الآخر فى النهر ؛ وبهذا النصر تم للمسلمين فتح جنوبى الشام ، وسميت تلك الموقعة المشهورة بموقعة « اليرموك » .

وفاة أبى بكر

غير أن المسلمين نكبوا فى تلك الأثناء بوفاة أبى بكر ؛ ومن المأثور أن خبر موته كان قد وصل إلى المعسكر قبل نشوب القتال ، فلم يذعه خالد حتى كسب المعركة ، إذ جاء أمر الخليفة الجديد — الذى لم يكن ليرضى عن بعض تصرفات خالد — بعزله من القيادة العامة وبتعيين أبى عبيدة المشهور بأصالة الرأى وبعد النظر فى مكانه فاندمج « خالد » على الفور فى صفوف الجيش كأبسط جندى ، وأخذ يحارب تحت إمرة « أبى عبيدة » عن طيب خاطر ؛ وبدأت المدن السورية تقدم إليه خضوعها الواحدة تلو الأخرى فأسلمت دمشق وحمص وحماة وقنسرين وحلب والمدن المهمة الأخرى ؛ ومن ثم سار « أبو عبيدة » حتى نزل على « انطاكية » عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ومنافسة الآستانة . وتقول لنا الرواية العربية : إن الحامية العسكرية مع الجنود الملتجئين من المدن الأخرى التى سبق أن أذعنت بالتسليم للمسلمين زادوا فى عدد السكان زيادة عظيمة ، ولكنهم لم يتمكنوا بالرغم من ذلك من المدافعة عن المدينة إذ كانوا قد وهنوا من الانغماس فى ملذات الحياة ومسراتها ، فدارت بين الفريقين مناوشة طفيفة بظاهر المدينة أسفرت عن انتصار المسلمين .

وفيما كان « أبو عبيدة » يستولى شيئاً فشيئاً على القسم الأكبر من سوريا الشمالية ، كان « عمرو بن العاص » يحرز فى فلسطين النصر تلو النصر . أما الحاكم الرومانى المسمى « أرطبون » فكان قد حشد جيشاً كبيراً للدفاع عنها كما

عزز فى الوقت نفسه حاميات القدس وغزة والرملة ، ونزل ميدان القتال بنفسه فى « اجنادين » إحدى القرى الواقعة فى شرقى القدس بين « الرملة » وبين « بيت جبرين » ولكن لم يمض سوى قليل حتى زحف القواد العرب عليهم واقتتل الفريقان قتالا لا يقل روعة عن قتال « اليرموك » فمنى الروم بشر هزيمة ، وتمزق شملهم كل ممزق .

وكان من ثمرة ذلك النصر أن أذعنت بالتسليم عدة مدن كنابلس ويافا وعسقلان وغزة والرملة وعكا وبيروت وصيدا واللاذقية وحماة وكربلة دون أية مقاومة . ويقال إنه كان فى القدس وحدها حامية قوية قاومت العرب حينا من الزمن حتى أعلن بطريقها رغبته فى الصلح ، على أن يسلم المدينة للخليفة نفسه ، وعندئذ سار أمير المؤمنين فى غير ما تردد إلى الشام لا يصحبه غير خادم واحد ، وكان فى استقباله فى الجابية وفد من أهل دمشق ، فأعطاهم أماناً لأنفسهم ولكنائسهم على أن يدفعوا الجزية . ومن ثم شخص مع الوفد إلى القدس ، فاستقبله على أبوابها البطريق « صغرينوس » ، فدخلها الاثنان وهما يتحادثان . ويقال إن الخليفة امتنع عن الصلاة فى كنيسة القيامة التى اتفق وجوده فى فنائها وقت الصلاة ، فصلى على إحدى درجاتها ؛ وقد قال الخليفة فى ذلك إنه لو صلى فى فنائها لنقض المسلمون العهد فى المستقبل بحجة الاقتداء به فى الصلاة ثم منح وفد الرملة شروطاً كالتى منحها لوفد القدس . أما اليهود السامريون الذين كانوا قد ساعدوا المسلمين على الفتح فقد أقرهم على أملاكهم وأعفاهم من الضرائب .

وعند ما شقت القبائل الأرمنية والكردية عصا الطاعة أرسل إليهم الخليفة قوة كبيرة فأنزلت بهم أشد أنواع العقاب . أما هرقل فيقال إنه كان قد عقد اتفاقا مع المدن التى لم تكن قد أذعنت بعد لسلطان المسلمين ، ولكن الخليفة ما عتم أن أنفذ إليهم جيشاً كبيراً لمحاربتهم والإيقاع بهم . ويقول المؤرخون إن القبائل

العربية المسيحية انحازت فى تلك الأثناء إلى جانب الروم ، كذلك وصلت قوة كبيرة من مصر عن طريق البحر ، واستولت عنوة على شمالى فلسطين ، فتحرج بذلك موقف العرب ، وألفوا أنفسهم محاطين بالأعداء من كل جانب غير أنهم بالرغم من ذلك تذرعوا بالبسالة والصبر ، واعتصموا بالسرعة فى الهجوم تحفزهم فى ذلك قوة الإيمان وشدة الحماسة ، ومع أن الروم كانوا يفوقونهم عشرين ضعفاً ، إلا أن العرب استطاعوا أن يقوضوا أركان ذلك الاتحاد ويلحقوا بهم أفدح الخسائر ، فانهزم ابن هرقل مع فلول صغيرة من جيشه ، وما هى إلا فترة حتى أذعنت البلاد ثانيــة لسلطان المسلمين ، ولم يبق فى حوزة الروم غير ميناء قيصرية فى شمالى الشام تشد أزرها مصر من جهة البحر ؛ وظلت تلك الميناء تتحدى جيش المسلمين حينا من الزمن حتى فر قسطنطين بن هرقل ، فضعفت بذلك روح المدافعين المعنوية ، وسلم أهلها على أن يعطوا أماناً لأنفسهم . وبفتحها تم إخضاع البلاد برمتها ، وطأطأت الشام هامتها أمام صولجان الخلافة بعد سبعمائة سنة من عزل آخر الملوك « المــكدونيين » على أيدى بمباى .

ومع أن الروم كانوا قد أدركوا أنه لن تقوم لهم قائمة بعد تلك الهزيمة المنكرة إلا أنهم واصلوا شن الغارات . والأدهى من ذلك أنهم أرادوا أن يقيموا حدا فاصلا بين حدود الدولتين للحيلولة دون توغل العرب فيما تبقى لهم من ممتلــكات فى آســيا الصغرى ، فحولوا بقعة خصبة مزدهرة بالمزارع والــكروم على حدود ممتلــكاتهم الأسيوية إلى صحراء قاحلة ودمروا جميع المدن العامرة فى تلك المنطقة السيئة الطالع كما هدموا الحصون ونقلوا السكان إلى الشمال وتركوها قاعا يبابا .

ولذلك فان ما يعزا إلى جيوش العرب من أعمال التخريب والتدمير لم يكن فى الواقع إلا نتيجة من نتائج وحشية الدولة البيزنطية . وبالرغم من تلك التدابير التى لا يمكن اعتبارها غير ســياسة خرقاء وقصر نظر ، فقد اجتاز « إياس » قائد الجيش الغربى فى شمالى سوريا جبال طوروس وأخضع ولاية كليكيا وعاصمتها

طوروس[1] مقر ملوك أشور القدماء ، ثم توغل صعدا حتى سواحل البحر الأسود فأصبح اسمه مصدر رعب فى قلوب الروم قاطبة فى آسيا الصغرى . ومما يذكر أن العرب وجهوا همهم فى تلك الأثناء إلى تشييد أسطول بحرى ، فلم ينقض طويل وقت حتى أصبحوا سادة البحار ، واشتبكوا فى معارك رائعة مع أسطول الروم الذى فر منهم إلى هلسبون ؛ وبذلك تمكنوا من الاستيلاء على جزائر الأرخبيل اليونانى بالتدريج .

ولما كثرت الغارات التى كان الروم يشنونها من مصر على الشام ، وتعددت المناوشات بين أسطولى الروم والمسلمين فى عرض البحار ، قرر الخليفة بعد قليل من التردد أن ينفذ جيشاً إلى أرض الفراعنة ، فسار « عمرو بن العاص » فى ٤٠٠٠ ، واستولى بهذه القوة الضئيلة على مصر فى خلال ثلاثة أسابيع ، ثم تعقب فلول جيش الأعداء إلى الإسكندرية التى كانت تعتبر وقتئذ حصن حكومة الروم الحصين .

وبعد أن حاصر العرب تلك المدينة ردحا من الزمن فتحوها عنوة ، وأصبحت مصر حتى حدود الحبشة جنوبا وليبيا غربا خاضعة لسلطان المسلمين الذين اتخذوا أيضاً فى تلك البلاد نفس الإجراءات التى سبق أن اتخذوها فى الشام والعراق لتحسين موارد الفلاحين ، فأقروهم على أراضيهم وأصلحوا أعمال الرى القديمة التى عفا عليها النسيان ، وأمروا بكرى القناة القديمة التى توصل بين البحر الأبيض المتوسط وبين البحر الأحمر ، وعاملوا المسيحيين (الأقباط) معاملة ممتازة نظراً لما ثبت لهم من حسن نواياهم نحو المسلمين ونظموا الضرائب فازدهرت التجارة بتخفيض المكوس .

وفى سنة ٦٤٥ م أغار الروم على الإسكندرية واستولوا عليها عنوة ، غير أنها

---

(١) هى الآن من أعمال ولاية أطنه وفيها توفى ودفن المأمون . (المعرب)

سقطت بعد سنة فى أيدى العرب نهائيا . وأما قصة حرق مكتبة الإسكندرية[1] التى عزاها بعض المؤرخين إلى الخليفة عمر بن الخطاب فهى عارية عن الصحة ، إذ أن عملا كهذا لا يمكن أن يصدر عن حاكم عظيم عرف بالتساهل وحرية الرأى ؛ وفى الواقع أن قسما كبيراً من تلك المكتبة كان قد أبيد فى زمن الحصار الذى ضربه يوليوس قيصر على المدينة كما فقد الجزء الآخر فى عهد الإمبراطور تيودوسيس فى القرن الرابع الميلادى ؛ ويقال إنه كان مشهوراً بالورع والتعصب ومقته للكتب الوثنية فأمر بإتلاف بقية المكتبة فنفذت أوامره بحماس شديد بحيث لم يبق فى القرن السابع شىء يصح أن يتلفه المسلمون . وعقب احتلال مصر اشتبك « عمرو بن العاص » فى حروب مع القبائل الضاربة على الحدود العربية انتهت بإخضاع الساحل برمته حتى مدينة برقة .

وفى سنة ١٨ هجرية أصيب الشام وشمالى جزيرة العرب بقحط شديد ووباء داهم هلك بهما على ما يقال نحو من ٢٥٫٠٠٠ نسمة وكان من ضحايا هذا الوباء نفر من أشهر رجال المسلمين وأبعدهم صيتاً « كأبى عبيدة » « ويزيد » « وشرحبيل » . فاستفزت صيحات المنكوبين وأنات المصابين أمير المؤمنين فسار لا يصحبه غير خادم واحد إلى الشام ، وكان قد ناهز السبعين ولكنه رغم شيخوخته تحمل وعثاء السفر بصبر عجيب وزار مطران « أيلة » وجدد له العهود واستطاع بوجوده بين أهل الشام أن يحيى فيهم موات الأمل ويهون عليهم شدة الألم .

وفاة عمر

ولما عاد « عمر » إلى المدينة تفرغ لتنظيم إدارة الإمبراطورية الجديدة وإعداد المشاريع وتحسين مصادر البلاد ولكن يدا أثيمة لم تمهله حتى يكمل

---

(١) يقول المؤرخ الرومانى بلوتارك (Plutarch) بينما كان الأعداء يستولون على أسطول قيصر اضطر أن يردم بالنار واندلع لهيبها من الحياض وأتلف المكتبة . (المعرب)

ما بدأ به فطعنه رجل أجنبى[1] — كان يحقد عليه — بخنجر طعنة مميتة ، ولما أشرف الخليفة على الوفاة جعل الأمر شورى فى ستة نفر لاختيار من يخلفه .

وقد كانت وفاته خسارة فادحة للمسلمين إذ كان الرجل لائقا بمعنى الكلمة لزعامة العرب البعيدين بطبيعتهم عن الانقياد للقانون ، وكان على الجملة شديدا ، عادلا ، بعيد النظر ، ملما بأخلاق شعبه ؛ فقبض بيد من حديد على دفة الأمور وأعنة الحكم وقمع بشدة ذلك الميل الفطرى المعروف عن أهل الصحراء وأشباه المتحضرين إلى الفساد إذا ما احتكوا بترف المدن ومفاسدها . كان أول من أسس « الديوان » أو مصلحة المال وأودعها شؤون الخراج ، كذلك وضع قواعد ثابتة لحكم الولايات . وكان فاره الطول قوى البنية ، أبيض البشرة زاهدا ، متقشفا ، بسيطا فى عاداته يجوب الأزقة فى الليل كى يتفقد أحوال المسلمين دون حرس أو حاشية .

هكذا كان أقوى حكام ذلك العصر وأشدهم بأسا وأعظمهم هيبة !!

---

(١) يقول بعض المؤرخين إنه مانوى ، ويقول البعض الآخر أمثال دوزى إنه كان بناء مسيحيا من أهل الكوفة .

الفصل الخامس

الجمهورية

٢٤ — ٤٠ هـ (٦٤٤ — ٦٦١ م)

عثمان — محاباته — قتل عثمان — على — عصيان معاوية
وقعة صفين — الخوارج — اغتيال على — نهاية الجمهورية

عثمان

كان فى مكنة « عمر » أن يستخلف بسهولة « عليًا » أو ابنه « عبد الله » الملقب بابن عمر ، غير أنه أصاخ لضميره وهى صفة لازمته طوال أيام حياته فأوكل أمر الانتخاب إلى عدة من أشراف المدينة . ولكنه بتجنبه الاقتداء بسلفه ارتكب هفوة مهدت السبيل إلى مؤامرات الأمويين الذين نراهم الآن يؤلفون حزبا قويا فى المدينة . والمعروف أنهم كانوا منذ زمن طويل من أشد المنافسين لبنى هاشم (أسرة الرسول) كما كانوا يحملون لهم فى صدورهم أشد الأحقاد والضغائن ، فكثيرا ما طاردوا النبى (صلى الله عليه وسلم) وتألبوا عليه ؛ بل لعلهم لم يعتنقوا الإسلام إلا ببواعث المصلحة الشخصية حتى بعد فتح مكة ؛ إذ رأوا فى انتشار الدين الجديد عاملا من عوامل ارتفاع شأنهم وإعلاء كلمتهم . كذلك كانوا يحقدون على الصحابة الذين حكموا المسلمين وينظرون إلى أعضاء مجلس الشورى ورؤساء الحكومة الأولين بعين الحسد المستور ، وفوق ذلك كانت حياة الحواريين النقية الفطرية مصدراً دائماً لتبكيت ضميرهم على معيشتهم المترفة . ونستطيع أن نقول أنهم وجدوا لهم بسهولة أحلافاً بين رؤساء القبائل الذين يرتبطون معهم بأوشاج الدم والقرابة . فتمكنوا من إبعاد علىّ عن منصب الخلافة ، وبعد مناقشات ومناوشات دارت بضعة أيام وقع الخيار على « عثمان بن عفان »

الأموى . ومع أنه كان رجلاً فاضلاً ، ورعاً ، أميناً ؛ إلا أنه كان كبير السن ، ضعيفاً . فوقع فى الحال كما توقعوا له من قبل تحت نفوذ أسرته وانقاد إلى كاتبه « مروان بن الحكم » أكثر بنى أمية دهاء . وما أن وقع الخيار على عثمان حتى أقدم « علىّ » بحماسته المعهودة وتفانيه الشديد على مبايعته . وفى أيام عثمان بدأ النزاع القديم الذى استمر أكثر من قرن بين بنى هاشم و بنى أمية وكاد يخمد أواره فى عهد النبى وخليفتيه . ولكن ذلك لم يكن البلاء الوحيد الذى حل بالإسلام فى أيامه إذ أن القبائل العربية التى من طبيعتها الملل من الخضوع للقانون والنزوع إلى الحرية والتى خضعت إلى شخصية النبى وأسلمت القياد لحزم أبى بكر وصرامة عمر بن الخطاب بدأت الآن فى أيام سيطرة قريش تعود سيرتها الأولى ، وتنقل معها بذور التمرد فى البلاد البعيدة التى هاجرت إليها ؛ كما بدأ يترعرع من جديد ذلك التنافس القبلى القديم الذى كان قد خمد أواره فى عهد الرسول وعاد الآن يجر فى أذياله أسوأ النتائج وأشدها هولاً على المسلمين . و يقول المؤرخون إن « عثمان » عزل معظم العمال الذين كان قد عينهم عمر بن الخطاب واستعاض عنهم بعمال من عشيرته . ومع ذلك فقد بقى الناس خلال الست السنوات الأولى من حكمه محافظين على سكونهم بالرغم من تعسف الحكام واستبدادهم .

أما فى الأمصار البعيدة فقد ظل الجيش منهمكا فى درء الخطر المشترك الذى كان يهددهم جميعا . كذلك أدت غزوات الأتراك فيما وراء النهر إلى استيلاء المسلمين على « بلخ » وفتح « هراة » وكابول ، وغزنه ، كما أدى انتقاض جنوبى فارس إلى إخضاع كرمان وسجستان ؛ وقد حذا عثمان حذو عمر فى تأسيس الحكومات الجديدة فما كاد العرب يستولون على تلك الأمصار حتى اتخذوا الإجراءات الفعّالة لتحسين مصادرها المادية وترقية شؤونها فحفرت الجداول ، وعبدت الطرق ، وغرست الأشجار ، وأسس نظام خاص للشرطة لصيانة الأمن وحماية التجارة .

وقد أدت غارات الجيش البزنطى فى الشمال إلى توغل جنود العرب فى البلاد

المسماة الآن بالأناضول حتى سواحل البحر الأسود ، كذلك فتحوا طرابلس ، وبرقة فى أفريقيا ، واستولوا على جزيرة قبرص فى البحر الأبيض المتوسط ؛ وحطموا أسطول الروم الكبير الذى جاء إلى مياه الإسكندرية لغزو مصر من جديد .

وفيما كان الإسلام ينتشر وتخفق رايته على ربوع تلك الأمصار كان على ابن أبى طالب يصرف جهوده فى المدينة لتوجيه نشاط العنصر العربى الناشئ إلى الناحية العلمية ، فشرع مع ابن عمه عبد الله بن العباس فى إلقاء محاضرات أسبوعية فى المسجد الجامع فى الفلسفة والمنطق والحديث والبلاغة والفقه ؛ بينما تفرغ غيرهما إلى إلقاء محاضرات فى شؤون أخرى . وهكذا تألفت نواة الحركة العلمية التى ترعرعت وزهت بعد حين فى « بغداد » عاصمة العباسيين . وفى تلك الأثناء طفق الناس يتذمرون من تصرف الخليفة ومن المقربين إليه ، وارتفعت الشكوى من استبداد الحكام واغتصابهم الأموال وقد تكلم « على » عدة مرات مع الخليفة فى هذا الشأن ولكن «عثمان» بتحريض مروان أبى الاستماع إلى نصائحه وأخيراً جاءت الوفود إلى المدينة تطلب إقامة العدل والإنصاف ، فأعادهم الخليفة إلى أمصارهم بعد أن وعدهم خيراً . ولكنهم ما كادوا يغادرون المدينة حتى عثروا على كتاب بخط « مروان » . وقد قيل انه بختم الخليفة يطلب فيه قتلهم جميعاً فاستشاطوا غضباً وقفلوا راجعين للمطالبة بقتله . ويجب أن نذكر هنا أن بعض أفراد الأسرة كانوا قد ضموا أصواتهم إلى المتمردين ، غير أن الخليفة السيئ الطالع أبى الاستماع إليهم فظنوا أن له ضلعاً فى المكيدة ، وحاصروه فى بيته . ويقال إن أقاربه تخلوا عنه وقت الشدة وهربوا إلى الشام ؛ ولكن عليا وأولاده ومواليه دافعوا عنه دفاعا مشهوداً بحيث لم يستطع المتآمرون أن يتغلبوا عليهم إلا بعد جهد عظيم . وتقول لنا الرواية العربية إن اثنين منهم تسلقا جدار بيته وقتلاه وهو ابن ٨٢ سنة وقيل ٨٦ سنة . وكان ملتحياً ، متوسط الطول ، بارز عضلات الوجه ، وقد كانت تعوزه قوة العزيمة وصلابة الرأى ، غير أنه امتاز بالجود

والكرم ، ويعرف عنه أنه أهدى كاتبه مروان بن الحكم فى عدة فرص أموالا من بيت المال الأمر الذى جلب عليه سخط المسلمين .

خلافة على

ولما قتل « عثمان » بويع « علىّ » بالإجماع . وقد كان فى خلال عهد الخلفاء الثلاثة أحد أركان هيئة الشورى فلم يأل جهداً فى مساعدتهم وتزويدهم بالإرشادات القيمة . كذلك ينسب كثير من الأعمال الإدارية المظيمة التى تمت فى عهد « عمر » إلى إرشاده ، إذ كان فى الواقع يعتمد عليه ويركن إلى نصحه فأنابه عنه مدة سفره إلى الشام . ولكن « عليا » كان دائما فى جميع أطوار حياته مستقل الرأى ، لا يداهن ولا يرائى ، متفرغا إلى العلم وإلى تهذيب أولاده . ويقال إنه حين أفضت إليه الخلافة توجه إلى الجامع ببساطته المعهودة ، وأخذ يتقبل البيعة من الناس (وهو متكئ على قوسه الطويل) وكان فيما قال انه مستعد إلى التنازل عن الخلافة لمن هو أحق بها منه . ويقول مؤرخ فرنسى مشهور[1] :

« يخيل للمرء حينما بويع على بن أبى طالب أن الكل سيطأطئ هامته أمام هذه العظمة المتلألئة النقية غير أنه قدر غير ذلك » فلقد أحاط به فى بادئ الأمر عداء بنى أمية ؛ ولكنه لم يحتط للدسائس ، وأبى أن يقر عمال «عثمان» مدفوعاً بشرف الغاية التى كانت من أبرز ميزاته . وبرغم النصائح التى أسديت إليه لمسايرة الظروف فقد انتزع الأملاك التى أقطعها « عثمان » لأتباعه من بيت المال ، وقسم الخراج طبقاً للقواعد التى سنها « عمر[2] » فجلبت عليه هذه الإجراءات الحازمة سخط الذين أثروا فى العهد السابق . وقد تنازل بعض العمال عن مناصبهم دون مقاومة بينما رفض البعض الآخر النزول على أمر الخليفة الجديد ومن بينهم معاوية ابن أبى سفيان عامل الشام الذى كان قد جمع ثروة طائلة ، وأعد تحت إمرته جيشاً لجباً يدين له بالولاء ؛ وهكذا أعلن معاوية العصيان بعد أن احتاط للأمر واستعد للمقاومة .

---

(١) سيديلو . (٢) المسعودى .

ولـكن هذه الأمور لم تكن العقبة الوحيدة التى جابهت أمير المؤمنين الجديد إذ أن طلحة والزبير عنـد ما رفض طلبهما باستعمال الأول على الـكوفة والثانى على البصرة انقلبا عليه ، واستحالت صداقتهما الواهية الأوشاج إلى عداوة نكراء وكذلك « عائشة » بنت أبى بكر وزوج الرسول التى كانت تحقد على « على بن أبى طالب » زادت فى النار اشتعالا ؛ وقد تناسى طلحة والزبير بيعتهما وفرا إلى مكة ثم توجها إلى العراق حيث التحقت بهما عائشة ؛ وهنالك جمعوا جيشاً كثيفاً لمقاومة الخليفة . فبذل « على » ، وقد كان يتبعهم عن كثب ، جهوداً جبارة لإقناعهم بقبول الصلح ، ولـكنهم أبوا إلا قتاله ؛ وعندئذ نشبت بينهما معركة حامية فى « الحربية » وأسفرت عن قتل « طلحة » و « الزبير » ، كما أعيدت « عائشة » إلى المدينة معززة مكرمة .

و بعد أن استتبت الأمور للخليفة الجديد فى كلدة والعراق سار إلى الشام فقابله جيش معاوية ودارت رحى القتال بين الفريقين فى موقعة «صفين» غربى الرقة . وقد حاول « على » حسم الخلاف بصورة سلمية غـير أن « معاوية » بقى متمسكا برأيه ؛ وعنـدئذ طلب « على » حقنا لدماء المسلمين أن يتبارز الإثنان « وأيهما قتل صاحبه استقامت له الأمور » ، فرفض معاوية قبول هذا الاقتراح . ومما يؤثر عن الخليفة أنه أمر رجاله — بالرغم من تحرش جنود الشام — « ألا يبدأوا القتال ، وألا يطلبوا مولياً ، وألا يتبعوا مدبراً » فمنى جيش الشام بالهزيمة فى ثلاث معارك متوالية ، وكاد معاوية يلوذ بالفرار لولا حيلة شريكه « عمرو بن العاص » الذى أنقذه من الهزيمة بأن أوعز إلى الجنود برفع المصاحف على أسنة الرماح والرايات والمطالبة بالتحكيم . وفى الحال توقف جنود الخليفة عن القتال وألحوا على قائدهم « ألا يرد ما دعاه إليه أهل الشام » فقطن « على » إلى مكيدة «عمرو» ، ولـكن إلحاح الجيش جمله ينزل على طلبهم ، ووقع الخيار لسوء الطالع على رجل كبير السن ، ضعيف الرأى ، اسمه « أبو موسى الأشعرى » ، ولم يكن

قط كفؤاً « لعمرو بن العاص » ممثل « معاوية » . وهكذا حرم « على » من ثمرة انتصاره بسبب حماقة جنوده ؛ وفى الحال سار مشمئزا إلى الكوفة ، غير أن أولئك الذين رحبوا بفكرة التحكيم فى موقعة صفين عادوا الآن ساخطين عليها ورأوا فيها إثما وأى إثم ، كما أعلنوا عصيانهم وانسحبوا إلى النهروان على حدود الصحراء واتخذوا موقفاً عدائيا شائناً . فأرسل الخليفة إليهم رسولا يدعوهم إما إلى العودة إلى صفوف الجيش ، وأما الرجوع إلى أوطانهم فأبوا إلا مقاتلته ؛ وعندئذ حمل عليهم حملة صادقة حتى أفنى معظمهم ، وفر الباقون إلى البحرين والأحساء حيث كونوا نواة فئة متعصبة [1] أصبحت بمضى الزمن شوكة تقلق مضجع الإمبراطورية الإسلامية بسبب الغارات التى كانت تشنها عليها . وبينما كانت تلك الحوادث تجرى فى تلك الأنحاء ، برهن « أبو موسى » إما على أنه قد خان العهد الذى أؤتمن عليه ، أو أنه وقع فى حبال المكيدة التى نصبوها له فى « دومة الجندل » ، حيث كان « عمرو بن العاص » قد اقترح حقناً للدماء أن يخلعا صاحبيهما ، وأن يقوم أبو موسى ويخلع « عليا » ثم يقدم هو من بعده ويخلع معاوية ؛ ومن ثم يتكلمان باسم من يستخلفان ؛ فقام « أبو موسى » الساذج واعتلى المنبر وأعلن خلع على وما هو إلا أن اعتلى عمرو بن العاص المنبر وأقر خلعه وثبت صاحبه . فأثارت بساطة أبى موسى سخط أصحاب « على » وتساب الطرفان وتفرقا وهما يتوعدان ، فقفل أبو موسى راجعا إلى المدينة . ويقال إن معاوية رتب له المخصصات وقد ظلت الحرب تسعر أوارها ردحا طويلا من الزمن ولولا المشاكل التى جابهها «على» فى الميدان الشرقى لسير جيشا كبيراً على الشام . وعلى هذا لم يحتفظ معاوية بالشام وينادى بنفسه أميراً للمؤمنين فحسب ؛ بل نشر سلطانه أيضاً على مصر .

مقتل على

كان للسم والخنجر أكبر نصيب فى القضاء على أنبل أتباع الخليفة الذى

(١) سميت بالخوارج . (المعرب)

لاقى حتفــه هو الآخر بضربة سيف من يد أثيمة ، بينما كان يصلى فى المسجد الأعظم بالـكوفة فى اليوم السابع والعشرين من شهر كانون الثانى سنة ٦٦١ م . وهكذا مات أفضل المسلمين قلباً وأسلمهم طوية ، كما يصفه الكولونيل «اسبون» .

كان « على » شهماً ، وديعاً ، محسناً ، رحيماً باليتيم ، معيناً للضعيف ، خصما للظالم ، وعونا للمظلوم ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولو كانت له صلابة « عمر » لنجح فى حكم الشعب العربى المطبوع على الأنفة وحب البداوة ؛ ولكنهم أساؤوا فهم تهاونه فى حقوقه الخاصة وتساهله واستغل أعداؤه مروءته وتمسكه بالصدق لصالحهم الشخصى . ويقال فى وصفه : إنه أدم اللون ، دحداح ، قوى البنية ، يميل إلى السمنة ، طويل اللحية ، له عينان شهلاوان ينمان عن العطف والحنان . وقد أكسبته مناقبه ألقاباً خاصة عرف بها فسمى « أسد الله » لشجاعته ، و « باب العلم » لعلمه وفقهه ؛ وكان فارساً ، مغواراً ، كريماً ، متساهلا إلى أقصى حدود التساهل ؛ ويمكن أن يقال إنه كحاكم قد سبق عصره وجاء قبل أوانه ؛ وتعزا أهم الأعمال الخطيرة التى تمت فى زمن عمر لخـير المسلمين إلى مشورته . ولا تزال القصص تقرأ فى المقاهى من حدود القاهرة حتى حدود دلهى بالهند فتحدثنا عن بطولته وحماسته وإنصافه للمظلوم ؛ فهى فى مجموعها تعيد إلينا ذكرى البطولة العربية مجسمة بأجلى مظاهرها فى أشجع فارس عرفه الزمان . وقد أوصى أولاده قبل وفاته بالتواضع ، والبر ، والتقوى ، والإعراض عن حطام الدنيا ، وعدم التأسف على شىء منها ؛ كما طلب بصراحة ألا يعـذب قاتله وأن ينفذ فيه حكم الإعدام بضربة واحدة ؛ وقد أجمل المسعودى مناقبه فى قوله : « كان والله علم الهدى ، وكهف التقوى ، ومحل الحجا ، وبحر الندى ، وطود النهى ، وكهف العلا للورى ، داعياً إلى المحجة العظمى ، متمسكا بالعروة الوثقى ، خير من آمن واتقى ، وأفضل من تقمص وارتدى ، وأبر من انتعل وسعى ، وأفصح من تنفس وقرا ، وأكثر من شهد النجوى سوى الأنبياء والنبى المصطفى ، صاحب القبلتين ،

فلا يوازيه أحد ولا يقارنه بشر » . وكان له من فاطمة ثلاث بنون وأربع بنات وقد توفيت زوجه بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم ببضعة أشهر ولم يتزوج عليها وإن كانت العوائد العربية تسمح له بالزواج من غيرها وقد كانت سيدة مشهورة فى عصرها ذكية القلب حادة الذهن نشيطة الفؤاد تنم أقوالها وأغانيها وحكمها المأثورة عن متانة الخلق وسمو الأفكار ؛ كذلك أكسبتها مناقبها لقب « سيدة النساء » وهو اللقب الذى عرفت به بين المسلمين ؛ وكانت طويلة القامة ، رشيقة القوام ، آية فى الجمال فأطلق عليها اسم « الزهراء » .

ويقول كاتب[(١)] فيلسوف بهذا الصدد : « مات بموت «على» النظام الجمهورى وطويت صفحة الحكم الذى كان عماده البساطة المشيخية ، ولم يبق بعد زوال الحكومة الانتخابية إلا الفقه والأحكام المستندة إلى القرآن ، ولكن بقيت مع ذلك بعض النزعات الجمهورية تتأجج فى الشعوب الإسلامية فأكسبت الدول الصغرى هيبة وعظمة ، وزادت فى الدول العظمى قوة ومنعة بالرغم من رهط المغتصبين » .

---

(١) اوسلنر فى كتابه (تأثير الدين الإسلامى)

الفصل السادس

نظرة عامة — الحكومة — السياسة — الإدارة
— الجيش — الحياة الاجتماعية

وفى غضون السنوات العشر التى قضاها النبى (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة ، أخذت جموع القبائل المتنافسة والأفخاذ المتنازعة تتوحد بسرعة مدهشة . وتؤلف شعبا تحدوه فكرة واحدة سامية . ولسوف يبقى هذا العمل الذى تم فى تلك الفترة القصيرة خالداً أبد الدهر يذكره التاريخ فى عداد أعظم الأعمال شأنا وأبعدها خطراً .

ففى عهد أبى بكر حاولت تلك القبائل التى لانت قناتها أن تعود سيرتها الأولى فباءت بالفشل ، وإن جاز لنا أن نشبه تلك التطورات التى وقعت بعد ذلك فإنا نشبهها بفيضان نهر طفحت مياهه وطغت سيوله فى بادئ الأمر . فهاج وماج وخرب ودمر ، ولكن ما طال الزمن حتى هبط منسوبه وعاد إلى مستواه فخصبت الأرض وأينع الزرع . كذلك كان شأن العرب بعد الإسلام إذ حفزهم العداء العنصرى والاضطهادات التى كانوا يلاقونها من الأمم المجاورة فانساحوا فى الأرض وأثروا تأثيرهم المعروف .

كذلك طرأ تغيير هام على الشعب العربى فى خلال الثلاثين سنة التى عاشت فيها الجمهورية ؛ إذ لم تكن حياة العرب الاجتماعية عندئذ قد استقرت نظمها ولكنهم شرعوا منذ ذلك الحين يكونون لهم ذوقا ساعدهم فيما بعد على ترقية تلك الحياة بقدر ما أدى إلى انحطاطها . فشيدت المبانى الجميلة الفخمة ، وازدانت بها المدن الكبرى كما أصبحت الحياة محفوفة بالترف والفخامة ، وأطلق على العجم والأتراك والروم الذين اعتنقوا الإسلام اسم « الموالى » عقب انتسابهم إلى الأسر

والأفخاذ العربيــة . ومع أن جميع العرب كانت تسودهم فــكرة دينية مركزية واحدة إلا أن انصهارهم فى أمة واحدة متناسقة لم يتم قط . ومن هذا نرى دولة المسلمين فى آخر عهد الجمهورية تنشطر إلى قسمين كما كان الشأن فى مكة قبل عهد الرسول ، فأخذ القسم الواحد يدين بالولاء لآل البيت « بنى هاشم » ؛ بينما أخذ القسم الآخر يميل إلى « الأمويين » . ومع أن مكيدة « عمرو بن العاص » أدت إلى نــكث العهد الذى لا سبيل إلى إصلاحه ، وأثارت الحزازات الدفينة بين الحميريين والمضريين ؛ إلا أنه لم تــكن قد نشأت بعد تلك الطوائف والنحل الدينية ؛ حتى أن الخوارج أنفسهم لم يختلفوا فى الأصــل إلا على مسألة البيعة رافضين الاعتراف بكل خليفة بعد « عمر بن الخطاب » .

الحــكومة

كان الخليفة الذى يعتبر رأس الحــكومة الأعلى يساعده فى تصريف مهام الدولة مجلس من الشيوخ يتألف عادة من الصحابة الأولين ، وكانوا يعقدون اجتماعاتهم فى الجامع الــكبير يساعدهم على الأغلب جمع من الأشراف ورؤساء البدو الذين كان يتفق وجودهم فى المدينة ؛ كذلك كان الخليفة يولى كثيراً من الصحابة أعمــالا خاصة فولى « عمر بن الخطاب » القضاء وتوزيع الصدقة كما أسند إلى « على بن أبى طالب » — بوصف كونه عالما — تحرير الرسائل والإشراف على أسرى الحرب وشؤونهم ، وولى آخر أمر النفقة على الجنود . وعلى الجملة كانت تبذل أقصى العناية فى كل صغيرة وكبيرة ولا يبرم شىء إلا بعد أن يؤخذ رأى مجلس الشورى فيه .

السياسة

وفى غضون الثلاثين سنة الأولى تأثرت سياسة الدولة بأخلاق « عمر » على وجه أخص سواء أكان ذلك فى حياته أم بعد مماته ؛ إذ كان هدفه الرئيسى هو توحيد شبه الجزيرة العربية وصهر القبائل فى جامعة عربية واحدة . ولما اضطرته الظروف أن يقلل من أعمال الغزو أوصى بأن يتمسك العرب فى أوطانهم الجديدة بعنصريتهم ، وحظر عليهم الاختلاط بأهــل البلاد الأصليين ، ولو أمد الله فى

عمره لاستطاع بمتانة خلقه أن يصهر العرب ويجعلهم أمة أكثر اتحاداً ولحال دون وقوع الحروب الداخلية الهدامة التى أدت إلى خراب دولة المسلمين[١]. وثمة مناح أخرى من سياسته خليقة بأن نوجه إليها اهتمامنا الخاص وأولاها إجلاء جميع العناصر المعادية عن شبه الجزيرة لكى تخلو للعرب وحدهم[٢]، وثانيها عدم التطرف فى الفتح، وقد استطاع بثاقب فكره وبعد نظره وهى ميزة كانت تنقص خلفاء العصور المتأخرة أن يدرك أن توطيد دعائم الإمبراطورية وترقيتها ماديا إنما يتوقفان على رفاهية طبقة الفلاحين من سكان البلاد الأصليين. وتحقيقا لهذه الغاية منع بيع العقار والأرض الزراعيــة فى الأمصار المحتلة، كما سن قانونا يحظر فيه على العرب امتلاك الأراضى والضياع.

وعلى هذا أصبح الفلاح وصاحب الأرض محميين حماية مزدوجة من نزع الملكية، ولعل تمييز الجنس العربى وتفضيله على الشعوب والطوائف الأخرى كان المحرض له على سن تلك القوانين التى لم يكن التاريخ يجهلها سواء أكان فى العصور القديمة أم الحديثة، غير أن تلك الميزة لم تقتصر على العنصر العربى وحده إذ أن الفرق فى اللون والجنس والعنصر لم يعد حائلا دون المساواة والإخاء كذلك أصبح اعتناق الإسلام فى عهد «عمر» أو انتساب غير العربى إلى عشيرة عربية كافيا لرفعه إلى مستوى العربى الأصيل.

وقد بقيت هذه السياسة على الأقل معمولاً بها فى عهود جميع الخلفاء فأصبح كثير من الأسر الأعجمية موالى الأسر أو القبائل العربية من غير أن تغير دينها، كما أخــذ كثير من الأسر المسيحية فى الشام ومصر والبربر ينتسبون إلى قبائل عربية أصيلة؛ وبطبيعة الحال كان معتنقو الدين الجديد يمنحون امتيازات خاصة

---

(١) يعتقد كاتب أوربى مشهور أن الفتن الداخلية والخصومات القبلية هى سبب إنقاذ أوربا وخلاصها من غزو المسلمين.

(٢) كانت تتبع مثل تلك السياسة فى روسيا القيصرية.

كما يمنح أمثالهم فى الممالك الأخرى والطوائف غير الإسلامية مما ساعد على إغراء تلك الفئات بنبذ دينها القديم .

ولما كانت قواعد الإسلام ومبادئه تميل إلى الدمقراطية ذات المسحة الاشتراكية فقد أصبح الناس جميعاً غنيهم وفقيرهم متساوين أمام الله ، كذلك كان الحكام والولاة يعتبرون خلفاءه على الأرض لحمايتهم من الاستبداد والظلم . أما إيرادات الدولة فلم تكن تصرف لمنفعة الخليفة ولا لإثرائه إنما كانت تستخدم لخير المسلمين جميعاً كما كانت الزكاة تجمع من الأغنياء لتعطى صدقة للفقراء .

وفى صدر الإسلام لم يكن يخشى على بيت المال من غاصب أو ناهب ؛ كذلك لم تمسك السجلات لضبطه إذ كان يوزع إما على الفقراء وإما على الجنود المحاربين ، كما كانت الغنائم توزع على السواء الصغير منهم والكبير ، الحر والعبد ، الذكر والأنثى .

ولما كثرت الإيرادات وتعددت مصادر الفىء رؤى استبدال هذا التقسيم برواتب معينة ، وخصصت العطايا من الإيرادات العامة لكل فرد من المسلمين الذين لم يقتصر ذلك عليهم وحدهم بل كان لأهل الذمة منه نصيب كبير ؛ كذلك لم تفرد للخليفة رواتب ملكية أو مصروفات استثنائية . ولم يفكر النبى (صلى الله عليه وسلم) ولا خليفته « عمر » بتقسيم الضياع إذ كان ذلك يؤدى بطبيعة الحال إلى إفقار الأسر ، ومن أجل ذلك منع تقسيم أراضى المدينة .

ومما يجب ذكره بهذا الصدد أن الأراضى الأميرية فى البلاد المحتلة لم توزع على الجنود بل بقيت ملكا للدولة على أن تقسم إيراداتها بعد سداد المصروفات على مستحقيها . ولسوء الطالع انعكست فى عهد عثمان الأوجه الأساسية لسياسة سلفه كما أنه لم يكتف بعزل عمال عمر فحسب ؛ بل أخذ يوزع الوظائف والأراضى بين أشياعه وأتباعه كما أقطع معاوية الضياع الأميرية فى الشام وجزءاً غير قليل من أرض الجزيرة . أما السواد الذى كان « عمر » قد أبقاه للصرف على مرافق الدولة

فيقال إن عثمان وهبه لأحد أقربائه ؛ كذلك كان بيت المال فى عهدى أبى بكر وعمر ملكا للمسلمين فوزعه عثمان بين أهله ومحاسيبه ليمكنهم من الكفاح فى سبيل إعادة السلطة لأنفسهم ، كما ألغى الامتيازات التى كان الذميون قد اكتسبوها فى العهد السابق ، وسن قوانين مجحفة تتعارض وقوانين سلفيه على خط مستقيم ؛ فأباح بيع الأراضى وأنشأ الإقطاعيات العسكرية . وقد كانت إدارة « على » تفت فى ساعدها الحروب الداخلية ؛ ولولا ذلك لأصلح مساوئ الإدارة السابقة ولكنه مع ذلك تمكن من عزل معظم العمال وطبق سياسة « عمر » أينما ساد سلطانه ، وأسس دائرة لحفظ سجلات الخلافة ومكتباً باسم « ديوان الحاجب » وأعاد تنظيم الشرطة وأطلق على رئيسها اسم « صاحب الشرطة » كما وضع أنظمة خاصة لأفرادها .

الإدارة

لما سقطت مكة ودانت الجزيرة بالطاعة للمسلمين ولى النبى (صلى الله عليه وسلم) العمال على المدن الكبرى والأمصار وأطلق عليهم اسم «الأمراء» . ويعتبر « عمر » المؤسس الحقيقى للإدارة السياسية فى الإسلام ، فقسم البلاد المحتلة إلى إمارات وولايات لكى يتفرغ أمراؤها وولاتها إلى ترقية مصادرها فاعتبرت الأهواز والبحرين ولاية واحدة ، وسجستان ومكران وكرمان ولاية أخرى ، وبقيت طبرستان وخراسان ولايتين منفردتين ، وولى ثلاثة أمراء على جنوبى فارس ، كما نصب أميران على العراق أحدهما فى الكوفة والآخر فى البصرة ، كذلك اتبع هذا النمط فى الشام فاتخذ أمير الولايات الشمالية قاعدته فى حمص كما اتخذ والى القسم الجنوبى مدينة دمشق مقرا لحكمه ، وأسندت ولاية فلسطين إلى أمير مستقل ، وأسست فى أفريقيا ثلاث إمارات واحدة فى مصر العليا والأخرى فى مصر السفلى والثالثة فى الولايات الواقعة فيما وراء صحراء ليبيا ؛ وقسمت جزيرة العرب إلى خمس ولايات وكان يطلق على حكام الولايات الصغرى اسم الوالى أو النائب . وكان الحاكم فى معظم الولايات بحكم منصبه يصلى

بالمسلمين و يلقى خطبة الجمعة التى كانت تعتبر فى الغالب بياناً سياسيا . وعين « عمر » لفلسطين ودمشق وحمص وقنسرين قضاة للإمامة فى الصلاة والنظر فى الأحكام ، وأنشأ إدارة مالية باسم «الديوان» لتنظيم جميع الإيرادات وصرفها ، وكان القسم الأعظم منها يستنفد فى سد النفقات الإدارية والحربيــة ثم يوزع ماتبقى على أفراد المسلمين العرب منهم والذميين ؛ ولهذا أمسكت سجلات خاصة فى الديوان لتسجيل أسمـاء جميع المستحقين . وكان الأمير هو الرئيس الأعلى فى ولايته ، و إليه وحده يرجع الفصل فى الأمور العسكرية والمدنية .

أما الأمور المالية والإدارية فكان يدير شؤونها موظفون قديرون يعينون خصيصاً لهذه الغاية ، كذلك كانت الحكومة توجه أقصى جهودها لتحسين حالة الفلاح وترقية الصناعة فمسحت الأرض حقلا حقلا ، ووضعت الجباية فى مصر والشام والجزيرة وجنوبى فارس على أسس ثابتة متناسقه . ولو ألقينا نظرة عجلى على سجل المسح لألفينا مقـدار العناية التى كانت الحكومة تبذلها فى مسح الأرض مع ذكر موجز لتربتها وحاصلاتها وهوية أصحابهـا وما إلى ذلك ؛ كما شيدت شبكة واسعة النطاق من الترع والمصارف فى بابل ، وقويت السداد على ضـفاف دجلة والفرات تحت إشراف موظفين فنيين . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن « عمر » خفض ضريبة الزرع وأمر بحفر القناة القديمة الممتدة من النيل إلى البحر الأحمر تسهيلا للمواصلات بين مصر و بين جزيرة العرب . وقد تم حفرها فعلا فى أقل من ســنة . و يقال إنه حينما أبحرت السفن النيلية إلى ينبع وجدة مشحونة بالمحاصيل المصرية هبطت أسـعار الحنطة فى أسواق مكة والمدينة حتى كادت تبلغ أسعارها الأولية .

القضاة

أما المنازعات والخصومات فقد كان يفصل فيها قضاة مدنيون يعينون رأساً من قبل الخليفــة ؛ وكان « عمر » أول من عين الرواتب للقضاة وفصل دوائرهم عن الدوائر التنفيذية وأطلق عليهم اسم « حكام الشرع » . وهكذا كانت الإدارة

الإسلامية منذ أوائل عهدها تعترف قولا وعملا بنظرية الفصل بين القضاء والسلطة التنفيذية ، وكان القضاة مستقلين فى أحكامهم والكل فى نظرهم سواء وفوق ذلك كان الخلفاء أنفسهم يتحينون الفرص ليبرهنوا على خضوعهم لسلطان القانون كما كان الأهلون يقومون فيما بينهم بواجبات الحراسة فى مبدإ الأمر ، فأوجد « عمر » العسس والخفر . ويمكن أن يقال إن نظام الشرطة لم يؤسس إلا فى عهد « على بن أبى طالب » الذى أطلق على رئيسهم اسم « صاحب الشرطة » ، كذلك أشار باستعمال التاريخ الهجرى ، وشيد الجوامع وفتح المدارس فى أنحاء الإمبراطورية العربية وخصص الأوقاف للصرف عليها .

أما الجباية فكانت على أنواع ثلاثة وهى :

(١) الأعشار أو الزكاة وتؤخذ من أغنياء المسلمين وتفرق فى الجيش والموظفين المستخدمين فى جمعها والفقراء من المسلمين .

(٢) ضريبة الأرض التى تفرض على الذميين وكانت تسمى بالخراج .

(٣) ضريبة الأعناق أو الجزية وكانت معروفة عند الروم بنفس الاسم ، وشائعة فى حكم الساسانيين فى الإمبراطورية الفارسية . فإذا كان المسلمون قد أدخلوا هذه الضريبة فى مصر والشام والعراق وفارس فإنما يكونون قد اتبعوا سابقة كانت الأمم الأخرى تعمل بها ؛ ولكن المسلمين وضعوا لها نظاماً عادلا باعتبار درجات الناس ومقدرتهم ؛ ومع ذلك فقد نصوا على استثناء بعض المدن والولايات والقبائل من هذه الأعباء بينما فرضوها على البعض الآخر ، وقد كان يشترط فى جمعها ألا تكون مصدر ضيق لدافعيها وكان اليهود والمسيحيون الذين يطلق عليهم اسم « أهل الكتاب » يعاملون بكل عدل وإنصاف .

الجيش

كان الجيش العربى يتألف من جنود البدو المرتزقة ومن متطوعى المدينة والطائف وبعض المدن الأخرى ؛ وكانت رواتبهم تدفع فى بادئ الأمر من الأعشار ثم أمست تدفع من الأعشار والجزية معاً . وكان الخليفة يعين القائد العام

الذى كان ينتخب بنفسه الضباط ويؤم المصلين ؛ وإذا اتفق أن وجدت عدة فرق فى أية ولاية ، فقد كان الخليفة يعين بصراحة اسم القائد الذى يصلى بالجنود الأمر الذى كان يقرر مركزه كرئيس لبقية القواد .

ونلاحظ أن « عمر » فى أواخر عهده أخذ يرشح صغار الضباط كالعرفاء ومن إليهم . أما جزاء الإخلال بالنظام أو التأخر عن الانخراط فى الجندية فكان عبارة عن تمزيق العمامة وهو عقاب كان يعتبره الجندى فى تلك الأيام عاراً لا يمحى .

وكان الجيش يتألف من الفرسان والمشاة ، أما الأولون فكانوا يتسلحون بالدروع والسهام والنشاب ؛ كما كان رماة السهام يؤلفون العنصر الغالب فى المشاة الذين كانوا يتألفون من ثلاثة صفوف متراصة يتقدمهم عادة حاملو الرماح لصد هجمات فرسان العدو ؛ ثم يليهم حاملو السهام . أما الفرسان فكانوا يقفون على الميمنة والميسرة ؛ كذلك كانت المعارك تبدأ بالمناهدة أو المبارزة بين الأفراد . ولا يخفى أن تفوق العرب كان يعزا على الأغلب إلى سرعة الانتقال والمقدرة على تحمل شظف العيش وهى صفات إن اجتمعت معها ميزة الحماسة جعلت من أصحابها جيشاً لا يقهر . وقد كان العرب يجهزون دائماً بأحسن الأجهزة ويركبون الجمال إذا ما أرادوا قطع المسافات الشاسعة . أما معسكراتهم فكانت فى بادئ الأمر عبارة عن خصاص مصنوعة من الجريد ولكن ما انقضت مدة وجيزة حتى أمر الخليفة بأن تشيد محطات عسكرية دائمة فى البصرة والكوفة فى العراق ، والفسطاط فى مصر ، والقيروان فى أفريقيا ، والمنصورة فى السند وهلم جرا . كذلك أقيمت حاميات قوية فى المدن الأخرى كحمص وغزة والرها وأصفهان والإسكندرية لصد هجمات العدو الفجائية .

وكان أفراد الجيش يلبسون الدروع المصنوعة من السلاسل ويضعون على رؤوسهم الخوذ الفولاذية التى كانت تزين على الأغلب بريش النسور . أما المشاة

فكانوا يلبسون قمصاناً محبوكة على أجسامهم تنزل إلى ما تحت الركبـة فوق السراويل وينتعلون الأحذية ؛ وكانوا جميعاً يسيرون إلى ميدان القتال وهم يرتلون الآيات القرآنية الكريمة ويكبرون عند الهجوم ؛ كذلك كانوا يستعملون الطبول ويحملون معهم نساءهم وأولادهم ، كما شيدت لهم أماكن خاصة فى المدن والمحطات العسكرية .

وكان الفساد ممنوعاً منعاً باتاً ، كذلك كان شارب الخمر يعاقب بثمانين جلدة ولم يكن ليسمح قط للجنـدى الذى كان يخدم خارج بلاده بالتغيب عن أسرته أكثر من أربعة أشهر دفعة واحدة ، ولا يفوتنا أن نقول إن « عمر » كان أول من وضع نظام سجلات الجند وأسس الحصون على الحدود وعين قواد السير .

الحياة الاجتماعية

وفى أوائل تأسيس تلك الدولة لم يكن قد وجد بعد طراز معين لفن العمارة العربية . فكان المرء يشاهد فى مكة منشآت قليلة ذات ظواهر معمارية بدائية كالكعبة . وكان الأغنياء يبنون منازلهم إما من الحجر أو الآجر كما كانت تشيد جل منازل المدينة من الآجر فقط ، حتى أن الجوامع الرئيسية فى المدينة كانت متواضعة البنيان مشيدة من آجر تكسوه طبقة من الجص ، وكانت معظم المنازل ذات طابق واحد له فضاء يتوسطه بئر . غير أننا نشاهد فى نهاية عهد ثانى الخلفاء الراشدين أن المعماريين الأجانب أخذوا يؤمون عاصمة الإسلام ويمتهنون حرفتهم فأدخلوا على الفن المعمارى فى تلك البلاد رونقاً جديداً كما شرع أثرياء مكة والمدينة يشيدون منازلهم بالحجارة والمرمر .

ويقال إن القصر الذى شيده « عثمان بن عفان » كان فخماً رحباً فاخراً كذلك هدم الجامع الكبير وأعيد بناؤه وأقيمت له جدران ودعائم من الحجر والمرمر . وقد ذكر المسعودى أنه فى أيام « عثمان » ابتنى الصحابة لأنفسهم الدور الفخمة ، وبنى الزبير بن العوام داره بالبصرة وكانت لا تزال قائمة فى سنة ٣٥٢ هـ ؛ كما بنى عدة دور بالفسطاط والكوفة والإسكندرية ، كذلك شيد طلحـة داراً

بالكوفة وأخرى فى المدينة بالجص والآجر والساج . وهذه المنازل وحدائقها كانت لا تزال محتفظة بجدتها ورونقها فى أيام المسعودى . و بعد أن يسوق لنا هذا المؤرخ المشهور الأدلة على فخامة القصور يعلق عليها بقوله : « ما أعظم الفرق بين هذا البذخ و بين بساطة الحياة فى عهد عمر بن الخطاب » .

وفيما كان أهل مكة منصرفين إلى التجارة كان أهل المدينة يسعون فى تحصيل معاشهم بالزراعة الأمر الذى كان يزيد فى حدة المنافسة بين البلدين فيعيد إلى أذهاننا قصة أثينا واسبرطة . وقد كان أهل مكة يأخذون من لذائذ الحياة بنصيب كبير فيشربون الخمر و يقامرون فى حين كان أهل المدينة وعلى الأخص بعد النبوة يقتدون بزعمائهم ، ويزاولون ضروب التقشف والتقوى ؛ ولكن لم تكد مكة تؤول إلى أيدى المسلمين حتى تخلق أهلها المرحون بالأخلاق الإسلامية ، وتمسكوا بأهداب الفضيلة . وظل هذا شأنهم فى عهدى « أبى بكر » و « عمر ابن الخطاب » حتى إذا ما تولى عثمان بن عفان الخلافة استأنف كثير من شبابهم حياة القصف واللهو وأصبح تشببهم بالنساء أمراً مألوفاً . كذلك تأثرت مدينة دمشق فى زمن خلافة الأمويين بلهو مكة أسوأ تأثير ؛ غير أن أهل المدينة مع ذلك أخذوا أنفسهم بالشدة فكانت قاعات المحاضرات تزخر بالطلاب والطالبات المتحمسين للاستماع إلى خطب الخلفاء . ولم تكن الموسيقى — وهى الغناء والضرب على القيثارة والناى — قد حرمت بعد فكانت أكبر سلوى لهم بعد الفراغ من شغالهم اليومية .

وكانت نساء المدينة مشهورات بجمال الصوت ؛ و يقول لنا المؤرخون : « إن عمر بن الخطاب — وهو تلك الشخصية الصارمة — كثيراً ما كان يقف أثناء جولاته الليلية ليصغى إلى الموسيقى والغناء » .

وكانت منازل سراة القوم تفرش بالبسط واللبد إذ لم تكن الكراسى والمناضد قد عرفت بعد ، وكانت ثمة أجنحة خاصة بالنساء كما كان الشأن فى إنجلترا فى حكم

الانكلوسكسون والنورمنديين الأولين ، وكانت تلك الأجنحة تشبه فى رياشها ونظامها الأجنحة المخصصة للرجال . أما الطعام فكان يقدم فى صحاف توضع على جلود مغطاة بالقماش ؛ وكانوا يغسلون أيديهم قبل تناول الطعام و بعده كما كان الشأن فى أوروبا فى العصور الوسطى . ولم تكن السكاكين ولا الأشواك معروفة فكانوا لذلك يأكلون بأصابعهم كما كان يفعل أهل أوروبا إلى زمن متأخر جدا .

وكانت ملابس البدوى تتألف من قميص طويل يصل إلى الركبة وحزام من الجلد يتمنطق به حول وسطه ثم يتشح بعباءة فضفاضة مصنوعة من الوبر ، وكانت السراويل تلبس مع القمصان فى أثناء الحروب أو عند ركوب الخيل ، وكان لبس الرأس عبارة عن الكوفية والعقال .

أما رجال الطبقة العليا فى المدن وشيوخ القبائل ، فكانوا يلبسون القميص المرسل إلى الركبة فوق السروال و يرتدون فوقه رداء فضفاضاً يصل إلى الكعب كذلك كانوا يتشحون بالجبة أو العباءة . أما القباء المأخوذ عن البيزنطيين فلم يعم إلا فى أواخر عهد الجمهورية وكان على نوعين: نوع ذو أردان واسعة ، والنوع الآخر له أردان ضيقة لا يزال أشراف فارس على الأغلب يلبسونه حتى اليوم . كذلك كانوا يلبسون العمامة التى كانت تختلف فى حجمها باختلاف السن والجاه والدرجة العلمية ، كما كانوا يضعون فوقها طيلساناً يسبلون مطارفه فيحمى الرقبة من حرارة الشمس . وكانوا أيضاً ينتعلون الصندل أو الحذاء .

أما النساء فكان يتألف لباسهن من سروال واسع ودرع مفتوحة عند الرقبة و يلبسن فوقه وعلى الأخص فى الشتاء سترة ضيقة ، بيد أن لباسهن الرئيسى كان عبارة عن رداء طويل كن يرتدين فوقه عباءة .

أما لباس الرأس فكان عبارة عن منديل يلففنه على الجبهة ؛ ولا يخفى أن النساء فى زمن الجاهلية كن يلبسن قميصاً أو سترة مفتوحة من الصدر ، فأوصى النبى (صلى الله عليه وسلم) باستعمال العباءة الطويلة عند خروجهن من بيوتهن ،

وقد تطورت تلك العباءة فى العهد العباسى الأخير حتى أصبحت ذلك اللحف الذى نشاهد النساء يلتففن به فى البلاد الإسلامية .

وكانت العربيات وما زلن سافرات . أما الحجاب المستعمل الآن فى معظم البلاد الإسلامية فلم يستعمل إلا بعد زوال الدولة العباسية ، وكانت النساء فى عهد الجمهورية يتمتعن بقسط وافر من الحرية كما كن يحضرن خطب الخلفاء والمحاضرات التى كان يلقيها على بن أبى طالب وابن العباس ؛ ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الاختلاط بالدولة البيزنطية والفارسية لم يكن قد أثر بعد على النخوة العربية .

وكان العرب قبل الإسلام كاليهود القدماء يعددون الزوجات ، وهذه العادة ليست إلا نتيجة طبيعية للحروب والغزوات التى كان يذهب ضحيتها عدد كبير من الرجال ؛ ولولا هذا الجواز لهلك الكثيرات من النساء جوعا . وقد حرم النبى بطريقة غير مباشرة تعدد الزوجات بأن اشترط العدالة بينهن ؛ ومع ذلك فقد جعله ملائما للطبقات الاجتماعية ، وقد كانت الحياة العائلية مشيخية فى عهد الجمهورية ؛ وقد حرم الإسلام شراء الرقيق وبيعه ولم يسمح إلا بإبقاء أسرى الحرب حتى يفتدوا أنفسهم على شرط أن يعاملوا على قدم المساواة مع أفراد العائلة .

الفصل السابع

الأمويون

الحسن — تنازله — معاوية — اغتصاب الخلافة — النزاع بين القبائل
بنو مضر — بنو حمير أواليمانيون — تأثير النزاع بين القبائل على الإسلام —
توسع الإمبراطورية — وفاة معاوية — يزيد — الحسين — موقعة
كربلاء — الثورة في الحجاز — انتصار جيش الشام في الحرة — نهب المدينة —
موت يزيد — معاوية الثاني — عبد الله بن الزبير — مبايعة أهل الحجاز

الحسن (٤٠ هـ)
٦٦١ م

انتخب الحسن أكبر أبناء على، للخلافة انتخابا عاما من جميع أهل الكوفة وملحقاتها؛ بيد أن عدم استقرار الشعب المتقلب الأهواء، الذى حطم آمال الأب أدى بالابن إلى التنازل السريع عن الحكم؛ وذلك أن الخليفة الجديد لم يكد يتولى منصب الخلافة حتى زحف معاوية على العراق، فاضطر الحسن إلى أن يدخل ميدان القتال، قبل أن يدعم مركزه، أو ينظم الإدارة التى اضطربت بموت أبيه. فسير قوة تحت إمرة قيس لصد هجمات جيش الشام، وأسرع هو بالقوة الرئيسية إلى المدائن. وحدث أن أشيع كذبا بين جنوده سقوط «قيس» فى حومة الوغى، وانهزام جيشه؛ فتمرد جنود الخليفة الشاب؛ وانتهبوا سرادقه ورحله؛ وفكروا حتى فى القبض عليه وتسليمه إلى معاوية؛ فيئس الحسن مما ناله على أيديهم وارتحل إلى الكوفة مصمما على التنازل عن الخلافة؛ وقد حمله غدر مؤازريه العراقيين، الذين أسرفوا له فى الوعود وبرهنوا على نكث العهود على أن يعير اقتراحات معاوية أذنا صاغية. وأدت المفاوضات التى دارت بينهما إلى عقد الصلح؛ على أن تكون الإمامة لمعاوية ما كان حيا؛ فإذا ما مات فالأمر للحسين أصغر أبناء على؛ وبعد تنازله انصرف راجعا مع أهل بيته إلى

تنازل الحسن
عن الخلافة

المدينة ؛ غير أنه لم يستمتع طويلا بالراتب الذى ضمنته له معاهدة الصلح إذ مات مسموما بعد بضع سنين بتحريض من يزيد بن معاوية .

معاوية

وبتنازل « الحسن » أصبح « معاوية » الحاكم الحقيق للمسلمين ؛ وانتقل مركز الحكومة التى أسسها « على » فى الكوفة إلى دمشق حيث أحاط معاوية نفسه بأبهة الفرس والرومان ؛ وعمد إلى الخنجر والسم للقضاء بهما على أعدائه الألداء وأصدقائه الذين لم تكن لتلين لهم قناة دون أن تحول أوشاج الدم والتفانى فى خدمة الإسلام إلى ذلك المصير المحزن . ومن ضمن الذين لاقوا حتفهم بسبب الطموح أو الاختلاف فى الرأى « عبد الرحمن » ابن فاتح الشام العظيم [١] الذى كانت شهرته العظيمة فى تلك البلاد والتقدير الذى ناله من مفكرى المسلمين باعثين على اغتياله . ويوجز لنا كاتب إنكليزى [٢] محايد أخلاق معاوية والظروف التى ساعدته على النجاح فى قوله : « كان الخليفة الأموى الأول ذكى الفؤاد قاسى القلب لايحجم عن القتل فى سبيل توطيد ملكه ؛ كذلك كان الاغتيال وسيلته الوحيدة لإزاحة أعدائه ؛ وهو الذى حرض على تسميم ابن بنت الرسول ؛ وعلى هذا النمط لاقى الأشتر النخعى مالك بن الحارث أحد قواد على الأبطال حتفه » .

ولكى يضمن « معاوية » الخلافة لابنه يزيد لم يتردد قط فى نكث العهود مع الحسين بن على . ومع ذلك فإنا نرى هذا العربى البعيد النظر يحكم دولة المسلمين ويحصر الخلافة فى أسرته ٩٠ سنة ؛ ولا نستطيع أن ننسب هذا الشذوذ إلا لعاملين أمكن التوصل إليهما خلال هذا البحث وهما : أن المسلم الشديد الورع يرى أنه لايستطيع القيام بالشعائر الدينية — كما ينبغى — إلا إذا نبذ

---

(١) عبد الرحمن بن خالد بن الوليد .

(٢) أوسبرن « الإسلام فى ظل حكم العرب » .

التدخل فى الأمور الدنيوية جانبا ؛ أما السبب الثانى والأهم فهو الروح القبلية المتأصلة فى قلوب العرب .

وهكذا نجد غزاة آسيا وفاتحى أفريقيا الشمالية ومدوخى أسبانيا لا يعجزون عن السمو إلى مستوى مركزهم العالمى فحسب ؛ بل نراهم أيضاً فى وسط العظمة التى يرفلون فى حللها يحتفظون بنزعاتهم المتباينة وتنافسهم على أشد ما يكون التنافس والتباغض والنزاع المعروف عن أهل الصحراء ، وعلى الجملة فقد شرعوا ثانية يذكون أوار العداء ويؤججون أجيج البغضاء فى ميدان أوسع ومسرح أكبر .

تأثير خلافة بنى أمية فى الإسلام

لم ينجم عن تولى الأمويين دفة الحكم تغيير معالم الخلافة فحسب بل أدى أيضاً إلى قلب المبدإ السائد وخلق عوامل جديدة أثرت تأثيراً عظيما على مصاير تلك الإمبراطورية وعلى تطور شعبها . ولكى ندرك هذه الظروف تمام الإدراك ونلم بمجرى التاريخ يجب أن نستعرض بإيجاز وضع القبائل العربية المختلفة فى مواطنها وعلاقاتها الواحدة بالأخرى . فلو طرحنا جانباً الحروب التى يرجع أصلها إلى التباغض الدينى أو إلى الخلاف فى المبادئ الأساسية كالكفاح بين الديمقراطية والأتوقراطية ، أو بين الحرية الشخصية و بين الاستبداد الإقطاعى ، لما رأينا فى آسيا وأوروبا ولا بين المسيحيين والمسلمين سبباً أدى إلى التفرقة — سواء بين طوائف الشعب الواحد أو بين الشعوب المختلفة و إقحامهم فى حروب دموية مهلكة — مثل ذلك العداء العنصرى الذى يلقى ظلا قاتماً على الأجيال وتتضاءل دونه الثورات الدينية والاجتماعية والسياسة .

بنو حمير

كان يستوطن بلاد العرب فى حياة النبى (صلى الله عليه وسلم) شعب ينتسب إلى قبيلتين مختلفتين تنتسب إحداهما إلى قحطان والأخرى إلى إسمعيل ابن إبراهيم ، وكان منشأ الأولى اليمن وموطن الثانية الحجاز ، وأطلق على القحطانيين فيما بعد اسم الحميريين نسبة إلى حمير أحد أولاد عبد شمس و إن كان مؤرخو العرب يطلقون عليهم اسم اليمنيين نسبة إلى موطنهم الأصلى .

أما القبيلة التى استوطنت مأرب (سبأ) عاصمة اليمن تحت سلطان ملوك بنى حمير فاسمها بنو أسد من أولاد قحطان، ويظهر أن بنى أسد كانت قد ارتحلت إلى الشمال فى القرن الثانى الميلادى وأجلت القبائل الأخرى عن مواقعها، ثم استقر فرع منها فى «بطن مر» على مقربة من مكة وأطلق عليه اسم قضاعة، وكان هؤلاء يقيمون فى ذلك الموضع عند ظهور النبى؛ كما نزل فرع آخر من هذه القبيلة فى يثرب حيث انقسم بمضى الزمن إلى عشيرتين هما الأوس والخزرج، وارتحل آخرون إلى سوريا والعراق؛ فأطلق على الذين استوطنوا جانب الشام اسم بنى غسان (الغساسنة)؛ والذين سكنوا أطراف العراق اسم بنى كلب؛ كذلك نزل فرع آخر بهمدان بينما ولى عدد كبير منهم وجهه شرقا ونزل بولاية عمان على سواحل الخليج الفارسى.

ذلك هو الوضع الذى كان عليه الحميريون إبان بعث الرسول صلى الله عليه وسلم.

المضريون

كذلك يطلق أحياناً على القبائل الإسماعيلية اسم بنى معد[1]، ولكنهم يسمون غالباً ببنى مضر نسبة إلى مضر حفيد معد؛ وسوف نطلق عليهم فيما يلى من فصول الكتاب اسم المضريين، وإن كان المؤرخون العرب يستعيضون عنه بأسماء البطون كقريش وقيس وبكر وتغلب وتميم. أما قريش فقد سكنوا مكة وضواحيها، وانتشرت البطون الأخرى فى أنحاء الحجاز (ما عدا يثرب) وأواسط بلاد العرب.

العداء والتنافس بين حمير ومضر

وقد نشأ بين هذين الشعبين بنى حمير وبنى مضر عداء شديد لا يدرك كنهه ومداه من ينظر إلى هذا الموضوع من وجهة نظر التاريخ الأوربية؛ فكان اللسان الحميرى وهو مزيج من اصطلاحات سامية وأخرى محلية قد استعيض عنه قبل ظهور النبى (ص) بزمن طويل باللغة العربية المصفاة وهى لغة

---

(١) مضر هو ابن معد بن عدنان حفيد إسماعيل عليه السلام.

بنى مضر التى نالت أرجحية أدبية ، وأخذ العرب فى كافة أنحاء شبه الجزيرة يتكلمونها مع اختلاف بسيط فى اللهجة والجرس ، ومع أن عاداتهم وأخلاقهم ومناحى تفكيرهم وأذواقهم كانت متشابهة ، إلا أنه كان ثمة فرق واضح بين القبيلتين ، فإذا ما استقصينا أسباب ذلك الفرق وجدنا أن بنى حمير كانوا قد بلغوا شأواً عظيما فى المدنيـة قبل بزوغ فجر الإسلام بعدة قرون ؛ فكانوا أينما حلوا يؤسسون لهم حكومة منظمة وإن كانت بدائية ، غير أنها كانت على كل حال منظمة تنظيما كافياً لأغراض الحياة المدنيـة العادية ، وكانوا فوق ذلك يعرفون فن الكتابة ، كما كان معظمهم يزاول مهنة الزراعة .

أما قبيلة مضر فكانت منذ زمن « قصى » باستثناء قريش بدوية رحالة وكان كل بطن من بطونها منعزلا الواحد عن الآخر ، فتباينت نزعاتها وتباعدت مصالحها ، وفوق ذلك كان كل بطن منها ينتخب رئيسه بطريقة الاقتراع ؛ فلا جرم أن يؤدى هذا التباعد بطبيعة الحال إلى تفرق كلمتهم وخضوعهم إلى سلطان بنى حمير . ولكنهم على الرغم من الحروب الشعواء التى كانوا يشنونها دفاعاً عن حريتهم المثلومة واستقلالهم المفقود ، رزحوا تحت سلطان الحميريين وأخذوا يدفعون لهم الجزية حتى القرن الخامس الميلادى . وقد أثار ذلك النزاع المتواصل بين حمير ومضر فى سبيل التفوق من جهة ، ونيل الاستقلال من الجهة الأخرى عاطفة جامحة من الحسـد والبغضاء فى قلوب الفريقين ، وزاد فى سعيرها قصائد شعرائهما الحماسية التى كانوا يشيدون فيها بأيام الحروب والسلطان ، كفوز كندة على بنى تميم ، واكتساح قيس لبنى أسد . ولما ظهر الإسلام بدأت تعاليمه تقضى على ذلك العداء القبلى ، وتلطف من حدة تلك القصائد النارية .

ولو عاش الرسول مدة أطول لصهرت تعاليمه وشخصيته الفذة تلك القبائل فى شعب متجانس ، ولا نعتقد أن عشر السنوات — مدة الرسالة — كانت كافية للقضاء على هذا الحقد المؤرث ، ولكن الرسول (ص) استطاع أن يطهر

قلوبهم من الضغائن والأحقاد فى المدينة وحدها حيث كان نفوذه قد بلغ حد الكمال .

وتقول الرواية العربية إن موجة الفتوحات التى وقعت فى أيام أبى بكر وعمر حملت معها القبائل العربية إلى أنحاء العالم القديم ، فنزلت « مضر » بالبصرة ، وسكنت حمير الكوفة ، وأصبح بنو مضر هم العنصر السائد فى دمشق وفلسطين ، واستقر فرع من حمير فى القسم الشمالى من الشام ، وشمالى بلاد العرب أما الولايات الشرقية ومصر وأفريقيا فقد انتشر فيها — كثيراً أو قليلا — بطون من هاتين القبيلتين ؛ ولكنهم كانوا — أينما رحلوا — يحملون فى أفئدتهم الضغائن والتنابذ القديمين . ولا مرية أن « عمر » العظيم استطاع أن يكبت تلك العواطف المتأججة بيد من حديد ، كما أن العمل الذى كان ملقى على كواهلهم كشعب فاتح — وهو حفظ النفس وضرورة التوسع — لم يكن ليسمح لهم قط بإظهار أية عاطفة غير عاطفة المنافسة الشريفة . ولو قدّر «لعلى» أن يخلف « عمر » بهدوء واطمئنان لأمكنه على الأرجح أن يوحد هاتين القبيلتين ويجعل منهما شعباً متجانساً تحدوه نزعة واحدة ، ولكن الأمويين لم يلبثوا — فى عهد « عثمان » أن أوغروا فى الصدور مكنون الضغائن القديمة التى كان يشتد سعيرها فى الأندلس وصقلية وصحارى أفريقيا ، وسهول خراسان وقفار كابول . ويؤيد لنا التاريخ فيما بعد أن هذا التباغض المحزن لم يكن وخيم العاقبة على مثيريه فحسب ، بل كان له أعظم الأثر أيضاً على مستقبل الشعب العربى ، وعلى تقرير مصير العناصر الرومانية والجرمانية التى اشتبكت معهم فى القتال .

ومن المحزن حقًّا أن العرب لم يدركوا وقتئذ حراجة موقفهم ، بل راحوا يضعون العقبات فى سبيل نجاحهم فى اللحظة التى طأطأ الغرب لهم هامته ، وخر ساجداً تحت أقدامهم . ومهما يكن من شىء فإن تفاقم تلك الأحقاد أدّى فى الواقع إلى ضياع أهم جزء من إمبراطوريتهم .

سياسة معاوية

كان معاوية يعتمد فى تأييد سلطانه على مؤازرة المضريين ، ولكنه برغم ذلك بقى محافظاً على الموازنة بين كفتى هاتين القبيلتين ، أما فى زمن خلفائه فقد تبدل الحال تماماً وأصبحت القبيلة التى تتغلب ردحاً من الزمن تسوم أختها صنوف الاضطهاد . ومما يسجل للأمويين بالفخر والإعجاب ، أنهم ظلوا محافظين على ولائهم للخليفة الأموى عماد بيتهم ورئيس قبيلتهم ، كذلك كان جنود الشام قد عرفوا بإخلاصهم له . وإن ننسى لا ننسى تلك الظاهرة التى بدت واضحة جلية فى تلك الأثناء ، وهى أن المتدينين والمفكرين انسحبوا من ميدان السياسة وقصروا همهم على دراسة اللغة والآداب والشريعة التى كانت قد وضعت أسسها الأولى فى ذلك الحين ، واطمأنوا إلى حياتهم الجديدة فى تلك العزلة الاختيارية . أما الخوارج الذين ثاروا على « على بن أبى طالب » فقد انهزموا فى موقعة النهروان ، والتجأوا إلى ولاية الإحساء وأواسط بلاد العرب ذات المسالك الوعرة وأخذوا يبشرون بمبادئهم[1] المغالية ذات الصبغة القاتمة ، وهكذا أصبحوا بكثرة عددهم واستهتارهم بالحياة وإخلاصهم وتفانيهم لمبدئهم عاملا مخيفاً يقلق مضجع حكومة الشام ، فثاروا على معاوية واحتلوا كلدة ، وهددوا بغزو العراق ، ولكنهم برغم ذلك منيوا بشر هزيمة واضطروا إلى الاعتصام ثانية فى معاقلهم فى الصحراء .

الفتوح فى أفريقية

وما أن وطد معاوية دعائم سلطانه فى دمشق حتى حول اهتمامه شطر أفريقيا . ويلاحظ أن العرب إنما يقصدون بأفريقيا البلاد الشمالية الواقعة فيما وراء حدود مصر ، ويقسمونها إلى ثلاثة أقسام[2] :

---

(١) كان هؤلاء يعترفون بالخليفتين الأولين فحسب ويذهبون إلى أن الأمويين مشركون ويقولون بضرورة انتخاب الإمام من بين المسلمين دون التقيد بأسرة أو قبيلة وإجراء حكم الله ويرون من عداهم مقضيا عليه بالنار ، ويحرمون الملاهى على أنواعها وعقاب من يتعاطاها الموت الزؤام .

(٢) يقال إن أحد ملوك الحميريين كان قد توغل فى شمالى أفريقا حيث أسس مستعمرات سكنها بعض القحطانيين ولهذا سمى أفريقيوس أو أفريقانيوس .

(١) بلاد المغرب الأقصى الممتدة من سواحل المحيط الأطلسى إلى تلمسان جنوباً حتى الصحراء الكبرى .

(٢) المغرب الأدنى ويشتمل على البلاد الواقعة بين وهران وبجاية .

(٣) سهول أفريقيا الممتدة من تخوم الجزائر الحالية شرقاً إلى حدود مصر .

كذلك كان يسكن أفريقيا الشمالية غربى صحراء ليبيا ، وشمالى السودان ، شعب ينتسب إلى الأصل السامى ، كما أن كثيراً من العشائر الضاربة فى سهول تلك المنطقة وتلالها ترجع فى نسبتها إلى قبيلتى حمير ومضر العربيتين ، وكانوا على أكبر جانب من الشجاعة وشدة البأس وحب الاستقلال المعروف عن أهل الصحراء . وقد احتل العرب تلك الولاية لأول مرة فى عهد « عمر بن الخطاب » ثم توغلوا فى هضابها فى زمن « عثمان بن عفان » حتى وصلوا إلى برقة .

وعلى أثر هزيمة « غريقريوس » فى المعركة الفاصلة التى دارت رحاها على مقربة من « قرطجنة » القديمة ، تعهد الروم بأن يدفعوا جزية سنوية للعرب الذين وافقوا هم أيضا على الانسحاب تاركين حاميتين صغيرتين فى « زويلة » و « برقة » وما هى إلا برهة من الزمن حتى دخل الروم ثانية تلك البلاد ، غير أن جشعهم وابتزازهم الأموال بلغا درجة لم يحتملها الأهلون ، فهبوا ايستنجدون بالعرب لإنقاذهم من نير الدولة البيزنطية ، وسرعان ما لبى معاوية نداءهم وأرسل جيشاً لجباً برئاسة عقبة بن نافع المشهور ، فأجلاهم عن البلاد وألحقها بالإمبراطورية العربية .

تشييد مدينة القيروان

وفى عام ٥٠ هـ شيد عقبة فى جنوبى تونس مدينة عسكرية باسم «القيروان» وجعلها قاعدة لصد هجمات البربر وحماية جنود العرب من غزو الروم ، وبذلك أصبحت الغابة الكثيفة التى كانت مرتعاً خصيباً للوحوش الضارية والزحافات السامة أرضا مستوية ، تقوم فوقها تلك المدينة الزاهرة التى لا نزال نشاهد آثارها حتى اليوم .

وفى عام ٥٥ هـ بدأ « عقبة » فى زحفه المشهور على الغرب ، فأخذت المدن

تقدم إليـه طاعتها الواحدة تلو الأخرى ، بالرغم من مناوشات الجيوش الرومانية والبيزنطية ، وهكذا ظل يتوغل فى تلك الأصقاع حتى وصل إلى المحيط الأطلسى ، فأثر زحفه المدهش والضربات السريعة التى أنزلها بالروم والبربر تأثيرها المطلوب وبقيت البلاد بعد ذلك تمتع بنعمة الطمأنينة والعـدل . وقد ظل عقبة ، فيما عدا فترة قصيرة استدعاه فيها الخليفة إلى دمشق ، يحكم أفريقيا وملحقاتها الغربية حتى لاقى حتفه عام ٦٥ هـ . وفى تلك السنة انقضّت قبائل البربر الوحشية من قمم الجبال وتلال الأطلس على جنود العرب القليلى العـدد فى معسكراتهم فى القيروان ، ويؤكد لنا المؤرخون أنه ليس ثمة شعب أو عنصر يعدل العنصر العربى فى الشجاعة التى أظهرها ، والنشاط الذى أبداه فى خلال الحروب على تلك العناصر الوحشية المحاربة فى شمالى أفريقيا . وقد استطاع العرب بجيشهم القليل العدد والعدد أن يفتحوا بلادا مترامية الأطراف لا يسكنها شعب مسالم بالضرورة كالشعب الهندى إنما يسكنها شعب شرس الطباع معتاد على الحروب والطعان .

مقتل عقبة

أحاط البربر بالعاصمة إحاطة السوار بالمعصم ، بيد أن عقبة لم يكن ممن تفدحهم الخطوب ؛ فكسر غمد سيفه إيذانا منه بالعزم على الموت دون التسليم وهجم مع فرقته الصغيرة على أعدائه هجمة رجل واحد ، ولكن سيوفهم لم تفدهم فتيلا فى تلك المعركة ، إذ لم يلبث العدو أن فتك به وبمعظم جنوده ، وقد عاد من بقى منهم حيا إلى مصر . وهكذا سقطت القيروان ثانيـة فى أيدى البربر ، وخيّل أن حكم العرب فى أفريقيا قد أفل نجمه إلى الأبد .

الفتوح فى الشرق

وإذا عدنا بالذاكرة على أجنحة الخيال إلى المشرق فى تلك الأثنـاء لرأينا المهلب بن أبى صفرة يحتل بلاد السند ووادى الهندوس المنخفض ، ورأينا العرب أيضا يحوزون النصر تلو النصر فى الأفغان الشرقية ؛ أما الروم الذين انتهزوا فرصة وقوع المنازعات الداخلية وأغاروا على الممتلكات الإسلامية ، فقـد منيوا بشر

هزيمة فى عدة مواقع ، وفر الأسطول الرومانى أمام أسطول العرب ، كما أسلمت عدة جزر من جزر الأرخبيل اليونانى .

معاوية يستخلف ابنه يزيد

وتقول لنا الرواية العربية إن « معاوية » بتحريض من « المغيرة بن شعبة » عامله فى البصرة فكر فى مبايعة ابنـه « يزيد » بولاية العهد ، وكان يؤازره فى هذه الخطة « زياد بن أبيه »[1] عامله فى العراق وخراسان ، ويقال إن الخليفة استعمل فى إخراج تلك الأمنية إلى حـيز الوجود جميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، فرشا بعض العراقيين وأخاف البعض الآخر .

وفى عام ٥١ هـ خرج « معاوية » إلى المدينة ومكة لـكى يستوثق من أهل الحجاز ، واستطاع بتهديده وحيلته أن يأخذ البيعة منهم جميعا ما عدا أربعة من مشاهير المسلمين وهم : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وعبد الله بن الزبير ، إذ أبوا النزول على رأيه رغم الشروط السخية التى عرضها عليهم ، فتقوت بهم قلوب أهل الحجاز واشتدت عزائمهم ، وقد كان لعبد الله بن الزبير الذى يسميه معاوية « ثعلب قريش » عين ترنو إلى الخلافة أما الباقون فكانوا يبغضون يزيد لهنات ينقمونها عليه .

وفى شهر رجب عام ٦٠ هـ (نيسان ٦٨٠ م) توفى « معاوية » ، ويقال إنه كان أبيض البشرة ، طويل القامة ، متقنا للسياسة ، متأنيا للأمور ، مداريا للناس ، حاذقا ، شجاعا ، سخيا عند الضرورة ؛ ويقول المؤرخون : « إنه كان أول من ألقى الخطبة وهو جالس ، وأول من أدخل الخصيان فى خدمته الخاصة » وكان يقوم بأداء فروض الدين كاملة غير منقوصة ، ولـكنه لم يكن ليسمح قط لأى مخلوق أو قانون سماوى أن يتـدخل فى تنفيذ مشاريعه أو يحول دون تحقيق مآربه .

وتقول لنا الرواية العربية إنه حالما بويع بالخلافة تخلص من جميع أعدائه

(١) هو ابن أبى سفيان غير الشرعى ، ولهذا سمى « بابن أبيه »

وتفرغ لأمور الدولة التى أخذ يصرفها بحزم ودهاء جديرين بالإعجاب ؛ ويذكر المسعودى جملا من أخلاقه بقوله : « كان إذا صلى الفجر يجلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشى ، ثم يؤتى بالغداء الأصغر ويتحدث طويلا ، ثم يدخل منزله ؛ وبعدئذ يخرج إلى المسجد فيسند ظهره إلى المقصورة ، ويجلس على الكرسى ويقوم الأحداث فيتقدم إليه الضعيف والأعرابى والصبى والمرأة ومن لا أحد له يعرضون عليه شكواهم ، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ؛ ثم يقول ائذنوا للأشراف على قدر منازلهم ، ثم يؤتى بالغداء ويتقدم إليه أصحاب الحوائج ، ثم يرفع الغداء ويدخل منزله حتى ينادى بالظهر فيخرج فيصلى ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه ، ويجلس إلى العصر ؛ ثم يدخل منزله حتى ينادى بالعشاء الآخرة فيخرج فيصلى ، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية ، ويستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامهم والعجم وملوكها وسياستها ؛ ثم يدخل فينام » . وقد كان عهد معاوية على الجملة عهداً زاهراً ، تمتعت فيه البلاد بنعمة الطمأنينة والعدل ، وأصابت نجاحاً عظيما فى الخارج .

معاصر معاوية فى القسطنطينية

وكان قسطنطين الثانى الذى اغتال أخاه ثيودسيوس على رأس الإمبراطورية الرومانية فى أول عهد معاوية ، غير أنه تنازل عن الحكم لابنه قسطنطين الرابع .

يزيد الأول
شعبان ٦١ هـ
نيسان ٦٨٠ م

وعلى أثر وفاة معاوية بويع « يزيد » بمقتضى وصية والده . وباعتلاء يزيد عرش الخلافة تقوضت مبادئ الجمهورية القاضية باختيار أمير المؤمنين بالشورى وهى المبادئ التى افتتن بها العرب افتتاناً جعلهم يتجاهلون حق أسرة الرسول فى زعامة الإسلام الروحية والدنيوية ، ومنذ ذلك الحين أخذ الخليفة يوصى لمن يتولى بعده بالخلافة ضامنا تنفيذ وصيته بأخذ البيعة من الجنود والخاصة فى حياته . وقد قال الإمام الحسن البصرى الذى عاش فى نهاية ذلك العصر ما يلى : « لقد ارتبكت أمور المسلمين على يد رجلين هما : عمرو بن العاص الذى أشار على

معاوية برفع المصاحف على أسنة الرماح ، والآخر هو المغيرة الذى أشار على معاوية بأخذ البيعة لابنه « يزيد » ، ولولا ذلك لظل أهل الشورى ينصبون من يرونه أهلا لها إلى يوم القيامة ، إذ أن الخلفاء الذين جاءوا بعد معاوية انتهجوا سبيله فى أخذ البيعة على الناس لأولادهم » . وقد كان يزيد شديد الغواية ، فاسد الطبع ، عسوفا ظالماً ، سادراً فى لهوه ، صاحب طرب ومنادمة على الشراب .

وقد كان الصلح المعقود بين الحسن ومعاوية ينص على الاعتراف بحق الحسين فى الخلافة ، ولكن معاوية نقض العهد وأخذ لابنه البيعة لخنق الحسين ، وزاد فى حنقه فساد يزيد فلم يعترف قط بطاغية الشام ، ولهذا عند ما طلب إليه أهل الكوفة أن يعاونهم على رفع نير بنى أمية وينقذهم من استبدادهم لبى طلبهم فى الحال ، وباستثناء عبد الله بن الزبير الذى شجعه على المسير كيما يقصيه عن طريقه ويخلو له الجو من بعده ، فقد حاول جميع أصدقائه أن يثنوه عن عزمه ونصحوه ألا يثق بمواعيد العراقيين ، الذين وإن كانوا متحلين بالحماسة وشدة البأس إلا أنهم قوم قلّب يعوزهم الثبات والحزم ، فبينما تراهم يوماً شديدى الحماسة لعقيدة يدينون بها أو متفانين فى الإخلاص لشخص يعضدونه ، إذ بهم فى اليوم التالى قد أعرضوا عن العقيدة التى آمنوا بها وخذلوا الشخص الذى أجمعوا على نصرته بالأمس ؛ غير أن التأكيدات التى وردت إليه بأن أهل العراق قد أجمعوا على مبايعته ، وأنهم سوف يهبّون لنصرته متى وصل إليهم ، حملته على الشخوص إلى الكوفة فاجتاز الصحراء دون أن يلقى أية مقاومة ؛ وكان يصحبه جماعة من أهل بيته وأصحابه وأتباعه المخلصين وأطفاله ونسائه ؛ فلما اقترب من حدود العراق لم ير أثراً لجيش الكوفة الذى وعده بالموت دونه ، فروّع لتلك المفاجأة ، ودخلت على قلبه الوحشة من مظهر البلد العدائى ، وشم فى الجو رائحة الغدر والخيانة ، فعسكر مع جماعته الصغيرة فى الموقع المسمى الآن « بكر بلاء » على مقربة من الشاطئ الغربى للفرات ؛ ولم يلبث أن تكشف له الغدر ،

مذبحة كربلاء

وحسرت له الخديعة لثامها عن جيش يزيد تحت إمرة عبيد الله بن زياد بن أبيه . فحاصرت هذه القوة خيام الحسين عدة أيام وسدت عليهم منافذ النجاة كما حالت بين جماعته و بين المـاء .

ولـكن جنود « عبد الله » لم يجرؤوا بالرغم من كل ذلك على الدنو من الحسين الذى كان قد اقترح على رئيسهم عمر بن سعد ثلاث خصال وهى : إما أن يتركه يرجع إلى المدينة ، أو أن يسيره إلى حدود الترك يقاتلهم حتى يموت ، أو يسيره إلى يزيد[1] ، ولـكن أوامر طاغية أمية (ابن زياد) كانت لا تقبل التأويل ، وهى أن يحملوهم إلى الخليفة ليرى رأيه فيهم كمجرمين ؛ ثم عاد « الحسين » فعرض عليهم أن يبقوا على حياة الأطفال الأبرياء والنساء الضعيفات و يقتلوه وحده ، فيضعوا حدًّا لهذا القتال غير المتكافئ ، بيد أن الرحمة لم تتسع لها قلوبهم ؛ وعندئذ ألح على أصحابه أن يتركوه وحده و يلوذوا بالفرار ، فرفضوا أن يتخلوا عنه قائلين : « لا خير فى الحياة بعدك » ؛ كذلك أحجم أحد رؤساء جيش « يزيد » عن الاشتراك فى القتـال عند ما تيقن أن الدائرة ستدور ولا ريب على ابن بنت الرسول ، فترك الجيش فى ٣٠ من أتباعه .

وكان « الحسين » فى كل التحام يعقد له النصر على أعدائه ، غير أن النبال كانت تحصد أصحابه من بعيد فيسقط الواحد تلو الآخر حتى قتلوا جميعاً إلا ابن بنت الرسول الذى تحامل على نفسه ويمم وجهه شطر النهر ليطفئ ظمأه ، فسددوا إليه السهام ورموه بالنبل ليحولوا بينه وبين المـاء ، فعاد أدراجه إلى خيمته وأخذ بين يديه ابنه الرضيع فرشقه أحدهم بسهم قضى عليه فى الحال ، وعلى هذا النحو فتكوا بأولاده وأولاد أخيه وهم فى أحضانه ؛ ولما أرهقه الجزع وألفى نفسه وحيداً خائر القوى حيال أعدائه خرج من خيمته ، فناولته إحدى النساء بعض الماء

(١) تجمع الرواة وعلى الأخص ابن الطبرى : أن الحسين لو قدم على يزيد لوجده مبجلا له عارفا بقدره ، ويقال إنه لمـا وصله خبر تلك المذبحة لعن « ابن سمية » وترحم على الحسين ، وكان قصره من البكاء عليه كأنه فى مناحة ، ولـكن المجرم شمر بن ذى الجوشن هو الذى أوقد النـار وضرّاها . (المعرب)

ولـكنه ما كاد يرفع الوعاء إلى شفتيه حتى سددوا إليه سهما ملأ فمه دماً ، فرفع يديه إلى السماء يستمطر الرحمة على الأحياء والأموات من جماعته ؛ ثم نهض واقفا صادق البأس ثابت الجنان وحمل عليهم حملة مستميتة ، ففروا من أمامه ، ولـكن الضعف كان قد بلغ منه منتهاه من كثرة ما نزف من دمه فسقط على الأرض ، وفى الحال هجموا عليه واحتزوا رأسه ، ثم حملوه إلى قلعة الـكوفة ، فأقبل « عبد الله[1] » عليه ينكثه بالقضيب فقال له أحد الحاضرين : « ارفع قضيبك فطال والله ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع فمه على فمه يلثمه » . ويقول المؤرخ الإنجليزى الأشهر « جيبون » : « إن مأساة الحسين المروعة بالرغم من تقادم عهدها وتباين موطنها لا بد أن تثير العطف والحنان فى نفس أقل القراء إحساساً وأقساهم قلباً » . والآن وقد وقفنا على تفاصيل تلك المذبحة النكراء ، نستطيع أن نفهم مبلغ الحزن الممض الذى يشجو قلوب شيعة علىّ عند إحياء ذكرى استشهاد الحسين .

وهكذا فاضت نفس من أزكى النفوس فى ذلك العصر ، وكادت تنقرض بموته أفراد أسرة النبى الذكور — شيباً وشبانا — لولا هذا الطفل المريض الذى أنقذته « زينب » أخت الحسين من المذبحة العامة ، وقد كان اسمه « علياً » ، ولقب فيما بعد « بزين العابدين » ، وهو ابن الحسين من زوجه بنت « يزدجرد » آخر ملوك الفرس الساسانيين ، وفى شخصه خلدت أسرة النبى ، كما كان فوق ذلك يمثل المطالبين بعرش الفرس من آل ساسان ؛ ويقال إن عبد الله كان قد فكر فى قتله ، غير أن شيئاً فى نظرات « زينب » وعزمها على الموت مع ابن أخيها ألقى الرعب فى قلب ذلك الطاغية الغشوم فأحجم عن قصده .

بعث « زياد » نساء « الحسين » و « على الصغير » إلى دمشق تحوطهم فرقة

(١) يقول المسعودى : إن « يزيد » هو الذى أقبل ينكث الرأس بالقضيب ، وإن « أبا بردة الأسلمى » هو الذى نهاه عن ذلك . (المعرب)

من الجنود حاملين رءوس الشهداء على أسنة الرماح ، وعند ما انتهوا إلى عاصمة الخلافة جلست بنات الرسول فى أثوابهن الممزقة تحت أسوار قصر الخليفة يندبن ويعولن على نحو ما تفعل النساء العربيات إذا ما فجعن بعزيز لديهن ، فهلع قلب « يزيد » وأرجعهن فى الحال إلى المدينة .

لقد هزت مذبحة كربلاء العالم الإسلامى هزاً عنيفاً وروعته بمأساته الدامية ، كما خلقت فى فارس شعورا وطنيا ساعد أحفاد العباس فيما بعد على استغلاله لمصلحتهم الشخصية وتقويض دعائم الدولة الأموية . وكان السخط قد بلغ منتهاه فى المدينة ، حتى اضطر الخليفة إلى أن يولى على أهلها عاملا خاصاً لتهدئة خواطرهم ، ويحملهم على إرسال وفد منهم إلى « دمشق » لكى يتوسط فى إنصاف أسرة الحسين ، بيد أن الوفد مع ذلك رجع ساخطا على «يزيد» للحياة التى كان يحياها ، والمعاملة التى لاقاها على يديه ، فهاج هائج أهل المدينة لفشل وساطتهم ، وأعلنوا خلع يزيد وطردوا عامله ؛ فأثارت تلك الأخبار غضب الخليفة الذى أرسل إليهم فى الحال جيشا من أهل الشام بقيادة «مسلم بن عقبة» لتأديبهم .

موقعة الحرة

وما كاد الجيش الأموى يصل إلى الموضع المعروف « بالحرة » حتى خرج إليه أهل المدينة ، ودارت بين الفريقين معركة هائلة أسفرت عن هزيمة أهل المدينة ، وقتل زهرة شباب الأنصار والمهاجرين ، وانتهاك حرمة مأوى الرسول ومهبط الوحى . وهكذا قدر للذين عضدوا رسولهم فى وقت الشدة أن يتعرضوا لأشنع تنكيل لا يعرف التاريخ له مثيلا . ويعلق مؤرخ أوربى على هذا الحادث بقوله : إن تأثير هذا الحادث على العالم الإسلامى كان هائلا مروعاً ، فكأن الأمويين قد أرادوا أن يوفوا ما عليهم من دين حينما عاملهم الرسول وجيشه بالرحمة والعطف [1] . فشردوا وقتلوا خيرة شباب المدينة ورجالها الميامين ، كما

(١) يروى أن «مسلم» لما فرغ من القتال بعث برءوس أهل المدينة إلى يزيد فلما ألقيت بين يديه جعل يتمثل بقول ابن الزبعرى يوم أحد : =

أجبروا من تبقى منهم على مبايعة يزيد على أنهم خول له يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم ، فمن امتنع عن ذلك وصمه بالكى على رقبته ، ولم يستثن من هذا العار غير على الثانى بن الحسين وعلى حفيد العباس . وفى تلك الموقعة هدمت معظم المدارس والمنشآت العامة ، ودخلت شبه جزيرة العرب فى عهد مظلم شديد الحلكة ، حتى قيض لها « جعفر الصادق » بعد بضع سنوات فبعث فى المدينة روح الحركة العلمية التى كانت قد ازدهرت فى عهد «على بن أبى طالب» ؛ وبرغم انتعاش تلك الحركة بقيت المدينة من شبه الجزيرة العربية كالواحة من الصحراء التى تحيطها من جهاتها الأربع الكآبة الموحشة والظلام الدامس ، ولم تسترد المدينة قط عهدها الغابر حتى أصبحت فى عصر بنى أمية بلدة الماضى السحيق ؛ ويقال إن المنصور ثانى الخلفاء العباسيين حينما زارها احتاج إلى دليل لكى يرشده إلى آثار أبطالها الأقدمين .

حصار مكة الأول

ولما فرغ « مسلم بن عقبة » من صب جام غضبه على أهل المدينة مضى إلى مكة لمحاربة « عبد الله بن الزبير » ، الذى كان أهل المدينة قد بايعوه بالخلافة ، فأحاطها بجيشه ونصب عليها المجانيق ، غير أن موت يزيد حمله على رفع الحصار والعودة إلى دمشق .

زوال الخلافة عن آل حرب

استخلف « يزيد » ابنه معاوية ، وكان شاباً وديع النفس ، يمقت أعمال العنف ، فاعتزل الحياة العامة بعد حكم أشهر قلائل ، وتوفى وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ؛ ومنهم من يقول : إنه مات مسموماً . وبوفاة معاوية الثانى انتهى فرع أبى سفيان . وكان « عبد الله بن الزبير » قد بويع بالخلافة على أثر وفاة يزيد فى الحجاز والعراق وخراسان ؛ ولو كان قد غادر مكة وسارع إلى الشام لاستطاع أن يقوض دعائم تلك الأسرة ويستخلص الخلافة لنفسه ، ولكنه بدلا من ذلك اكتفى بمكة وحدها فأتاح للأمويين فرصة ليوحدوا كلمتهم ويلموا شعثهم .

= ليت أشياخى ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحا   وانقالوا ليزيد لا فشل

الفصل الثامن

بنو أمية (الفرع الحكمى)

٦٣ — ٨٦ هـ ٦٨٣ — ٧٠٥ م

مروان بن الحكم — انتخابه رئيساً لبنى أمية — موقعة مرج راهط
مصر — خيانة مروان — التوابون — وفاة مروان — عبد الملك
حاكم الشام — مقتل الحسين — مقتل المختار — مصعب — غزو
العراق — موت مصعب — عبد الملك يغزو العراق — حصار مكة
مقتل عبد الله بن الزبير — الحجاج الطاغية — التوسع فى أفريقيا
الحروب مع الروم — الخوارج — موت عبد الله

مروان بن الحكم

ولما توفى معاوية أفضت الخلافة من بعده إلى أخيه خالد ، وكان لا يزال حدثا فرفض الأمويون مبايعته ، برغم ما كانوا عليه وقتئذ من شدة الارتباك والفوضى ، وراحوا يطالبون بتولية كبير منهم حسب العرف القبلى ، كذلك بلغ من تفكك أواصرهم فى ذلك الحين أن فكر « مروان » رئيس الأسرة وزعيمها الأوحد فى مبايعة « عبد الله بن الزبير » بالخلافة ، بالرغم مما كان ينطوى على مبايعته من زوال السلطة من أيديهم ، غير أن « عبد الله » لشدة حذره وحيطته أحجم عن الزحف على الشام مكتفيا بنشر سلطانه على جزيرة العرب ، ومصر ، وخراسان . ويقول لنا المؤرخون : إنه بينما كان « عبد الله » مصراً على البقاء فى مكة على هذا النحو ظهر « ابن عبيد الله » فى البصرة محاولا الدعوة لنفسه ، غير أن أهلها ثاروا عليه وأجبروه على الفرار إلى الشام ، حيث أشار على مروان بأن يدعو لنفسه بالخلافة ، بصفة كونه عميد البيت الأموى . ولا يخفى أن الأمويين كانوا فى ذلك الحين منشقين على أنفسهم ، كما كان الحميريون فى الشام يحقدون على المضريين لتفوقهم وعلو كلمتهم . غير أن الشيخوخة مع ذلك لم تكن

قد نالت بعد من دهاء « مروان » ولا من براعته فى حياكة المؤامرات ، فاستطاع أن يستميل إليــه خالداً بن يزيد وعمرو ابن عمه بعد أن وعدهما بولاية العهد ، كذلك رشا الحميريين فى الشام ، وأسبغ على زعمائهم العطايا والمنح .

وهكذا تمكن فى نهاية الأمر من القبض على أعنة الحـكم ؛ ويقول المسعودى : « إن مروان كان أول من دخل الناس فى طاعته بحد السيف » ؛ كما تقول لنا الرواية العربية إنه بعــد أن اطمأن إلى الحميريين فى الشام زحف على زعيم المضريين[1] الذى كان قد انضم إلى صفوف « عبد الله بن الزبير » ، وتقابل الفريقان فى موقع يسمى « مرج راهط » على بضعة أميـال من الشمال الشرقى من دمشق ، وكانت المعركة الأولى سجالا بالرغم من كثرة عدد الحميريين ، غير أن مروان لم يلبث أن فتك بالضحاك ، ثم هجم على المضريين وظل يوقع بهم حتى ألحق بهم هزيمة منكرة ، وعندئذ قدمت له الشام طاعتها ، ثم حذت مصر حذوها بعد قليل .

موقعة مرج راهط

وإن ننسى لا ننسى أن مروان بعــد أن استتبت له الأمور نقض عهده مع خالد ، كما أرغم عمرو ابن عمه على التنازل عن ولاية العهد لولدى مروان « عبد الملك » وعبد العزيز .

ولا شك أن معركة « مرج راهط » أثارت دفين الأحقاد التى كادت تزول بين الحميريين والمضريين ، كما أخذ الحميريون بعد أن رجحت كفتهم يسومون منافسيهم أروع صنوف الاضطهاد ، وبقى الحال على هذا المنوال طيلة عهد « عبد الملك بن مروان » تشتد تارة وتخمد أخرى .

وفى تلك الأثناء رأى رهط من العراقيين — الذين هالهم التفريط فى نصرة الحسين وآل بيتــه فى موقعة كربلاء — أن ذلك الجرم الفظيع لا يغسل عنهم إلا بالانتقام من قتلته ، فاجتمعوا ذات ليلة على قبر الحسين وأقاموا الصــلاة ،

(١) هو الضحاك بن قيس الفهرى .

وذكروا أنهم قد تابوا إلى الله وأنابوا إليه ، وأطلقوا على أنفسهم اسم التوابين ، ثم ساروا فى صباح اليوم التالى بقيادة زعيمهم « سليمان بن صرد الخزاعى » لمحاربة جيش الشام ، ودارت بين الفريقين معركة رائعة انتصر فيها التوابون فى بادئ الأمر فى عدة مواقع ؛ غير أن جيش مروان لم يلبث أن حمل عليهم حملة منكرة ، ومزقهم شر ممزق ؛ فاستشهد قائدهم « سليمان بن صرد » وعدد غير قليل من أمرائهم ، وارتحلت البقية الباقية منهم إلى الكوفة حيث ظلوا قابعين إلى أن ثاروا مرة أخرى بقيادة « المختار بن عبيد الثقفى » .

وفاة مروان

انتهت بوفاة مروان حياة مليئة بالعنف والمؤامرات . ويقال إن زوجه (أرملة يزيد) هى التى قتلته خنقاً ، وذلك أنه كان قد تزوج منها ليأمن جانب ابنها « خالد » وينال مؤازرة جماعته ، ولكنه لم يلبث أن أهانه وأغلظ له القول بعد أن حرمه ولاية العهد ، فثارت الأم لكرامة ابنها المهيض الجناح وقتلته ، ولا يعتبر مروان فى نظر أهل السنة من جملة الخلفاء الراشدين ، بل يعده كتابهم ثائراً على « عبد الله بن الزبير » الذى بويع بالخلافة من على منابر أنحاء العالم الإسلامى ما عدا الشام .

خلافة عبد الملك ابن مروان

بويع « عبد الملك » على أثر وفاة أبيه بإجماع آراء آل أمية ، وكان صورة حية للخلق الأموى ، يجمع إلى النشاط وذكاء الفؤاد روح التآمر وثبات الجنان ، فاستطاع أن يوطد ملكه ويدعم مركزه بمهارة لا يضاهيه فيها أحد . وفى تلك الأثناء شق « المختار » عصا الطاعة فى العراق وأخذ ينكل بقتلة « الحسين » شر تنكيل ، فأرسل « عبد الملك » إليه جيشاً كبيراً بقيادة « عبد الله بن زياد » واشتبك الفريقان فى معركة رائعة ، أسفرت عن انهزام جيش « عبد الملك » وقتل قائده عبد الله الذى حز رأسه ، وحمل إلى « المختار » ولكن لم يلبث هؤلاء التوابون برغم انتصارهم أن انقسموا على أنفسهم وتفرقوا

شيعاً صغيرة ، فسار إليهم « مصعب بن الزبير » أخو عبد الله ، ونائبه فى العراق وأوقع بهم شر إيقاع ، ثم فتك برئيسهم .

وبهذا النصر أصبح مصعب رجل الساعة ، وغدا سلطان ابن الزبير فى العراق وما بين النهرين لا ينازعه فيه أى منازع ، كما قدمت إليه خراسان طاعتها ؛ بيدأن حكمه لم يكن موطد الأركان ، وذلك أن أهل العراق كانوا قد وطنوا أنفسهم على الغدر به بتحريض من عبد الملك الذى كان يكاتبهم ويرغبهم فى بيعته . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن جنود عبد الله كانت قد أنهكتها الحروب المتواصلة مع الخوارج الذين تدفقت جموعهم من الصحراء على كلدة ، وجنوبى فارس ، ينكلون بأهلها أشنع تنكيل ، ولا ننسى كذلك أن هؤلاء الغلاة المتعصبين ارتكبوا فى حمّى هوسهم الدينى أشنع الجرائم وأشدها هولا ، طبقاً لنظام محكم انتقاماً لأنفسهم . ويسوق لنا المؤرخون العرب حادثة تتعلق بالحج عام ٧١ هـ ، وهى دليل ناهض على تفرق كلمة المسلمين فى ذلك الموسم ، إذ كانوا قد اجتمعوا على جبل عرفات تحت أربع رايات مختلفة : واحدة لعبد الله بن الزبير ، وأخرى لعبد الملك بن مروان ، وثالثة لمحمد بن الحنفية ، والرابعة للخوارج الثائرين ؛ وكان كل فريق منهم يضمر للفريق الآخر العداء ، غير أنه لم يقع لحسن الطالع أى اعتداء بالرغم مما كان يجيش فى صدورهم من الضغائن والأحقاد .

أما « عبد الملك » فلم يكد يقضى على خصومه ويصفو له جو الشام حتى ثار عليه « عمرو بن سعيد » ، ونادى بنفسه خليفة للمسلمين ، وعندئذ أسرع « عبد الملك » إلى دمشق وطفق يحتال عليه حتى صالحه ثم فتك به وهو فى قصره ثم سار بجيشه إلى بلاد ما بين النهرين وكلدة لمحاربة عاملها « مصعب بن الزبير » ؛ ومما شجعه على هذا الزحف أن العراقيين تألبوا وقتئذ على « مصعب » وعادوا أدراجهم إلى الكوفة ؛ وما هى إلا فترة وجيزة حتى اشتبك الفريقان فى معركة

رائعة أسفرت عن قتل «مصعب» وولده يحيى[1] وإبراهيم بن الأشتر النخعى ، وبذلك تم إخضاع العراق للأمويين للمرة الثانية .

وبعد أن سحق « عبد الملك » جيش مصعب نهائيا تفرغ لعبد الله بن الزبير بالحجاز ، وأنفذ إليه جيشاً كبيراً بقيادة الحجاج الذى غشى المدينة واستولى عليها دون مقاومة تذكر .

ثم زحف على مكة وحاصرها للمرة الثانية ، كما رمى الكعبة بالمنجنيق وألحق بها خسائر فادحة . وتقول لنا الرواية العربية إن عبد الله أبلى فى ذلك الحصار بلاء حسناً ، إذ كان يحمل وحده على جيوش الشام ويعمل فيهم السيف حتى يزيلهم عن مواقعهم ويردهم على أعقابهم ؛ ولكن الحجاج لم يلبث طويلا أن طوق مكة تطويقا عاما حتى تجرع أهلها ألم الجوع ، وأخذوا ينفضون من حول ابن الزبير زرافات ووحدانا . ويقال إنه لم يبق معه إلا نفر قليل من أصحابه وعندئذ تملك قلبه اليأس ، ودخل على أمه « أسماء » بنت أبى بكر الصديق يستشيرها فى أمره ، فقالت له تلك السيدة العجوز المفعم قلبها بروح البطولة العربية : «أى بنى ! لا تقبل خطة تخاف على نفسك منها مخافة القتل ، مت كريما ، وإياك أن تؤسر أو تعطى بيديك » ، ثم بددت مخاوفه من أن يمثل به عدوه ، قائلة لا يهم ما يحل بالجسد ، بعد أن تصعد الروح إلى خالقها « وهل تتألم الشاة من السلخ بعد الذبح ؟ » . وعندئذ طبع على جبينها الوضاء قبلة الوداع واستل سيفه وحمل على أعدائه حملة صادقة ، وظل يضرب فيهم حتى فروا من أمامه ، ولكنهم تكاثروا عليه أخيراً وفتكوا به . والعادة أن يحترم الإنسان عدوه بعد مصرعه ، غير أن جيش الشام تجاهل أوامر الرسول التى تقضى باحترام

---

(١) كان اسم ولده « عيسى » وليس « يحيى » ويعرف عن أبيه مصعب أنه لما تخلى عنه جميع أصحابه قال لابنه : يا بنى اركب فانج ، والحق بعمك بمكة فأخبر ما صنع بى أهل العراق ، ودعنى فإنى مقتول لامحالة . فقال له عيسى : لا والله ، لا يتحدث بنا قريش أنى فررت عنك .

(المعرب)

الموتى ، وأبوا على أمه أن تدفنه . وقد بلغت بهم روح الشراسة المعروفة عن ذلك العصر أن أمر به الحجاج فصلب[1] بمكة وحملت رأسه مع رأسى اثنين من أصحابه إلى دمشق بعد أن عرضها مدة فى المدينة . ويعرف عن عبد الله أنه كان متحلياً بكثير من الخصال الحميدة ، فكان طموح القلب ، شديد الدهاء ، شجاعا نزيهاً عادلا ، وهى ميزات تفوّق بها على كثير من أقرانه ، غير أن النقص الوحيد الذى يعاب عليه هو شدة بخله ؛ ولعل هذا النقص هو الذى أدى به إلى التهلكة ؛ إذ بينما كان الحجاج على أبواب مكة يحاصرها ويضيق عليها الخناق كان ابن الزبير يأبى دفع رواتب جنوده ويرفض شراء المواد الحربية لهم .

عبد الملك على رأس الإمبراطورية

وبإخضاع مكة أصبح « عبد الملك » رئيس الإمبراطورية الإسلامية دون منازع . وقد علم هذه الحقيقة المهلب بن أبى صفرة عامل عبد الله بن الزبير على جنوبى فارس ، وأدرك بثاقب فكره أن المقاومة لا تجديه نفعاً ، فعرض طاعته فى الحال . أما والى خراسان وكان أقل حنكة من المهلب فقد استكبر وأجبر رسول عبد الملك الذى كان قد أوفده ليأخذ له البيعة أن يبلغ الرسالة ويعود أدراجه إلى دمشق .

وفى أثناء تلك الفتن والمعارك التى دارت رحاها بين « عبد الله » و « عبد الملك » تقوت شكيمة الخوارج ، وأخذوا ينتشرون فى أنحاء جنوبى إيران وكلدة ، ولكنهم ظلوا مع ذلك محافظين على هدوئهم حتى استفزتهم الاضطهادات التى كانت تقع عليهم من عمال الأمويين ، فشقوا عصا الطاعة ، وراحوا يقاتلون بوحشية عجيبة ، واستهتار لا مثيل لها ؛ والغريب أنهم على قلتهم كانوا يغلبون أكبر قوة من جيوش « عبد الملك » فى المعارك التى كانت تنشب بينهما من حين لآخر ؛ غير أنهم بالرغم من هذه الشجاعة النادرة المثال ،

(١) جاء فى مختصر الدول : « أن الحجاج تمادى فى الانتقام من ابن الزبير فسلخ جلده ، وحشاه تبناً وصلبه » . (المعرب)

والاستبسال المدهش لم يوحدوا صفوفهم ، أو يجمعوا كلمتهم[1] . فكان البعض منهم يقول بالعودة إلى عهد عمر بن الخطاب برئاسة خليفة ينتخبه المسلمون ، على حين كان البعض الآخر يرفض تأليف أية حكومة مكتفياً بإجراء حكم الله وتصريف الأمور بمعرفة أهل الشورى ؛ ولكن جيش الخليفة بعد عدة معارك رائعة معهم هزمهم شر هزيمة ونكل بهم ، وقد أثبت لهم « المهلب » حاكم فارس بأنه خصم قوى وجندى عنيد ، وهى مزايا عسكرية عرفها فيه « عبد الملك » ؛ وقصارى القول أنه هزمهم وهدم قلاعهم ، وأعمل السيف فى رقابهم حتى أجبر من بقى منهم حيا على الاعتصام بصحراء الإحساء .

الحروب مع الروم

أما الروم فقد انتهزوا فرصة وقوع تلك الفتن الداخلية وأخذوا يشنون الغارات و يزحفون بجحافلهم على الممتلكات الإسلامية ، غير أن عبد الملك استطاع أخيرا أن يزيحهم من مواقعهم إلى خارج الحدود ، و يستولى منهم بعد سلسلة معارك على قسم كبير من إمبراطوريتهم ، كما أخضع المناطق المتاخمة لكابول الحالية ، والتى كان يحكمها عندئذ أمير هندى اسمه رابتيل ، ولا ننسى أنه استولى فى الوقت نفسه على قسم كبير من شمالى أفريقيا .

إعادة الاستيلاء على بلاد البربر

أما قصة استيلاء العرب على أفريقيا فهى فى الواقع مليئة بالحوادث الرائعة والمفاجآت المدهشة ، ففى عام ٦٩٣م (٦٩هـ) أرسل عبدالملك جيشا لإعادة الاستيلاء على البربر — أفريقيا — برئاسة « زهير » الذى استطاع منذ وفاة « عقبة » أن يلحق بالعدو هزائم منكرة ، كما أوقع بجيش الروم والبربر هزيمة رائعة فى أول معركة اشتبك فيها بصورة جدية ؛ غير أنه لسوء الطالع ارتكب خطأ فاحشا ، وذلك أنه أرسل قوة كبيرة من جيشه لاحتلال البلاد التى لم يتم فتحها بعد ، دون أن

(١) اتفق الخوارج على إكفار عثمان بن عفان وعليا بن أبى طالب ، والخروج على الإمام الجائر ، وتكفير من ركب الكبائر والبراءة من الحكمين أبى موسى الأشعرى وعمرو ابن العاص ، والبراءة ممن صوب حكمهما ، وإكفار معاوية ومناصريه ومقلديه ومحبيه ، ثم اختلفوا بعد ذلك فى التوحيد والوعد والوعيد والإمامة . (المعرب)

يحتفظ بقوة كافية فى « برقة » التى كانت تعتبر مركزا للقيادة العربية ؛ فما كاد جيشه يبتعد عن المركز الرئيسى حتى باغتت حامية « برقة » قوات هائلة من الجيش الرومانى ، فدارت بين الفريقين معركة رائعة ، أبدى فيها العرب شجاعة منقطعة النظير ، ولكن الجنود الرومانية تغلبت عليهم أخيرا ومزقت شملهم فى موقعة حاسمة قتل فيها « زهير » القائد العربى الباسل .

وهكذا فلتت بلاد البربر من أيدى المسلمين ، غير أن إصرار «عبد الملك» إذا ما انتوى أمرا من الأمور — وهى الصفة التى ساعدته على التغلب على منافسيه — جعلته يبعث إليهم بجيش ثالث على رأسه « حسان بن النعمان » فاجتاح بلادهم مكتسحا أمامه كل مقاومة ، ثم استولى على مدينة القيروان ثانية وهدم مدينة قرطاجنة . ولكن لم تكد تمضى مدة وجيزة حتى اتحد البربر مع الروم واشتبكا مع العرب فى معركة رائعة أسفرت عن هزيمتهما هزيمة منكرة ، وهكذا عقد لواء النصر للعرب ثانية ، وأصبحوا سادة البلاد الحقيقيين من أسوار برقة حتى شواطئ المحيط الأطلسى .

وفى تلك الأثناء كانت قبائل البربر وقبائل صحراء الأطلس الوحشية تدخل أفواجا فى طاعة امرأة يطلق عليها المؤرخون اسم « الكاهنة » ، وكان المعتقد أنها قد أوتيت قوة خارقة للعادة ، فانضوى تحت لوائها جيوش جرارة من القبائل الوحشية وانقضت بهم على الجيش العربى الظافر ، وهزمته هزيمة منكرة فى عدة مواقع حتى أرغمت القوة الرئيسية على الانسحاب للمرة الثانية من برقة ، وبسطت سيادتها على أفريقيا طوال خمسة أعوام لا ينازعها فى سيادتها أى منازع .

وفى عام ٧٩ ﻫ بعث « عبد الملك » بجيش آخر لمساعدة « حسان » فكان أحد الفريقين المتحاربين فى ذلك الحين ، وهو الجيش العربى لا يمتلك تلك المدافع الضخمة ، ولا البنادق السريعة الطلقات التى نعرفها فى العصر الحاضر ، بينما كان الفريق الآخر « جيش البربر » مجهزاً كذلك ببنادق عاطلة من الطراز

القديم ، ولهذا كانت كفتا الطرفين فيما يخص السلاح متكافئتين ، وإن كان العرب يفوقون خصمهم فى العتاد والإدارة وحسن النظام ، كما كانوا يمتازون بالشجاعة وعلو الهمة والمثابرة وقوة الإيمان والاعتداد بالنفس والبسالة ، وهى صفات قلّ أن نجد لها مثيلا فى الشعوب الأخرى .

اخترق جيش عبد الملك صفوف الأعداء المتراصة كما تخترق السفينة عباب البحر المتلاطم الأمواج ، ولكى تحول الكاهنة دون تقدم العرب عن الزحف وتحرمهم من مغريات الثروة التى يترقبون الاستيلاء عليها فى المدن ، عزمت نهائيا على أن تحوّل تلك البلاد الزاهرة والحدائق الوارفة الظلال إلى خراب بلقع ؛ فأمرت بهدم القصور الشامخة وتقويض القصور العامرة ، فأصبحت المدن والقرى خراباً يباباً ، وقلعت الأشجار ودمرت الرياض والغياض حتى غدت تلك الجنان أرضاً قفراء موحشة . وقد سمى المؤرخون الغربيون هذا العمل بأول خراب حل بأفريقيا متناسين أعمال التدمير المنكرة التى حلت بالبلاد على أيدى الرومان . ومهما يكن من شىء فإن هذه الأعمال الوحشية لم تغن عن الكاهنة فتيلا ، إذ أن أهالى البلاد اعتبروا القائد العربى مخلصهم الوحيد ، وسارعوا إلى عرض طاعتهم عليه معبرين له عن ولائهم ، أما الكاهنة فقد منيت بهزيمة منكرة وقتلت فى الموقعة الدموية التى دارت بين الفريقين عند أقدام جبل الأطلس .

وعند ما تشتت شمل البربر وأيقنوا بشدة بأس الجيوش العربية ومثابرتهم على القتال عرضوا الصلح على القائد حسان ، فأجابهم إلى طلبهم على أن يمدوا الجيش الإسلامى بخمسة وعشرين ألف مقاتل . وعلى أثر الفتح بدأ الإسلام ينتشر بسرعة عجيبة بينهم . ولسوء الطالع أخذ سيل الخوارج بعد أن طردوا من فارس وبلاد العرب يتدفق بكثرة على أفريقيا ، فوجدوا فى البربر وفى شعورهم وأفكارهم مرتعا خصيبا لمبادئهم الفوضوية وأفكارهم الرجعية ، ومقتهم لحكومة

دمشق . وأصبح هؤلاء الخوارج [١] دعاة التفرقة والإلحاد — الذين كان يتصيدهم عبد الملك وعماله — قادة أعداء العرب ؛ و إلى هؤلاء و إلى تعاليمهم تعزى ثورات البربر الذين كانوا يرفعون علمها من حين لآخر .

الحجاج بن يوسف

ولى الحجاج العراق وسجستان وكرمان وخراسان ، وضمنها كابول و بعض أنحاء ما وراء النهر . وكان ثمة حاكم آخر اسمه هشام بن إسماعيل يحكم غربى شبه جزيرة العرب ، فى حين كان يحكم مصر عبد العزيز أخو الخليفة عبد الملك بن مروان . وقد أدى إسراف الحجاج فى الشدة و إراقة الدماء إلى نشوب ثورات عديدة ، رفع علم بعضها عبد الرحمن بن الأشعث ، الذى كاد يفلح فى دك عرش عبد الملك لولا كثرة جنود الخليفة وصبرهم على القتال ، فانهزم جيش ابن الأشعث [٢] وفرت البقية الباقية منهم إلى أقصى البلاد .

يعرف عن « الحجاج » أنه سام أهل الحجاز أروع ضروب العسف والجور ، وأساء معاملة من بقى حياً من الصحابة الأولين ، كما يقال إنه فكر ذات مرة فى دك منازل المدينة ؛ وقد أحصى المؤرخون عدد الذين سفك دماءهم فى زمن حكمه على العراق فوجدوه مائة وخمسين ألف رجل ، و يقال إنه مات وفى حبسه ٢٥٠٠٠ رجل وامرأة [٣] . و يقول المسيو سيديلو المؤرخ المشهور : « إن هذه المذابح التى كانت ترتكب بالجملة بلغ من تأثيرها أن أضعفت العنصر العربى لقضائها على أنبل الرجال محتداً وأشرفهم غاية وأعظمهم كفاية » .

وفى عام ٧٠٣ م مات المهلب مدوخ الخوارج ، وهو الذى كان قد استعمله الحجاج على خراسان . و يقول الشاعر العربى [٤] فى رثائه : إن بموته انطفأ سراج

(١) يلوح أن المهديين الذين ظهروا فيما بعد فى أفريقيا من أحفاد هؤلاء الخوارج .

(٢) يقول المسعودى : « انتهى ابن الأشعث إلى ملوك الهند ؛ ولم يزل الحجاج يحتال فى قتله حتى قتل وأتى برأسه منبر الكوفة » . (المعرب)

(٣) فى معظم كتب التاريخ أنه مات وفى حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة ، وكان يحبس النساء والرجال فى موضع واحد .

(٤) يشير المؤلف إلى الأخطل الذى قال فيه : =

الوفاء . وقد خلفه فى منصبه ابنه يزيد ، وأبدى له الحجاج حيناً نفس الرعاية التى كان يبديها لأبيه « المهلب » .

وفاة عبد الملك ٧٠٥ م

توفى عبد الملك عام ٨٦ هـ وهو ابن ٦٢ سنة ، وكان محبا للشعر ، وبالأخص ما نظم منه فى امتداحه والإشادة بذكره ، وكان من أبرز صفاته البخل ، والصرامة . ويقول المسعودى : « إن عملاءه حذوا حذوه فى الاستهتار بسفك الدماء » . وقد كان فى شبابه ورعا ، تقيا ، معدوداً من فقهاء المدينة ، ولكنه عند ما بلغه خبر وفاة أبيه ، وكان يقرأ القرآن الكريم أطبقه فى الحال ونهض قائلا : « هذا آخر عهدى بك » . ويقال إنه أول من غدر فى الإسلام[1] ، وأول من نهى عن التكلم فى حضرة الخليفة ؛ وقد قال ذات مرة وهو على المنبر : « من قال لى بعد مقامى هذا اتق الله ضربت عنقه » ، فكان يشبه شرلمان فى أوجه كثيرة من أخلاقه ، إذ كان عادلا على ألا يتعارض هذا العدل مع مطالبه وتحقيق غاياته ، قوى العزيمة ، ثابت الجأش ، لا تزعزعه الشدائد ، بيد أنه كان أقل صرامة من شرلمان ، فلم يكن ليرضى أبداً أن تقترف تحت سمعه و بصره أعمال قاسية كمذبحة الفرسانيين أو السكوسونيين . ولو قيس « عبد الملك » بشرلمان أو بطرس الأكبر إمبراطور الروس لعدّ من أصحاب القلوب الرحيمة ؛ ودليل ذلك أنه قبل أن يشتبك فى القتال مع مصعب والثوار الآخرين بقيادة عبد الرحمن عرض عليهم الصلح عدة مرات . وتعزى قسوته ونكثه بالعهود إلى شدة رغبته فى تأييد ملكه وتحقيق غاياته ، ولكن ذلك على كل حال لا يصلح عذراً ولا يعفيه من المسؤولية المترتبة عليه فى إسراف الحجاج فى جوره ، وإن كان قد تدخل فى بعض الأحيان لحماية التعساء الذين كان يلقيهم الدهر بين

= فما لسرير الملك بعدك بهجة ولا لجواد بعد جودك جود
(المعرب)

(١) مما يؤخذ على عبد الملك غدره بعمرو بن سعيد وقتله إياه بعد أن أمنه .
(المعرب)

براثن الحجاج . وقد كان أول من أسس داراً لضرب النقود فى الدولة الإسلامية وقد حافظ الخلفاء من بعده على صيانة قيمة العملة وحالوا دون تزييفها . وكانت سجلات الخراج ومختلف الضرائب قبل عهد عبد الملك تكتب باليونانية أو الفارسية ، فأمر بنقلها إلى العربية .

وقبل وفاته بمدة وجيزة حاول إقناع أخيه عبد العزيز أن يتنازل عن ولاية العهد لابنه الوليد ، فرفض هذا رفضاً باتاً ، ولكنه لم يمكث طويلا حتى وافته منيته فبويع الوليد بالخلافة فى جوٍّ تسوده روح الهدوء والاطمئنان .

معاصر عبد الملك فى القسطنطينية

وكان يعاصر عبد الملك فى القسطنطينية « يوستنيان الثانى » بن بوكاتوس الذى طلب إليه شعبه حينما عاد من المنفى أن يعفو عن أعدائه فصاح قائلا : أتسألوننى عن الصفح ! إننى لأفضل الموت هذه اللحظة ، بل إنى لأوثر الغرق فى اليم إن أنا أبقيت على حياة أعدائى !

الفصل التاسع

بنو أمية (فرع الحكم) ٨٦ — ٩٦

٧٠٥ — ٧١٥ م

الوليد الأول — الفتوحات في الشرق — التوغل في أفريقيا — موسى ابن نصير — حاكم المغرب — شؤون الأندلس — استبداد رودريك طارق بن زياد يعبر جبل طارق — موقعة سيدونيا — موت رودريك فتح الأندلس — الزحف على فرنسا — استقدام موسى وطارق الإدارة العربيـة في الأندلس — الولايات — نتائج التنافس القبلى وفاة الوليد الأول — أخلاقه

خلافة الوليد الأول

ولما بويع «الوليد» بالخلافة بادر «الحجاج» أمير المشرق إلى عزل «يزيد ابن المهلب عامل خراسان، وعين مكانه زعيما مضريا يدعى «قتيبة» وكان قائداً باسلا عليما بفنون القتال، صارما شديد الوطأة، لا يثنيه شيء عن عزمه، شأن الـكثير من القواد الذين تحدثنا عنهم الرواية الأوربية. ويقال إن «الصغد» سكان أواسط آسيا حتى شمالى نهر أركسوس كانوا قد وافقوا فى أوائل عهده على أن يعيشوا بسلام مع المستوطنين المسلمين، وعلى أن يقبلوا الولاة فى حواضرهم ليشرفوا بأنفسهم على مصالح العرب، غير أنهم وجدوا فى عزل «يزيد بن المهلب» فرصة سانحة لنيل استقلالهم، فوثبوا بالعرب النازحين ومزقوهم شر ممزق. ولـكن الخليفة أنفذ إليهم فى الحال جيشا كثيفا ظل يحاربهم طوال عشر سنوات ارتكبت فى خلالها أروع ضروب السفك والتـدمير، حتى أتيح «لقتيبة» أن يخضع بلادهم نهائيا حتى حدود كاشغر.

الفتوحات فى الهند

وفى تلك الأثناء رأى «محمد بن القاسم» عامل مكران أن القبائل القاطنة بين السند و بلوخستان ما انفكت تناوئه، فزحف بجيشه على الهند و بعد أن

اشتبك مع أهلها فى عدة معارك أخضع السند ومولتان وجزءاً من البنجاب حتى انتهى إلى حدود إليس .

أما « مسلمة بن عبد الملك » الذى كان يعد أشجع أفراد الأسرة المالكة[١] فكان يقود جيشاً عربياً فى آسيا الصغرى كما كان « العباس » ابن الخليفة نفسه يقود جيشاً آخر ، فأدت حركاتهما المشتركة إلى إخضاع عدة مواقع هامة فى آسيا الصغرى .

عمر بن عبد العزيز حاكم الحجاز

وفى عام ٨٧ هـ ولى « الوليد » ابن عمه « عمر بن عبد العزيز » الحجاز ، وكان أول ما قام به تأسيس مجلس شورى من قضاة البلدة لكى يساعدوه على تصريف شؤون الولاية ، وأضحى لا يبت فى أمر من أمورها إلا باستشارة هذا المجلس ، محاولا بذلك إصلاح الأخطاء التى ارتكبها أسلافه فى المدن المقدسة فى أيام « يزيد » و «عبد الملك» ، كذلك جمّل مكة والمدينة أحسن تجميل ، وشيد فيهما المبانى العامة ، وحفر المجارى والآبار ، وأصلح الطرق التى تربط العاصمة بالمدن الأخرى . وعلى الجملة كان رجلا حازماً ، معتدلا ، محباً لترقية شعبه ورفاهيته ، فتمتعت البلاد فى ظله بنعمة الطمأنينة والعدل ؛ الأمر الذى أغرى بعض العراقيين بالالتجاء إلى الحجاز فراراً من بطش طاغية الولايات الشرقية الذى أخذ الآن يوغر صدر الخليفة على عمر بن عبد العزيز حتى عزله سنة ٩٢ هـ ، فوقع هذا الخبر على أهل الحجاز وقوع الصاعقة . وكان أول ما قام به الحاكم[٢] الجديد أن طرد جميع اللاجئين من العراقيين ؛ ومما يجب ذكره أيضاً أن الحجاج كان قد سجن « يزيد بن المهلب » وإخوانه وراح يسومهم صنوف العذاب ، ولكنهم برغم ذلك تمكنوا من الفرار إلى سليمان أخى الوليد .

(١) لم يظفر «مسلمة» بالخلافة نظرا إلى أن أمه كانت أمة ، ولم يكن الأمويون فى أول أمرهم يولون إلا أولاد الحرائر . (المعرب)

(٢) استشار « الوليد » الحجاج فيمن يوليه على المدينة فأشار بعثمان بن حيان المرى فولاه إياها . (المعرب)

الفتوحات فى أفريقيا عام ٨٩ هـ

هـذا هو مجمل الحوادث التى وقعت فى الشرق ؛ أما فى الغرب فقد كان « حسان بن النعمان » لا يزال يحكم أفريقيا بالحكمة والعدل بعد مقتل الكاهنة ولـكن الخليفة لم يلبث أن عزله سنة ٨٩ هـ ، وعين مكانه « موسى بن نصير » الذى كان أبوه رئيس الشرطة فى زمن « معاوية » ورفض أن يشترك فى موقعة صفين ، غير أن أبا سفيان برغم ذلك صفح عنه وقدر له حرية رأيه .

كان عزل « حسان » عن ولاية أفريقيا إيذانا بثورة البربر الذين أخطأوا فهم ما كان عليه « موسى » من بعد الهمـة وقوة الشكيمة ، فاشتبك معهم هو وأولاده فى سلسلة معارك رائعة ، مزق فيها شملهم ، وأقصى المحرضين اليونانيين عن البلاد ووطد فيها الأمن ، كما استطاع بما عرف عنه من حب العدل والإنصاف أن يجذب إليـه جميع الأعيان ، وعين الفقهاء لتعليم الناس أحكام الدين . ولما رأى بثاقب فكره أن الجيش البيزنطى ما فتئ يهاجم العرب من جزائر البحر الأبيض المتوسط ، سـير جيشاً كبيراً عليهم لتأديبهم ، فغزا جزائر منورقة وميورقة وإيفيقية ، وضمها إلى الإمبراطورية العربية . وعندئذ أخذت تلك الجزر تزدهر كما ازدهرت المدن الأخرى التى سبق أن احتلها العرب ، فشيدت فيها المبانى الجميلة ، وأدخلت مختلف الحرف اليدوية ، وتقدمت مرافق البلاد تقدماً محسوساً ، وأصبح « موسى بن نصير » كالحجاج بن يوسف أمير المشرق ، حر التصرف فى تسيير دفة الأمور فى ولايتـه . وكانت إمارة أفريقيا تمتد من حدود مصر الغربية حتى شواطئ المحيط الأطلسى ما عدا كيوتا . (وتشتمل على الجزر الغربية فى البحر الأبيض المتوسط) التى كان يحكمها الـكونت « يوليان » من قبل ملك القوطيين بالنيابة عن إمبراطور الرومان .

وفيما كانت أفريقية تتمتع بنعمة الطمأنينة والعدل ، وتسير بخطا واسعة فى

---

(١) كان مسيحيا واعتنق الإسلام ، وهو من بلدة عين التمر على مقربة من الأنبار غربى الـكوفة بالقرب من قرية شفاثة . (المعرب)

طريق التقدم والفلاح تحت رعاية الحكم العربى ، كانت أسبانيا ترزح تحت نير القوط الشديد الوطأة . ويمكننا أن نقول إن أهل تلك البلاد لم يشاهدوا حالة أسوأ أو أتعس من الحالة التى كانوا يئنون منها تحت سلطان هؤلاء الملوك . فكانت الطبقات الغنية والأعيان معفاة على الجملة من دفع الضرائب ، كما كان الشأن فى عهد الرومان ؛ أما الطبقة الوسطى التى ألقى على عاتقها نير هذا العبء الثقيل ، فقد أخذت تهبط سراعاً إلى دركات الفاقة والخراب ، حتى ضعف فيها النشاط الصناعى من جراء فداحة الضرائب ، وتعطلت الحركة التجارية والصناعية ، ومنيت البلاد بشلل محزن ، لا يقل هولاً عن الشلل الذى أصابها عقب خروج المسلمين منها . والمعروف أنها كانت وقتئذ مقسمة إلى إقطاعيات عديدة يعيش فى كل منها ملاكون يتقلبون فى أعطاف الترف والنعيم ويسكنون فى القصور الشامخة ، حيث يقضون أوقاتهم فى أخزى ضروب الفسق والفجور ؛ وكانت الزراعة يزاولها إما الأقنان الذين كانوا يباعون ويشترون مع الأرض التى يعملون فيها ؛ وإما فئات العبيد البائسين الذين يكدحون ويكدون تحت أسواط أسيادهم الغلاظ الأكباد . وكان الأقنان والعبيد على حد سواء قد فقدوا كل رجاء فى استنشاق نسيم الحرية ويئسوا من سطوع نجمها عليهم ؛ ولم يكن أحد منهم ليستطيع الزواج إلا بموافقة سيده ، كذلك كان يتحتم على الزوجين بمقتضى نصوص القانون أن يوزعا أطفالهما بالتساوى بين صاحبى الأرض . وعلى الجملة كان الأقنان والعبيد يعيشون فى عالم ملىء بالخرافات انحطوا فيه إلى أحط الدركات الخلقية والمادية معاً .

اليهود فى الأندلس

أما اليهود الذى كان يعيش عدد كبير منهم فى أسبانيا فكانوا يعانون أقصى الاضطهاد من جور الملوك والكهنة والأعيان ، وقد بلغ بهم اليأس ذات مرة درجة حاولوا معها الخروج على أسيادهم ، وشقوا فعلا عصا الطاعة ، غير أنهم أخفقوا فى محاولتهم نظرا لسوء تدبيرهم ، فنكل بهم الأسبان أشد تنكيل ، وصادروا

أملاكهم وعاملوا من بقى منهم حياً معاملة الأرقاء ، ووزعوهم شيباً وشباناً ذكوراً وإناثا على السكان المسيحيين ، ولم يسمحوا إلا للشيوخ منهم بالتمسك بدينهم القديم رأفة بهم ورحمة منهم ! ! أما الشبان والأطفال فقد لقنوا العقيدة المسيحية وحظر على اليهود الذكور التزوج من اليهوديات . وهكذا كان العقاب الذى أنزله رجال الدين — أصحاب السلطة — باليهود الذين ثاروا لكرامتهم . وغدا هؤلاء العبيد التعساء والأقنان البائسون واليهود المضطهدون يترقبون الخلاص ولات حين مناص ؛ وفى ساعة النزع الممض ، أشرق عليهم قبس الحرية من جهة لم تكن فى الحسبان ، إذ غدت الدولة العربية الجاثمة على الضفة الأخرى من المضيق ملجأ يهرع إليه الناس من اضطهاد الإكليروس واستبداد حكام القوط ، ولكن لاقى الأسبان صدورا رحبة فى أفريقيا الإسلامية ، فعاشوا فى كنفها مطمئنين بعيدين عن طغيان الملوك وجور رجال الدين .

وفى تلك الأثناء بينما كان « موسى بن نصير » يحكم أفريقيا بالعدل ، نادى روذريق (Roderick) بنفسه ملكا على أسبانيا ، بعد أن قتل ملكها الأصلى المسمى وتيزا (غيطشه) ، فسعى جوليان حاكم سبتة إلى الاتفاق مع مهاجرى الأسبان واستنجد فى الوقت نفسه بالوليد ، فانتهز موسى هذه الفرصة وأرسل جماعة يقودهم « طريف » بن مالك لاستطلاع الأحوال فى الساحل الجنوبى ، ثم نزل طارق بن زياد أحد القواد الأكفاء ، ومعه سبعة آلاف [1] بالموقع

---

(١) قام طارق فى أصحابه ، فحمد الله ثم حض الناس على الجهاد ورغبهم فى الشهادة ، وبسط لهم فى آمالهم ثم قال : « أيها الناس أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، فليس ثمّ والله إلا الصدق والصبر فإنهما لا يغلبان ، وهما جندان منصوران ، ولا تضر معهما قلة ، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة ، أيها الناس ما فعلت من شىء فافعلوا مثله ، إن حملت فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال . ألا وإنى عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أتهيبه حتى أخالطه وأقتل دونه ، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبددوا بين قتيل وأسير ، وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من =

المعروف الآن باسمه ؛ و بعد أن حصنه واتخذ منه قاعدة لحركاته العسكرية غشى ولاية الجيكراس[1] (الجزيرة) التى كان يحكمها تدميرأحد عمال (روذريق) ، فتقابل الجيشان ودارت بينهما معركة هائلة أسفرت عن انهزام القوط ، الذين كانوا قد حاولوا صد العرب عن التقدم ، وعندئذ شرع « طارق » فى زحفه المشهور على طليطلة فى إثنى عشر ألفا . و بينما كان روذريق مشغولا فى إخماد الثورة التى اشتعل أوارها فى المقاطعات الشمالية بلغه خبر نزول المسلمين فى بلاده فقفل راجعا إلى العاصمة ، وأوعز إلى الرؤساء الإقطاعيين أن يلتحقوا به مع جنوده فى قرطبة .

موقعة سيدونيا

وكان الجيش الملكى نفسه كبير العدد ، فلما جاءت إليه الأمداد بلغ فى جملته زهاء مائة ألف ، ولهذا كان جيشا العرب والقوط غير متكافئين عند ما تلاقيا على ضفاف نهر كوادليت فى شمالى سيدونيا [2] . ومع أن أولاد وتيزا الذين كانوا يسخطون على روذريق انسحبوا من الميدان بعد المعركة الأولى ، فقد ظلت تحت قيادة الملك قوة هائلة مجهزة بأحسن الأجهزة ، وأخذت تقاوم العرب وتصد هجومهم حينا من الزمن . غير أن « طارق بن زياد » حمل عليهم بنفسه حملة صادقة فهزمهم شر هزيمة وشتت شملهم وأغرق ملكهم فى مياه نهر الكوادليت فأحدث هذا النصر[3] المبين تأثيرا عظيما على الأعداء ، وأضعف قوتهم المعنوية

هزيمة القوطيين

= من الكرامة والراحة من المهنة والذلة ، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة ، فإنكم إن تفعلوا والله معكم ومعيذكم تبوءون بالخسران المبين وسوء الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين . وها أنا ذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتى » . (المعرب)

(١) أخذ هذا الاسم عن العربية من كلمة « الجزيرة » .

(٢) يقول المقرى : « إن الجميع يتفق على أن المعركة وقعت على شاطئ نهر « وادى لكة » فى منطقة « شيدونيا » . بينما يقول دوزى : « إن المعركة وقعت على شاطئ وادى بقة ، وهو نهر صغير يسمى بنهر « سالادو » يصب فى البحر » ويقول أيضا : « إن تلك المعركة وقعت فى ١٩ تموز سنة ٧١١ م . » .

(٣) لا يمكن أن يقلل انسحاب أولاد وتيزا من شأن هذا النصر المبين ، إذ أن قائد جيش المسلمين على رأس ١٢٠٠٠ لقى جيشا منظما يبلغ عدده خمسة أضعاف عدد جيشه ، فهزمه شر هزيمة .

كما أدخل اليأس إلى قلوبهم ، فخشوا مقابلته مرة أخرى . وصالحته مدينتا « شدونة » و « قرمونة » ، وأظهرت مدينة استجة التى لجأت إليها فلول جيش روذريق بعض المقاومة ، ولكنها صالحته أخيرا بعد أن نالت منه بعض الشروط المرضية .

٧٠٥-٧١٥ م

وبعد أن قسم طارق جيشه الصغير إلى أربع فرق سير الفرقة الأولى إلى قرطبة ، والأخرى إلى مالقة ، والثالثة إلى غرناطة والبيرة ؛ وسار هو بنفسه على رأس القوة الرئيسية نحو طليطلة عاصمة القوط ؛ فأسلمت مالقة وغرناطة وقرطبة الواحدة تلو الأخرى دون مقاومة تذكر ، ودانت له الجيكراس « الجزيرة » التى كانت خاضعة لسلطان تدمير ، وعندئذ هال القوط سرعة حركة طارق وشدة حملاته . ويقول أحد المؤرخين : « إن الله كان يملأ قلوب الكفار فرقاً ورعباً » . وكان الأشراف إما يعرضون طاعتهم على الفاتحين أو يهيمون على وجوههم من بلد إلى آخر ؛ ونزح كبار الاكليروس إلى روما . أما عامة الشعب واليهود والأقنان البائسون فقد رحبوا بدخول المسلمين وعدّوهم مخلصيهم من نير العسف والجور . ولما وجد طارق أن الأسبان قد هجروا طليطلة عاصمة بلادهم خلف فيها « أوباس » شقيق الملكة (غيطشه) فى فرقة من المسلمين واليهود ، وسار بمن معه حتى انتهى إلى أستوركاوا . وعندما انتهت أخبار هذا النصر المبين إلى مسامع أمير أفريقيا « موسى بن نصير » حسد قائده هذا الفخر وسارع إلى أسبانيا فى ١٨٠٠٠ ليكمل الفتح الذى بدأ به قائده المشهور . وكان فى جيشه عدد كبير من سادات اليمن وأحفاد الصحابة الأولين ، فسار بهم شرقا حتى غشى سافيلا ومارده وفتحهما عنوةً فلحق به فى « طليطلة » قائده المشهور « طارق بن زياد » . ولما التقى هذان القائدان[1] بعد هذا الغياب الطويل تنازعا فى أمور

حزيران ٧١٢ م

(١) استقبله طارق فأنبه وبالغ فى إهانته . ويقول جيبون فى تاريخه «انحطاط وسقوط الدولة الرومانية» ما يلى : — « ولكن بلغ من دقة النظام ونقاء الحماسة وذكاء الحمية فى صدور الإسلام أن تجاوز طارق عن ذلك الخزى » . (المعرب)

لم تكن لتليق بمقامهما ، و إن كانت غير بعيدة عن روح العصر ؛ ولكنهما لم لم يلبثا أن اصطلحا ووحّدا قوتيهما ثم زحفا على أراغون فأسلمت لهما سرقسطة وتراغونة و برشلونة وغيرها من المدن المهمة الشمالية . وفى أقل من سنتين غدت بلاد الأندلس حتى حدود جبال البرنيه خاضعة لسلطان العرب الذين احتلوا بعد سنوات قليلة بلاد البرتغال واعتبروها ولاية منفصلة وأطلقوا عليها اسم « الغرب »[١] ولكن المسيحيين الأسبان فى جبال الأوستورياس استمروا يقاومون العرب ، و يمتنعون فى حصونهم .

فتوحات موسى ابن نصير

عهد موسى بن نصير إلى قائده طارق مهمة إخضاع بقية المدن فى « جليقية » وسار هو إلى فرنسا حيث استولى بسهولة على القسم التابع لحكومة القوط من بلاد « لانكودوك » . وما أن صعد القائد العظيم على جبال البرنيه حتى عقد النية على احتلال أوربا برمتها . ولو سمح له وقتئذ بتحقيق فكرته لنجح على الأرجح فى تدويخ أوربا والاستيلاء عليها ، إذ أصبحت تحت قدميه ، ولم تكن ثمة رابطة بين الأمم التى كانت تفصل موسى عن مقر الخلافة ، كما أنه لم يكن قد وجد بعد ذلك البطل الذى يستطيع توحيد الأقطار المسيحية ، و يقف بها سداً حائلا أمام تقدم العرب ؛ غير أن سياسة الحذر والتردد التى اتبعها بلاط الخلافة فى دمشق أضاعت تلك الفرصة الثمينة ؛ وظلت أوربا تتخبط فى دياجير الجهل والظلمات طوال الثمانية قرون التى أعقبت ذلك العهد . فبينما كان « موسى بن نصير » على وشك التوغل فى فرنسا يأمل عبورها إلى إيطاليا ، جاءته أوامر « الوليد » ، فأوقف زحفه وقفل راجعا إلى الأندلس التى كان قد حصر اهتمامه فى إخضاع بقية حصونها الجبلية حيث امتنع بعض المسيحيين وشيدوا معاقلهم المنيعة .

سار القائد العربى حتى انتهى إلى جليقية ، و بعد قتال شديد استولى على

(١) لا تزال ولاية فى البرتغال الحديثة تسمى باسم الكارف .

قلاعها ، وأزاح العـدو إلى جبال أوستورياس ؛ ولما استقر فى لوكو أخذ يدير حركات الجيش فى مطاردة الأعداء . وبفضل همة ذلك القائد الكبير طفقت العصابات تسلم الواحدة عقب الأخرى ما عدا « بيلايو » وقليل من أنصاره ، وكان قد أوشك هذا أيضاً أن يعرض طاعته ، ويتم بذلك احتلال البلاد كافة ، لولا أن وصل فى اللحظة الأخيرة رسول من الخليفة يأمر الفاتحين العظيمين « موسى » و « طارق » بالإسراع إلى الشام .

استدعاء موسى ابن نصير وطارق ابن زياد

ومهما تكن الأسباب الباعثة على استدعاء هذين الفاتحين موسى وطارق ، فما لا شك فيه أن دعوتهما تعد كارثة على مستقبل الإسلام فى تلك الأنحاء ، إذ بعد أن غادر « موسى » بلاد الأندلس تنفس « بيلايو » الصعداء ، وشـيد الحصون المنيعة فى الجبال ، وألف نواة العصابات التى انتصرت فيما بعـد على الولايات الإسـلامية الجنوبية . وما أن ارتحل هذان القائدان المشهوران حتى أخذ العرب يرمقون بعين الاحتقار وعـدم الاكتراث تلك الفئة القليلة المعتصمة بالجبال التى أخذ يزداد عددها وتعظم شوكتها رويداً رويداً . ويقول المقرى فى تاريخه : « ليت المسلمين أطفأوا ذلك الشرر الذى استعر لهيبه فيما بعد ، والتهم الممالك الإسلامية فى تلك الأنحاء » . وقد رأى موسى قبل الرحيل أن يضمن استقامة الأمور ، فاستعمل على تلك الولاية ابنه « عبد العزيز » وجعل حاضرتها أشبيلية ، كما استعمل « عبد الله » ابنه الثانى على أفريقيا و « عبـد الملك » أصغر أبنائه على المغرب الأقصى ، وعهـد إلى « عبد الصالح » قيادة الأسطول وحاميات السواحل ، وبعد أن اتخذ كل هذه الترتيبات وضمن تنفيذها قفل راجعاً إلى الشام يحف به رهط من أصحابه .

نتائج فتح أسبانيا ٦٨ — ٩٦ هجرية

بدأ باستيلاء العرب على أسبانيا عهد جديد تمخضت فيه البلاد عن ثورة اجتماعية لا تضاهيها غير الثورة الفرنسية فى محاسنها دون مساوئها وشرورها ؛ فألغيت حقوق الطبقات الممتازة ومعظمهم من رجال الاكليروس والنبلاء ،

ورفعت الأعباء الثقيلة التى سحقت الصناعة وأرهقت الطبقة الوسطى ، واستبدلت الضرائب الطاحنـة بضرائب عادلة تتناسب وطبقات الأهلين — وهى الجزية التى تفرض على الذميين ، والخراج الذى يؤخذ من الذميين والمسلمين معاً — وكانت الجزية فى حد ذاتها زهيدة ، إذ كانت تختلف باختلاف درجة الأشخاص الاجتماعية وحالتهم المـالية ، علاوة على أنها كانت تستوفى سنويا فى اثنى عشر قسطاً[1] ؛ وكان يستثنى من دفعها الرهبان والنساء والأطفال بوجه عام ، والمقعدون والعمى والمرضى والأرقاء بوجه خاص ، أما الخراج فكان يراعى فى جمعه مقدار المحاصيل الزراعية ، ولهذا لم تعد ثمة ضريبة فادحة ينوء بحملها الزراعون ؛ كما نالت كثيراً من المدن الأسبانية فى غضون الفتح امتيازات سخية حافظ العرب على تنفيذها بأمانة و إخلاص .

ولو استثنينا أملاك النبلاء ورجال الأكليروس الذين فروا من البلاد أو التحقوا بالعصابات الغاليشية ، فإن الحكومة لم تصادر أملاكا أخرى ؛ هذا فضلا عن أنها كانت تعاقب بشدة كل جندى يثبت عليه أعمال العنف أو النهب مع أنها أعمال تقترن عادة بدخول الجيوش الفاتحة[2] . وقد نال اليهود المضطهدون حرية إقامة الشعائر الدينية ، وتمتع المسيحيون فى كنف المسلمين بحرية الاعتقاد وأتيح لهم اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، وعين لهم قضاة من أبناء طائفتهم للنظر فى أحوالهم الشخصية التى سن لنظامها قانون خاص ، وأصبح الجميع متساوين يتمتعون بالحرية التامة فى العبادة و إقام الصلاة ، وعين موظفون من المسيحيين لجمع الخراج من أبناء طائفتهم ، وغدت أبواب الوظائف على اختلافها مفتوحة على مصراعيها أمام المسلمين واليهود والمسيحيين على حد سواء . ولعل كثيراً من

(١) وهى تتراوح بين ١٢ إلى ٤٨ درهما ويساوى الدرهم فرنكاً واحداً .

(٢) للقارئ أن يراجع أخبار الحوادث التى اقترنت بدخول الجيش الألمانى المنظم الأراضى الفرنسية سـنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ أو فى الحرب العامة سنة ١٩١٤ لـكى يفهم تماما ويلات الحروب الطاحنة .

الدول العصرية تحسن صنعاً لو اقتبست من المسلمين أساليب الإدارة فى أسبانيا .
بيد أن أظهر نتائج الفتح ، هو تحسين حالة الطبقات المستعبدة ، التى كانت إلى ما قبل ذلك الحين تعامل معاملة السائمة ، فتبوءوا الآن فى حكم المسلمين المراكز الجديرة بهم ، أما العبيد والأقنان الذين كانوا يزاولون الفلاحة فى المزارع التى غدت ملكا للمسلمين ، فقد وهبوا حريتهم وأصبحوا مزارعين أحراراً ، يستأجرون الأرض من أصحابها و يعتنون بها اعتناء المالك لملكه ، وأصبحت الأرض أرضهم ، فلا يطالبون إلا بدفع حصة من المحصولات الزراعية لأصحابها المسلمين ؛ وتحسنت أيضاً حالة الفئة التى ظلت تشتغل مع أسيادها المسيحيين ؛ وذلك أن أى تظلم من سوء معاملة أسيادهم المسيحيين أو مجرد اعتناقهم الدين الإسلامى ، كان يؤدى حتما إلى إخراجهم من ربقة العبودية بمقتضى القانون الجديد ، فتهافت الأقنان على اعتناق الدين الإسلامى ليفوزوا بحريتهم ويتمتعوا بنعم الحياة التى حرمت عليهم فى أيام الحكم السابق : كما اعتنق الأشراف والنبلاء الديانة الإسلامية ، وسواء أكان الباعث على اعتناق الإسلام هو الإيمان الصحيح أم الرغبة فى اقتناص المنافع الشخصية ، فقد أخلصوا على كل حال لدينهم الجديد كل الإخلاص ، واعتنقوه بحرارة كما سيظهر فيما بعد . ولقد فضل المسيحيون حكم العرب — المنطوى على السخاء والكرم — على استبداد القوطيين وجور الفرنج ، وعادوا زرافات ووحدانا إلى المدن والقرى التى كانوا قد هجروها من قبل . وحتى رجال الكهنوت لم يتبرموا من الحكم الجديد ، أو على الأقل ظاهروه فى إبان الفتح كما يقول « دوزى » . و يقول كاتب مشهور آخر من كتاب الأسبان : « نظم العرب مملكة قرطبة تنظيما جعلها أعجوبة الزمان فى العصور الوسطى ، وحاملة مشعل العرفان والمدنيــة ، فأضاءت بنورها كافة أنحاء العالم الغربى ، الذى كان آنئــذ يتخبط فى دياجير الجهل والمنازعات » .
ويقول أيضاً فى موضع آخر من كتابه : « يجب ألا يظن أن العرب كأقوام

البربر الذين سبقوهم الى الأندلس ، عملوا فيها معاول التخريب والتدمير ، بل على العكس لم تتمتع الأندلس بحكم عادل مثل ما تمتعت به على أيدى هؤلاء العرب الفاتحين ؛ وإن المرء ليحار فى معرفة كيف نبغ هؤلاء العرب فى الإدارة مع أنهم نزحوا رأساً من صحاريهم ، كما أن انتصاراتهم السريعة فى الحروب لم تفسح لهم مجالا كافياً لدرس فن إدارة الأمم والشعوب » .

تقسيم الإدارة

قسم العرب أسبانيا إداريا إلى أربع مقاطعات كبيرة وعينوا لكل مقاطعة حاكما يتصل رأساً بأمير الأندلس ، وكانت تتألف أولاها من أندلوسيا — الأراضى الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط ونهر الوادى الكبير — والبقعة الممتدة من هذا النهر إلى وادى يانا ، ومدنها : قرطبة ، وأشبيلية ، ومالقة ، وجيان .

وتشتمل المقاطعات الثانية على أواسط أسبانيا ، يحدها البحر الأبيض المتوسط من الشرق وحدود لوزيتانا (البرتغال الحالية) من الغرب ، ونهر دورو من الشمال ، وأشهر مدنها : طليطلة ، وقونقا ، وسيقوبيا ، ووادى الحجارة ، وبلنسية ، ودانية ، وقرطاجنة ، ومرسية ، ولارقة .

وثالثتهما تشتمل على جليقية ، ولوزوتانيـة (البرتغال الحالية) وأهم مدنها مريدا ، وباجة ، ولشبونة ، واستورقة ، وسمورة ، وشلمنقة ، الخ .

ورابعتها تمتد من شاطئ الدورو إلى جبال البرنيه على ضفتى نهر الأيبرو ؛ وأشهر مدنها : سرقسطة ، وطرطوشة ، وتراغونة ، وبرشلونة ، وتطيلة ، وولاد وليد ، الخ .

ولما امتدت الفتوحات فيما بعد أنشئت مقاطعة خامسة فيما وراء البرنيه مؤلفة من لاربونة ، وينم ، وقرقشونة ، وبزيبة ، وآدج ، وماحيلون ، ولاديف .

وكان العرب يؤثرون السكنى فى هذه المدائن ، حيث تجمعوا فرقاً على نمط الأحياء العربية ، وهذا التكتل وإن ساعدهم نوعاً ما على صد هجمات المسيحيين ، إلا أنه أدى إلى إنماء روح المنازعات وإثارة الأحقاد القبلية .

وفيما يلي جدول يبين توزيع القبائل والشعوب المختلفة التي نزلت في أنحاء تلك البلاد :

المدينة	القبائل
قرطبة	قبائل دمشق
أشبيلية ونيبلة	قبائل حمص
جيان	قبائل قنسرين
شذونة والجزيرة	قبائل فلسطين
رية ومالقة	قبائل الأردن
شريش	قبائل الفرس
طليطلة	قبائل اليمن
غرناطة	قبائل العراق
ماردة ولشبونة . الخ	قبائل مصر

واستوطن المدن الداخلية عشرة آلاف من نبلاء الحجاز . وأنشأ عبد العزيز الذي استخلفه أبوه موسى قبل سفره إلى الشام ديواناً لتطبيق القوانين وأحكام الشرع حسب حاجات البلاد ، والعمل على مزج الشعبين الفاتحين وأصحاب البلاد الأصليين . وقد استطاع عبد العزيز بكياسته وتساهله أن يوفق بين جميع الطبقات ؛ وكان من سياسته تشجيع التزاوج بين هذين الشعبين ، شأنه في ذلك شأن ملوك المغول الأوائل الذين احتلوا الهند ؛ وقد تزوج هو نفسه بأرملة رودريك المسماة ايكولونا ، والتي يلقبها العرب « بأم عاصم » كيما يكون قدوة لشعبه في تحقيق هذه الغاية .

تحسين شؤون أسبانيا

توافد المهاجرون فى الأصل من ممالك زراعية بطبيعتها كمصر وسوريا و إيران ، وكانوا كاليهود الذين كانوا يتبعونهم أينما رحلوا موهو بين بغريزة التجارة ؛ وكانت تعاليم النبى (ص) تحفزهم على أن يعملوا لدنياهم كأنهم يعيشون أبداً ، ولهذا أقبلوا على موطنهم الجديد بنشاط وهمة لا مثيل لها ، وشمروا عن ساعد الجد فى ترقية البلاد وتحسينها بعد أن بقيت مشلولة طوال عهد الحكومة المسيحية . فأدخلوا عدة أعمال زراعية وأخصبوا الأرض القاحلة وعمروا المدن المهجورة وزينوها بالتماثيل الجميلة ، وربطوا بينها برباط التجارة والصناعة ، ومنحوا أهلها حق التصرف بالأرض ، وهو حق لم يتمتعوا به من قبل فى عهد القوطيين ، وحرروا الأقنان من ربقة العبودية التى كانت مسلطة على رؤوسهم تسلط السيوف المسلولة على الرقاب ، فأصبحت أسبانيا بهذا الفضل العميم أكثر الممالك الأوربية رغداً . وعلى الجملة فإن العرب خلقوا منها جنة وارفة الظلال تجرى من تحتها الأنهار ؛ وأسسوا فيها إدارة تعد بحق أنموذجا للإدارات ؛ وشجعوا الفنون والعلوم ؛ ولكنهم برغم كل ذلك عجزوا حتى فى تلك البلاد النائية عن كبح خصوماتهم القبلية القديمة التى يشتعل أوارها فى الصحراء . ومع أن الحظ وهبهم سانحة لتأسيس إمبراطورية فسيحة الأرجاء ، إلا أنهم أضاعوها لما كان يعوزهم من الوحدة والتآلف . وقد ازداد النزاع فى أسبانيا واشتدت الخصومات بسبب عاملين جديدين أعانا على الفت فى ساعدهم فى تلك البلاد وهما :

(١) البربر — وكانوا يبغضون الضباط العرب بغضاً شديداً ، ويثورون عليهم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ؛ ولا يخفى أن قمع حركاتهم كانت تؤدى دائماً إلى إضرام نار العداء العنصرى .

(٢) المسلمون الأسبانيون — وكان هؤلاء من جهتهم يمقتون العرب والبربر على حد سواء ، يكرهون العرب لكبريائهم وترفعهم ، ويمقتون البربر لوحشيتهم وبربريتهم . ومع أن التعاليم الإسلامية الديمقراطية تمحو المفاضلة بين الأجناس

والألوان ، إلا أن العرب فى تلك البلاد البعيـدة التى احتلوها بحد السيف لم يقووا على التغلب على الاعتزاز بعنصريتهم ، ذلك الاعتزاز الذى يعد بالضرورة صفة من صفاتهم الممتازة ، فهم كالأنجلوسكسونيين يعدون أنفسهم أنبل خلق الله . وتعيد العلاقة بين العرب والمولدين (أهالى البلد) إلى أذهاننا فى صورة مصغرة ذكرى العداء العنصرى القديم بين النمساويين والإيطاليين فى ولاية لومباردى ، أو العداوة التى لا تزال تستعر بين الكلتيين والسكسونيين فى ايرلنده الحرة . كان المولدون فى أسبانيا كالإيرلنديين فى الوقت الحاضر يصرون على أن يمنحوا الحكم الذاتى ، وعلى أن يحكمهم أفراد من بنى جنسهم . وكان معظم الثورات التى يقوم بها المولدون ضد العرب يضرم نارها الفقهاء ، ذلك أن الأسبان اعتنقوا الإسلام بنفس الحماس المفرط الذى اعتنقوا به الديانة المسيحية من قبل ؛ فكانوا بتحريض الفقهاء يثورون على العرب للذود — فى زعمهم — عن الإسلام ، كلما شعروا تساهلا من العرب فى معاملة الذميين أو تفسير نصوص الدين ، فأضعفت هذه الضغائن والاختلافات الإمبراطورية ، وأدت كما تكهن ابن خلدون إلى فقدان القسم الشمالى حتى برشلونة قبل أن تنقضى ٨٠ سنة على احتلالها .

والآن يجب أن نحول أبصارنا نحو الشرق حيث نجد الوليد لم يمتد به العمر ليستقبل القائدين اللذين كان قد استقدمهما من ميـدان الظفر ؛ كما أنه حاول كأبيه بمساعدة الحجاج وقتيبة وكبار مضر أن يحصر ولاية العهد فى ابنه عبد العزيز ويعزل أخاه سليمان ، ولـكن المنية عاجلته قبـل تحقيق أمنيته ، فقبض بدير مران سنة ٧١٥ م ، وكانت ولايته تسع سنين وسبعة أشهر . ويعتبره المسعودى وابن الأثير حاكما عنيداً ظلوما غشوما ، بيد أنه حقيق بنا فى هذا الزمن البعيد ألا نذكر غير أفعال الرجل الحميدة ؛ وليس ثمة شك فى أنه كان أكثر رحمة من أبيه عبد الملك وجده مروان بن الحكم ، بل لعله كان أكثر رحمة أيضاً من كثير من خلفائه ؛ ويعتبره أهل الشام بطبيعة الحال أشهر الخلفاء وأبعدهم

أثراً ، إذ شيد الجامع الأموى بدمشق ، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأمر بتشييد وحفر الآبار فى أنحاء الإمبراطورية ، وفتح المدارس والمستشفيات ، وألغى الصدقات غير المنظمة ، وجعل للفقراء والشيوخ من العطايا ما يقوم بأودهم ، وشيد الملاجئ للعميان والمقعدين واليتامى والمجاذيب ، وكان يزور بنفسه الأسواق ، ويراقب ارتفاع الأثمان وهبوطها ، وكان أول خليفة أموى شجع الحرف والآداب والفنون .

وكان من معاصرى الوليد فى القسطنطينية جوستنيان الثانى ، الذى قتل سنة ٧١١ م وخلفه فيلبسيوس الذى سملت عيناه ، وعزل فى ٧١٣ م ، ثم ولى بعده أناستسيوس الثانى ، وقد قتله ثيودسيوس الثالث سنة ٧١٦ ميلادية .

الفصل العاشر

بنو أمية ٩٦ — ١٠٥ هـ

(٧١٥ — ٧٢٤ م)

خلافة سليمان — موسى وطارق — وفاة عبد العزيز بن موسى — الخصومات القبلية — اليمانيون — ثورة يزيد بن المهلب — حصار القسطنطينية — كارثة المسلمين — وفاة سليمان — استخلاف عمر الثانى — حكمه — انسحاب الجيش من القسطنطينية — وفاة عمر — استخلاف يزيد الثانى — ثورة يزيد بن المهلب — هلاك اليمانيين — الخصومات القبلية — الكوارث التى حلت بالإمبراطورية — وفاة يزيد الثانى — العباسيون

بويع سليمان بالخلافة بمقتضى وصية أبيه عبد الملك . وكان كريم الخصال محبا للهو ، يؤثر العدل ، ويأخذ بنصائح ابن عمه عمر بن عبد العزيز — الذى ولى الخلافة من بعده — فبادر فور مبايعته بالخلافة إلى فتح أبواب السجون فى العراق ، كما أطلق سراح الألوف الذين كان الحجاج قد زجهم فى غياهبها ظلماً وعدوانا ، وعزل جباة ذلك الطاغية ، وألغى معظم أحكامه الصارمة .

ولو اكتفى « سليمان » بإنقاذ الناس من عسف الحجاج فحسب ، لذهب محمود الأثر فى التاريخ ، غير أنه سمح لعاطفة الانتقام أن تسيطر على مشاعره ، فطفق يضطهد المضريين الذين ناصروا الوليد فى تغيير وصيته ، كما رفع من شأن اليمانيين الذين أخذوا يثأرون لسوء المعاملة التى عوملوا بها فى زمن الحجاج . أما يزيد بن المهلب فيقال إنه بعد أن طوى الموت عدوه اللدود راح يضطهد أقاربه وأصحابه بمرأى ومسمع من الخليفة ، وفى تلك الأثناء لاقى « قتيبة » حتفه فى خراسان فى الثورة الداخلية التى استعرت بين المضريين واليمانيين فى أنحاء الإمبراطورية .

موسى بن نصير وطارق بن زياد

لا نستطيع فى هذا العصر المتأخر أن نعلل سبب المعاملة التى عومل بها القائدان المشهوران « موسى بن نصير » و « طارق بن زياد » ، إذ أن كليهما من أصل يمنى ، فضلا عن أنهما كانا متمتعين برضاء « يزيد » قبل وفاته ، ولكن « سليمان » أساء معاملتهما فقضيا نحبهما فقيرين معدمين ، وهو عمل أقل ما يقال فيه إنه سيبقى أبد الدهر عاراً ووصمة فى جبين خليفة ذلك العهد . وتحدثنا الرواية العربية أن « سليمان » كان عارفا بالمؤامرة التى دبرت لقتل « عبد العزيز بن موسى »[١] الذى نجح فى حكمه إلى حد بعيد ، كما أنه هو الذى استدعى إلى الشام « محمد بن القاسم »[٢] فاتح السند والبنجاب ، بعد أن فاز بمحبة الهنود لعدله وإنصافه ؛ والغريب أنه ليس ثمة ما يؤاخذ عليه هذا القائد العظيم سوى قرابته للحجاج ، فمن أجل هذه الصلة وحدها سامه « يزيد بن المهلب » أروع صنوف العذاب ، وعين مكانه « حبيبا » الذى برغم شجاعته لم يستطع أن يظفر بالمنزلة التى ظفر بها سلفه فى قلوب الهنود .

ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة كان قد أهمل فى تلك الأثناء شؤون أسبانيا إهمالا تاما ، فلم يلبث الجيش أن انتخب « أيوب بن حبيب » ابن أخى موسى حاكما عليهم ، غير أن هذا التعيين لم ينل رضاء حاكم أفريقيا الذى كانت أسبانيا تعتبر جزءاً من إمارته . وما أن ولى « أيوب » زمام الحكم بضعة أشهر — نقل

---

(١) يقول ابن الأثير : « إن السبب فى مقتله هو الأثر السيء الذى أحدثه انقياده لايلونا (زوجه) ومبالغته فى الأبهة والاحتجاب عن الرعية والتشبه بملوك القوطيين .

(المعرب)

(٢) يقول البلاذرى : « إن الهنود بكوا محمداً لسماحته وعدله وكرم خلقه . وقد رثاه « حمزة بن بيض الحنفى » بقوله :

إن المروءة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤددا فى مولد

وقد قضى محمد وهو يتمثل بهذا البيت :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

(المعرب)

فى خلالها مركز الحكم من «سينيل» إلى «قرطبة» — حتى عزله «عبد العزيز» وولى مكانه أحد المضريين المسمى «الحر» . ويقال إنه غشى الأندلس فى أربعمائة من خاصة الأسر العربية الشهيرة فى أفريقيا ، فأصبح هؤلاء فيما بعد نواة طبقة الأشراف المسلمين فى أسبانيا . ومنذ ذلك الحين حتى بدء عهد الدولة العباسية ظلت أسبانيا يحكمها بالتتابع ولاة يعينهم تارة أمير المؤمنين فى الشام ، وطورا أمير أفريقيا الذى كان مقره القيروان . ولكن هذه السلطة الموزعة أضعفت الإدارة ، وأوهنت سياسة الحكم وبثت عدم الاستقرار ، كما حالت دون تعزيز المعاقل النائية . أما «الحر» فلم يبق فى دست الحكم غير ثلاث سنوات قام فى خلالها بفتوحات واسعة فى الشمال .

الفتوح فى بلاد الروم

وفى تلك الأثناء بينما كان سليمان مقيما فى قصره المسمى «دابق» بالقرب من جلكيس القديمة عام ٩٨ هـ ، وفد عليه «ليون» الملقب «بأيساريان» قائد القوات الرومانية فى آسيا الصغرى ، وأخذ يحرضه على فتح القسطنطينية مبينا له المزايا التى قد تجنيها الإمبراطورية العربية من هذا الفتح ، كما أخبره باستعداده إلى إرشاد جيش المسلمين إلى مواطن الضعف فى جيش الروم ، فبهرت تلك الأمانى البراقة والوعود الخلابة أبصار الخليفة ، وراح يمنى نفسه بالاستيلاء على أسبانيا جديدة ، وفى الحال أرسل «مسلمة» على رأس جيش كبير عبر به الدردنيل دون مقاومة تذكر ؛ كذلك أرسل أحد أبنائه على رأس جيش آخر إلى تراس لاحتلال عاصمتها المعروفة باسم «سكاليبات» أو مدينة «السلاف» .

وعلى أثر هذا الزحف عرض الروم على «مسلمة» مبلغا كبيرا من المال مقابل رفع الحصار ، ولكنه رفض طلبهم رفضا باتا مما حملهم على التفاوض مع مواطنهم الخائن والنزول على طلبه ، فعزلوا «ثيودوتوس» الثانى حاكم القسطنطينية ، ونادوا به إمبراطورا على عرش الدولة البيزنطية . ولما كان ليون يعرف مواطن الضعف فى جيش المسلمين فقد استطاع أن يرشد الروم عليها ؛ وقد قيل فى رواية أخرى

إنه أتلف قسما كبيرا من عتادهم قبل أن يفر إلى الروم . وهكذا لاقى المسلمون وأسطولهم على يديه أشد الأهوال ، وتفشت فيهم الأمراض ، وهاجمتهم الثلوج والمجاعة بأنيابها الضروس ؛ ولكنهم بالرغم من كل ذلك أصروا على مواصلة الحصار دون أن يفكروا فى الانسحاب إلا بأمر الخليفة .

وليس ثمة ما يبرهن على ضعف « سليمان » وعدم جدارته بملء المنصب العظيم الذى كان يشغله أخوه « الوليد » بكفاءة تامة بأكثر من الموقف المخجل الذى وقفه إزاء « مسلمة » وجيشه . ولو أنه ساعد هذا الجيش الباسل وسارع إلى تعزيزه بالنجدات لأخضع المسلمون القسطنطينية من غير عناء .

وفاة سليمان فى أيلول سنة ٧١٧ م

ومهما يكن من شىء فإن تلك المصائب التى حلت بجيوش المسلمين ، لهى أعظم من أن يقلل من هولها ذلك النجاح الذى أحرزه يزيد بن المهلب فى طبرستان وكوهستان ، الواقعتين فى الجنوب الغربى من بحر قزوين ، واللتين كان يحكمهما حكام وطنيون ، طالما تحدوا سلطان العرب ، واعتصموا بمعاقلهم المنيعة . وأخيراً و بعد فوات الفرصة هب « سليمان » من غفلته ، وقاد جيشاً آخر بنفسه ولكنه لم يكد يبتعد عن « دابق » فى منطقة « قنسرين » وهى البقعة التى رأى فيها الخائن ليون لأول مرة — حتى أصيب بمرض شديد توفى على أثره فى يوم الجمعة لعشر بقين من صفر عام ٩٩ هـ بعد حكم قصير غير لامع لم يدم إلا سنتين وخمسة أشهر . وكان « سليمان » مثله مثل أخيه ، يتوق إلى إسناد ولاية العهد لأحد أبنائه ، غير أن ابنه الأكبر الذى رشحه للخلافة كان قد توفى ، بينما كان الابن الثانى داود على رأس الحملة المنكودة الطالع التى سارت لقتال الروم ، ولم يكن محققاً وقتئذ هل قضى نحبه أو لا يزال على قيد الحياة . فاستولت على سليمان عوامل القلق ، ولأجل أن يحول دون وقوع الانشقاق الذى كان يحدث عادة فى مثل هذه الأحوال كتب وصيته عند ما حضرته الوفاة بتولية ابن عمه « عمر » ثم أخيه « يزيد بن عبد الملك » .

كتب الخليفة هذين الاسمين على رقعة ختمها بختمه وسلمها إلى رجاء بن أيوب أحد مستشاريه الأوفياء ؛ فبايع أهل بيت الخليفة « مَنْ ولّى مِنْ غير أن يعلموا مَنْ سماه » . وكانت أخلاق « سليمان »[1] مجموعة من المتناقضات ؛ فكان سخيا مع أصحابه ، قاسياً كأبيه على أعدائه ، مغرما باللهو والسرور ، غير أنه كان يسمو إلى أقصى درجات النشاط والهمة ، فيما إذا تأزمت الأمور ؛ وقد أكسبه فك سراح المسجونين حب الشعب فسموه « مفتاح الخير » .

عمر الثانى

بويع عمر الثانى الملقب « بالخليفة الصالح » لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين هجرية . وهو ابن عبد العزيز « أخى عبد الملك » الذى كان قد ولى على مصر فساسها بالحكمة والعدل . أما أمه فهى حفيدة « عمر بن الخطاب » ويعتبره أهل السنة خامس الخلفاء الراشدين ؛ وكان من أبرز صفاته النسك والتواضع وحب العدل والاستقامة ؛ وكان فوق ذلك متقشفاً فى ملبسه ، غير مترف فى معيشته ، فساوره القلق على أمور المسلمين ، وعظمت عليه مسؤولية الخلافة . ويقال إن زوجه رأته ذات مرة بعد الصلاة يبكى ، فسألته عما يبكيه ، فقال : « لقد وليت أمور المسلمين وغير المسلمين ، فتذكرت الفقراء الذين يتضورون جوعا ، والمرضى المحرومين والمعوزين المضطهدين ، والمسجونين البائسين والشيوخ المهيضى الجناح ، فخشيت أن يحاسبنى الله من أجلهم حسابا عسيراً ، ولهذا بكيت » .

ولقد استفتح ولايته ببيع خيول سليمان وردّ ثمنها إلى بيت المال ، كما أمر زوجه أن تعيد ماوهبها أبوها من ثياب موشاة وجواهر نفيسة إلى خزينة المسلمين فصدعت بأمره مغتبطة مسرورة .

ويقال إن يزيد عرض عليها بعد وفاة زوجها أن يرد إليها مجوهراتها

(١) يقول المسعودى : إنه كان صاحب أكل كثير يجوز القدار ، وكان يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشى . (المعرب)

وملابسها ، فرفضت ذلك قائلة إنها لم تهتم بها فى حياته ، فحقيق بها ألا تهتم بها فى مماته ؛ كذلك أعاد « عمر » إلى المسيحيين واليهود كنائسهم ومعابدهم التى سبق أن اغتصبت منهم ، كما رد إلى آل البيت أرض « فدك » التى كانت بيد رسول الله (ص) ثم استولى عليها « مروان » . وكان من المعتاد فى حكم الأمويين إلى ما قبل عهده الإساءة إلى ذكرى « على » وأهله ، فأمر عمر بترك هذه العادة وجعل مكانها « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان . ولا تجعل فى قلوبنا غِلاً للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم »[1] . ويقال إنه حض الناس على التمسك بمكارم الأخلاق ، وأنزل العقاب بكل معتد أثيم ، ورفع الأعباء التى كان الحجاج وأصحابه قد فرضوها على كواهل المسلمين فى العراق وخراسان والسند . ويعتبر عهد « عمر الثانى » على الجملة أحسن عهود الدولة الأموية ، ويشيد المؤرخون دائما بذكر الأعمال الجليلة التى قام بها هذا الخليفة المحب للرعية والمتفانى فى خيرها وإسعادها .

وفى غضون حكمه أمسك الخوارج عن حركاتهم الهدامة فى بلاد العرب وأفريقيا : وبعثوا وفداً منهم إلى عمر يقول له بأنهم لا ينقمون عليه سيرته لأنه يحكم الناس بالعدل والإحسان ، ولكنهم لا يوافقون على مبايعة يزيد بولاية العهد لاستهتاره وتبذله . ولم يكن « عمر » يشجع التوسع فى الفتوحات بل كان يصرف همه إلى تدعيم أركان الدولة ، فاستقدم مسلمة من حصار القسطنطينية وأوقف زحف الجيوش الأخرى ، وشجع الناس على مزاولة الحرف ، وحاسب عماله حسابا عسيراً . وكان يعتقد أن « يزيد بن المهلب » حاكما مستبدا ، بينما كان يزيد يلقبه بالمنافق . وأراد « عمر » أن يحاسبه ذات مرة عن الأموال التى كتب بها إلى

---

(١) وقيل جعل مكان ذلك : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » (الآية) . وقيل بل جعلهما جميعاً . (المعرب)

الخليفة السابق ، ولما لم يقدم له جوابا شافياً حبسه بحصن حاب وظل فى سجنه حتى قبيل وفاة عمر .

ومما يؤثر عن هذا الخليفة أنه كتب إلى والى الكوفة كتابا يحض فيه العمال على إبطال جميع القوانين الجائرة ، و إزالة أسباب الشكوى ؛ وفيما يلى نبذة من كتابه : « إن قوام الدين العدل والإحسان فلا تستصغروا أى إثم مهما قل شأنه ولا تحاولوا تخريب البلاد العامرة ، ولا تفرضوا الضرائب الفادحة على الرعية ، وخذوا منهم ما طاقوا ، وافعلوا كل ما من شأنه أن يعمر البلاد و يزيد فى رفاهية العباد ، واحكموا الشعب باللين والرفق ، ولا تقبلوا هدايا المواسم والأعياد ، ولا ثمن المصاحف التى يجب أن توزع مجانا ؛ ولا تفرضوا الضرائب على المسافرين ولا على النكاح ، ولا الخراج على من أسلم من أهل الذمة » .

وكان ابنه — ولم يكن قد جاوز بعد السابعة عشر — يحمل فى سويدائه كأبيه رغبة ملحة فى إسعاد المسلمين ، فسأله ذات مرة لماذا لا يجتث الشر من قلوب المسلمين ، فأجابه بقوله : « إن ما تتمناه يا بنى لا يدرك إلا بحد السيف وحده ، ولكن لا خير فى إصلاح لا يتم إلا بالقوة » !

تولية السمح على الأندلس

وفى سنة ٧١٩ م عند ما انتهى إلى مسامعه خبر الاضطرابات الداخلية فى أسبانيا وتأكد من عجز « الحر » عن إدارة شؤون البلاد عزله فى الحال ، وولى بدلا منه أحد الرؤساء اليمانيين المسمى « السمح بن مالك » من عشيرة « خولان » . وكان إداريا حازما وعسكريا شجاعا ، فأعاد تنظيم الأمور المالية والإدارية ، كما أحصى — بأمر الخليفة — عدد السكان على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم ، ثم مسح بلاد الأندلس مسحا تفصيليا من مدن وجبال وأنهار و بحار مبينا تربة الأرض ونوع المنتوجات ، كذلك بنى مسجداً جامعاً فى سرقوسة ، وشيد عدة جسور ورمم الجسور المتداعية .

قمع الثوار

ولما فرغ « السمح » من تنظيم أمور الدولة أقدم على قمع حركة الثوار

النصارى وسكان اللانكيدوك والبروفانس ، فانتصر عليهم وأمعن فيهم القتل حتى لاذوا بالفرار إلى معاقل الأستورياس الجبلية ، واكتسح أمامه « ستمانية » وافتتح أربونة وصالحته المدن الأخرى . وقد كانت « أربونة » مكشوفة من البحر ، فعمد إلى تحصينها وتعزيز حاميتها ، ثم سار بجيشه إلى طولوز عاصمة الأكواتين وحاصرها حينا ؛ وفيما كان يستعد للهجوم عليها بالرغم من قلة عدد جيشه — إذ كان قد ترك عدة فرق فى المدن التى احتلها فى طريقه — وصل أيوديس أمير اكوتيانا على رأس جيش كبير لإنقاذ المدينة من المسلمين ، فأصبحت نسبة جيش المسلمين لجيش العدو كنسبة الواحد إلى العشرة . ولما رأى القائد العربى أن جيشه أصبح بين نارين ، سار إليهم ببسالته المعهودة وكسر قواده أغماد سيوفهم إيذانا منهم بالهجوم عازمين على الانتصار أو الموت ، وهم فى ذلك أشبه بحرس نابليون الذين كانوا يؤثرون الموت فى ساحة الوغى على التسليم إلى الأعداء . وظل القتال سجالا بين الفريقين ردحا من الزمن حتى سقط السمح مثخنا بجراحه وقد أصابه سهم فى جبهته . وما أن رأى الجنود مصرع قائدهم حتى هلعت قلوبهم وخارت قواهم ، لولا أن استولى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى بحنكته على القيادة فى الحال ، واحتال فى سحب الجيش من بروفانس بمهارة وشجاعة أكسبتاه حتى إعجاب أعدائه . وقد وقعت تلك المعركة التى هلك فيها عدد كبير من قواد العرب المشهورين فى شهر إيار سنة ٧٢١ م بعد وفاة عمر بقليل .

الزحف على فرنسا

لم يستطع الأمويون أن يتحملوا صرامة حكم عمر ولا تناهيه فى الإنصاف وهالهم منه إعراضه عنهم وحرمانه إياهم مناصب الدولة ، وأحفظهم عزمه على تغيير وصية أخيه بولاية العهد ، فعقدوا النية على استخدام وسيلتهم المعهودة فى إزاحة مفخرة أسرتهم من سبيلهم ، ورشوا أحد الخدام ليدس له السم فى الطعام ، فكان

لهم ما أرادوا وقضى نحبه مسموماً فى دير سمعان على مقربة من حمص فى أواسط سنة ١٠١ هجرية .

استخلاف يزيد الثانى

صارت الخلافة إلى « يزيد الثانى بن عبد الملك » بمقتضى وصية « سليمان » أخيه ، وكان «يزيد» متزوجا ببنت أخى الحجاج ، ولهذا كان يتعصب للمضريين على الحميريين بعد أن كان عمر يحافظ على التوازن بين هاتين القبيلتين .

وفى زمن يزيد راحت مضر تسوم منافستها الاضطهاد ، الذى يعزى معظمه إلى السياسة الصارمة التى عامل بها يزيد بن المهلب أسرة الحجاج فى عهد سليمان بقصد محاسبتها على الأموال التى ظن أن الحجاج قد ابتزها من الناس . ولم ينج أحد من اضطهاده حتى ابنة أخى الحجاج زوج يزيد الذى أقسم بعد أن فشلت وساطته ليمزقن ابن المهلب متى أفضت إليـه الخلافة ، فتحداه ابن المهلب بقوله : « إنك إن فعلت قابلتك بمائة ألف مقاتل» . ولما علم ابن المهلب وهو فى سجنه بدنو أجل عمر بن عبد العزيز رشا الحارس وفر من السجن مخافة أن يفتك به سميّه الأموى ، وصار إلى العراق رافعاً علم الثورة حتى غشى البصرة حيث كان يعيش الإمام الحسن البصرى رئيس المدرسـة الفقهية ، الذى أهاب بمواطنيه ألا ينحازوا إلى أحد الطرفين ؛ ولـكن شجاعة ابن المهلب وأخيه وكرمهما — وهما خصلتان تؤثران على العقل العربى — أشعلتا أهل البصرة حماسـة فانحازوا إلى الأخوين ، وبذلك قويت شكيمتهما . ولـكن يزيد الأموى لم يلبث أن أرسل مسلمة بن عبد الملك ، وعباس بن الوليد ، فى جيش عظيم لقمع فتنة الثائرين .

التقى الجيشان فى ميدان « العقر »[1] على شاطئ الفرات الأيمن ، واقتتلا قتالاً شـديداً حتى دارت الدائرة على الثائرين . وقتل يزيد وأخوه حبيب وفرّ أصحابه الباقون إلى كرمان . ونشبت بينهم وبين جيوش الخليفة معركة أخرى

(١) هى عقر بابل قرب كربلاء من الـكوفة ، وقد وقعت الحادثة سـنة ١٠٢ هـ ، ويوجد عدة قرى بهذا الاسم فى العراق (معجم البلدان ج ٦ ص ١٩٤ — ١٩٥) . (المعرب)

أسفرت عن قتل بعضهم والتجاء البعض الآخر إلى خاقان الترك . وكانت لثورة يزيد بن المهلب التي كادت تقوض أركان الخلافة الأموية نتائج بعيدة الأثر برغم قمعها ؛ كما أن استئصال شأفة « أزد » اليمانية التي ينتسب إليها يزيد بن المهلب « في المعارك التي دارت رحاها في الكرمان والعراق » فت في ساعد الدولة العربية وألهب نار العصبية بين اليمانيين والحميريين في أسبانيا وأفريقيا والمشرق .

وفي تلك الأثناء انتصر أعداء المسلمين في كل مكان ، وأعان عجز الخلفاء وضعف بطانتهم واستعمال الحكام الجهلاء على نشوب الفتن الداخلية ؛ فمنيت الحملة العسكرية العربية في بلاد أذربيجان بهزيمة منكرة ، بعد أن اشتبكت في القتال مع الخزر والقفجاق سكان قوقاسية ؛ ونشبت الثورات فيما وراء النهر بسبب تعسف الولاة واستبدادهم ؛ كذلك لا نعلم عن أي نجاح أحرزته جيوش العرب في ذلك الحين ، سوى في آسيا الصغرى في المعارك التي نشبت بينها وبين الجيش البيزنطي .

أما في أفريقيا فقد حاول أحد عمال الحجاج السابقين أن يعامل أهلها — البربر — بالشدة معاملة الحجاج لأهل العراق فثاروا عليه ، واستفحل أمر الفتنة حتى استنفدت مصادر الإمبراطورية في عهد خلف يزيد . ولم يكن الحال في الأقطار الأخرى بأحسن منه في أسبانيا بعد أن ساد الأمن في ربوع البلاد في عهد عمر بن عبد العزيز ، وحفظ التوازن بين الحميريين والمضريين ، فلم يحدث في عهده ما يدعو إلى الشكوى . غير أن نار العصبية القبلية استعرت من جديد بعد وفاته فانغمرت المدن في منازعاتها وخصوماتها ، وراح العمال يفرضون الضرائب الباهظة التي كان أخو الحجاج قد فرضها في اليمن في عهد الوليد الأول وألغاها عمر الثاني . ويمكننا القول بأن هذا الإرهاق قد أدى إلى هجرة معظم السكان ، فألغيت القوانين العادلة التي سنها عمر ، وخرج الخوارج من مكامنهم يفتكون بالظلمة المستبدين بعد أن كانوا قد توقفوا ردحاً من الزمن عن أعمال

العنف والاغتيال . وفيما كانت الإمبراطورية تعصف بها ريح الاضطرابات من كل حدب وصوب ، وتقع فيها هذه الحادثات ، كان « يزيد » يتبادل الحب ويرتشف كؤوسه المترعة مع سلامة وحبابة جاريتيه الفتانتين[١] ربتى الحسن والبهاء ؛ ولكن المنية عاجلت حبابة ، فلم يلبث أن أرمضه الحزن وأضناه الأسى حتى لحق بها بعد قليل ؛ وعندئذ تنفس بنو أمية الصعداء . والحسنة الوحيدة التى يمكن أن تسجل ليزيد هى أنه أنقذ « فاطمة بنت الحسين » (شهيد كربلاء) من تعسف عامل على شاكلة الحجاج كان قد طلب أن يتزوجها ، ولما أبت النزول على طلبه هددها ، فكتبت إلى « يزيد » فعزله فى الحال وأنزل به أقصى أنواع العقاب .

الدعوة العباسية

وفى تلك الأثناء بدأت الدعوة العباسية تنتشر فى المشرق ، كما ظهر دعاتها لأول مرة فى خراسان على هيئة تجار أبرياء . ولما تناهى خبرهم إلى مسامع « سعيد »[٢] عامل بنى أمية سألهم عن صحة دعوتهم . فدافعوا عن أنفسهم دفاعاً بارعاً حتى أخلى سبيلهم . بيد أن الولاة الذين جاءوا بعده لم يكونوا بمثل بساطته وتساهله فلم يقتنعوا بأقوالهم وشرعوا يشددون عليهم النكير . ومما يلاحظ أن هؤلاء الدعاة مع ما كان ينتظرهم من قتل وتشريد — لو اكتشفت مؤامرتهم — راحوا يبثون الدعوة بنشاط منقطع النظير ؛ وبالرغم من جميع المحاولات التى اتخذها العمال فى إحباط مساعيهم وسحق حركتهم ، ظلت دعوتهم تنتشر فى الخفاء ، وشرع الناس يعتنقونها بحماس مفرط ، فلم تمض مدة وجيزة حتى امتلأت بلاد الفرس بالجمعيات السرية المتفانيــة فى تقويض دعائم الدولة الأموية ، وتضافرت عوامل شتى فى ذلك الحين على توسيع نطاق المؤامرة وإضرام نار الثورة التى اشتعلت فيما بعد كما تشتعل النار فى الهشيم ، واكتنفت البيت

(١) جاء فى كتاب الأغانى : « إنهما كانتا أديبتين ترويان الأشعار وتضربان على العود وكان الناس فى الحجاز تتناقل أبياتهما فى الأندية الخاصة والعامة . (المعرب)

(٢) لقب خزينة إذ أنه اعتاد ارتداء ملابس النساء الفارسيات .

الأموى بلهيبها المستعر حتى تقوضت دعائمه . ويلاحظ المؤرخون أنه ما كادت إصلاحات « عمر » وعدالتـه تمحو من أذهان الناس مظالم الحجاج وعسفه حتى أعتلى يزيد عرش الخلافة ، فأثارت أعمـاله الوحشية وتنكيله بأسرة سميّه الثائر « يزيد بن المهلب » كمين الأحقاد فى قلوب اليمانيين ، ولا ننسى أن ثمـة سبباً آخر أكثر شأناً وأعظم خطراً أعان على تمهيد السبيل للعباسيين ، وهو أن المسلمين كانوا يتوقون إلى أن يسترد آل البيت حقوقهم المسلوبة ، وهذه الرغبة الملحة أزكتها تصرفات « يزيد » وسوء حكمه ؛ كذلك كان الشعب فى هذه الفورة يتطلع متلهفاً إلى إشارة الأئمة القاضية بإعلان الثورة ، ولـكن يلوح أن هؤلاء العلماء الأتقياء كانوا قد نبذوا الحياة العملية جانباً ، وباعدوا بين أنفسهم وبين العالم الدنيوى . وفى خضم هـذا القلق المضنى الذى استحوذ على البلاد ظهر بنو العباس يروجون لقضيتهم ويبثون دعوتهم بين الناس .

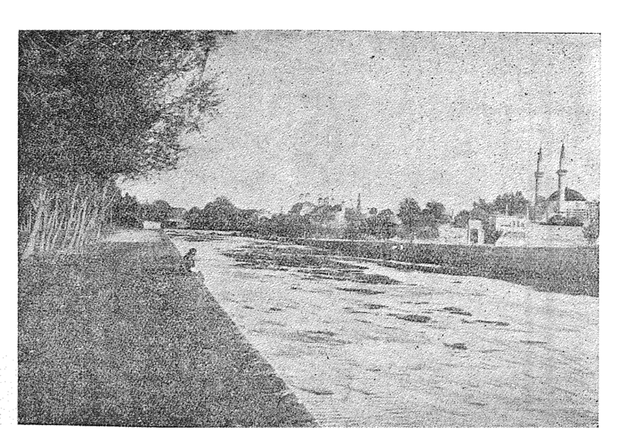
بنو العباس

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد توفى سـنة ٣٢ هـ ، وله أربعة بنين وهم : عبد الله ، والفضل ، وعبيد الله ، والقيسان . ويعرف عبـد الله فى التاريخ باسم « ابن العباس » ، ولد فى مكة سـنة ٦١٩ م أى قبل الهجرة بثلاث سنوات ، واشترك الأبناء الأربعة فى يوم الجمل وموقعة صفين . وكان ابن العباس فقيها عالمـا وجنديا شجاعا ، كما قاد بنفسه فرقة الفرسان فى الحروب تحت لواء على بن أبى طالب الذى أراد أن يكل إليه أمر التحكيم بدلا من أبى موسى الأشعرى حينما أجبرته جنوده المتمردة على قبول اقتراح « معاوية » .

وقد توفى ابن العباس فى الطائف سـنة ٧٦ هـ وعمره ٧٠ سنة ، فحذا ابنه سمىّ الخليفة العظيم حذو أبيه فى حبه وإخلاصه لأولاد « فاطمة الزهراء » . ولمـا توفى سنة ١١٧ هـ انتقلت زعامة الأسرة لابنه « محمد » ، وكان رجلا على جانب عظيم من الدهاء السياسى والنشاط وطموح النفس ، وهو أول من فـكر فى طلب البيعة لنفسه .

الدعوة لبنى العباس

أخذ محمد يبث فكرة جديدة كى يبرر بها دعوته للخلافة ، وهى أن زعامة الإسلام الروحية بعد مقتل الحسين فى كربلاء لم تنتقل إلى على بن الحسين (زين العابدين) ، إنما انتقلت إلى محمد بن الحنفية الذى أوصى إلى ابنه أبى هاشم ، وهذا أوصى بدوره إلى محمد بن على بن عبد الله ، فراجت هذه الإشاعة فى بعض البلاد ، كما طفق دعاة العباسيين يؤكدون للعامة أنهم إنما يبثون الدعوة لأحفاد الرسول ؛ وقد بلغ من ثقة متشيعى آل البيت بهؤلاء الدعاة أن شملوهم برعايتهم دون توخى موافقة أئمتهم ، وبذلك نال محمد بن على وأصحابه مؤازرة حزب قوى شديد الخطر ساعدهم على صبغ دعوتهم بالصبغة الشرعية التى كانوا فى أشد الحاجة إليها . ولما حضرته الوفاة سنة ١٢٥ ﻫ أوصى لأولاده إبراهيم ، وعبد الله أبى العباس (الملقب بالسفاح) ، وعبد الله بن جعفر (الملقب بالمنصور) ، بالتعاقب فقاموا بالدعوة بنفس الإخلاص والهمة والنشاط .



منظر دمشق من جهة النهر

الفصل الحادى عشر

الأمويون ١٠٥ — ١٢٥ هـ (٧٢٤ — ٧٤٤ م)

مبايعة هشام — حالة الإمبراطورية — أخلاق هشام — الشؤون فى الشرق — فى أرمينيا ، فى أفريقيا ، فتنة الخوارج والبربر ،موقعة الأشراف — حنظلة — هزيمة البربر — الأندلس — النزعات الداخلية — سرعة تبديل الحكام — تعيين عبد الرحمن الغافقى — غزو شمالى فرنسا — موقعة طوروس — مبالغة مؤرخى الرهبان — الغزو فى فرنسا — الاستيلاء على أفنون — انتصار عقبة — مقتله — المشاحنات والمنازعات — فشل العرب فى فرنسا — سقوط خالد القصرى ثورة زيد فى العراق — مقتله — الدعاية العباسية — ظهور أبى مسلم الخراسانى — وفاة هشام

وبموت يزيد الثانى أفضت الخلافة إلى أخيه هشام بعد أن فتت فى عضدها العصبية القبلية ، وعصفت بها ريح الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، فكانت قبائل التركمان والخزر الوحشية يشتد ساعدها فى الشمال ، بينما كان الخوارج المتحمسون تلتهب قلوبهم سخطاً وموجدة ، ودعاة الفكرة العباسية يكيدون للأمويين فى الخفاء . وهكذا تضافرت شتى العوامل على تقويض دعائم الدولة الأموية فى الشرق ، بينما هلكت زهرة شباب العرب فى الحروب الداخلية والفتن التى كان مبعثها سياسة الحسد والوشايات ؛ كما أدت الثقة العمياء التى وضعها هشام فى وزرائه وإسناد مناصب الدولة إلى العناصر المرزيلة الجشعة إلى الخراب والتشريد . ومع أننا نرى — هنا وهناك — بضعة رجال كان يتألق نجمهم كما يتألق بريق الكواكب فى حلك الليل البهيم ، لما عرفوا به من الإخلاص للواجب ، إلا أن طبقة الموظفين على الجملة كادت تقفر قلوبها من روح الوطنية وحماسة الإيمان بسبب النفعية والمطامع الشخصية ، وقصارى القول

كانت البلاد فى تلك الأزمة الطاحنة تحتاج إلى شخصية قوية تقبض على دفة الأمور بيد من حديد . غير أن « هشاماً » كانت تعوزه المزايا الضرورية لمعالجة تلك المشاكل التى منيت بها الإمبراطورية العربية ، إذ كان ولا ريب أفضل من سلفه ، كما أصبح جو البلاط فى عهده أنقى من ذى قبل حيث حل الوقار محل اللهو والمجون ، وأنقذت العاصمة من أولئك الطفيليين الذين يعيشون عالة على المجتمعات كما احترمت تقاليـد البلاد ، ولـكن الصرامة التى كانت من أبرز صفاته اتخذت مظهر الغلبة والكآبة ، كما استحال تقتيره إلى بخل ممقوت ، وانضافت إلى جميع هاته النواقص هنات أخلاقية ذات بال ، إذ كان الرجل متعصباً فى آرائه ، ضيق أفق التفكير ، متشككاً بطبيعته ، فلم يأتمن أحداً من أصحابه ، وراح يعتمد على الجواسيس والمؤامرات للتفرقة بين صفوف الشعب ، وأصبح للوشايات ضلع كبير فى حكمه على الرجال وأعمالهم . وهكذا ذهب حكام قديرون ضحيـة الريبة والظنون ، كما أدى استبدال العمال وطغيانهم إلى نتائج وخيمة العاقبة .

ومن بين العمال القلائل الذين حافظوا على مناصبهم فى عهده الطويل «خالد ابن عبدالله القصرى» عامله على العراق ، الذى ظل متربعاً فى منصبه منذ تولية هشام حتى سنة ١٢٠ هـ . وهو من أشراف اليمن البارزين ، وقد استطاع بحصافته ولباقته أن يحافظ على التوازن بين القبيلتين المتنافستين فلم يقع بينهما قط خلال حكمه أى تصادم يذكر ؛ كذلك عامل المسـيحيين واليهود بالعدل والإنصاف فرمم كنائسهم وفتح أمامهم أبواب الوظائف على مصراعيها ، غير أن تساهله وحنكته السياسية أثارتا عليه سخط المتعصبين ، وهى حالة لا يختص بها عصر دون عصر ولا بلد دون آخر . ومع أنه نال مؤازرة الخليفة وتمتع بحمايته ردحاً من الزمن ، إلا أن سقوطه برغم ذلك كان سريعاً كنجاحه الذى ظل يتألق بريقه طوال خمس عشرة سنة مما لم يسبق له مثيل قط .

الفتن فى

وما انقضت مدة وجيزة على مبايعة هشام حتى نشبت منازعات شديدة بين

المضريين والحميريين فى خراسان فلم يستطع قمعها بسهولة ، كما أعقبت تلك الحوادث فتنة أخرى قام بها أهل « الصغد » ، ويعزى سببها فى الواقع إلى جشع نائب أمير سمرقند الذى كان قد وعد بإعفاء من أسلم من الجزية ، ولكنه عاد وفرضها عليهم من جديد ، فثاروا لكرامتهم وعاونهم المستوطنون العرب برئاسة قائد عربى يسمى « الحارث » ، وكان يحقد على الوالى لنكثه العهد ، ومما يؤسف له أن أهل تلك البلاد استنجدوا بقبائل التركمان التى كانت وقتئذ تتجول فيما وراء النهر ، فآزروهم على حكامهم المسلمين .

أسعد القصرى والى خراسان

وهكذا نشب القتال بين الفريقين ، وظلت المعارك سجالا ردحاً من الزمن حتى اضطر « خالد » عامل العراق أن يعهد إلى أخيه أسعد مهمة إعادة الأمن ، وما هى إلا برهة حتى زحف الثوار على جيش المسلمين ، ودارت بين الفريقين معركة رائعة أسفرت عن هزيمة الثوار وطردهم من فرغانة ، وقد ظل أسعد يعمل السيف فى رقابهم حتى أجبرهم على الارتماء فى أحضان التركمان ، تلك القبائل الرحّل التى أصبحت فيما بعد مصدر رعب عظيم للسكان الآمنين . ولم يكد ينتهى عام ١١٩ هـ حتى اجتاح « أسعد » هضابهم الوعرة وغشى « خوتال » شرقى « فرغانة » . وفيما عدا مناوشات طفيفة فإنه لم يستطع التغلب على الثائرين فى موقعة حاسمة نظراً لقرب الموسم ، ولذلك عاد إلى « بلخ » لقضاء موسم الشتاء فيها ، كما سمح لجنوده بالعودة إلى بلادهم .

وقد رأى التركمان فى انسحاب جيوش المسلمين فرصة سانحة لاستئناف أعمال الهدم والتخريب ، فاجتاحوا ثانية ما وراء النهر وأطلقوا أيديهم سلباً ونهباً ، فسارع « أسعد » إلى جمع رجاله بإضاءة المشاعل على رؤوس التلال والهضاب ؛ وما أن التأم جمعهم حتى انقض بهم على الثائرين انقضاض الصواعق وأثخن فيهم القتل حتى أفناهم عن آخرهم ما عدا الخاقان[1] الذى لاذ بالفرار

(١) هو لقب رئيس قبائل التركمان ، وقد أطلق العرب هذا الأسم على جنكيز وخلفائه من بعده .

ولـكنه مع ذلك لم يلبث أن فتك به أحد أصحابه . وعنـد ما انتهى خبر هذا النصر إلى مسامع « هشام » لم يصدقه فى بادئ الأمر ، إلى أن جاءته الرسل تؤكد له صحة الخبر ، فاستبشر خيراً وحمد الله على خلاص المسلمين من الخاقان ومن جيشه ، وألبست « دمشق » حلل الفرح والنصر . غير أن « أسعد » لم يتمتع طويلا بثمرة هذا الفوز ، إذ توفى سنة ١٢٠ عقب عزل أخيه عن إمارة العراق . فولى بعده « نصر بن سيار » واستطاع بالرغم من المؤامرات التى حيكت حوله أن يحافظ على منصبه حتى وافته منيته عام ١٣٠ هـ . وكان معتدل الآراء ميالا إلى ترقية شـعبه ، كذلك لم تكن إدارته قبيل الفتنة التى نشبت بين المضريين والحيريين صارمة قط ، بل كانت موسومة بسمة العدل والإنصاف . ومما يؤثر عنه أنه كان قد عرض على أهل « الصغد » الثائرين الذين اعتصموا بمناطق التركمان أن يعودوا إلى ولائهم للخليفة ، فاشترطوا لذلك ألا يضطهد أحداً منهم لعقيدته الدينية ، وألا يعاقبه من غير محاكمة ؛ وألا يعتبر الارتداد عن الإسلام جريمة يعاقب عليها ؛ فقبل « نصر » هذين الشرطين ؛ وعندئذ عادوا إلى بلادهم وتمتعوا فيها بنعمة الحرية والعدل .

تولية نصر بن سيار على خراسان

شمالى إيران وأرمينيا

وفيما كانت كل هذه الحوادث تجرى فى آسيا الصغرى ، اجتاحت عشائر القوقاس شمالى فارس وأرمينيا ؛ وفى عام ١٠٨ هـ غزت قوة أخرى من التركمان بلاد فارس وأزربيجان ، فسير عليهم الخليفة جيشا هزمهم شر هزيمة وأجلاهم عن البلاد ، بيد أن سهولة دخول المغيرين إلى فارس أغرى القبائل التركمانية الأخرى بغزو الأراضى الإسلامية ، فلم تـكد تمضى أربع سنوات حتى زحفت قوة كبيرة من الخزر على أرمينيا ، ودارت بينها و بين المسلمين عدة معارك رائعة منى فيها المسلمون بعدة هزائم كان آخرها موقعة أربيل[1] حيث قتل « الجراح » ، ومن

(١) مدينة كردية من مدن العراق على مقربة من نهر الفرات ، فيها ولد قاضى القضاة شمس الدين بن خلـكان سنة ٦٠٨ هـ ، وبقربها انتصر الإسكندر الأكبر على دارا الثالث سنة ٣٣١ ق . م . (المعرب)

ثم أخذت هاته القبائل تتقدم بسرعة مدهشة دون مقاومة ، حتى غشيت حدود الموصل ، وهنالك صمد لهم « سعيد الحرشى » فى قوة كبيرة من بعض المتطوعين الذين كان هشام قد أنفذهم من دمشق ، فدارت بين الفريقين معركة رائعة انهزم على أثرها المغيرون شر هزيمة ، وفروا إلى جبال آراس تاركين وراءهم الأسرى وجميع الغنائم التى كانوا قد استولوا عليها فى أثناء توغلهم فى تلك البلاد .

إعادة تولية مسلمة

وقد كان هشام متقلبا لا يستقر على حال ، وبتلك العقلية المتقلبة عزل « سعيدا » من الحكم وعين « مسلمة » مكانه ، غير أنه لم يلبث طويلا أن عزله بعد سنة ، وعين فى محله « مروان » الذى أفضت إليه الخلافة فيما بعد . وقد استفتح « مروان » حكمه باحتلال بلاد الخزر وكورجيا واللسغ والأمصار الجبلية الأخرى ، بيد أن الحروب المتواصلة التى اشتبك فيها مع القبائل الشمالية استنفدت جميع أموال الخزينة . كذلك عصفت فى تلك الأثناء ريح الفتن بجنوبى بلاد العرب ، كما ثار الخوارج فى العراق فى عدة فرص اضطر فيها الحكام إلى استخدام قوات كبيرة لقمع حركتهم . أما أفريقيا والأندلس فقد سارت الأمور فيها سيراً هادئا مدى حين ، وألحقت بعض الولايات بالإمبراطورية العربية . كما أسلمت بلاد السود فى سنة ١١٥ هـ ، وتم إخضاع سردينيا وصقلية عام ١٢٢ هـ . أما سراكوسيا فقد خضعت نهائيا عقب معركة رائعة بين أهلها وبين العرب الذين كانوا فى ذلك الحين قد استولوا على بعض المواقع المنيعة فى فرنسا . ويمكن القول بأن الحظ كان وقتئذ قد بدأ يبتسم لهشام فى الغرب ، ولكن لم تكد تنقضى سنة واحدة حتى عصفت بأفريقيا الشمالية ريح فتنة هائلة قام بها البربر والخوارج معا ، كما ظهرت فى ذلك الحين فرقة جديدة من المتحمسين فى (القيروان) وأطلقوا على أنفسهم اسم « الصفرية » وأصبح لا يدانيهم فى قسوتهم وتعصبهم غير « الأزارقة » فى المشرق ، وراحوا يصبون جام سخطهم على مضطهديهم وينكلون بهم كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا ؛ كما اعتبروا الذين يقولون بخلافة

جنوبى بلاد العرب

أفريقيا والأندلس

بنى أمية كفرة مارقين . كذلك روعتهم اضطهادات ابن الحاكم الذى ناب عن أبيه فى « تنغيرة » ومحاولته فرض الجزية على المسلمين ، فتضافرت تلك الفئة مع البربر وألفوا كتلة واحدة ثم اشتبكوا مع جيش الخليفة فى معركة رائعة قتل فيها الحاكم نفسه ، واستولى الثوار على المدينة ، وما هى إلا برهة حتى زحفوا من تنغيرة إلى القيروان ، فأوقف الخليفة فى الحال الجيش العربى فى صقلية وأمره بالعودة إلى أفريقيا لقمع تلك الحركة الخطيرة .

وفيما كان الثوار يزحفون على العاصمة فاجأهم ابن والى صقلية المدعو « ابن حبيب » فى قوة صغيرة لا تكاد تصلح لمنازلتهم . ولكنه مع ذلك هجم عليهم بجيشه الصغير وعدته الوحيدة الشجاعة والاستبسال ، وهما أبرز ما يمتاز به العربى غير أن البطولة والشجاعة لا يجديان فتيلا فى مثل تلك المواقف الحرجة ، فكسر القواد أغماد سيوفهم وتقدموا صفوف الجيش ودارت بين الفريقين معركة دامية ، ولكن البربر أحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم وكادوا يفنونهم عن آخرهم . وتعرف هذه المعركة المشؤومة فى التاريخ الإسلامى « بغزوة الأشراف » نظراً لكثرة من قتل فيها من سادات العرب وأشرافهم . وقد أدى هلاك جيش « ابن حبيب » إلى تمرد القبائل فى سائر أنحاء أفريقيا الشمالية مما أثر تأثيراً سيئا حتى على الأندلس نفسها ، فثار أهلها على عاملهم وانتخبوا مكانه قائداً كان الخليفة قد عزله من قبل . ولما علم هشام بانتصار البربر وفتكهم بالمسلمين اشتد سخطه وأقسم لينكلن بالثوار شر تنكيل ، فعزل فى الحال العامل الذى كان ابنه أصل هذا البلاء لسوء إدارته ، وعين بدلا منه قائداً حازما اسمه « كلثوم » ليثأر للهزيمة التى لحقت بالمسلمين ، ولكن حدث فى تلك الليلة المشؤومة أن تنازع قائدان عربيان نزاعا مؤلما أدى إلى تفرقة كلمتهم ففتك البربر بهم وأعملوا السيف فى رقاب جنودهم ، غير أن الخليفة بالرغم من هذا الفشل المريع أرسل للمرة الثانية جيشا جديدا إلى القيروان التى كان يحاصرها وقتئذ البربر والخوارج

بقيادة زعيمها « عكاشة » . وتقول لنا الرواية العربية : إن هؤلاء البربر كانوا يهجمون على المسلمين المرة تلو الأخرى باستبسال منقطع النظير ، ولكنهم كانوا فى كل مرة يبوءون بالفشل ، وكاد يفلح « كلثوم » فى طردهم إلى الصحراء . بيد أن قائداً آخر اسمه « حنظلة بن صفوان » من قبيلة كلب كان قد وصل فى تلك الأثناء على رأس الجيش الجديد ، وكان أول ما اعتنى به هو تقوية الحصون وبث روح الشجاعة فى أفراد الجيش ، ولكن ما هى إلا برهة حتى وضعت مقدرته العسكرية هو ورجاله على المحك إذ داهمهم ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل من البربر وأحاطوهم من كل الجهات ، ففزع المسلمون وارتاعوا لهول المحنة ، غير أن « حنظلة » كان من نوع أبطال العهد القديم الذين يجمعون إلى حماس الإيمان — المعروف عن عصر عمر بن الخطاب — رقة القلب النادرة المثال فى زمن اشتهر بالقسوة والاستبداد ، فوقف ذلك القائد الباسل فى وسط الساحة أمام المسجد الجامع وخطب فى الجيش وأهل المدينة خطبة حماسية قال فيها :

« إن المعركة التى ستدور رحاها بين المسلمين المحصورين وبين الثوار المحاصرين إنما هى نضال بين الموت والحياة ، وإن انتصار البربر معناه الفتك بجميع أهل المدينة من غير استثناء » .

وفيما كانت جيوش البربر تصيح وتزمجر خارج المدينة ، كان العرب يترقبون نشوب المعركة بقلوب والهة . ومما هو جدير بالذكر أن الذكور الذين يستطيعون حمل السلاح كانوا قد لبوا نداء قائدهم العظيم ، كما برهنت النساء العربيات أنهن لا زلن عنصراً نافعا لأزواجهن وآبائهن فى ميدان القتال ، ولا سيما أنهن اعتدن حمل السلاح واستعماله فى وقت الخطر ، فألف « حنظلة » منهن قوة احتياطية تدافع عن المدينة وقت وقوع المعركة الفاصلة مع الأعداء . ومما يذكر بهذا الصدد أنه أخذ طيلة الليل يوزع الأسلحة على الجنود ويرشدهم إلى خطة القتال ، وما أن انبلج الصبح وانتهت الصلاة حتى أعدوا عدتهم وانقضوا على أعدائهم

انقضاض الصواعق ؛ وظلت المعركة تدور رحاها حتى أذنت الشمس بالمغيب فانهزم البربر شر هزيمة ، وظل الجيش العربى يعمل السيف فى رقابهم حتى فقد الثوار كل أمل فى تجمع صفوفهم أو استعادة قوتهم . وقيل إن عدد من قتل فى تلك المعركة الرائعة من البربر وزعمائهم حوالى ١٨٠,٠٠٠ ، وليس أدل على هول الموقف ومبلغ الفوز الذى أحرزه « حنظلة » من قيام المسلمين بصلاة الشكر فى جوامع « القيروان » . وهكذا استطاع القائد العظيم أن ينشر السلم والطمأنينة فى البلاد ويجعل أفريقيا تزدهر وتتمتع فى ظله بنعمة الطمأنينة والعدل .

الأندلس

كانت بلاد أندلوسيا التى تشتمل على شبه جزيرة أيبريان — ما عدا كسكونيا — ولانكيدوك وقسم من سافوى تؤلف جزءاً لا يتجزأ من الدولة الأموية . وكانت أغلبية أهل تلك البلاد تقلد المحتلين فى أخلاقهم وعاداتهم شأنهم فى ذلك شأن أهالى المستعمرات دائما مع أسيادهم المستعمرين ، وبخاصة فى عهد الدولة العربية ؛ غير أن بعد الأندلس عن قلب الإمبراطورية أضعف من نفوذ السلطة المركزية ، كذلك كان النظام الذى تأسست حكومة تلك البلاد على دعائمه مصدراً لكثير من المتاعب ، إذ لم تكن اسبانيا تعتبر غير ولاية ثانوية تابعة لأمير أفريقيا ، وكان والى القيروان هو الذى يولى عمال الأندلس دون موافقة الخليفة على هذا التعيين . ولهذا كانت تذهب المصالح العامة بطبيعة الحال ضحية على مذبح العصبية القبلية والمنافع الشخصية ، فضلا عن أن سرعة عزل الحكام وتبديلهم كانا من أسباب نشوب الفتن والاضطرابات .

ولما قتل السمح عند أسوار تولوز اختار الجيش لقيادته عبد الرحمن الغافقى الذى لم يكد يتقلد هذا المنصب بضعة أشهر ، حتى غشى البلاد عامل جديد اسمه « عنبسة »[1] كان قد عينه أمير أفريقيا والياً على الأندلس .

عنبسة حاكم الأندلس

وقد كان عبد الرحمن على جانب عظيم من الشجاعة الحربية والكفاءة

---

(١) عنبسه بن سحيم الكلبي . (المعرب)

الإدارية ، أميناً عادلا نزيها فى رأيه ، فاستطاع أن يسيطر بلباقته على العناصر المتنازعة داخل البلاد ، حتى وصل خلفه الذى تقلد منصب الحكم فى صفر سنة ١٠٣ هجرية . وبعد مبايعة هشام بقليل زحف « عنبسة » على فرنسا فاستولى على كركسون ونيم ، وعدة مدن أخرى ذات أهمية ، كما عقد محالفة دفاعية هجومية مع الدويلات القوطية المجاورة . ويقول المسيو رينو : « إن معظم انتصارات عنبسه ، راجعة إلى المهارة وحسن الإدارة أكثر منها إلى القوة والكثرة . وقد أسفر نجاحه فى اكتساب ثقة الأهلين ونيل رضاهم عن تقوية شوكة العرب فى جنوبى فرنسا » ، كما أنه أرسل الأسرى الذين قبض عليهم الجيش العربى فى المدن الفرنسية إلى برشلونه ، حيث عوملوا بالرحمة والعطف . وقد ساعد هؤلاء على توثيق عرى الألفة بين أهالى الأندلس وبين العرب المحتلين ؛ والنكد الطالع قتل « العنبسة » فى الفتنة التى أثارها الغسقونيون فى إحدى شعاب جبل البرنيه ، فأدى موته إلى نشوب القلاقل ثانية فى الجزيرة وإلى توقيف التوغل فى فرنسا ، فأسرع نائبه المدعو « بالأذرح » إلى الأندلس على رأس جيشه . وفى غضون الخمس سنوات التى أعقبت موت « العنبسة » حتى إعادة تولية عبد الرحمن الغافقى فى سنة ١١٣ هـ ولى خمسة حكام[1] على تلك البلاد ، لم يمكث بعضهم فى دست الحكم سوى أشهر قلائل ، فتعطلت الحركة الإدارية من جراء هذه التغييرات السريعة . كما أن الثائرين وعلى رأسهم « بيلايو » استعادوا نشاطهم وقوتهم ، ولما ولى « الهيثم » على الأندلس فى سنة ١١١ هـ سعى فى تدمير حصونهم واستأنف الفتح فيما وراء البرنيه ، فسار بجيشه حتى استولى على ليون ، وماسون ، وشالون ، واستولى كذلك على مدينتى وبون ، وأوتون ، وصالحته مدن أخرى على دفع الجزية . ولكن هذه الفتوحات

(١) هم على التوالى : « عذرة بن عبد الله الفهرى ، ويحيى بن مسلمة الكلبى ، وعثمان ابن أبى نسعة الخثعمى ، وحذيفة بن الأحوص القيسى ، والهيثم بن عبيد الكلابى » . (المعرب)

لم تثمر ثمرتهـا المرجوة . إذ لم يستطع العرب الاحتفاظ بهذه المدن بسبب خصوماتهم القبلية ؛ كما أدت وحشية البربر الذين كانوا يؤلفون القسم الأعظم من الجيش العربى إلى سخط أهل سبتمانية ونفورهم من المحتلين ، فانقلبوا أعداء ألداء بعد أن كانوا من أصدق المخلصين .

تولية عبدالرحمن الغافقى على الأندلس

استدعى هشام عبد الرحمن الغافقى على أثر وفاة « الهيثم » وولاه على الأندلس فقابل الأسبانيون خبر توليته بفرح عظيم واعتبروا ذلك فاتحة عهد سعيد لخير البلاد . وكان عبد الرحمن — دون منازع — أقدر الرجال الذين تولوا الحكم على أسبانيا وأشدهم وطنية ، فكان يجمع إلى الكفاية الممتازة فى الإدارة نبوغاً عظيما فى الأمور العسكرية ، أما جنوده فكانوا معجبين به إلى حد العبادة ، كما أن رقة قلبه وكرمه وعدالته أكسبته محبة الشعب . ومن المأثور عنه أنه زار فى أوائل حكمه المدن والدساكر ليحل بنفسه الخلافات والمنازعات ، وينظر فى الشكايات التى تدفقت عليه من كل حدب وصوب ، فعزل القضاة الذين ثبت لديه خيانتهم أو الإخلال بوظائفهم ، وعين فى مكانهم قضاة مشهورين بحسن السمعة وطيب الأحدوثة ؛ وفى حكمه كذلك عوملت مختلف الطوائف والملل معاملة واحدة دون تمييز بين الجنس والعقيدة ، كما أعيدت الكنائس إلى أصحابها التى اغتصبت منهم ، ونظمت الإدارة وشؤون المال ، وعوقب من يخل بالأمن بأشد أنواع العقاب ، ولكن كل هذه الأعباء لم تصرفه عن صيانة الحدود الشمالية ، إذ كانت تعتلج فى صدره أمنية ملكت عليه لبه وهى الأخذ بالثأر للهزيمة التى منى بها العرب على مقربة من تولوز ، كما أنه كان يتوق إلى إحراز انتصارات لا تقل أهمية عن انتصارات طارق بن « زياد » « وموسى بن نصير » فجعلته هذه الرغبات الحادة والآمال البراقة يبذل جهداً متواصلا لجمع جيش كثيف يسير به إلى الشمال ، وقد كان الحماس الدينى لا يزال وقتئذ يعمر قلوب المسلمين ، كما كان الشوق إلى خدمة قائد شجاع مثله يدفع بالألوف المؤلفة من المتطوعين إلى الانتظام فى سلك الجيش .

ثورة مانوزه

كان يحكم قردجان التى تقع فى الجانب الآخر من جبال البرنيس حاكم مسلم اسمه « عثمان بن أبى نسعة » أو كما يسميه الكتاب المسيحيون (مونوزه) وكان قد تزوج من لامبيكى الجميلة ابنة « أودى » ديوك « أوف اكويتين » وتحالف مع أبيها ، و بإيعاز من حميه شق عصا الطاعة على عامل الأندلس . غير أن عبد الرحمن لم يكن ممن تلين لهم قناة إزاء التمرد والعصيان ، فبعث فى الحال جيشاً إلى « الباب » ، حيث كان « مانوزه » يقيم مع زوجه الجميلة ؛ و بعد نشوب معركة بين الفريقين دارت فيها الدائرة على رجال الزعيم الثائر ، فمزقوهم شر ممزق . وفر مانوزه إلى الجبال ، فلحقت به قوة من الجيش العربى وحزت رأسه وحملت زوجه الجميلة إلى عبد الرحمن الذى أرسلها إلى دمشق ، حيث تزوجت من أحد أولاد « هشام » . ونجم عن انهزام « مانوزه » وقتله سخط الدويلات المسيحية ، التى كانت قد عقدت معه محالفات دفاعية ، فوجد عبد الرحمن نفسه مضطراً إلى محاربتهم قبل أن يتم استعداده لغزو الشمال .

غزو شمالى فرنسا

سار « عبد الرحمن » إلى الشمال مخترقاً أراغون ، ونافارا ، حتى عبر الحدود الفرنسية فى ربيع سنة ٧٣٢ م فاجتاز وادى بيكورال و برن . و يصف الكتاب العرب مدينة « ارنس » بأنها واقعة فى سهل موحش على نهر يبعد ثلاثة فراسخ من البحر ، وكان القائد العربى قد صالح سكانها على دفع الجزية ، ولكنهم لما سمعوا بقتل « مانوزه » رفضوا تنفيذ ما تعهدوا به ، فسار إليهم عبد الرحمن على رأس جيش كبير ، ودارت بين الفريقين معركة شديدة على شواطئ الرون انتهت بسقوط المدينة فى أيدى العرب ، ثم واصل عبد الرحمن زحفه حتى غشى « بوردو » فاستولى عليها بعد مناوشات طفيفة ، وسارع إلى مقابلة « الدوك أوف اكواتين » الذى حاول عرقلة زحفه على « دوردون » فوقعت بين الطرفين معركة هائلة ، دارت فيها الدائرة على الدوق وهزم شر هزيمة . و يقول إيزودور من أهالى بيجا : « لا يعلم إلا الله وحده عدد من قتل من المسيحيين فى تلك

المعركة » . و بهذا النصر قضى عبد الرحمن على كل مقاومة فى ولاية اكواتين وسحق بورغاندى ، وأخذت راية الإسلام تخفق على أسوار ليون ، و بيزانصون وصانص ، ثم أقيمت حاميات قوية فى المدن التى احتلها القائد العربى مما أدى بطبيعة الحال إلى إنقاص عدد جيشه ، ومن هناك سار نحو عاصمة بلاد الفرنجة واشتبك على شواطئ دوردون مع جيش أودوس فى معركة شديدة دارت فيها الدائرة على الأعداء الذين استنجدوا « بشارلس أوكالدوس » الابن الطبيعى « لبيان هارستال » وكان هذا بحكم منصبه (أمين بلاط مورفيكان) يتمتع بنفوذ واسع على الفرنجة ، وفى الحال رأى فى طلب أو يوديس وسيلة من وسائل التوسع فاستجاب لطلبه بنشاط وفرح شديدين ، وحشد قوة كبيرة من متوحشى قبائل حدود الدانوب ، والألب ، وقفار المانيا ، وسار على رأسهم نحو الجنوب . وفى تلك الأثناء كان العرب قد غشوا مدينة طوروس ، و بعد معركة شديدة بينهم و بين أهلها استولوا عليها وأعملوا فيها النهب والسلب . و يعزو أحد كتاب العرب المصائب التى حاقت بالجيش العربى إلى غضب الإله من أعمال العنف والقسوة التى ارتكبها البربر فى طوروس برغم أوامر ضباطهم .

وفيما كان القائد العربى يحاول عبور نهر اللوار اعتماداً على الأخبار الخاطئة التى أتت بها الجواسيس عن قوة الأعداء واستحكاماتهم فاجأه « شارلس » بجموعه الجرارة ، فأسقط فى يده حينما رأى أن جيوش العدو تفوقه عدداً ، وفى الحال أمر بسحب نقاطه الأمامية ، وارتد من شواطئ النهر إلى النقطة الواقعة بين تور و بواتييه . و يمكن أن يقال إن حال جيشه كانت تدعو إلى القلق وعدم الاطمئنان ، إذ كانت الفرق المؤلفة من القبائل مثقلة بالأسلاب والغنائم ، ولما كانت قلوبهم تجيش بالحسد والبغضاء فقد رفضوا أوامره وأبوا القيام بأى عمل يستدعى اتحادهم حيناً من الزمن ، كما أخذوا يلحون بالانسحاب متمسكين بالأسلاب التى جمعوها فى سيرهم نحو الشمال تمسك الغريق بوسائل النجاة ، مما

أدى إلى انحلال صفوفهم و إضعاف روح النظام فيهم . فخشى عبد الرحمن بطبيعة الحال — كما تكهن « شارلس » — أنهم فى وقت المعركة لن ينزلوا عن أسلابهم بالرغم من أنها تشل حركتهم ، ولهذا فكر فى إقناعهم بالحسنى أن يتخلوا عن جزء منها ، ولكنه مع ذلك لم يصر على مطالبتهم بتنفيذ أوامره حرفياً خشية أن تسرى فيهم روح التمرد والعصيان . وقد نجم عن ضعفه (إذا صح أن يسمى هذا ضعفاً) أخطر النتائج . أما جيش « شارلس » فكان مؤلفاً من الفرسان والرجالة ، وكانوا جميعاً يلبسون جلود الذئاب ، وقد أرسلوا شعورهم المتجعدة على أكتافهم ، فعبر بهم نهر « اللوار » على قيد بضعة أميال من معسكر العرب . واشتبك الفريقان(١) فى مناوشات طفيفة مدى ثمانية أيام رجحت فيها كفة العرب ، وفى اليوم التاسع دارت معركة شديدة طوال النهار حتى حال المساء بين الفريقين ، ولكنهما اشتبكا فى صباح اليوم التالى فى معركة أشد هولا من ذى قبل ، فضاعف المسلمون الكفاح وكادوا يفوزون بالنصر الحاسم ، لولا أن دوت عندئذ صرخة فى صفوفهم تؤذن بإحداق العدو بمعسكر المسلمين وسلب الغنائم ، فهلعت قلوبهم وأسرعوا فى الحال إلى الخيام يذودون عن الأسلاب والغنائم بالمهج والسواعد ، وعبثاً حاول عبد الرحمن أن يهدئ خواطرهم و يعيد النظام إلى صفوفهم . و بينما كان يحضهم على الثبات أصابه سهم طائش فى صدره خر على أثره صريعاً ، فأثر مقتله أسوأ تأثير على جميع الصفوف ، فاختل نظامهم ، واختلط الحابل بالنابل ، وانتهز العدو تلك السانحة وحمل عليهم حملة منكرة ، غير أن المسلمين سرعان ما لموا شعثهم وانقضوا ثانية على العدو يوقعون به شر إيقاع ، حتى نشر الليل أجنحته فعاد كل فريق إلى موقعه .

---

(١) من الصعب تحديد الموقع الحقيقى الذى وقع فيه القتال ولكن ليس ثمة شك فى أن ميدان تلك المعركة يقع فى الأرض الواقعة بين البوكتيارس وطوروس ويرويها عدة نهيرات تنبع من نهر اللوار .

الخصام بين القواد المسلمين

ولم يكد جنود المسلمين يعودون إلى مخيمهم حتى دب نزاع هائل بين قادة عبد الرحمن ، وشهر كل منهم سلاحه فى وجه الآخر ، وعندئذ بدا فوز المسلمين بعيد المنال ، ولم يعد ثمة سبيل أمامهم إلا التقهقر ، وتحت جنح الليل البهيم سحب القواد جنودهم بهدوء ميممين شطر « سبتمانية » . وفى الغداة أحس الأعداء هدوءا مخيما على معسكر المسلمين ، فظنوا أن فى الأمر خدعة وراحوا يتقدمون بتهيب وحذر عظيمين . ولشد مادهشوا عند ما رأوا أن معسكر العرب قد هجره أصحابه ولم يبق فيه إلا بعض الجرحى الذين قعد بهم الحظ العاثر عن اصطحاب القوة المتقهقرة ، وفى الحال انقضوا على هؤلاء المساكين وذبحوهم ذبح الأنعام . بيدأن شارلس مع ذلك لم يجرؤ على اللحاق بالمسلمين ، فعاد أدراجه إلى الشمال[1] . ويمكن القول بأن العرب فى سهول تور و بواتييه ، فقدوا سيادة العالم بعد أن كانت فى متناول أيديهم ، وهكذا أدى عدم الطاعة والعصبية القبلية ، اللتان تعتبران نقمة على الجماعات الإسلامية ، إلى تلك النتيجة المحزنة . وقد أطلق على ميدان تلك المعركة الرائعة فى التاريخ العربى « بلاط الشهداء » لكثرة من قتل فيها من مشاهير المسلمين مع قائدهم عبد الرحمن . ولا يزال الأتقياء يعتقدون أن ملائكة السماء فى ذلك المكان تدعو المؤمنين كل غروب إلى الصلاة . ويدعى المؤرخون الرهبان أن العرب خسروا فى تلك المعركة نحواً من ٣٦٠ ألف مقاتل ، أى ما يزيد عن أربعة أضعاف عدد الجنود الذين زحف على رأسهم عبد الرحمن إلى فرنسا ! وهذه المبالغة تكشف عن ذاتها إذا ما علمنا أنه لم تكد تمضى بضعة أشهر حتى جمع قائد الأندلس — برغم الفتن والاضطرابات — جيشاً لجباً ؛ و إن كان دون جيش عبد الرحمن فى الأجهزة والنظام . وقيل إنه

(١) لا شك أن تلك الموقعة كانت حاسمة من وجهة واحدة ، وهى أن عبد الرحمن كان الرجل الوحيد الذى يستطيع توحيد مضر وحمير ، ولهذا يعد موته خسارة لا تعوض إذ لم يستطع أحد بعده أن يؤثر فيهم ذات التأثير أو يتمتع بنفس النفوذ الذى كان يتمتع به على العرب .

بلغ من شدة سخط العرب لموت قائدهم العظيم أن أحرقوا دير « سوالينان » فى « ليوموزين » أثناء انسحابهم إلى الجنوب .

تولية عبد الملك على الأندلس

وفى الحال أرسل نائب « عبد الرحمن » أخبار تلك الكارثة إلى أمير أفريقيا وإلى الخليفة « هشام » فى دمشق ؛ فبعث الخليفة على جناح السرعة عاملاً جديداً اسمه « عبد الملك بن قطن الفهرى » وأوصاه بأن يوجه نشاطه إلى استعادة هيبة المسلمين فى تلك البلاد . وكان أهل المناطق الجبلية فى شمال شبه الجزيرة قد انتهزوا فرصة مقتل عبد الرحمن وشقوا عصا الطاعة ، فزحف عليهم « عبد الملك » حتى وصل إلى « أراغون » و « نافاره » واشتبك معهم فى عدة معارك هزمهم فيها وأجبرهم على التسليم ، كما استولى بعد ذلك على « لانكيدوك » وعزز الحاميات العربية فى تلك المنطقة .

وفى عام ٧٣٤ م عقد « يوسف » نائب مقاطعة أربونة الخناصر مع « مورنتيوس » أمير مرسيليا ، الذى كان محالفاً للمسلمين ، وزحف الجيشان على الرون وأوقعا بجيش الإفرنج شر إيقاع ، فسلمت سان ريمى (التى كانت تسمى عندئذ فريتا) ، ثم زحفا على أفنون واستوليا عليها بعد حصار لم يستغرق إلا مدة قصيرة ، ومن هناك عاد عبد الملك إلى الجنوب . ولكن الخليفة لم يلبث أن عزله فى رمضان سنة ١١٦ هـ ، بسبب الهزيمة التى منى بها جيشه فى شعب جبال البرنيه ؛ وإن كان المؤرخون العرب ينسبون عزله إلى قسوته وصرامته فى تنفيذ الأحكام . وولى بعده « عقبة بن الحجاج السلولى » وكان رجلا عادلا فاضلا محبوباً من جميع المسلمين ؛ وفى خلال الخمس سنوات التى تولى فيها الحكم غزا فرنسا عدة مرات ، وسار بجيشه إلى مواقع أبعد مما وصل إليها المسلمون من قبل . وتمكن العرب فى عهده من إقامة الحاميات فى المحلات المكشوفة ، وغشوا كذلك حدود نهر الرون وسميت تلك المواقع « بالرباط » التى كان الغرض من تأسيسها إقامة نقاط دفاعية استكشافية ؛ كما أنهم شيدوا فى أربونة قلعة هائلة

اختزنوا فيها الأسلحة والعتاد . وفى سنة ١١٨ هـ (٧٣٦ ميلادية) وصلوا إلى دوفييه ، واستولوا بالتتابع على سان بول ، وترواشاتو ، ودونزير وفالانس ، ونيوليونز ، ثم ساروا إلى بورغاندى حتى أصبحوا على قاب قوسين أو أدنى من عاصمة فرنسا . كذلك كانوا قد استولوا قبل سنة على مدينة بيدومون ، ثم راحوا يؤسسون المعاقل العسكرية فى النقاط المهمة . ولما تأكد « شارلس مارتيل » فى موقعة تور أنه لا يقوى على مقاومة المسلمين وحيداً ، استنجد بملك اللومباردين المسمى « بليوتبيراند » ، وفى تلك الأثناء كان « تشير بيراند » أخو « شارلس » قد زحف بجنوده البرابرة من الجهة الشرقية على المستعمرات العربية ؛ بينما أخذ شارلس يحرض البشكنس والغسقونيين على غلق ممرات البيرانس ومناوشة العرب الذين أصبحوا محاطين بالأعداء من كل جانب . فاستولى الفرنج على مدينة إيفينون بعد حصار طويل ووثبوا بالمسلمين القاطنين فيها ومزقوهم شر ممزق ثم زحفوا على ناربون وحاصروها . وهكذا تحرج موقف العرب وأخذوا يطالبون الأمداد من البحر ، ولكن الحلفاء وقفوا لهم بالمرصاد وحالوا دون أية مساعدة تأتيهم من الخارج ، بيد أن العرب المحصورين بالرغم من كل هذه الكوارث دافعوا دفاعاً مجيداً عن المدينة . ولما يئس شارلس من سقوطها رفع عنها الحصار ووجه اهتمامه إلى عرقلة سير النجدات التى أرسلت لمساعدة سكان المدينة المحصورين ، وحول فى سبيل هذه الغاية بقعة كبيرة من الأرض العامرة فى جنوبى اللوار إلى بلقع قفر ، وهدم مدينتى « بيزيه » و « ادج » وعدة مدن أخرى هامة كان العرب قد جملوها ، وذهبت مدينة نانى بمسرحها الفخم وتماثيلها العظيمة طعمة سائغة للنيران . ويعتبر حتى مؤرخو فرنسا هذه الأفعال الجنونية عملا مشيناً جديراً بالرثاء . وقد خربوا كذلك مدينة « ماكيكون » بعد أن كانت قد وصلت إلى درجة عظيمة من الازدهار لم تعرفها فى عهد القوطيين أو الفرنج .

وبينما كانت هذه الحوادث تقع فى فرنسا كانت أفريقيا تعصف بها ريح

الفتن التى لم تلبث أن سرت عدواها إلى بلاد الأندلس ، فثار « عبد الملك بن قطن » عامل الأندلس المعزول مع جماعة كبيرة فى سنة ١٢٣ هـ ، و بعد أن فتك بعامل الأندلس الجديد استولى على زمام الحكم ، ولكنه لم يلبث طويلا فى منصبه حتى وصل « بلج »[1] إلى الأندلس على رأس الثائرين من أهل الشام وكانوا قد فروا من موقعة جيش كلثوم[2] فى أفريقيا فأضافوا بوصولهم إلى الأندلس عنصراً جديداً من عناصر الشغب والفتن . وما عتم الزعيمان الثائران أن اشتبكا فى معركة دموية هائلة أسفرت عن قتل « عبد الملك » . وعندئذ أمر « بلج » بصلبه ولكن « بلج » نفسه لم يلبث طويلا أن لحق به متأثراً من الجروح التى أصابته فى المعركة .

وعلى أثر وفاة بلج ولى جنود الشام « ثعلبة بن سلامة » أحد زملائهم الأكفاء على الأندلس ، وبدأت الفتن الداخلية تستعر بشدة ، فمال المولدون « مسلمو الأسبان » إلى أولاد عبد الملك ، كما تحزب جنود الشام إلى رئيسهم الذى انحاز إليه البربر أيضاً . وهكذا توقف دولاب الإدارة فى تلك البلاد ، وهجر العرب مراكزهم العسكرية فى فرنسا ، وسارع أمير حامية نوربون مع خيرة جنوده إلى نجدة عبد الملك وأولاده ، وفقدت البلاد الأخرى التى كانت فى أيدى العرب أحسن جنودها . ولو أن « بابين القصير » الذى خلف والده تشارلس هجم على تلك المراكز وقتئذ لأخذها دون أية مقاومة ، ولكن الدروس التى كان بابين قد تلقاها فى المعارك السابقة لم تكن قد محيت بعد من ذاكرته أثر الهزائم التى تكبدها ، ولهذا عقد النية على أن يتريث حتى تتضعضع قوى العرب فى الفتن الداخلية فينقض عليهم بجنوده .

و بينما كان المسلمون فى آسيا يتطاحنون فيما بينهم ، كانت الأمور فى دمشق

---

(١) بلج بن بشر القشيرى .

(٢) كلثوم بن عياض .

بالرغم مما أحرزه جيش الخليفة من نجاح فى آسيا الصغرى ، تسير من سيئ إلى أسوأ ؛ فقد كان على العراق عامل اسمه « خالد » ظل يحكم البلاد بالعدل والإنصاف منذ تولية « هشام » ، ولكن تسامحه أثار عليه حفيظة كثير من الأعداء الذين راحوا يتألبون عليه ، ويسممون أفكار هشام نحوه ، ويتهمونه بالعطف على الهاشميين . وقد كان هشام نفسه بخيلا مقتراً ، ولعل هذا البخل وحده هو الذى حدا به إلى تصديق تلك الوشايات ، وإلى اتهامه بابتزاز ثروة طائلة من الناس ، ولم تكد تمضى سنة ١٢٠ ﻫ حتى عزله وعين بدلا منه مضريا اسمه « يوسف بن عمر الثقفى » الملقب بالمنافق ، وكان رجلا قاسى القلب متقلب الأهواء ، فراح ينزل بخالد أشد أنواع العذاب لكى يحمله على الاعتراف بالأموال التى ابتزها ، ولكن الخليفة لم يعتم أن فك سراحه وحده دون بقية المسجونين من بنى هاشم .

ثورة زيد حفيد الحسين

كذلك حدث فى تلك الأثناء أن طلب « زيد » حفيد الحسين من هشام بعض المساعدة ، ولما أعرض عنه هشام وأهمل شأنه خرج من لدنه ساخطاً ، وسافر فى الحال إلى الكوفة موطناً النفس على القيام فى وجه الخليفة بالرغم من نصائح أهله بألا يركن إلى أهل العراق ، ولكنه أصر على شق عصا الطاعة ، فلم يلبث أن منى بالهزيمة وقتل فى الميدان . والمعروف أن أصحابه كانوا قد حرصوا على دفنه خلسة ، بيد أن الخليفة الأموى أمر عامله بأن ينبش قبره ويحرق جسمه ثم يذريه فى الرياح على الفرات ، وهو عمل وحشى أقل ما يقال فيه أنه مجرد من العاطفة الإنسانية ، كما أثار على الأمويين نقمة كثير من المتبرمين والساخطين ، وفى الحال فر « يحيى بن زيد » إلى خراسان ، وقد كان شابا عالى الهمة فى السابعة عشرة من عمره .

ومما يلاحظ أن الدعوة العباسية نالت بموت « زيد » أكبر تعضيد ، إذ زال من طريقها منافس قوى وخصم عنيد ، كما تصادف وقوع هذا الحادث مع

ظهور « أبى مسلم الخراسانى » الذى يعتبر فى الواقع سبب سقوط الدولة الأموية .
وفى عام ١٢٤ هـ توفى محمد حفيد العباس صاحب فكرة إقصاء بنى أمية عن الخلافة و إحلال أحفاد الرسول محلهم ، تاركا لابنه الأكبر « إبراهيم » مهمة تحقيق تلك الأمنية .

أبو مسلم الخراسانى

ولد أبو مسلم الخراسانى [1] فى أصفهان وهو يمنى الأصل من عائلة عربية ، وكان قد اتصل فى بادئ أمره بمحمد بن على بن العباس ، الذى أعجب بذكائه وقدرته على تنظيم الجمعيات السرية ، فأوفده إلى خراسان ليرأس الحركة العباسية هنالك ، فاستطاع بما أوتى من حسن البيان وقوة الجنان أن يجذب إلى الدعوة الهاشمية عدداً كبيراً من الناس ، وقد قوى أمره وظهر سلطانه على أثر وفاة هشام الذى قبض فى الرصافة فى قنسرين فى ربيع الثانى عام ١٢٥ هـ ، وبويع بالخلافة بعده ابن أخيه « الوليد الثانى » [2] .

وفى عام ١١٣ هـ توفى الإمام « محمد الباقر » وخلفه ابنه جعفر الصادق .

---

(١) يقول المسعودى : « إنه تنوزع فى أمر أبى مسلم ، فمن الناس من رأى أنه كان من العرب ومنهم من رأى أنه كان عبدا فأعتق » . (المعرب)

(٢) زارت حفيدة وتيشا المساة « الأميرة سارة » بلاط الخليفة هشام تستنجده وتطلب إليه الفصل بينها وبين عمها الذى اغتصب أملاكها وأملاك أخيها ، فقابلها هشام مقابلة حسنة ، وأسكنها فى قصر زوجه ولم يكتف بإعادة أملاكها إليها بل زوجها أيضاً من نبيل من النبلاء العرب عادت معه إلى أسبانيا ، وظلت متمسكة بديانتها ، غير أن أبناءها ربوا على الديانة الإسلامية ، وتمتع أحفادها بمركز ممتاز فى تلك البلاد ، وكان يلقب أحدهم بابن القوطية ، وكان عالما فاضلا .

الفصل الثانى عشر

بنو أمية (تابع ما قبله)

الإمبراطورية العربية حين وفاة هشام — قسوته نحو أقاربه — مقتل خالد القسرى — ثورة يحيى بن زيد وموته — تأثيرها على أهل خراسان — حالة أسبانيا — حسام (أبو الخطاب) حاكم الأندلس — خضوع جميع الأحزاب — عدالته — تعصبه لليمانيين — فتنة المضريين — موقعة شقوندا — انتخاب ثعلبة — وفاته — انتخاب يوسف — فارس الأندلس — وفاته — وصول عبد الرحمن حفيد هشام — هجوم ببين القصير — مذبحة المسلمين — حصار أربونة — الاستيلاء عليها — زوال حكم العرب فى فرنسا — أفريقيا — الفتنة على الوليد الثانى — وفاته — خلافة يزيد الثالث — وفاته — تولية إبراهيم — قيام مروان — موقعة عين الجر — فرار إبراهيم — اعتلاء مروان عرش الخلافة

الإمبراطورية العربية

لما توفى هشام سنة ٧٤٣ م كانت الإمبراطورية العربية فى أوج عظمتها ، ففى أوربا كانت تبسط حمايتها على جنوبى فرنسا وأنحاء شبه جزيرة أيبريا ، ماعدا بعض الهضاب التى كان يعتصم بها رجال العصابات . أما فى البحر الأبيض المتوسط فكانت تضم إلى جانب ممتلكاتها جزائر ماجوركا ومانوركا وإيفيكا وكورسيكا وسردينيا وكريت ورودس وقبرص وقسما من صقلية ، وعدة جزر أخرى من جزائر الأرخبيل اليونانى ، كما كان يمتد سلطانها فى أفريقيا من بوغاز جبل طارق حتى خليج السويس ، وفى آسيا من جبل سينا إلى هضاب المغول .

وبينما كانت المؤامرات الواسعة المدى تعمل على هدم نفوذ الخلافة فى المشرق ، كانت المنازعات تنذر بحل أوشاج تلك الرقعة الفسيحة الأرجاء فى المغرب . وقد حدث فى تلك اللحظة الحرجة أن خسرت البلاد بموت « هشام »

حازماً ، فاضلا ، حذراً ، بالرغم مما كان عليه من ضعف الهمة وخور العزيمة .
وبويع بعده « الوليد بن يزيد » الذى كان يختلف عن سلفه كل الاختلاف ، إذ كان متهتكا ، خليعاً ، ماجناً ، سكيراً ، لا يهتم بالأوضاع الأخلاقية ؛ الأمر الذى أدى إلى اشمئزاز الشعب منه ، ولهذا حاول سلفه أن يعزله من ولاية العهد ويولى ابنه مكانه ؛ ولكنه عند ما فشل فى ذلك سعى إلى تقويم أخلاقه ، غير أن الوليد لم يلبث أن ترك العاصمة ساخطاً من تدخل الخليفة فى شأنه ، وقصد إلى موقع يسمى « بالأزرق » فى الأردن ، وظل يترقب موت عمه بصبر نافذ حتى زفت إليه البشرى التى طالما منى نفسه بها ، فأسرع إلى دمشق ؛ وكان أول ما قام به بعد مبايعته بالخلافة أن طرد أسرة هشام من القصر ، ويقال إنه لم يوافق على دفن الخليفة المتوفى إلا بتوسط أهله . ومما يؤثر عنه أيضاً أنه كان صارماً مع أبناء عمومته مع ما كانوا عليه من الشجاعة ، وما لهم من الأيادى البيضاء والبلاء الحسن فى المعارك مع الروم . فبهذه الأفعال وبأمثالها أوغر عليه صدور المسلمين ، بالرغم من أنه حاول فى أوائل عهده أن يستميل إليه الجنود بزيادة رواتبهم ، ويتقرب إلى الشعب بتوزيع الجوائز عليهم ، كما زاد فى أرزاق الفقراء والعجزة ، ولكن هذا الكرم المصطنع لم يغن عنه فتيلا ، نظراً لقسوته وتقلب أهوائه وضعف أخلاقه .

أما « خالد » والى العراق السابق فكان يسكن دمشق منذ أن أطلق « هشام » سراحه ، ولكن الوليد لم يلبث أن بعث به إلى عدوه « يوسف بن عمر الثقفى » كما أمر فى الوقت نفسه بإلقاء القبض على « يحيى بن زيد » فأخذ يطارده حتى يئس الشاب من تلك الحياة ، وقام على رأس جماعة مسلحة مؤثراً القتل فى ساحة الوغى عن التسليم ليذبح ذبح الأنعام ؛ وقد قتل فعلا كما أراد ، واحتز رأسه وحمل إلى الوليد فأثار مصيره المحزن حماسة أهل خراسان ، وعجل فى تزعزع بنيان الدولة الأموية ، وأعلن الشعب عليه الحداد ، كما أطلق على من

ولد يوم وفاته فى خراسان اسم « يحيى » . ولما أضرم أبو مسلم نار الثورة بدعوى الانتقام لبيت الرسول انضوى هؤلاء تحت رايته متشحين بالسواد ، وهو اللون الذى اتخذ شعاراً للدولة العباسية ، ومما يؤثر عن « أبى مسلم » أنه نكل بجميع الذين اشتركوا فى قتل « يحيى » من غير ما شفقة ولا رحمة .

انتخاب ثعلبة فى الأندلس

والآن بعد أن استعرضنا أهم الحوادث التى وقعت فى المشرق نحول أبصارنا شطر الأندلس ، فنرى الخليفة هشام يصادق على ولاية ثعلبة . بيد أن هذا الحاكم الجديد كان متعصباً لليمانيين ، فثار عليه المضريون يؤازرهم البربر والمولدون ولكنه سار إليهم بجيش كبير فهزمهم عند أسوار « مارده » ، ومزقهم شر ممزق . ويقال إنه أسر منهم عشرة آلاف رجل عدل عن ذبحهم جميعاً فى اليوم التالى إذ عند ما أيقن الأسرى أنهم — لا محالة — ملاقون حتفهم لاحت فجأة عن بعد راية الخليفة ، وأخذت تقترب منهم رويداً رويداً فاهتزت لها القلوب طرباً وابتهاجاً ، لأن اسم الخليفة بالرغم من الانحلال الذى بدا على الخلافة والتفكك الذى اعترى أجزاء الإمبراطورية فى ذلك الحين ، كان لا يزال يحمل فى أطوائه معانى التقديس والاحترام ، وكان اقتراب الراية التى أوقفت تنفيذ الحكم نذيراً بتعيين عامل جديد يدعى « أبا الخطار حسام الكلبى » وهو أيضاً يمنى الأصل أوفده حنظلة بن صفوان أمير أفريقيا بموجب أوامر هشام لنشر الأمن وتهدئة الاضطرابات التى ثارت بين الحزبين المتنازعين .

دخل حسام قرطبة فى شهر رجب سنة ١٢٥ ﻫ أى بعد خمسة أشهر من وفاة هشام ، ويحدثنا المؤرخون فى هذا الصدد « أنه لم يكد يصل إلى بلاد الأندلس حتى جنحت جميع الطوائف إلى السلم وتصالح الثوار » . أما « ثعلبة » حاكم الأندلس السابق فقد أعلن طاعته وقفل راجعاً إلى الشام .

اشتهر « أبو الخطار » فى بادئ الأمر بالعدل والإنصاف ، ولكنه مع ذلك لم يتخلص من النعرة القبلية ، فراح ينحاز إلى الحميريين فى أسبانيا كما أهان

المضريين فى شخص رئيسها فثاروا عليه واضطرمت الفتن من جديد ، فاصطلى الفريقان بنارها بأشد من ذى قبل ، ووقعت معارك شديدة دامية فى « شقندة » على مقربة من قرطبة دارت فيها الدائرة على اليمانيين وقتل « أبو الخطار » ، وعندئذ اختار المضريون « ثوابة بن سلامة » أحد زعماء اليمنية والياً عليهم ، وانتخبوا له مساعداً اسمه الصميل . وقد ظل ثوابة متربعا فى دست الحكم حتى وافته منيته بعد سنتين و ٦ أشهر ، فانتخب الجيش فى مكانه بترشيح الصميل شخصا آخر من أحفاد « عقبة بن الحجاج » فاتح أفريقيا ، يدعى « يوسف بن عبد الرحمن الفهرى » ، فاستطاع أن يؤلف بين قلوب الطرفين ويخمد نار الفتن ، وبذلك اضطلع بالحكم نحوا من عشر سنين دون مصادقة خليفة دمشق على هذا التعيين ودون أن ينازعه فى حكمه أى منازع . ولكنه بالرغم من حنكته ومهارته ثار عليه « عبد الرحمن اللخمى » حاكم « أربونة » الملقب (بفارس الأندلس) ، ولكن هذا لم يعتم أن قتل غيلة على يد أحد أعوانه . كذلك ثار زعيم آخر فى « باجه » وثالث فى « الجزيرة » ورابع فى « أشبيلية » . ومع ذلك فقد نجح يوسف فى إخماد تلك الفتن . ولولا قدوم حفيد « هشام » الذى فر من وجه العباسيين عام ٧٥٥ ميلادية لأسس « يوسف » أسرة حاكمة تسمى باسمه ؛ ولكن وصول ذلك الأمير الأموى غيّر مجرى التاريخ فى تلك البلاد .

كان الأمير الأموى نشط الفؤاد إداريا بارعا ، أعانه اسم أسرته على اكتساب ثقة الناس وعطفهم عليه فتغلب على جميع الصعاب ، وأسس فى النهاية دولة أموية جديدة فى الأندلس .

غزو المسلمين فى فرنسا

وفيما كان يوسف منهمكا فى تسوية مشاكل البلاد الداخلية أغار بيبين القصير — الذى كان يترقب تضعضع قوة العرب — بجيش لجب على « لانجدوك » « وسبتمانية » وغربى « سافوا » ، وهى المدن التى كانت لا تزال فى قبضة العرب فأشعل فيها النيران ، ووثب بالمسلمين القاطنين فيها وفتك بهم حتى استحالت تلك

المدن الآمنة إلى ساحات واسعة للمذابح والتدمير ، فنجم عن هذه الأعمال الوحشية قحط مخيف هلك فيه عدد عظيم من الناس . وبالرغم من قلة عدد العرب وضعف شأنهم فى جنوبى فرنسا وتألب الأعداء عليهم فقد دافعوا دفاعا مستميتا طوال ثلاثة أعوام عن كل شبر من ممتلكاتهم . وفى عام ٧٥٥ م لم يبق فى أيدى العرب غير مدينة واحدة اسمها « أربونة » كان قد حاصرها بيبين مستعملا فى إخضاعها ضروب الفتك والتدمير ، ولبث الحصار أربعة أعوام حتى انتهز نصارى المدينة ذات يوم فرصة إهمال الحراس ووثبوا بالمسلمين ثم فتحوا أبواب المدينة عنوة ، وفى الحال انقض المحاصرون البرابرة انقضاض الصواعق ، وأثخنوا فى المسلمين رجالا ونساء وأطفالا حتى أفنوهم عن آخرهم من غير ما شفقة ولا رحمة .

وهكذا امحت آثار المدنية فى تلك المدينة وسقطت فى دياجير الجهل الذى كان يسود أوروبا المسيحية فى ذلك العهد . وبينما كان « بيبين » يطارد جيوش المسلمين فى فرنسا على هذا النحو ، أدت مشاكل العرب الداخلية فى الأندلس إلى انسحابهم من المناطق الجبلية المتاخمة لخليج بسكاى ، حيث كان الثوار قد أسسوا نواة مملكة جديدة .

فى أفريقيا

أما فى أفريقيا فقد حكم حنظلة البلاد منذ انهزام البربر فى القيروان بنجاح لم يسبق له مثيل ، واعترف له حتى البربر والخوارج بنبل القصد والعدالة وعلو الهمة فتمتعت البلاد فى ظله بنعمة الطمأنينة والعدل ، وزهت التجارة والصناعة ، غير أن أحد الموظفين المنفيين واسمه « عبد الرحمن بن حبيب » لم يعتم أن أضرم نار الثورة فى البلاد فعمت الفوضى والمنازعات . وفى عام ١٢٧ هـ قاد « عبد الرحمن » الثوار بنفسه فى تونس وألقى القبض على الأشراف الذين كان « حنظلة » قد أوفدهم إليه ليردعوه عن غيه ، وسار بهم على رأس قوة كبيرة إلى القيروان مهددا بذبحهم إن هو استعمل معه القوة ، فروع « حنظلة » الذى كان يكره إراقة الدماء وانسحب إلى آسيا حيث اعتزل الحياة العامة . وما هى إلا برهة حتى

سقطت القيروان فى أيدى ذلك الثائر الذى نادى بنفسه حاكما عليها ، غير أن حكمه الذى لم يؤسس إلا على الخيانة والغدر ظل عرضة للثورات والفتن الداخلية ، ومع ذلك فقد ظل قابضا على دفة الأمور بيد من حديد حتى فتك به أخوه عام ١٣٧ هجرية .

ولعل من الفائدة الآن أن نستعرض بإيجاز الحوادث السياسية التى أدت إلى سقوط البيت الأموى فنقول :

الوليد الثانى

كانت دمشق إلى ذلك الحين معقل الأمويين الحصين ، ومهما يكن من أمر خلفائهم وما كانوا عليه من نزعات وطباع ، فلم يحد قط أفراد هذا البيت عن ولائهم للخليفة ، إذ كانوا جميعا يرتشفون فى الطفولة لبان الإخلاص والولاء ويشبون على تقديس مصالح الأسرة ، أضف إلى ذلك شدة حرصهم على حفظ كيان بيتهم وصيانته مما يشين سمعته . غير أنه وقع فى عهد الوليد الثانى حادث لم يسبق له مثيل قط فى تقاليد ذلك البيت ؛ وتفصيل الخبر أن الوليد كان شغوفا بالموسيقى وسباق الخيل ، وبلغ من حبه للطرب أن أهمل شؤون الدولة وشاركه فى ذلك الميل بعض أفراد الأسرة بالرغم من سخط أتقياء العاصمة عليهم ، ولكن إسفافه وتحديه لأبسط قواعد الأخلاق نفر منه حتى قلوب أخلص الأعوان ، وأبعد عنه معظم الأمراء ، كما أن إغضاءه عن قاتل « خالد » حاكم العراق السابق فى شهر محرم سنة ١٢٦ هـ أسخط عليه الحميريين فى الشام ، فثاروا عليه ثورة هائلة بقيادة يزيد بن الوليد الأول حفيد عبد الملك ، وانضم إليهم أهل دمشق وحاصروه فى قصره بقرية تعرف « بالبحراء » ، وقد حاول فى بادئ الأمر أن يتفاهم معهم ولكنهم أفهموه أنهم يسخطون عليه لانهماكه فى الملذات وتهتكه ، ثم كسروا أبواب القصر وهجموا عليه واحتزوا رأسه ، ثم نصبوه على رمح وراحوا يطوفون به فى شوارع دمشق . فهذه الظروف التى أحاطت بمقتل الوليد ، وذلك

التمثيل الفاضح بجسمه أزالا القدسية عن شخصية الخليفة وقضيا على الاحترام الذى كان يحيط بمقامه الجليل .

يزيد الثالث الملقب بيزيد الناقص

وبعد مقتل « الوليد » ولى « يزيد بن الوليد الأول » قائد الثورة ، وكان تقيا ورعا متمسكا بأصول الدين ، سالم الطوية ، فأشار فى الخطبة التى ألقاها عقب مبايعته إلى أسباب خروجه على ابن عمه ، ووعد بأن أول ما سيعنى به هو تحصين الحدود ، وإقامة الحاميات فى المدن ، ورفع الظلم عن العباد ، وعزل الحكام الخائنين ، وقمع الثورة فى حمص وفلسطين . ولو أنه عاش مدة أطول لبرهن على جدارته لهذا المنصب العظيم ، بيد أن مدة حكمه كانت قصيرة نشبت فى خلالها الاضطرابات وعمت الفوضى ، فلم تسمح له الفرصة بإدخال ما وعد به من الإصلاحات . وقد رفض مروان عامل أرمينيا فى بادئ الأمر مبايعة الخليفة الجديد ، وأقبل على الشام متوعدا مهددا بأن يولى أحد أبناء الوليد الخلافة . ولكن يزيد استطاع أن يستميله ويمنحه ملك أبيه ، وبذلك انقلبت الآية فزج أبناء الوليد الثانى فى غيابات السجن ، كما عزل يوسف قاتل خالد من منصبه ، وعين عبد الله ابن عمر الثانى مكانه ، غير أن ناصر نائب الأمير فى خراسان أبى أن يطيع عبد الله أو يعترف بخلافة يزيد ، فأثر هذا الشلل الذى منيت به الإدارة على أنحاء الإمبراطورية ، كما عجزت عن تأديب « عبد الرحمن » الثائر فى أفريقيا ، وحتى الإصلاح الوحيد الذى قام به « يزيد » لم يكسبه إلا سخط رجال الجيش ، ذلك أن الوليد الثانى كان قد زاد فى رواتبهم ، ولكن يزيد لم يلبث أن أعادها إلى ما كانت عليه فى عهد « هشام » فلقبوه بالناقص ؛ وتوفى فى سنة ١٢٦ ، وكانت مدة ولايته ٦ أشهر .

إبراهيم بن الوليد

وبعد وفاة يزيد قام أخوه إبراهيم بالأمر من بعده ، ولكن سلطانه لم يمتد إلا على دمشق وضواحيها ، ولم يبق فى الحكم غير شهرين وعشرة أيام ، ولذلك لا يعده المؤرخون من جملة الخلفاء .

مروان الثانى

وقد خف مروان فى قوة مسلحة إلى دمشق لإنقاذ أبناء الوليد من الحبس حتى انتهى إلى عين الجر، وهى بلدة صغيرة واقعة بين لبنان والشام على الطريق الممتد من بعلبك إلى دمشق، فقابله جيش جرار مؤلف معظمه من اليمانيين، ولكن جيش مروان كان قد تدرب على الفنون العسكرية فى حروبه الطويلة مع الجيوش البيزنطية والقبائل التركية، فهزم اليمانيين ومزقهم شر ممزق، وهكذا أصبح طريق دمشق مفتوحا أمام مروان. وبينما كان يقترب من العاصمة فرّ إبراهيم ومعاونوه الجلادون بعد أن فتكوا بأبناء الوليد لعلهم يوقفوا بذلك زحف مروان الذى جاء لإنقاذهم، كما فتكوا أيضا بقاتل خالد؛ ولهذا ثار أعوان أسرة الوليد وأخذوا يفتكون بأتباع الخليفة «إبراهيم» وأخيه المتوفى: فقتلوا منهم عدداً كبيرا ونهبوا قصورهم ثم نبشوا عن جثة يزيد الثالث وصلبوه على باب المدينة[1]، ووقعت دمشق فى حالة مخيفة من الفوضى والارتباك حتى هرع أشراف المدينة يرحبون بوصول مروان الذى بايعوه بالخلافة رغبة منهم فى وضع حد لأعمال النهب والتخريب وإعادة البلاد إلى عهد الطمأنينة والسلام.

---

(١) لم تكن عادة نبش القبور مقتصرة على آسيا فحسب، ومثال ذلك أن قبر برسى هستبور نبش فى القرن الخامس عشر بأمر هنرى الرابع.

الفصل الثالث عشر

بنو أمية ١٢٧ — ١٣٢ هـ (٧٤٤ — ٧٥٠ م)

(تابع ما قبله)

مروان الثانى — أخلاقه — التمرد — الثورة فى خراسان — أبو مسلم الخراسانى — الثورة فى فارس — انهزام نصر حاكم خراسان ومقتله — موت إبراهيم الإمام العباسى — انهزام بنى أمية فى نهاوند — هزيمة حاكم العراق — مبايعة السفاح بالخلافة — موقعة الزاب — انهزام مروان — فراره — سقوط دمشق — انتقام العباسيين — موت مروان — آخر حكام بنى أميـة — أسباب سقوط الدولة الأموية

مروان الثانى

هو حفيد مؤسس الأسرة الحكمية ، وقد سبق أن مارس الحكم فى بلاد أرمينيا فأظهر فى إدارة شؤونها نشاطاً وحزماً جديرين بالإعجاب ؛ والمأثور عنه أنه اشتبك فى مدة حكمه مع بعض قبائل الشمال — التى كانت لا تفتأ تغير على الحدود الشمالية — فى عدة معارك كان يهزمهم فيها دائماً ويفرق شملهم المرة تلو الأخرى . وقد أكسبته حياته الشاقة التى كان يزاولها فى ميادين القتال قوة الاحتمال على شظف العيش حتى لقب بالحمار[1] ، لا على سبيل السخرية أو الاستهزاء ، إنما على سبيل المجاز ، إشارة لقوة عضلاته وإعجاباً بصلابته ؛ كذلك كان على نقيض أسلافه متقشفاً ورعاً يعيش مع جنوده ، فلا يؤثر نفسه بشىء لا يستطيع منحه لهم ، سواء أكان ذلك فى وقت السلم أم فى ميادين القتال . وكان يتناول أرزاقه كأبسط جندى متحملا شظف العيش وقسوة الحياة فى معسكره . ولما أفضى إليه الملك وانتقل إلى قصر الخلافة لم يأخذ قط بنصيب قليل ولا كبير من متع الحياة الدنيا المعروفة عن الخلفاء الأمويين . بل قصر همه على قراءة

---

(١) يلاحظ أن الحمار يمتاز بالصبر والاحتمال على الشدائد .

كتب التاريخ القديم الذى غالباً ما كان يتذاكره مع كاتبه الخاص أو أصحابه المقربين . وكان قد كبر سنه عند ما اعتلى عرش الخلافة[١] ، ولكن خفة حركته فى القتال وسرعة انقضاضه على الأعداء الذين تألبوا عليه من كل حدب وصوب برهنتا على أن الشيخوخة لم تفل من عزيمته أو تنال من نشاطه ، بيد أن التفوق العسكرى ليس وحده كل ما يجب أن يتصف به من يطمع فى الملك — ولا سيما فى مثل تلك الظروف — بل ثمة صفة أخرى يجب أن يمتاز بها الحاكم ، وعلى الأخص من يرغب فى إنقاذ دولة كالدولة الأموية من الانحلال الذى منيت به وقتئذ ، وهى الترفع عن العصبية القبلية ، ولكنها صفة كان يفتقر إليها بالضرورة مروان ومعظم أفراد بيته .

أخلاقه

ولو وهب « مروان » بعد النظر واتساع أفق التفكير — وهما من أهم ميزات السياسى المحنك — ولو وهب كذلك حب المسالمة التى بها وحدها كان يستطيع المحافظة على التوازن بين العناصر المتنازعة لتغير مجرى تاريخ آسيا ، وأصبح له شأن آخر غير هذا الشأن ، ولكن صرامة خلقه وشدة شكيمته مضافتين إلى أبرز صفات الأمويين — وهما العناد والقسوة — زادت فى نقائصه وعيوبه ؛ فبدلا من أن يحاول إطفاء نار الضغائن ونزع السخائم التى كانت تمزق شمل الشعب العربى ، رمى بنفسه فى عباب المنازعات القبلية بذلك الحماس الأعمى ، والسخط المتناهى ، اللذين عامل بهما اليمانيين ، فأثار دفين الأحقاد فى قلوب الطرفين ؛ كما زاد هجاء الشعراء وتفاخرهم فى إضرام نار هذا التنافس القديم ، المصحوب بأخطاء العصر وحزازاته . وهكذا نجد الكميت[٢] أحد شعراء مضر ينظم قصيدة طويلة تسمى « بالهاشميات » يتغنى فيها ببسالة قبيلته ومناقب قومه مؤثراً بنى هاشم ، ومشيراً إلى المحن والأهوال التى نزلت بهم ، فيعارضه شاعر

---

(١) يقال إنه كان قد تجاوز الستين .
(٢) هو الكميت بن زيد الأسدى من أسد مضر بن نزار .

يعنى يسمى « دعبل » [١] بقصيدة يعرض فيها بالمضريين ، ويفاخر بآل حمير وملوكهم ؛ فأخذت تلك الأشعار وغيرها تتناقل من المدن إلى الصحراء ، وألهبت أبياتها المليئة بالهجو والتفاخر قلوب البدو والحضر [٢] على حد سواء ؛ فتحزبت الناس ، وتأصلت الضغائن بين الحميريين والمضريين .

الثورة

وفى تلك الأثناء عمت بلاد المشرق الفوضى والارتباك ، فاعتزل الأتقياء ورجال العلم ميدان السياسة ، تاركين الشؤون العامة للسفلة الأنانيين والوصوليين ذوى المنافع الشخصية والمآرب الذاتية ، وتوقع الناس الخراب الذى بدأت تظهر دلائله فى ذلك الحين . فلم يكد مروان يجلس على عرش الخلافة مدة طويلة من الزمن حتى انتقض عليه أهل حمص وفلسطين ، وخرج عليه الخوارج من مكامنهم فى الصحراء معلنين حرباً شعواء على الدولة الأموية ، حاضين المسلمين على الدعوة إلى الحق . ومهما نقل فى عقائد هؤلاء الغلاة المتعصبين ، فلا يجوز أن نغفل عن أنهم كانوا مخلصين جد الإخلاص فى عقيدتهم ، صادقين فى دعوتهم وشعورهم ، دون أن يحسبوا حساباً للمصاعب التى تجابههم والأهوال التى تكتنفهم . وبرغم قلة عددهم نسبيا فقد استطاعوا اكتساح اليمن والحجاز والعراق والاستيلاء عليها ردحاً من الزمن . وقد أظهر « مروان » فى حروبه مع هؤلاء الثوار مقدرة عجيبة فى القيادة ، وهمة فى الحركات العسكرية ، فهزم أهالى

---

(١) هو دعبل بن على الخزاعى وقصيدته هى التى مطلعها :

أفيقى من ملامك يا ظعينا كفانى اللوم مر الأربعينا

(المعرب)

(٢) نذكر فيما يلى تعليق المسعودى بهذا الصدد :

« وثارت العصبية فى البدو والحضر فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجعدى وتعصبه لقومه من نزار على اليمن ، وانحرف اليمن عنه إلى الدعوة العباسية ، وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بنى أمية إلى بنى هاشم ، ثم ما تلا ذلك من قصة معن بن زائدة باليمن وقتله أهلها تعصباً لقومه من ربيعة وغيرها من نزار ، وقطعه الحلف الذى كان بين اليمن وربيعة فى القدم ، وفعل عقبة بن سالم بعمان والبحرين وقتله عبد القيس وغيرهم من ربيعة كيدا لمعن وتعصباً من عقبة ابن سالم لقومه من قحطان ، وغير ذلك مما تقدم وتأخر مما كان بين نزار وقحطان » .

حمص وفلسطين بالتتابع ، ثم سار إلى العراق ، و بعد حروب شديدة مع الخوارج أجلاهم إلى ما وراء نهر دجلة . أما فى الحجاز فكان الخوارج قد استولوا بقيادة أبى حمزة على المدينة بعد مناوشة طفيفة مع أهلها ، ولكنهم مع ذلك عاملوهم معاملة حسنة لم يعاملوهم بمثلها الأمويون قط . وكانت اليمن وقتئذ فى قبضة « داعى الحق » أحد عمال مروان ، وكان جندياً طائشا زنديقاً على شاكلة فرسان أوروبا فى القرون الوسطى ، ومما يؤثر عنه أنه صرح ذات مرة على الملأ بأنه لا يتقيد أبداً بأحكام القرآن الكريم ، فسار إلى هؤلاء الخوارج المغالين واشتبك معهم فى عدة معارك هزمهم فيها وأجلاهم عن الحجاز واليمن ، فالتجأوا إلى حضرموت ، كما التجأ إخوانهم الذين طردوا من العراق إلى فارس حيث زادوا فى عوامل الاضطرابات والمنازعات التى كانت سائدة وقتئذ فى تلك البلاد .

و بعد أن ساد الأمن وانتشر السلم فى هاتيك الربوع عين مروان الثانى « يزيد بن عمر بن هبيرة » أحد أتباعه المخلصين والياً على المشرق ، ثم انسحب إلى قصره المحبوب فى « حران » تاركا شؤون الدولة لابنيه « عبد الملك » و « عبد الله » ، وظل هو مقيما فى قصره حتى استنجدا به لقيادة الجيش الأموى فى المعارك التى انتهت بقتله وسقوط أسرته .

وفيما كان مروان يحمل حملاته الصادقة على الثائرين فى الشام ، ويكافح الغلاة المتعصبين فى العراق وجزيرة العرب ، كانت الضغائن بين مضر وحمير يشتد سعيرها فتعمل على تقويض دعائم الإمبراطورية الأموية فى آسيا . ولما كان « نصر » حاكم خراسان من بنى مضر ، فقد خرج عليه الحميريون وثاروا ضده . كما انتهز دعاة العباسيين ذلك التنافس المتأصل بين القبيلتين المتحكمتين فى رقاب العالم الإسلامى ، وراحوا يضربون على وتر العصبية القبلية ، ويشعلون نارها لكى ينفجر السخط الذى كان أشبه بمنجم البارود فيدك عرش بنى أمية

دكا . وقد كان « أبو مسلم الخراسانى » — زعيم الثورة — أليق رجل للنهوض بهذا العمل الذى أناطه به الإمام العباسى .

الثورة فى خراسان

كان أبو مسلم يبدو مجرداً من الإحساس ، فلا يبدو على ملامح وجهه ما يكشف عن دفين سره ، كذلك كان يخفى فى صدره قلباً قاسياً لا يرحم ولا يلين ، حتى لم تكن أشد الحوادث خطراً وأعظمها هولا لتعرف قط سبيلا إلى فؤاده ، ولا تؤثر على ملامحه الهادئة ، فكان يتلقى بشائر النصر الباهر من غير أن يبدو عليه أى مظهر من مظاهر الغبطة والسرور ، كذلك كانت أعظم الكوارث هولا وأشدها فشلا لا تحرك له ساكنا . وعلى الجملة كانت أعصابه كأنها قدت من الفولاذ ، فلم يفقد قط سيطرته على نفسه فى أحرج المواقف ؛ كذلك كانت دماثة خلقه ورقة شمائله تجذب إليه قلوب أعدائه وخلصائه على حد سواء ، بينما كانت كفاءته العسكرية ونبوغه فى تنظيم الجيوش و إدارة الشؤون العامة تسترعى الإعجاب والفخر . والحق أن المهارة « المكيافيلية » التى استعملها فى الضرب على وتر العصبية القبلية بين مضر وحمير ، والعداء الذى كان يملأ قلوب الفريقين هما اللذان مكناه من تنفيذ خطته .

قد أتينا فيما سبق على وصف الدعاية العباسية ، وأبنّا كيفية انتشار نفوذها شيئاً فشيئا . ونقول الآن إن تحريم الأئمة استعمال القوة كان مبدأ يتمسك به كثير من أشد أتباعهم تصوفا ، غير أن هذا الحرمان أوجد رغبة فى التطلع إلى الزعامة فى مجال آخر للقضاء على الدولة الأموية ، ولكن هذه الأسباب وحدها ليست كافية لتبين لنا مبعث الثورة التى رفعت العباسيين إلى عرش الخلافة بهذا النجاح المنقطع النظير ، بل لعلها ليست كافية أيضاً كفاية تامة لتقويض دعائم البيت الأموى فى عهد قائد محنك وجندى مدرب كمروان . إنما السبب الحقيقى فى تأسيس الدولة العباسية هو الصبغة التى صبغ بها الحجاج الحكم فى ذلك الزمان و برغم محاولات عمر الثانى وجهوده فقد ظل هذا المبدأ هو السياسة التقليدية

المتبعة فى البيت الأموى فى عهد الخلفاء المتأخرين — سياسة الجور وعدم اتصال العمال والأمراء بالشعب المؤلف من مختلف الأجناس — فضلا عن أنه لم تكن ثمة أوشاج تربط بين قلوب هؤلاء و بين قلوب الحكام والأمراء .

أسبابها

كان العرب بافتخارهم بقوميتهم يترفعون عن الوطنيين ، وينظرون إلى غيرهم بالرغم من التعاليم الإسلامية نظرة السيد إلى المسود مما أدى إلى تذمر أهل البلاد الأصليين . ومع أن الوظائف الصغيرة فى الدوائر المالية والإدارية كانت معظمها فى أيدى أبناء الفرس ، إلا أن وظائف الجيش الرئيسية ومناصب الدولة الكبرى كانت موصدة الأبواب دونهم ، وكانت الأمم المغلوبة إذا ما التجأت إلى القرآن الكريم تستشهد بآياته [١] عما جاء فيها من الدعوة إلى المساواة والإخاء ، كان العرب إما أن يقابلوا تلك اللجاجة بشىء من الازدراء ، أو أن يتملصوا من الرد عليها بالمراوغات والماحكات ، وباستثناء النفر القليل الذى قيد اسمه فى سجلات عمر بن الخطاب ، وباستثناء الذين امتازوا بخدمات جليلة للدولة فقد كان جميع أهل البلاد المغلوبة محرومين من الاشتراك فى الحفلات العامة ، أو الاشتراك فى مباهج الحكام ؛ كذلك كانوا يتركون وشأنهم فى زوايا النسيان تأكل قلوبهم الغيرة والحسرة على مجدهم الضائع وعزهم التالد . ومع ذلك فقد كان عرب الشام من مضريين وحميريين منهمكين فى خصوماتهم القبلية ، فلم يشعروا كثيراً بالزوبعة التى كانت تعصف حولهم . وقد أثار عجز السياسيين فى الحكم والتعصب للقومية شعوراً قويا فى قلوب أهل فارس بأنهم ضحايا الظلم ومنكوبى الاستعمار . ولم يكن ينقص إضرام نار الثورة الوطنية غير « كلمة

---

(١) جاء القرآن الكريم فى هذا المعنى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وفى الحديث الشريف « ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » . « والمؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » .

(المعرب)

التعارف » وقد وجدت الآن فى عبارة الدعوة « لآل البيت » ، وأصبحت نداء متعارفا تستتر وراءه الشعوب المغلوبة فى المشرق لم شعثها وجمع كلمتها . ولم يكن الحميريون والحجازيون والعراقيون فى خراسان أقل سخطاً وتذمراً من أهالى البلاد الأصليين ، إذ كانت القبيلة التى تستولى على الحكم — كما هى العادة دائما — تحاول الاحتفاظ بنفوذها ، وتحول دون اشتراك الفئات الأخرى فى السلطة ، مما ولد الحسد والنزاع بين القبائل العربية . وفى تلك العناصر الساخطة ألفى أبو مسلم الخراسانى أمنيته المنشودة لكى يتكأ عليها فى إضرام نار الثورة ، وأصبحت خراسان معقل المتشيعين لآل العباس .

كان « نصر بن سيار » عامل خراسان إداريا حازماً وسياسيا قديرا ، ولو قدر له أن يحكم تلك البلاد فى ظرف آخر غير ذلك الظرف لاستطاع بما وهب من مقدرة وكفاءة ، أن يؤثر عليها تأثيراً حقيقيا ويطبعها بطابعه الخاص ، ولكن الثورة صرفته عن إظهار نبوغه ، فراح يبذل قصارى الجهد فى سحق الفتنة اليمنية التى كان على رأسها « الكرمانى » ، بينما كان الخليفة من جهته يحارب الخوارج فى المغرب . ولما رأى أبو مسلم ضعف الحامية العربية وقلة عددها أصدر بيانه المشهور بإعلان الثورة التى طال الأمد على تدبيرها . وكان السبب الذى عزا إليه الدعوة هو استرداد حقوق « آل البيت » من الأمويين المغتصبين ، فكفلت له عبارة « آل البيت » المبهمة المغرية التى ادعى بأنه من أنصارها مؤازرة متشيعى العلويين . وعقد الاجتماع الأول فى ٢٥ رمضان عام ١٢٩ هـ ، واستدعى الناس بإضاءة المشاعل الكبيرة على قمم التلال ، واحتشدت الجماهير الغفيرة متشحة بالسواد ، دلالة على حزنهم على زعمائهم الذين قتلوا غيلة أو جندلوا فى الميدان ، وهرعت هذه الجموع الزاخرة إلى تلبية الدعوة ؛ ولم تك تنقضى بضعة أسابيع حتى أخذت الرايات السوداء التى أطلق عليها اسم « السحاب » و « الظل » تنتشر من مدينة إلى أخرى يحملها المتشيعون فى سيرهم نحو المغرب ؛ فطردوا

الحاميات الأموية من « هراة » وأماكن أخرى فى المشرق . كما أدى مقتل « الكرمانى » زعيم الثوار المضريين إلى التحاق أولاده « بأبى مسلم » فاستطاعا بتوحيد قوتيهما طرد عامل خراسان « نصر بن سيار » من مدينة « مرو » .

ولما رأى عرب خراسان المنشقون على أنفسهم انتصار بنى هاشم وانتشار سلطانهم تنبهوا فجأة إلى الخطر المحدق بهم وحاولوا تأسيس شبه اتحاد فيما بينهم ، ولكن الأمر كان قد انقضى وسهم القضاء قد نفذ ، فاستحالت تلك الحركة إلى ثورة جامحة انخرط فى عقدها عدد كبير من زعماء عرب الحجاز والعراق ، وأصبح موقف العامل السيئ الحظ حرجاً جد الحرج ، إذ لم يستطع وحده مقاومة قوات أبى مسلم التى كانت تتزايد بمضى الزمن ، فاستنجد بالخليفة ولكنه لم يتلق منه جواباً شافيا ، إذ كان هو نفسه منهمكا فى حروب الخوارج فى الجزيرة . وقبل أن يغادر نصر بلدة « مرو » رفع نداءه المؤثر إلى مروان يطلب فيه المساعدة مبيناً أن الثورة لا زالت فى مرحلتها الأولى ، وأنه من الميسور حصرها و إطفاؤها ، ثم فرج عن كربه بتلك الصيحة اليائسة التى ظلت تدوى فى أجواء العصور وهى[1] :

أرى بين الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وأن الحرب أولها الكلام
فإن لم تطفئوها تجن حرباً ... مشمرة يشيب لها الغلام
أقول من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أميـــة أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام
ففرى عن رحالك ثم قولى ... على الإسلام والعرب السلام

وتلبية لهذا النداء الحار أمر « مروان » عامله فى العراق أن يسارع إلى مساعدة « نصر » ؛ ولكن « فرغانة » و « خراسان » كانتا قد أسلمتا

---

(١) آثرنا أن نورد الأبيات بعينها ، وإن جاءت نثراً مقتضباً فى الإنكليزية .
(المعرب)

« لأبى مسلم » فازدادت بهما مصادره المادية والمعنوية . وليس أدل على عبقرية هـذا الرجل و بعد نظره من توفقه فى اختيار الأنصار الذين كانوا من أقدر أهل العصر ، ومنهم « قحطبة بن شبيب » من أهل الحجاز ، الذى تعقب « نصراً » إلى جورجان واضطره أن يلتجئ إلى « بلاد الجبل » حيث توفى فى طريقه ببلدة « ساوا » وعمره ٨٥ سنة .

وفيما كانت تلك الحوادث تجرى فى المشرق كان مروان يحاول معرفة اسم « الهاشمى » الذى قامت الثورة من أجله . أما أحفاد العباس فكانوا وقتئذ يعيشون فى قرية تعرف « بالحميمة » بجنوبى فلسطين . وما أن علم الخليفة أن أصل ذلك البلاء هو « إبراهيم » الملقب « بالإمام » حتى أمر بإلقاء القبض عليه وزجه فى سجن حوران مع رهط من الهاشميين و بعض أعدائه الأمويين ، ومن جملتهم « عبد الله بن عمر الثانى » و « العباس بن الوليد الأول » اللذين اشتبه فى إخلاصهما . غير أن حبس « إبراهيم » لم يحل قط دون تقدم جيش « أبى مسلم » إذ لم ينقض طويل وقت حتى اشتبك الفريقان فى معركة رائعة فى « جورجان » وكان يقود الجيش الأموى « نصر بن سيار » ، بينما كان يقود الثوار « قحطبة ابن شبيب » فأسفرت المعركة عن هزيمة « نصر » هزيمة منكرة ، وتقدم قحطبة بجيشه إلى الغرب و بصحبته « خالد بن برمك » الذى أصبح لأولاده فيما بعد شأن عظيم فى تاريخ العرب وآدابهم ، وكانت البلاد وقتئذ تعصف بها ريح الفتن والفوضى ، فلما غشى « قحطبة » مدينة «الرى» وطد الأمن فى ربوعها ، ثم أنفذ ابنه « الحسن » و « أبا عون » الفارسى على رأس جيش كبير اكتسحا به الجيش الأموى ومتهوسى الخوارج ، وظلا يواصلان زحفهما حتى اقتربا من مدينة «نهاوند» وهناك حاصرا حاميتها . وفيما كان «عبد الله بن مروان» و «يزيد»[1] عامل العراق يزحفان على تلك المدينة على رأس جيشيهما كان « قحطبة » يشدد

---

(١) هو يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى . (المعرب)

الحصار على تلك المدينة حتى فتحها عنوة ، وعندئذ سارع إلى إرسال « أبى عون » لمهاجمة « عبد الله بن مروان » كما تصدى هو « ليزيد » الذى كان معسكراً فى جالولاء ، ثم سار إلى الكوفة عاصمة العراق . ويقول الرواة أن « يزيد » عند ما بلغه خبر زحف عدوه حاول أن يصده ، ولكنه كان قد انتهى إلى الفرات ، وعندئذ اكتفى يزيد بالعبور وعسكر على بضعة أميال من جيش « قحطبة » ، وهنالك تقابل الفريقان فى البقعة التى قتل فيها « الحسين » ، ودارت بينهما معركة هائلة أسفرت عن هزيمة الجيش الأموى ، كما خسر العباسيون قائدهم الذى ولى ابنه أمر القيادة فى الحال وهجم على الأمويين يثخن فيهم القتل حتى أجبر يزيد أن يتقهقر إلى واسط [١-٢] كذلك لم تلبث الكوفة أن أذعنت بالتسليم دون مقاومة تذكر . ويقال إن مروان حينما بلغه خبر هذه الكارثة خرج عن وعيه ، وراح يرتكب أروع ضروب السفك ، كما أنه لم يكد يعلم بخبر المكاتبة التى كانت تجرى سراً بين « إبراهيم » وبين « أبى مسلم الخراسانى » حتى أمر بوضع رأس إبراهيم فى جراب ملآن بالنورة حتى زهقت روحه ، وبقتل المسجونين [٣] الآخرين . ويؤثر عن « إبراهيم » أنه قبل أن يلاقى حتفه على هذا النحو أوصى لأخيه « أبى العباس عبد الله » الذى أقسم لينتقمن لأخيه شر انتقام ، وقد بر بوعده وارتكب فى تنفيذ ذلك أروع أنواع السفك حتى لقب « بالسفاح » [٤] ، وهو الاسم الذى عرف به فيما بعد . ولما قتل إبراهيم فر أهله

---

(١) مدينة بناها « الحجاج بن يوسف » وسميت كذلك لتوسطها الطريق بين الكوفة والبصرة .

(٢) وعلى مسيرة يوم منها قرية اسمها أم عبيدة فيها قبر ولى الله أحمد الرفاعى قطب الطريقة الرفاعية — وولد فيها أبو الفرج الجوزى إمام عصره فى الحديث . (المعرب)

(٣) يقول ابن الأثير : « إن إبراهيم توفى إما تحت أنقاض البيت الذى انهار عليه ، أو دس له السم فى الحليب ، كما أن الباقين توفوا بالطاعون . ولعل الرواية الأخيرة صحيحة » .

(٤) من المرجح أنه سمى بهذا الاسم لقوله فى أول خطبة له : « فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح » . (المعرب)

إلى الـكوفة حيث ظلوا مختبئين فى إحدى دورها حتى فتحها « حسن بن قحطبة » ولم يكن قد أذيع بعد الغرض الأساسى من الحركة التى حملت أهل فارس على التخلص من نير الأمويين ، إذ أن عبارة « آل البيت » كانت وحـدها قمينة بجذب الناس على اختلاف طبقاتهم حول العلم الأسود المشهور ، واسترعاء عطف الشيعة وتقديرهم .

وتقول الرواية العربية إنه لما غشى « حسن بن قحطبة » الـكوفة كان يصحبه « أبو سلمى الخلال »[١] الذى يقول فيه صاحب روضة الصفا : « كان يلقب بوزير أحفاد النبى » . ويظهر أنه كان يدعى لنفسه الولاية على الشيعة من غير علم زعيمهم بذلك ؛ فاستقبله القائد العباسى بضروب الحفاوة والتقدير ولثم يديه ، ثم أخبره أن « أبا مسلم الخراسانى » أمره بإطاعة أوامره ، وعندئذ خرج الاثنان معاً إلى المسجد ، ونودى الصلاة جامعة ، فظهرت الـكوفة متشحة بحلة غريبة كما تجمع أهلها فى المسجد مرتدين الملابس السوداء — شعار بنى العباس — لسماع الخطبة التى طال أمد انتظارهم لسماعها ، وفى الميعاد المضروب ظهر أبو سلمى مرتدياً هو أيضاً الملابس السوداء ، ولم يكن أحد غير النقباء يعلم بأن الرجل قد اعتنق الفكرة العباسية وضحى بمصالح أسياده ، وبعد الصلاة اعتلى « أبو سلمى » منصة الخطابة وطفق يشرح للناس سبب الاجتماع منوهاً بفضل أبى مسلم الخراسانى حامى حمى الدين ، ومؤيد حقوق آل البيت ، ومسبب سقوط الدولة الأموية من شاهق عزها ، ثم ختم كلامه بقوله : « إنه لا يرى من هو أحق وأنبل من « أبى العباس » لهذا المنصب الخطير » .

ومما يجدر ذكره أن العباسيين كانوا فى تلك اللحظه الرهيبة يشكون فى مصير الاجتماع ، وما عسى أن يفضى إليه ، إذ كانوا فى الواقع يخشون ألا يوافقهم أهل الـكوفة على خيانة آل البيت . ولـكن الـكوفيين أبدوا القول المأثور

---

(١) اسمه حفص بن سليمان .

عنهم بتقلب الأهواء . فلكم ثاروا فى سبيل إعزاز قضية آل البيت ، ولكم خدعوا أصحاب تلك القضية بعد أن تعهدوا لهم بمساعدتهم ؛ وها هم الآن يتأثرون بنزوة الساعة ويبرهنون من جديد على أنهم فى خيانة أية عقيدة لا يقلون حماسة عن الذود عنها والاستماتة فى سبيلها .

مبايعة السفاح

ولم يكد « أبو سلمى » ينتهى من تزكية « أبى العباس » حتى صاح جميع من فى المسجد بصوت واحد « الله أكبر » دلالة على التأييد . وفى الحال أرسلوا فى طلب أبى العباس الذى ما إن وصل إلى الجامع حتى هبت الجماهير تسلم عليه بالخلافة ؛ وعندئذ اعتلى المنبر وألقى الخطبة التقليدية ، وهكذا نال « بنو العباس » السلطة ، واستولوا على الحكم على حساب « أولاد فاطمة » الذين عوملوا على أيديهم فيما بعد معاملة من معدن آخر .

وفى تلك الأثناء أخذت الحوادث تقع سراعا فى الشمال حيث التحم « أبو عون » بجيش ابن مروان فى « شهرزور » شرقى الزاب ، وأنزل به خسارة فادحة . أما « مروان » فكان قد عبر دجلة فى ١٢٠ ألف مقاتل ، وتوجه صوب الزاب الكبير حيث التقى بجيش « عبد الله بن على » أحد أعمام السفاح فى قرية تعرف « بالكشاف » ، ويقال إنه كان قد عقد جسراً على النهر ، وتقدم بشجاعته المعهودة إلى القتال .

ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن جنود « السفاح » كانوا متشحين بالسواد من قمة الرأس حتى أخمص القدمين ، كما كانت خيولهم وجمالهم متشحة بالسواد ؛ وبهذا اللباس الغريب طفقوا يسيرون فى صمت موحش كأنهم يمشون فى موكب إحدى الجنائز ولا مشاحة أن هذا المنظر الشاذ أرهب جنود الشام ، ووقعت فى تلك اللحظة حادثة مشئومة زادت فى هلعهم ، إذ بينما كانوا متراصين يترقبون أوامر ضباطهم اتفق أن طار عليهم سرب من الغرابيب كالسحب السود ، ثم حط على رايات الجيش العباسى ، ولم يفكر « مروان » قط فى هذه الحادثة ، ولكنه نظر إلى

أصحابه المحاربين ، فألفاهم قد استشعروا الجزع ؛ ومع ذلك فقد انتصر فى أول معركة اشتبك فيها بنفسه مع جيش « عبد الله » ، واستطاع أن يزيح العباسيين عن مواقعهم ، ولكن « أبا عون » أمر جنوده بالترجل ، وأخذ « عبد الله » يحرضهم على الأخذ بثأر ابن أخيه « إبراهيم » ، ثم ناداهم بقوله : يا أبطال فارس المغاوير ! يا محمد ! يا منصور ! وفى الحال رددوا نداءه بصوت عال ، وحملوا على خصومهم حملة صادقة . أما مروان فكان يهيب برجاله أن يحافظوا على سمعة بيته ، ولكن نداءه ذهب نفخة فى رماد ، إذ لم يستطيعوا أن يثبتوا أمام ضربات العدو القاسية . وفى نهاية المعركة شوهد حصان مروان يركض فى الميدان من غير صاحبه .

موقعة الزاب وهزيمة مروان

ختمت هذه الموقعة التاريخية التى دارت فى إحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية مصير الدولة الأموية ، وفر مروان إلى الموصل فمنعه أهلها من الدخول إليها ، فتوجه صوب حوران حيث مكث مدة يسيرة محاولا جمع جيش آخر ، بيد أن العباسيين الغلاظ الأكباد كانوا يتعقبونه أينما سار ، ففر منهم إلى حمص ثم دمشق . ولما رأى أن الخطر يداهمه وشيكا أسرع إلى فلسطين ، ولكنهم كانوا يلاحقونه من غير ما شفقة ورحمة ؛ وبالأخص « عبد الله بن على » الذى سار فى طلبه . وكانت الموصل وحوران ، وحمص قد قدمت طاعتها إلى السفاح بغير قتال ، وأبدى الأمويون فى دمشق شيئاً من المقاومة ، ولكن جيش العباسيين اقتحم المدينة وفتك بحاكمها « صهر مروان » ، وبذلك سقطت حاضرة الشام وعاصمة الإمبراطورية فى أيدى العباسيين . وفى ٥ رمضان عام ١٣٢ هـ أى بعد خمسة أشهر من رفع العلم الأسود على دار الحكومة فى الكوفة وثلاثة أشهر من موقعة الزاب أخذ العلم العباسى يخفق على القصر الأموى .

ولم يقتصر « عبد الله بن على » على إنزال أروع ضروب السفك بالأحياء ،

مما لم يسبق له مثيل قط فى التاريخ ، بل أمر أيضاً بنبش القبور وحرق العظام وذر رمادها فى الهواء[1] ، ثم أخذ يتعقب « مروان » الذى كان قد عقد النية على الرحيل إلى إحدى مدن الروم ليستنجد بملكها قسطنطين ، وكان قد قرأ قصة ملك الفرس الذى استنجد بالإمبراطور البيزنطى ليرد إليه ملكه ، ولم يكن ليشك قط فى الحصول على مثل تلك المساعدة ، غير أن بعض مشيريه[2] الذين لم يتخلوا عنه فى وقت محنته أقنعوه بالإقلاع عن تلك الفكرة ، وأشاروا عليه بالارتحال إلى مصر أو أفريقيا ، حيث يستطيع حشد جيش آخر يحتل به الإمبراطورية الشرقية ، أو تؤسس حكومة جديدة قوية الدعائم فى المغرب ، فأسرع إلى الفيوم إحدى مديريات مصر العليا ، ولكن عبد الله بن على كان قد أرسل أخاه صالحا مع أبى عون لتعقبه ، فأدركه أبو عون عند الفسطاط فى كنيسة صغيرة فى بوصير على الساحل الغربى من النيل حيث كان مضطجعاً يستريح من وعثاء السفر .

قتل مروان فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ

ولما بصر مروان بأعدائه صمم على أن يكافح حتى آخر نسمة من حياته مؤثراً الموت على الاستسلام ، وهجم عليهم شاهراً سيفه فأصابه أحدهم برمح خر على أثره صريعا . وهكذا قتل فرد من أشجع وأفضل أفراد هذا البيت ، وبموته انهارت الدولة الأموية . وأمر السفاح الذى لقب « بالمنتقم للبيت الهاشمى » بتعقب الأمويين وتقتيلهم بكل قسوة إشباعاً لحقده الوحشى المجرد عن كل عاطفة إنسانية ؛ فكانت تضرب رقاب الذكور أينما وجدوا ، وبثت العيون والأرصاد للبحث عنهم تحت الخرائب وفى بطون المغائر وعلى رؤوس التلال . ولا نعرف لهذه المذابح مثيلا غير حرب الورود التى استؤصلت فيها شأفة أسر برمتها .

---

(١) يقول ابن خلكان : « إن الأعمال الوحشية التى عامل بها الأمويون زيداً وابنه دفعت بعبد الله بن على إلى الأخذ بالثأر » .

(٢) اسمه إسمعيل بن عبد الله القشيرى . (المعرب)

وعلى ضفاف نهر « أبى فطرس » بفلسطين استقدم « عبد الله بن على » نحواً من ثمانين رجلا من أقارب مروان إلى خيمته بعد أن كفل حمايتهم ، ولكنه لم يلبث أن فتك بهم من غير ما رحمة ولا شفقة ، على أن كثيراً من بنى أمية استطاعوا الفرار من تلك المذابح الدامية ، ولم يظهروا إلا فى زمن خلفائه الذين نالوا فى عهدهم شيئاً من الرعاية والعطف ؛ ومن بين هؤلاء الذين نجوا من تلك المذابح « عبد الرحمن » حفيد هشام الذى ارتحل إلى الأندلس وأسس هنالك دولة باسمه . أما بنات مروان اللواتى كن معه وقت مقتله فقد أرسلن إلى « حران » مع أفراد الأسرة الآخرين ، وهنالك عاشوا فى بؤس شديد وفقر مدقع حتى اعتلى « المهدى » عرش الخلافة فأسبغ عليهم العطايا وخصص لهم الأرزاق التى رفعتهم من وهدة الفقر إلى المراكز الجديرة بهم .

وبموت مروان انتهى حكم البيت الأموى فى المشرق ، ويعد بعض خلفائهم ولا ريب من العظماء كما كان البعض الآخر لا يقل عن معاصريهم فى العرب قسوة وشرا ، ويمكننا أن نسمى عمر الثانى « ماركس أورليوس » العرب إذ جاء قبل أوانه ؛ ويعد الوليد الأول وهشام من أهل الكفاءة والأمانة التواقين إلى النهوض بشعبهم إلى مدارج الرفاهية والنجاح . ولقد كان مروان نفسه — لولا نهايته المفجعة — يستطيع أن يتخذ محله فى الصف الأول بين ملوك العالم نظراً لما كان يتحلى به من الشجاعة والحكمة ، ولكنهما صفتان كما يقول ابن الأثير لم يجدياه نفعاً . وقد استعرض أحد أفراد بنى أمية ممن كان يشغل منصباً كبيراً فى تلك الدولة أيامهم الأولى بعد أن فلت الحكم من أيديهم وأتى على أسباب سقوط الحكم الأموى فقال : « إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا ، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا ، وتأخر عطاء جندنا فزالت

طاعتهم لنا واستدعاهم أعادينا فتضافروا معهم على حربنا ، وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا ، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا »[١] .

وقد بلغت مدة حكم بنى أميــة من استشهاد الإمام « على » إلى أن قتل مروان الثانى حوالى ٩١ سنة ، و بالرغم من ضروب الاضطهاد والتنكيل الوحشى والأنانية التى استعملت فى الـكفاح بين العباسيين والأمويين ، فقد خلق هذا التحول عوامل أعانت على بعث روح جديدة فى التطور العقلى فى العالم الإسلامى وقدمت إلى العالم أجمع رجالا يعدون فى مصاف الخالدين .

---

(١) المسعودى .

الفصل الرابع عشر

نظرة عامة

الحكومة — الإيرادات — الإدارة — الخدمة العسكرية — إصلاح العملة فى خلافة عبد الملك — دمشق — الحياة فى البلاط — الحياة الاجتماعية — مركز المرأة — نظام الحريم — الملابس — العادات — الأدبيات — الفرق الدينية والفلسفية

الحكومة
٤٠ – ١٣٢هـ
٦٦١–٧٥٠م

كان الخليفة فى أيام الجمهورية ينتخب من قبل أهل المدينة بالإجماع دون أن يعترض العرب فى الخارج على هذا الانتخاب ، كما كانت مراسم البيعة تقام فى المسجد الجامع ، حيث كان المسلمون يجتمعون فى حشد حافل ليبايعوا الخليفة ويعاهدوه على الطاعة والولاء . ولكن الخلفاء منذ أن اعتلى معاوية كرسى الخلافة طفقوا يعينون أولياء عهودهم الذين كان الأشراف ورجال الدولة وقادة الجيش يحلفون لهم يمين الطاعة فى احتفال رائع يحضره الخليفة نفسه ؛ كذلك كان الأمراء والولاة يأخذون البيعة فى أهل الأمصار التى يحكمونها — للأمير الذى كان الخليفة يرشحه لولاية العهد .

وهكذا أصبح هذا النظام ، نظام البيعة بولاية العهد ، يجمع بين مساوئ الديمقراطية والأوتوقراطية دون أن يستفيد من مزايا إحداهما . أما موافقة الشعب فكانت تغتصب اغتصابا ، سواء بطريق القوة أو التملق أو الرشوة ؛ ولكنها كانت بعد إجراء المراسم المعتادة تصبغ الانتخاب بالصبغة الشرعية .

وكانت الخزينة العامة [1] فى خلافة أبى بكر وعمر وعلى تعتبر ملكا للشعب وكان كل فرد من أفراد الإمبراطورية الإسلامية ينال مرتباً معيناً من خزينة

---

(١) وتسمى بيت مال المسلمين .

الدولة التى أصبحت منذ قيام الحكومة الأوتوقراطية فى عهد معاوية ملكا خاصاً للخليفة . ولهذا نجد « معاوية » يولى « عمرو بن العاص » مصر ويهبه خراجها مكافأة له على حسن بلائه فى الخلاف الذى نشب بينه و بين الإمام على .

الإيرادات

أما الإيرادات فى العصر الأموى فكانت تجبى من نفس المصادر التى كانت تجبى منها فى زمن الجمهورية وهى :

(١) الخراج .

(٢) ضريبة الأعناق .

(٣) الزكاة .

(٤) الجمارك والمكوس .

(٥) الجزية .

(٦) الأخماس (خمس الفىء) .

ولما كان المبدأ السائد وقتئذ هو اللامركزية ، فكانت كل ولاية تصرف إيراداتها على مرافقها الخاصة ، كدفع رواتب الأجناد وأرباب المعاشات و إنشاء الطرق وحفر الجداول وتشييد المؤسسات العامة كالجوامع والمدارس ، ثم ترسل ما يتبقى بعد ذلك إلى الخزينة العامة . وكانت الجباية تعتبر ضمن واجبات العمال الذين كانوا على ما يظهر يجمعون بينها و بين وظيفتهم الأصلية . أما الولاة فكانوا إذا ماجمعوا بين وظيفتهم الأصلية و بين وظيفة صاحب الخراج ، وخاصة بعد خلافة « عمر الثانى » ، يدعون مهمة التحصيل إلى كتابهم الذين كانوا بطبيعة الحال يجنحون إلى ابتزاز أموال الرعية ، ويعرضون أنفسهم للعقاب ولتصفية أملاكهم ، كذلك كان الخلفاء وأفراد الأسرة المالكة يخصون أنفسهم بالضياع الشاسعة . وكان الناس إلى خلافة « الوليد الثانى » يبذلون قصارى جهودهم فى ترقية الزراعة واستثمارها . ولكن حدث فى خلال الحروب الداخلية — التى سبقت ارتقاء « عبد الملك » كرسى الخلافة — أن أهملت جميع أعمال الرى

العظيمة وطمست معالمها ؛ كما استحالت المزارع الخضراء إلى أرض بلقع ومستنقعات آسنة . ويقال إن « مسلمة » أخا هشام كان قد استصلح معظم أرض السواد (وادى الفرات الأسفل) وجعلها تنبض بالقوة والحياة .

أما الضرائب فلم تكن فى جميع أنحاء الإمبراطورية وفق مقياس واحد بل كانت تختلف باختلاف الظروف والامتيازات التى كانت تمنح فيها ؛ كذلك كانت تجرى من حين لآخر بعض المحاولات لنقض تلك العهود ، ولكنها كانت فى أغلب الأحيان تنتهى بنشوب الفتن وشق عصا الطاعة .

الإمارات

كانت الإمبراطورية مقسمة إلى خمس إمارات كبرى يحكم كل واحدة منها أمير مرتبط رأساً بالخليفة وهى :

(١) الحجاز واليمن وأواسط جزيرة العرب .

(٢) مصر العليا والسفلى .

(٣) العراقان : عراق العرب (بابل القديمة وكلدة) وعراق العجم ، وعمان والبحرين وكرمان وسوستان وكابول وخراسان ، وسائر أنحاء ماوراء النهر والسند ، وبعض أقسام البنجاب . وقد كانت جميعها تؤلف إمارة شاسعة الأطراف ، ويحكمها أمير العراق وحاضرته الكوفة وتتبعها :

ا — خراسان وحاضرتها مرو .

ب — عمان والبحرين ، ويحكمها عامل تحت إشراف والى البصرة .

(٤) الجزيرة وأرمنيا وأذربيجان ، وبعض أقسام آسيا الصغرى .

(٥) إمارة أفريقيا : وهى أهم الإمارات على وجه الإطلاق ، وتشتمل على شمالى أفريقيا حتى حدود مصر الغربية وأسبانيا وجنوبى فرنسا مع جزائر صقلية وسردينيا وجزائر البلاريك ، وحاضرتها القيروان ويتبعها :

ا — جزائر البحر الأبيض المتوسط .

ب — الأندلس وحاضرتها قرطبة .

وكان الوالى أو الأمير هو المهيمن على الإدارة سواء أكانت عسكرية أم سياسية ، إلا أن أعمال الجباية كانت تناط فى معظم الأوقات بموظف يطلق عليه اسم « صاحب الخراج » ، الذى كان يقوم بمهام وظيفتـه مستقلا استقلالا مطلقاً عن الأمير ، كما كان يجرى تعيينه رأساً من قبل الخليفة ؛ أما قضاة المدن فكانوا يتمتعون بحق تعيين وكلائهم ، فى حين كانت مشاكل الطوائف غير الإسلامية يفصل فيها حكام من طوائفهم أو رؤساؤهم الدينيون . ولا بد أن نشير هنا إلى أن إمامة الصلاة — وهى من أهم الوظائف على وجه الإطلاق — كان يقوم بها الأمير أو القاضى الأكبر بالنيابة عن الخليفة .

وكان رئيس الشرطة أو « صاحب الشرطة » — كما كان يسمى فى ذلك الحين — يقوم بمهام وظيفته تحت إشراف الأمير أو الوالى . ويقال إنه فى أوائل عهد «هشام» تألفت قوة جديدة سميت بالأحداث ، وهى أشبه فى الوقت الحاضر بفرقة المليشيا أو « الرديف » وتعتبر خطوة وسطى بين الشرطة والجندية .

ديوان الخاتم

ومما يؤثر عن « معاوية » أنه شكل دائرة تسمى « بديوان الخاتم » للقضاء على أعمال التزوير من جهة ، وتسهيلا للمكاتبات بين الخليفة وبين عماله فى سائر أنحاء الإمبراطورية من الجهـة الأخرى ، وبذلك أصبحت الأوامر والرسائل لا تصدر عن بلاط الخليفة إلا بعد أن تسجل النسخة الأصلية فى سجل خاص وتختم بخاتم الخليفة نفسه ؛ كذلك يقال إنه أسس نظاماً بريديا بلغ فى العهـد العباسى درجة عاليـة من الرقى والـكمال . ولا يفوتنا أن نذكر بهذا الشأن أن سياسة الأمويين فى المشرق لم تصطبغ بصبغتها النهائية إلا فى عهد « عبد الملك » الذى وجهها الاتجاه الذى عرفت به فيما بعـد ، فنهى عن استخدام غير العرب فى الوظائف الرسمية بنية إنقاذ الدولة من النفوذ الأجنبى ، غير أن الحجاج المشهور راح يتوسع فى تنفيذ تلك الأوامر إلى أبعد مدى فى العراق ، حتى إنه لم يكتف بإقصاء الذميين عن الخدمة العامة فحسب ، بل راح يقصى أيضاً المسلمين غير

العرب عن وظائف الدولة ، وقد أدت به هذه المغالاة إلى أن يفرض ضريبة الأعناق على أولئك الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً فى ذلك الوقت ، غير أن تلك السياسة المتطرفة فشلت فى الواقع فشلا تاما ، إذ لم ينقض طويل وقت حتى أعيد استخدام عدد كبير من الفرس والنصارى فى مناصب الدولة الصغرى ، ولكن هذه السياسة مع ذلك لم تمر دون أن تترك أسوأ الأثر فى عهد «مروان الثانى» .

النقد

أنشأ «عبد الملك» نظامين مهمين أملتهما عليه سياسة الحكمة و بعد النظر ، فالمعروف أنه لم يكن فى البلاد الإسلامية إلى ذلك الحين نقد معترف به فى جميع أنحاء الإمبراطورية . بل كان لأمراء الولايات مضارب خاصة يسكون فيها العملة حسب احتياجاتهم ، ولهذا كانت قِيَم النقد غير مستقرة البتة ، الأمر الذى كان يشجع على التزييف والتلاعب . ومع أن العملة البيزنطية والفارسية كانتا متداولتين بجانب العملة المحلية ، إلا أن توسع أطراف الإمبراطورية وتقدم التجارة أديا إلى وضع أساس ثابت للنقد ، فأنشأ «عبد الملك» داراً جديدة للمسكوكات ، كما أمر بسحب النقد المتداول على أنواعه من الأسواق والاستعاضة عنه بنقد جديد من الذهب . و يقال إنه اعتمد فى إصلاحه هذا على مزيج من الفئات الرومانية والساسانية ، جاعلا الصلدى الرومانى أساساً للعملة الذهبية ، والدرهم — الذى أوجده عمر بن الخطاب — أساساً للعملة الفضية ، كذلك جعل التزييف جريمة يعاقب عليها عقاباً صارماً .

استعمال اللغة العربية فى دوائر الحكومة

أما الإصلاح الثانى الذى أدخله فى الدوائر الحكومية فلم يكن ليقل شأناً عن الإصلاح الأول ، إذ كانت حسابات الدولة قبل عهده تمسك بالفارسية أو اليونانية أو السريانية ، الأمر الذى كان يغرى صغار الموظفين بارتكاب أعمال التزوير والتلاعب فى السجلات ، ولهذا أمر بنقلها إلى اللغة العربية . كذلك كانت جميع وظائف الدولة قبل أن يعتلى «يزيد الثانى» عرش الخلافة لا تسند إلا لأولئك الذين اشتهروا بالمرونة السياسية والحنكة الإدارية ، أو الذين أدوا

خدمات جليلة لمقام الخليفة أو لأسرته . ولـكن المحسوبيـة لم تلبث أن تغلغلت فى جسم الدولة فى أيام « يزيد الثانى » حتى غدت عاملا أساسياً للترشيح دون أخذ الأهلية بنظر الاعتبار ، ويقال إن هشاماً نفسه لم ينج من تلك المؤثرات ؛ كما ظهرت فى ذلك الحين بادرة أخرى نجم عنهـا أسوأ النتائج ، وهى أن الموظفين — الذين كانت أعمالهم الرسميـة تتطلب الإقامة فى الحواضر — راحوا يهجرون مراكز أعمالهم وينزحون إلى العاصمة للتمتع بمباهج المدنية ومسراتها ، تاركين زمام الحـكم وتسـيير دفة الأمور إلى وكلائهم الذين اتخذوا تلك الفرصة سبيلا لابتزاز أموال الدولة والجنوح إلى الرشوة والاختلاس .

وعلى الجملة كانت الإدارة الحـكومية فى العصر الأموى ذات صبغة بدائية فلم تكن قد عرفت بعد تلك القوانين الذى وضعت فى العهد العباسى ، كذلك لم تكن قد فصلت الواجبات بدرجة تساعد على رفع مستوى الـكفاية ؛ وفيما يلى نورد أسماء الدوائر التى كانت تضطلع بمهام الإدارة وهى :

٤٠ — ١٣٢هـ

(١) ديوان الخراج ويشبه وزارة المـالية فى العصر الحاضر .

(٢) « الخاتم وهو الديوان الذى كان يقوم بوضع أنظمة الدولة ، وكانت الرسائل تختم فيه بخاتم الخليفة .

(٣) ديوان الرسائل وهو الديوان الذى كان يهيمن على شؤون الولايات ، وتصدر عنه الرسائل إلى الأمراء والعمال .

(٤) ديوان المستغلات[1] أو مجلس الإيرادات المتفرقة .

أما الخدمة العسكرية فكانت إجبارية على جميع العرب الذين كانوا ملزمين بالانضواء تحت لواء الجيش فى أوقات معينة من السنة ؛ وكان الجندى وهو فى ميدان القتال يتناول مرتباً أكثر مما كان يتناوله عادة وهو فى الاحتياط ،

---

(١) يقول ابن حوقل : « يراد بالمسـتغلات ما يجبى لبيت المـال من أسواق أو منازل أو طواحين ابتناها الناس فى أرض السلطان فيؤدى عنه أجرة . (المعرب)

ولكن الأرزاق كانت تصرف له تامة غير منقوصة طوال أيام السنة ؛ وسنوف هـذا الموضوع حقه من البحث عند الكلام عن العباسيين حين يكون نظام الدولة قد بلغ درجة عالية من الكمال . وقبل أن نختم هذا البحث لا يفوتنا أن نشير إلى أن رئيس الأسطول البحرى كان يطلق عليه اسم « أمير البحر » .

المدن

كان العرب يشيدون الأسوار حول المدن لصد هجمات الأعداء ، كما كانوا يخصصون لكل صناعة بضعة شوارع على حدة تسمى بأسمائها ؛ وحقيق بنا أن نذكر أن تقسيم المدن إلى أحياء لم يجر على أساس الحرف ، إذ كان العرب يمقتون المركزية مقتاً شديداً ، ولهذا كانوا يتجمعون أينما حلوا حسب تقسيمهم القبلى ، فكان لكل عشيرة حى خاص يضم منازلها وجوامعها وأسواقها ومقابرها ولا يخفى أنه كان لهذا التجمع مساوئ عديدة ، أهمها أنه كان يساعدهم على التمرد والعصيان . ولما كانت تلك الأحياء تقوم مقام المدن الصغرى ، فقد أمرت الحكومة أن يفصل بعضها عن البعض الآخر بأبواب متينة يقوم على حراستها جنود أشداء لمراقبة الرائحين والغادين ، ولا سيما فى الهزيع الأخير من الليل ، و يقفلونها عند نشوب الفتن الداخلية فتنقطع بقفلها المواصلات بين أحياء المدينة .

٦٦١ — ٧٥٠

دمشق

كانت دمشق قبل أن يحتلها المسلمون مدينة زاهرة عامرة ومقرا للحاكم الرومانى ، كما أصبحت فى العصر الأموى حاضرة الإمبراطورية الإسلامية ومن أجمل مدن العالم على وجه الإطلاق ، فجملت بالعمائر الفخمة والفوارات البديعة ، والملاهى الفاتنة ؛ وكان أول ما شيده فيها الأمويون هو القصر المعروف بالخضراء الذى استمد اسمه من لون زخرفته ونقوشه . ومما هو جدير بالذكر أن أخلاف معاوية ابتنوا فيها الحصون المنيعة ، والقلاع ذات القبب البيضاء ، والقصور المنيفة الذرى ، والجوامع الفخمة ؛ والمأثور أن « الوليد » جملها هى وضواحيها بالعمائر الفخمة والمنشآت النفيسة ، وابتنى فيها جامعاً سيخلد اسمه على كر الدهور ومر العصور ، وهو الجامع الأموى المعروف .

الموصل

بيد أن الشغف بالبناء لم يقتصر على الخلفاء وحدهم، بل شمل أيضاً أفراد الأسرة المالكة وكبار رجال الدولة الذين أخذوا يتنافسون فى تجميل عاصمة الخلافة وحواضر الأمصار.

ويقال إن الحر[١] الذى حكم مدينة الموصل[٢] إحدى عشرة سنة فى عهد هشام أسس فيها مدرسة وقصراً[٣] منيف الذرا أبدى الفنانون فى بنائه كل مهارة و إبداع، فشيدوه بالرخام الأبيض المصقول كما زخرفوه بالحجارة المنقوشة بالألوان، وركزوا سقوفه على دعامات وأكتاف من الخشب الهندى المموه بماء الذهب، ولهذا سمى بالمنقوشة. والمأثور أنه لما بلغه ما يعانيه أهل الموصل من المشاق فى الحصول على مياه الشرب أمر بشق جدول لا يزال أثره باقياً حتى اليوم بالرغم من تقادم العهد ومضى مئات السنين؛ كذلك غرس الأشجار الوارفة على جانبى الطريق بحذاء ذلك الجدول لكى يسير فيه سكان المدينة فى الأماسى ترويحاً للنفس واستنشاقاً للهواء العليل.

مياه الشرب فى مدينة دمشق

أما نظام مياه الشرب فى الشام فقد فاق أمثاله فى الشرق، بحيث أصبح أثراً خالداً يشيد بذكر الخلفاء الأمويين على مدى العصور وكر الدهور، ومع أن نهر بردى كان يجهز المدينة ولا شك بالمياه الكافية، إلا أن الأمويين أبدوا مهارة منقطعة النظير فى تجهيز حتى أحقر دور المدينة بأحواض خاصة تنبثق منها المياه الصافية؛ كما حفروا سبعة جداول رئيسية تنساب فى أنحاء المدينة علاوة على المجارى العديدة الأخرى التى كانت تربط كل منزل بالمجرى الرئيسى.

قصر الخلافة

وكان قصر الخلافة مزخرفاً بالذهب الوهاج والمرمر الناصع، تكتنفه من

---

(١) إن أبا الحر هو يوسف حفيد الحكم من الأسرة الأموية.

(٢) توفى فيها أبو تمام حبيب الطائى، ومنها ابن جنى الموصلى وأبو إسماعيل الطغرائى وابن الطقطقى وبهاء الدين بن شداد، وأبناء الأثير الثلاثة، والشاعر السرى الرفاء. (المعرب)

(٣) يقول ابن الأثير: يقع هذا القصر بالقرب من سوق السروجية وهو فى حالة مهملة وقد تداعى معظمه.

كل صوب الحدائق الوارفة الظلال ، التى تغرد على أشجارها الأطيار الجميلة بأصواتها الشجية ؛ كذلك كانت أرض القصر مزخرفة بالفسيفساء ، كما كانت الغرف مطلية بماء الذهب ومرصعة بالجواهر الثمينة . وكان من المألوف أن يشاهد المرء عبيد القصر يغدون ويروحون فى الأبهاء وقد ارتدوا أفخر الحلل بأبهى الألوان . وكانت الحفلات الخاصة فى عهد هشام تقام فى البهو الفسيح المبلط بالمرمر المشدود بالأسلاك الذهبية ، والمفروش بالطنافس الحمراء الموشاة بالذهب . وكان الخليفة يحضر بنفسه تلك المآدب الحافلة متشحاً بالملابس الحريرية الحمراء ومتضمخاً بالمسك والعنبر .

٦٦١—٧٠٠

طراز البناء

وكان لمدينة دمشق ستة أبواب[1] شاهقة ترى من بعيد . وعند ما غزا العرب بلاد الشام لم يكونوا قد أوجدوا بعد طرازاً معماريا خاصاً بهم ، ولكنهم سرعان ما أنشأوا نمطاً على جانب عظيم من الروعة والجمال بزوا فيه كلا الطرازين الفارسى والبيزنطى . ومما لا شك فيه أن الطراز المعمارى لأى شعب من الشعوب يستمد ميزاته من خصائص الوطن الأصلى لذلك الشعب وأحوال معيشته البدائية ولهذا نلاحظ فى رسوم الأقواس والأعمدة والمنائر والقباب المستعملة فى الفن المعمارى العربى تشابهاً قويا مع تقوس وتقبب أحواش النخيل المحببة إلى قلوب العرب . وقد كانت منازل أهل الشام تشيد فى مبدأ الأمر على الطراز الرومانى فى حين كانت البيوت العراقية مطبوعة بطابع الطراز الفارسى ، وبرغم مضى الزمن لم يحدث أى تأثير يذكر على نمط البناء ولا على تقسيم المنازل ، فكانت توجد أمام كل باب من بيوت الأثرياء دكة حجرية أو خشبية يجلس عليها البواب ، وكان يستعاض عن هذا النظام فى منازل الفقراء بحلقة معدنية أو حديدية تعلق على الباب لكى يدقها الطارق . وكان الدهليز يؤدى إلى صحن مستطيل تحيط به أبهاء ذات أعمدة تكتنفها أرصفة من الحجر أو المرمر أو الحصباء منضدة على

---

(١) باب الفردوس ، باب الجابية ، باب الشرقية ، باب توما ، باب الصغير ، باب قيسان .

شكل هندسى رائع . وكانت الفوارات تتوسط الحديقة ذات الخمائل المتشابكة والورود الزاهرة ، وكان أحد جانبى البهو يطل على صالة مبلطة بالمرمر أو الحجارة الملونة ، وتستعمل فى الصيف كثوى للأضياف . أما منازل الأغنياء فكانت تتألف أحياناً من طابقين كما كانت تشتمل على أبهاء عديدة عن يمينها وشمالها أبواب عدة ذات ستائر كثيفة تفتح على ثوى الأضياف وغرف السكنى . وكان الإيوان وسائر الغرف تفرش فى الشتاء بالطنافس الفاخرة ، وفى الصيف بالحصر الغالية ، كذلك كانت تدور حذو الحيطان رفوف مصفوف عليها أثمن التحف وأجملها ، أما السقوف فكانت مزخرفة بالنقوش العربية المطلية بماء الذهب . وفى الشتاء كانت المواقد تستعمل لتدفئة الغرف ، فى حين كانت الفوارات والنوافذ تساعد على تلطيف حرارة الجو فى فصل الصيف .

حياة البلاط

وكان أمير المؤمنين — على ما جرت به العادة — يؤم المصلين يوم الجمعة وسائر أيام الأسبوع . والمأثور أن معاوية ، وعبد الملك ، وعمر الثانى كانوا يواظبون على أداء هذا الواجب بانتظام تام ، غير أن الخلفاء الآخرين وإن لم يحضروا الصلاة اليومية كانوا يكتفون بحضور صلاة الجمعة فى المسجد الجامع لإلقاء الخطبة ، وكانوا فى تلك المناسبة يتشحون بملابس بيضاء ويتعممون بعمامة بيضاء أيضا منضدة بالجواهر الثمينة ، ولم يكن ثمة شعار لهذا المنصب الخطير سوى خاتم النبى (ص) والقضيب[١] . وكان الخليفة بعد الصلاة[٢] يرتقى المنبر لإلقاء خطبة الجمعة ، ولكن « يزيداً » كثيراً ما أناب عنه صاحب الشرطة فى إلقاء الخطبة وإمامة المصلين . وكان الخلفاء يفصلون فى القضايا الخطيرة التى

---

(١) كان الخليفة يرتدى حين صلاة الجمعة أو أيام الأعياد الرسمية « البردة » وهى ثوب كان يلبسها الرسول . وقال ابن الأثير : « شملة مخططة وقيل كساء أسود مربع فيه صفر » . (المعرب)

(٢) الخطبة فى الجمعة قبل الصلاة لا بعدها إلا فى صلاة العيدين . (المعرب)

هى من اختصاص حاكم التميز فى العصر الحاضر ، ويستقبلون أشراف الدولة والسفراء .

وكانت حفلات الاستقبال على نوعين : عامة وخاصة ، ففى العامة كان الخليفة يجلس على العرش فى صدر قاعة الاستقبال ، بينما كان يقف عن يمينه أمراء الأسرة المالكة ، وعن يساره كبار الموظفين ورجال الدولة ، وأمامه أعيان الأمة ووجهاؤها وممثلوها الذين كان يسمح لهم بالدخول والسلام عليه ، ومن جملتهم رؤساء الحرف والشعراء والفقهاء ومن إليهم ، أما الحفلات الخاصة فكانت تقتصر على أفراد البيت المالك وكبار موظفى الدولة والبطانة الذين أصبحوا بحكم العادة من غير أفراد الأسرة المالكة . وفى مثل تلك المناسبات كان الخلفاء يتأنقون فى ملابسهم جد التأنق ؛ وقد قيل إن الوليد الثانى كان يتشح بالأثواب الحريرية المشجرة والموشاة بالقصب والسراويل المصنوعة من الحرير والدمقس .

وكان الخلفاء الأمويون الأولون يزجون معظم أوقات الفراغ بالاستماع إلى اخبار الحروب وقصص الأبطال وأعمال الفروسية والبطولة فى زمن الجاهلية وصدر الإسلام . وكان الشعراء يفدون عليهم لينشدوا بين أيديهم القصائد التى كانوا يسبحون فيها بحمدهم ويتغنون بكرمهم . أما الخمر فلم يدخل القصور الملكية إلا فى عهد يزيد الأول الذى كان يتجاوز فى شربه حد الاعتدال ، والمعروف أن مجالسه كمجالس يزيد الثانى والوليد الثانى مجالس معاقرة أكثر منها مجالس أنس وطرب . كذلك لم يطل الزمن حتى أدخلت الموسيقى والغناء فى مجالسهم الخاصة ، وأصبح أشهر المغنيين والموسيقيين يفدون على دمشق من مكة والمدينة وطنى الفن والموسيقى وقتئذ . ولم تكن لعبتا النرد والشطرنج منتشرتين بعد ، غير أن الأولى كانت هى ولعبة الورق غير مجهولتين فى قصور الخلفاء والأمراء .

الخمر

ويقال إن هشاماً كان أول من أسس حلبة السباق لتحسين نسل الجياد ، وكان من المألوف أن يتسابق فى تلك الحلبة زهاء الأربعة آلاف من الجياد

حلبة سباق الخيل

الصافنات التى كان بعضها يجلب من الاصطبلات الملكية والبعض الآخر من اصطبلات الأعيان والأمراء مما لم يسبق له مثيل قط .

الموسيقى

وتقول لنا الرواية العربية إن حب الموسيقى بدأ فى عهد « الوليد الثانى » يتطور إلى شغف مفرط ، وأضحت الأموال الطائلة تنفق من غير حساب على مشاهير المغنيين والموسيقيين الذين كان يؤتى بهم إلى البلاط من أقصى أنحاء الإمبراطورية ، فنجم عن توافد الطبقات الحقيرة إلى العاصمة لمباشرة حرفتى الرقص والغناء انحطاط الحياة الاجتماعية وإقصاء الحرائر بالتدريج .

ويقول مؤرخ مشهور[١] : « إن نظام الحريم لم يعمل به قبل خلافة « الوليد الثانى » الذى أدخل فى قصره نظام الخصيان تشبهاً بالبيزنطيين ، وقد أخذت تلك المخلوقات المنكودة الحظ منذ ذلك الحين تلعب دوراً خطيراً فى بلاط الحكام الشرقيين بصفة كونهم خداما أمناء ، وحراساً مخلصين على شرف الحريم » . وكان اقتناء الخصيان عادة شائعة عند اليونان ، بيد أن الجاحظ[٢] أشهر أدباء ذلك العصر وأحد رجال المعتزلة فى القرن الثالث الهجرى ، حمل على تلك العادة حملة شعواء بأسلوبه اللاذع ، ولكنها كانت مع ذلك قد تأصلت فى البلاط الأموى برغم سخط فقهاء المسلمين واستنكارهم .

اقتباس العوائد

كما أخذ الأمويون عن البلاط البيزنطى تلك العادة السيئة عادة اقتناء الخصيان لاستخدامهم على الأخص فى القصور ، كذلك اقتبسوا بعض العادات الاجتماعية التى كانت شائعة فى ذلك الحين بين الفرس ، ومنها شرب الخمر الذى

---

(١) فون كرامر .

(٢) هو أبو عثمان عمرو الكنانى الليثى المعروف بالجاحظ البصرى صاحب التصانيف فى كل فن ، وإليه تنسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة ، وكان تلميذ أبى إسحق إبراهيم ابن سيار البلخى ، ومن أحسن تصانيفه وأمتعها كتاب الحيوان فلقد جمع فيه كل غريبة ، وكذلك كتاب البيان والتبيين ، وكانت وفاة الجاحظ سنة خمس وخمسين ومئتين بالبصرة ، وقد نيف على ٩٠ سنة (ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٨) . (المعرب)

عم استعماله فيما بعد ، كما أخذت النساء يستطبن احتساء نوع من الشراب المبرد بالثلج ؛ ولا ننسى أنه لا يزال يباع إلى اليوم فى أسواق دمشق و بيروت باسم « الجلاب » . و يقول لنا المؤرخون : إن نساء الأسرة المالكة أولعن بهذا الشراب ولعاً شديداً ، ورحن يتساقينه فى كؤوس من الذهب والبلور ، وقد اشتهرت أم حليم « زوج هشام » خاصة بشغفها بهذا الشراب .

أما يزيد الأول ثانى الخلفاء الأمويين فكان يعاقر الخمر كل يوم كأنه يقلد بذلك بعض ملوك الفرس القدماء ، ولهذا لم يكن ليرى فى صحوه إلا قليلا ، كذلك كان « عبد الملك » يحتسيها بإفراط مدهش مرة فى الشهر ، غير أنه كان يتداوى بجرعة منها فى صباح اليوم التالى كما كان يفعل ملوك الرومان لكى تذهب عنه خمارها ودوارها .

أما الوليد الأول فكان يعاقرها مرة كل يومين فى حين كان أخوه يزيد الثانى وابن أخيه الوليد الثانى يحتسيانها على الدوام . وثمة ثلاثة [1] من الخلفاء الأمويين لم يشربوا الخمر قط وهم : عمر الثانى ، وهشام ، و يزيد الثالث . أما مجالس الشراب فى قصر الخلافة وفى قصور العظماء فكانت تصحبها الموسيقى والغناء فيزيدان فى روعتها و بهجتها . كذلك جرت العادة فى تلك الليالى أن يضرب ستار شفاف فى وسط البهو لإخفاء شخص الخليفة والجلساء الذين كانوا يشاربونه عن أعين المغنيين والموسيقيين وسائر الندماء .

النساء

ذكرنا فيما سبق أن عادة عزل النساء التى كانت شائعة عند الفرس من أقدم الأزمنة أخذت تتفشى بين الطبقات الإسلامية فى عهد « الوليد الثانى » وذلك أن أخلاقه وطباعه شجعتا على انتشار تلك العادة ، كما أعان الاعتزاز بالكرامة والتمسك بالتقليد على نقلها إلى تربة الشام المتجانسة ، ونستطيع أن نقول إن استهتار هذا الخليفة بالتقاليد الاجتماعية حدا بالناس إلى الاحتياط من

---

(١) كذلك معاوية لم يشرب الخمر قط . (المعرب)

الاعتداء الخارجي ، ومثل هذه العادة إذا ما سرت بين الناس تطورت إلى تقليد مقدس ، واعتقد الجمهور بأن الأسوار والحراس أضمن لحماية الحرائر من تحليهن بنبل العاطفة وصفاء الفؤاد . ولـكن المرأة برغم تلك الظروف القاسية التي أحاطت بمركزها بقيت حتى خلافة « المتوكل » عاشر الخلفاء العباسيين تمتع بقسط وافر من الحرية ؛ إذ لم يكن الوهن البيزنطى ولا الترف الفارسى قد قضيا بعد على سذاجة ابن الصحراء وحريته ، ولهـذا كان الآباء يلقبون فى مواقف التبجيل بأسماء بناتهم الجميلات[١] ، ويفتخرون بذلك أيما افتخار ، كما كان الرجال يخوضون غمار الحروب وهم يهتفون بأسماء أخواتهم أو حبائبهم ؛ وكانت الفتيات المثقفات يجالسن الرجال دون أن يظهر عليهن أى ارتبـاك أو إحساس غير شريف[٢] ، كذلك كن يستقبلن الأضياف دون أدنى خجل أو وجل . وعلى الجملة كن يعرفن قيمة أنفسهن ، ولهذا كان المجتمع يقدرهن حق قدرهن . وإنا لنجد الأدب العربى زاخراً بأخبار مثل هؤلاء النساء ، ومصداقاً لذلك نسوق الأمثلة التالية . قال كاتب[٣] مشهور : إنى حججت فلما صدرت عن الحج تيممت منهلا من المناهل وإذا ببيت فى ناحية من الطريق فأنخت بفنائه . فقلت : أأنزل ؟ فقالت ربة البيت : نعم . فقلت : وأدخل ؟ فقالت : أجل . فدخلت فإذا جارية أحسن من الشمس ، فجلست أحدثها وكأن الدر ينثر من فيها ، فبينا أنا كذلك إذ خرجت عجوز مؤتزرة بعباءة ، مشتملة بأخرى ، فقالت : يا عبد الله ! ما جلوسك ههنا عند هذا الغزال النجدى ، الذى لا تأمن جماله ، ولا ترجو نواله ؟ فقالت لها الجارية : « أى جدة ! دعيه يتعلل »[٤] .

الخرقاء

---

(١) كأبى سلمى وأبى ليلى الخ .

(٢) وكأن الشريف الرضى عنى هذه الحال بقوله :

عفافى من دون التقية زاجر وصوتك من دون الرقيب رقيب

(المعرب)

(٣) هو محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى فى كتاب اعتلال القلوب عن محمد بن سلمى الضبى . (٤) ابن خلـكان ص١٤١ ج ٢ .

الخرقاء

وقال « العينى » فى معرض الكلام عن النساء : « كنت أنزل على بعض العرب إذا حججت . فقال لى : هل لك إلى أن أريك خرقاء صاحبة ذى الرمة فقلت : إن فعلت فقد بررت ؛ فتوجهنا جميعاً نريدها ، فعدل بى عن الطريق قدر ميل ، ثم أتينا أبيات شعر فاستفتح بيتاً ففتح له ، وخرجت امرأة طويلة حسنة بها قوة فسلمت وجلست فتحادثنا ساعة ، ثم قالت لى : هل حججت قط ؟ قلت : لا ، غير مرة . قالت : فما منعك من زيارتى ؟ أما علمت أنى منسك من مناسك الحج . قلت : وكيف ذاك ؟ قالت : أما سمعت قول ذى الرمة :

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام ؟ »

الست سكينة

كذلك ذاع فى أوائل العهد الأموى اسم السيدة « سكينة » بنت الحسين شهيد كربلاء ؛ وكانت سيدة نساء عصرها ومن أجمل النساء وأظرفهن وأحسنهن أخلاقاً ، وكان منزلها بمثابة ندوة يقصدها الشعراء والفقهاء والعلماء والفضلاء على مختلف طبقاتهم ، وكانت تلك المجتمعات تتألق وتزدهر خاصة بتعليقاتها السديدة ومأثور كلامها الفياض . وكانت أم البنين زوج الوليد الأول وأخت «عمر الثانى» تعد من أشهر نساء عصرها ، وكان لها على زوجها نفوذ لا يقاوم استعملته لخير الشعب ورفاهيته ، والنصيحة التى ألقتها على « الحجاج » مشهورة فى التاريخ ؛ إذ يقال إنه وفد ذات مرة على الوليد وأشار عليه بالتخلص من نفوذها ، فلما بلغها نصحه طلبت إلى الخليفة أن يوعز إليه بالتسليم عليها ؛ ولما مضى الحجاج إلى جناحها الخاص أهملت شأنه طويلا ثم أذنت له بعد أن كاد ييأس من المثول بين يديها ، وسألته عن النصح الذى أسداه إلى الخليفة ، فلما أراد أن يتملص من الجواب ألقت عليه درساً بليغاً لم ينسه قط طوال سنى حياته ، وسردت عليه جميع أعماله وصارحته بقولها : إنه هو الذى حرض أمير المؤمنين على ارتكاب تلك الأعمال القاسية التى ذهبت ضحيتها نخبة من أعظم المؤمنين شأناً ، وأبعدهم أثراً

وإنه وإن كان نابغة الأسرة إلا أن نبوغه يمتاز بالشر فحسب ، ثم نعت عليه جبنه وأمرت وصيفاتها بطرده من حضرتها .

وكانت النساء العربيات مولعات بالشعر واستظهاره كما نبغ الكثيرات منهن فى نظم القصائد الرائعة التى تمتاز بصدق الشعور ، وجزالة النسج ، وعفة المقال .

الصالحة رابعة العدوية

كذلك كانت « أم الخير » بنت إسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عتيك الصالحة المشهورة من شهيرات عصرها ، وأخبارها فى الصلاح والعبادة معروفة ؛ وقد توفيت عام ١٣٥ هـ ودفنت بظاهر القدس .

الملابس

لم تتطور ملابس الرجال فى ذلك العصر تطوراً يذكر ، وإن كانت تختلف من حيث الجودة والتفصيل باختلاف مهنة الشخص ودرجته الاجتماعية . فكان لباس العالم الدينى أو الكاتب مثلا يختلف اختلافاً بيناً عن بزة الجندى . وكانت ثمة ملابس خاصة لركوب الخيل ، وهى عبارة عن سروال وسترة يستعاض بهما عن الملابس الفضفاضة العادية .

ومن السهولة بمكان أن يتخيل المرء تلك المناظر الخلابة والصور الفاتنة التى كانت تزخر بها شوارع دمشق عند ما كانت مقراً للخلافة ومركزاً للجيش وسوقاً للتجارة .

ولو قدر لنا أن نعيش فى ذلك العصر وجسنا خلال شوارع العاصمة لرأينا أعيان الأمة ورجال الدولة متشحين بحللهم الغالية وقد امتطوا الجياد المطهمة يحف بهم الخدم والعبيد ، وهم مسرعون إلى بلاط الخليفة ، ولشاهدنا شيوخ البدو بملابسهم الجذابة ، والأعراب الذين لوحت وجوههم أشعة الشمس اللافحة ، متشحين بعباءاتهم الفضفاضة وعلى رؤوسهم العقال والكوفية المخططة ذات اللون الأحمر أو الأصفر ، يحدقون بأبصارهم مسبوهين من روعة المدينة وضوضائها ، ولأبصرنا جموع القرويين الشاميين فى أثوابهم ذات اللون القرمزى وسراويلهم

الواسعة ونعالهم الحمراء المدببة ، وعماماتهم ذات اللون الأبيض أو الأزرق ، وهم يسوقون عدداً من البغال والحمير والجمال مثقلة بمحصولات القرى ؛ كذلك كنا نلاقى الهاشميين ذوى الملامح الجذابة الأرستقراطية متشحين بقفاطينهم الطويلة يسيرون بخطا متزنة وهم يرمقون هـذه الأبهة والفخامة بقلوب مفعمة بالأنفة والحسد ، ولرأينا النساء يسرن بخطا وئيدة إلى الأسواق وهن مرتديات أغلى الحلل وأنخر الثياب .

وعلى الجملة كانت تلك المناظر تؤلف فى مجموعها صورة حية جذابة تدخل على القلوب منتهى درجات الغبطة والسرور !

الطعام

وفى تلك الأثناء بدأ يتردد ذكر الملاعق والمناديل التى كانوا يضعونها أثناء الطعام على صدورهم ، أو يدسون طرفها فى القفطان كما هى العادة فى معظم أنحاء القارة الأوربية ؛ وكانت الملاعق على نوعين : خشبية ذات الأيدى الطويلة ، وخزفية وكانت تستورد من الصين .

وكان العرب فى الصباح الباكر يتعللون بالصبوح ، وهو طعام مؤلف من العسل والحليب ، أو من الحليب والسكر وحده ؛ أما الفطور فكان أفراد الأسرة يتناولونه عند شروق الشمس فى إحدى الغرف الداخلية ، و إذا ما انتصف النهار اجتمع أفراد الأسرة ثانية فى غرفة الاستقبال لتناول الغداء ؛ وقد جرت العادة أن تدعى الأضياف وتولم المآدب فى مثل ذلك الوقت من النهار ؛ أما العشاء فكانوا يتناولونه بعد صلاة العصر على مائدة كانت تغطى بالقماش الأبيض وتصف عليها أكواب اللبن أو الماء ، ثم يقدم إليهـم صحاف الشواء وأطباق الخضر والفاكهة ، فإذا ما أصابوا كفايتهم انتقلوا إلى غرفة أخرى لأداء فريضة الصلاة وتزجية المساء بأطيب الأحاديث وأشهر السمر . ومما يلاحظ أن القوم فى تلك الأثناء أفرطوا كثيراً فى منع اختلاط الجنسين نظراً لازدياد التأثير البيزنطى والفارسى على الحياة الاجتماعية .

الرقيق

ومن الصعب أن نطلق كلمة رقيق على من يجوز تسميتهم كذلك فى العالم الإسلامى ، إذ أن النبى (ص) نهى عن استعباد الناس والمتاجرة بهم ، كما منع إقصاء الأطفال عن والديهم ، وأمر بإطعامهم وكسائهم ومعاملتهم بالحسنى ، وأجاز افتداءهم وتحرير رقابهم بكل ما وسعوا ؛ ولكن الأرقاء بالرغم من كل هذه الرعاية أثروا تأثيراً سيئاً على الحياة الاجتماعية الإسلامية ، إذ ساعدوا على انحطاط مستوى الحياة الفكرية والأخلاقية . كذلك بدأت تظهر فى ذلك الحين ظاهرة سيئة أخرى ، وهى أن العرب المستوطنين فى البلاد الأجنبية راحوا يتزوجون من الشعوب المغلوبة ، ولا يخفى ما كان لهذا التزاوج من التأثير على مستقبل الشعب ، إذ أن المرأة التى تنتمى إلى الجنس الراقى كالقوط والفرنج والفرس مثلا كانت تنجب نسلا راقياً ، فى حين كانت المرأة التى تنتسب إلى شعب منحط كالأنوبى تأتى بنسل منحط مثلها .

الآداب

أما الأدب فى العصر الأموى فلم ينل من التشجيع ما نالته الموسيقى والفنون والشعر ؛ ومع أن القضاة والعلماء لاقوا فى عهد « عمر الثانى » التشجيع والتقدير الكافيين ، إلا أن الخلفاء الأمويين لم يشتهر أحد منهم فى العلم أو الأدب غير خالد[1] بن يزيد الأول .

٦٦١ — ٧٥٠
الفرق المذهبية والفلسفية

كذلك لم يظهر مذهب معين فى عهد الدولة الأموية كما ظهر فى العصر العباسى ، ولم تكن قد تألفت بعد هيئة من العلماء الذين يتمكنون — فى سبيل مصالحهم الشخصية — من إجبار أولى الأمر على الامتثال لفتواهم ؛ أما الانقسام فلم يكن يعدو الآراء السياسية المتسمة بنزعة الأسرة الحاكمة ، كذلك لم يكن مدار الخلاف بين الفرق والتشيع سوى الإمامة أو الزعامة الروحية فى الإسلام ، إذ كان الأموى يدعى بأن الإمامة مقتصرة على أسرته ، بينما متشيعو آل البيت

---

(١) كان عالماً فى الطب والكيمياء وله عدة تآليف فى هذه العلوم . وقد توفى عام ٨٥ هـ (٧٠٤ م) .

يرونها حقا من حقوقهم ، فى حين كان العباسيون يدعون بوجوب حصرها فيهم والخوارج يذهبون إلى أنها اختيار من الأمة دون مراعاة للنسب . وقد كان الأمويون يتمسكون بمبدأ أساسى ، لا يحيدون عنــه قيد أنملة وهو بغض علىّ وأولاده . ولم تتخذ الآراء الدينية اتجاهاً فلسفيا إلا فى العهد الفاطمى . ولا مشاحة أن انتشار العلم فى ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاله ، فأصبحت المناقشات الفلسفية عامة فى كل حاضرة من حواضر العالم الإسلامى . ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الذى تزعم تلك الحركة هو حفيد « على بن أبى طالب » المسمى بالإمام « جعفر » والملقب « بالصادق » ، وهو رجل رحب أفق التفكير ، بعيد أغوار العقل ، ملم كل الإلمـام بعلوم عصره ، ويعتبر فى الواقع أول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة فى الإسـلام ، ولم يكن يحضر حلقته العلمية أولئك الذين أصبحوا فيما بعـد مؤسسى[1] المذاهب الفقهية فحسب ، بل كان يحضرها أيضاً طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الأنحاء القاصية ، ويعد الإمام « حسن البصرى » [2] مؤسس المدرسة الفلسفية فى مدينة البصرة ، وواصل بن عطاء[3] واضع مذهب المعتزلة من تلاميذه الذين نهلوا من معين مدرسته الفياض ؛ وقد عرف واصل والإمام العلوى بأنهما يعتقدان بحرية إرادة الإنسان ، كذلك كان يزيد الثالث وأخوه إبراهيم ومروان الثانى من المعتزلة . ويلاحظ أن ثلاثة من علماء دمشق : معبد الجهنى ، وغيلان الدمشقى ، وأبو يونس الأسوارى ، ذهبوا أبعد مما ذهب إليه واصل فى تأييد حرية إرادة[4] الإنسان المطلقة . أما جهم بن صفوان فكان يقول بالقدر[5] .

---

(١) كأبى حنيفة والإمام مالك .

(٢) توفى فى رجب سنة ١١٠ هـ (تشرين الأول سنة ٧٢٨) .

(٣) ولد سنة ٨٠ هـ (٦٩٩ — ٧٠٠م) وتوفى سنة ١٣١ هـ (٧٤٨ — ٧٤٩م) .

(٤) سنوفى هذا الموضوع حقه عند الكلام على المأمون .

(٥) يقول المقريزى فى الجزء الرابع من خططه : « إن أول من قال بالقدر فى الإسلام هو (معبد بن خالد الجهنى) » . (المعرب)

الفصل الخامس عشر

العباسيون

(١٣٢ — ١٥٨ هـ ٧٤٩ — ٧٧٥ م)

السفاح والمنصور

حكم السفاح — وفاته — استخلاف المنصور — صفاته — فتنة عبد الله بن على — مقتل أبى مسلم — تشييد مدينة بغداد — محمد وإبراهيم ابنا الحسن — انهزامهما ومقتلهما — غزو أسبانيا — فشل الحملة — ثورة الخزر — إغارة جيش الروم — وفاة المنصور

لقد تغيرت بقيام الدولة العباسية معالم آسيا الغربية ، وتحول مركز الحكم من الشام إلى العراق ، وأضاع الشاميون النفوذ والسلطان اللذين كانا وقفاً عليهم إلى ذلك الحين ، وتبدل مجرى التقدم والرقى من الغرب إلى الشرق ، ولكن وحدة الدولة الخلافية بالرغم من كل ذلك تقوضت دعائمها إلى الأبد ، إذ أسرعت أسبانيا التى لم تكن تعترف بسلطان العباسيين منذ تأسيسها إلى تقديم طاعتها إلى « عبد الرحمن » الأموى الذى أسس دولة ضارعت الدولة العباسية قوة وبهاء . ومع أن أفريقيا الغربيــة كانت خاضعة لنفوذ العباسيين فى أوائل عهدها ، إلا أنها أصبحت بمضى الزمن إمارة شبه مستقلة . ولا نعدو الواقع إذا قلنا إنه نجم عن تقلص حجم الإمبراطورية وانكماش أطرافها مزايا عديدة أعانت مؤسسى الدولة العباسية على تدعيم سلطانهم والنهوض بالشعب ماديا ومعنويا .

١٣٢–١٥٨هـ

وكان تسعة الخلفاء الأولون ، عدا خليفــة واحد ، مشهورين بالحنكة السياسية والكفاية الإدارية والتفانى فى توفير أسباب السعادة والرفاهية للشعب . كذلك كانوا جميعاً يجمعون إلى الصفات الحربية مؤهلات عقليــة ممتازة . ومع

أن حكم بعض الخلفاء كان يتسم بميسم الشدة والاستبداد ، إلا أن ذلك كان من خصائص العصر فى جميع أنحاء العالم ونتيجة من نتائج السياسة المرسومة للدولة . ويقول مؤرخ فرنسى مشهور : « إن حكم العباسيين الأوائل كان أعظم عهود العرب شأناً وأهمها قدراً فى الشرق ، حيث كان عصر الغزو قد عفا أثره وبدأت أشعة المدنية تنبثق فى أجواء الإمبراطورية الإسلامية » .

أبو العباس
عبد الله السفاح
١٣٢–١٣٦هـ
٧٤٩–٧٥٤م

أشرنا فيما سبق كيف بويع « أبو العباس » بالخلافة وكيف لقب بالسفاح لتنكيله بأعدائه وبطشه بكل من اشتبه فى ولائه ، وخاصة أن حياة الإنسان لم تكن لها فى ذلك العصر أية قيمة تذكر سواء فى الغرب أو فى الشرق . كذلك لم يكن للدين سلطان كبير على كبح جماح النزوات النفسية . ومع كل ما يقال عن قسوة « السفاح » فقد كان حاكما كريم الخلق ملماً بدقائق منصبه ، بعيداً عن الانغماس فى الملذات ، ولم يكن له غير زوج واحدة اسمها « أم سلمى » ملكت عليه لبه فأصبح نفوذها عليه لا يقاوم ، وعلى هذا لم يتزوج من غيرها بالرغم من عادة التسرى وتعدد الزوجات التى كانت متفشية بكثرة فى تلك الأثناء ، ويقال إنها (أى زوجته) بالرغم من فتنتها ونفوذها عليه كانت تعجز بعض الأحيان عن تهدئة ثورته النفسيه وسخطه البالغ حد الإفراط على الأمويين .

الفتن فى الشام والعراق

ولا ريب أن تلك المعاملة السيئة التى عومل بها الأمويون أثارت عطف الناس عليهم وخرج أعوانهم على « السفاح » فى دمشق وحمص وقنسرين وفلسطين والعراق . وقد جرت العادة عند إضرام نار الثورة أن يحلق الرجال لحاهم ويعلنوا عصيانهم ، بيد أن العباسيين راعوا فى قمع تلك الفتنة طرقاً سياسية لم تكن معروفة من قبل ، فألقى الثوار سلاحهم بعد أن نالوا شروطاً حسنة .

يزيد بن هبيرة

وفى تلك الأثناء كان « يزيد بن هبيرة » أمير العراق من قبل الحكومة الأموية لا يزال قابضاً على « واسط » ، غير أن « حسناً بن قحطبة » وأبا جعفر أخا السفاح وولى عهده ضيقا عليه الحصار طيلة أحد عشر شهراً استعملا فى خلالها

أروع ضروب السفك والتنكيل ، بحيث كانا يرسلان السفن الملتهبة فى النهر لكى يضرما النار فى المدينة . وتقول لنا الرواية : إن يزيداً بن هبيرة عند ما أيقن أن الدولة الأموية قد تقوضت دعائمها وتداعت أركانها كتب إلى « عبد الله بن الحسن » أحد أحفاد الإمام على يرغبه فى الدعوة لنفسه ويحرضه على جمع خصوم العباسيين حوله . غير أن رسوله لم يعد إليه فى الوقت المضروب ، ولما يئس من المقاومة ولا سيما أن اليمانيين فى واسط كانوا قد انحازوا إلى السفاح ، عرض طاعته فى الحال على أبى جعفر مشترطاً الأمان لنفسه وأتباعه وأمواله . ومما يجب أن نشير إليه بهذا الصدد أن أبا جعفر كان معتزماً الوفاء له بالعهد ، غير أن السفاح كان خاضعاً لنفوذ أبى مسلم الذى كان يوجس خيفة من ابن هبيرة نظراً لما كان يتمتع به من كثرة الأتباع وواسع النفوذ بين عشيرته ، ولهذا نصح للسفاح أن يوعز بقتله ، فكتب هذا إلى أخيه يحرضه على تنفيذ الطلب ، بيد أن أباجعفر أبى ذلك فى مبدأ الأمر . ولكنه لم يلبث إزاء إلحاح أخيه وتشدد أبى مسلم أن خضع لهما وأرسل من فتك به وبأكبر أبنائه وبعض أصحابه ، وبهذا اشتد بأس السفاح وأصبح سيد آسيا ومصر دون منازع ، كما قدمت إليه أفريقيا الغربية طاعتها . وتقول لنا الرواية العربية إن الخليفة راعى فى توزيع مناصب الدولة ألا يعين فيها إلا أفراد أسرته وأولئك الذين امتازوا بخدماتهم الجليلة للقضية العباسية ؛ فاستعمل أبا جعفر على العراق وأرمنيا وأذربيجان ، وولى عمه « داوود بن على » الحجاز واليمن واليمامة ، كما ولى « عبد الله بن على » سوريا ، وسليمان بن على البصرة وملحقاتها ، كذلك أسند إلى أبى مسلم ولاية خراسان ، وإلى « أبى عون » مصر ، وعين « خالداً بن برمك » وزيراً لبيت المال ، واستوزر « أبا سلمة » صاحب الدعوة العباسية . وقد أثار النفوذ الذى كان يتمتع به « أبو سلمة » على الخليفة حسد أبى مسلم الخراسانى الذى دبر فى الحال مكيدة لاغتياله ، وفى ذات

ليلة بينما كان عائداً من قصر السفاح هجمت عليه جماعة من رجال أبى مسلم وفتكت به ثم عزوا قتله إلى الخوارج .

غزو الجيش البيزنطى

وبرغم الإجراءات التى اتخذها الخليفة الجديد لبسط سلطانه لم تتوطد دعائم الإمبراطورية وتتسق شؤونها فى ذلك الحين ، الأمر الذى شجع الجيوش البيزنطية على الهجوم على الحدود الإسلامية ، وراحت تتوغل فى الأصقاع الشمالية وهى تمعن فى السكان الآمنين قتلا وسلباً ، وفى المدن تخريباً وتدميراً .

وفاة السفاح ١٣٦هـ ٧٥٤م

وفى سنة ١٣٦ هـ توفى « السفاح » فى الأنبار[1] ، دون أن يعقب غير ابن اسمه « أحمد » وبنت اسمها « ريطة » تزوجت فيما بعد من ابن عمها « محمد المهدى » . وكان السفاح قبل وفاته قد أسند ولاية العهد إلى أخيه أبى جعفر ثم لابن أخيه « عيسى » بالتعاقب . وتحدثنا الرواية أن « أبا جعفر » كان وقتئذ يقوم بفريضة الحج فى مكة ، فأخذ له عمه « عيسى بن على » البيعة طبقاً للوصية .

خلافة أبى جعفر المنصور ١٣٦هـ ٧٥٤م

ومع أن السفاح كان أول خلفاء البيت العباسى إلا أن « أبا جعفر » يعد فى الواقع المؤسس الحقيقى لتلك الدولة ومشيد مجدها ، كما يعزى إليه تمكن الأسرة العباسية من الحكم الذى زاولته طوال هذه القرون والنفوذ الذى تمتعت به حتى بعد أن فقدت سلطتها الزمنية . ولا مرية أنه هو الذى وضع أساس العقيدة القائلة بوجوب تقديس مقام الخلافة وإعلاء شأنها ، حتى أصبحت تلك السياسة بعد مدة وجيزة مصدر قوتها وعماد نفوذها ، وقد كان فوق ذلك ملماً بطبائع الناس فعمل طوال مدة حكمه على تقوية هذا المبدأ ، كما جعل الخلافة تتخذ لنفسها

---

(١) هى فيروز سابور بينها وبين بغداد عشر فراسخ على نهر الفرات . وقال ابن الأثير « بنيت الحيرة والانبار أيام بختنصر ، وفتحها خالد بن الوليد فى خلافة أبى بكر ، وكانت منزلا لأبى العباس السفاح ، انتقل إليها من الحيرة سنة ١٣٤ هـ ومنها كمال الدين الأنبارى ، من أئمة الأدب واللغة والتراجم » .

ولم يعرف قط المحل الذى دفن فيه السفاح . إذ كان العباسيون يخشون المعاملة التى عاملوا بها الأمويين ولهذا أخفوا قبورهم . وكان المستنصر أول خليفة عباسى شيد له مرقداً معروفاً .

بالتدريج مظهراً رائعاً وكياناً ثابتاً ساعد الخلفاء العباسيين فيما بعد على تدعيم سلطانهم ، وتأليف هيئة قوية من العلماء الذين يتفانون فى شد أزرهم ويخلصون لهم كل الإخلاص . وفى الواقع لم يكن حجر الزاوية لتلك السياسة البعيدة المدى غير الفكرة المقدسة اللازمة لمبدأ الإجماع . ويمكن القول أن باعتلاء المنصور عرش الخلافة بدأ عصر جديد فى تاريخ الأمة العربية تألق فى سمائه أنجم عدة من الخلفاء ، الذين أصبحت أسماؤهم علماً من أعلام التاريخ فى آسيا ؛ ولامشاحة أن أخلاف « العباس » بذلوا قصارى جهودهم فى إصلاح حالة الشعب وكسب مودته لما قاموا به من المشاريع العمرانية ، كتشييد المدن وتعبيد الطرق وشق الجداول والأنهار ، وحفر الترع والآبار ، وبناء المؤسسات العلمية ودور الإحسان وتكريم الأدباء والعلماء ، وتشجيع التجارة والحرف على أنواعها والإقلاع عن أعمال الغزو . ويقول لنا المؤرخ المشهور سويلو : « إن الخلفاء العباسيين بالكف عن الغزو سموا على مستوى عصرهم ، إذ بدأوا يدركون مزايا المدنية وفوائد الحضارة » . والحق يقال إن خلفاء بغداد تذرعوا بجميع الوسائل التى من شأنها أن تعمل على ترقية الشعب من جميع النواحى وتنظيم الإدارة ونشر العلم وربط جميع أنحاء الإمبراطورية برباط التجارة الوثيق .

أخلاق أبى جعفر

كانت أخلاق « أبى جعفر » مزيجاً غريباً من الخير والشر ، فهو كسياسى وإدارى لا يشق له غبار ، فضلا عن أنه لم يكن ليقل عن أشهر ملوك ذلك العصر فى بعد النظر والاهتمام برفاهية الشعب ؛ وقد كان برا رحيما بأولاده ، ولكنه كان من الجهة الأخرى غادراً خداعا ، لا يتردد البتة فى سفك الدماء ، وتعزى قسوته إلى حقده البالغ حد الإفراط ، فى حين كان خلفه لا يفتك بأحد إلا بعد كثير من التروى والإمعان . وعلى الجملة كان أبو جعفر سادراً فى بطشه ، مستهتراً فى فتكه ، وتعتبر معاملته لأولاد « على » صفحة من أسوأ صفحات التاريخ العباسى . ويقول السيوطى : « كان المنصور أول من أحدث ثغرة

الخلاف بين العباسيين والعلويين بعد أن كانا كتلة واحدة » .

ثورة عبد الله ابن على

وعند ما توفى السفاح أسرع « المنصور » إلى الكوفة ، ويقال إنه لم يكد يتبوأ كرسى الخلافة حتى شق عمه « عبد الله بن على » عامل الشام عصا الطاعة وادعى بالبيعة لنفسه ، فأنفذ إليه المنصور جيشاً كبيراً على رأسه أبو مسلم الخراسانى ، ودارت بين الفريقين بالقرب من نصيبين موقعة طاحنة أسفرت عن هزيمة عبد الله وفراره مع أهله إلى أخيه سليمان بن على أمير البصرة ، الذى آواهم عنده حتى عزل من منصبه ، وعندئذ وقعوا فى قبضة الخليفة الذى أمر بحبسهم فى قصر بالقرب من الهاشمية [1] ؛ بيد أن بطل موقعة « الزاب » كان مع ذلك يعد عنصراً خطراً على العرش ، فلم يسمح له بالبقاء على مقربة من العاصمة ، ولهذا شيدت لهم دار جعل أساسها على الملح وحبسوا فيها ، فلما هطلت الأمطار بغزارة تقوضت دعائمها ، وتهدمت على نزلائها التعساء فقتلوا لتوهم ، وهو مصير كانوا يستحقونه نظراً للقسوة البالغة التى عاملوا بها الأمويين ، فشربوا من الكأس التى سقوا بها الناس دهاقا .

وبعد موقعة نصيبين رغب أبو مسلم فى العودة إلى مقر حكمه فى «خراسان» حيث كان يستطيع بنفوذه أن يهدد الخليفة ويؤلب عليه الناس نظراً لكثرة أتباعه الذين كانوا يؤمنون بنبوته ، وعلى هذا كان يتمكن بكلمة واحدة أن يحطم الدولة العباسية ويسقطها من شاهق عزها . ويقال إنه لما وفد عليه رسول الخليفة ليحصى الغنائم ثار ثائره ، وتفوه بكلمات لا يليق بمثله أن يتفوه بها ، فلم يسع الخليفة إزاء هذا التصرف إلا أن يعتصم بالصبر ، ويعقد النية على التخلص منه ؛ ولأجل أن يتمكن من تنفيذ خطته راح يتذرع بكل الوسائل ليحول دون سفره إلى مقر حكمه ومعقل أصحابه الأمناء ، وكتب إليه كتابا يوليه فيه الشام وملحقاتها ؛ ولكن « أبا مسلم » كان من الفطنة والدهاء بحيث لم يؤخذ بتلك

(١) مدينة شيدها السفاح على مقربة الكوفة .

الحيلة ، فمضى صوب خراسان على رأس الجيش الذى سحق به « عبد الله بن على » ، وما أن أدرك المنصور أن لا طاقة له بمعارضته حتى التجأ إلى سلاحه المعهود ؛ ولا ننسى بهذا الصدد أن الإنسان مهما أوتى من المهارة فى استخدام أنواع الحيل ، ومهما اشتهر بتدبيرها ونصب شباكها ، فمن اليسير جدا أن يقع هو نفسه فريسة لمثل تلك الأحابيل التى افتنّ فى نصبها للآخرين . وهكذا راح المنصور يفرط له فى قطع العهود ، ويغريه بشتى الوعود لكى يحمله على الشخوص إلى العاصمة فى طريقه إلى خراسان ، كذلك كان قد أمر رجال الحاشية وموظفى البلاط أن يستقبلوه استقبالا رائعاً ، ويعاملوه بكل حفاوة واحترام ، جديرين بالملوك والأمراء .

مقتل أبى مسلم الخراسانى ١٣٧ هجرية

وفى ذات يوم سيئ الطالع بينما كان « أبو مسلم » فى حضرة الخليفة خرج عليه جماعة وفتكوا به بعد أن نزعوا السلاح من أتباعه . وكان « المنصور » يرى أن سلطانه طالما كان « أبو مسلم » على قيد الحياة مهدداً بالزوال ، ولكنه شعر بعد مقتل ذلك الخصم العنيد أنه أصبح الحاكم الفعلى للبلاد ، فوجه التفاته إلى اختيار موقع يشيد عليه حاضرة الخلافة . وبديهى أنه لم يكن لينقص دمشق روعة الجاذبية التى تجذب إليها العباسيين فحسب ، بل كانت عرضة أيضاً لهجمات الأعداء . أما مدينتا البصرة والكوفة فكان أهلهما معروفين بتقلب الأهواء وعدم الاستقرار ، ولهذا انصرف عن اتخاذ إحداهما مركزاً للحكم ؛ وبعد أن تحرى بنفسه كثيراً من الأماكن اختار الموقع الذى لا تزال بغداد تحتله إلى اليوم لحسن ملاءمته ، ويقال إنها كانت مضيفاً لكسرى أنوشروان ملك الفرس ؛ ومع أنها كانت قد فقدت شهرتها بزوال دولة ملوكها القدماء ، إلا أن جمال موقعها استرعى انتباه المنصور فبنى فوق أطلالها مدينة[1] الخلفاء العباسيين .

تأسيس بغداد

(١) قال الخطيب البغدادى : « لم يكن لبغداد فى الدنيا نظير فى جلالة قدرها ، وفخامة أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها ، وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها ، وسعة =

بغداد

اختطت بغداد ، أو مدينة المنصور ، على ضفة دجلة الغربية ؛ ولكن ولى العهد أنشأ مدينة أخرى على ضفة النهر الشرقية وسماها باسمه « المهدية » وأضحت تضارع المنصورية المشهورة بهاء وفخامة .

كانت « بغداد » فى زمن عظمتها وازدهارها — قبل إغارة جنكيزخان الذى أعمل فيها معاول التخريب والتدمير — أعظم قاعدة ملكية عرفها التاريخ فاختطت على شكل دائرة يحيط بها سور فخم ، وابتنى فى وسطها قصر منيف الذرى ومسجد جامع ، كما شيدت خلف ساحة الاستعراض دور كبار الضباط وموظفى الدولة ، وفتحت شوارع رحبة بعرض لا يقل عن الأربعين ذراعاً . ولما كانت الأسواق تعتبر وقتئذ مثابة للأشرار والمشبوهين ، فقد شيدت خارجها للمحافظة على الأمن العام ، ولكن الحكومة مع ذلك سمحت بفتح بعض الحوانيت فى المنعطفات تحت مراقبة الشرطة ؛ كما شيدت الثكنات على الضفة الشرقية من النهر وقسمتها إلى ثلاثة أقسام : للجنود المضرية ، واليمانية ، والخراسانية . وأنشأت فى كل جانب من جوانب المدينة عدة أبواب تعلوها الأبراج الشامخة التى يقوم على حراستها جنود أشداء آناء الليل وأطراف النهار ، على أن بناء المدينة لم يتم إلا فى سنة ١٥٠ هـ . ويقول المؤرخون : إنه وقعت فى تلك الأثناء عدة حوادث انتهت جميعها لصالح الخليفة ، إذ أن مقتل أبى مسلم أثار سخط أتباعه[1] فى خراسان فشقوا عصا الطاعة ، ولكنهم منوا بشر هزيمة ، كذلك

= أطوارها ، وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها ومساجدها وحماماتها ، وخاناتها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وبرد ظلالها وأفيائها ، واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ... وأكثر ما كانت عمارة وأهلا فى أيام الرشيد ، إذ الدنيا قارة المضاجع ، دارة المراضع ، خصيبة المواقع ، موردة المشارع » .
(المعرب)

(١) لما نمى قتل أبى مسلم إلى خراسان وغيرها من الجبال ، اضطرمت الخرمية وهى الطائفة التى تدعى بالمسلمية القائلة بأبى مسلم وإمامته وقد تنازعوا فى ذلك بعد وفاته ، فمنهم من رأى أنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيهم عدلا ورحمة ، وثمة فرقة أخرى قطعت بموته وقالت بإمامة ابنته فاطمة وهؤلاء يدعون الفاطمية .

(١٣٢ — ١٥٨ هـ)

أضرم الراوندية الذين كانوا يعتقدون بحلول الإله فى الخلفاء العباسيين نار الثورة فى الهاشمية ، وكادوا يقتلون الخليفة نفسه لولا أنه قمع حركتهم بشدة وحزم جديرين بالإعجاب ، وراح يطهر المدينة من تلك العناصر الغارقة فى دياجير الجهالة والخرافات ؛ ثم تفرغ إلى محاربة الجيش البيزنطى ، وبعد معركة دموية هائلة دارت رحاها بين الفريقين ، أرغم إمبراطور القسطنطينية على عقد معاهدة صلح لمدة سبع سنين ؛ وعندئذ وجه نشاطه إلى إصلاح ما أفسده المغيرون ، وقام بتعمير المدن الخربة وترميم الحصون المتهدمة ، وزار بنفسه جميع تلك المواقع ، وأرسل « بالحسن بن قحطبة » على رأس جيش كبير إلى كبيدوكيا ، وأمر بإعادة تشييد ملطية[١] والمصيصة وبعض المدن الأخرى ، كما أنشأ فيها الحاميات وابتنى الحصون فى كلوديا وبعض المراكز العسكرية الأخرى صداً لهجمات الجيوش البيزنطية .

إغارة الجيش البيزنطى

(٧٤٩ — ٧٧٥ م)

ضم طبرستان إلى الامبراطورية العربية فى سنة ١٤٨ هـ

كان أهل طبرستان الجبلية الواقعة على الجنوب الغربى من بحر قزوين لا يزالون باقين على دينهم القديم ، وكان يحكمهم رؤساء من بنى جلدتهم رغم كونهم خاضعين للإمبراطورية العربية ، ولكنهم ثاروا فجأة على العرب المستوطنين وفتكوا بعدد غير قليل منهم ، وفى الحال أنفذ الخليفة إليهم جيشاً كثيفاً هزمهم ونكل برؤسائهم . وألحق طبرستان وكيلان نهائيا بالدولة العباسية . ولم يكد يتم للخليفة هذا النصر حتى اجتاح أهل الديلم[٢] حدود الدولة العربية وقد كان هؤلاء يدينون بالمانوية القديمة ويتمتعون بشبه استقلال ذاتى ، فنكلت بهم الجيوش الإسلامية شر تنكيل وأزاحتهم إلى بلادهم ، كما شيدت مراكز عسكرية على الحدود منعاً لوقوع مثل هذا الغزو فى المستقبل . وفى سنة ١٤٣ هـ أجرى الخليفة حركة تنقلات واسعة النطاق بين العمال والأمراء ، كما أوجد نظاماً جديداً

---

(١) هى مدينة من بلاد الثغور الرومية ، ومنها أبو فرج الملطى المؤرخ المحقق والملقب بابن العبرى . (المعرب)

(٢) هؤلاء يسكنون المفاوز الجبلية فى شمالى كيلان غربى بحر قزوين .

خاصاً باستخدام المكاتبين الذين كانوا يتلقفون الأخبار ويقدمونها إلى الحكومة المركزية ، وأسس دائرة خاصة للاستخبارات لا تقل شأناً عن مثيلاتها فى الحكومات العصرية ، ومع أن تلك الإدارة كانت تساعد الحكام على فرض رقابة شديدة على حركات المشبوهين واكتشاف الجمعيات السرية التى تعمل فى الخفاء لقلب نظام الحكم إلا أنها كانت من الجهة الأخرى تنشر الرعب فى قلوب السكان .

(١٤٤ هـ
٧٦١ م)

قد وصلنا الآن إلى صفحة من أروع صفحات هذا الخليفة المشهور فتبين لنا قسوة قلبه وتجرد طبعه من الرحمة والحنان ؛ ولكى نفهم الحادثات المتعاقبة نرى من الضرورى أن نلقى نظرة عجلى على المكانة السامية التى كان العلويون يحتلونها فى قلوب الناس فى تلك الآونة .

كان « آل الحسن » يحيون حياة العزلة والانقطاع فلم يساهموا إلى ذلك الحين فى الأمور السياسية ، كما أنهم برغم ما لاقوه من سوء المعاملة لم يحاولوا قط الخروج على السلطة الحاكمة ؛ كذلك عاش أحفاد على الثانى ابن الحسين حياة أكثر عزلة وأشد انقطاعاً ، قاصرين همهم على حلبة الأدب والفلسفة مترفعين عن الشغب ديدن بنى عمومتهم . والمعروف أن هشاماً والوليد الثانى كانا قد أنزلا بيزيد وابنه صنوف العذاب وظلا بهما حتى شقا عصا الطاعة وسقطا صرعاً فى ميدان القتال ، غير أن أحفاد الحسن والحسين ظلوا ساكنين بالمدينة يتعيشون من دخلهم الضئيل علاوة على ما كانوا يصيبونه من التجارة وأجور التدريس ، ولكنهم برغم رقة حالهم وخصاصتهم كانوا يحتلون مكانة سامية فى الهيئة الاجتماعية ، وكان يعيش معهم فى المدينة أحفاد الخلفاء الراشدين الثلاث وأحفاد الزبير وكبار الصحابة الأولين . وكان الجميع يكنون فى أفئدتهم لأحفاد « على » أخلص الحب وأصدق الوفاء ؛ غير أن ذلك النفوذ الذى كانوا يتمتعون به وذلك الاحترام الذى كانوا يلاقونه عند مواطنيهم أثارا شكوك « المنصور » وارتيابه فى ولائهم لعرش الخلافة ، كما زاد فى مخاوفه انهيار صرح الدولة الأموية وسقوطها

السريع من شاهق عزها ، نخشى أن يؤدى به التساهل وعدم الاكتراث إلى نفس المصير الذى آلت إليه الدولة الأموية . ولهذا نراه يلتجئ إلى التجسس لكى يقف بنفسه على مايحاك ضده من المؤامرات ، فيوفد جواسيسه إلى العلويين لكى يختلطوا بهم ويشجعوهم على الإفضاء إليهم بمكنون صدورهم ؛ ولكننا مع ذلك نستطيع أن نؤكد أن تلك الشكوك لم تكن وحدها الباعث على اضطهادهم ، إذ ثمة حادثة أخرى وقعت قبيل تأسيس الدولة العباسية كان لها أبلغ الأثر فى تلك المعاملة السيئة التى عاملهم بها ، وهى أن آل البيت لما رأوا أن الخلافة الأموية تتردى سراعاً فى دركات التدهور والانحلال عقدوا اجتماعاً خطيراً فى المدينة للبحث فى مصير الإمبراطورية العربية . وكان من جملة الحاضرين « المنصور »[١] نفسه ومعظم رجال البيت الهاشمى ، وقد أجمع هؤلاء جميعاً على مبايعة « محمد »[٢] حفيد الحسن برغم وجود أبيه على قيد الحياة ، ولقب بذى النفس الزكية . وقد سمى كذلك لسمو فكره وزهده ونسكه ، ويعزى إجماعهم على مبايعته إلى كفايته الممتازة ومقدرته المنقطعة النظير . ولا ننسى أن «المنصور» كان قد عاهد « محمداً » فى ذلك الاجتماع على الطاعة والولاء .

ولكن عند ما آل الحكم إلى العباسيين واعتلى المنصور كرسى الخلافة عاودته ذكرى ذلك الاجتماع الرهيب الذى أخذ ينغص عليه أسعد أيام حياته ، كذلك كان الجواسيس قد سمموا أفكاره بالوشايات والافتراءات التى كانوا يلصقونها كذبا وبهتاناً بأبناء الحسن ، فحاول أن يلقى القبض على محمد وأخيه إبراهيم ، ولكنهما لاذا بالفرار ، فلم يلبث طويلا حتى قبض على كبار أفراد الأسرة ومنهم عبد الله ، ورئيس أسرة الخليفة عثمان الملقب بمحمد العثمانى[٣]

---

(١) لم يكن الإمام جعفر الصادق من جملة من حضروا هذا الاجتماع .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن الأول بن على .

(٣) هو محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان .

وأرسلهم جميعاً مصفدين بالأغلال إلى الكوفة حيث اعتقلهم فى قصر ابن هبيرة .
ولما كان محمد العثمانى محبوبا ومحترماً من جميع أهل الشام فقد اعتبره الخليفة خطراً على العرش فأمر بجلده وقتله . أما الآخرون فقد عوملوا بكل قسوة وصرامة حتى صرحوا أنهم كانوا فى عهد الأمويين أحسن حالا وأرغد عيشا ، وقد راح الخليفة يبث العيون والأرصاد لكى يقف على مخبأ محمد و إبراهيم ، واستخدم الأعراب للبحث عنهما فى كل مكان حتى فى القرى الحقيرة والواحات النائية ، كذلك كان يعاقب كل من يشتبه بأنه يساعدهما بالجلد أو الحبس ؛ ولما يئس « محمد » من الخلاص أرسل أخاه إبراهيم إلى الأهواز والبصرة لكى يدعو الناس إلى مبايعته بعد أن اتفق الاثنان على الهجوم على البصرة والمدينة فى يوم واحد ، ولو أنهما نفذا مشروعهما فى وقت واحد لتمكنا على الأرجح من تقويض دعائم الحكم العباسى .

ولكن « محمداً » بظهوره قبيل تمام عدة أخيه مكن « المنصور » من توجيه الحملات العسكرية عليهما بالتتابع . وتقول لنا الرواية إن « محمداً » كاد فى بادئ الأمر يكتسح أمامه جيش الخليفة ، كما قبض على عامل المدينة وزجه فى السجن ، ونشر سلطانه فى الحجاز واليمن خلال بضعة أيام ، و بايعه جميع أهل تلك الأمصار ؛ وأفتى الإمام أبو حنيفة والإمام مالك مؤسسا المذهبين الفقهيين المشهورين بصحة دعوته للخلافة . ولما ألفى المنصور أن الحركة أشد خطراً مما كان يتوقع التجأ إلى خديعته المعروفة ، و بعث بكتاب إلى « ذى النفس الزكية » يعده بالأمان على نفسه وولده و إخوته ومن بايعه وتابعه ، و بإنزاله حيث شاء من البلاد ومنحه مبلغاً كبيراً من المال ؛ فكتب إليه « محمد » يعده أن دخل هو فى بيعته أن يؤمنه و يصفح عنه ثم ختم رسالته بقوله : « أى الأمانات عرضت على ، أأمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله بن على ؟ أم أمان أبى مسلم الخراسانى ؟ » فكتب إليه أبو جعفر كتاباً استعمل فيه كثيراً من المهاترة مبيناً له

٧٤٩ــ٧٧٥م

المبادئ التى تأسست عليها الدولة العباسية متجاهلا بالطبع أنه بايعه فى المدينـة ثم أخذ يشرح له أن النبى لم يعقب ذكراً ، وأن قرابة العلويين ليست إلا من البنت التى لا تحوز الميراث ، ولا تورث الإمامة ، وأن رسول الله (ص) توفى وليس من عمومته أحد حى غير « العباس » فكان هو وارثه دون غيره » . وما كاد يبعث بهذا الكتاب حتى أرسل إليه عيسى ابن أخيه على رأس جيش كبير لسحق حركته . وقبل نشوب المعركة خير محمد أتباعه بين تركه و بين الاشتراك معه فى القتال ؛ فخاف كثير منهم وتفرقوا عدا ٣٠٠ رجل منهم أصروا على البقاء معه لمواجهة جيش المنصور الجرار . فتقابلت الفئتان وأخذتا تتقاتلان حتى سقط محمد صريعا ، وفنيت جميع جنوده فدفنوا فى مقبرة الشهداء بالقرب من المدينة .

مقتل محمد ١٥ رمضان ١٤٥هـ ٧٦٢م .

أما إجراءات إبراهيم فى البصرة فكانت قد تعطلت ، نظراً لنشوب ثورة أخيه قبيل الوقت المضروب . ولـكنه برغم ذلك استطاع أن يحشد قوة كبيرة حارب بها جيش المنصور وانتصر عليه فى عدة معارك انتصاراً جعل موقف العباسيين محفوفاً بالخطر ، فصمم الخليفة على الفرار من الكوفة لولا أنه أوفد فى آخر لحظة عيسى على رأس جيش آخر لمقاتلة إبراهيم ، فسار حتى إذا وصل إلى موقع على ضفة الفرات اقتتل الطرفان قتالا شديداً أسفر عن انكسار جيش الخليفـة شر انكسار ؛ ولـكن إبراهيم بدلا من أن يتعقبهم و يمعن فى فلولهم قتلا أمر بتوقيف ملاحقتهم ، و بهذا خسر قضيته فى ساعة النصر . أما العباسيون فقـد انتهزوا فى الحال تلك الفرصة وكروا راجعين إلى مواقعهم حيث انضاف إليهم كثير من رجالهم الذين كانوا قد سقطوا على الأرض ، وأعقب هذا الحشد معركة دموية رائعة أصيب فيها إبراهيم بسهم جنـدله قتيلا ، فتمزق أتباعه شر ممزق[1] .

١٣٢ـ١٥٨هـ

مقتل إبراهيم فى ٢٤ ذوالقعده (١٤٥هـ)

وما أن حاز « المنصور » هـذا النصر حتى شهر سيف الإرهاب والتنكيل على أعدائه ، فأمر بقتل كثير من أشراف البصرة الذين كانوا قد آزروا دعوة العلويين

(١) وصف ابن خلدون هذا الحادث بتوسع (ص ٤ ج ٤) .

وهدم بيوتهم وخرب بساتينهم كما صادر أملاك أبناء الحسن والحسين ؛ وألغى الامتيازات التى كان أهل المدينة يتمتعون بها ؛ وأوقف الإعانات التى كانت تردهم من مصر ، وهدد الإمام « جعفرا الصادق » بالقتل لمطالبته برد أملاكه ، كما حبس الإمام أبا حنيفة ؛ وجلد الإمام مالك من غير ما شفقة ولا رحمة ؛ وأمر بقتل بعض المسجونين فى قصر ابن هبيرة ، بينما تسمم البعض الآخر بسبب تعفن غرف السجن . ولما قتل الخليفة « إبراهيم » أرسل رأسه إلى أبيه الشيخ فى سجنه ليزيده لوعة وحرقة . ويقال إن الأب المتفجع التفت إلى الرسول قائلا : « قل لصاحبك : قد مضى من يومنا أيام والملتقى القيامة » . ويقول الرسول : ما رأيت المنصور قط أشد انكساراً منه فى الوقت الذى بلغته فيه هذه الرسالة .

وفى تلك الأثناء عظم نفوذ « المنصور » وانتشر سلطانه فى جميع أنحاء آسيا الغربية وأفريقية ؛ ومع أن الأندلس لم تكن تعترف بحكمه الزمنى ، إلا أن الخطبة كانت تقرأ هناك باسمه بصفة كونه حامى حمى الحرمين . وفى سنة ١٤٦ هـ ولى الخليفة ابنه جعفراً مدينة الموصل وعين له مساعداً اسمه «حرب بن عبدالله» وهو جندى باسل ، والمأثور عنه أنه شيد قصراً[١] فخما بضاحية المدينة أعده لسكن جعفر الذى رزق فيه بابنته « زبيدة »[٢] .

١٤٦ هـ
٧٤٩ـ ٧٧٥م

الأندلس

وفى ذلك الحين حاول عامل أفريقيا[٣] غزو الأندلس ففشلت حملته فشلا مريعاً ، وأنزل بها عبد الرحمن هزيمة شديدة ، ثم بعث برأس القائد العباسى إلى مكة حيث ألقيت سرا أمام الخليفة « المنصور » الذى اتفق وجوده فيها وقتئذ

(١) كان هذا القصر لا يزال قائماً عند ما وضع ابن الأثير كتابه (الكامل) المشهور ، ويقول فى هذا الصدد إنه كانت له ضيعة على مقربة من قصر حرب بن عبد الله أوقفها على الرباط للصوفيين ، وكان له منزل جميل فى تلك الضيعة كان يسكنه فى أثناء وضعه كتابه المشهور .

(٢) هى زوجة هرون الرشيد واسمها الحقيقى أمة العزيز ، وقد سماها جدها المنصور زبيدة مصغر الزبدة .

(٣) ابن مغيث اليحصبى . (المعرب)

فارتاع وحمد الله الذى جعل بينه و بين صقر قريش بحراً واسعاً .

غارة الخزر

ولم يمض طويل وقت حتى شق أهل الخزر فى كورجيا عصا الطاعة فقمعت الحكومة حركتهم وأدبت زعماءهم ، كما اتخذت إجراءات شديدة لمنع وقوع مثل تلك الحوادث فى المستقبل ؛ وكاد الأكراد يخرجون على الحكومة لولا أن الخليفة عين وزيره خالداً بن برمك عاملا على الجزيرة ، فاستطاع بصلابته وحزمه أن يقمع الحركة وينشر الأمن فى تلك الأصقاع ؛ وما إن هدأت الأحوال

مبايعة محمد المهدى بولاية العهد ١٣٢ـ١٥٨ هـ

واستقرت الأمور حتى فكر المنصور فى حمل « عيسى » ابن أخيه على التنازل عن ولاية العهد ، واستخدم لذلك ضروب الحيل حتى رضخ « عيسى » أخيراً وتنازل عن ولاية العهد ، وفى الحال أسندها الخليفة إلى ابنه ولقبه « بالمهدى » .

وفاة الإمام جعفر الصادق ١٤٨هـ ـ ٧٦٥م

وفى سنة ١٤٨ هـ توفى الإمام « جعفر الصادق » بالمدينة غير أن الحلقة العلمية ، لحسن الطالع ، لم تتوقف بوفاته ، إذ طفقت تزدهر برئاسة ابنه وخلفه

موسى الكاظم

« موسى » الملقب « بالكاظم » ، ومن ذلك الحين بدأ الانقسام بين الشيعة حول منصب الإمامة إذ كان الإمام « جعفر » قد أوصى لابنه الأكبر « إسمعيل » الذى توفى فى حياة أبيه ؛ فأوصى جعفر ثانية لابنه « موسى » ، غير أن بعض الشيعة رفضوا الاعتراف به وقالوا بإمامة « حبيب بن إسمعيل » ، وكان ذلك الخلاف بدء ظهور الطائفة الإسمعيلية التى أسست الدولة الفاطمية فى مصر .

١٥١ هـ الثورة فى خراسان

وفى سنة ١٥١ هـ شق « ستادسيس » أحد زعماء خراسان المشهورين عصا الطاعة والولاء ، ولكن لم يمض سوى قليل حتى قمعت ثورته ، وأرسل مخفوراً مع أهله إلى بغداد حيث عوملوا معاملة مرضية .

أفريقيا

أصبحت أفريقيا وقتئذ مصدر قلق متواصل للخليفة ، إذ قتل عاملها المسمى « غلاب » التميمى فى الثورة التى أضرمها الخوارج فى تونس بعد أن قضى فى حكمها سنتين ، فخلفه « عمر بن حفص » ، وظل متربعاً فى دست الحكم قرابة ثلاث سنوات تمتعت البلاد خلالها بنعمة الطمأنينة والعدل ؛ بيدأن الخوارج

نتقضوا ثانية على الحكومة وحاصروا مدينة القيروان ، وأصاب أحدهم «عمر» بسهم قتله على الأثر ، فلم تلبث المدينة أن سقطت فى أيدى الخوارج . ولما انتهى هذا الخبر إلى مسامع الخليفة اشتد سخطه ، وأرسل فى الحال جيشاً آخر بقيادة عامل جديد اسمه «يزيد المهلبى»[١] وهو رجل ذو حنكة إدارية عظيمة وهمة لا تعرف الكلل ، فهزم الخوارج فى عدة معارك وقتل زعيمهم ، وتعقب فلولهم من محل إلى آخر حتى نشر الأمن فى ربوع البلاد ، وظل متربعاً فى دست الحكم خمسة عشر سنة حتى توفى سنة ١٧٠ ﻫ وخلفه ابنه داود .

٧٤٩ـ ٧٧٥م

وفى سنة ١٥٥ ﻫ ابتنى «المنصور» مدينة «الرفيقة» ، كما شيد الأسوار وحفر الخنادق حول مدينتى الكوفة والبصرة ، وأمر بإحصاء جميع السكان .

وفى تلك الأثناء أخل الإمبراطور الرومانى بشروط الصلح ، وزحف على الحدود الإسلامية ، ولكنه منى بهزيمة منكرة وضمت على أثرها معاهدة جديدة تعهد فيها الإمبراطور بدفع الجزية .

وفى سنة ١٥٦ ﻫ أجرى الخليفة حركة واسعة النطاق فى تعيين وتحويل العمال والأمراء ، وكاد يعين أحد أولاد الحسن[٢] عاملا على المدينة ، لولا أن عاجلته المنية على أثر الجهود التى بذلها فى توطيد دعائم ملكه . وتقول لنا الرواية : «إنه عند ما أحس بدنو أجله أرسل فى طلب ولى العهد وأوصاه بالنصائح التالية :

١٣٢ـ ١٥٨ﻫ

«إياك وتأخير عمل اليوم إلى الغد ، وأنظر جيشك ورعيتك وأحسن إليهم ، ولا تجاوز ما أمر الله به فى محكم القرآن ، واحكم بالعدل ولا تشطط ، وخذ نفسك بالتيقظ ، وباشر الأمور بنفسك ، لا تضجر ولا تكسل ، وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم ، وتحسن إليهم وتقدمهم ، وتوطى الناس أعقابهم ، فإن عزك عزهم ، ولا تبرم أمراً حتى تفكر فيه ، فإن فكر العاقل مرآته تريه حسنه وسيئه

---

(١) هو يزيد بن الهيثم بن أبى صفرة ، وإنما لقب المهلبى نسبة إلى عمه المهلب .
(٢) زيد .

لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل ، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة » .

وفاة المنصور ٦ ذى الحجة ١٥٨ هـ تشرين الأول سنة ٧٧٥ م

و بعد أن ودع ابنه توديعاً مؤثراً ، شخص إلى مكة حيث كان ينوى قضاء بقية أيامه ، ولـكنه توفى فى طريقه فى بئر ميمونة على بعد بضع ساعات من مكة ، فشيدوا له مائة قبر ودفنوه فى واحد منها خشية أن يعرف الناس قبره الحقيقى .

وتبلغ مدة حكمه ٢٢ سنة ، وكان نحيف الجسم ، طويل القامة ، أبيض البشرة ، حسن الخلق ؛ و يقال إنه لم يأت عملا يشينه قط ، « وكان شغله فى صدر النهار الأمر والنهى ، والولايات والعزل ، وتدبير الخطط لصيانة الحدود وحماية الطرق ، وتحسين أحوال الرعية ، والنظر فى الخراج والنفقات ؛ فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره . فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق ، وشاور سماره من ذلك فيما أرب ؛ فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره ، فإذا مضى الثلث الثانى قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلى بالناس ثم يجلس فى إيوانه »[1] ؛ وكان مقتصداً فى نفقاته ، دقيقاً فى حساباته ، حتى سمى بأبى الدوانق[2] .

٧٤٩ ـ ٧٧٥ م

كذلك كان هذا الخليفة الذائد عن حياضه ، الذاب عن كيان عرشه ، مثالا صالحا للرعية فى إطاعة القوانين والامتثال لحكم القضاة ؛ و يقال إن قاضى المدينة أرسل فى طلبه ذات مرة للتحقيق معه فى قضية رفعها عليه أحد أصحاب الجمال ، فحضر بنفسه مع حاجبه ووقف كفرد عاد أمام القاضى الذى لم يخفّ حتى لاستقباله ؛ وعند ما جاء قرار المحكمة ضده ، أثنى على نزاهته ، ووصله بكيس من النقود ؛ ويقال إنه ترك بيت المال عامراً يكفى لسد نفقات الدولة لمدة عشر سنوات ، كما صرح بذلك لابنه المهدى .

(١) ابن الأثير .

(٢) يساوى الدرهم ستة دوانق .

الفصل السادس عشر

العباسيون

(تابع ما قبله)

١٥٨ — ١٧٠ هـ (٧٧٥ — ٧٨٦ م)

المهدى والهادى

خلافة المهدى — حكمه الفخم — إنسانيته — الزنادقة —
الحرب مع الرومان — إيرينى تدفع الجزية — وفاة المهدى —
خلافة الهادى — انفصال المغرب الأقصى — وفاة الهادى

محمد المهدى
١٥٨-١٦٩هـ
٧٧٥-٧٨٥م

خلف « محمد » أباه المنصور ولقب « بالمهدى » ، وتنتسب أمه[١] إلى أحد ملوك حمير[٢] اليمانيين ؛ وكانت سياسته تختلف عن سياسة أبيه كل الاختلاف. إذ كان محسناً كريماً بطبعه ، وقد سارع عند اعتلائه عرش الخلافة إلى رتق الفتق وإصلاح أعمال الشدة والإرهاق التى وقعت فى عهد أبيـه ؛ فاستفتح حكمه بفك سراح المسجونين عدا القتلة والمتهمين بجرائم خطيرة ، كما أطلق الحسن بن إبراهيم ، وأغدق عليه المنح والعطايا ، وأعاد للمدن المقدسة الامتيازات التى كان أبوه قد عطلها ؛ وسمح بإرسال الإعانات التى كانت ترسلها مصر إلى بلاد الحرمين الشريفين ، ورد إلى آل البيت أملاكهم . وكان من عادة « المنصور » أن يفرض الغرم الباهظ من حين لآخر على موظفى الدولة الذين كان يعزلهم بتهمة الاختلاس أو اغتصاب الأموال ، وكان يحتفظ بها فى خزينة خاصة تسمى « ببيت مال المظالم » مكتوباً عليها أسماء الأشخاص الذين صودرت منهم ، فأعادها المهدى

---

(١) واسمها « أم موسى » .
(٢) من ولد ذى رعين من ملوك حمير . (المعرب)

إلى أصحابها أو لورثتهم[١] . وكان قد نزل فى أثناء حملتـه على الروم بقصر « مسلمة » ، فتذكر إخلاص ذلك القـائد المشهور وعظيم وفائه لجده « محمد » فطلب أولاده وأجازهم بعشرين ألف دينار ، كما وهبهم الإقطاع والضياع . وفى أثناء حجه إلى مكة عام ١٦٠ هـ أحاط نفسه بضروب الأبهة والفخامة ووزع حوالى ٣٠ مليون درهم على أهل الحجاز ، و ١٥٠ ألف ثوب على أهالى مكة وحدها ، وأعاد بناء المسجد الحرام وجمله ووسع المدارس والجوامع فى جميع المدن المشهورة ، كما شيد جوامع جديدة فى شتى المدن والحواضر ؛ وانتخب بمهارة تبز مهارة أبيه ٥٠٠ رجل من أبناء الأنصار ، وألف منهم فرقة الحرس الخاصة[٢] ورتب المخصصات للمجذومين والمسجونين . وتقول لنا الرواية إن السفاح كان قد شيد عدة منازل فى طريق مكة من القادسية حتى «زبالة» ، فأمر المهدى بتعبيد ذلك الطريق وتوسيعه ، وزاد عدد المنازل وأثثهـا ، وحفر الآبار والخزانات على طول الطريق إلى المدن المقدسة ؛ كذلك أقام الحراس لحماية الحجيج والمسافرين .

١٥٨ـ١٧٠ هـ

وكان أحد أبناء « مروان الثانى » قد حاول شق عصا الطاعة فى الشام ، فظفر به وأمر بحبسه ردحاً من الزمن ، ولـكنه ما عتم أن أطلق سراحه ومنحه مرتباً كافياً . ويقال إن « مزينة » امرأة مروان وفدت على قصر الخلافة تشكو رقة حالها فأفردت لها « الخيزران » جناحاً خاصا فى القصر تنعم فيه بالقرب منها دون أن تفرق بينهـا و بين نساء بنى هاشم ، وكان للخيزران نفوذ واسع على زوجها ولهذا كان بهو استقبالها مزدحماً دائماً بالعظماء وطلاب الوظائف وأصحاب الحوائج والمأثور عن « المهدى » أنه أقصى « عيسى » ابن أخى السفاح عن ولاية العهـد وجعلها لولديه من « الخيزران » موسى وهرون بالتعاقب .

---

(١) يقال إن المنصور أوصى المهدى برد هذه الأموال لأصحابها لـكى يكتسب بهذا العمل قلوب الرعية .

(٢) لو احتفظ خلفاء المهدى بهذه القوة العربية لما عظم شأن فرقة الحرس التركى ، بيد أن سياسة المنصور التى يظهر أنها أثرت فى الخلفاء الذين أعقبوه كانت تدور حول إضعاف شأن العرب الذين كانوا يعدون أنفسهم زهرة فرسان المسلمين .

المقنع
١٥٨–١٦١هـ

وفى أيامه ثار «هاشم بن حكيم» الملقب بالنبى المقنع ، وكانت خراسان تعتبر دائماً مرتعاً خصيباً لشتى الطوائف والمذاهب ، وكانت تجيش خاصة فى تلك الأثناء بمبدأ جديد يبشر به ذلك الدعى ، وهو رجل ضئيل الحجم كريه المنظر ، ولكى يخفى قبح شكله كان يتقنع دائماً بقناع ذهبى ، ولهذا سمى بالمقنع ، ومن تعاليمه أن روح الله تحل من حين لآخر فى أحد عباده المصطفين ، وأنها حلت الآن فى شخصه كما حلت من قبل فى آدم ونوح وأبى مسلم الخراسانى ، وهو يذهب أيضاً إلى أن الديانة هى الإيمان فحسب ، وكانت تعاليمه الأخرى إباحية تدعو إلى التحرر من القيود الأخلاقية فاستهوى جمهوراً كبيراً من الناس حتى عظم شأنه ، فبعث إليه الخليفة بجيش جرار شتت شمل أتباعه بعد أن فتك به .

٧٧٥–٧٨٦م

الزنادقة

وقد كان أصحاب المقنع يلبسون الملابس البيضاء ولهذا سموا « بالمبيضة » ، كما أطلق على فرقة جديدة أخرى فى «جورجان» شرقى بحر قزوين اسم « المحمرة » لارتدائهم الملابس الحمراء ، وكانوا يدينون بمبادئ إباحية مفرطة ، وسببوا متاعب جمة للدولة غير أن حركتهم قمعت أخيراً دون صعوبة تذكر . ويظهر أنه كان قد شاع فى ذلك الحين مبدأ النهلستية وهو مبدأ يجمع بين المزدكية والمانوية القديمتين .

ويقول لنا المؤرخون إن « مزدك » صاحب العقيدة المسماة باسمه ظهر فى زمن « كسرى أنوشروان » فى القرن الرابع الميلادى ، وأخذ يبشر باشتراكية مطلقة لا قواعد لها ، فاستعمل ملك الفرس الحديد والنار فى سحق تلك الفئة الإلحادية دون أن يتمكن من قلع الحركة من أساسها . وفى حكم المهدى أخذت تلك المبادئ الإباحية تمتزج — قليلا أو كثيراً — بالفلسفة المانوية وتنتشر بسرعة فى خراسان ثم فى غربى إيران والعراق . ولا شك أنها كانت تبشر بالتحلل من القيود الأخلاقية ، وتعمل على إضعاف سلطة الحكام والخروج على العرف والتقاليد . كذلك كان من جملة الاتهامات التى وجهت إليهم خطف الأطفال من الأزقة والشوارع ، وسواء أكانت تلك التهمة صحيحة أم مختلقة فما لا ريب

فيه أن هؤلاء الملاحدة كانوا يستهترون بالأوضاع الاجتماعيــة والعقائد الدينية بادعائهم الطاعة العمياء لشرح المفسرين . ولقد أبدى المهدى حيال تلك الشرذمة — التى كان يعتبرها عنصراً خطراً على سلامة الدولة والأخلاق — قسوة شديدة فنكل بهم شر تنكيل من غير ما شفقة ولا رحمة .

١٥٨–١٧٠هـ وفى سنة ١٦٣ هـ أغار الجيش البيزنطى على البلاد الإسلاميــة فعاث فى المدن المجاورة فساداً وتخريباً ، كما استولى على مدينــة « مرعش » فأشعل فيها النار وفتك بأهلها ؛ ولــكن ما إن اقترب منهم جيش المسلمين بقيادة « حسن بن قحطبة » حتى تقهقروا من المواقع التى سـبق أن احتلوها ، غير أن القائد العربى انتقم منهم انتقاماً شديداً فخرب بعض مدنهم بعـد أن نكل بهم شر تنكيل . وفى تلك الأثناء نشبت فتنة جديدة فى داخل البلاد استدعت حضور المهدى إلى ميدان القتال بعد أن أناب عنه ابنه موسى فى بغداد وسار هو توا عن طريق الموصل إلى مركز الحركة ، وكانت مدينــة حلب عندئذ المركز العام للجيش الإمبراطورى ، فعقد القيادة لابنه هرون الرشيد و بعث معه بعض القواد المشهورين كعيسى بن موسى ، وعبد الملك بن صالح ، وحسن بن قحطبه ، ويحيى بن خالد .

ولما استولى جيش الرشـيد على مدينة « سمالا » و بعض المدن الأخرى ، قصد المهدى بيت المقـدس لأداء فريضة الحج ، وولى هرون بلاد الغرب التى كانت تشتمل وقتئذ على أرمينيا وأذربيجان ، كما عين ثابت بن موسى وزيراً لبيت المـال ، واستوزر يحيى بن خالد . غير أن إغارة الروم حرمت البـلاد من التمتع بالهدوء والطمأنينة ، إذ لم ينقض طويل وقت حتى اجتاح جيشهم البلاد بقيادة « ميكاميكومس » ، وأطلقوا أيديهم سلباً ونهبا ، فأسرع الرشـيد إلى صد زحفهم ، وأنزل بهم خسائر فادحة ، ثم أخذ يواصـل زحفه حتى بلغ القسطنطينية ؛ وما إن شاهـدت « إيرينى » امرأة ليون الرابع — التى كانت تحكم البلاد البيزنطية نيابة عن ابنها قسطنطين السادس ، والتى تعد المحرضة لتلك

٧٨٥م

الحرب الشعواء ، أضواء معسكر العرب تسطع على ضفاف البوسفور حتى طلبت عقد الصلح بعد أن منيت بخسارة أخرى ، فأجابها القائد العربى إلى طلبها مشترطا عليها دفع جزية سنوية كبيرة و إقامة الأدلاء والحراس ، وتجهيز الجيش بالمؤونة الكاملة فى طريق عودته .

٧٧٥ – ٧٨٦ م

وفى سنة ١٦٨ هـ أضرم عرب البادية نار الثورة فى الصحراء ، فنهبوا القوافل وأقلعوا عن الصلاة ، وأساءوا معاملة الحجاج ، فبعث الخليفة إليهم بقوة قمعت حركتهم فى الحال ؛ ولكن يظهر أنه عامل الثائرين بالشفقة والرحمة .

وفاة المهدى ٢١ محرم ١٦٩ هـ

وفى السنة التالية أراد « المهدى » أن يقوم برحلة أخرى فى الشرق فأدركته منيته فى مكان يسمى « ماسبدان » .

وتقول لنا الرواية إنه كان قد نزل فى ذلك الموقع ليصطاد ، وفيما كان يتعقب غزالا سقط من على ظهر جواده سقطة مات على أثرها فى اليوم التالى ، وعمره ٤٣ سنة بعد حكم لم تطل مدته أكثر من عشر سنوات ؛ وكان طويل القامة ، حسن تكوين الجسم . ويقال إنه استوزر فى أوائل حكمه « عبيد الله » ثم عاد واستوزر بعده « يعقوب بن داود » ، الذى تمت بمشورته معظم الأعمال الجسيمة ، ولكن الوشاة على ما يظهر ظلوا به حتى ارتاب فى إخلاص وزيره ، وأمر بزجه فى السجن السياسى المسمى « بالمطبق »[1] حيث ظل يعيش عدة سنوات إلى أن أفرج عنه هرون الرشيد .

خلافة موسى الهادى

وعند ما حضرت المهدى الوفاة كان هرون الرشيد حاضراً بجانبه فأعلن فى الحال خلافة موسى الهادى بمقتضى الوصية وحلف له يمين الطاعة كما بعث إليه بالخاتم وقضيب النبى والبردة . وكان الهادى قد ناهز الرابعة والعشرين حينما اعتلى كرسى الخلافة ، ولكن مدة حكمه لم تزد على السنتين ، وكان صعب المراس

(١) باستيل العباسيين .

قاسى القلب شرس الأخلاق ، بيد أنه كان برغم ذلك شجاعاً جواداً سخيا نشطاً محبا للعلم ، مكرماً للأدباء .

ويقول الرواة إن الهادى لم يقدر إخلاص أخيه له فاجتهد فى خلال مدة حكمه أن يغير وصية أبيه بأن يجعل ولاية العهد لابنه جعفر ، فزج يحيى بن خالد البرمكى مستشار هرون الرشيد فى السجن مع بعض أعوان أخيه المخاصين بدعوى أنهم خصومه السياسيين ، كذلك كان قد نشب خلاف بينه وبين أمه التى أرادت أن يكون لها نفس النفوذ الذى كانت تمتع به فى عهد زوجها ، فقاوم الهادى تدخلها بكل قواه ، وأعلن للأشراف عدم رضائه على زيارتهم لهم ، وعلى هذا انقسم رجال البلاط إلى حزبين : انحاز أحدهما إلى الخليفة الشاب وابنه وانحاز الحزب الآخر إلى الرشيد والملكة الوالدة ، وقد حاول هرون الرشيد بكل الوسائل الممكنة أن يهدئ من ثورة أخيه . ولكنه عمل أخيراً بمشورة يحيى وترك البلاط حفظاً على سلامته .

وفى ذلك الحين أخذ حاكم المدينة يسوم بعض أفراد أسرة « الحسن » صنوف العذاب ، ملصقاً بهم كذباً تهمة معاقرة الخمر مما أدى إلى نشوب فتنة قام على رأسها الحسين[1] أحد أحفاد الحسن الأول ، فقتل فيها كثير من أفراد أسرته وبعض الأسرات الأخرى المشهورة ، وفر على أثرها « إدريس »[2] ابن عم الحسين إلى تلمسان ، حيث التحق بالبربر الذين ساعدوه على تأسيس الدولة الأدريسية المشهورة التى استقلت فيما بعد ببلاد المغرب الأقصى .

٧٧٥ـ ٧٨٦م

وبينما كان الهادى مقيما فى بلدة « عيسى أباد » التى كانت من بغداد على مسيرة يوم واحد مرض مرضاً شديداً ، فبعث يطلب أمه « الخيزران » ، ولما

---

(١) الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب .
(٢) أخو النفس الزكية .

حضرت خاطبها بقوله : « أنا هالك فى هذه الليلة وفيها يلى أخى هرون ، وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى مما أوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك ؛ ولم أكن بنك عاقا بل كنت لك صائناً و برا واصلا » . ثم قضى نحبه واضعاً يدها على صدره فى ١٥ ربيع الأول[١] . وكان طويل القامة كأبيه وله سبعة أولاد و بنتان إحداهما أم عيسى التى تزوجت من المأمون بن هرون الرشيد .

وفاة الهادى يوم الخميس ١٥ ربيع الأول ١٧٠هـ ٧٨٦م

(١) المسعودى :

الفصل السابع عشر

العباسيون

(تابع ماقبله)

١٧٠ — ١٩٨ هـ ، ٧٨٦ — ٨١٤ م

الرشيد والأمين

خلافة هرون الرشيد — أخلاقه — حكمه الزاهر — البرامكة — استقلال أفريقيا الذاتى — شؤون الدولة فى آسيا — ولاية العهد — الأمين والمأمون — تقسيم الإمبراطورية — سقوط البرامكة ونكبتهم — جان دارك العرب — الحروب البيزنطية — خيانة نيقوفور — هزيمته — عقد معاهدة جديدة — الدولة البيزنطية ونقضها شروط المعاهدة — وفاة الرشيد — مبايعة الأمين بالخلافة — أخلاقه — إشهاره الحرب على المأمون — طاهر يهزم جيش الأمين — حصار بغداد — مكة والمدينة يبايعان المأمون بالخلافة

خلافة هرون الرشيد

تربع هرون الرشيد على كرسى الخلافة على أثر وفاة أخيه طبقاً لوصية المهدى ، بعد أن كان «جعفر بن الهادى» قد تنازل عن جميع حقوقه فى العرش . ولا مشاحة أن عهد الرشيد يعتبر ألمع عهود الحكم العربى فى آسيا ، وأن قصص ألف ليلة وليلة قد أسبغت على هذا الخليفة المشهور ثوباً قشيباً من الفتنة والخيال . وكان من عادته أن يجوس فى جنح الظلام فى شوارع بغداد وأزقتها ليتفقد أحوال الرعية ويقيم العدل ، ويغيث الملهوف وينصف المظلوم . ولو أننا نزعنا عن الرجل الحقيقى ثوب الخيال لظل مع ذلك فتنة العصور ومثار إعجاب الأجيال كحاكم من أعظم حكام العالم شأناً وأسماهم مكانة ، إذ كان محافظاً على تكاليف الشرع ، عفيفاً زاهداً محسناً ورعا ، حريصاً كل الحرص على أن يحيط نفسه بهالة من العظمة والجلال . ويمكننا أن نقول إن شخصيته الفذة أثرت تأثيراً

بليغاً فى عقول العامة ، وسرت فى الحياة الاجتماعية مسرى النار فى الهشيم حتى طبعتها بطابعها الخاص ، كذلك كان جنديا ماهراً بالفطرة والممارســة ، وكثيراً ما قاد الجيوش بنفســه وتوغل فى أنحاء الإمبراطورية ليهيمن على قمع الفتن والثورات . وقد كان علاوة على ذلك يزور المدن ليقف على أحوال الرعية وشؤونها ويفتش الحصون والممرات ، ولم يتردد قط فى بذل قصارى الجهد فى خدمة البلاد وتحصين الحدود وحمايتها من هجمات الأعداء ونشر الأمن فى أنحاء الإمبراطورية ، فتمتع فى ظله التجار وطلاب العلم والحجاج بنعمة الطمأنينة والعدل . وليس أبلغ فى الدلالة على تعلق الرجل بشعبه وتفانيه فى خدمته من تلك المساجد والكليات والمدارس والمستشفيات والمنازل والطرق المعبدة والجسور وشبكة الجداول المبثوثة جميعها فى أنحاء البلاد ، ولم يبزه فى تشجيع العلوم والآداب سوى ابنه «المأمون» ولـكن ليس ثمة من يضارعه فى متانة الخلق وحدة الذكاء . ومع أن أيام حكمه لم تخل من المساوئ التى تنجم عادة عن حصر السلطة المطلقة فى شخص الحاكم — سوى عهد المأمون — فإن رفاهية الشعب وارتقاء المدنية وتقدم الفنون فى عهده على نحو لم يسبق له مثيل يعوض كثيراً عن مساوئ الحكم المطلق .

البرامكة

ويعزى معظم شهرة «الرشيد» فى الإدارة إلى كفاية الوزراء ومقدرة الموظفين الذين وثق بهم ووكل إليهم مهام الدولة خلال السبع عشر سنة الأولى من حكمه . وقد سبق أن أشرنا إلى المركز الممتاز الذى كان « خالد بن برمك » يتمتع به فى عهد السفاح والمنصور ، وإلى انتخاب ابنه يحيى أمير أرمينيا ليكون مربياً للرشيد الذى ما إن بلغ سن الرشد وبويع بالخلافة حتى ولى مربيه السابق منصب الوزارة . وكان الرشيد يناديه : يا أبت ! دلالة على الحب والوفاء ويستشيره فى جميع الأمور ، كما منحه سلطة مطلقة لتصريف أمور الدولة بالحـكمة والعدل ؛ وكان أبناء يحيى الأربعة : « الفضل » و « جعفر » و « موسى » و « محمد » على جانب عظيم من المقدرة السياسية والحنكة الإدارية العالية ، فولى الخليفة الفضل خراسان ثم مصر

ولما أخضع يحيى بن عبد الله[1] الديلم استعمله عليها ، وأسند إلى جعفر إمارة عدة ولايات ، والمعروف أنه عند ما نشبت العصبية القبلية بين مضر وحمير فى الشام عهد إليه بإدارتها فقمع الفتنة وحكمها بنجاح عجيب . وعلى الجملة استطاعت هذه الأسرة المشهورة أن تحكم الإمبراطورية الإسلاميـة سبع عشرة سنة بكل نزاهة وإخلاص ؛ ولـكن تدهورها السريع وانهيار دعائم مجدها يفسر لنا ناحية من نواحى المؤامرات والدسائس التى كانت تحاك فى ذلك العهد حول أصحاب الشأن وتـكشف لنا عما تؤدى إليه الوشايات فى الحـكومات المستبدة .

بلاد أفريقيا سنة ٧٨٦ — ٨١٤ م

ذكرنا فيما سبق أن بلاد التلمسان انفصلت عن الإمبراطورية العباسية وأن أمراء أفريقيا قاموا بعدة محاولات لإعادة احتلال غربى أفريقيا ، ولـكنهم كانوا يبوءون فى كل مرة بالفشل الذريع ، وبقيت أفريقيا فى قبضة يزيد بن الهيثم المهلبى حتى توفى سنة ١٧٠ هـ ، ثم بدأت تعصف بها ريح الثورة حتى قيض لها أخوه « روح » الذى عينه الرشيد حاكما عليها سنة ١٧١ هـ ، ولـكنه توفى بعد مضى سبع سنين على حكمه . ويقول لنا المؤرخ العربى إنه لما تمرد الجيش على ابن « روح » وأعلن عصيانه سارع الرشيد إلى إرسال « الهرثمة » أحـد القواد المشهورين لقمع الفتنة ، فاستتبت له الأمور وحكم البلاد نحواً من ثلاث سنوات وعلى أثر استقالته عين الرشيد مكانه عاملا آخر برهن على عجزه عن الحـكم . وقد كانت أفريقيا إلى ذلك الحين تستنفد معظم موارد الدولة فـكانت مصر تدفع ١٠٠ ألف دينار سنويا من مواردها الخاصة لسد عجز ميزانيـة حكومة أفريقيا ، فعرض إبراهيم بن الأغلب على الرشيد استعداده لدفع ٤٠ ألف دينار سنويا إلى حكومة بغـداد إذا جعل حكمها وراثيا فى أسرته ، وقد أشار الهرثمة — الذى كان عليما بشؤونها وبالصعوبات التى تجابهها الحـكومة — على الخليفة بالقبول فأجابه فى الحال إلى طلبه ، وبذلك أصبحت أفريقيا إمارة شبه مستقلة .

(١) حفيد الحسن .

١٧٠–١٩٨هـ
شؤون آسيا

أما فى آسيا فكانت الأمصار فيها تدار بعزم وهمة على أسس ثابتة .

وفى سنة ١٧١ هـ ألحقت كابول وسنهار بالإمبراطورية العربيـة وامتدت حدودها إلى كوش الهندوسية ، وفى نفس الوقت فصل الرشيد « سواحل » آسيا الصغرى عن الإمارة الأصلية وأطلق عليها اسم العواصم ، كما عين لها حاكما عسكريا خاصا يقيم فى طرسوس بكيليكيا .

١٧٣ هـ — ٧٨٩ م

وفى تلك الأثناء توفيت الخيزران أم الرشيد ، وبموتها فقـد يحيى بن خالد البرمكى عضداً قويا طالما أعانه على الاحتفاظ بنفوذه على الخليفة وشد أزره فى خدمة مولاه بالنزاهة والإخلاص ، وكان الرشـيد قد أعاد إلى أمه فى مستهل حكمه جميع الامتيازات التى كانت تتمتع بها فى عهد زوجها المهدى والتى حرمهـا منها الهادى ، فأصبح قصرها مثابة يقصدها الأشراف وأصحاب الحوائج ، ولـكن لم يلبث الرشيد بعد وفاتها بقليل أن أخذ الخاتم من يحيى وأودعه إلى الفضل بن الربيع الذى بدأ نجمه يتألق فى ذلك العهد .

أخذ البيعة لمحمد الأمين بولاية العهد
١٧٥ هـ — ٧٩١ م
مبايعة المأمون بولاية العهد

وفى سنة ١٧٥ هـ وافق الرشيد بتأثير الملكة « زبيدة » وإلحاح أخيهـا « عيسى بن جعفر » وتشجيع جميع أفراد الأسرة الهـاشمية على أن يولى ابنـه محمداً — الذى لم يكن قد ناهز الخامسة بعد — ولاية العهد ولقبه بالأمين . كذلك بايع بعد سبع سنين ابنه الآخر عبد الله المأمون ، ثم الابن الثالث القاسم ولقبه بالمؤتمن ، على أن تـكون ولاية العهد لهم بالتتابع . وكان من المقرر أن يقتسم الأبناء الثلاثة الإمبراطورية بعد وفاته ، فيكون المغرب للأمين ، والمشرق للمأمون ، والجزيرة والعواصم للقاسم ، وكان « الرشيد » يعتمد على المأمون فى تنفيذ الوصية بحيث وكل إليه أمر عزل « القاسم » من ولاية العهد إن رأى ذلك مناسبا ؛ كذلك كان قد اختار جعفر بن يحيى لتأديب المأمون وتثقيفه ، بينما وكل تربية القاسم إلى ابن عمه « عبد الملك بن صالح » .

٧٨٦–٨١٤م

٨٠٢ م

وفى سنة ١٨٦ هجرية حج «الرشيد» الحرمين الشريفين مستصحبا «الأمين»

و « المأمون » ، وهنالك علق الوثيقتين بولاية العهد على الـكعبة ، وقد كتب إحداهما الأمين بخطه إذ أحس الرشيد منه الغدر وعدم الثبات ، ولهذا رأى أن يربطه بأخطر المواثيق كى لا ينقض عهده مع أخيه .

حج الست زبيدة

كذلك حجت « الست زبيدة »[1] فى تلك السنة ؛ ويقال إنهـا عند ما شاهدت ما يعانيه أهل مكة من المشاق فى الحصول على ماء الشرب أمرت بحفر عدة آبار[2] على نفقتهـا الخاصة ، ولا يزال اسمها يطلق على تلك الآبار إلى اليوم إحياءً لذكرى تلك الزيارة .

١٨٣ــ ٧٩٩م ثورة الخزر

وفى سنة ١٨٣ هـ ثار أهل الخزر بتحريض من البيزنطيين الذين كانوا قد عقدوا معهم شبه تحالف ، فأغاروا على أرمينيا من الشمال وعاثوا فى البلاد وأعملوا السيف فى رقاب السكان الآمنين ومثلوا بهم على نحو لم يسبق له مثيل قط ، فأسرع الرشيد إلى إنفاذ حملات قوية على رأسها قائدان من أقدر قواده لتأديب هؤلاء البرابرة والانتقام منهم ، ويلوح أن الإجراءات التى اتخذها الجيش العربى مع المغيرين كانت بالغة حد القسوة والرعب .

وفى تلك السنة توفى الإمام «موسى الكاظم» ويقول ابن الأثير فيه : « إنه عرف بهذا اللقب لصبره ودماثة خلقه ومقابلته الشر بالإحسان » ، وكان محبوباً محترماً من جميع أهل المدينة ؛ بيد أن الرشيد ، وكان قد ورث عن جده الارتياب ، خشى أن يخرج عليه فأتى به إلى بغداد وسلمه إلى أخت « السندى ابن شاهق » تلك المرأة الفاضلة التى عاملت سجينها بالعطف والاحترام ، وقد حدث مرتين أن سمح الرشيد لهذا الإمام الوديع بالرجوع إلى الحجاز ، ولـكن

(١) قال الشيخ أبوالفرج بن الجوزى فى كتاب الألقاب : « إنها سقت أهل مكة المـاء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار ، وإنها أسالت المـاء عشرة أميال بحط الجبال ونحت الصخر حتى غلغلته من الحل إلى الحرم ، ولقبها جدها « أبو جعفر المنصور » زبيـدة لبضاضتها ونضارتها » . (المعرب)

(٢) يقال إن نفقات الحفر بلغت حوالى المليون ونصف المليون دينار .

شكوكه كانت فى كلتا المرتين تتغلب على طيبة قلبه فيبقيه فى الحبس حتى ساءت صحته ، وقد توفى فى منزل سجينته ، وخلفه ابنه على المسمى بالرضا ، ولعله كان أثقف أبناء عصره وأبعدهم شأواً فى الفقه والآداب . وقد عرفت سنة ١٨٧ بذلك الحادث المشؤوم الذى لم يقلل من رونق عهد الرشيد فحسب ، بل ظل مشاراً لتأنيب ضميره وتعذيب وجدانه على جحود خدمات أسرة البرامكة الموهوبة التى أخلصت لعرش الخلافة طوال ١٧ سنة .

نكبة البرامكة فى سنة ٨٠٣ م

لاشك أن الشعب كان يتمتع فى عهد تلك الأسرة السيئة الطالع بسعة العيش والرفاهية ، كما كثرت فى أيامها أموال الدولة ، وازدادت الثروة الأهلية زيادة عظيمة ، وزهت الفنون ، وارتقى مستوى الحياة فى كل مكان ، غير أن الشأو البعيد الذى بلغته فى العظمة والجلال ، وما اشتهرت به من الإحسان جعلها معبودة الشعب مما ألّب عليها الأعداء الذين عقدوا النية على التنكيل بها .

٧٨٦–٨١٤ م

ويقال إن ثمة باعثاً آخر يعزى إليه نكبة البرامكة ؛ ولكن ابن خلدون محص تلك الإشاعات التى ذاعت فى ذلك الحين ، ويظهر أن بعضها كان مختلقا من أساسه لتبرير جحود الرشيد ونكرانه الجميل ؛ ودليل ذلك أن ابن خلدون سخف حكاية زواج جعفر بن يحيى من العباسة أخت الرشيد ، ويقول إن السبب الحقيقى لنكبتهم هو « أنهم كانوا قد قبضوا على ناصية الأمور كلها ، وتصرفوا بأموال الدولة دون رقيب ، حتى أصبح الرشيد يطلب المبالغ الصغيرة فلا يجدها إلا بإذن من الوزير » ، وهكذا عظم نفوذهم وذاعت شهرتهم ، وأصبحت مناصب الجيش الكبرى والإدارة وقفاً على أفراد أسرتهم أو المقربين إليهم ، فتوجهت إليهم الأنظار ، وعنت لهم الرقاب ، وتعلقت بهم الآمال ، وغمروا الناس بالإحسان فى كل مكان ، فغدوا ملء الأبصار والأفواه ، حتى أصبح لا حديث للناس غير حديثهم ، وتضاءل اسم الخليفة إزاء اسمهم ؛ ولا ريب أن عدوهم اللدود « الفضل ابن الربيع » انتهز هذه الفرصة وأخذ يحرك السعاة للسعى بهم عند الرشيد ،

وكان يساعده فى ذلك بعض أقربائهم الذين نسوا أو تناسوا روابط الرحم وأوشاج الدم ، فأسروا إليـه بأن أسرة يحيى تدبر مكيدة للقضاء على « بنى العباس » ، مؤثرين مصلحة العلويين على مصلحته ، فاشتبه فيهم الرشيد ، وظن فيهم شتى الظنون دون أن يرعى حرمة الوفاء ، أو يقدر جليل خدماتهم خلال تلك السنون الطوال . وفى ذات ليلة سيئة الحظ صمم الرشيد نهائيا على قتل جعفر وسجن يحيى وبقية أولاده : الفضل «ربيب الرشيد» ، وموسى ومحمد ، فأوعز إلى مسرور الذى كان يصحبه دائمـا فى جولاته الليلية بقتل « جعفر » ، وزج الآخرين فى سجن الرقة ، كما صادر أموالهم ، ولـكنه لم يعاملهم فى بادئ الأمر بالشدة بل كان يسمح لهم بالتمتع ببعض أسباب الراحة ؛ غير أن وزيره الجديد أفضى إليـه بأن « عبد الله بن صالح » عم المهـدى يتآمر على خلعه طمعاً فى الخلافة ، فلم يلبث الخليفة أن أمر بسجنه . وتقول لنا الرواية العربية إن هذا الوزير الحقود لم يكتف بالإيقاع بعبد الله فحسب ، بل راح يتهم البرامكة أيضاً بأنهم كانوا على علم بالمؤامرة رغم كونهم لم يساهموا فى تدبيرها ، فاشتد سخط الرشيد عليهم ، وحرمهم من العناية التى كانوا يلاقونها فى بادئ الأمر . وهكذا أخذت هاته الأسرة البائسة التى تقلبت ردحا من الزمن فى أعطاف النعيم تشرب كأس العذاب دهاقا ؛ فتوفى يحيى « الوزير الأمين » فى السجن سنة ١٩٠ هـ ، ولحق به ابنه « الفضل » بعد ثلاث سنوات ؛ ويظهر أن موسى ومحمداً كانا قد فك سراحهما بعد موت أبيهما . بيد أن عبـد الملك بن صالح [١] ظل فى حبسه حتى أطلقه الأمين واستعمله على الشام ؛ وعند ما اعتـلى المأمون عرش الخلافة رد إلى البرامكة أموالهم ، وأعاد إليهم امتيازاتهم .

٨٠٦ م
وفاة يحيى البرمكى

الخوارج

وفى تلك الأثناء أضرم الخوارج كعادتهم نار الثورة عدة مرات ، لـكن الرشيد كان يقمع حركتهم كل مرة دون صعوبة تذكر ؛ وتمتاز إحدى هذه الفتن

(١) حفيد على بن عبد الله بن العباس وابن عم المهدى .

بظهور فتاة عربية اسمها « ليلى » تزعمت حركة الثوار بعد مقتل أخيها « الوليد ابن طريف » أحد الزعماء الثائرين ، وتولت القيادة بنفسها ، واشتبكت مع جيش الرشيد فى معركتين داميتين حتى حملها أحد أقاربها على أن تلقى السلاح وتعود سيرتها الأولى ، وكانت وسيمة الطلعة ، رشيقة القوام ، تحفظ الشعر وتجيد نظمه إلى حد بعيد .

چان دارك العربية

كذلك جنح أهل الموصل إلى الثورة فى ذلك الحين ، فغضب عليهم الرشيد وأمر بهدم أسوار مدينتهم عقاباً لهم على الشغب والتمرد ، ولما كان يعلم حق العلم بما يكنه أهل الشام له ولأسرته من المقت والبغضاء ، أخذ يثير العصبية القبلية من حين لآخر بين المضريين والحميريين كى يضعف بذلك شوكتهما ثم ينكل بهما أروع تنكيل بحجة توقيف الشغب و إطفاء لهيب الثورة .

هدم أسوار الموصل

غير أن حروب الرشيد مع الروم كانت أهم الحادثات التى وقعت خلال حكمه وأدعاها إلى الاهتمام ، إذ أنهم أخلوا فى سنة ١٨٠ هـ بشروط المعاهدة التى كانت « أيرينى » قد عقدتها مع المهدى وأغاروا على البلاد الإسلامية ، ولكن جيش الخليفة هزمهم شر هزيمة فى معركة دموية رائعة ؛ ثم استولى على مدينة « مطاره » وأنقرة ، وأعاد احتلال قبرص بعد أن كانت قد تخلصت من نير العرب فى الثورة الأهلية ؛ كذلك أغار على جزيرة « كريت » ، ثم أعقب ذلك عقد اتفاقية جديدة تعهد فيها الروم بدفع الجزية وتبادل الأسرى ؛ وعندئذ بدت الدلائل واضحة جلية على أن هذا السلم ستطول مدته ، ولكن لم يمض سوى قليل حتى سملت الملكة « أيرينى » القاسية عينى ابنها قسطنطين السادس سنة ١٨٢ هـ ، ونادت بنفسها ملكة باسم « أوغستا » ، وقبضت بمساعدة عشيقها الخصى « أوتيوس » على أعنة الحكم خمس سنوات ، حتى ثار عليها الروم وخلعوها عن الملك ، ونصبوا وزيرها « نيكفورس »[1] خلفاً لها ، « فنكث الملك

الحروب مع جيش الروم

١٨٢هـ ٧٩٢م

١٧٠-١٩٨هـ

(١) ويسميه العرب « نقفور » .

الجديد شروط الاتفاقية المعقودة بين المسلمين وأيريني »[١] ، وأرسل إلى الرشيد رسالة بذيئة يقول فيها : « من نقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب . أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها ، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فأردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك » . ويقول المؤرخ العربي : إن الرشيد عندما قرأ هذا الكتاب غضب غضباً شديداً بحيث لم يجرؤ أحد على النظر إليه أو التفوه بكلمة في حضرته ، كما تفرق جلساؤه وترك وزراؤه المجلس صامتين ، وما هي إلا أن طلب الخليفة قلماً ومحبرة وكتب على ظهر الكتاب ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من هرون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام » . وقد بر الخليفة بوعده وشخص من يومه على رأس جيشه حتى وصل إلى « هرقلة » إحدى قلاع الدولة البيزنطية ، حيث تقابل الفريقان فدارت بينهما معركة[٢] رائعة أسفرت عن هزيمة الروم هزيمة منكرة (ولا يعزب عن البال أن خفة حركة المسلمين في ميدان القتال لم يكن ليعوقها شيء غير فنون الخداع وتوبة الأعداء) ، فتوسل « نقفور » إلى الخليفة أن يقبل الصلح على خراج أكثر من الخراج السابق يؤديه كل سنة ، فأجابه الخليفة إلى طلبه وعاد إلى « الرقة » . ولكن لم يكد يمضي طويل وقت حتى نقض « نقفور » العهد ظنا منه أن الخليفة قد يعجز عن الوصول إليه في مثل ذلك الموسم ، غير أن الخليفة لم يكد ينتهي إلى مسامعه هذا الخبر حتى كر راجعاً ، ولشد ما دهش نقفور من تلك المفاجأة ومن مخاطرة أمير المؤمنين في ذلك الشتاء القارس ، وتمكنه من عبور جبال طوروس

---

(١) ابن خلدون .

(٢) يسميها السيوطي « معركة فاصلة ونصراً مؤزراً » .

المكسوة بالثلوج ، وفى الحال أسقط فى يده وفرّ من المعركة بعد أن أصيب بثلاثة جروح تاركا وراءه أشلاء ٤٠ ألف قتيل فى الميدان[١] . غير أنه عاد وطلب الموادعة فلم ير الخليفة بأساً فى تلبية طلبه متخذاً هذه المرة جميع الاحتياطات الضرورية لمنع تكرر هذا الغزو ، كتشييد القلاع وإقامة الحاميات القوية . بيد أن « نقفور » برغم كل هذه الإجراءات « ما كاد يبلغه خبر اشتباك العرب فى القتال فى ميدان آخر حتى نكث العهد ، ولكنه لم يلبث أن مُنى كعادته بالفشل المريع[٢] » .

وفى سنة ١٨٩ هـ زحف « الرشيد » على الرى[٣] ليؤدب أميرها الذى خرج عليه ، فانتهز إمبراطور الروم هذه السانحة وأغار على حدود الإمبراطورية العربية ، ولكن « القاسم بن الرشيد » — قائد الجيش العربى فى آسيا الصغرى فى ذلك الحين — صده عن زحفه وأوقع به شر إيقاع .

١٧٠–١٩٨هـ

وبينما كان الرشيد مقيما فى الرى حظى بمقابلته رؤساء الديلم وطبرستان فعاملهم بكل رعاية وإنصاف ، وبذلك اكتسب حبهم ، ثم قفل راجعاً إلى بغداد فى طريقه إلى الرقة التى أصبحت فى ذلك الحين مقره الدائمى حيث يتمكن من مراقبة حركات الروم وعشائر الشمال وقبائل الشام . وقد ظن أنه يستطيع بعد ذلك الجهد المضنى أن يخلد إلى الراحة والسكينة ، غير أن الروم لم يتيحوا له قط الفوز بأمنيته ، إذ لم تكد عشائر ماوراء النهر تعلن عصيانها حتى اجتاح « نقفور » الحدود الإسلامية مرتكبا أروع ضروب السفك والتخريب ، فلم يستطع الرشيد

---

(١) غيبون .

(٢) موير .

(٣) وهى الآن أطلال على مسافة خمسة كيلومترات من طهران ، تعرف باسم مشهد ، ولد فيها هرون الرشيد ، وهى وطن محمد بن زكريا الرازى الطبيب الذى اشتهر فى القرن الثالث الهجرى بالطب والكيمياء ، وفخر الدين الرازى صاحب مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير .
(المعرب)

السكوت على هذه الخيانة ، وفى الحال أناب المأمون عنه فى « الرقة » وسار لتوه إلى الشمال على رأس جيش كبير . وقد تطورت الحرب هـذه المرة إلى جهاد مقدس فى سبيل المحافظة على السلم وإرغام الروم على احترام المواثيق والعهود ، فانضوى تحت لوائه ١٣٠ ألف جندى اكتسح بهم آسـيا الصغرى حتى حدود « بيثينيا » شمالا و« ميسيا » و « كاريا » غربا ، وأخذت المدن تقدم إليه طاعتها الواحدة تلو الأخرى ، كما استولى « يزيد بن مخلد » على قونيا[1] وأفسوس ببلاد ليديا ، وأخضع « شرحبيل بن معن » سكاليا ودبسه وماليكوكيا وسيدارابوليس واندراسوس ونيقيا[2] ؛ وأحاط الجيش الظافر بهرقلة على البحر الأسود ثم استولى عليها بعد معركة رائعة مع نقفور . ولم يمض طويل وقت حتى طلب الروم — كعادتهم دائما — الصفح ؛ ومن الغريب أن الخليفة نزل هـذه المرة أيضاً على طلبهم ، ولو أنه أملى وقتئذ على الدولة البيزنطية شروطا أشد وطأة واحتل القسطنطينية لاستقر السلم العالمى فى ذلك الحين واستفادت المدنية فائدة عظمى . بيد أنه اكتفى بمعاهدة يوقعها « نقفور » وأشراف الإمبراطورية ، وهى تنص على زيادة الجزية التى شملت حتى الإمبراطور نفسه وسائر أفراد أسرته .

١٩٢هـ ٨٠٨م

وفى سنة ١٩٢ أخل الروم بالاتفاقية ثانية ، وتوغلوا فى البلاد الإسلامية ، ويقول موير بهذا الصدد : « كانت نتيجة تلك الحروب الطاحنة كنتائج غيرها من الحروب : استعار نار الكراهية الدينية » . وقد أرغمت الفتن التى نشبت فى خراسان وقتئذ الخليفة على السفر إلى المشرق ، فأرجأ إنزال العقاب بالروم إلى وقت آخر ، وعندئذ ترك « القاسم » فى الرقة مع « خزيمة بن خازم » أحد القواد المشهورين وأناب عنه الأمين فى بغداد ، ثم سار إلى المشرق يصحبه ابنه المأمون ، وما كاد

---

(١) مدينة فى آسيا الصغرى ، وفيها قبر جلال الدين الرومى المعروف بمولانا والمنسوبة إليه الطريقة المولوية ، وكذلك قبر أفلاطون الحكيم . (المعرب)

(٢) لم يذكر المؤرخون العرب أسماء هذه المدن وقد استقيناها من تاريخ « ثيوفونيس » .

يصل إلى بلاد الفرس ويخترق سلسلة جبالهـا حتى أرسل أمامه ابنه المأمون إلى مرو على رأس فرقة من الجنود ، وأخذ هو يسير على مهل بالقوة الرئيسية . ولما بلغ قرية سندباد بالقرب من طوس[1] عاوده مرضه القديم الذى كان يشكو منه منذ غادر الرقة ، فدعا من كان بعسكره من بنى هاشم وخاطبهم قائلا : « إن كل مخلوق ميت ، وكل جديد بال ، وقد نزل بى ما ترون ، وأنا أوصيكم بثلاث : الحفظ لأمانتكم والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم . وانظروا محمداً وعبد الله فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه وقبحوا له بغيه ونكثه » ، ثم وزع الأموال والضياع على جنوده وأتباعه ، ولم يلبث بعد ذلك إلا يومين حتى توفى فى مقتبل العمر يوم السبت لأربعة خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ (٨٠٩م) بعد حكم زاهر مدته ٢٣ سنة وستة أشهر .

١٧٠–١٩٨هـ

١٩٣هـ ٨٠٩م

أخلاقه وحكمه

ومهما نمعن النظر فى « الرشيد » بمنظار النقد التـاريخى نجده يحتل مكانا ساميا بين عظماء الملوك فى العالم أجمع ، ولـكن من الخطأ أن نقارن بين الحاضر والمـاضى ، أو أن نقيس أخلاق وعادات هذا الجيل بما فيه من مدنية وما توصلنا إليـه من رقى وتطور بصرامة الأخلاق والعادات التى كانت سائدة منذ عشرة قرون ؛ فإذا أخذنا كل ذلك بنظر الاعتبار تبين لنا أن نقائص الرشيد وشكوكه وسرعة انفعاله ليست إلا نتائج طبيعية للحكم الأتوقراطى .

وفى الواقع إن الصفات التى كان الرشيد متحلياً بها كضبط النفس والتفانى فى خدمة الشعب والاهتمام بمصالح الأمة — برغم السلطة المطلقة التى كان يمارسها — تعتبر فضائل ترجحه على أنداده وقرنائه ، وتنهض دليلا قويا على نبوغه . وقد أجمع المؤرخون على أنه لم يتوان قط فى أداء الواجب ، ولطالما قطع أنحاء

---

(١) عاصمة بلاد خراسان قديماً ، وفيها ولد الفردوسى الشاعر الفارسى المشهور ، وكذلك ولد فيها أبو حامد الغزالى ، ونصير الدين الطوسى الفلـكى الرياضى الفيلسوف .

(المعرب)

الإمبراطورية من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب ، لإصلاح المساوئ الفاشية وقمع الفتن والقضاء على الأخطاء ، والاطلاع بنفسه على أحوال الرعية ؛ كما أقام للناس حجهم تسع مرات فى سنى حكمه ، فاكتسب حب الرعية ، و بث فيهم روح الجندية ، وكان بلاطه ألمع بلاط فى ذلك الحين ، وكانت الشعراء

٧٨٦ـ٨١٤ م

والعلماء والحكماء يفدون عليه من كافة أنحاء المعمورة فيوليهم جميعاً عطفه وتشجيعه ، كذلك كان أول من وضع الموسيقى تحت رعايته ، فارتقت فى ظله حتى أصبحت مهنة شريفة لا تقل شأنا عن مثيلاتها من المهن الحرة الأخرى .

المذهب الحنفى

وفى عهده كذلك طفقت المدرسة الحنفية تتطور حتى اكتسبت شكلها النظامى على أيدى علماء الدين وعلى رأسهم أبو يوسف قاضى القضاة ، ومع أن هذا المذهب يعرف بالمذهب الحنفى إلا أنه فى الواقع من وضع قاضى قضاة « هرون الرشيد » . وقد كان أبو يوسف يجمع إلى ليونة كرامر (Crammar) شره بيكون (Baccn) ، ولا يعرف على وجه التحقيق لماذا لم يكتسب هذا المذهب يومئذ تلك الصرامة التى عرف بها فى العصور المتأخرة ، وهل يعزى ذلك إلى أنه كان لا يزال فى جدته وطفولته ، أو لأنه لم يكن قد اصطدم بعد بالعناصر المعارضة .

إن مدى إصرار أى مذهب فى فرض أحكامه يختلف باختلاف العناصر التى يتنازع معها ، وقد كان هذا النظام وقتئذ بالرغم من ازدياد الميل إلى الاجتهاد يتمتع بخاصية المرونة وقابلية التطور ، كما ثبت ذلك فى عدة ظروف ، بيد أن الاهتمام العظيم الذى أظهره الرشيد نحو العلماء والأهمية التى كان يعلقها على فتاويهم ، كل ذلك مهد السبيل إلى تأسيس سلطة من العلماء الدينيين الذين ازداد نفوذهم فى عهد الخلفاء الضعفاء[1] .

العلوم والآداب

وسع الرشيد دائرة الترجمة التى كان جده المنصور قد أنشأها لنقل العلوم

---

(١) يلاحظ أننا حذفنا هنا عدة عبارات لظروف خاصة رغم أننا نؤثر المحافظة على الأصل . (المعرب)

من اللغات الأجنبية إلى العربية كما زاد عدد موظفيها ، وإن كانت لم تبلغ الشأو العظيم الذى بلغته فى عصر المأمون . ومما هو جدير بالذكر أنه تألق فى عصره أنجم عدد من العلماء أمثال الأصمعى النحوى المشهور الذى كان الرشيد قد وكل إليه تثقيف أبنائه ، والشافعى أبو عبدالله بن إدريس ، وعيسى بن يونس ، وسفيان بن الصورى ، وإبراهيم الموصلى المغنى المشهور ، وجبريل بن بختيشوع . ويقول ابن خلدون : إن الرشيد اقتفى أثر جده فيما عدا الشح والبخل إذ لم يكن يبزه إنسان فى الكرم والسخاء .

كان الخليفة نفسه شاعراً محبا للعلم مكرما للشعراء ، وفى عهده افتتحت المكاتبات مع الغرب والشرق الأقصى ، كذلك كان أول من استقبل السفراء من ملك الصين وشرلمان ؛ ولا تزال الساعة[1] والهدايا الأخرى التى أهداها إلى الأخير موضع الدهشة ، ومثالاً حيا لما وصل إليه الفن الإسلامى فى ذلك الحين من الإتقان والإبداع . وقد اشتهر أربع من أولاده فى التاريخ وهم : محمد الأمين ، وعبدالله المأمون ، والقاسم المؤتمن ، وأبو إسحق محمد المعتصم .

محمد الأمين
١٩٣–١٩٨هـ
٨٠٩–٨١٣م

ولما توفى الرشيد كان الأمين ببغداد والمأمون بمرو والقاسم بقنسرين ، والست زبيدة فى الرقة ، فبعث صاحب البريد خبر وفاة الخليفة إلى بغداد ، وفى اليوم التالى أرسل « صالح » الذى كان حاضراً وفاة أبيه خاتم الخلافة وقضيب النبى (ص) والبردة إلى أخيه الأمين الذى توجه فى الحال من قصر الخلد ، حيث كان يقيم ، إلى قصر الخلافة ، فصلى بالناس وألقى الخطبة التقليدية ، وتقبل البيعة من قواد الجيش والأشراف والموظفين ، كذلك كان المأمون قد أرسل كتاباً إلى أخيه بالتهنئة مع بعض الهدايا .

---

(١) صنعت تلك الساعة بدقة فنية عظيمة ، بحيث كانت تدق عند نهاية كل ساعة زمنية بواسطة كرات تتساقط على لوح نحاسى ، وكان يخرج عدد من التماثيل الخيالة حسب عدد الدقات من باب يفتح فجأة ، وبعد أن يختفى الصوت كانت تعود أدراجها ويقفل الباب وراءها .

وحالما أذيع خبر وفاة الخليفة أسرعت الست زبيدة إلى بغداد . وتقول لنا الرواية إن ابنها الأمين خف إلى استقبالها فى الأنبار بمنتهى الأبهة والجلال ، وأنزلها معه فى قصر الخلافة حيث ظلت تعيش بجانبه إلى أن لاقى حتفه .

أخلاق الأمين والمأمون

حقيق بنا فى هذه المرحلة أن نقارن بين أخلاق الأخوين الأمين والمأمون اللذين لم يلبثا أن تصرمت بينهما حبال الود والإخاء ، وأضمر الواحد للآخر البغض والعداء ؛ وإنا إذا استقصينا نشأتهما وجدنا أنهما قد تلقيا العلم على أيدى أشهر علماء العصر ، فتربى الأمين فى حجر أمه ، وترعرع فى كنف خاله . أما المأمون ، الذى توفيت أمه الفارسية وهو لا يزال طفلا ، فقد اعتنى بتهذيبه جعفر البرمكى .

١٧٠–١٩٨هـ

استمد الأخوان علومهما وثقافتهما من معين واحد ، فدرسا العلوم الشائعة فى عصرها ، وهى البلاغة والشعر والتاريخ والفقه والحديث ؛ ولكنهما من حيث الاستعداد العقلى كانا يختلفان الواحد عن الآخر اختلافا بيناً ، إذ بينما كان المأمون يستوعب كل ما يلقى عليه من الدرس ويلتهمه التهاما ، كان الأمين محبا للهو ، لا يتأثر بما يلقى عليه إلا تأثيراً سطحيا ؛ بيد أن كليهما أتقنا — برغم ذلك — الخطابة التى كانت تعتبر من أميز ميزات الأمير العربى ؛ وكان المأمون فوق ذلك متفقهاً فى علوم الدين ، ملما بأصول التفسير والحديث ، حافظاً للقرآن الكريم ، يجيد تلاوته ويفهم معانيه . وكان الرشيد بثاقب فكره وبعد نظره يدرك الفرق جليا بين خلقيهما وتفاوت صفتيهما ، ولعله توقع نتيجة الإجراءات التى اتخذها والعناية التى رعاهما بها ، فأشهد الحاضرين على أن يكون الجيش الذى أرسله إلى خراسان وما معه من مال وسلاح وآلات تحت إمرة المأمون ، يتصرف فيها كيف شاء للدفاع عن الولايات الشرقية ، كما منح الأمين الكنوز العظيمة التى خلفها له فى بغداد ؛ ولكن الدلائل كانت تنذر بأن الأمين قد بيت لأخيه وعقد النية على الحنث بميثاق أبيه .

خيانة الفضل ابن الربيع

وعلى أثر وفاة الرشيد انحاز الفضل بن الربيع الذى كان لايزال فى منصب الوزارة منذ نكبة البرامكة إلى الأمين ، إذ كان يعرف فيه ضعف الإرادة والاستهتار بالحكم ، ولاسيما أنه كان يطمح من وراء ذلك إلى القبض على ناصية الأمور ، فأقنع الجنود بنكث العهود التى كانوا قد قطعوها على أنفسهم للمأمون والعودة معه على جناح السرعة إلى العاصمة وعرض طاعتهم على الأمين ، فلما وفد « الفضل » على رأس الجيش ومعه الأموال التى اغتصبها من المأمون فرح به الأمين فرحاً عظيما ، وقلده منصب الوزارة كما وزع مرتبات سنتين مقدماً على الجنود .

٧٨٦ـ٨١٤ م

أما المأمون فلم يلبث أن ألفى نفسه بعد خيانة الفضل بن الربيع مجرداً من القوة والمال ، وتحرج موقفه إلى درجة تدعو إلى العطف والرثاء ، وبخاصة عندما بلغه أن زعماء ولايته وشيوخها بدأوا يقلبون له ظهر المجن ، ويعلنون تمردهم وعصيانهم ، فشمر عن ساعد الجد وصرف همه إلى تهدئة خواطرهم وتسكين ثورتهم بالترغيب تارة والحسنى أخرى ؛ ومن حسن طالعه أنه حصل خلال تلك الأزمة على معاضدة مستشاريه الأكفاء الذين هرعوا إلى جانبه يمحضونه النصح وعلى رأسهم «الفضل بن سهل» ، ذلك الفارسى المشهور بسعة الحيلة وشدة الدهاء . وكان من أعوانه أيضاً « هرثمة » المشهور ، وطاهر بن الحسين الخزاعى القائد الطموح . ويقال إن المأمون عامل أشراف الولاية بالرعاية والاحترام وخفض الضرائب على اختلافها ، فحمدوا له عطفه وبره وأعلنوا طاعتهم له ، والتفوا حوله باعتباره أنه ابن شقيقتهم ، ومما يجلب الثناء عليه سلوكه الودى البعيد عن كل ريبة أثناء الخلاف بينه وبين أخيه .

تبذير الأمين

وفيما كان المأمون منهمكا فى تنظيم شؤون الولاية الوحيدة التى بقيت محافظة على ولائها له ، كان الأمين يسير بالبلاد سراعا إلى الخراب والدمار ، ويبذر الأموال ذات اليمين وذات الشمال فى سبيل الحصول على ولاء الجنود ، وجلب المضحكين

من جميع أنحاء الأمصار ، وشراء الجوارى الفاتنات والمغنيات الحسناوات . كذلك يقال إنه زاد فى عدد الخصيان الذين كانت تزخر بهم الدولة البيزنطية ويستخدمهم نبلاء روما الجديدة ، ليس فى حراسة النساء فحسب ، بل فى إدارة شؤون الدولة أيضاً . ويقول لنا المؤرخون إنه ذاع فى عهده ضرب جديد من اللهو وهو عبارة عن حفلات رقص كان الأمين يديرها بنفسه فى الأبهاء الملكية ، وكانت كل حلقة تتألف من مائة فتاة من أرشق الفتيات وأوفرهن جمالا ، وكن يظهرن فى تلك الليالى الساهرة بأبهى الحلل الموشاة بالقصب والمرصعة بالجواهر الثمينة ، ومما كان يثير السرور والإعجاب أنهن كن يرقصن مجتمعات على أنغام الموسيقى الشجية بحركات إيقاعية ، ويتمايلن فى بطء رائحات غاديات ملوحات بسعف النخيل ، منحنيات تارة ومنتصبات أخرى فى دوائر تشع عليهن الأضواء الساطعة . كذلك أمر الأمين بصنع خمس حراقات فى دجلة على هيئة الأسد والعقاب والحية والفرس والفيل . وكان يقضى جل أوقاته فى معاقرة الخمر والاستمتاع بضروب اللهو وارتشاف كؤوس الحب المترعة ، تطوقه الجوارى الحسناوات وتحيط به المغنيات الجميلات ، حتى عزفت نفسه عن السلطة وترك شؤون الدولة للفضل بن الربيع يتصرف فيها كيف شاء له الجشع البالغ حد الإفراط .

وفى تلك الأثناء قتل « نقفور » فى الحروب الطاحنة التى دارت بين الروم والبلغار ، وخلفه ابنه « استبرق » ثم ولى الحكم من بعده ميخائيل بن جرجس الذى تزوج من أخت الاستبرق ، وبعد قليل تنازل عن العرش للقائد « ليو » الذى لم يكد ينادى بنفسه ملكا على الروم حتى نقض شروط المعاهدة مع المسلمين وأغار على الحدود ، فى حين كان الأمين غارقاً فى لهوه وعبثه دون أن يجد لنفسه متسعاً من الوقت للوقوف على أخطاء الحكام وكبار موظفى الدولة . وبدلا من أن يستخدم نشاطه ويستغل أموال الدولة فى سبيل الدفاع عن الإمبراطورية ، أخذ يناصب أخاه العداء ويعلن عليه حرباً شعواء .

أما الفضل بن الربيع وزير الأمين فكان يخشى مغبة عمله لو آل الأمر إلى المأمون ، ولهذا أخذ يحرض الأمين على خلع أخيه من ولاية العهد ، فلم يعره الخليفة أذناً صاغية فى بادئ الأمر ، ولكنه إزاء إلحاح وزيره وأحد المستشارين المسمى على بن عيسى بن ماهان — الذى لم يكن ليقل عن الفضل لؤماً ونفاقاً — قبل مشورتهما وأقدم على اتخاذ تلك الخطة المشؤومة . وفى الحال أرسل فى طلب المأمون الذى اعتذر عن المجئ بقوله : إن حالة الإمارة التى يحكمها لا تسمح له بتركها ، غير أن الخليفة استاء من هذا الرفض وأمر بخلعه ونهى عن ذكر اسمه على المنابر يوم الجمعة ؛ كما عزل القاسم من الإمارة التى كان الرشيد قد استعمله عليها .

الخلاف بين الأمين والمأمون ١٩٥ هـ — ٨١١ م

ويظهر أن الأمين لم يكتف بتلك الإجراءات الجائرة التى اتخذها ضد أخويه ، إذ بايع ابنه الطفل « موسى » بولاية العهد ولقبه « بالناطق بالحق » ومن بعده ابنه الثانى ولقبه « بالقائم بالحق » .

فأجاب المأمون على عزله من ولاية العهد بضرب حصار شديد على الحدود الغربية ، فلم يسمح لأى إنسان كائناً من كان بالدخول إلى ولايته دون فحصه واستجوابه ، خوفا من أن تتسرب إليها الكتب والدعايات المضرة التى قد تحرض الأهالى على التمرد والعصيان ، وبهذه التدابير اتسعت شقة الخلاف بين الأخوين ، فأرسل الأمين فى طلب الميثاقين المعلقين بالكعبة ومزقهما ، ثم بعث بخمسين ألف جندى بقيادة على بن عيسى بن ماهان إلى الرى حيث اقتتل الفريقان فى موقعة دامية ؛ وكان على رأس جيش المأمون طاهر بن الحسين الذى أوقع بجيش خصمه شر إيقاع ، ومزقه كل ممزق بعد مقتل قائده على بن عيسى ، فالتحق على أثر ذلك عدد كبير من جنود الأمين بطاهر بن الحسين ، الذى طير فى الحال خبر انتصاره إلى المأمون بعبارة موجزة تشبه عبارة « يوليوس قيصر » التى بعث بها عقب انتصاره إلى مجلس الشيوخ الرومانى قائلا : كتبت إليك ورأس « على

ابن عيسى » فى حجرى وخاتمه فى يدى ، وجنوده تحت إمرتى . و يقال إن الرسول قطع تلك المسافة البالغة ٧٥٠ ميلا فى ثلاثة أيام .

ولما انتهى خبر هذا الانتصار الباهر إلى مسامع الفضل بن الربيع شعر بزوال سلطته ؛ وفى الحال صادر مبلغ المائة ألف درهم التى كان الرشيد قد وهبها للمأمون قبل وفاته كما صادر جميع أملاك المأمون الخاصة التى كان قد تركها فى عهدة نوفل مربى الأخوين : الأمين والمأمون ، الأمر الذى حدا بالشعراء إلى هجو الخليفة الضعيف ووزيره الجشع . ويقال إن بطانة الأمين بعد أن أعيتها الحيلة اقترحت عليه أن يأخذ أولاد أخيه رهائن حتى يسلم نفسه أو يفتك بهم ؛ بيدأن الخليفة لم يستهجن هذا الرأى المخزى فحسب ، بل عاقب الذين اجترأوا على إبدائه بالحبس .

١٧٠–١٩٨ هـ

ويقال إن الأمين رأى انقاذاً للموقف أن يبعث بعدة جيوش من بغداد الواحد تلو الآخر ، ولكنها جميعاً كانت تلاقى نفس المصير ، فاستطاع طاهر بن الحسين بعد إخضاع البقاع الجبلية أن يستولى على قزوين ، ثم سار فى طريقه مكتسحاً أمامه كل مقاومة حتى غشى حلوان واتخذها مقرا لجيشه ، ثم توجه صوب الأهواز ، بينما زحف « هرثمة » نحو الشمال .

مبايعة المأمون بالخلافة

وقد بايع أهل فارس « المأمون » بالخلافة ، وعلى أثر ذلك تقلد الفضل بن سهل الإدارة العليا من حدود التبت إلى همذان ، ومن المحيط الهندى حتى بحر قزوين ؛ فجمع بذلك بين الرئاستين رئاسة الحرب ورئاسة الخراج ، كما أسند إلى « على بن هشام » منصب وزارة الحرب ، وولى شؤون إدارة الدخل « نعيم بن كاظم » مع « حسن بن سهل » كمساعد له .

و بينما كانت تلك الحوادث تقع سراعا فى الشرق أضرم «على بن عبد الله»

٧٨٦ـ٨١٤ م

أحد أحفاد معاوية[١] الأول نار الثورة مدعياً لنفسه بالخلافة ، كذلك ظهر له منافس آخر هو حفيد « مسلمة » ؛ بيدأن أصحاب هذين الثائرين وأتباعهما تخلوا عنهما ، وتفرقوا من حولهما كما اختفى صاحبا الدعوة بالسرعة التي ظهرا بها .

لم يمض سوى قليل حتى استولى قائد « المأمون » على الأهواز واليمامة والبحرين وعمان ، ثم توغل شمالا واحتل واسط فأثرت سرعة انتقاله وخضوع الموانىء الواقعة على الساحل تأثيراً قويا على البلدان الأخرى ، إذ اعترف « العباس ابن الهادى » عامل الأمين على الكوفة بسلطة المأمون ، وحذا حذوه « المنصور بن المهدى» عامل البصرة ، ثم «داود بن عيسى»[٢] أمير الحرمين ، فعاملهم المأمون جميعاً بكل رعاية وعطف وأقرهم فى مناصبهم . ومن ثم زحف « طاهر بن الحسين » نحو الشمال بعد أن استولى على المدائن التى كانت لا تزال موقعاً حربيا هاماً ، وظل يواصل سيره متجها نحو العاصمة . وفى الوقت نفسه كان « المسيب بن زهير » قد وصل إلى بغداد فاشترك القواد الثلاثة فى حصار المدينة حيث عسكر طاهر بباب الأنبار ، ونزل هرثمة نهربين إحدى فتحات النهر ، واستمر الحصار عدة أشهر استنفد فيها الأمين جميع أموال الدولة التى كان يوزعها على جنوده و بطانته ذات اليمين وذات الشمال ، ثم أمر بضرب آنيـة الذهب والفضة دنانير ودراهم ووزعها عليهم . ويقال إن بغداد أصيبت فى أثناء ذلك الحصار بأضرار جمة ، إذ أخذ الفريقان المتحاربان يهدمان القصور والدور العامرة التى كانت تعترض حركاتهما الحربية ، فحل بنصف المدينة الخراب وتداعى بنيانه ، واشتدت نكبة السكان كما عظمت محنتهم حتى بلغت درجة لا تطاق ؛ فأخذ الأشراف والأعيان ينفضون من حول الأمين ، غير أن العامة وزعانف المدينة استمروا فى كفاحهم

حصار بغداد
١٩٧ هـ —
٨١٣ م

---

(١) هو على بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية ، المعروف بالسفيانى وأمه نفيسة حفيدة العباس بن على الذى قتل مع الحسين فى موقعة كربلاء .

(٢) هو عيسى الذى حرمه المنصور من ولاية العهد .

باصرار غريب ؛ ولكن ذلك لم يفده فتيلا ، إذ اضطر هو وأمه وأسرته إلى

١٧٠-١٩٨هـ

الاعتصام بالمنصورية على الضفة الغربية من النهر ، وهنالك تجمعت عليه الإحن والشدائد . ولما تحرج الموقف اقترح عليه بعض مستشاريه القلائل الذين ظلوا بجانبه أن يفر إلى الشام ، غير أنه مال إلى التسليم على شرط أن يؤخذ إلى أخيه المأمون الذى كان يثق بحبه له ، وبدأت تسير المفاوضات على هذا الأساس ، غير أن « طاهراً » أصر على أن يأسره ؛ على حين كان الخليفة المنكود الحظ يأبى بشدة أن يسلم نفسه لذلك الأعور البغيض الذى لا يثق به ، ولكنه وافق نهائيا على التسليم إلى هرثمة أحد قواد أبيه الأمناء ، وقد تم الاتفاق بالفعل على أن يخرج الأمين إلى هرثمة ، بينما يدفع الخاتم والقضيب والبردة إلى « طاهر » فينال القائدان بذلك فخر إخضاع الخليفة وإذلاله . فلما خرج الأمين من قصره يريد التسليم استقبله هرثمة بكل احترام ورعاية ، وأمر الملاحين أن يسيروا بهما على جناح السرعة إلى معسكره ، ولكن الحراقة ما كادت تبتعد قليلا عن الشاطىء حتى رماها بعض جنود الفرس الأفظاظ بالحجارة الضخمة فانكسرت وانكفأت بهم ، وكاد هرثمة يلقى حتفه غرقا لو لم ينقذه أحد الملاحين ، فقبض بعض الجنود على كلا الأمين وقاضى المدينة وحملوهما إلى إحدى القلاع المجاورة .

مقتل الأمين
٢٣ محرم ١٩٨هـ
٨١٤ م

وكان الأمين يرتعد من شدة البرد فغطاه القاضى بعباءته . وفى منتصف الليل فتح رهط من الفرس باب الغرفة وهجموا على الأمين ، فحاول الدفاع عن نفسه بالوسادة التى كانت بيده ، ولكنهم ذبحوه ونصبوا رأسه فى صباح اليوم التالى على أسوار بغداد .

ولما علم المأمون بمقتل أخيه حزن حزنا شديداً ، إذ لم يكن يتوقع قط أن يؤدى بهما الخلاف إلى هذه النتيجة المحزنة ، فأمر بمعاقبة القتلة الآثمين ، ولأجل أن يعوض عن هذا الرزء الفادح تبنى أولاد أخيه ، كما عهد إلى الست زبيدة

أمر تربيتهم ، ولما أن بلغوا سن الرشد زوجهم من بناته . وقد مات أحدهم فى ريق صباه ، ومما يذكر للمأمون بالشكر أنه أبقى لعائلة الأمين جميع أموالهم وملكهم .

وهكذا قتل الأمين فى الثامنة والعشرين من عمره ، وكانت مدة خلافته المحفوفة بالأهوال والاضطرابات أربع سنوات وثمانية أشهر .

الفصل الثامن عشر

العباسيون

١٩٨ — ٢٣٢ هـ (٨١٣ — ٨٤٧م)

المأمون العظيم — المعتصم — الواثق

المأمون فى مرو — الاضطرابات فى بغداد — وفاة الإمام على الرضا — المأمون فى بغداد — الحروب مع الروم — المذهب العقلى — وفاة المأمون — أخلاقه — تطور حياة العرب العقلية فى عهد المأمون — خلافة المعتصم — تغيير العاصمة — تأليف الحرس التركى — القبض على بابك — انهزام الروم — وفاة المعتصم — خلافة الواثق — أخلاقه — وفاته

المأمون فى مرو

لو أن « المأمون » قصد توا إلى بغداد لما اختل حبل الأمن هناك ، ولما وقعت تلك الاضطرابات فى السنوات القلائل التى أعقبت انتصاره على الأمين ، ولكنه اعتمد على وزيره الطموح « الفضل بن سهل » تاركا له إدارة شؤون البلاد ، قاصراً همه على مناظراته الفلسفية مع العلماء والحكماء الذين كانت تتألف منهم بطانته ؛ وكان الفضل من جهته يتوق إلى إبقاء الخليفة تحت نفوذه فى مرو ، لذلك لم يكن ليسمح قط بأن تتطرق إلى مسامعه الأخبار الحقيقية عن شؤون الدولة فى المغرب .

الاضطرابات فى العراق وجزيرة العرب

و بعد وفاة « الأمين » بقليل ثار أحد أشياع الأمويين واسمه « نصر »[1] فى الجزيرة متحديا جيوش الخليفة طوال خمس سنوات ، كما ثار فى تلك الأثناء بعض القبائل على الحسن بن سهل الذى كان قد ولاه أخوه الفضل على العراق

---

(١) هو نصر بن شيث من عشيرة عقيل .

ويلاحظ أن هذه الحادثات لم تقع دون أن تؤثر على أحفاد « على » الذين خرجوا الآن مع أولاد جعفر الملقب بالطيار على الخليفة ، ولم يكن لهؤلاء إلى الآن اسم يذكر أو صوت يسمع ، ولكن لم يمض سوى قليل حتى أيقنوا أن ساعة العمل المثمر قد أزفت ، وأن الفرصة المواتية قد تهيأت لاستعادة حقوقهم المغصوبة

جمادى الثانية ١٩٩هـ ٨١٤م

كذلك ظهر علوى آخر يسمى « ابن طباطبا » فى الكوفة وأخذ يدعو الناس لآل البيت ، وكان يعضده فى دعوته « أبو السرايا » أحد قطاع الطرق ، فوحد الاثنان صفوفهما واقتتلا مع الحسن بن سهل فى عدة معارك حتى هزماه واستوليا على جنوبى العراق كله ، ولكن « ابن طباطبا » مات مسموما بتحريض من أبى السرايا الذى ولى مكانه أحد الشبان العلويين .

وفيما كان أوار تلك الفتن يستعر على ضفاف دجلة بويع « محمد بن جعفر الصادق » بالخلافة فى الحجاز ، وهكذا أصبحت البلاد من حدود فارس إلى اليمن تفيض بالفتن والقلاقل ، فعم القتل وانتشرت الفوضى فى كل مكان ؛ ولكن الوزير برغم ذلك لم يسمح بتسرب هذه الأخبار إلى مسامع المأمون . وفى النهاية أتخذت الثورة فى العراق شكلا مريعاً اضطر معها الفضل برغم شدة حقده على هرثمة إلى أن يرسله على رأس جيش كبير لقمع حركة أبى السرايا ، فاقتتل الفريقان فى معركة دامية أسفرت عن هزيمة أبى السرايا الذى أرسله هرثمة إلى مرو حيث صفح عنه المأمون وأدخله فى عداد بطانته . ولما قمع « هرثمة » الثورة فى العراق ولى مصر ، ولكنه رفض قبول هذا المنصب ما لم يطلع الخليفة بنفسه على جلية الأمر ، ويلفت نظره إلى الخطر المحدق به ، فلما دخل على الخليفة دار بينهما حديث حماسى أفضى فيه إلى المأمون فيما أفضى بأن الإمبراطورية العربية آخذة فى الاضمحلال ، ولكنه ما كاد يترك قصر الخلافة حتى هجم عليه أعوان الوزير بسيوفهم وجرحوه جروحا بليغة توفى على أثرها بعد أيام قلائل ؛ وقد قيل للمأمون حينما تفقده إنه طريح الفراش ، ولم يعرف أن الدولة قد فقدت بوفاته خادما أمينا

١٩٨–٢٣٢هـ

وفاة هرثمة

إلا بعد مدة طويلة . كذلك أثار موته غضب رجال الجيش فى بغداد نظراً إلى تعلق الجيش به وتفانيه فى خدمته ، ويقال إن الفوضى انتشرت من جديد فى كل مكان ، وتألب الشعب على « الحسن بن سهل » وأخيه « الفضل » وانتخبوا مكانه « حسن المنصور » بن المهدى الذى قبل المنصب حتى يصل المأمون إلى العاصمة أو يرسل من ينوب عنه .

٢٠٠ هـ ٨١٥ م

وفى سنة ٢٠٠ هـ بدأ المأمون بتنفيذ مشروعه الخطير الذى طالما فكر فيه منذ زمن بعيد ، وهو نقل الخلافة إلى آل البيت ، وتحقيقاً لهذه الغاية أرسل فى طلب الإمام الفاطمى « على الثالث » ابن موسى الكاظم من المدينة ، وصرح علانية بأنه نظر فى أبناء « العباس »[1] وأبناء « على » ، فلم يجد أحداً أفضل ولا أحق بولاية العهد من « على بن موسى الرضا » . وفى اليوم الثانى من شهر رمضان سنة ٢٠١ هـ أقام له حفلة البيعة بولاية العهد ، ولقبه « بالرضا من آل محمد » كما أمر باستبدال لون السواد شعار العباسيين باللون الأخضر شعار الفاطميين الذى اختاره شعاراً للدولة ، فأثارت مبايعة على الرضا بولاية العهد غضب العباسيين غضباً شديداً جعلهم يبايعون إبراهيم بن المهدى بالخلافة ، ويطردون عمال الحسن من العاصمة ، فانتشرت الفتنة فى بغداد والمدن المجاورة ، وسادت الفوضى وتغلب اللصوص وقطاع الطريق وعم الخراب ، وزادت أعمال العنف وساءت الأحوال حتى اضطر الأشراف إلى التأهب لحماية أنفسهم وأموالهم ، فألفوا فيما بينهم لجاناً لصيانة الأمن وتنفيذ القوانين ومعاقبة المعتدين بما يستحقون من عقاب ، وظلت هذه اللجان تقوم بواجبها باطراد حتى وصل المأمون بغداد . أما الأحوال فى جنوبى العراق والحجاز فلم تكن لتقل سوءاً عن غيرها من الأمصار ، ولم يكن لإبراهيم ولا للحسن بن سهل أى نفوذ على الناس فى تلك الأصقاع ؛ فانتشرت الفوضى وعم الخطب ، وذهبت الطمأنينة من النفوس ، وغاض معين الأمن ،

مبايعة على بولاية العهد

٨١٣–٨٤٧ م

الاضطرابات فى بغداد

(١) بلغ إحصاء الأسرة العباسية فى ذلك الحين ٣٣٫٠٠٠ نسمة .

وتفككت أواصر الإمبراطوريه بنتيجة سوء إدارة الوزير الفارسى .

وفى هذه الأزمة الطاحنة توجه الإمام على الرضا إلى المأمون وشرح له الحقيقة ، وأعلمه بأن الوزير إنما يموه عليه الأمور ويحول دون تسرب الأخبار إليه ؛ كذلك أخبره أن أهل بيته قد بايعوا إبراهيم[1] بن المهدى بالخلافة ، وأنهم ينقمون عليه بيعته له من بعده ، وأعلمه أيضاً بكل ما حدث منذ مقتل أخيه الأمين ، فدهش الخليفة وسأل بطبيعة الحال فيما إذا كان هناك من يعرف هذه الحقائق التى أفضى إليه بها فسمى له بعض القواد . ولما سألهم المأمون أخبروه بالخبر الصحيح بعد أن أمنهم على أنفسهم وضمن حمايتهم من غضب الوزير ونقمته ، وزادوا على ذلك بقولهم : إن الخليفة قد فقد بموت هرثمة خادما أميناً ، وإن الفضل دس له من قتله انتقاما منه ، وإن إبراهيم المهدى لم يكن مندوب المأمون كما ادعى الوزير ، إنما أهل بيته بايعوه بالخلافة لنقمتهم عليه . فزالت الغشاوة عن أعين الخليفة وأمر بشد الرحال إلى الغرب على جناح السرعة ، فسافر فى اليوم التالى وبصحبته جميع موظفى البلاط ؛ ولما أدرك « الفضل » أن مكيدته قد فشلت ، وأنه لا يستطيع الإيقاع بالإمام الرضا الذى كان منصبه يحميه من كل اعتداء ، أخذ يصب جام غضبه على أولئك القواد الذين أيدوا كلام الإمام فجلد البعض وسجن البعض الآخر وذبح عدداً غير قليل ممن استطاع التنكيل بهم .

١٩٨–٢٣٢ هـ

سفر المأمون إلى بغداد

وفى هذه المرة ذهب « على الرضا » إلى المأمون وشرح له أعمال الوزير ، فأجابه الخليفة قائلا : إنه لا يستطيع على الفور تجريد الفضل من السلطة والنفوذ ، إنما يجب أن يفعل ذلك بالتدريج ويدارى ما هو فيه ، غير أن أعداء الوزير من أهل فارس كانوا قد توقعوا أن الخليفة سيعزله من منصبه فشد عليه قوم منهم فى

---

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن المهدى ، وكانت له اليد الطولى فى الغناء والضرب بالملاهى وحسن المنادمة ، وكان أسود اللون ، لأن أمه كانت جارية ، وكان وافر الفضل ، غزير الأدب ، واسع النفس ، سخى الكف ، ولم ير فى أولاد الخلفاء أفصح منه لساناً ، ولا أحسن منه شعراً . (ابن خلكان ص١٢ ج١) . (المعرب)

«سرخس» التى تبعد يوما واحداً عن مرو وضربوه بسيوفهم حتى مات ، فأمر بهم الخليفة و بمحرضيهم فضربت أعناقهم .

وفاة الإمام على الرضا
٢٠٣هـ ٨١٨م
٨١٣ـ٨٤٧م

ولما وصل المأمون إلى طوس ، وهى البلدة التى دفن فيها أبوه الرشيد مكث قليلا من الزمن ، وهنالك فقد صديقه الأمين ومستشاره المخلص «الإمام الرضا» الذى أنقذ فعلا الإمبراطورية من الانحلال والخراب . وقد توفى الإمام فجأة[1] وخلفه « ابنه محمد » الملقب بالجواد والتقى ، فحزن عليه المأمون حزنا بالغا ، و بنى له قبراً أصبح منذ ذلك الحين مقصد الحجاج الشيعة يؤمونه من كافة أنحاء العالم ويسمى بالمشهد أو المشهد القدسى . و بعد أن دفنه المأمون واصل سيره إلى العاصمة وكان يقف فى كل مدينة مدة من الزمن تختلف باختلاف خطرها وأهميتها ؛ فمكث فى النهروان ثمانية أيام حيث خرج إليه القواد ووجوه بغداد وأهل بيته ، وكان يلبس الجميع الملابس الخضراء ، ولكنه نزولا على طلب « طاهر بن الحسين » الذى جاء من الرقة ليسير بمعيته واستجابة لرجاء الزعماء الآخرين رجع إلى لبس السواد شعار العباسيين .

٢٠٤هـ ٨١٩م

وصول المأمون مدينة بغداد

اصطبغ دخول المأمون مدينة بغداد بصبغة النصر والفوز ؛ فأقيمت أعلام الزينة ولبس الناس أبهى الملابس ، وكانت الجموع المزدحمة فى الشوارع تهلل فرحا واستبشاراً بعودة الخليفة إلى حاضرة ملكه ، و بوصوله انتهت أعمال التخريب وقضى على الشغب ، وانحلت اللجان التى كانت قد تشكلت من تلقاء نفسها لحماية السكان ، ونشط الخليفة إلى إعادة تنظيم الإدارة و إصلاح ماخرب به المحاربون فى أثناء الحصار . ويقال إنه فى إحدى جولاته الليلية كان أمير الخراج أحمد بن أبى خالد[2] يصف له مبلغ ماعاناه الشعب من الشدة ، فأجابه المأمون بقوله : إن بغداد

١٩٨ـ٢٣٢هـ

---

(١) إن القصة القائلة بأن المأمون هو المحرض على قتل « الفضل » وتسميم (الإمام الرضا) مختلقة ولا أساس لها من الصحة .

(٢) وهو يلقب بالأحول ، وقد أصبح فيما بعد وزير المأمون .

ثلاث طبقات : المظلومون والظالمون وثمة طبقة ثالثة [١] هى منبع كل شر وأصل كل فساد .

تعيين طاهر أميراً على الشرق ٢٠٥هـ ٨٢٠م

وفاة طاهر ٢٠٧هـ ٨٢٢م

والمأثور أن الخليفة استعمل أحد العلويين على الأراضى المقدسة كما ولى شقيقيه الكوفة والبصرة ، وأسند إدارة الشرطة إلى طاهر الذى لم يلبث أن طلب إمارة المشرق فأسندها إليه ، وظل قائماً بإدارتها حتى وافته منيته بعد سنتين فعين ابنه مكانه وظل قائما بإدارتها سبع سنين ، كذلك استعمل على الشام ومصر عبد الله بن طاهر أحد أولاده المشهورين وهو أكثر مروءة من أبيه ؛ وكان الخليفة قد وكل إليه فى تلك الأثناء قمع فتنة «ناصر العقيلى» فقاتله فى عدة معارك حتى هزمه واضطره إلى التسليم ، ثم أرسله إلى الخليفة الذى عفا عنه كعادته .

٨١٣ـ٨٤٧م

احتلال جزيرة كريت ٢١٠هـ ٨٢٥م

وما أن استتب الأمن فى ربوع الجزيرة حتى سار عبد الله بن طاهر إلى مصر التى كانت تعصف بها ريح الفتن الداخلية فنكل بالثوار وهزمهم شر هزيمة فى موقعة واحدة . وكان أمير الأندلس الأموى فى تلك الأثناء قد نفى جماعة كبيرة من مسلمى الأسبان وأخرجهم من البلاد ، فوصلوا إلى مصر مع أسرهم وأحدثوا فى الإسكندرية شغبا هائلا ، فأمرهم عبد الله إما أن يسلموا سلاحهم أو يغادرروا البلاد من فورهم ؛ فطلبوا السفر إلى جزيرة كريت وعندئذ زودهم بالمؤونة الكافية والمساعدات التى كانوا يحتاجونها لاحتلال الجزيرة ، كما التحق بهم عدد غير قليل من المتطوعة ، فاستولوا على الجزيرة بعد مناوشات طفيفة ولا يزال يقطنها أحفاد هؤلاء المغيرين ؛ وأصبح مركزهم من أهل الجزيرة كمركز السكسونيين المستعمرين من أهل الجزر البريطانية .

الاستيلاء على جزيرة صقلية ٢٠٨هـ ٨٢٣م

كان زيادة الله الأغلب قد استولى على جزيرة صقلية باسم الخليفة قبل إغارة مسلمى الأندلس على جزيرة كريت بسنتين ؛ وفى تلك الأثناء قمعت الفتن التى

---

(١) يهتم المواطن فى المدن المنظمة باستتباب الأمن ، أما الذين يتجنبون الشؤون العامة فإنما يفسحون المجال للطبقات المشاغبة لانتهاك حرمة القوانين .

كانت مستعرة فى اليمن وخراسان دون صعوبة تذكر ، وعومل زعماء تلك الفتن بالعطف مما لم يسبق له مثيل ؛ ولكن الخليفة لم يلبث أن روع باكتشاف مؤامرة خطيرة واسعة النطاق لاغتياله ، وكان على رأسها عدد كبير من أهل بيته فأنزل بكبار المتآمرين العقاب الذى يستحقونه ، وصفح عن بقية المشتركين وكانوا من عامة الشعب .

٢١٠ هـ
٨٢٥–٨٢٦ م
زواج المأمون من بوران

وفى شهر رمضان المبارك تزوج المأمون من خديجة الملقبة « ببوران » بنت الوزير « الحسن بن سهل » ، وكان قد خطبها فى أثناء إقامته فى « مرو » ؛ وتعتبر الولائم والأفراح التى أقيمت فى ليالى العرس برهاناً ساطعاً على فخامة بلاط بغداد وعظمته ، إذ ظهر قصر أبيها المسمى قصر فم الصلح[1] بأبهى الحلل وأروع الزينات ، وقد أضاف فيه جميع حاشية الخليفة ١٧ يوماً[2] أفتن خلالها فى إظهار ضروب الكرم والسخاء . وتقول لنا الرواية العربية إن من جملة سيدات البلاط اللواتى حضرن حفلة الزفاف السيدة زبيدة وابنتها ، وكان جمالهن الأخاذ وفخامة ملابسهن مصدرين خصيبين لخيال الشعراء الذين دعوا هم أيضاً لمشاهدة الأفراح

١٩٨–٢٣٢ هـ

أما العروس فكانت أكثرهن جمالا وأشدهن فتنة ورواء . والمأثور أن جدتها حملت فى ليلة الزفاف صينية ذهبية وأخذت تنثر منها على الخليفة وعروسه ألف حصاة من الياقوت بمختلف الأحجام والأشكال ، فأمر الخليفة بجمعها ونظمها عقداً واحداً ثم قدمه بنفسه هدية إلى الملكة الشابة . أما غُرفة العرس فقد أضيئت بشمعة من العنبر زنتها ٨٠ رطلا فى شمعدان من الذهب .

وعند ما تحرك الموكب الملكى أهدى الوزير إلى المدعوين من كبار موظفى الدولة العطايا السنيــة ، وأنعم على الأمراء والزعماء ببنادق مسك فيها رقاع بأسماء

(١) كان الصلح جدولا عظيما يلتقى بنهر دجلة على بضعة أميال من واسط ، وكان يقع قصر فم الصلح عند التقاء هذا الجدول بنهر دجلة .
(٢) بلغت الأموال التى أنفقها الحسن ٥٠ مليون درهم .

ضياع وأسماء جوار ودواب وغير ذلك ، فكانت البندقة إذا ما تسلمها المدعو فتحها ثم مضى إلى الوكيل المعين لذلك فدفعها إليه وتسلم منه ما كتب فيها ، كذلك نثر الوزير على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك و بيض العنبر ، ولأجل أن يعوض له الخليفة عما أنفقه فى تلك الحفلات الرائعة وهبه خراج الأهواز وفارس لمدة سنة كاملة .

وقد كانت بوران من أشهر الفتيات المسلمات ، فاستطاعت بحدة ذكائها وفتنتها مع ما اتصفت به من متانة الخلق أن تحتل مكاناً سامياً فى قلب زوجها وتنال كل مطالبها ، فاستغلت مركزها عنده لخير الشعب ورفاهيته ، كما اشتهرت بالإحسان وفتح المستشفيات والملاجئ للنساء فى بغداد ، ويقال إنها عاشت بعد وفاة المأمون ٥٠ سنة فلم تشاهد الإمبراطورية وهى فى أوج عظمتها فحسب بل فى إبان اضمحلالها[1] أيضاً .

بابك الاباحى ٢٠١ هـ ٨١٦ م

٨١٣ــ٨٤٧ م

وفى إبان عهد المأمون بينما كانت الإمبراطورية تعصف بها ريح الفتن الداخلية والحروب الأهليـة ، شق أحد قطاع الطرق المسمى بابك عصا الطاعة واستولى على حصن منيع فى وهاد « مازندران » ، وهو ينتسب إلى الطائفة المانوية على المذهب الخرمى ، ويقول بتناسخ الأرواح ، والتحرر من قيود الأخلاق والأوضاع السماوية .

وقد أخذ هذا الثائر يغير من حصنه — الذى اعتصم به فى قمم الجبال — على القرى المجاورة ، ويسبى النساء ويسلب الأموال ، ويعمل السيف فى رقاب الأهلين من غير ما رحمة ولا شفقة ، حتى وجهت الحكومة عليه الحملات العسكرية ، ولكنه كان ينتصر عليها وينكل بها فى كل مرة نظراً لمناعة حصنه وشدة تيقظه ؛ وظل الحال على هـذا المنوال بضع سنين إلى أن حاصره جيش الخليفة حصاراً شديداً وسد عليه المسالك ، فلم يلبث أن هرع إلى الروم وتحالف

(١) وقد توفيت سنة ٨٨٣ م .

معهم على غزو البلاد الإسلامية ، وكان يجلس وقتئذ على عرش الدولة البيزنطية نيوفيلوس بن ميخائيل ، فتعاقد الاثنان وهجما على المدن الواقعة على الحدود يعيثون فيها فساداً وتخريبا ، حتى سارع إليهم المأمون بنفسه على رأس جيش جرار ، فاشتبك الفريقان فى ثلاث معارك متوالية ، دارت فيها الدائرة أخيراً على الروم وعلى حليفهم «بابك» ، فسألا الخليفة الصلح ، بيد أن تلك الحروب الدامية لم تمر دون أن تخلق جوا عدائيا بين الروم والمسلمين وتترك للأحفاد تراثاً من الضغائن لا يزال أثره باقياً فى الغرب حتى اليوم .

حرب الروم

ولما انتصر المأمون على جيش الروم وحليفهم وشتت شملهما ، أرسل إلى مصر جيشاً كبيراً برئاسة الأفشين — قائده التركى المشهور الذى بدأ نجمه يتألق فى ذلك العهد — وقد تمكن من الاستيلاء على الفرما وهى أقصى نقطة فى مصر العليا التى اعتصم فيها الثوار بعد أن منوا بشر هزيمة .

١٩٨ـ٢٣٢هـ

ولأجل أن يحول الخليفة دون تكرر غزو الروم فى المستقبل أسس مستعمرة عسكرية فى الطوانة التى تبعد عن طرسوس حوالى ٧٠ ميلا ، ولكنه ما كاد ينجز هذا العمل حتى وافته منيته ؛ ويقال إنه بينما كان معسكراً بالبدندون من ضواحى طرسوس ، جلس ذات يوم من أيام الخريف مع أخيه على ضفاف النهر المسمى باسم المدينة ووضعا أقدامهما فى مياه النهر ، وإنهما لكذلك إذ أصابتهما حمى شديدة نقل المأمون على أثرها إلى «طورسوس» حيث توفى بعد مدة وجيزة ودفن فى بستان لأحد أتباع والده الأمناء فى تلك المدينة . أما المعتصم فقد أبل من مرضه واستطاع أن يسمع وصية أخيه المأثورة قبل وفاته ، ومما جاء فيها : « اعمل فى الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه ، ولا تغتر بالله ومهلته ، فكأن قد نزل بك الموت ، ولا تغفل أمر الرعية ، الرعية الرعية ، العوام العوام ، فإن الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم ، الله الله فيهم وفى غيرهم من المسلمين ، ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته

١٨ رجب ٢١٨هـ (٩ آب ٨٣٣م)

وفاة المأمون

وآثرته على غيره من هواك ، وخذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم فى شىء وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم ، وقربهم وتأنهم وعجل الرحلة عنى والقدوم إلى دار ملكك بالعراق ، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم فى كل وقت » .

كانت ولادة المأمون سنة ١٧٠ ﻫ أى فى نفس اليوم الذى بويع فيه هرون الرشيد بالخلافة ، وكانت مدة خلافته ٢٠ سنة وستة أشهر عدا المدة التى كانت تقرأ فيها الخطبة باسمه فى جوامع مكة والمدينة ، وعدا المدة التى حوصر فيها الأمين ببغداد .

أخلاقه

كان المأمون قوى البنية بهى الطلعة لا يضارعه أحد من بنى العباس هيبة ووقاراً ، نظراً لما كان يتحلى به من الشجاعة والإنصاف وشدة العزم وبعد الهمة والبسالة وغيرها من الصفات المحمودة والخصال السامية ، وقد سجل له التاريخ سلسلة طويلة من الوقائع والحوادث الخالدة ، وعلى الجملة لم يسبق أن اعتلى عرش الدولة العباسية خليفة يضاهيه حكمة وبعد نظر .

المدنية والعلوم ٨١٣–٨٤٧ م

وقد كان عصره ألمع عصور الحضارة العربية على وجه الإطلاق فسمى بحق العصر الإسلامى الذهبى ، ولا مشاحة أن العشرين سنة التى قضاها فى الحكم تركت كنوزا زاخرة من الثروة الفكرية ، ولم تقتصر هذه النهضة على ناحية معينة من العلوم أو الآداب ، بل شملت جميع نواحى التفكير والثقافات ، فازدهرت فى عهده العلوم الفلسفية ، وانتعشت الحركة العلمية ، وارتقت العلوم الرياضية والفلك والطب وما إلى هذه العلوم خلال تلك المدة اللامعة فى تاريخ الحضارة الأسيوية ، وانتقل تراثها فيما بعد إلى الأندلس والقسطنطينية المسيحية ، ومنها سطعت على أوربا الحديثة بنورها المتألق . والمعروف أن المأمون كان يذهب إلى أن سعادة الشعب الحقيقية تتوقف على انتشار العلم وبث الثقافة ، فلم يقنع ببقاء نشر التعليم عالة على سخاء الخلفاء أو الهدايا التى يمنون بها عليهم من حين لآخر

بل أرصد الأوقاف للصرف منها على تشجيع الحركة الفكرية ، وفتح المدارس والكليات فى سائر أنحاء الدولة . ويقول المؤرخ أولسنر فى هذا الشأن : « إنا نشاهد فى عصر المأمون حكومة دينية أوتوقراطية تشجع لأول مرة الفلسفة وتعمل على ازدهارها » . وكان المأمون فى تساهله المشهور لا يؤثر مذهبا أو جنساً خاصا بل أباح الاستخدام فى مناصب الحكومة لجميع المتعلمين على اختلاف أديانهم ونحلهم ، ومنذ سقوط الجمهورية الإسلامية وتأسيس الحكومة الأوتوقراطية كان الوزراء هم المستشارون الوحيدون للخلفاء ، غير أن المأمون أنشأ مجلساً استشاريا للدولة يتألف من ممثلى جميع الطوائف ، وأصبح هذا الديوان يضم المسلمين واليهود والمسيحيين والصابئيين والزرادشتيين على حد سواء ، وكانت حرية الاعتقاد والعبادة مضمونة للجميع ؛ أما الخلافات وما كان يعقبها من الاضطهادات المؤقتة فلم تكن إلا نتيجة من نتائج أخلاق بعض الحكام المحليين وسوء إدارتهم ، بيد أن حرية الاعتقاد فى عصر المأمون شملت الجميع ، وأضحت مضرب الأمثال فى التساهل حتى بلغ عدد الكنائس التى شيدت فى عهده ١١٠٠٠ كنيسة علاوة على مئات الهياكل اليهودية ومعابد النار ؛ وكان بطريركا أورشليم وأنطاكية زعيما الكنيسة المسيحية ومن يتلوهما فى المرتبة الدينية من مطران وأسقف وكاهن يتمتعون جميعاً بالامتيازات والحصانات الكاملة التى كان يتمتع بها أمثالهم فى الدول المسيحية التى تدين بدينهم .

مجلس شورى المأمون ١٩٨–٢٣٢هـ

العقليون فى عهد المأمون

كذلك رأى المأمون بثاقب فكره منحى الآراء التى أخذت تتسرب بالتدريج إلى المدرسة التى كان يرأسها والشدة التى لابستها بمضى الزمن ، وما أفضت إليه هذه الشدة من نتائج وتأثيرها فى المجتمع ، فاعتقد اعتقاداً جازما بأن التمسك بتلك الآراء تهمة خطيرة ، لأنها فى رأيه كانت ترمى إلى خنق كل حركة اجتماعية أو سياسية ثم تنتهى أخيراً بتقويض دعائم الدولة ؛ كما أدرك ما قد يؤول إليه حشو عقل الإنسان بالآراء الجامدة ، ولهذا نراه ينشط خلال السنوات الأربع

الأخيرة من حكمه إلى العمل على تحرير الفكر الإنسانى من الأغلال التى بدأ يتقيد بها .

ولم يكن ثمة من يعادله فى الأخذ بناصر تلك النهضة الفلسفية إذ كان متفوقا على معظم علماء عصره فى الحديث والفقه ودراسة القرآن وفهمه ، فضلا عن أنه كان أحد تلاميذ الإمام الرضا الذى أخذ عنه حب الفلسفة والعلم وحرية الفكر .

٨١٣ـ٨٤٧ م

مذهب الاعتزال

وقد شاهد النصف الأول من القرن الثانى حركة الاعتزال التى قام بها واصل بن عطاء أحد تلاميذ الإمام جعفر الصادق المعروف برحابة الصدر ، وقد أخذ عنه « واصل » تقدير الفكر الإنسانى . وتقول لنا الرواية العربية بأن « واصلا » جالس حسن البصرى ، ولما اختلف معه فى بعض القضايا اعتزله وسمى أتباعه بالمعتزلة [١] كما أطلق على مذهبه اسم « الاعتزال » . أما مذهب المحدثين فكان يقرر بضع عقائد يراها واصل بن عطاء مخالفة لمذهبه ، ذلك أنها تقول بأن أعمال الإنسان مقدرة قبل وقوعها ، أو بمعنى آخر أن الإنسان ليس مخيراً فى إرادته ، وأن العالم الآخر مادى ، وأن الله يرى بالعين وصفاته قائمة بذاته وأن القرآن غير مخلوق بل موجود منذ الأزل .

المعتزلة

أما المعتزلة فيذهبون من الجهة الأخرى بالاتفاق مع الأئمة إلى أن الإنسان حر فى خلق أفعال نفسه الاختيارية خيراً كانت أو شرا [٢] ، وأنه ليس ثمة آخرة مادية ، ولا يمكن أن يرى الله عياناً ، لأن ذلك يدل على التجسيم [٣] وأن

---

(١) ذكر الشهرستانى فى (الملل والنحل) وابن رستة فى (الأعلاق النفيسة) وابن خلكان فى (ترجمة قتادة) « أن واصلا وعمرا بن عبيد اعتزلا حلقة الحسن على أثر تقريرهما أن مرتكب الكبيرة فى منزلة وسط بين الإيمان المطلق والكفر المطلق » . وذكر المسعودى فى (مروج الذهب) « أن المعتزلة يقولون بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين » . (المعرب)

(٢) يقول المستشرق دى بور فى كتابه (تاريخ الفلسفة الإسلامية) « علل بعض المعتزلة وجود الشر على الأرض بأنه من آثار الحكمة الإلهية التى تأتى بالأحسن فى كل شىء ولكن ليس الشر نتيجة أو غاية لفعل الله » . (المعرب)

(٣) يقول الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة) : « إن المبدأ الأول (أى الخالق) =

صفات[1] الله غير منفصلة عن ذاته ، وأن القرآن مخلوق . وتؤيد المعتزلة أيضاً أنه ليس ثمة قانون أبدى فيما يخص أعمال الإنسان ، وأن القوانين الإلهية التى تعين سلوك الناس إنما هى نتيجة من نتائج التطور ، وأنها عرضة لنفس قانون التغيير ذلك القانون الذى به يسيطر الخالق على الكون .

اعتنق المأمون مبادئ المعتزلة وحاول نشرها إذ كان يعتقد أن خدمة المسلمين وكل أمل فى التقدم والرقى إنما يتوقف على اعتناق هذه المبادئ . وفى سنة ٢١٧ هجرية أوعز إلى والى بغداد بأن يجمع أشهر الفقهاء والعلماء ويمتحنهم فى هذه المسألة الخطيرة ، ثم يرسل إليه إجابتهم ، فأعرب معظم فقهاء بغداد وعلمائها — سواء على سبيل الاعتقاد أو للمداراة — عن موافقتهم على آراء الخليفة إلا أن البعض بقى ثابتاً على عقيدته قائلا بأن القرآن غير مخلوق ، ومنهم أحمد بن حنبل [٢-٣] الذى أثبت أنه أشدهم تعصباً . ولو أمد الله فى عمر المأمون لاستطاع بشخصيته الفذة ، وعبقريته النادرة ، وتضلعه فى علوم الدين أن يقضى على عناد المعارضين القلائل ؛ وقد اقتفى خليفتاه أثره وحاولا أن يكملا عمله ، ولكن كانت تنقصها الكفاية ورحابة أفق التفكير . وقد بلغ المذهب العقلى فى عهد هؤلاء

المذهب العقلى الإسلامى ٨١٣-٨٤٧ م

= فاض من وجوده العقل الأول ، وهو موجود قائم بنفسه ، ليس بجسم ولا منطبع فى جسم يعرف نفسه ويعرف مبدأه » . (المعرب)

(١) يقول المقريزى : « إنه ظهرت فرقة المشبهة وعارضت المعتزلة معارضة شديدة فى إثبات صفات الله وانقسمت إلى سبع فرق » . (المعرب)

(٢) أصبح الإمام أحمد بن حنبل مؤسس المذهب السنى الرابع وقد أدى تعصب أتباع ابن حنبل فى عهد الخلفاء المتأخرين إلى فتن متواصلة ، وما ينجم عنها من شغب وإراقة دماء .

(٣) جاء فى وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٨ ج ١ « أنه ولد فى بغداد فى شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة ، وقيل إنه ولد بمرو وحمل إلى بغداد وهو رضيع ؛ وكان إمام المحدثين ، صنف كتابه المسند ، وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره ، وكان من أصحاب الإمام الشافعى رضى الله عنهما وخواصه ، ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعى إلى مصر ، ودعى إلى القول بخلق القرآن فلم يجب فضرب وحبس وهو مصر على الامتناع ، وكان حسن الوجه ربعة . أخذ عنه الحديث جماعة من الأماثل ، منهم محمد بن إسماعيل البخارى ، ومسلم ابن الحجاج النيسابورى » . (المعرب)

الخلفاء الثلاثة شأواً لم يبلغه حتى فى العصور الحديثة فى الممالك الأوربية ، إذ كان دعاة المذهب العقلى وقتئذ يخطبون فى الجوامع ويحاضرون فى الكليات . وعلى الجملة طفقوا يوجهون شباب الأمة كما يريدون ؛ ولا يمكننا أن نغمطهم حقهم ، أو ننكر عليهم نفوذهم الذى استعملوه بكل حكمة وروية ، فقد اشترك جميع قادة الفكر من أساتذة ووعاظ وعلماء وأطباء ووزراء وحكام فى ترقية الشعب العربى ورفع مستواه العلمى والثقافى .

العلوم والآداب

كان عصر المأمون ألمع عصور التاريخ الإسلامى دون منازع ، ولا جرم أن دراسة العلوم ونشر الثقافة أكبر دليل على رقى الشعب وتطوره ، فقد كان البلاط يعج بالعلماء والشعراء والأدباء ورجال الطب والفلاسفة ، الذين كانوا يهرعون إليه من كل حدب وصوب على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ؛ وقد كان المأمون يتفانى فى إكرامهم ، ويشمل كل من يقصده منهم ببره وعطفه دون أى تفريق . ويقول مؤرخ فرنسى معروف بإنصافه لمدنية العرب ونشاطهم الفكرى : « إن المأمون طبع عصره بطابعه الخاص ، وأكسبه تلك العظمة الأدبية التى اشتهر بها فيما بعد » .

كذلك يعزى إليه فخر إنجاز العمل الذى بدأ به جده المنصور ، إذ أحاط نفسه برهط من الحكماء والفنانين الذين أحيوا له عهد مكتبة الإسكندرية ، وتمكن باتصاله ببراطرة القسطنطينية من جلب أشهر كتب الفلسفة اليونانية من « آثينا » ، ولم تكد تلك الذخائر النفيسة تصل إلى بغداد حتى عهد بترجمتها إلى العلماء الأفذاذ ، ثم أمر بنشرها على الجمهور ، وكان يشرف قسطا بن لوقا على قسم الترجمة[1] من اليونانية والسريانية والكلدانية ، ويحيى بن هرون على

---

(١) إن أشهر المترجمين فى عهد المأمون هم : يوحنا ، أو يحيى البطريق ، والحجاج بن يوسف بن مطير الكوفى ، وقسطا بن لوقا البعلبكى ، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصى ، وحنين ابن إسحق ، وابنه إسحق بن حنين ، وثابت بن قرة ، وجيش الأعسم وغيرهم .
(المعرب)

قسم الفارسية القديمة ، كما أودعت رئاسة الترجمة من السنسكريتية إلى « دبان البراهمى » . كذلك شجع المناظرة والإنتاج بتأسيس الدوائر الخاصة بإشراف الأساتذة الأعلام ، وأغدق على المؤلفين المنح والعطايا ، وتعد من الأهمية بمكان عظيم تلك الأرصاد الفلكية التى تمت فى عهد المأمون كالاعتدال الشمسى ، والخسوف والكسوف ، ورصد النجوم المذنبة والمظاهر الفلكية الأخرى ، وقياس حجم الكرة الأرضية .

لقد عنى العرب بكل ذلك وقت أن كانت أوربا المسيحية تبرهن على أن الأرض مسطحة ؛ كما اخترع أبو الحسن التلسكوب ويصفه بأنه أنبوب فى طرفيه عدسات لانعكاس الضوء . وقد تحسنت تلك الأنابيب واستعملت فيما بعد فى مرصدى مراغة والقاهرة بنجاح عظيم ، وصنفت الكتب فى الرياضيات والهندسة والفلسفة والفلك والمترولوجية وعلم البصريات والميكانيكا والطب ؛ كذلك صرفت أقصى العناية فى دراسة الطب ، ويدلنا كثرة عدد الأطباء المتازين الذين كانوا يشتغلون فى البلاط على رعاية المأمون لهذا العلم . ولا ننسى أنه كان أول من بنى مرصداً فى العالم الإسلامى فى الشماسية على سهول تدمر ، ثم بنى عدة مراصد أخرى فى واسط وأبامية وبعض المدن الأخرى . ولا يفوتنا أنه نجم عن احتلال العرب لبلاد فارس تدهور اللغة الفارسية وآدابها ، إذ أهملها سكان البلاد الأصليين وأقدموا على تعلم اللغة العربية ودرسها ، ولكن المأمون بما عرف عنه من الرغبة فى إحياء العلوم القديمة عنى بترقية اللغة الفارسية التى كان قد تسرب إليها ألوف من الكلمات العربية ، ومن الذين تألق نجمهم فى ذلك العهد الشاعر عباس المروى[1] واضع أساس الشعر الفارسى الحديث .

الثقافة الفارسية
٨١٣–٨٤٧ م

الحلقات
(المناظرات
الفلسفية)

وقد كان يوم الثلاثاء معداً للمناقشات الفقهية والمناظرات الفلسفية والأدبية فكان الأدباء والعلماء والفلاسفة يؤمون القصر فى الصباح حيث يقدم لهم الفطور

(١) نسبة إلى مرو .

وما أن يصيبوا منه الكفاية حتى يدخلوا على الخليفة فى الإيوان المخصص لتلك المناظرات التى كان يرأسها بنفسه ، ولم تكن لتنتهى إلا بعد صلاة العشاء ؛ فيدخلون حجرة أخرى حيث تعد لهم الموائد لتناول الطعام ، فإذا ما فرغوا منها انصرفوا إلى حال سبيلهم . أما سائر أيام الأسبوع فكانت مخصصة لمعالجة شؤون الدولة ، وكان الخليفة يجلس بنفسه للنظر فى حوائج الناس ، ولم يكن ليترك صغيرة ولا كبيرة إلا ويدرسها ؛ كذلك لم يكن يفرض أى عقاب إلا بدافع مستلزمات القانون ومقتضيات السياسة ، نظراً لما كان يتصف به من العدل والتسامح .

حصافة المأمون

ومن أعظم الأدلة على حصافة المأمون وسداد رأيه أنه « استطاع أن يكتفى شر أحد الخوارج المغالبين بأيسر الخطب » وذلك أن أحد هؤلاء كان قد دخل عليه ذات يوم دون خوف أو وجل ووقف على طرف البساط ، ثم قال : « السلام عليكم ورحمة الله » فرد المأمون عليه السلام ، فقال الخارجى : « أخبرنى عن هذا المجلس الذى أنت قد جلسته أباجتماع من المسلمين عليك أم بالمغالبة لهم بالقوة عليهم بسلطانك ؟ » ، فقال المأمون : « لا هذا ولا ذاك ! وإنما أنا رجل عقد لى ولأخى معى ، ولما صار الأمر إلىّ علمت أنى أحتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين ، ولكنى رأيت أنى متى تخليت عن هذا المنصب اضطرب حبل الإسلام وانتقضت أطرافه وغلب الهرج والفتنة ووقع التنازع ، فتعطلت الأحكام ولم يحج أحد بيته ولم يجاهد فى سبيله ، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ومجاهداً لعدوهم إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم عليه وعلى الرضا به فأسلم الأمر إليه » ، فقال الخارجى : « السلام عليكم ورحمة الله » ثم رجع أدراجه . فأنفذ المأمون أحد جلسائه ليتعقبه ، فاتضح أنه كان زعيم جماعة من المغالين اجتمعوا لإضرام نار الثورة وإعلان العصيان ، ولكن الخليفة بسداد رأيه وحصافته هدأ من غلوائهم ، وجعلهم

١٩٨–٢٣١هـ

أبو إسحق محمد المعتصم بالله ٢١٨–٢٢٧ هـ ٨٣٣–٨٤٢ م

ينصرفون بسلام . ويقال إن المأمون كتب وصيته قبيل وفاته يعهد فيها إلى أخيه أبي إسحق محمد الملقب بالمعتصم بالله (أو المعتصم على سبيل الاختصار) ؛ ومن العسير أن ندرك فى هذا العصر بعد تقادم العهد الأسباب التى حملت المأمون على إغفال ابنه العباس ، الذى كان يتمتع بشهرة واسعة بين الجنود وخصوصا الجنود العرب ، ومن المرجح أنه خشى أن يعجز ابنه عن تنفيذ السياسة التى وضع خططها لتمشية شؤون الدولة ، ولعله رأى كذلك فى شدة شكيمة المعتصم ومتانة خلقه ونضوج فكره ما يضمن له تنفيذ تلك السياسة .

٨١٣–٨٤٧ م

ولما بويع المعتصم ضج الجيش فى بادئ الأمر وأراد أن يبايع العباس الذى أسرع فى الحال إلى مبايعة عمه بالخلافة محترما بذلك وصية أبيه ، فحذا الجيش حذوه وهكذا تمت البيعة للمعتصم فى طرسوس ، ولكنه لقصر نظر مولر بما لجهله عواقب الأمور أوقف بناء « طوانة » وأعاد إلى طرسوس الذخائر والأسلحة التى كانت قد أرسلت إلى تلك المدينة ، وفيما عدا هـذا الحادث يمكننا أن نقول بأنه بذل أقصى جهده فى ترسم خطط أخيه واقتفاء أثره بكل دقة وأمانة .

تكوين الفرق التركية

ولكن أشنع خطأ ارتكبه المعتصم هو تشكيل فرق عسكرية من الأتراك[1] والأجانب الذين أضحوا سببا مباشراً فى إضعاف سلطان الخلافة وتقويض دعائمها . والمعروف أنه كان ينتظم فى سلك تلك الفرق المماليك[2] الأتراك ، والمرتزقة من آسيا الصغرى وبلاد اليمن ومصر ، ويطلق على الذين يأتون من وراء النهر أهل فرغانة ، وعلى الذين يأتون من اليمن وأفريقا اسم المغاربة ، وكان يقودهم ضباط من جلدتهم تحت إمرة الخليفة مباشرة ؛ وعليه أصبح هذا الجيش فى عزلة تامة عن جيوش العرب والفرس . ولا عجب أن صار لهؤلاء الأتراك من القوة ما كان للحرس الرومانى قديما ، حتى أصبح بيدهم بعد مدة وجيزة عزل الخلفاء وتعيينهم

(١) ينبغى التمييز بين أتراك العصر الحاضر وتركمان ذلك العهد ، إذ أن الفرق بين الاثنين لا يقل عن الفرق بين السكسونيين فى القرن الثامن والانكليز فى العصر الحاضر .

(٢) السلاف .

نقل العاصمة

حسب رغباتهم وأهوائهم ؛ وكانوا يلبسون أفخر الملابس ويجرون الخيول فى شوارع بغداد فيصدمون الناس فى الطرق ، فلما اشتد سخط أهل العاصمه ، وشعر الخليفة بانتشار روح التذمر بين السكان ، انتقل مع جنوده المحبوبين إلى محل يسمى سامرا أو (سر من رأى) وهو الاسم الذى عرفت به فيما بعد ، وابتنى لنفسه قصراً فخما ، وشيد الثكنات العسكرية لسكن ٢٥٠ ألف جندى ، والاصطبلات الواسعة لاستيعاب ١٦٠ ألف حصان ؛ كما قطع القطائع إلى الرؤساء الأتراك الذين بنوا لهم قصوراً ضارعت قصر الخلافة عظمة وفخامة .

١٩٨–٢٣٢ھ

الزط (جت) فى العراق

وقد عرف ذلك العصر بظهور قبيلة هندية اسمها الزط أو « الجت » نزلت على سواحل دجلة . أما كيف وفدت على تلك البلاد فليس ثمة ما يكشف لنا اللثام عن هذا السر الغامض ؛ إنما كل ما يعرف عنهم أن عددهم كان يبلغ ١٧ ألف نسمة ، وأنهم كانوا يعيثون فى البلاد فساداً حتى وجه إليهم المعتصم قوة صغيرة ظلت تقاتلهم وتلح عليهم حتى اضطرتهم إلى التسليم ، فأرسلوا فى زوارقهم إلى بغداد كى يشاهد الخليفة ملابس نسائهم ، ومن ثم نقلوا إلى صقلية حيث هاجمهم الروم وذبحوا معظمهم ، وعندئذ تفرقت البقية الباقية منهم فى تريستا[1] .

وفى سنة ٨٣٥ توفى فى بغداد الإمام « محمد التقى » الذى كان هو وزوجه أم الفضل بنت المأمون فى ضيافة المعتصم ؛ فتولى الإمامة من بعده ابنه « على » .

وفى تلك الأثناء اشتد أمر بابك وعاث فى البلاد فساداً ، وانتشر هو وأتباعه يعيثون فى المدن والقرى سلبا ونهباً ، حتى أرسل إليه المعتصم جيشاً بقيادة « الأفشين » أحد قواده الأتراك المشهورين ، وبعد نشوب سلسلة معارك شديدة بين الفريقين استولى الأفشين على حصن الثائر المنيع ، وألقى القبض على ابنه وأقاربه وأرسلهم جميعاً إلى بغداد حيث عوملوا بالرحمة والعطف . غير أن بابك كان قد هرب مع أخيه إلى أرمينيا فقبض عليهما زعيم من زعماء تلك البلاد

٨١٣–٨٤٧ م
القبض على بابك

(١) يظهر أن البوهيميين أو النورمن سلالة هؤلاء الأقوام .

وسلمهما إلى الأفشين الذى أرسلهما إلى بغداد ، ولما كانت جرائمهما أعظم من أن تغتفر أمر الخليفة بحمل بابك على ظهر فيل ، وبعد أن طوف به فى شوارع المدينة نفذ فيه وفى أخيه حكم الإعدام .

ويقال إن الأفشين عند ما استولى على الحصن فك سراح ٧٠٠٠ امرأة مسيحية ومسلمة كان بابك قد أسرهن ؛ ويقال بأن الخليفة استقبل قائده المنتصر استقبالا رائعاً ، وأغدق عليه النعم والعطايا . غير أن هذه الحوادث لم تنته بسلام كما كان ينتظر ، إذ بينما كان الأفشين مقيما فى مازندران تحالف ملك الروم مع بابك ، وهجم بجيشه الجرار على كبيدوكيا ليثأر لحليفه ، وبلغت به الشراسة مبلغاً عظيما بحيث أحرق المدن ، وأعمل السيف فى رقاب الرجال ، وطفق يأسر النساء والأطفال ، كما أشعل النار فى « بطره » مسقط رأس المعتصم ، وكان يمثل بالرجال أشنع تمثيل ، فيسمل عيونهم ويشوه وجوههم بالحديد المحمى . ولما بلغت تلك الأخبار الوحشية مسامع المعتصم اشتد سخطه ، وأقسم ليثأرن لهؤلاء الضحايا البائسين ، فعبأ جيشاً لجباً وسار به صوب الشمال ، وما هو إلا أن التقت مقدمته بجيش تيوفيلس فى ظاهر أنقرة ، وألحقت به خسائر فادحة ، ثم سارع إلى عمورية[1] مسقط رأس تيوفيلس ، وفتحها عنوة بعد أن جد فى حصارها ٥٠ يوما فدمرها تدميراً ، وقتل من سكانها ٣٠,٠٠٠ ، وأرسل من بقى حيا منهم إلى بغداد مع القائد اليونانى « ماطس » ؛ ولكن الخليفة لم يكد يبدأ بالزحف على القسطنطينية ليفتحها وينزل الضربة القاضية بالقوة البيزنطية حتى اكتشف مؤامرة خطيرة فى معسكره ، فتوقف عن الزحف ، وقد تبين له من التحقيق أن بعض القواد العرب الذين كانوا يسخطون على الأتراك للنفوذ الذى يتمتعون به ويحقدون على الخليفة لسوء معاملته إياهم قد تآمروا مع « العباس » بن المأمون على اغتياله ؛ وقد شاءت الصدف أن تكتشف هذه المؤامرة قبل استفحالها ،

الحروب مع الروم

٢٣٢-١٩٨ هـ

(١) مكانها الآن مدينة (سدرى حصار) بتركيا . (المعرب)

فأمر بإلقاء القبض على المتآمرين وحكم عليهم بالقتل ، ومن ضمنهم العباس ، ثم قفل راجعاً إلى سامرا بعد أن عقد معاهدة صلح مع « تيوفيلس » الذى أضعفته موقعة « عمورية » . وفى سنة ٢٢٤ هـ شق المازيار المانوى أمير طبرستان عصا الطاعة ؛ ولما كان الأفشين يعتقد أن عبد الله بن طاهر لا يقوى على قمع تلك الثورة بنفسه ، وأن المعتصم سيضطر أخيراً إلى توليته إمارة المشرق بدلا من عبد الله ، فقد راح يحرض المازيار سرا على مواصلة الحرب إلى النهاية ، ولكن عبد الله لم يلبث أن أسر « المازيار » وحمله إلى بغداد ، وفى حضرة الخليفة أقر ذلك الثائر على الأفشين وأظهر الكتب التى كان قد أرسلها إليه ، فحكم المعتصم على « المازيار » بالقتل ، كما حبس الأفشين حتى وافته منيته . ويظهر أن القائد التركى المنكود كان مثقفاً إلى حد بعيد ، إذ تبين أنه كان يملك كمية ضخمة من المؤلفات النادرة بمختلف اللغات ، وعدة تماثيل آية فى الروعة والجمال ، وجميعها تؤيد إلى حد بعيد بأنه سبق عصره وجاء قبل أوانه ، فأراد أن يحيط نفسه بالمجلدات الأدبية النادرة ، والآثار الغريبة التى كانت تحمل إليه من مختلف الأمصار.

٨٣٩ م

وفاة المعتصم ٢٢٧ هـ (٥ كانون الثانى ٨٤٢ م)

وقد أصيب المعتصم بمرض عضال[1] قضى عليه فى ١٩ ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ . ويقال إنه صرف شطراً من عنايته فى تحسين الزراعة ، واهتم اهتماما خاصا باستثمار موارد البلاد الطبيعية ؛ ومع أنه كان سريع الغضب قاسياً ، إلا أن قاضى القضاة أحمد بن أبى دؤاد كان دائماً يهدئ من نزواته ويحبط الأعمال الجائرة التى كان يشير بها وزيره . ويصف أحد المؤرخين أحمد بن أبى دؤاد بأنه من أولئك الرجال الأفذاذ الذين وهبوا صفات ممتازة ، ويشيرون باتباع الحق وحب الصدق والحض على الفضيلة ، وقد كان فوق ذلك زعيم المعتزلة .

أبو جعفر هرون الواثق بالله ٢٢٧–٢٣٨ هـ ٨٤٢–٨٤٩ م

وخلف المعتصم ولده أبو جعفر هرون الواثق بالله الذى كان ، برغم افتراء بعض الكتاب المتعصبين ، حاكما ماهراً كريماً صبوراً واسع المعروف ، لم تشب

(١) مرض الاستسقاء . (المعرب)

أخلاقه قط أية شائبة برغم حبه للمجون ، وكان مغرماً بالآداب والعلوم ، مشجعاً للتجارة والصناعة ، يميل إلى الموسيقى ميلا خاصا أدى به إلى الاشتراك فى تهذيب أنغامها ، ويقال إنه وضع بعض الأصوات[1] والأنغام الجديدة ؛ وكان إحسانه يفوق حد الوصف بحيث لم يكن يرى فى البلاد الإسلامية فى خلال حكمه متسول واحد ، وفى عهده تبودلت الأسرى بين الروم والمسلمين .

١٩٨ـ٢٣٢هـ

ولكن مما يؤاخذ عليه أنه استمر على خطأ أبيه فى استخدام الأتراك وإهمال شأن الجيوش العربية والفارسية ، كما عين أشناصاً التركى سلطاناً للدولة وتوجه بتاج مرصع ، وسوّره بسوارين من ذهب ؛ كذلك حاول أن يبث مبادئ حرية الفكر فى الشعب ، ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح إذ قاومها القضاة الرجعيون الذين اشتغلوا سرا ضده ؛ ويعتبر موته السابق للأوان خسارة لا تعوض ، إذ انقضى بموته عهد العظمة العباسية ، فأضحى تاريخ هذه الأسرة فى خلال القرنين التاليين صورة مضطربة لحكام يرتقون عرش الخلافة لا حول لهم ولا قوة ، ثم يوارون التراب غير مأسوف عليهم . وقد توفى الواثق فى مدينة سرّ من رأى فى ٢٤ ذى الحجة سنة ٢٣٢ هـ .

وفاة الواثق
١١ آب ٨٤٧ م

---

(١) جاء فى الأغانى ج ٩ ص ٢٧٧ أن الواثق صنع مائة صوت ليس فيها صوت واحد ساقط . (المعرب)

الفصل التاسع عشر

العباسيون

۲۳۲ — ٤٥٤ هـ ٨٤٧ — ١٠٦٣ م

من عهد المتوكل إلى القائم

المتوكل أو نيرون العرب — انحلال الإمبراطورية العربية — المنتصر — المستعين — المعتز — ثورة الزنوج — المعتضد — الدولة الفاطمية — القرامطة — المكتفى — استرداد مصر — السامانيون — المقتدر — القاهر — الراضى — المتقى — آل بويه — رجال البلاط — المستكفى — الغزنبون — المطيع — الطائع — القادر — القائم — السلجوقيون — طغرلبك

أبو الفضل جعفر المتوكل على الله ۲۳۲–٢٤٧ هـ ٨٤٧–٨٦١ م

ولما توفى « الواثق » أراد معظم كبار الدولة ومن بينهم القاضى الأكبر والوزير أن يبايعوا ابنه ، غير أن « وصيفاً » القائد التركى اعترض على ذلك بقوله إن القلنسوة والدراعة والصولجان لا يقوى على حملها جسم الطفل الصغير ، ولهذا استقر رأيهم على مبايعة جعفر أخى الواثق الملقب « بالمتوكل على الله » ، وإن كان يستحق أن يسمى « بنيرون العرب » . وكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة ، وفى عهده بدأ انحلال الإمبراطورية العربية وتسرب الفساد فى جسم الدولة ، بينما كان هو غارقا فى لهوه مستسلماً لشهواته عاكفا على معاقرة الخمر . ولكنه كان برغم ذلك من العاملين على إعادة المذهب التقليدى ، فأصدر أمره بترك المباحثات والمناظرات ، وأمر الناس بالتمسك بالتقليد ؛ كما أقصى أحرار الفكر عن وظائف الدولة ، وعطل المحاضرات التى كانت تلقى فى العلم والفلسفة . ولا مشاحة أن غلواءه هذا أدى به إلى أن يزج القاضى « أبا دؤاد » وولده اللذين كانا من

أشهر رجال المعتزلة — فى السجن ويصادر أملاكهما . ويقال إنه لم يكتف باضطهاد أحرار الفكر فحسب ، بل أوغل أيضا فى اضطهاد الذميين الذين قاسوا فى خلال حكمه أشد ضروب الجور والإيذاء ، إذ أقصاهم عن وظائف الدولة وحرمهم جميع الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها فى عهد أسلافه . وبلغ به كرهه لعلى بن أبى طالب وآل بيته أن هدم قبر الحسين بكربلاء وأمر بزرعه وسقيه ، كما منع الناس من زيارته مهدداً كل من يخالف أمره بأقصى أنواع العقوبات ، كذلك صادر أرض « فدك » وأمر بقتل ابن الزيات[1] وزير الواثق بحجة أنه لم يحترمه الاحترام الكافى قبل أن يعتلى كرسى الخلافة .

وقد انتهز الروم فرصة انتشار هذه الفوضى فى أنحاء الإمبراطورية واستأنفوا حروبهم ، فأغاروا على دمياط من أعمال مصر وفتكوا بأهلها وحرقوا دورهم ، ثم غزوا كليكيا وأسروا منها ٢٠٫٠٠٠ وذبحوا ١٢٫٠٠٠ بعد أن مثلوا بهم شر تمثيل بأمر الإمبراطورة « ثيودورة » ، ولم ينج من هذا الاعتداء المروع إلا من اعتنق المسيحية .

وفاة المتوكل

ولما بلغت تصرفات « المتوكل » فى أواخر أيامه حداً لا يطاق تآمر عليه القواد الأتراك ، ويقال إن ابنه « المنتصر » كان يعلم بسر المؤامرة التى دبرت لقتله ، والمعروف أنه لم يكن راضيا عن تصرفات أبيه الجائرة ، وفى ذات ليلة بينما كان « نيرون العرب » ثملا فاقد الحس دخل عليه المتآمرون وفتكوا به .

أبو جعفر أحمد المنتصر بالله
٢٤٧-٢٤٨ هـ
٨٦١-٨٦٢ م

ولما قتل المتوكل بويع « المنتصر بالله » ، وكان ورعا عادلا سمحاً كريما عفيفا أمينا يحرص كل الحرص على توفير أسباب السعادة والرفاهية للشعب ،

---

(١) كان ابن الزيات قاسى القلب ، ولكن أبا دؤاد كان يلطف من حدته فى عهد الواثق . ويقال إن ابن الزيات الآنف الذكر كان قد اخترع آلة لتعذيب المجرمين والمغضوب عليهم ، فأمر المتوكل بإدخاله فيها وهى تشبه الآلة التى اخترعها السير « سكيفتكتون » فى القرن الخامس عشر : « وهذه الآلة عبارة عن تنور من الحديد رؤوس مساميره إلى داخل قائمة مثل رؤوس المسال » .

فشيد من جديد قبرى « على » و « الحسين » ، وأطلق أوقاف « آل البيت » التى كان « المتوكل » قد صادرها ؛ كما منع التعرض للذميين ، ولكنه توفى لسوء الطالع بعد حكم لم تطل مدته غير ستة أشهر[١] . فاجتمع القواد الأتراك الذين أصبحوا وحدهم المتحكمين فى مصاير الخلافة ، وبايعوا حفيداً من أحفاد المعتصم ولقبوه « بالمستعين بالله » ؛ ولكنهم مع ذلك جردوه من النفوذ والسلطان .

أبو العباس أحمد المستعين بالله

ويقول لنا المؤرخون إن الاضطرابات التى عمت البلاد بعد موت « المنتصر » شجعت أمراء الولايات على الاستقلال بولاياتهم تدريجيا ، فأصبحوا أشبه بأصحاب الإقطاعيات منهم بالعمال الذين يأتمرون بأوامر الخليفة ؛ وهكذا تدهورت سلطة الخلافة ولم تعد تحتفظ لنفسها بغير الاسم فحسب[٢] .

الطاهريون

٢٣٢–٤٥٤هـ

توفى « عبد الله بن طاهر » فى خلافة المعتصم فرأى ابنه طاهر أن من حقه الشرعى أن يتولى منصب أبيه ، وكانت إدارته لا تقل عدلا وإنصافا عن إدارة سلفه ؛ وتقول لنا الرواية إن هذه الأسرة أسست فى « نيسابور » (حاضرة خراسان) بلاطا يضارع بلاط الملوك روعة وفخامة ، ولما توفى طاهر سنة ٨٦٢م خلفه ابنه « محمد » وظل متربعاً فى دست الحكم حتى سنة ٨٧٣م . ويعد حكم هذه الأسرة إيذانا بانفصال الإمارات عن الخلافة ، إذ أن استقلالها شجع الأمراء الآخرين على إعلان استقلالهم ، وعلى هذا أفلت المشرق تدريجيا من أيدى الخلافة العباسية .

فرار المستعين بالله إلى بغداد

كذلك حدث فى تلك الأثناء أن ضاق « المستعين » ذرعاً بالجيش التركى ففر منه إلى بغداد حيث كان يتوقع مؤازرة الجيش العربى والفارسى . وما إن يئس زعماء الأتراك من عودته حتى بايعوا « المعتز بالله » ثانى أولاد المتوكل

---

(١) كان المنتصر أول خليفة عباسى بنى ضريحاً فوق قبره .

(٢) يشبه تاريخ الأسرات الحاكمة التى قامت فى الإمبراطورية العربية فى المدة الواقعة بين وفاة الواثق وبين سنة ١٠٥٥ الأسرات القوية التى ظهرت فى فرنسا واستولت على إمارات النورمندى والبورغندى .

بالخلافة ، وراحوا يضيقون الحصار على بغداد حتى أذعن «المستعين» بالتسليم ورضى بالتنازل عن الخلافة على شرط أن يضمنوا له العيش باطمئنان فى المدينة المنورة ، غير أن أحد رجال الخليفة المعتز اغتاله فى واسط وهو فى طريقه إلى الحجاز .

جمادى الثانية ٢٦٤ هـ (حزيران ٨٦٨م)

ومنذ ذلك الحين طفق القواد الأتراك يتنازعون على السلطة والنفوذ فيما بينهم ، حتى أدى بهم التنافس إلى التآمر على قتل قائدين شهيرين طالما شاهدناهما يلعبان على مسرح الحوادث فى ذلك العهد ، وهما « وصيف » و « بغا » ، فولى الوزارة بعدهما المدعو « بايكباك » الذى استطاع أن يفوز من الخليفة بولاية مصر وينيب عنه « أحمد بن طولون »[١] المشهور ، الذى ما كاد يصله خبر مقتل سيده حتى استقل بحكمها ؛ ولقد برهن هذا الرجل على أنه إدارى حازم وجندى شجاع . وفى سنة ٨٦٨ م توفى الإمام «على النقى» وخلفه ابنه الحسن الملقب بالعسكرى[٢] .

وفى سنة ٢٥٥ هـ أى بعد مرور ثلاث سنوات على خلافة « المعتز » اشتد شغب الجنود ، وألحوا عليه فى طلب مرتباتهم ، ولما أعرب لهم عن فراغ الخزينة أخرجوه عنوة من القصر ، وراحوا ينزلون به أروع ضروب الإهانات حتى اضطروه إلى التنازل عن الخلافة ، ثم اغتالوه بعد أن ألقوه مدة فى السجن ، وهكذا قدر لأحفاد « المنصور » و « الرشيد » أن ينحدروا إلى هذا المصير من الضعف والاستكانة .

أبو عبد الله محمد المهتدى بالله ٢٦ رجب ٢٥٥ هـ

ولما تنازل « المعتز » عن الخلافة بايع القواد الأتراك ابن الواثق ولقبوه « بالمهتدى بالله » ، وكان رجلا قوى الأخلاق فاضلا عادلا محباً للشعب . ولو أنه جاء فى عصر غير هذا العصر لبرهن على مقدرة ممتازة وكفاية منقطعة النظير .

---

(١) جاء فى وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٩٦ : « إن أحمد بن طولون كان قد ولى مصر ثم استولى على دمشق والشام أجمع وأنطاكية والثغور . وكان أحمد عادلا جواداً شجاعاً متواضعاً ، حسن السيرة ، صادق الفراسة يباشر الأمور بنفسه ، ويعمر البلاد ويتفقد أحوال الرعية ويحب أهل العلم . وكان له ألف دينار فى كل شهر للصدقة ، وكان مع ذلك كله طائش السيف . وكان يحفظ القرآن الكريم ورزق حسن الصوت . » (المعرب)

(٢) لقب بالعسكرى لأنه ولد وتوفى فى سامرا التى كانت تدعى العساكر .

والمعروف أنه أقصى المغنيين وأبعد الموسيقيين والقيان من القصر ؛ كما حاول إظهار نفوذه وحكم البلاد بموجب الشرع ، غير أن وطأته ثقلت على الأتراك فتألبوا عليه وثاروا فى وجهه فصمد لهم فى قوة قليلة من رجاله ، ودار بين الفريقين قتال شديد أبلى فيه الخليفة بلاء حسنا ، غير أن أعوانه تفرقوا من حوله فقبض عليه الأتراك وساموه ضروب العذاب حتى اضطروه إلى التنازل عن الخلافة وأودعوه السجن حيث توفى بعد أمد قصير .

أبو العباس أحمد المعتمد على الله ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م)

وعلى أثر ذلك بويع أكبر أبناء المتوكل بالخلافة ، وكان يعيش فى تلك الآونة فى سامرا ، ولقب « بالمعتمد على الله » وكان ضعيف الخلق ، متقلب الأهواء ، عاكفاً على الملذات ، فى حين كان أخوه « أبو أحمد » الملقب « بالموفق » رجلا حازماً ذا مقدرة عسكرية ممتازة ، وكان فى الواقع هو الحاكم الفعلى للبلاد ، وظل محافظاً على نفوذه وسلطانه حتى وافته منيته قبيل وفاة أخيه « المعتمد » بقليل . وتقول لنا الرواية العربيــة : إن القواد الأتراك خفضوا فى عهده وفى عهد خلفه قليلا من غلوائهم عند ما آنسوا من « الموفق » قوة وصلابة من جهة ، ولربما لانتقال البلاط إلى بغداد من الجهة الأخرى ، حيث أصبح الخليفة يعتمد على الروح الوطنية . ويمكننا أن نقول إن دلائل النشاط والرفاهية أخذت فى ذلك الحين تبدو على جسم الإمبراطورية برغم انفصال طبرستان سنة ٨٦٤ م ، حيث استطاع أحد أحفاد على المسمى « بالحسن بن زيد » أن ينشر الدين الإسلامى بين أهلها وينادى بنفسه حاكما عليها .

الصفارية

ولم يحل عام ٨٧٠ م حتى كان « يعقوب بن الليث الصفار » قد أسس مملكة « الصفارية » . وكان هذا المصامى قد بدأ حياته كجندى بسيط ، وظل يواتيه الحظ حتى استولى على « سجستان » واستخلصها من الأمراء الطاهرية ، ثم نشر سلطانه على بلاد فارس الحاليــة ؛ وفى سنة ٨٧٣ أقصى « محمداً » حفيد طاهر من خراسان كما اجتاح طبرستان بعد مدة قصيرة وضمها إلى إمارته . ويظهر أن

النجاح الذى ناله فى المعارك التى خاض غمارها حفزه على الاستيلاء على العراق ؛ وهنالك تقابل جيشه بجيش «الموفق» فى «واسط» ، ودارت بين الفريقين معركة رائعة دارت فيها الدائرة على «يعقوب» ، فانسحب إلى إمارته مثقلا بالهزيمة .

٨٧٩ م

وفى السنة التالية بعد أن أعد عدته أراد الاستيلاء على عاصمة الخلافة ، غير أن المنية عاجلته فى «جنديسابور» ، فخلفه أخوه «عمرو بن الليث» وكان سياسيا لبقاً فاستطاع أن يكتسب رضاء «المعتمد» الذى أقره على إمارة أخيه وأرسل له العقد والعهد[1] التقليدين .

السامانيون

ومما هو جدير بالذكر أن بلاد «ما وراء النهر» انفصلت عن الخلافة فى ذلك الحين ، وأفضى أمرها إلى السامانيين الذين استقلوا بها برئاسة زعيمهم «إسمعيل السامانى» ، وكان فى الأصل قائداً للقوافل يتعاطى تجارة الجمال . ويعزى ارتفاع شأن هاته الأسرة إلى «المأمون» الذى ولّى «أحمد السامانى» فرغانة فى سنة ٨١٩ م ، ثم خلفه «أحمد بن ناصر» ؛ ولما توفى سنة ٨٩٢ أفضى الأمر من بعده إلى أخيه إسمعيل وكان رجلا قوى الأخلاق ، على جانب عظيم من الكفاية الإدارية والحنكة السياسية ، حتى إنه لم يكن ليترك صغيرة ولا كبيرة من أمور الدولة إلا ويطلع عليها . كذلك استطاع أن يزيح إلى ما وراء

٨٤٧ — ١٠٦٣ م

«جاكارت» قبائل التركمان التى اعتادت أن تشن الغارة من حين لآخر على ما وراء النهر ؛ كما اكتسب محبة الرعية بفضل حكمته وعدالته . وهكذا أسس دولته على دعائم قوية ، وجعل الحكم وراثيا فى أسرته كما فعل «عمرو بن الليث»

الطولونيون

مقابل جزية سنوية يدفعانها للخليفة . وقد استقل «أحمد بن طولون» بملك مصر والشام وتوفى سنة ٨٨٤م فخلفه ابنه «خمارويه الذى نقل عاصمة ملكه إلى دمشق .

---

(١) جاء فى صبح الأعشى للقلقشندى : «أنه إذا كان الذى يوليه الخليفة من ملوك النواحى البعيدة عن حضرة الخليفة ، جهز له التشريف من بغداد صحبة رسول وهو : جبة أطلس أسود بطراز مذهب ، وطوق من ذهب يجعل فى عنقه ، وسواران من ذهب يجعلان فى يديه ، وسيف قرابه ملبس بالذهب ، وفرس بمركب من ذهب ، وعلم أسود مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة ينشر على رأسه .» (المعرب)

(الأسر) الإمارات المستقلة

وفى هذه المرحلة تبرز لنا حقيقة لا يمكن إغفالها ؛ وهى أن تأسيس تلك الأسر المستقلة و إن أضعفت شأن الإمبراطورية العربية قد أفادت أهل تلكم الإمارات فوائد جمة ؛ ذلك أن حكامها ناصروا الحركة الأدبية وتعهدوها ببرهم وعطفهم كما شجعوا التجارة والصناعة أيما تشجيع .

ثورة الزنوج

وفى تلك الأثناء استفحلت ثورة الزنوج التى كانت قد انتشرت فى كلدة فى عهد المعتز ، و بلغت جانباً عظيما من الخطورة بزعامة رجل فارسى أباح لأتباعه أخزى أنواع الخلاعات ، وسمى « بالخبيث صاحب الزنج » ، فتدفق عليه العبيد من كل حدب وصوب وانضووا تحت لوائه ، فلما اشتد ساعده وقوى بأسه أعلن سلطانه على كلدة والأهواز ، وظل يحرز النصر تلو النصر على جيوش الخليفة طوال عدة سنين ، غير أن « الموفق » استطاع أخيراً أن يهزمه شر هزيمة و يفتك به سنة ٨٨٢ .

وفى تلك السنة أصبحت الدولة الخلافية مكونة من جزيرة العرب والجزيرة و بابل وكلدة (العراق العربى) وعراق العجم وأذر بيجان وأرمينيا والولايات المطلة على المحيط الهندى ، وتدلنا تلك الحدود على أن الإمبراطورية العربية كانت لا تزال مترامية الأطراف جديرة بالازدهار والتوسع . بيد أن الدولة البيزنطية انتهزت فرصة نشوب هاته الفتن الداخلية وأخذت تغير على البلاد الإسلامية حتى كادت تكتسح فى بادئ الأمر كل ما تصادفه أمامها ؛ غير أن أحمد بن طولون حينما استولى على الشام هب لقتالهم كما اشتبك عامله معهم فى «طورسوس» فى عدة معارك هزمهم فيها شر هزيمة وأجلاهم إلى ما وراء الحدود .

(٢٣٢ — ٤٠٤ هـ)

آخر أئمة الشيعة الاثنى عشرية سنة ٨٧٤م

وفى سنة ٢٦٠ هـ توفى الإمام « حسن العسكرى » فى عهد « المعتمد » وانتقلت الإمامة بوفاته إلى ابنه محمد الملقب « بالمهدى » آخر أئمة الشيعة . ومما لا شك فيه أن قصة هؤلاء الأئمة من « آل البيت » تثير الشجون وتحرك

العواطف ، ومن أمثلة تلك المآسى أن « أبا الحسن »[1] كان قد نفى بأمر « المتوكل » من المدينة إلى سامرا حيث وافته منيته وظل ابنه الحسن سجيناً . ويقال إن الباعث الحقيقى على سجنه هو الحسد الذى كان يضطرم فى قلوب أخلاف المتوكل ، وكان ابنه الطفل[2] الذى لم يكن قد ناهز بعد سن الخامسة يذوب حزناً وأسى على فراق أبيه ، فدخل الطفل ذات يوم سرداباً يبحث عنه ، ولكنه لم يعد ثانية ، فاستحالت شجون تلك المصيبة إلى أمل الانتظار ، وأخذ أتباع « الحسن » يعللون النفس بعودة الطفل كى ينقذ العالم الملىء بالشرور والآثام ويطهره من أدران الخطيئة والظلم . ويقول ابن خلدون فى مقدمته التى وضعها فى القرن الرابع عشر ما يلى : « وهم الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك ، ويقفون فى كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية ؛ وهم على ذلك لهذا العهد ؛ وبعض هؤلاء « الواقفية » يقول إن الإمام الذى فات يرجع إلى حياته الدنيا ويستشهدون لذلك بقتيل بنى إسرائيل ومثل ذلك من الخوارق التى وقعت على طريق المعجزة » .

٨٤٧ — ١٠٦٣م
أبو العباس أحمد المعتضد بالله (٨٩٤م)

ولما توفى الموفق سنة ٢٧٨ هـ بويع من بعده أخوه ثم خلفه ابن أخيه « أحمد ابن الموفق » ولقب « بالمعتضد بالله » ، وفى خلال تلك المدة لم يطرأ أى انفصال على جسم الدولة ؛ بل تضافرت جميع الفرص على تقوية نفوذ هذين الخليفتين فاستردا عدة ولايات كانت قد انفصلت عن الدولة الخلافية من قبل . ولقب

صفات المعتضد بالله

المعتضد « بالسفاح الثانى » إذ من المعتقد أنه أعاد إلى البيت العباسى — الذى كان قد تتطرق إليه الوهن والضعف — هيبته السابقة . ويصفه المؤرخون : بأنه كان شجاعاً نشيطاً وإدارياً حازماً وجندياً ممتازاً ؛ ولكنه كان بجانب ذلك

(١) على الهادى . (المعرب)
(٢) محمد العسكرى .

قليل الرحمة كسلفه «السفاح الأول» ، فنشط لقمع الاضطرابات حتى أرهب الناس واستطاع كبح جماحهم وأطفأ نار الفتن ، وكان فوق ذلك موفقاً فى حروبه مع الدولة البيزنطية ، إذ تمكن من استرداد عدة مدن بالسلاح والاستيلاء على عدد آخر دون مقاومة ؛ وقمع بشدة ثورة الأمير حمدان أمير الموصل الذى حاول الاستقلال بالحكم ، كما أجلى الأكراد عن أرض الجزيرة ؛ غير أن أعظم عمل اشتهر به هو استرداد مصر سلمياً وضمها إلى الخلافة ، وذلك أن خمارويه بن أحمد بن طولون كان قد عرض على الخليفة من تلقاء نفسه جزية سنوية قدرها ٤٥٠ ألف دينار إن هو أقره على إمارة مصر وجعلها وراثية فى أسرته ، ولا شك أن العلاقة بين مصر ودار الخلافة قد توثقت روابطها بزواج المعتضد بالله من ابنة خمارويه «قطر الندى» . وكان المعتضد رجلا حازما صارما . ويقال إنه أدخل عدة إصلاحات عظيمة الشأن منها أنه أقصى من العاصمة جميع القتلة واللصوص الذين كانوا يجلسون على قارعة الطريق فى رابعة النهار يقصون القصص ويتنبأون بالمستقبل والحظ ، ولكنهم كانوا متى أرخى الليل سدوله يسطون على الدور والحوانيت . أما الإصلاح الذى أكسبه محبة الشعب فهو القانون الخاص بالمواريث ، إذ كان من عادة العرب فى زمن الجاهلية أن يحرموا ذوى الأرحام من الميراث ، وقد أخذ أهل السنة بهذه القاعدة ، حتى جاء «المعتضد» فأمر بالغائها هى وديوان الميراث وإعادة البقية من أسهم المواريث إلى مستحقيها .

استرداد مصر

(٢٨٢م)

وكان المسلمون وقتئذ يحتفلون بعيد رأس السنة الشمسية جرياً على عادة الفرس القدماء ؛ وكان الخليفة يستقبل فى ذلك العيد المسمى بالنيروز [1]

عيد رأس السنة

(١) جاء فى صبح الأعشى للقلقشندى ج ٢ ص ٤١٠ و٤١١ : « إن أول من رسم هدايا النيروز والمهرجان فى الإسلام هو الحجاج بن يوسف الثقفى ، ثم رفع ذلك « عمر بن عبد العزيز » واستمر المنع فيه إلى أن فتح الهدية فيه « أحمد بن يوسف الكاتب » فإنه أهدى فيه للمأمون سفط ذهب فيه قطعة عود هندى وكتب معه : هذا يوم جرت فيه العادة بإتحاف العبيد السادة . » (المعرب)

الأشراف ويقبل منهم الهدايا ، كما كان الشعب يتبادل الزيارات ، ويتهادى بالحلوى وسلال البيض الملون بالأصباغ ، ويضيء المشاعل فى الليل ، ويرش الأمواه الملونة أو المعطرة . ولما كانت تلك العادة تؤدى فى معظم الأحيان إلى أسوأ النتائج فضلا عن الأخطار الناجمة عن إشعال النيران ، فقد أبطل « المعتضد بالله » هاتين العادتين ؛ كما منع بيع الكتب الفلسفية فى الأسواق ، واستبدل رأس السنة من شهر آزار إلى حزيران ولهذا سمى « بالنيروز المعتضدى » .

القرامطة ٢٧٨هـ (٨٩١ — ٨٩٢م)

وفى تلك الأثناء تأسست الدولة الفاطمية فى أفريقيا وظهر القرامطة الاشتراكيون الذين غشوا جزيرة العرب وسوريا والعراق ونشروا فيها الرعب وجلبوا على الأمة الإسلامية الكوارث والخراب ؛ وكان أول ظهورهم فى سواد الكوفة ثم انتشروا فى البحرين معقل أصحاب المبادئ الثورية والآراء الهدامة فى العالم الإسلامى ؛ وهناك بزعامة « أبى سعيد الجنابى » قوى أمرهم واستطاعوا سنة ٢٨٧ هـ غزو كلدة ، فأرسل إليهم المعتضد جيشاً قوياً هزمهم شر هزيمة . وبعد هذه المعركة بسنتين بلغوا الشأم وأعملوا فيها معاول النهب والتخريب .

أبو سعيد الجنابى سنة ٩٠٠م

٩٠٣—٩٠٤م

وفى سنة ٣٠١ هـ اغتيل أبو سعيد فولى الزعامة من بعده ابنه «أبو طاهر» الذى استولى على البصرة وعمل فى البلاد التى فتحها السلاح والنار ، وظل هو وأتباعه يرتكبون أروع ضروب الفتك ويلحقون بجيش الخليفة الهزائم المتوالية ، حتى بلغت بهم الجرأة إلى الانقضاض فجأة سنة ٣١٧ هـ (فى حكم المقتدر) على مكة فى يوم[1] من أهم أيام الحج دون أن يرعوا حرمة البيت الحرام ، وقتلوا الحجيج وقلعوا الحجر الأسود وحملوه معهم ، وظلوا يعيثون فى البلاد نهبا وقتلا ويرتكبون أقصى ضروب الجور والتعسف ، حتى هب المسلمون ووحدوا صفوفهم للقضاء على أعداء الإنسانية واستئصال شأفتهم ؛ فنشبت حروب دموية هائلة بين الفريقين استعملت فيها أروع ضروب القسوة ، واستمرت خمس عشرة سنة حتى انتهى

(١) يوم التروية . (المعرب)

٢٣٢–٤٥٤ هـ

الأمر بالقضاء على هذه الفئة الباغية ؛ غير أن نتائج هذه الحروب لم تنطمس معالمها قط ، إذ استحالت جزيرة العرب وقسم من بلاد الشام وكلدة إلى أرض بلقع .
ويقال إنه ما كادت شوكة الخليفة تقوى وتشتد حتى أضعفتها هذه الفتن ، وفتت فى عضدها فاجترأت الدولة البيزنطية — عدوة الإمبراطورية العربيـة — على غزو الحدود خلال تلك الفوضى وهى آمنة مطمئنة .

مبايعة أبى محمد على المكتفى بالله ٢٢ ربيع الثانى ٢٩٩ هـ . ٥ نيسان ٩٠٢م

وفى سنة ٢٩٩ هـ توفى «المعتضد بالله» وبويع من بعده بالخلافة ابنه أبو محمد « على » ولقب « بالمكتفى بالله » ، وقد برهن على أنه حاكم عادل كريم الخلق سديد الرأى ، وكان فى « الرقة » وقت أن توفى أبوه فأخذ له « الوزير القاسم بن عبيد الله البيعة ، وفى الحال عاد «المكتفى» إلى بغداد على ظهر سفينة أقلعت به وسط تهليل الشعب وهتافه ، وقد أمر حين وصوله إلى العاصمة بهدم السجون الأرضية التى شيدت فى عهد أبيه ثم بنى مكانها مساجد ، كما رد الأرض والبساتين التى كان سلفه قد اغتصبها ليشيد عليها قصره ؛ وبهذه الأعمال المجيدة وبأمثالها اكتسب « المكتفى » محبة الناس الذين ملأ أبوه قلوبهم رعباً وخوفاً .

وبالرغم من المصائب والويلات التى أنزلها القرامطة بالعراق والحجاز وجنوبى الشام فقد استطاع « المكتفى » أن يضم مصر إلى الخلافة ويضعها تحت سلطانه المباشر ، ويصد جيوش الروم بعد أن ألحق بهم أفدح الخسائر ، كما استولى عنوة على أنطاكية إحدى المدن الخطيرة ؛ ولكنه توفى لسوء الطالع بعد حكم لم تطل مدته أكثر من خمس سنوات . فأفضى الأمر من بعده إلى أخيه جعفر وكان إذ

٨٤٧ — ١٠٦٣ م

المقتدر بالله ١٢ ذو القعدة ٢٩٥ هـ ١٣ آب ٩٠٧م

ذاك لم يتجاوز الثالثة عشرة ولقب « بالمقتدر بالله » ، وقد بقى فى كرسى الخلافة ٢٥ سنة ، ويعزى الاحتفاظ بهيبة الخلافة إبان عهـده إلى مقدرة وزرائه [١] وكفايتهم ، ولكن الدولة لم تلبث أن تقلصت أطرافها بسبب طيشه وغروره .
وفى تلك الأثناء استولى الخليفة الفاطمى « عبيد الله المهدى » على أفريقيا

(١) أمثال ابن الفرات وغيره .

وطرد منها آخر الأغالبة المدعو زيادة الله بن الأغاب الذى رحل إلى مصر ومنها إلى العراق ؛ وكان الديلم الذين يسكنون أقاصى شمالى ميديا القديمة قد اعتنقوا الإسلام بفضل أحد العلويين المسمى الحسن أو « الأطروش » الذى استولى على طبرستان وكيلان وانتزعهما من « السامانيين » . وفى عام ٣٠٥ هجرية وصل وفد[١] من إمبراطور الروم فاستقبل استقبالا رائعاً . ومن مآثر « المقتدر » أنه شيد المستشفى المسمى بالمقتدرية ورتب له سبعة آلاف دينار سنويا . وفى أواخر عهده كانت أمور الدولة قد صارت إلى أيدى أمه المشهورة بحسن خصالها وواسع حيلتها ، وكانت تصدر المراسيم والأوامر باسمها وتجلس فى أيام الجمعة للمظالم يحيط بها رهط من القضاة والأعيان . ويقال إن أصحاب المذهب الحنبلى عظم نفوذهم وعلت كلمتهم فى تلك الأيام ، فأدى تعصبهم إلى نشوب اضطرابات عديدة فى بغداد[٢] وكانوا قد أحسوا بضعف الحكومة ووهنها ، فنصبوا أنفسهم مراقبين على الشعب وشرعوا يعتدون على حرمة المنازل ، وكثيراً ما كانوا يستدلون على الكتب التى لم تكن توافق أهواءهم ؛ وكان مقتهم الخاص موجهاً إلى الكتب الفلسفية والعلمية التى كانوا ينتزعونها من المكاتب ويحرقونها علانية .

٣٠٥ هـ

٢٣٢ — ٤٥٤ هـ

وفى عام ٣٢٠ قتل المقتدر فى أثناء المعركة التى دارت بين جنوده وأحد الأشراف الثائرين . فبويع بعده ابن المعتز المسمى بأبى منصور محمد ولقب « بالقاهر بالله » وكان قاسياً فاسد الأخلاق سيئ النية ، حتى إن الذين أجلسوه على العرش

٣١ تشرين الأول ٩٣٢م
أبو منصور محمد القاهر بالله
٦ جمادى الأولى ٣٢٢هـ نيسان ٩٣٤م

(١) جاء فى صبح الأعشى للقلقشندى : « إنه لما وصلت رسل ملك الروم إلى بغداد فى سنة خمس وثلثمائة فى خلافة المقتدر رتب من العسكر فى دار الخلافة مائة وستون ألفاً ، ما بين راكب وراجل ، ووقف بين يدى الخليفة سبعمائة حاجب وسبعة آلاف خادم خصى : أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود ، ووقف الغلمان الحجرية الذين هم بمثابة مماليك الطباق الآن بالباب بتمام الزينة والمناطق المحلاة ، وزينت دار الخلافة بأنواع الأسلحة وغرائب الزينة ، وغشيت جدرانها بالستور ، وفرشت أرضها بالبسط . » (المعرب)

(٢) وقد بلغ من تعصبهم أن حالوا دون دفن الطبرى المؤرخ المشهور لأنه لم يشد بذكر أحمد بن حنبل فى تاريخه ، وقد تدخل أصدقاؤه ودفنوه سرا .

سخطوا عليه وسملوا عينيه ثم خلعوه ، وفى خلافتـه استقل « محمد الأخشيد التركى »[١] بمصر .

أبو العباس محمد الراضى بالله

وعندئذ بايع القواد الأتراك « أبا العباس محمد » بن « المعتز » ولقب بالراضى بالله ؛ و بمبايعته اضمحلت عظمة الخلافة وفخامتها وأفل نجمها وقضى على نفوذها الذى كانت تتمتع به إلى ذلك الحين ، إذ لم يمض طويل وقت على مبايعته حتى استولى محمد بن رائق عامل واسط والبصرة على السلطة العليا ، فلقبه الراضى الذى لم يكن له حول ولا طول بلقب « أمير الأمراء » ، ولم يعـد للخليفة سلطان إلا على بغداد وضواحيها ، وذلك أن الأمراء استقلوا بإماراتهم . ومع أن ملوك الأندلس الأمويين لم يكونوا قد اتخذوا لأنفسهم بعـد سمة الخلافة إلا أن تدهور السلطة العباسية وانهيار مجدها حدا بعبد الرحمن الثالث إلى أن يتلقب بالخلافة ؛ وعند ما اشتدت شوكة « بجكم » القائد التركى عزل محمد بن رائق واستأثر بلقب إمارة الأمراء .

٨٤٧ — ١٠٦٣م

أبو إسحق إبراهيم المتقى بالله ٣٢٩هـ ٩٤٠م

وفى سنة ٣٢٩ توفى الراضى بالله فخلفه أبو إسحق ابراهيم بن المعتمد ولقب « بالمتقى بالله » ،ولم يكن فى الواقع إلا أداة صماء فى يد سكرتيره « بجكم » الذى اغتيل بعد مدة قصيرة فولى الحكم من بعده تركى[٢] آخر ، غير أن ابن رائق هزمه ، وعندئذ خلع «المتقى» عليه الخلع التقليدية ولقبه «بأمير الأمراء» ، ولـكن سرعان ما استولى زعيم تركى ثالث اسمه (البريدى) على بغـداد ففر ابن رائق يصحبه الخليفة إلى الموصل ، حيث كان حفيـدا الأمير حمدان أميرا الموصل وتكريت يصدان غارات الروم بقدر ما تسمح به مواردهما الخاصة ، فاغتالا ابن رائق لـكى يخلو لهما الجو ، وما هى إلا برهة حتى لقبهما الخليفـة بناصر الدولة ، وسيف الدولة ، وعاد معهما إلى بغداد حيث أجلساه على عرشه ثانية . ولـكن

(١) مؤسس الدولة الأخشيديه .
(٢) كورتكين الديلمى . (المعرب)

لم يمض سوى قليل حتى نشبت فتنة أخرى على رأسها « توزون » التركى ، انتهت بطرد الأخوين من بغـداد ووقوع الخليفة فى قبضة القائد الثائر ؛ ويظهر أن « المتقى » كان قد أوجس خيفة منه ففر إلى الرقة ، غير أن توزون أقنعه بالعودة ووعده بألا يغدر به ، ولـكنه لم يلبث بعد أن اطمأن إليه الخليفة وعاد معه إلى بغداد أن حنث فى وعده معه وسمل عينيه وخلعه من الخلافة . ويقال إن فى عهده غزا الروم بلاد المسلمين وأعملوا السيف فى رقاب السكان فلم تسلم مدينة (الرها) إلا بتسليم مسوحة المسيح المشهورة التى كانت محفوظة فى كنيسة تلك المدينة .

٣٣٢هـ–٩٤٤م

أبو القاسم عبد الله المستكفى بالله صفر ٣٣٣ هـ تشرين الأول ٩٤٤م آل بويه

وبعد ما خلع المتقى جىء بأخيه أبى القاسم عبد الله فبايعه « توزون » وسائر القواد ولقب « بالمستكفى بالله » . ولـكن توزون مات بعد ذلك بقليل ، فقلد الخليفة منصب إمارة الأمراء إلى سكرتيره « ابن شيرزاد » . وفى ذلك الحين زحف أمراء الديلم أبناء بويه على العراق للاستيلاء على بغداد ، ولأجل أن ينال المستكفى تعضيدهم ويتقى شرهم لقب أحمد « بمعز الدولة » ، وعليا « بعماد الدولة » والحسن « بركن الدولة » . وتقول لنا الرواية إن معز الدولة [١] لم يلبث أن استولى على بغداد واضطر الخليفـة إلى أن يقلده السلطنة كما نقش اسمه على العملة وذكر اسمه مقروناً باسمه فى خطبة الجمعة ؛ وكان موقفه من الخليفة كموقف تشارل مارتيل من ملوك فرنسا ، إذ كان هو الحاكم الحقيقى فى حين كان الخليفة لا حول له ولا قوة ، مجرداً من كل سلطة ، وليس له من الشؤون غير قبض المخصصات اليومية وقدرها خمسة آلاف دينار من خزينـة الدولة . وكان « معز الدولة » محبا للعلوم والفنون مكرما للعلماء ، إلا أنه كان قاسى القلب ، متشيعاً ، وهو الذى جعل اليوم العاشر من محرم يوم حزن لذكرى موقعة كربلاء

٣٤١هـ ٩٥٢م

(١) ذكر أبو الفرج بن الجوزى فى كتاب شـذور العقود : إن معز الدولة المذكور كان فى أول أمره يحمل الحطب على رأسه ، ثم ملك هو وإخوته البلاد وآل أمرهم إلى ما آل ، ولما حضره الموت أعتق مماليكه وتصدق بأكثر ماله ورد كثيراً من المظالم . (المعرب)

وفى عهده شرعت جيوش الروم تغير على البلاد الإسلامية عندما آنست من الخلافة عجزاً وخوراً .

أبو القاسم الفضل المطيع لله ٣٢٤هـ ٩٤٦م — ٨٤٧ ١٠٦٣م

ويقال إن « معز الدولة » أوجس خيفة من « المستكفى » واتهمه بالتآمر عليه فخلعه وسمل عينيه فى كانون الثانى سنة ٩٤٦ ، ثم بايع أبا القاسم الفضل بن المقتدر الملقب « بالمطيع لله » . وظل البويهيون فى الحكم زهاء قرن دون أن يظهر لهم أى منافس ينازعهم النفوذ والسلطان ، فقويت بذلك شوكتهم وتغلبوا على العناصر العسكرية التركية ، كما أجلوا الحمدانيين عن ملكهم فى الموصل حتى أصبحت بلاد الجزيرة والعراق العربى وغربى فارس تدين لهم بالطاعة . ومع أن بعض أفراد هذه الأسرة كان قاسى القلب ، شديد الوطأة ، إلا أن العلوم والآداب زهت فى عهدهم وسعد الأهالى فى كنفهم .

أبو بكر عبد الكريم الطائع لله ١٣ ذو القعدة ٣٦٣هـ (٥ آب ٩٧٤م)

وفى عام ٣٥٦ هـ توفى « معز الدولة » وخلفه فى منصب إمارة الأمراء ولده « باختيار » الملقب « بعز الدولة » . وبعد سبع سنين أصيب الخليفة المطيع بالشلل فتنازل لابنه أبى بكر عبد الكريم عن الخلافة ، ولقب « بالطائع لله » .

وليس أدل على كرم الأمراء الحمدانيين والبويهيين واهتمامهم بالعلوم والآداب من تألق نجم طائفة من مشاهير الرجال فى أيامهم أمثال المسعودى المؤرخ المعروف والفيلسوف « أبى نصر الفارابى » ، والشاعر الفذ « أبى الطيب المتنبى » ، و «أبى الفرج الأصبهانى » صاحب كتاب الأغانى ، و « أبى القاسم التنوخى » ، و « الدينورى » ، وكثير من الفلاسفة والعلماء والشعراء والقضاة الذين ذاعت شهرتهم خلال عهد الطائع لله .

٣٦٣هـ ٩٧٤م

وقد حدث فى خلافة « الطائع » أن استولى الخليفة الفاطمى الملقب « بالمعز لدين الله » على الشام والحجاز ، وجعل الخطبة تقرأ باسمه فى الحرمين . ولما خلع عضد الدولة ابن أخيه عز الدولة أقره الخليفة فى مكان أخيه ومنحه لقباً دينياً فوق لقبه الزمنى وسماه «تاج الملة» . وفى سنة ٣٧٢ هـ توفى عضد الدولة وخلفه ابنه

٢٣٢ـ٤٥٤هـ

٣٧٢هـ ٩٨٢م « صمصام الدولة » الذى لقب « بشمس الملّة » ، غير أن أخاه شرف الدولة عزله
٣٧٦هـ ٩٨٥م وتولى الحكم مكانه قرابة أربع سنوات[1] . ولما توفى عام ٣٧٩ هـ خلفه ابنه
٣٧٩هـ ٩٨٩م أبو ناصر الملقب « ببهاء الدولة » و « ضياء الملة » . وقد شجع كل من عز الدولة
وشرف الدولة الروح الأدبية فى البلاد ، وطفقا يعضدان مدرسة بغداد التى كان
قد اضمحل شأنها فى أثناء تدهور الخلافة ؛ وكان من جملة العلماء الذين نالوا
التشجيع منهما ابن سلام ، وعبد الرحمن الصوفى ، وأبو الوفاء الفلكى المشهور .
كذلك يقال إن عز الدولة علاوة على تكريمه الشعراء والعلماء قام بأعمال باهرة
أفادت البلاد فائدة تذكر ، وذلك أنه أمر المهندسين الأكفاء بكرى جدوال
نهر (باندمير[2]) وتهيئته للملاحة حتى مدينة شيراز ، فأزال بذلك خطر الفيضان
الدورى الذى كان يغمر المناطق المجاورة ، كما شيد أيضاً مستشفى فخما وفتح عدة
كليات فى بغداد .

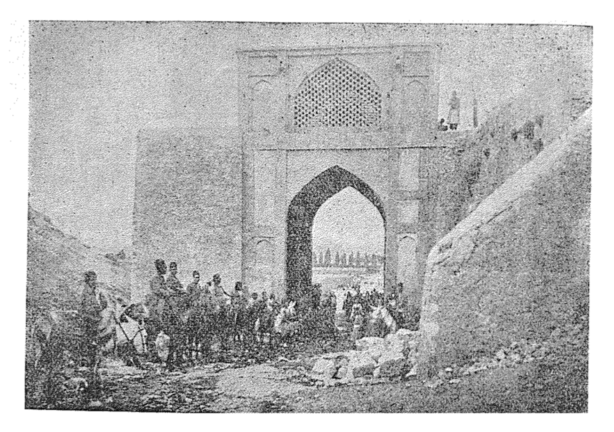
أبو العباس أحمد القادر بالله ١٩ شعبان ٣٨١ هـ ١ تشرين الثانى ٩٩١ م

أكره « بهاء الدولة » الخليفة « الطائع لله » على التنازل لأخيه « أبى
العباس أحمد » الذى بعد أن بويع بالخلافة ولقب « بالقادر بالله » سمح لأخيه
بالسكنى فى قصره ، ويلوح أنه عامله معاملة مرضية ، لم تكن مألوفة فى ذلك العصر .
وقد توفى (الطائع لله) عام ٣٩٣ هـ (١٠٠٢ م) ؛ وكان حسب ما يصفه المؤرخون
فاضلا ورعا ، سديد الرأى ، يقضى معظم ساعات الليل فى التهجد والصلاة ،

٨٤٧ — ١٠٦٣م

ويصرف معظم رواتبه على أعمال البر والإحسان ، ولكننا لا نستطيع برغم ذلك
أن نتجاهل شدة تعصبه وضيق أفق تفكيره ؛ ولعل ظروف عصره هى التى دفعته
إلى اتخاذ خطة رجعية شديدة إزاء كل حركة إصلاحية . وقد كان الفاطميون
فى تلك الأثناء ينشرون سلطانهم على كل الجهات ، فاستولى العزيز خليفة المعز على
حمص وحماة وحلب ، واعترف أهل الجزيرة بسلطانهم ودانوا لهم بالطاعة والولاء
وفضلا عن ذلك كان مبدأ الاعتزال ينتشر بسرعة ويجد له الكثير من الأنصار

(١) أقنع شرف الدولة الخليفة بمنحه لقب شاهنشاه (ملك الملوك) .
(٢) بالقرب من شيراز .



فى طريق شيراز

والأتباع . ولما كان القادر مثقفاً فى الشرع ملماً بأصول الدين ، مجرداً عن السلطة الزمنية والجاه والنفوذ ، فقد انصرف بكايته إلى تدعيم سلطان الخلافة العباسية ورفع سمعتها ، فكان الفقهاء يعقدون الاجتماعات برئاسته بصفة كونه الزعيم الدينى ويصدرون فتاويهم بتكفير الفاطميين ولعنهم وذم حرية الفكر وتحريمها ، كذلك وضع بعض التصانيف يهاجم فيها آراء المعتزلة ويكفر من يعتنقها ، فنجم عن هذه الفتاوى خلق روح البغضاء والعداء بين الطوائف وصبغ المعتقدات بصبغة الجمود .

الغزنيون ٩٩٩م

وفى سنة ٨٧٤ أفل نجم الدولة السامانيـة التى حكمت بلاد ما وراء النهر وخراسان واشتهرت بحسن سياستها ، وحلت محلها أسرة أخرى بقيت فى الحكم حتى سنة ٩٩٩ م . ومؤسس هـذه الأسرة جندى تركى يدعى (البتكين) ، بدأ حياته العسكرية كأحد الغلمان فلم يلبث أن نال مركزاً سامياً عند مولاه ؛ غير أنه لسبب ما جلب سخط سيده عليه ففر إلى بخارى ونزل فى إحدى المناطق الجبلية

٢٣٢ـ٤٥٤هـ

فى أفغانستان ، وهنالك اتخذ (غزنة) مركزاً لحركته واعتصم بها ست عشرة سنة تحدى فيها سائر التدابير التى بذلت لإخضاعه ؛ و بموته سنة ٩٩٥ م أفضى الأمر إلى صهره « سبكتكين » الذى استطاع بحسن سياسته و بعد همته اكتساب محبة الشعب واحترام أمراء الولايات المجاورة ؛ ولم يلبث الخليفة أن اعترف بحكومته ، فاصطبغ حكمه — بهذا الاعتراف — بالصبغة الشرعية وتحققت أمنية طالما اعتلجت فى صدره ، فتلقب « بناصر الدولة » ، و بعث له الخليفة بالعقد والخلع التقليدية ، وأصبح « سبكتكين » مؤسس الدولة الغزنية الشرعية . وفى تلك الأثناء حشد حملة عظيمة وزحف بها على الهند حتى وصل إلى كوش ثم البنجاب واستولى على مدينتى بوست وقصدار ، كذلك كانت قبائل التركان قد اجتاحت بلاد ما وراء النهر ، فسار « سبكتكين » إلى نجدة حليفه « نوح السامانى » .

السلطان محمود

ولما توفى سبكتكين نشب خلاف بين ولديه محمود و إسمعيل حول من يتولى الحكم من بعده ، وكان الأول يرغب فى اقتسام البلاد مع أخيه الذى أبى إلا أن يحكمها بمفرده ، فنشب قتال بين الأخوين انتصر فيه «محمود» ولكنه برغم ذلك عامل أخاه إسمعيل معاملة مرضية ، وعندئذ انفرط عقد الدولة السامانية . وفى عام ألف استولى ملك غزنة على خراسان ، ولم يلبث الخليفة أن أرسل له العقد والخلع ولقبه « يمين الدولة » و «أمين الملة» . وكان عهد السلطان محمود من ألمع العهود فى آسيا ، فقد جمل غزنة و يحق له أن يقول كما قال الإمبراطور الأول فى روما : « إنى وجدت عاصمة ملكى مجموعة مبعثرة من الأكواخ الحقيرة إلا أنى تركتها مدينة عامرة مزينة بالقصور المنيفة الذرى » . وكان له شغف خاص بنشر العلوم والفنون ؛ و بالرغم مما كان يعوق سخاءه أحياناً من ضيق أفق الفكر والشح ، فقد كان بلاطه ملجأ يؤمه العلماء والأدباء ، وفى عهده تألق نجم طائفة كبيرة من الفلاسفة

٨٤٧ —
١٠٦٣ م

والشعراء أمثال البيرونى والفردوسى والدقيقى ، كما غزا بلاد الهند عدة مرات ، ولـكنه لم يمكث طويلا فيما وراء حدود البنجاب . وفيما كان محمود منصرفا إلى بسط سلطانه فى جهة الشرق عبرت قوة كبيرة من التركمان نهر سيحون آتية من الخركيز ، فنزلت فى بلاد ما وراء النهر ؛ ولـكن سلطان الدولة الغزنية أخطأ خطأً فاحشاً بترك تلك القبائل تسكن فى بلاده ، مقتنعاً منها بالجزية السنوية والاعتراف له بالطاعة ، ولـكنه لكى يضعف شوكتها — حسب اعتقاده — أقصى طائفة منها مع زعيمهم « سلجوق » إلى خراسان حيث ازدادوا قوة ومنعة وتمكنوا فيما بعد من الخروج على أسيادهم السابقين . وفى عام ١٠٣٠ توفى السلطان محمود تاركا وراءه إمبراطورية واسعة الأطراف إلى ابنه « مسعود » الذى حاول إقصاء تلك القبيلة التى استوطنت فى قلب مملكته من جراء السياسة الخاطئة التى سلكها أبوه ، فوقعت معركة حامية بين الفريقين بمقربة من «هراة» دارت فيها الدائرة على مسعود ، فانهارت دولته ، وتأسست على أنقاضها الدولة السلجوقية ؛ وعندئذ اقتصر نفوذ السلطان مسعود على الأفغان وشرقى البنجاب وقد اعتلى العرش بالتعاقب بعد وفاته عدة أمراء لم يمكث أحد منهم فى الحكم غير مدة قصيرة ، وظلت شؤون هاته الإمارة تضطرب أحياناً وتهدأ أخرى ، حتى استخلصها منهم السلطان إبراهيم صديق الشاعر الفيلسوف الحكيم « سنائى » ، وعقد الصلح مع أمير خراسان السلجوقى ، ثم صرف جهوده إلى تدعيم سلطانه فى الهند .

السلطان مسعود

الدولة السلجوقية

٢٣٢ —
٤٥٤ هـ

طغرلبك

وعلى أثر هزيمة السلطان « مسعود » انتخب السلاجقة « طغرلبك » حفيد زعيمهم المشهور الذى عرفت القبيلة باسمه ، وكان ملكا حكيماً ، متسامحاً كريماً ، فاضلا محبا للعلم ، فلم تلبث أن أذعنت له جرجان والعراق العجمى وخوارزم ، وبعض الولايات الأخرى المهمة فى المغرب ، وتمكن فى الوقت نفسه من إقصاء

أمراء بنى بويه عن ملكهم فى شمالى فارس . ومن مآثره أنه كان كلما استولى على مدينة شيد فيها مسجداً ومدرسة تخليداً لذكرى انتصاراته الباهرة ، فشاع اسمه وذاع فضله ، حتى كانت تسبقه شهرته أنّى ارتحل مما سهل له الفوز والانتصار على أعدائه . وفيما كان يبسط سلطانه على دولة آل بويه فى فارس كان الخليفة الكهل « القادر بالله » يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وتوفى عام ٤٢٢ ﻫ وله من العمر ٨٧ سنة بعد أن مكث فى الخلافة ٤١ سنة . وقد تألق فى عهده أنجم عدة من العلماء الأفذاذ الذين تركوا آثاراً خالدة فى التاريخ الإسلامى أمثال القاضى عبد الجبار العالم المعتزلى ، وخصمه « أبى إسحق الأشعرى » ، والعلامة « الشيخ المفيد » أكبر مجتهدى الشيعة ، والشاعر « أبى عمر بن الدراج » ، والقاضى « ابن شاهين » وكثير غيرهم .

١١ ذو الحجة ٤٢٢ ﻫ
٢٩ تشرين الثانى ١٠٣١ م

أبو جعفر عبدالله القائم بأمر الله

وقد بويع من بعده ابنه « أبو جعفر عبد الله » الملقب بالقائم بأمر الله ، وكان فاضلا تقيا ورعا عالما متديناً كريماً ، يشجع العلم ويكرم العلماء ، وكانت له مهارة فى فن الكتابة وشغف عظيم بعمل الخير وإقامة العدل ، ويظهر أنه بقى ٢٤ سنة فى الخلافة التى انحل أمرها ، وضعف شأنها فى عهد آل بويه . وفى عام ٤٦٦ ﻫ وفد القائد التركى « أرسلان البساسيرى » على بغداد وأزاح الملك الرحيم البويهى عن ملكه ، واستولى بنفسه على السلطة العليا ، وفى تلك الأثناء استنجد « القائم » بالملك السلجوقى الذى ما كاد يصل إلى بغداد حتى فر البساسيرى إلى الموصل . وتقول لنا الرواية إن البساسيرى عند ما سمع أن طغرلبك قد غادر بغداد لقمع الثورة التى نشبت فى فارس عاد إلى العاصمة وخلع الخليفة العباسى ، وبايع الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، وأرسل البردة والقضيب والمنبر إلى مصر ، وخطب له على منابر بغداد ، فلم يلبث طغرلبك أن عاد إلى بغداد وقاتل البساسيرى حتى فتك به ، وأجلس « القائم بأمرالله » ثانية على عرش أجداده ، وعندئذ أقام

السلطان طغرلبك

الخليفة حفلة رائعة فى بغداد توج فيها طغرلبك[١] بتاجين يرمزان إلى السلطة على العرب والعجم ، وخلع عليه سبع حلل رمزاً للممالك الإسلامية السبع ، ثم اعترف الأمراء له بالسلطة على المشرق والمغرب ، ولم يبق للخلافة العباسية فى أيامه غير السلطة الروحية فحسب .

---

(١) يقول ابن الأثير : « إن السلطان طغرلبك بن ميكائيل السلجوقى لما تقلد السلطنة عن « القائم بأمر الله » فى سنة تسع وأربعين وأربعمائة جلس له الخليفة على كرسى ارتفاعه عن الأرض نحو سبعة أذرعة وعليه البردة ، ودخل طغرلبك فى جماعة ، وأعيان بغداد حاضرون ، فقبل طغرلبك الأرض ويد الخليفة ثم جلس على كرسى نصب له وخلع عليه سبع جبات سود بزيق واحد وعمامة سوداء ، وطوق بطوق من ذهب ، وسور بسوارين من ذهب ، وأعطى سيفاً بغلاف من ذهب » . (المعرب)

الفصل العشرون

العباسيون

من عهد القائم إلى المستظهر

٤٥٥ — ٥٠٣هـ ١٠٦٣ — ١١١٠ م

بدأ الحروب الصليبية

الخليفة القائم بأمر الله — طغرلبك — الحروب مع الدولة البيزنطية وفاة طوغرل — تولية ألب أرسلان — غزو جيوش الفرنج — موقعة ملازكرد — انهزام الجيوش الصليبية — أسر رومانوس — معاهدة الصلح — مقتل رومانوس — وفاة ألب أرسلان — تولية الملك صالح — وفاة القائم — مبايعة المقتدى بأمر الله — عهد الملكشاه الزاهر — الحشاشون أو الباطنيون — حسن الصباح — اغتيال نظام الملك — وفاة الملكشاه — الخلاف بين أولاده — وفاة الخليفة المقتدى — تولية المستظهر بالله — بدء الحروب الصليبية — حصار أنطاكية — الاستيلاء عليها — مذبحة المسلمين — تدمير معرة النعمان — مذبحة بيت المقدس — نهب طرابلس

٤٥٥-٥٠٣هـ
١٠٦٣ —
١١١٠م

أضحى السلاجقة بزعامة « طوغرل » الشعب المسيطر على آسيا ؛ ومن المعلوم أن ذلك الشعب ينتمى إلى سلالة تركية ، ويعرف باسم زعيمه الذى هاجر به إلى ما وراء السند ومن ثم إلى خراسان . ومع أن الأتراك والمغول ينتسبان إلى أصل واحد إلا أنهما يختلفان أحدهما عن الآخر اختلافا بينا ؛ إذ بينما كان المغول يسكنون أقصى حدود آسيا الشرقية فى حالة شبه بربرية كانت القبائل الغربية الضاربة فى المغرب تتأثر أيما تأثير باحتكاكها بمدنية العرب . وكان السلاجقة الذين يعتبرون أكثر هؤلاء القبائل تمدنا قد اعتنقوا الدين الإسلامى بحماسة

و إخلاص شديدين وأصبحوا حماته المغاوير . و بينما كان العرب منصرفين إلى تمضيد الفنون والآداب التى تدعو إليها حياة السلم و يتعهدونهـا برعايتهم ، كان السلاجقة يسعون إلى نشر الإسلام و بسط نفوذه ؛ وقد بلغوا ذروة مجـدهم فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر على أثر خضوعهم لسلطان أعلى واحـد توحدت بفضله كلمة رؤساء الإقطاعيات وأعلنوا له خضوعهم و إخلاصهم .

وقد انتهز الروم فرصة ضعف الخلافة ووهنها وحاولوا نشر سلطانهم على آسيا فتطورت الغزوات التى كانوا يشنونها فى العصور السابقة بقيادة بعض الملوك الأشداء ، واستحالت الآن إلى حملات عسكرية لاحتلال بلاد المسلمين ، وظلوا يوغلون فى التقدم حتى توسعت دولتهم فى القرن العاشر الميلادى وأصبحت تمتد إلى مدينة أنطاكية جنوبا وحدود أرمينية شرقا .

وفاة طغرلبك وتولية ألب أرسلان

وفى سنة ١٠٦٠ م هب « طغرلبك » معلناً حربا شعواء على الدولة البيزنطية وا كتسح كبيدوكيا وأفروجيا ، غير أن احتلال هاتين المنطقتين احتلالا دائماً لم يتم إلا بفضل خلفه « ألب أرسلان » ، الذى تولى رئاسة السلجوقيين بعد موت عمه الذى لم يعقب ولداً ذكراً ، كما أنعم عليــه الخليفة بلقب السلطان ؛ و يصفه ابن الأثير : « بأنه بعيد الهمة ثاقب العزم ميمون النقيبة إلى بره بالرعية و إرادته خيرهم » ، وكان فوق ذلك فارسا شجاعا . و بعد انتصاره على جيش الروم واستيلائه نهائياً على « الـكُرج » « وأرمينية » عاد إلى « خيوة » فى أذر بيجان ، ولـكنه لم يلبث أن أتتـه الأخبار بأن دايوكنيس رومانوس [1] — الذى اعتلى العرش بفضل الإمبراطورة أديسيا بعد أن كاد ينفذ فيه حكم الإعدام — قد توغل فى آسيا على رأس جيش كبير يزيد على ٢٠٠ ألف جندى لاحتلال بغداد ، عاقداً النية على الاستيلاء على آسيا الغربية برمتها وضمها إلى الدولة البيزنطية ، وكانت هذه الحملة أعظم الحملات التى زحفت حتى الآن من القسطنطينية للغزو والتخريب .

— ٤٥٥
٥٠٣ هـ

(١) ويسميه العرب أرمانوس .

وتقول لنا الرواية إنه كلما تقدم الروم أمعن المسلمون فى الفرار حتى وصلوا إلى «ملازكرد» أحد الحصون المهمة الواقعة فى منتصف الطريق بين مدينتى أرضروم ووان؛ فلم يلبث السلطان أن أسرع إلى نجدتهم على رأس قوة كبيرة، وزحف بها على الروم، فدارت معركة رائعة بين الفريقين انتصر فيها المسلمون بالرغم من قلة عددهم، وأسروا ملك الروم وقواده، وحملوه إلى معسكر السلطان، فعاملهم معاملة مرضية؛ وبعد مفاوضات طويلة دارت بينه وبين أرمانوس، تم الصلح بينهما على أن يزوج الثانى بناته من أولاد الأول، ويفتدى نفسه وجميع الأسرى بمليون دينار، ويدفع جزية سنوية قدرها ٣٦٠ ألف قطعة ذهبية. ولما فك سراحهم رجعوا أدراجهم تحف بهم قوة من المسلمين إلى الحدود. غير أن أرمانوس علم فى طريقه إلى القسطنطينية أن شعبه العديم الوفاء قد خلعه فاستنجد بالسلطان؛ ولكن الروم كانوا قد قبضوا عليه قبل أن تصله النجدات وقتلوه بعد أن سملوا عينيه.

ملازكرد

١٠٦٣ — ١١١٠م

وعلى أثر الانتصارات الباهرة التى أحرزها السلطان فى موقعة «ملازكرد» وهب ابن عمه سليمان بن قطلمش ولاية آسيا الصغرى، وكان جنديا شجاعا حكيما متدبراً فى أمره، فوسع ملكه وبسط سلطانه إلى هلسبونت «بحر مرمره» شمالا وسواحل البحر الأبيض المتوسط غرباً، وفرض على ملوك الروم الجزية يدفعونها عن يد وهم صاغرون، ثم اختار مدينة نيقية إحدى مدن الأناضول لتكون عاصمة ملكه، ولما استولى عليها الصليبيون انتقل إلى قونية، وظلت آسيا الصغرى فى قبضة أحفاده حتى تغلب عليهم التتر؛ ويعرف هذا الفرع السلجوقى بسلاجقة الروم[1]، وقد تركوا آثاراً جمة تنهض دليلا على مبلغ مدنيتهم وقوة سلطانهم.

٤٦٥هـ ١٠٧٢م

توفى ألب أرسلان متأثراً بجرح الخنجر الذى طعنه به أحد الثائرين، وكانت

وفاة ألب أرسلان

(١) كان علاء الدين الملك الرابع عشر من ملوك تلك الأسرة صديق وتلميذ الشاعر الصوفى المشهور مولانا جلال الدين الرومى.

أيامه أيام تقدم وازدهار، وكان وزيره «الخوجه حسن» الملقب بنظام الملك الذى أسند إليه مهمة تدبير الأمور المدنية بأسرها . وقد خلف «ألب أرسلان» ابنه ملكشاه ولقب بجلال الدولة . وتوفى الخليفة «القائم» بعد ذلك بثلاث سنوات فخلفه حفيده أبو القاسم عبد الله الملقب «بالمقتدى بأمر الله» ، ولم يكن قد ناهز بعد التاسعة عشرة ، وكان من خيرة بنى العباس ، قوى النفس عظيم الهمة ، فأمر باقصاء المغنيات والمفسدات ، وأصلح كثيراً من الأخلاق العامة ، وعمل على رفع مستواها بالرغم من انتشار الفساد ؛ بيد أن أصحاب المذهب الحنبلى المتعصبين خلقوا له عدة متاعب ، فكثيراً ما كان ينجم عن الشجار الذى كان يقع بينهم و بين الأشعرية خسائر فادحة فى المال والأرواح ، ولكن اهتمام العالم الإسلامى فى ذلك الحين لم يكن متجهاً إلى الخليفة ولا إلى بلاطه ، بل كان منصرفا إلى السلطان الأكبر حاكم آسيا .

تولية ملكشاه
٤٦٦ هـ
١٠٧٣ م

عهد ملكشاه

كانت أوائل أيام «ملكشاه» مضطربة بسبب الفتن الداخلية التى كانت تنشب من حين لآخر ، وقد خرج أخو السلطان نفسه على أخيه ذات مرة ، وليس أدل على شرف نفس «ملكشاه» ونبل عاطفته من ذلك الحادث الذى جرى له فى طوس ، وهو أنه بعد أن صلى فى مشهد الإمام على الرضا قال لوزيره : إنه ابتهل إلى الله فى صلاته أن ينصر أخاه عليه إن كان هو أحق منه بحكم المسلمين ؛ وعلى الجملة كان «ملكشاه» سلطاناً عادلا ذا فضل و إنصاف ، شجاعا مقداما صائب الرأى والتدبير ، لم تشب أخلاقه أية شائبة قط ، وظل محتفظاً بخدمات وزيره الخوجه حسن نظام الملك الذى قلده جميع الأمور ولقبه أتابك . ولعل «نظام الملك» يعد أقدر وزراء الإسلام طرا بعد يحيى البرمكى ، وليس أدل على عبقريته الفذة وكفايته من الأعمال الجسام التى قام بها فى إدارة شؤون الدولة ، فانتشر الأمن فى كافة أنحاء البلاد الممتدة من حدود الصين إلى البحر الأبيض المتوسط غربا ، ومن كورجيا شمالا إلى بلاد اليمن جنوبا ، كما قام

باثنتى عشرة جولة فى طول البلاد وعرضها ليتعرف أحوال رعيته ، و يقف على احتياجاتها بنفسه ؛ وأسس منازل ومخافر على طول الطرق التجارية وطرق الحجيج ، شأنه فى ذلك شأن الرشيد والمأمون ؛ وكان بجانب ذلك مولعاً بالقنص والصيد ، ولـكنه لم ينس قط فى أوقات لهوه أن يحسن إلى الفقراء والفلاحين الذين كان يصطاد فى مزارعهم وحقولهم أو يمر من ضياعهم . وكان عهد ملـكشاه يقاس فى عظمته وفخامته بأزهر عهود الدولة الرومانية أو العربية حيث ازدهرت التجارة والصناعة ، وزهت الآداب والفنون ، وتقدمت اللغة الفارسية تقدما لم يسبق له مثيل ، وجملت المدن بالكليات[1] والجوامع ، وأنشئت المستشفيات والقصور وشقت الطرق ، وحفرت الترع فى كافة الأمصار والبـلدان ، تسهيلا للتجارة والزراعة .

إصلاح التقويم

كذلك كان للتقويم الذى أمر بإصـلاحه فائدة عظمى للعالم أجمع ، إذ تشكلت لجنة من العلماء برئاسة الفلكى المشهور « عمر الخيام » للقيام بهذا العمل المجيد . ويقال إنهم توصلوا إلى إصلاح الأخطاء بطريقة احتساب الوقت . ويقول «غيبون» بهذا الصدد : إن تقويمهم فاق تقويم جوليان وقارب التقويم « الغريغورى » ، كما قرروا تعيين رأس السنة فى أول نقطة من دخول الشمس برج الحمل بدلا من توسط مرورها ببرج الحوت ، وقد عرفت بالسنة الجلالية ، نسبة للسلطان جلال الدين .

٤٥٥ —
٥٠٠٣ هـ

وفى ذلك الحـين كان سليمان حاكم الروم السلجوقى قد بسط سلطانه على حدود « ر بوط » ، واستولى على عدة جزر ، واعترف بسيادته كل من « نقفور » الذى اعتلى عرش الدولة البيزنطية بعد خلع ابن قسطنطين و « الـكسيوس كوستيوس » ، وطفقا يدفعان له الجزية . وفى سنة ٤٦٧ هـ طرد « سليمانشاه » الروم من أنطاكية وأعاد احتلالها باسم السلطان ، غير أنهم ثاروا بعد سبع سنوات

(١) أهمها المدرسة النظامية والمدرسة الحنفية فى بغداد (المعرب)

للهزيمة التى لحقت بهم وغزوا جزيرة صقليه . وفى عام ١٠٦١ م غزا النورمنديون تلك الجزيرة ، وقد شجعتهم الفتن التى كانت تعصف ريحها بالدولة الإسلامية على التغلغل ، فواصلوا حروبهم حتى عام ١٠٩١ م حيث استولى عليها نهائيا كونت نورمانى اسمه « روجر » بعد معارك شديدة استمرت مدة غير يسيرة .

تأليف جماعة الحشاشين (الباطنيين)

وفى أواخر أيام « ملكشاه » ظهرت فئة نهلستية تسمى بالحشاشين[١-٢] فى وهاد « مازندران » التى سبق أن اعتصم بها بابك الخرمى وأتباعه ؛ ومؤسس هذه الجمعية الدموية — التى أسست على غرارها فيما بعد الجمعيات السرية فى آسيا وأوربا — هو الحسن بن الصباح أحد أقران نظام الملك فى المدرسة وطلب العلم ؛ ويقال إنه لما قعدت به الهمة عن الوصول إلى غايته فى مراتب الدولة السلجوقية آلى على نفسه أن يعمل على تقويض دعائم السلطة الشرعية بالسم والحديد ، فالتحق بالخليفة الفاطمى فى مصر ، وأصبح من أتباعه المقربين ، وظل به حتى عينه رسولا إلى المشرق ، وفوض إليه نشر الدعوة الإسماعيلية ، وكان يتألف هذا المذهب إلى ذلك الحين من :

حسن الصباح

الاسماعيلية ١٠٦٣ — ١١١٠ م

(١) رؤساء أو دعاة يتدرجون فى مراتب العقيدة السرية .

(٢) أتباع أو رفقاء يلقنون تدريجيا مبادئها السرية ، ويتألف منهم أغلبيتها الساحقة .

رأى الحسن أنه لايستطيع تحقيق مراميه ، وبلوغ أهدافه بالنشاط والاطمئنان المطلوبين إلا بإنشاء مرتبة ثالثة يكل إلى أفرادها أمر تنفيذ أغراض الجمعية ، فيغدون آداة صماء متهوسين فى أيدى رؤسائهم يوجهونهم كيف شاءوا دون أن يسألوا سؤالا أو يحسبوا حسابا لعواقب أعمالهم ، ويدعون « بالفدائيين » وكانوا يرتكبون أعمال الفتك والاغتيال وفقاً لأوامر الرئيس الأعلى الذى كان

شيخ الجبل

(١) يعرفون بالباطنيين . (المعرب)
(٢) إن كلمة الحشاشين إما مشتقة من « الحسنى » أو « الحشاشين » .

يسمى « بسيدنا » ، ويعرف عند العامة باسم شيخ الجبل ؛ وكان معظم أتباعه من هؤلاء الفدائيين[١] .

مراتب الجمعية

وكان يليهم مباشرة فى المرتبة فئة داعى الدعاة ، وهم ثلاثة يرأسون فروع الجمعية فى الجبل وكوهستان والشام ؛ ثم يأتى بعدهم فى المرتبة منصب الداعى الذى كان من شأنه بث الدعوة وقبول المدعوين ، وهو لقب يمنح لمن سبق أن تدرج فى مراتب الجمعية السرية ، ويليه منصب الرفيق ثم الفدائى ؛ أما مرتبة اللاصق فكانت المرحلة الأولى للمدعوين الذين كان يتطلب منهم مراعاة أدق المراسيم الدينية الإسلامية ؛ أما الأتباع المخلصون فكانوا ملزمين بالطاعة العمياء . وكان الداعى يخدم الجمعية بفكره ، ويرشد الفدائيين إلى ما يجب عليهم عمله تنفيذاً لأوامر « شيخ الجبل » ، وقد أطلق المسلمون على هؤلاء النهلستيين اسم الملاحدة .

٤٥٥ — ٥٠٣ هـ

وفى سنة ٨٤٣ م استولى الحسن بن الصباح على قلعة آلاموت « عش النسر » المنيعة فى جبال مازندران ، ومنها شرع يدير حركته الهدامة .

ولأجل القضاء على هذه الدعوة الإلحادية والجمعية الهدامة سير « ملكشاه » عليهم حملتين ، ولكن المنية عاجلته قبل استئصال شأفتهم . وفى سنة ١٠٩١

اغتيال نظام الملك

اغتال أحد أتباع الحسن بن الصباح « نظام الملك » الذى يصفه ابن الأثير[٢] : « بأنه كان محبوبا عند الخاصة والعامة مشهوراً بحسن تدبيره وجوده » . وكان قد أعقب ثلاثة أولادهم : مؤيد الملك ، وفخر الملك ، وعز الملك ، الذين استوزرهم

وفاة الملكشاه ١٥ شوال ٤٨٠ هـ ١٨ تشرين الثاني ١٠٩٢ م

أخلاف الملكشاه . وقد عاد السلطان إلى بغداد بعد موت وزيره المظيم . وفى ذلك الحين كاد يتم زواج ملكشاه من ابنة كومينوس[٣] بيد أن وفاة الأول حال دون تحقيق هـذه الأمنية التى لو تمت لأفادت الشرق والغرب معاً بتوطيد

---

(١) يوجد ثمة تشابه غريب بين هذه الجمعية السرية للاغتيال وشتى الجمعيات التى نشأت فى أوربا فيما بعد .

(٢) تاريخ أتابكة الموصل .

(٣) يعتقد غيبون اعتقاداً جازماً أنها « آنى كومينا » نفسها .

العلاقات وتوثيق الصلات بينهما . وقد توفى ملكشاه وهو ابن ٣٩ سنة بعد أن حكم البلاد ٢١ سنة ، وبموته اضمحلت عظمة الدولة السلجوقية وتفككت أواصرها . وكانت أرملة ملكشاه « تركان خاتون الجلالية » قد طلبت إلى الخليفة أن يقر ابنها محموداً الذى كان لا يزال طفلا فى مكان أبيه ، فابى طلبها ولقبه « بناصر الدنيا والدين » ، ولكن الطفل الصغير لم يتمتع بالملك طويلا ، إذ استولى على السلطة أخوه الأكبر « بركياروق »[1] وتلقب « بركن الدولة » . غير أنه لم يمض سوى قليل حتى قام أخوه الثالث مطالبا بعرش السلطنة ، فنشبت فتن رائعة بين الأخوين بركياروق ومحمود حول الاستيلاء على العراق وخراسان ، ففتت هذه الحروب فى عضد السلاجقة ، وأضعفت قوتهم ، وهيأت الفرصة للحسن بن الصباح لتنفيذ خططه . وفى هذه التربة الدموية الخصيبة التى كانت تعصف بها ريح البغضاء والتحاسد نبتت جذور الاغتيال ، وازدهرت أفنان القتل بالسم والسيف ، وهكذا استولى الحشاشون « الباطنيون » تدريجياً على عدة قلاع منيعة فى البقاع الجبلية فى شمالى فارس والعراق والشام ، وقضوا بالخناجر على حياة أعظم رجال المسلمين شأنا .

١٠٦٣ — ١١١٠ م

تولية بركياروق

وفى عام ٤٨٧ توفى المقتدى وخلفه ابنه أبو العباس أحمد « المستظهر بالله » وعمره ست عشرة سنة ؛ وكان كما يصفه ابن الأثير : « لين الجانب كريم الأخلاق يحب الاصطناع ، ويفعل الخير ، ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات ، مشكور المساعى » . ولو أنه جاء فى عصر أسعد حظاً لترك على الأرجح أثراً بالغاً فى التاريخ ؛ بيد أن المصادر التى كانت لديه لم تكن لتمكنه من القيام بدور خطير ، إذ كانت تعصف فى تلك الأثناء فى آسيا ريح التعصب الوحشى الذى يسمى فى التاريخ المسيحى « بالحروب المقدسة » . ولما كنا نلاحظ فى الكتب التاريخية التى دبجها يراع المؤلفين الأور بيين أنهم يحملون نزعة مغالبة ، وأنهم يرون فى الفارس الذى

أبو العباس أحمد المستظهر بالله
١٥ محرم ٤٨٧ هـ
تشرين الثانى ١٠٩٤ م

الصليبيون
٤٩١ هـ
١٠٩٧ م

(١) ويلفظ أيضاً « بيك ياروق » أى البيك اللامع .

كان ينضوى تحت لواء تلك الحملات بطلا صنديداً ، ومثلا أعلى للشهامة والفخار رأينا من اللازم علينا إحقاقا للحق أن نمزق ذلك النقاب البراق الذى أسدلوه على هذه الصورة المشوهة ، لنبين فى الصفحات القليلة من هذا الكتاب هول تلك الحروب ، ووحشية طباع الذين اشتركوا فيها ، والدمار الذى جلبوه على آسيا الغربية . ومما لاشك فيه أن الحروب الصليبية — كما يصفها كاتب مبدع — « كانت أشد الحروب خبالا ، إذ تدفقت جموع المسيحيين على البلاد الإسلامية فى حملات متوالية قرابة ثلاثة قرون حتى يئست النفوس ، ووهنت العزائم ، وتضعضعت الهمم من جراء الفشل المريع والخسائر المتوالية ؛ ففقدت أوربا زهرة شبابها ، ونضب فيها معين المال حتى غدا الإفلاس المالى يقرع أبوابها ، والمجاعات تهددها ، والخراب العاجل يقوض أركانها ، فهلكت الملايين فى الوقائع الحربية ، وفتكت الأوباء والمجاعات برجال الصليب وحماة المسيحية ، الذين ارتكبوا أروع الجرائم التى يعجز عن وصفها الخيال » .

٥٥٠٠-٤٠٣هـ

حالة المسيحيين فى البلاد الإسلامية

كان المسيحيون منذ تأسيس الدولة الإسلامية مغمورين بفيض من الكرم والتسامح ، فكانوا يؤدون مراسيمهم الدينية بالحرية التامة ، ويتمتعون بحقوقهم المدنية كاملة غير منقوصة ، ويتنقلون فى أنحاء الإمبراطورية حسبما يشاءون وأينما يبتغون ، ويتكاتبون مع أمراء الدول الأجنبية دون لوم أو تثريب ، كما كان لهم الحق فى تملك الضياع والأرضين ؛ وعلى الجملة كانوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون . أما مناصب الدولة فكانت مفتوحة أبوابها أمامهم دون تفرقة بينهم وبين المسلمين باستثناء أيام الحكام المتعصبين ، وكانت الكنائس والأديرة المسيحية قائمة فى كل مكان ، وكان الحجاج المسيحيون يؤمون « القدس » من كل حدب وصوب بسلام آمنين ؛ ولم يتيسر لهم ذلك إلا بفضل احتلال العرب لتلك البلاد ، إذ كان هدف العرب توطيد الأمن ومنع نشوب المشاجرة بين مختلف الطوائف المسيحية المتباغضة ، التى لو تركت وشأنها لفتك بعضها ببعض .

١٠٦٣ — ١١١٠م

وفى بيت المقدس الذى يحترمه معتنقو الديانتين الإسلامية والمسيحية خصص حى كامل لسكنى البطريق والكهنة . كذلك لما انتقلت فلسطين والشام إلى أيدى الفاطميين عام ٩٦٩ م استفاد المسيحيون فائدة تذكر ، وذلك أن ملوك مصر شملوا الطائفة المسيحية بعطفهم ورعايتهم وشجعوا تجارهم ، غير أن هذا التسامح الرائع لم يكن ليخفف من غلواء هؤلاء المتهوسين الذين كانوا ينظرون إلى بقاء المسلمين فى « القدس » بعين البغض والاستنكار .

كان الحجاج المسيحيون يزورون الأرض المقدسة ، ويلاقون فيها من العرب ضروب الرعاية والكرم ، كما كانوا يتمتعون بالسخاء العربى المشهور ، ولكنهم كانوا بالرغم من كل ذلك يعودون إلى بلادهم وقد امتلأت قلوبهم حسداً وحقداً . فما كاد ينتهى القرن العاشر حتى اعتقد المسيحيون اعتقاداً جازما أن ساعة الخلاص قد أزفت ، وأن العصر الألفى السعيد قد حل أو كاد ؛ وبهذا الاعتقاد طفقت جموع المهاجرين تتدفق من العالم اللاتينى على الأرض المقدسة ، وفى القرن الحادى عشر ازداد عددهم زيادة هائلة .

وفى ذلك الحين كان حكم فلسطين قد انتقل إلى أسرة «أورتك» التركمانية التى لم تكن لتدين بالولاء للسلطان السلجوقى ولا لنائبه فى الشام ؛ وكان هؤلاء الحكام يجهلون الحماس الذى كان يتأجج فى قلوب الحجاج الأجانب ، فلم يعاملوهم بالتسامح الذى كان يعاملهم به الحكام الأولون ، لذلك كان هؤلاء الحجاج المتعصبون إذا ما عادوا إلى أوطانهم شوهوا الحقيقة وشنعوا بالمسلمين ، فيثيرون بذلك حفيظة إخوانهم وأبناء جنسهم ، حتى عقد البابا « أربان » الثانى أخيراً مجلساً فى بلاسنتيا فى آذار سنة ١٠٩٥ ، ومجلساً آخر فى كليرمنت فى تشرين الثانى ، وخطب معلناً ضرورة إنقاذ ضريح المسيح من أيدى الكفار ! كما أعلن غفران ذنوب الخاطئين الذين يلتحقون بهذا الجهاد الدينى ، ووعد الذين يموتون فى سبيل هذه الحرب جنات الخلد . غير أن الباعث الحقيقى لتلك الحروب

مجلسا بلاسنتيا وكليرمنت فى فى آذار وتشرين الثانى ١٠٩٥

الصليبية الدامية كان فى الواقع هو الهوس الدينى الممزوج بأغراض أخرى كالميل
إلى تأسيس ممالك جديدة ، والحصول على ثروات طائلة ، والرغبة الملحة التى
سرت فى أعماق النفوس الوضيعة فى احتساء الأنبذة الشرقية ، والتمتع بفتنة
الكرجيات ؛ وهكذا تضافرت عوامل شتى من البخل والطموح والشهوة مع
الروح الدينية التى كانت تجيش بها صدور المتعصبين على خلق هاته الحروب .

٤٠٠-٥٠٣هـ

ويقول « هالام Halam » إنهم تذرعوا بكل وسيلة لنشر هذا الجنون الوبائى
وكان الجندى فى خلال الحملات الصليبية معفيا من القانون الخاص باستيفاء
الديون والضرائب ، كذلك كانت الكنيسة تحميه من العقاب وتضمن له النعيم
الأبدى ، « ولم يكن ليشك قط أى إنسان فى أن الذى كان يلاقى حتفه فى ميدان
القتال كان يدخل فى حظيرة الشهداء والأبطال » .

حملة بطرس الناسك سنة ١٠٩٦م

وقد لاقت أول عصابة وعلى رأسها « وولتر المفلس » حتفها على أيدى
البلغار المسيحيين ، فقاد بطرس الناسك الحملة الثانية وكان عددها ٤٠ ألف من
رجال ونساء وأطفال من مختلف الأجناس واللغات ؛ ولما وصلوا إلى « مالفيل »
ثأروا لإخوانهم أفراد الحملة الأولى ، فانقضوا على المدينة وذبحوا سبعة آلاف من
سكانها ، واستسلموا إلى شتى أنواع الموبقات والمفاسد ، فأصبحت المجر وبلغاريا
أرضاً يبابا أمام جموع بطرس الناسك ؛ ولما وصلوا إلى القسطنطينية أراد
الإمبراطور ألكسيوس أن يتخلص منهم ، فنقلهم عبر البوسفور دون أن يسمح
لأحد منهم بالإقامة فى المدينة ولو إلى حين . وهنالك فى آسيا شرعوا يرتكبون
أشنع الفظائع التى تفوق حد الوصف ؛ ويقول المسيو « ميشو Michaud » : « إن
الصليبيين ارتكبوا جرائم وفظائع جعلت الطبيعة تهتز خوفا وفزعا من هولها ؛
كذلك كانوا يقتلون الأطفال فى أحضان أمهاتهم وينثرون أشلاءهم فى الهواء ،
كما نقلوا فظائعهم معهم حتى أسوار نيس ، غير أن السلطان زحف عليهم
بخمسة عشر ألف مقاتل ، فهزمهم هزيمة رائعة . وعلى أثر هذه الموقعة اعتنق

ريجينالد وجماعة من أصحابه الديانة الإسلامية ، أما البقية الباقية فقد أبيدت على بكرة أبيها » .

١٠٦٣ — ١١١٠م

وكانت الموجة الثالثة تتألف من « أحط الطبقات وأجهلها [١] » بقيادة « هودسكال » أحد الرهبان الألمان . وكان هؤلاء يمزجون فكرة التضحية بالتحرر من قيود الأخلاق ، والتردى فى الدعارة ومعاقرة الخمر . ويقول المسيو ميشو : « إنهم انهمكوا فى الدعارة ، ونسوا القسطنطينية و بيت المقدس ، وراحوا يمثلون مناظر صاخبة من هتك الأعراض إلى النهب والقتل ، وكانت جميع هذه الفظائع تترك آثاراً فاضحة تدل على فعالهم أينما رحلوا ؛ فثارت أهل المجر فى وجههم ، وأصبحت سهول البلغار مليئة بعظام الصليبيين ، ولم ينج من أتباع « هودسكال » إلا نفر قليل » . أما العاصفة الرابعة فقد هبت من إنجلترا وفرنسا وفلاندرس واللورين ، ويسميهم المستر ميلس « عصابة أخرى من المتوحشين البائسين » ، فانقضوا على اليهود إنقضاض الصواعق — إذ لم يكن ثمة أتراك يحمونهم من مضطهديهم — وذبحوا الألوف منهم فى كولونيا ، والمدن الأخرى على شواطئ الرين وموسيل ، ويقال إنهم قتلوا سبعة آلاف دفعة واحدة فى مدينة ميانس ؛ ثم واصلوا زحفهم إلى الجنوب يعيثون فساداً فى طريقهم [٢] « بيد أن الجيش المجرى قاومهم فى مدينة ميمسبرغ ، وأعمل السيف فى رقابهم » .

سنة ١٠٩٧م

وفى السنة التالية ألف أمراء أوروبا الإقطاعيون حملة منظمة ، وساروا على رأسها إلى الشرق يعيثون فى البلاد الأوربية فساداً ، ويرتكبون نفس الشناعات التى ارتكبها إخوانهم من قبل ؛ ثم وصلوا بقيادة « كودفرى » إلى القسطنطينية ، فبذل الإمبراطور الكسيوس حذقا عظيما فى إقصائهم عن المدينة ، ونقلهم إلى آسيا . وفى شهر مايس سنة ١٠٩٧ زحف سبعمائة ألف مقاتل على سهول نيقية ،

(١) ادوارد غيبون .
(٢) ملز .

وهى قوة كافية لاكتساح أكبر جيش يستطيع السلجوقيون حشده فى الميدان ، ولم يلبث هؤلاء المغيرون أن حاصروا مدينة نيقية عاصمة السلطان ، وهددوا بتدميرها ، غير أن الإمبراطور الكسيوس أقنع ملك السلجوقيين أن يسلمه المدينة لكى ينقذها من شرهم ، وعندما شاهد الصليبيون علم « الكسيوس » يخفق على القلعة تملكتهم نوبة عصبية شديدة ، وكادوا يفتكون بأهلها لولا تدخل « الكسيوس » الذى تمكن بدهائه من إنقاذ المدينة و إقناعهم بالعدول عما اعتزموا عليه ؛ فساروا من نيقية صوب أنطاكية يعيثون فى البلاد التى يمرون بها فساداً ونهباً ، ولما انتهوا إليها ضيقوا عليها الحصار حتى أجبروها على التسليم بعد تسعة أشهر ذاقوا فى خلالها ويلات الجوع ، والتجأوا حتى إلى أكل اللحوم البشرية ، ويقول المستر ميلز : « إن جنود الصليب كانوا ينبشون القبور ، ويأكلون اللحوم البشرية سراً »[١].

٤٠٠–٥٠٣هـ

حصار أنطاكية
تشرين الأول
١٠٩٧ —
حزيران ١٠٩٨

وعلاوة على هذه الفظائع المروعة كان الصليبيون يجدون لذة — لاتعدلها غير لذة الجرائم الأخرى — فى تشويه جثث الموتى ، إذ حينما فتحوا أنطاكية ذبحوا ألفين من الأتراك وعرضوا بعضها كأنصاب لذكرى انتصارهم المشؤوم ، كما طعنوا آخرين بالرماح حول معسكرهم . ويروى لنا الرواة أن الصليبيين نبشوا فى حادثة أخرى قبور المسلمين ، وقطعوا رؤوس الجثث ، وعرضوا منها ألفا وخمسمائة بمرأى من السكان المروعين . ويقول المسيو ميشو[٢] : « إن الصليبيين ألقوا القبض على ابن أمير من أمراء الجيش السلجوقى فى أنطاكية ، وحاولوا إرغام أسرته على تسليم المدينة فداء ابنهم من الأسر ، ولما أبوا تلبية طلبهم ساموا الشاب صنوف العذاب ثلاثين يوما ، ثم حملوه أخيراً إلى أسوار المدينة حيث ذبحوه بمرأى ومسمع من والديه الولهانين وسكان المدينة المروعين » .

(١) يقول فون سيبل وملز وكتاب آخرون إن الصليبيين وبالأخص الخدم كانوا يأكلون اللحوم البشرية علناً .

(٢) الجزء الأول ص ٤٦٢ .

١٠٦٣ — ١١١٠ م

بدهى أن الحرب غالباً ما يصحبها الانغماس فى الملذات البهيمية ، ولكن الغزاة الصليبيين ألقوا حبل شهواتهم على غاربها من غير وازع أو رادع . ويقول أحد المؤرخين المشهورين : « قل أن نجد فى تاريخ الحروب مثل هذه الدعارات التى ارتكبت فى حملات الصليبيين ، ويقول أيضاً : « إذا بحثنا فى تفاصيل تلك الوقائع رأينا أن رذائل بابل وآثامها قد انتشرت بين منقذى جبل صيون » .

فتح أنطاكية

فشل المسلمون فى جميع المحاولات التى بذلوها لإنقاذ أنطاكية ، نظراً لقلة مهارة القائد السلجوقى « كربوغا » الذى أساء معاملة أمراء جيشه فسقطت المدينة ؛ ولربما يعزى سقوطها إلى خيانة أحد حراس الأبراج ، وهو أرمنى اسمه « فيروز » ، ويسميه العرب بهروز ؛ ويقال إنه أدلى الحبال بالليل من على الأسوار فتسلق عليها الصليبيون ، واستولوا على بعض الاستحكامات بعد أن ذبحوا حراسها ، ثم فتحوا أبوابها وتدفقوا وهم يهللون « هكذا أراد الله » Dieu La) Vent) ؛ وشرع هؤلاء المتوحشون اللاتينيون يذبحون السكان دون أن يراعوا حرمة الشيخوخة وضعف النساء وعجز الأطفال ، فانتهكوا حرمة المنازل ، وكان منظر الجوامع يزيدهم وحشية على وحشيتهم ، فقوضوا القصور المنيفة ، والأكواخ الحقيرة ، وتركوها ركاما يبابا ، كما سالت الدماء البشرية فى الميادين والطرق على السواء ، ويقدر المؤرخون عدد الذين قتلوا فى تلك المذبحة زهاء عشرة آلاف .

حزيران ١٠٩٨

مذبحة معرة النعمان

وبعد أن انتهى الصليبيون من هذه المذبحة الفظيعة شرعوا يرتكبون أحط ضروب الرذائل ، ثم زحفوا على معرة النعمان[١] إحدى مدن الشام الزاهرة ، فاستولوا عليها عنوة وذبحوا ١٠٠ ألف من سكانها ، فسالت الدماء فى الشوارع كالأنهر ، ثم استعرض بوهيموند أسراه . ويقول ميلز : « إنه استبقى الجميلات والشبان الأقوياء لكيما يبيعهم فى أسواق الرقيق ، وأمر بذبح الشيوخ والأطفال على مذبح القسوة والنذالة »[٢] . وفى معرة النعمان أقدم الصليبيون على أكل

٤٥٥ــ٥٠٣ هـ

(١) مسقط رأس الفيلسوف العربى المشهور أبى العلاء المعرى .

(٢) ج ٥ ص ١٧٩ .

اللحوم البشرية ، حتى يقال إنها كانت تباع علناً فى معسكر المسيحيين الذين زحفوا على القدس وفتحوها عنوة ؛ وقد ذكر ميشو تفصيل تلك المذبحة بقوله :

الاستيلاء على القدس
مذبحة الصليبيين
٢٣ شعبان ٤٩٢هـ
١٥ تموز ١٠٩٩م

« كان المسلمون يذبحون ذبح الأنعام فى الشوارع والمنازل ، ولم يجد أهل المدينة محلا أميناً يعتصمون به ، فألقى بعضهم نفسه من فوق الأسوار ، وازدحم البعض الآخر فى القصور والحصون والمساجد ، ولكنهم لم يستطيعوا برغم ذلك إخفاء أنفسهم من متصيديهم ، فحاصر الصليبيون جامع عمر — الذى اعتصم فيه المسلمون — وجددوا تلك المناظر الوحشية التى تعد وصمة فى جبين فرسان التيتون إذ هجم الجنود على الهاربين وأعملوا السيف فى رقابهم من غير ماشفقة ولا رحمة ، ولم يكن يسمع فى تلك الساعة الرهيبة غير أنين الجرحى وحشرجة الموتى ؛ كذلك وطئوا بخيولهم الجثث المكدسة فى أثناء مطاردة الهاربين . ويقول « ريموند دى اكيلس Raymond D' Agiles » الذى شهد تلك الموقعة : كانت الدماء قد وصلت فى رواق المسجد إلى الركب[1] .

١٠٦٣ — ١١١٠م

ولم يكف الصليبيون عن السفك إلا عند ماتقدموا إلى الله بالابتهال والشكر على نجاحهم ، ولكنهم ما كادوا ينتهون من صلاتهم حتى واصلوا الفتك والقتل مرة أخرى ، « وذبحوا فى هذه المرة جميع من أبقوا على حياتهم رجاء أن ينالوا منهم الفدية ، وقد اضطر بعض السكان إلى إلقاء نفسه من أعلى الحصون والمنازل كما أحرق الصليبيون البعض حيا ، ثم جاءوا بالذين كانوا قد لاذوا بالفرار ووضعوهم على جثث الموتى المكدسة ، وأخذوا يمثلون بهم أشنع تمثيل ، ولم تكن تجدى فى ذلك الموقف الدامى دموع النساء ولا صراخ الأطفال ، ولا منظر البلد

---

(١) كتب الصليبيون إلى البابا يهنئونه بفتح بيت المقدس بقولهم : « إذا أردت أن تعلم بما جرى لأعدائنا فثق أنه فى إيوان سليمان ومعبده كانت خيلنا تخوض فى بحر من دماء الشرقيين إلى ركبتيها » . (المعرب)

الذى صفح فيه السيد المسيح عن جلاديه ، فكل هذه المناظر المثيرة للرحمة والعطف لم تكن لتلين قلوبهم القاسية ! »[1]

ويقول مؤرخ آخر : « كان الصليبيون قد صمموا فيما بينهم على ألا يظهروا عطفا أو رحمة نحو المسلمين ، ولهذا كانوا يسوقونهم إلى الميادين العامة وينكلون بهم شر تنكيل دون أن يبقوا على أحد ؛ فكانوا يذبحون النساء والأطفال والبنات والأولاد على حد سواء ، حتى أصبحت ميادين القدس وشوارعها ملأى بالجثث وأشلاء الأطفال من غير ما شفقة ولا رحمة[2] » ، وعلى هذا النحو هلك فى تلك المدينة وحدها زهاء سبعين ألفا .

معاملة اليهود

ولأجل أن يشبع الصليبيون شهواتهم أبقوا على حياة اليهود إلى وقت آخر حتى يعدوا لهم مصيراً أكثر هولا وأشد رعباً ، فساقوهم جماعات ووحدانا إلى كنائسهم وأشعلوا فيهم النار . ويقول المسيو ميشو : « لقد وصف المؤرخون المسيحيون المعاصرون تلك المناظر المرعبة برباطة جأش وثبات جنان نادرى المثال ، حتى إنهم فى أشد الوقائع هولا لم يسمحوا للشعور أو الوجدان بالتغلب على الحقد الدفين الذى يستعر فى قلوبهم ، ولم تظهر منهم أية عاطفة إنسانية نحو هؤلاء المنكودى الحظ » .

كودفرى ديبولون

وبعد أن فتح الصليبيون بيت المقدس انتخبوا كودفرى ملكا عليها ، ولكن أخاه بلدوين خلفه بعد سنة ، وشرع يحاصر « قيصرية » التى سلمت بعد مقاومة شديدة بشروط مرضية ففتحت أبوابها للمحاصرين ، غير أن الفرنج عندما دخلوا المدينة لم يراعوا حرمة العهود وذبحوا السكان الآمنين من غير ما شفقة ولا رحمة ؛ وقد لاقت طرابلس وصور وصيدا نفس المصير ، وكانت المدن الواقعة على ساحل البحر فى تلك الأثناء قد بلغت حد العظمة والازدهار . ويصف « خسرو »

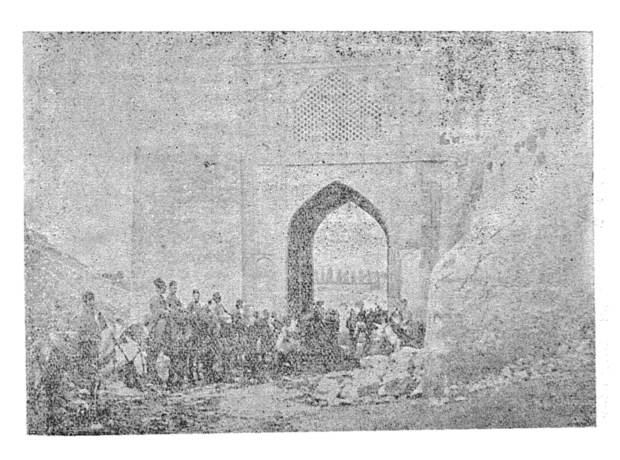
٤٥٥ـ٥٠٣ هـ

(١) المسيو ميشو (ج ١ ص ٢٣٩) .

(٢) ميلز ج ١ ص ٢٧٨ . ويضيف المسيو ميشو إلى ذلك قوله : « إن تلك المذابح استمرت أسبوعا وأن من بقى حيا عومل معاملة الأرقاء » .

بلدة طرابلس : « بأنها مدينة امتلأت ضواحيها وأعمالها بسنابل الحنطة المتماوجة ، والكروم الباسمة ، ومزارع السكر اليانعة ، والحدائق الوارفة ذات الأشجار المثقلة بالبرتقال والليمون وشتى الفواكه » ، وكانت المدينة فى حد ذاتها بالغة حد البهاء آهلة بالسكان ومزدحمة بالمنازل الفخمة ، والحوانيت التى كانت تبدو كأنها القصور الشامخة ، والأسواق الزاخرة بشتى السلع ؛ وكان يتوسط الميادين العامة والشوارع الفسيحة نوافير جميلة تنبثق منها المياه المتساقط كاللجين ؛ أما جوامعها فكانت آية فى الروعة والإبداع الهندسى ، كذلك كان فى المدينة مكتبة زاخرة بالكتب العلمية والأدبية ، وكلية فخمة ، ومعمل للورق يضاهى معامل سمرقند . وفى سنة (١٠١٩ م) حاصرها الصليبيون بقيادة « تانكريد » يساعده أسطول بيزا من جهة البحر ، فدافع المحصورون دفاع الأبطال ، وقاوموا الأعداء مدى حين ،

نهب طرابلس



الباب الواقع على طريق شيراز

ولـكن المحاصرين انقضوا عليهم أخيراً ، وأعملوا السيف فى رقابهم ، وأحرقوا المـكتبة العامة والـكلية والمصنع .

وعلى هذا النحو انتقلت فلسطين وجزء من الشام إلى أيدى الفرنج الذين أسسوا فيها النظام الإقطاعى الذى كان شائعاً فى أوروبا وقتئذ ؛ فانحط المسلمون إلى دركات الرق والعبودية ، وحلت المحاكم الاستبدادية محل المحاكم القضائية ، وعرض رجالها ونساؤها مقيدين فى الأصفاد فى الشوارع والأسواق كما كان متبعاً فى أوروبا . وقد زار الأمير أسامة بيت المقدس بعد تلك الموقعة ببضع سنوات ، وافتدى بعض هؤلاء المساكين ، ويظهر من وصف أحد المؤرخين المسيحيين أن الصليبيين البرابرة كانوا قد حرموا عاطفة الشفقة والحنان .

١٠٦٣ — ١١١٠ م

الفصل الحادي والعشرون

العباسيون

المستظهر — المكتفى — المستنجد

٤٩٢ — ٥٦٩ هـ ؛ ١٠٩٩ — ١١٧٤ م

الصليبيون

الخليفة المستظهر — السلطان بركياروق — حروبه مع تتش وأخيه محمد — وفاة بركياروق — تولى محمد السلطنة — النزاع بين أمراء الإقطاعات — تقدم الصليبيين — وفاة السلطان محمود — وفاة الخليفة المستظهر — مبايعة الخليفة المسترشد — السلطان سانجار — سلطان المشرق — السلطان محمود سلطان العراق والشام — السلطان عماد الدين زنكى — وفاة السلطان محمود — تولية السلطان مسعود — اغتيال المسترشد — مبايعة الراشد بالخلافة — عزل السلطان مسعود — مبايعة المكتفى — حروب زنكى مع الصليبيين — تولية نور الدين محمود فوزه على الصليبيين — وفاة المكتفى ومبايعة المستنجد — إرسال شركو إلى مصر — الاستيلاء على مصر — صلاح الدين الأيوبى وفاة المستنجد — مبايعة المستضىء — وفاة نور الدين محمود

٤٩٢—٥٠٩ هـ — ١٠٩٩ — ١١٧٤ م

لم يكن فى مكنة العالم المسيحى أن يغتنم — عمداً كان أو بطريق الصدفة — فرصة أكثر ملاءمة من تلك التى أغار فيها على القارة الأسيوية ، حيث كانت الإقطاعيات قد قوضت دعائم الإمبراطورية السلجوقية القوية وفككت أواصرها .

الإقطاعيات فى آسيا ١٠٩٩ — ١١٧٤ م

فكان ألب أرسلان قد أقطع ابن عمه سليمان آسيا الصغرى كما وهب ملكشاه الشام لأخيه تتش[1] ؛ ولكن سرعان ما استقل هذان الأميران بمملكتيهما استقلالا تاما ، ولم يعد يربطهما بالسلطان غير السيادة الاسمية . ومما

---

(١) الملقب « بتاج الدولة » .

يلاحظ كذلك أن هذا الانفصال لم يكن وحده الذى دهم الإمبراطورية الإسلامية ، بل كانت الجزيرة والشام وفلسطين موزعة بين عدة من الرؤساء الإقطاعيين ، الذين لم تكن تربطهم بالسلطان غير رابطة المساعدات العسكرية التى كانوا يسدونها إليه عند الحاجة . وتقول لنا الرواية : إنه طالما كان « نظام الملك » ذو العبقرية المنقطعة النظير « وملكشاه » صاحب الشخصية الفذة يسيطران على الإمبراطورية الإسلامية كان الرؤساء الإقطاعيون والأمراء يدينون للسلطان بالطاعة والولاء ، ولكن ما إن قضى الاثنان نحبهما حتى تمزقت أوصال الدولة وانهار بنيانها ، وحلت الحروب والاضطرابات محل الطمأنينة والسلام . وكان أولى تلك المنازعات الخلاف الذى نشب بين تركان خاتون الوصية على ابنها محمود و بين بركياروق ، بيدأن محموداً لم يلبث أن توفى فنادى بركياروق بنفسه رئيساً على الدولة السلجوقية ، وأنعم الخليفة « المتقى » عليه بلقب السلطان .

وفيما كان بركياروق منهمكا فى إصلاح شؤون الدولة شق عليه عمه تتش عصا الطاعة ، فنشبت بين الاثنين حرب طاحنة أسفرت عن هزيمة تتش وقتله . ولكن الأمور مع ذلك لم تهدأ إذ لم يمض طويل وقت حتى نشبت ثانية بين السلطان و بين أخيه محمد حروب رائعة استعر أوارها عدة أعوام غير قليلة . وتقول لنا الرواية العربية : إنه تدفقت فى تلك الأثناء على بغداد جموع الهاربين من وجه الصليبيين فى شهر رمضان ، وأخذوا يقصون على أهلها حوادث السفك وأعمال التخريب التى ارتكبها المغيرون ، فنسى المسلمون الصيام من هول الفاجعة « وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا و بكوا[١] وأبكوا » حتى لم يتمالك الخليفة المستظهر بالله أن أرسل ثلاثة من رجال بلاطه إلى بركياروق ومحمد — اللذين كانا يتحاربان على مقربة من حلوان — كى يحضوهما على نبذ الخصام وتوحيد

(١) نظم أحد شعراء العصر أبو مظفر الإيبوردى قصيدة رائعة عبر فيها عما كان يخالج قلوب المسلمين وقتئذ من الحزن والأسى ، وقد اشتهر كل من ابن الأثير وأبى الفداء فى تاريخهما بسرد حوادث تلك الفاجعة .

صفوفهما لمحاربة الصليبيين ، ولكن يظهر أن وساطة الوفد واستغاثته لم تثمر ثمرتها المرجوة ، إذ لم يكد ينقضى على صلحهما مدة وجيزة حتى نشبت الحرب بينهما من جديد بسبب اغتيال وزير بركياروق . ويقول المؤرخون بهذا الصدد : « إن الخصومة بين السلطانين أفادت الأفرنج فائدة تذكر ، إذ أفسحت المجال لنزولهم فى البلاد الإسلامية ونشوب أظفارهم فيها » .

تولية السلطان محمد

توفى السلطان بركياروق عام ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) فخلفه أخوه محمد [1] الذى بلغت مدة حكمه أربع عشرة سنة ، وكان عادلا حسن السيرة شجاعا ، شاد الشعراء المعاصرون بكرمه وبره باليتامى وعطفه على الفقراء . غير أن أحوال الإمبراطورية السياسية لم تكن وقتئذ لتشجع على خلق وحدة متماسكة تقاتل العدو المشترك ، فكان التحاسد المنتشر بين مختلف رؤساء الإقطاع فى الشام والجزيرة باعثاً على نشوب الحروب بينهم ؛ وكان أمير حلب « رضوان بن تتش » [2] قد وضحت خيانته ، كما كان الأمراء الآخرون — وإن كانوا يميلون إلى تلبية أوامر السلطان — أميل إلى مآربهم الشخصية منهم إلى خدمة قضية الوطن العامة ؛ كما جعلت الفوضى — التى سادت الدولة الفاطمية وقتئذ — من المتعذر أن لم يكن من المستحيل على مصر إسداء أية مساعدة للمدن التى غدت هدفا لغزو الأعداء .

الخلافة الفاطمية

كان الخليفة الفاطمى « المستعلى » مجرداً من كل سلطان ونفوذ فى حين كان قائد الجيش هو الحاكم المطلق المستولى على دفة الأمور ، غير أنه بدلا من أن ينتهز هذه السانحة ، ويوجه الجهود لتوحيد جيش الدولة الفاطمية ، ويتخذ خطة حاسمة للقضاء على المغيرين ، أخذ يقضى جل أوقاته فى القاهرة يحوك

---

(١) كان الفيلسوف المشهور والفقيه الذائع الصيت الإمام أبى حامد الغزالى معاصراً للسلطان محمد الذى ارتفعت عنده منزلته . وقد تزوجت فاطمة ، إحدى بنات السلطان ، من الخليفة « المقتدى » ويقال : إنها كانت على جانب عظيم من العلم والفطنة السياسية .

(٢) خلف « تتش » ولدين : رضوان ودقاق ، فولى الأول حلب والثانى دمشق .

حول منافسيه المؤامرات كى يخلو له الجو لبلوغ مآربه .

أول موقعة فى طبرية

وبإلحاح السلطان محمد خفف الأمراء (الرؤساء الإقطاعيون) من غلوائهم ووحدوا صفوفهم ؛ ثم نازلوا الأعداء فى معركة أو معركتين ، ولكن بلدوين[1] ملك بيت المقدس زحف على دمشق فى أوائل سنة ١١١٣ م ، ولما عجز «طغتكين» عن صده استنجد « بمودود » أمير الموصل . وفى تموز سنة ١١١٣ وحد أمراء الموصل ودمشق وسنجار وماردين جيوشهم ، وزحفوا على فلسطين ، فالتقى الجيشان ونشبت بينهما معركة هائلة بالقرب من طبرية انهزم فيها الفرنج هزيمة رائعة ، وغرق معظمهم فى نهر الأردن والبحيرة المعروفة باسم المدينة . وفى شهر حزيران سنة ١١١٩ أنزل « الغازى » أمير ماردين بالصليبيين خسائر فادحة فى موضع يسمى بالبلاط ، وحتى المصريين أنفسهم حازوا عندئذ بعض النجاح على سواحل البحر ، وتغلبوا على الفرنج فى بعض المعارك ؛ بيد أن أوربا برمتها كانت تشد أزر الصليبيين والنجدات كانت تتدفق عليهم من جميع أنحاء العالم المسيحى كما أثر مقتل « مودود » — الذى اغتاله أحد الباطنيين بعد موقعة طبرية — وانشقاق الزعماء المسلمين تأثيراً سيئاً ، وأعانا الصليبيين على استرداد المواقع التى كان المسلمون قد استولوا عليها ؛ وهكذا أخذ الصليبيون يبسطون سلطانهم ، ويستولون على المدن الإسلامية واحدة تلو الأخرى ، ويعيثون فى البلاد ويذبحون السكان ، ويثقلون كاهلهم بفروض الذلة والاستعباد .

١٣ محرم ٥٠٧ هـ
تموز ١١١٣م

حزيران ١١١٩م

١٥ ذوالحجة ٥١١ هـ
١٨ نيسان ١١١٨م

وفى سنة ٥١١ هـ توفى السلطان محمد ، وبعد عام توفى الخليفة المستظهر ، وكانت مدة خلافته خمسا وعشرين سنة ، وخلفه ابنه أبو منصور الفضل الملقب « بالمسترشد بالله » .

أبو منصور الفضل المسترشد بالله
١٦ آب ١١١٨م

لم تمر وفاة السلطان محمد دون أن تترك أثراً بارزاً فى مصائر المسلمين والنصارى معاً ، فقد خلفه أخوه سنجر[2] — آخر أبطال الشعب السلجوقى الباسل — ثم

(١) يسميه ابن الأثير « بغدوين » بينما يسميه المؤرخون الآخرون « باردفيل » .
(٢) هو صديق أنوارى الشاعر المعروف .

ولى الملك من بعده ابنه محمود الملقب بحامى المسلمين والذائد عن حياضهم . وتقول الرواية العربية : إنه لم يصد هجمات الفرنج فحسب بل قاتلهم أيضاً عن كل شبر من الأرض التى كانوا قد احتلوها ، وأجلاهم عن مواقعهم مثقلين بالهزيمة . أما عماد الدين زنكى — بطل المؤرخين النصارى — فهو ابن آق سنقر[١] «قاسم الدولة» الذى لعب دوراً خطيراً فى الأيام التى سادت فيها الاضطرابات على أثر وفاة رئيسه الأكبر ، وقد أعقب ولداً واحداً اسمه زنكى ، ومع أنه لم يكن قد ناهز الرابعة عشرة ، إلا أن جميع الزعماء والأمراء التفوا حوله وحبوه بولائهم لما ظهر عليه من دلائل النبوغ ، وقوة الشكيمة ، وبعد الهمة ، والكفاية العسكرية والإدارة الممتازة .

وفى عام ٥١٦ هـ أقطع السلطان «محمد» الأمير زنكى مدينة واسط وشاهناه البصرة ، كما أسند إليه بعد أربع سنوات إمارة الموصل والجزيرة العليا ، ولقبه «بأتابك» ؛ وعندئذ أرسل له الخليفة العهد والعقد التقليدين . ومما يجب الإشارة إليه بهذا الصدد أنه يعتبر المؤسس للأسرة الأتابكية فى الموصل ، ويصف لنا ابن الأثير ضعف حالة المسلمين فى تلك الأيام وصفاً مؤثراً بقوله : «كان جيش الصليبيين عظيما ، واشتدت أفعالهم فارتكبوا كل محرمة دون خوف من عقاب ، وامتدت مملكتهم من ماردين فى أعالى الجزيرة إلى مدينة العريش على حدود مصر ، وأخضعوا مدينة حران والرقة ، وامتد جيشهم حتى أبواب نصيبين ، وقطعوا جميع الطرق إلى دمشق ما عدا طريق الصحراء المار بالرها ، وفرضوا الجزية على المدن ، وقاسموا حلب على جميع دخلها حتى على رحا لأهلها بظاهر باب الجنان» .

(١) كان جنديا قديراً ، وإداريا حازماً سادت فى أيامه العدالة وأصبحت السبل ساكنة والمخاوف آمنة والأسواق معتدلة ، وقد وضع نظاما يقضى بأنه إذا وقعت حادثة سرقة فى إحدى المناطق فرضت قيمتها على جميع القرى المجاورة لها ، وقد أخذت بهذه النظرية الممالك العصرية .

أما زنكى فقد بذل قصارى جهده فى تحسين موارد البلاد ، ونظم الجيش ، وحشد قوة كبيرة لإجلاء الفرنج عن الجزيرة ، وأضحى باستيلائه على منبيج و بيزا أو (بوزا) سيد الموصل دون منازع . وفى سنة ١١٢٨ زحف على مدينة حلب تلبية لطلب أهلها — الذين كانوا قد لقوا من الصليبيين أشد الأهوال — واستولى عليها عنوة ، ولم يمض سوى قليل حتى استنصر به أهل حماة . وفى السنة التالية هزم زنكى الصليبيين[١] عند أسوار « قلعة الأثارب » ، واستولى عليها بعد مقاومة شديدة ، ثم عقد الصلح مع جسكلين أمير الرها الذى يسميه ابن الأثير « أعظم شياطين الصليبيين » .

احتلال مدينة حلب ٥٢٢هـ ١١٢٨م

٤٩٢—٥٦٩هـ

و بعد أن أحرز زنكى هذا النصر الباهر ، انغمر فى الحروب الداخلية التى دارت رحاها على أثر وفاة السلطان محمود ، الذى كان قد أوصى بالملك لأخيه مسعود ، غير أن أخاه الآخر سلجوقشاه نازعه السيادة ؛ فنشب قتال بين الأخوين ، ولكنهما عادا فتصالحا ، ثم زحفا على عمهما « سنجر » فهزمهما فى موقعة «دمارج» وعاملهما برغم ذلك بالعطف والكرم وأقرهما على ممتلكاتهما . و بعد مدة يسيرة نشبت معركة بين الخليفة المسترشد ومسعود دارت فيها الدائرة على الخليفة نفسه ، ووقع أسيراً فى قبضة خصمه ؛ وفيما كان الخليفة مقيما فى خيمته هجمت عليه جماعة من الباطنية وفتكوا به ، فخلفه ابنه أبو جعفر المنصور ولقب « بالراشد بالله » ؛ ولكن مع ذلك لم يبق فى كرسى الخلافة غير بضعة أشهر ، إذ أدى النزاع الذى نشب بينه و بين السلطان مسعود إلى أن يغادر[٢] الأول إلى الموصل ، وأن يجمع مسعود القضاة والفقهاء ، و يعرض عليهم اليمين التى كان قد حلفها الراشد بالله[٣] ، فأفتوا بخروجه من الخلافة ، ثم بايعوا من بعده أبا عبد الله بن المستظهر الذى لقب

وفاة السلطان محمود ٥٢٥هـ ١٠٣٠ — ١٠٣١م

موقعة دمارج رجب ٥٢٦هـ إيار ١١٣٢م

الخليفة المسترشد

أبو عبد الله المقتفى لأمر الله

---

(١) يسميهم ابن الأثير بالشياطين .

(٢) وقد رافقه عماد الدين زنكى صاحب الموصل . (المعرب)

(٣) وهى : « بأنه متى جند أو خرج أو لقى أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلع نفسه من الأمر » . (المعرب)

« بالمقتفى لأمر الله » . ولما كانت سلطة ملوك السلجوقيين يومئذ قد ضعفت ، فقد انتهز « المقتفى » تلك الفرصة وظل يقوى نفوذه فى العراق وكلدة حتى استرد سلطته الزمنية فى الولايات الداخلية . أما أتابك زنكى فقد حصر جُلّ اهتمامه بالشام وصرف النظر عن المشرق . ويقال إن الصليبيين بدأوا فى تلك الأثناء يغيرون على البلاد الإسلامية مرة أخرى بعد أن جاءهم المدد من أوروبا ، والتحقت بهم قوة عظيمة من الروم بقيادة الإمبراطور « جون كومانوس » نفسه ، فاستولوا على « بذاعة » وأعملوا السيف فى رقاب أهلها الذكور ، وأسروا النساء والأطفال ، ثم زحفوا على حصن « سيزر » مسقط رأس أسامة[1] وهو يبعد مسيرة يوم واحد عن حماة ومشيد على صخرة هائلة لا يمكن الوصول إليها إلا من طريق ضيق جداً منحوت فى الجبل ، ويجرى من تحته نهر العاصى ، ثم يمتد عبر وهدة قد شيد فوقها جسر خشبى ، فإذا مافتح الجسر تعذر الوصول إليه ؛ وقد كان فى مستهل القرن الخامس ملكا لمنقذ الكنانيين ، وكان لموقعه الحصين ولقربه من حماة من جهة ، ومن مراكز الصليبيين من الجهة الأخرى أهمية عظمى عند الفرنج والصليبيين ، ولهذا لم يكد زنكى يصله خبر استغاثة أبى عسكر سلطان الذى كان عندئذ حاكم سيزر حتى لبى دعوته ، وتقدم بجيشه لانقاذ الحصن من المغيرين . غير أن الروم لم يلبثوا أن رفعوا الحصار وعادوا إلى بلادهم ، وعندئذ انتهز زنكى تلك الفرصة واستولى على قلعة أركة الواقعة داخل حدود إمارة طرابلس ودمرها تدميراً ، ثم استولى على بعلبك واستعمل عليها نجم الدين أيوب أبا صلاح الدين الأيوبى ، غير أن أتابك لم يستطع إجلاء الفرنج عن الشام طالما كان يحكم دمشق أمير مستقل .

١٠٩٩ — ١١٧٤ م

شعبان ٥٣٢ هـ
نيسان ومايس
١١٣٨ م

وفى عام ٥٣٤ هجم أتابك على الفرنج بالقرب من « بارن » فى موقع يعرف

١١٣٩ م

---

(١) يعتبر الأمير أسامة الملقب بمؤيد الدولة من الأبطال الأولين ، وله مذكرات اسمها (كتاب الاعتبار) نشر فى باريس سنة ١٨٨٤م .

« بجبل فيران » واستولى عليه عنوة ، وكان ذلك الحصن من أمنع حصون الصليبيين الذين كانوا قد اتخذوه معقلا ليشنوا الغارة منه على المدن الواقعة بين حلب وحماة .

احتلال الرها سنة ١١١٤م

وفى عام ٥٣٩ ﻫ انتصر «أتابك» انتصاراً باهراً باستيلائه على مدينة «الرها» التابعة لجوسكلين الثانى « بطل الصليبيين وشيطانهم » ، وفى الواقع سمى هذا النصر « بنصر الأنصار » ، إذ كان المسيحيون يعتقدون أن الرها من أعظم مدنهم على وجه الإطلاق نظراً لكونها مقراً لإحدى أسقفياتهم بعد بيت المقدس وأنطاكية وروما والقسطنطينية ؛ ومما لا شك فيه أنها كانت وقتئذ تعد مفتاح الجزيرة ، وبالإستيلاء عليها تمكن زنكى من القبض على ناصية الأمور فى المناطق والحصون الأخرى المجاورة لها . وتقول لنا الرواية : « إنه لما أوفى على المدنية أمّن أهلها على أرواحهم وأملاكهم إن هم سلموا دون مقاومة ، ولكنهم رفضوا إجابة شروطه ، وأبوا التسليم ففتحها عنوة ، وفكر فى صب جام غضبه على أهلها ليثأر للفظائع التى ارتكبها الصليبيون فى بيت المقدس وأنطاكية ، ولكن مروءته تغلبت على سخطه ، فلم يقتل أحداً غير المحاربين والرهبان والقسس الذين كانوا يحرضون جنود الفرنج على القتال ، وقد أطلق سراح جميع الرجال والنساء والأطفال الذين وقعوا فى أيدى الفاتحين ورد إليهم أموالهم » .

١٠٩٩ — ١١٧٤م

اغتيال عماد الدين زنكى ١٤ — ٩ — ١١٤٦م

وبعد أن وضع « أتابك » حامية قوية فى المدينة تابع زحفه فافتتح سروج وباروة والقلاع الأخرى التى كانت فى أيدى الصليبيين ، وفيما كان يحاصر « قلعة جعبر » هجم عليه وهو نائم أحد مماليكه بتحريض من أعدائه وفتك به ؛ وهكذا قتل أحد أبطال ذلك العهد[1] المشهورين ، وكان حاكما عادلا كريما عاقلا . ويقال إنه لما استولى على الجزيرة كان الجزء الأكبر منها ومن الشام غير ذى زرع ، وكان الفلاحون فى حالة يرثى لها من الفقر والخراب ؛ أما الحركة

(١) ويسميه ابن الأثير بالشهيد .

التجارية فكانت مشلولة بسبب غزوات الفرنج المتوالية ، ولكنه أقبل على إحياء الزراعة ، والاهتمام برفاهية السكان ، فنعمت البلاد فى ظله بنعمة الطمأنينة والعدل ؛ كما شيد المدن المخربة ، وشدد الوطأة على القتلة واللصوص ، ونظف البلاد من السفاكين والنهابين ؛ وقد كان فوق ذلك يهتم اهتماما خاصا بالمحافظة على سمعة الحريم ، ويشدد الوطأة على كل من يعتدى عليهن وعلى أهل العيث والفساد ؛ وكان من عادته أن يوزع الصدقات سرا فى سائر أيام الأسبوع عدا أيام الجمعة حيث كان يوزع مائة دينار علناً على الفقراء والمعوزين ؛ وكان صديقاً وفيا لأصدقائه ، وسيداً مهابا يراعى النظام بكل دقة فى معسكره ، وكان لا يعدله فى البر بالعلماء غير وزيره جمال الدين الملقب بالجواد الذى كان يقوم علاوة على منصبه بوظيفة (المشرف) . ومن المأثور عن زنكى قوله : إنه يؤثر ظهور الخيل على الفراش الوثير ، وصلصلة السيوف على أشجى الأنغام ، وقرقعة السلاح على مغازلة الغانيات الفاتنات . وقد أعقب أربعة أبناء هم : سيف الدين الغازى وهو أكبرهم وقد أسندت إليه إمارة الموصل ؛ ونور الدين محمود الذى ورث عن أبيه لقب حامى المسلمين وإمارة حلب . أما الابنان الآخران فهما قطب الدين مودود ؛ ونصرة الدين أمير ميران . وقد تدرب سيف الدين وأخوه نور الدين على الفنون العسكرية ؛ أما نور الدين فلم يكن جنديا فحسب بل كان أيضاً عالما فقيهاً مولعاً بتشجيع العلوم والفنون ، فأسس الكليات والمستشفيات فى جميع أنحاء المملكة وكان يفيض على طلاب العلم والعلماء الذين كانوا يؤمون بلاطه بكرمه وسخائه ، كذلك كان أول من أسس محكمة عليا نظامية ، وأطلق عليها اسم « دار العدل »

(٤٩٢–٥٦٩ م) (نور الدين محمود) (١٠٩٩ — ١١٧٤ م)

ولما كان تقدير الملوك — كما يقول المؤرخ الانكليزى المشهور غيبون — لا يكون صحيحاً إلا بعد وفاتهم ، وبخاصة إذا كان هذا التقدير صادراً عن أعدائهم ؛ وقد وصف لنا « بطريرك صور » السلطان نور الدين — الذى كان فى نظره من أشد أعداء النصرانية — « بأنه كان ذا عقل ودين متين » وكان

(صفاته)

جل أمانيه فى الحياة أن يوفر أسباب السعادة والرفاهية للشعب .

وقد حدث عقب اعتلاء نور الدين عرش حلب أن ثار عليه نصارى الرها تؤازرهم قوة كبيرة من الفرنج بقيادة جوسلين ، وانقضوا على حامية المدينة ، وفتكوا بجنودها وأهلها المسلمين ، ولـكن نور الدين هاجمهم وفتك بهم فتكا ذريعاً ، وأثخن فى جنود جوسلين والخونة المـارقين الذين ساعدوهم ، كما أمر بنفى الأرمن الذين كانوا حلقة الاتصال بين الخونة و بين الصليبيين .

الحروب الصليبية الثانية
٥٤٢هـ
١١٤٧م

ويقال إن سقوط مدينة الرها مرتين فى قبضة المسلمين أثار سخط أهـل أوربا ، فقامت حركة دينية شبيهة بالحركة الأولى ، ويرجع الفضل فى إشعالهـا هذه المرة إلى الراهب الفرنسى « سان برنارد » فانتظم فى عقد هاته الحملة المقدسة سنة ١١٤٧ — لإنقاذ مجد اللاتين الضائع — إمبراطور ألمـانيا كونراد الثالث ، وملك فرنسا لويس السابع ؛ ويقول المؤرخون المعاصرون : إن هذين الملـكين سارا فى تسعمائة ألف مقاتل لمساعدة إخوانهم فى الشام وفلسطين، وقد اصطحب ملك فرنسا زوجته « ألينور كوين » ، التى تزوجت فيما بعد من ملك الانكليز هنرى الثانى ، وحذت حذوها جماعة من النساء اللواتى انتظمن فى عقد الحمـلة المنكودة ، وسرن حاملات الرماح والدروع فى صفوف الجيش الألمـانى والجيش الفرنسى ، وقد أدى وجود هاته النسوة بطبيعة الحال إلى انتشار ضروب

٤٩٢–٥٦٩هـ

الفساد فى صفوف الجيش ، ووقعت الـكارثة المحتومة ، كما تـكبد الملـكان أفدح الخسائر فى أثناء زحفهما على الشام حيث أبيد القسم الأعظم من جيش « كونراد » بظاهر اللاذقية ، بينما فنى معظم جنود الملك لويس فى سيرهم إزاء سواحل آسيا الصغرى على قمم جبال كادمس المعروف الآن بباباداغ . وعندما غشى لويس مدينة أنطاكية التى كانت فى قبضة ريموند كان قد فقد ثلاثة أرباع جيشه ، وكانت تقيم فى تلك المدينة — التى كانت تضطرم بالشهوات البهيمية فى ذلك الحين —

٢٥ تموز
١١٤٨م

أميرة طولوز ، وأميرات بلو وسيبيل أوف لاندرس ، وموريل وأميرة روسى ،

وتلكورى و بولون ، وكثيرات غيرهن من المشهورات بالجمال ونبل المحتد . وفى مدينة أنطاكية انغمس المحاربون وحماة الصليب فى الشهوات والملذات ، وكانت ولائم ريموند تستحيل إلى سكر وعربدة ، كما كانت الملكة ألينور قد ذاعت فضائحها الغرامية وتهافت العشاق عليها . و بعد أن انتعش الصليبيون فى أنطاكية ، وجددوا قواهم زحفوا على دمشق ، ولكن قوات نور الدين محمود وسيف الدين غازى[١] كانت قد اقتربت للدفاع عنها ، ولما رأى الصليبيون أنهم أمام قوة هائلة لا قبل لهم بها رفعوا الحصار وارتدوا إلى فلسطين ، ولم يلبث كونراد ولويس أن عادا إلى أوروبا ، وهكذا فشلت الحرب الصليبية الثانية فشلا مريعاً .

نهاية الحرب الصليبية الثانية

ومن ثم تفرغ نور الدين محمود إلى محاربة الفرنج فى المواقع الأخرى ، فاستولى عنوة على قلعة « العريمة » وهى من أمنع القلاع على حدود الشام ، وألحق بالنصارى خسائر عظيمة فى قلعة « زغرة » على مقربة من أنطاكية ، وفى المعركة التى دارت عند أسوار « عنتاب » قتل الأمير ريموند « أمير أنطاكية » ، وألحق المسلمون بجيشه خسائر فادحة ، وقد أعقب ريموند طفلا صغيراً يدعى بوهيموند ويسميه « العرب بيمند » ؛ ولكن أمه لم تلبث أن تزوجت من قائد ثان ، لاقى هو الآخر حتفه بعد أن وقع أسيراً فى قبضة نور الدين فى معركة صغيرة دارت فيها الدائرة على جيش الفرنج .

١٠٩٩ — ١١٧٤ م

١١٨٤ — ١١٤٩ م

وفى عام ٥٤٤ ﻫ اكتسح نور الدين قلعة « أفامية » التى تبعد مسير يوم واحد عن حماة واستولى عليها عنوة ، ولكنه بعد عامين أصيب بهزيمة فى موقعة دارت بينه و بين جوسلين الثانى ، غير أنه لم يلبث أن ثأر للهزيمة التى لحقت به ، وأسر جوسلين الذى يقول فيه ابن الأثير : « كان أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين قاسى القلب ، وأصيبت النصرانية كافة

الاستيلاء على قلعة أفامية — ١١٤٩ — ١١٥٠ م أسر جوسلين

(١) توفى سيف الدين غازى فى تشرين الثانى ولم يعقب ولداً ولهذا ولى أخوه المسمى قطب الدين مولود أتابكة الموصل .

بأسره » . وقد استطاع نور الدين بعد هـذا النصر أن يستولى على عدة مدن كانت فى قبضة الصليبيين كقلعـة « تل باشر » و « عنتاب » و « نهر الجوز » و « برج الرصاص » ؛ وقد دارت معركة أخرى فى « دلوك » انـكسر فيها الفرنج وأصيبوا بهزيمة شديدة ، وبذلك تم لنور الدين فتح معظم ولاية أنطاكية .

معركة دلوك

وفى عام ٥٤٧ هـ (١١٥٢ — ١١٥٣ م) توفى السلطان مسعود وخلفه ابن أخيه الملكشاه السلطان محمود وهو آخر سلاطين تلك الأسرة .

ولـكن طالما كانت دمشق فى قبضة أمير مستقل مشكوك فى أمانته كان نور الدين يجابه كأبيه صعوبات جمـة فى حروبه مع الصليبيين ، الذين قويت شوكتهم بالاستيلاء على « عسقلان » الواقعة على ساحل البحر ، فاستأنفوا جهادهم لغزو عاصمة الشام[١] ؛ وفى هذا الوقت العصيب استنجد أهالى دمشق بنور الدين الذى لبى طلبهم فى الحال ، وأقطع حاكمهم[٢] إمارة مدينة حمص عوضاً عن دمشق التى ولى عليها ابن زنكى المظفر بين فرح الشعب وغبطته .

عسقلان
٤٩٢ـ٥٦٩ هـ

وقد أنعم الخليفة على نور الدين بلقب « الملك العادل » تقديراً له على انتصاره على الصليبيين ، وفى تلك الأثناء حصلت هدنة قصيرة بينه و بين الصليبيين استطاع أن يعمر فى أثنائها الخرائب التى سببتها الزلازل .

وفى عام ١١٦٠ توفى الخليفة المـكتفى ، وخلفه ابنه أبو المظفر يوسف الملقب « بالمستنجد بالله » . و بعد ست سنوات سير نور الدين الحملة المشهورة على مصر ، وكانت الخلافة الفاطمية وقتئذ قد تداعت أركانها ، وكان آخر خلفائها المسمى « العاضد بدين الله » قد بلغ منتهى الضعف والاستـكانة . وتقول لنا الرواية : إنه بينما كان وزيره شاور السعدى مستأثراً بالحـكم نازعه زعيم آخر اسمه ضرغام

وفاة الخليفة
المـكتفى
١٢ — ٣ —
١١٦٠ م

(١) وفى أيام طغتكين اتفق الصليبيون مع الباطنيين على الزحف على دمشق ، ولـكنهم ردوا على أعقابهم بعد أن منوا بخسائر فادحة .

(٢) هو مجير الدين آبك وكان قد تكاتب سرا مع الفرنج على خيانة البلاد غير أنه أقصى من حمص وبعد موته ولى ابنه تاج الملوك ولاية دمشق .

نيسان ١١٦٤م على السلطة وغلبه عليها ، فهرب شاور إلى الشام مستنجداً بأمير دمشق أن يساعده على استرداد منصبه ، على أن يمده هو بالجنود المصرية و يقطعه الأراضى الشاسعة و يدفع له جزية سنوية ، ولـكن نور الدين أبى فى بادئ الأمر ، غير أنه لم يلبث

تشرين الأول وتشرين الثانى ١١٦٤م أن أجابه إلى سؤله ، وأرسل معه قوة من جيشه بقيادة «أسد الدين شركو» عم صلاح الدين المشهور . وما كاد شاور يسترد نفوذه حتى اتصل بالفرنج ، ونسى كل العهود التى قطعها على نفسه لنور الدين فلبى الصليبيون طلبه ، غير أنهم عجزوا عن طرد شركو بعد أن حاصروه مدة ثلاثة أشهر فى بلبيس ، ولـكنه عاد ووافق من تلقاء نفسه على الجلاء عن مصر .

آب ١١٦٤م وفى رمضان سنة ٥٥٩ هـ هاجمت نور الدين جيوش الفرنج والروم معاً ، وكانت المعركة التى دارت عند أسوار قلعة « حارم » من أشد معارك الصليبيين ، غير أن نور الدين مع ذلك ألحق بالفرنج هزيمة منكرة ، وأسر معظم قوادهم أمثال بومند وأمير أنطاكية وريموند حاكم طرابلس وجوسلين الثانى وقائد الروم ، وعلى أثر

كانون الثانى وشباط ١١٦٧م هذا النصر الباهر أذعنت قلعت حارم ، وقلعة بانياس وحصن المنيطرة بالتسليم . وفى سنة ٥٦٢ احتل شركو مصر ثانية ، ولما استنجد « شاور » بالفرنج لبى طلبه « أمورى » الذى كان قد ارتقى عرش بيت المقدس منذ حين ، فرأى الفرصة

٤٩٢-٥٦٩هـ سانحة وقتئذ للاستيلاء على مصر والاستئثار بها ، وما هى إلا برهة حتى سير جيشا لنجدة شاور . و يقول لنا ميشو : «إن زحف جيوش شركو وفوزه النهائى فى واقعة بلبيس ينهضان دليلا على كفاية عسكرية ممتازة » ، و يقول ابن الأثير : « لم يعرف التاريخ حادثة أعظم شأنا وأجل خطراً من تلك الحادثة التى تغلبت فيها الجيوش المصرية على جيوش الفرنج » .

و بعد أن أحرز شركو هذا النصر الباهر استولى على الإسكندرية ، ونادى بنفسه حاكما عليها ، وكذلك عقدت معاهدة صلح بين المصريين والفرنج من جهة و بين نائب نور الدين من جهة أخرى ؛ وقد اشترط فيها أن يسحب « أمورى »

جيشه من مصر ، ويمتنع عن أى تدخل فى شؤونها على أن يغادر شركو الإسكندرية إلى الشام ويعطى له مقابل انسحابه خمسين ألف دينار ؛ غير أن الصليبيين كانوا قد اتفقوا سرا مع شاور على أن يسمح لهم بترك حامية فى الفسطاط خلافا لشروط المعاهدة المعقودة مع شركو ؛ وتقول لنا الرواية : إن هؤلاء الجنود الذين عسكروا على مقربة من الفسطاط ، وفى بعض المدن الأخرى أخذوا يرتكبون شتى الفظائع ، فلم يتمالك الخليفة « العاضد » إلا أن يستنجد بنور الدين الذى سير « شركو » ثانية على رأس حملة كبيرة للقضاء على الصليبيين ؛ وما إن وافى « شركو » مصر حتى أسرع الصليبيون بترك البلاد بعد أن أعملوا فيها يد النهب والتخريب . وفى ٨ كانون الثانى سنة ١١٦٩ دخل شركو الفسطاط ، فاستقبله المصريون والخليفة الفاطمى استقبالا منقطع النظير . ولما قتل شاور تقلد شركو منصب الوزارة و إمارة الجيش ، ولكنه لم يكد يمضى فى الحكم شهرين حتى وافته منيته ، فخلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف ولقب « بالملك الناصر » وظل مع ذلك يعد نفسه نائباً عن نور الدين ، واستطاع بعدله وكرمه أن ينال رضاء الشعب وحبه ؛ وكان العاضد فى تلك الأثناء على فراش الموت ، فانتهز صلاح الدين — الذى كان حنفى المذهب — هذه الفرصة وأعاد سلطة الخليفة العباسى فى مصر .

٨ — ٩ - ١١٦٩ م

١٠٩٩ — ١١٧٤ م

وفاة المستنجد مبايعة أبى محمد الحسن المستضىء بالله

٢١ — ١٢ ١١٧٠ م

وفى سنة ١١٧٠ توفى الخليفة المستنجد وخلفه ابنه أبو محمد الحسن ولقب « بالمستضىء بالله » . و يصفه ابن الأثير « بأنه من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية فيما ، كثير الرفق بهم ، شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس » .

وفى سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م) توفى قطب الدين مودود ثالث أبناء زنكى ، فارتقى ولده « سيف الدين غازى » عرش المملكة الزنكية ، وفى عهده اضطربت الأمور فى الموصل ، فأسرع نور الدين إلى نجدة ابن أخيه ، ونظم مملكته واحتفظ لنفسه بإدارة الجيش .

وفى محرم سنة ٥٦٧ توفى آخر الخلفاء الفاطميين ، و بموته انقرضت الخلافة الفاطمية[١] ، وغدت مصر تابعة للنفوذ الروحى للخليفة العباسى فى بغـداد ، كما أصبح صلاح الدين الحاكم المطلق فى مصر ، وكان يبدى خضوعه وولاءه لنور الدين ، ولكنه ما عتم أن استقل بملك مصر بعـد وفاته ، ولم يكن صلاح الدين حينئذ قد ناهز[٢] الخامسة والثلاثين ، وكان قد تقلد عدة مناصب قبل رحيله مع عمه إلى مصر . و يصفه مترجمه[٣] : « بأنه كان رجلا تقيا ، هادئ الأخلاق ، بسيطاً فى معيشته ، فارساً شجاعا ، وطد النفس على النهوض بشعبه إلى مراقى السعادة والهناء » .

١١٧٣ — ١١٧٤م

وفى سنة ٥٦٩ هـ أرسل صلاح الدين أخاه تورنشاه بموافقة سيده لإخضاع اليمن فتم له فتحها .

و بموت نور الدين استطاع صلاح الدين أن يوطد ملكه و يدعم استقلاله فى مصر وجزء من بلاد النوبة والحجاز واليمن .

١٥ — ١١٧٤ م

ولم يعقب نور الدين غير ابن واحد يدعى إسمعيـل الملقب بالملك الصالح ، وكان عمره وقتئذ إحدى عشرة سنة .

(١) بلغ مدة حكمهم ٢٦٦ سنة .

(٢) ولد صلاح الدين سنة ١١٣٧ — ١١٣٨م (٥٣٢هـ) .

(٣) هو القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف باسم ابن شداد ، وكان يقوم بوظيفة قاضى العسكر ومستشار صلاح الدين .

الفصل الثاني والعشرون

العباسيون

٥٧٦ — ٥٨٩ هـ : ١١٨١ — ١١٩٣ م

الصليبيون

الخليفة الناصر — الملك الصالح إسمعيل ، أمير دمشق — صلاح الدين الأيوبي يدعى إلى دمشق — الحرب بين صلاح الدين والملك الصالح — تولية صلاح الدين على سوريا — تلقيبه السلطان — وفاة الملك الصالح — سلطة صلاح الدين — مملكة بيت المقدس — الصليبيون ينكثون بشروط المهادنة — موقعة طبرية — انهزام الصليبيين — الاستيلاء على عكا ونابلس وأريحا وغيرها — حصار القدس — شروطها — مروءة صلاح الدين — الحرب الصليبية الثالثة — حصار عكا — دفاعها المستميت وانهزام الصليبيين — وفاة فردريك بارباروسا — وصول ملكي فرنسا وانكلترا — الاستيلاء على عكا — قسوة ريكاردوس (قلب الأسد) — صلاح الدين يقوض عسقلان — الصلح مع ريكاردوس وفاة صلاح الدين — صفاته وأخلاقه

الملك الصالح ابن نور الدين محمود

وعندما بلغ صلاح الدين خبر وفاة سيده وولى نعمته ، كتب فى الحال إلى الملك الصالح كتابا يعزيه فيه على وفاة أبيه ويهنئه باعتلائه العرش ، كما قدم إليه فى الوقت نفسه الهدايا الممتازة دلالة على خضوعه وولائه التام ، كذلك يقال إنه بر بوعده ، وبقى متمسكا بالدعاء له فى خطبة الجمعة ، وبضرب النقود باسمه ، وهما ميزتان من أظهر ميزات السلطة العليا . غير أن الملك الشاب لم يلبث أن وقع تحت نفوذ وزرائه وبطانته ، فنشب الخلاف بينه وبين صلاح الدين الذى استاء من الدسائس التى كانت تحاك ضده . وبعث إلى وزراء الملك كتابا شديد اللهجة يحذرهم فيه بمغبة الخيانة ، ويهددهم بأنه سيأتى بنفسه إلى دمشق لمعاقبتهم على

سوء تصرفهم ، فلما استلم الأمير « كمشتكين » ذلك الكتاب أسرع إلى حلب كى يطلع عليه الملك الصالح بنفسه تاركا دمشق تحت رحمة الفرنج ، الذين انتهزوا تلك الفرصة وحاصروا المدينة حصاراً شديداً لم يرفعوه إلا بعد أن دفع أهلها الجزية عن يد وهم صاغرون ، فاستشاط صلاح الدين غضبا عندما بلغه هذا الخبر .
ويقال إن أحد كبار دمشق[1] كان قد استدعاه وقتئذ ليحتل المدينة ، وعلى هذا سار فى سبعمائة جندى واستولى عليها عنوة ، غير أنه لم ينزل قصر نور الدين بل حل دار والده التى كان يسكنها وقت أن كان فى دمشق ، ثم أرسل إلى أتابك الشام كتابا رقيق الحاشية يعرب فيه عن ولائه وشدة احترامه لمولاه ، مؤكداً له أنه إنما جاء إلى الشام ليؤدى إليه فريضة الطاعة ، فجاءه رد شديد اللهجة .
ويقال إن الملك بدلا من أن يثنى على إخلاصه وولائه اتهمه بنكران الجميل والتمرد والعصيان ، فسخط صلاح الدين وزحف على حلب كى يقابل بنفسه الملك الصالح ويسوى الأمر معه شخصياً . غير أن الملك لم يرض على هذا التصرف وقد كان عمره وقتئذ اثنتى عشرة سنة ؛ فسار فى السوق وهو يخاطب الناس قائلا « قد عرفتم إحسان أبى إليكم ، ومحبته لكم ، وسيرته فيكم ؛ وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدى إليه يأخذ بلدى » ، فخرج أهالى حلب شاكى السلاح .
ولما رآهم صلاح الدين على هذا النحو خاطبهم قائلا : « يعلم الله أنى لم أرم قط إلى إشهار السلاح فى وجه الملك ، ولكنهم طالما أرادوا ذلك فليكن كما يريدون » . وعندئذ دار قتال رائع بين الفريقين أسفر عن هزيمة أهل حلب وفرارهم إلى المدينة . فلما أحس كمشتكين بعجزه حرض الإسماعيليين على قتله ، وكاد يفلح فى تنفيذ خطته لولا أن صلاح الدين كان قد احتاط للأمر ، وعندما فشل وصى الملك الشاب فى مؤامرته التجأ إلى الصليبيين ، كما استنجد فى الوقت

---

(١) شمس الدين بن المقدم . (المعرب)

نفسه بسيف الدين غازى أتابك الموصل[1] ؛ فهب الصليبيون إلى الأخذ بناصره وحاصروا حمص ، ولكنهم عند ما علموا أن صلاح الدين يزحف عليهم بجيشه الجرار فكوا الحصار وولوا هاربين . وقد حاول صلاح الدين مرة أخرى أن يتفاهم وديا مع الملك الصالح فأرسل إليه كتابا رقيق الحاشية يعرض فيه استعداده إلى رد حماه وحمص وبعلبك على شرط أن يقره على ولاية دمشق ومصر ، غير أن الملك رفض إجابة سؤله رفضاً باتا .

ولما فشلت تلك السياسة السلمية التجأ صلاح الدين إلى إشهار السلاح ، وحاصر مدينة حلب حصاراً شديداً حتى اضطر كشتكين وسيف الدين غازى إلى أن يطلبا الصلح ، كما أرسلا ابنة نور الدين الطفلة لعلها تثير فى قلبه عوامل الشفقة ، فاستقبلها صلاح الدين استقبالا وديا وحباها بعطفه كما أغدق عليها العطايا والمنح ونزولا على طلبها رد إلى أخيها جميع المدن التى كان قد استولى عليها من إمارة حلب ، ولكنه مع ذلك أوقف الدعاء فى الخطبة باسم الملك الصالح وحول أنظاره شطر الخليفة العباسى « مصدر النفوذ الشرعى » طالبا منه أن يقره على ملكه ؛ فلم يعتم الخليفة أن منحه طلبه وأنعم عليه فوق ذلك بلقب « السلطان » .

صلاح الدين يلقب بالسلطان

وفى عام ٥٧٩ هـ توفى الملك الصالح فى سن التاسعة عشرة ، وولى بعده ابن عمه عز الدين الذى كان قد خلف سيف الدين فى أتابكية الموصل ، واستولى على حلب بعد أن عوض أخاه عماد الدين عنها أتابكية سنجار ؛ وما طال الزمن حتى اعترف بسلطة صلاح الدين ، وحذا حذوه أمير الموصل على أن يقره على البلاد الواقعة بين دجلة والفرات ؛ وهكذا لم تكد تنتهى سنة ١١٨٢ حتى غدا صلاح الدين السيد الأعلى فى آسيا الغربية ، ومن جملتها سلطنة قونية وإمارة أرمينيا[2] ، وأصبح له الحق فى إلزام أمراء هاتيك المناطق بمساعدته وقت الطوارئ .

وفاة الملك الصالح ١١٨١ — ١١٨٢ م

٥٧٦ــ٥٨٩ هـ

سلطة صلاح الدين

(١) ابن عم الملك الصالح .

(٢) وعاصمتها خلات وكان يحكمها أمير مسلم .

مملكة بيت المقدس

وقد كانت مملكة القدس الصليبية وقتئذ تعتمد فى الحصول على الرجال والمواد الحربية والطعام على جميع أنحاء العالم الأوربى وأمرائه الذين يتوقون إلى « إعلاء كلمة الله » ، والمغامرة فى الحصول على الكنوز الطائلة ، والثروات العريضة ، ومناصرة المتهوسين المتفانين فى مقاتلة الكفار ، كما كانت تعتمد أيضاً على طريدى العدالة الذين كانوا يتدفقون بكثرة على سواحل الشام ؛ وكان أمورى قد توفى وخلفه ابنه على العرش ، غير أنه كان مصابا بمرض معد[١] جعله أجدر بالرثاء منه إلى إدارة شؤون الدولة ، فتزوجت أخته أزبيلا من أمير مونتفرات ، وولدت له طفلا أسماه « بلدوين » . ولما توفى زوجها تزوجت ثانية من كيديلسكنان الذى عينه بلدوين نائباً عنه ، ولكنه سرعان ما عزله ونصب مكانه « ريموند » أمير طرابلس الذى لم يلبث أن تنازل عن العرش لابن أخته بلدوين الخامس ، ولم يكن قد ناهز بعد الخامسة من عمره . والمظنون أن الملك الطفل قتل بإيعاز من أمه ، وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم مختلقة ، فالمعروف أن « أزبيلا » على أثر وفاة ابنها نادت بنفسها ملكة على القدس ، ووضعت بيدها تاج الملك على مفرق زوجها ؛ وهكذا انتقل عرش فلسطين فى سنة ١١٨٧ إلى أزبيلا وزوجها « ليسكنان » . وفى عهد بلدوين المجذوم عقدت معاهدة صلح بين السلطان والفرنج ؛ ويقول ميشو : « إن هذه الهدنة جديرة بالملاحظة ، إذ أن المسلمين كانوا جد حريصين على تنفيذ أحكامها فى حين لم يتقيد المسيحيون بشروطها قط ، كما ظهر عليهم ميل شديد إلى إشهار الحرب من جديد ؛ وكان ريجينولد[٢] زوج كونستانس أرملة ريموند قد وقع أسيراً فى قبضة نور الدين محمود مدى حين ، وما كاد الملك الصالح يفك سراحه حتى

أزبيلاوليسكنان ١١٨٧ م

١١٨١ — ١١٩٣ م

(١) كان مجذوماً .

(٢) ويسميه العرب أرنات .

تزوج من أرملة هانفرى ، التى حصل بزواجه منها على إمارتى حصن الكرك ومونتريال .

الفرنج ينقضون شروط المعاهدة ١١٨٦ م

وفى سنة ١١٨٦ نقض « ريجنولد » شروط المعاهدة ، وانقض بجيشه على إحدى القوافل المارة بالقرب من حصنه ، وذبح عدداً غير قليل منهم بعد أن سلب أموالهم ، فغضب السلطان غضباً شديداً وطلب من حاكم القدس أن يعاقب المعتدى ، ولما رفض الملك إجابة طلبه أخذ « صلاح الدين » على عاتقه تأديب « ريجنولد » ، وحاصر بنفسه الحصن الذى وقعت بقربه تلك المأساة الدامية ، كما أرسل إلى الجليل قوة صغيرة بقيادة أكبر أبنائه « على » الملقب بالملك الأفضل لمراقبة حركات الفرنج ؛ فلم يكد الصليبيون يعلمون بوجوده حتى وحدوا صفوفهم وزحفوا عليه ، فأسرع السلطان إلى نجدة ابنه ، وكانت الكفتان متعادلتين فى القوة والسلاح ؛ فعسكر جيش الفرنج فى سهول «صفورية» ، ولكن صلاح الدين استطاع بمهارته الحربية أن يحرضهم على الخروج من مكمنهم المنيع إلى واد مكشوف بين الجبال الواقعة بمقربة من بحيرة طبرية فى تل حطين ، فسار الفرنج كأنهم جبال تتحرك شطر البحيرة ، ولكن جنود السلطان أخذوا أهبتهم وقطعوا عليهم الماء ، فتقابل الفريقان يوم الخميس ٢ تموز بعد أن قضى السلطان طوال الليل يهيئ الصفوف ، ودارت معركة رائعة بينهما يوم الجمعة وصباح السبت المصادف ٢٥ ربيع الثانى سنة ٥٨٣ هـ ، فأسفرت عن تقويض دعائم دولة كيديلسكنان بعد أن أثخن فيهم المسلمون ، وقتلوا منهم عشرة آلاف من بينهم جماعة من أشهر القواد ؛ وكان من جملة الذين وقعوا أسرى فى أيدى المسلمين كيديلسكنان نفسه ، وأخوه جوفرى ، ورينود صاحب الكرك (مثير هذه الحرب الشعواء) وابن هانفرى ، وكونت هوغ ، وابن لورد طبرية ؛ ولم ينج من الأسر غير ريموند أمير طرابلس ، وأمير طبرية ، ورينود ، وابن أمير أنطاكية ويليان ، إذ أفلتوا جميعاً من القوة التى تعقبتهم ووصلوا إلى الساحل . أما

٥٧٦–٥٨٩هـ

٢٣و٢٤ ربيع الثانى ٥٨٣ هـ

٢و٣ تموز ١١٨٧ م

موقعة طبرية ٤ تموز ١١٨٧م

كيديلسكنان فقد عومل معاملة حسنة ، غير أن السلطان أمر بقتل « رينود » و بعض القواد الآخرين الذين كانوا قد أخلوا بشروط المعاهدة وذبحوا المسلمين خلال الهدنة ؛ كذلك لم يمهل الأعداء حتى يلموا شعثهم ، بل واصل مطاردتهم بعد موقعة حطين ، وما هو إلا أن استولى على حصن طبرية ووقعت فى قبضته زوجة ريموند أمير طرابلس فردها إلى زوجها معززة مكرمة . و يقول المؤرخون إن المسلمين لم يسئ أحد منهم قط إلى النساء والأطفال . ومما يؤثر عن بطولتهم أنهم طيلة استيلائهم على عكا قاوموا الجيوش المسيحية مقاومة عنيفة مدة سنتين كاملتين ، غير أن تلك المدينة وهى فى قبضة الصليبيين لم تستطع الدفاع عن نفسها غير يومين ثم أذعنت بالتسليم إلى صلاح الدين ، وحذت حذوها نابلس وأريحا ، والرملة ، وقيصرية ، وأرصوف ، و يافا ، و بيروت ، وعدة مدن أخرى بحيث لم يبق فى أيدى الصليبيين غير صور ، وطرابلس ، وعسقلان التى قدمت طاعتها وفازت بشروط مرضية بعد حصار لم يدم طويلا .

١١٨١— ١١٩٣ م

بيت المقدس

ومن ثم توجه السلطان صوب القدس التى كانت تضم داخل أسوارها زهاء الستين ألف جندى علاوة على سكانها الأصليين ، وحالما أشرف على المدينة بعث فى طلب أشرافها وخاطبهم بقوله : « إنه يحترم مدينة القدس ولا يرغب فى انتهاك حرمتها بإراقة الدماء ، ولهذا ينصحهم بترك استحكاماتهم . أما هو فيتعهد من جهته بأن يعوضهم عن أملاكهم بالأموال والأراضى » ، غير أن الصليبيين لتعصبهم الممقوت رفضوا تلبية هذا الطلب المنطوى على شىء كثير من السخاء ؛ فسخط عليهم صلاح الدين وحاصر المدينة مدى حين . ولكن الصليبيين عادوا وطلبوا الصلح « باسم إله جميع البشر » ، فتغلب عطف السلطان على رغبته فى الانتقام ، وسمح للروم ونصارى القدس بالسكنى فى بلاده بعد أن ضمن لهم التمتع بالحرية التامة ، كذلك أمر جميع جنود الصليبيين داخل المدينة بأن يرحلوا مع عائلاتهم وأطفالهم ، وضرب لهم موعداً ٤٠ يوما ، كما ضمن لهم سلامة الرحيل إلى

مروءة صلاح الدين وإنسانيته

٥٧٦ـ٥٨٩ هـ

صور أو طرابلس ، وحدد فدية الرجل بعشرة دنانير شامية وخمس دنانير للمرأة ودينار واحد للطفل .

مروءة صلاح الدين وإنسانيته

وكان من شروط الصلح أن من يعجز عن أداء الفدية يؤخذ أسيراً ، غير أن ذلك الشرط أهمل إهمالا تاما ، إذ يقال إن السلطان افتدى وحده عشرة آلاف شخص ، كما أطلق أخوه سيف الدين[1] سراح سبعة آلاف أخرى ؛ وقد كان رجال الدين عند ما غادروا المدينة يحملون معهم الأموال والأمتعة ، كذلك شوهد كثير من النصارى يحملون والديهم وأصدقاءهم الذين بلغ بهم المرض أو الضعف حدا لم يستطيعوا معه السير على الأقدام ، فتأثر السلطان بهذا المنظر وأمر حالا أن توزع عليهم الصدقات ، وأن يزودوا بالدواب ؛ ولما استأذنته الملكة « أز بيلا » وكان يصحبها بعض الأمراء أذن لها بالسفر وحباها بكرمه الفياض ، وكان معها وقتئذ رهط من النساء اللواتى كن يعولن بالصياح والنحيب وهن حاملات أطفالهن ، فلما اقتربن منه ناشدنه أن يفك سراح أزواجهن وأولادهن و إخوانهن قائلات إنهن سيتركن هذه البلاد من غير ما رجعة ، فإذا فقدن رجالهن ، فإنما يفقدن أملهن الوحيد فى الحياة ، ولو أشفق عليهن وردهم إليهن لأزال بؤسهن ، وأحيا فيهن موات الأمل ، فعشن سعيدات بفيض كرمه وواسع رحمته ، فتأثر صلاح الدين أى تأثر بتوسلاتهن ؛ وفى الحال أمر برد الأسرى إلى أقاربهن ، ووعد فوق ذلك بمعاملة الباقين منهم بالعطف والرأفة ، كما وزع الصدقات على اليتامى والأرامل ، وسمح لرجال الصحة و إن كانوا قد شهروا السلاح عليه بأن يواصلوا إسعاف الجرحى ومعالجة المرضى والعناية بالحجاج المسيحيين . و يمكننا بعد هذه الإلمامة القصيرة أن ندرك البون الشاسع والفرق المدهش بين صفات صلاح الدين السمحة ، و بين قسوة الأمراء المسيحيين ووحشيتهم . و يقول ميلز بهذا الصدد : « إن كثيراً من المسيحيين الذين غادروا

١١٨١ — ١١٩٣ م

(١) سيف الدين أبو بكر الملقب بالملك العادل .

بيت المقدس رحلوا إلى أنطاكية ، غير أن بوهيموند أميرها لم يحرمهم الضيافة فحسب بل سلبهم أيضاً أموالهم ، فى حين كان هؤلاء البائسون أينما ساروا فى بلاد المسلمين يلاقون ضروب العطف والكرم » ؛ و يسوق المسيو « ميشو » بعض الأدلة المدهشة عن قسوة قلوب النصارى المحليين نحو منفيي بيت المقدس فيقول : « إن هؤلاء المساكين المنكودى الحظ بعد ما لاقوا صدا من إخوانهم نصارى الشرق هاموا على وجوههم فى الشام ، حتى عضهم الجوع بأنيابه الضروس ، ومات الكثير منهم جوعا وكمداً ، كما أغلقت طرابلس أبوابها دونهم حتى بلغ اليأس بإحدى النساء مبلغاً عظيما ، وألقت ابنها الطفل فى اليم ، وهى تلعن النصارى الذين رفضوا مساعدتها » .

ومما يثير الإعجاب أن السلطان صلاح الدين احترم شعور المغلوبين ، فلم يدخل المدينة بجيشه الجرار إلا بعد أن غادرها جميع الصليبيين . وفى يوم الجمعة ٢٧ رجب[١] سنة ٥٨٣ دخل بيت المقدس يحف به الأمراء وأشراف الإمبراطورية الذين جاءوا لتهنئته على هذا النصر المبين ، فأمر بترميم ما دمرته الحروب ، وتشييد الجوامع والكليات التى هدمها الفرنج ، ووضع أساساً حكيما لإدارة دولاب الدولة يختلف كل الاختلاف عن حكومة الصليبيين المستبدة ؛ ومن ثم توجه إلى « صور » التى كان الصليبيون قد نزلوها بعد فك سراحهم ، وقويت بهم حامية المدينة ، وتهيأت للمقاومة بقيادة كونراد مركيز مونتفرات[٢] ، وكان رجلا قديراً ، واسع الحيلة والدهاء ، فرفض تسليم المدينة بحجة أنه خاضع لملك فيما وراء البحار ، فتحول السلطان عنها إلى حين وسار حذاء ساحل البحر ، واستولى بالتتابع على اللاذقية ، وجبلة ، وصهيون ، و بيكاس ، و بؤزير ، ودير برساك ، وحصون أخرى كانت لا تزال فى أيدى الصليبيين ، ثم أفرج عن « كيديلسكنان»

٥٧٦–٥٨٩ هـ

(١) يوم المعراج .
(٢) ويسميه العرب مركس .

الذى أقسم له بشرفه أن يغادر البلاد إلى أوربا ، ولكنه ما إن شم نسيم الحرية حتى نقض عهده ، وحشد جيشاً لجباً من فلول الحاميات الصليبية والقوات الآتية من الغرب ، ثم حاصر مدينة عكا التى تحولت إليها الآن أنظار القارات الثلاث ، وحصروا اهتمامهم بها مدة سنتين كاملتين .

الحرب الصليبية الثالثة

أحدث سقوط مدينة القدس دويا هائلا فى العالم المسيحى ، وأفرغ رجال الكهنوت جهودهم فى الاستنجاد بالشعوب المسيحية والاستجارة بالملوك والأمراء وإقناعهم بإشهار حرب صليبية أخرى ؛ فتكللت جهودهم بالنجاح التام وانهالت النجدات على صور والمعسكر الضارب بقرب عكا ، واشترك ثلاثة ملوك من أعظم ملوك المسيحيين شأنا فى تلك الحرب الشعواء ، وهم : فريدريك بارباروسا إمبراطور ألمانيا ، وفليب أوغسطوس ملك فرنسا ، وريكاردوس قلب الأسد ملك انكلترا . ولو أن صلاح الدين — بما اشتهر به من بعد النظر والهمة — وحد يومئذ أسطولى مصر والشام وضرب حصاراً على السواحل الفينيقية لعرقل مساعى الصليبيين وشل حركتهم فى فلسطين ، وحال دون إنزال القوات الجديدة التى سارعت إلى نجدة إخوانهم ؛ ولكنه على ما يلوح نسى أن سلامة البلاد الفينيقية تتوقف على مناعتها من البحر ، وأن النصر فى البر مهما كانت خطورته لا يضمن منع ورود النجدات بطريق البحر ؛ ومما لا شك فيه أن السفن الأوربية كانت تمدهم يومياً بالأقوات والذخائر ، والعدد والرجال . ويقول المؤرخون أمثال ابن الأثير وابن شداد بهذا الصدد : « كان صلاح الدين يبقى على سكان المدن التى يفتحها كما كان يؤمنهم على أموالهم ومتاعهم . والمعروف أن الفرنج كانوا يهرعون إلى صور بأموالهم ونسائهم وأطفالهم حتى تجمع منهم عدد عظيم ، وطفقت تردهم النجدات من وراء البحار » . ويقول الرواة : إن رؤساء النصارى تذرعوا بكل وسيلة لإثارة روح التعصب فى شعوب أوروبا كافة . أما بطريرك القدس الذى كان صلاح الدين قد أحسن معاملته فقد أخذ يطوف المدن الأوربية حاملا

١١٨١ — ١١٩٣ م

صورة المسيح ، وقد جرحه أحد الأعراب ليحثهم بذلك على أخذ الثأر ؛ فعظم الأمر على الفرنج ، وفى الحال حشدوا جيشاً ضخما انتظم فى عقده عدد كبير من النساء . ويروى لنا شاب مسيحى أخذ أسيراً « أنه وحيد أرملة فقيرة لا تملك من حطام الدنيا غير بيت واحد باعته وجهزته بثمنه وسيرته لمحاربة المسلمين » .

بدء حصار عكا
١٥ رجب سنة ٥٨٥ هـ
٢٦ آب ١١٨٩ م

وهكذا تدفقت جموع الفرنج براً وبحراً من كل فج عميق . ولما اجتمعوا بمدينة صور رأوا أن أول ما ينبغى لهم القيام به هو مهاجمة « صيدا » ، ولكنهم عادوا واتفقوا على الزحف على عكا ومحاصرتها ؛ فساروا إليها حذاء البحر ، وكانت تحميهم من جهة البحر نيران أساطيلهم ، وفى الواقع كان البحر أعظم ملاذ لهم حيث كانت السفن تمخر عبابه لنقل الأقوات والرجال والمواد الحربية من الخارج وفى ١٥ رجب سنة ٥٨٥ أنزلوا جيوشهم بالقرب من المدينة ، وضربوا حولها حصاراً شديداً ، وعند ما بلغ صلاح الدين خبر هذا الزحف جمع أمراءه واستشارهم ، وكان فى رأيه أن يشتبك معهم فى القتال أثناء زحفهم ، غير أن أمراء الجيش أثنوه عن عزمه ونصحوا له أن يهاجمهم فى ميدان مكشوف بالقرب من عكا ؛ فلما وصل صلاح الدين تلك المدينة رأى الصليبيين قد نزلوا عليها وأقاموا جناحيهم على البحر ، وبذلك قطعوا عنها جميع المواصلات البرية ، ويقول ابن الأثير : « لو أن العسكر اتبعت رأى صلاح الدين فى مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا لكان بلغ غرضه وصدهم عنها ، ولكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه » ، فعسكر السلطان أمام الصليبيين وضرب خيمته على « تل كيسان » كما امتدت ميمنته إلى تل « الفياضية » وميسرته إلى نهر بيلوس[١] ثم أخذت ترده القوات بطريق البر من الموصل ، وديار بكر ، وسنجار ، وحوران . وفى مستهل شعبان سنة ٥٨٥ هـ انقضت القوة الرئيسية على الصليبيين انقضاض الصاعقة ، كما حمل عليهم فى الوقت نفسه تقى الدين ابن أخى صلاح الدين حملة

(١) يسميه ابن الأثير النهر الجارى . ويسميه ابن شداد نهر اكلو .

عنيفة فأجلوهم عن مواقعهم . ويقول ابن الأثير : « لو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أرادوه فإن للصدمة الأولى روعة ، ولـكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخلدوا إلى الراحة وتركوا القتـال ، وقالوا نباكرهم غداً » . كذلك كان صلاح الدين قد استبدل الحامية بقوة جديدة ، وجهز عكا بالذخائر والأموال والسلاح ؛ وكان من جملة الأمراء الذين دخلوا المدينـة وقتئذ حسام الدين[1] « أبو الهيجاء الملقب بالسمين » . وفى السادس من شعبان بدأ هجوم الفرنج فهبوا من حصونهم وحملوا على المسلمين حملة صادقة فصمد لهم المسلمون ، ودارت رحى القتال بين الفريقين حتى اضطروا الفرنج إلى التقهقر مثخنين بالخسائر والجرحى .

ومما يلاحظ أن جيوش صلاح الدين كانت وقتئذ موزعة على جميع أنحاء البلاد ، فكانت ثمة فرقة تراقب « البيمند » أمير أنطاكية ، وأخرى معسكرة فى حمص تقابل طرابلس ، وثالثة تراقب صور ، ورابعة فى دمياط والإسكندرية وغيرهما من المدن لحماية الثغور المصرية من غزو الفرنج من البحر ؛ وبالرغم من كثرة النجدات التى كانت ترد على صلاح الدين فقد بقيت قوته مع ذلك أقل عدداً من قوة الصليبيين الذين اعتزموا فى ذلك الحين على سحقه قبل أن تصله قوات جديدة ، فدارت بين الفريقين رحى القتال ، ورجحت كفة الصليبيين فى بادئ الأمر ، ولـكنهم لم يلبثوا أن منوا بشر هزيمة بعد أن تكبدوا خسائر فادحة ، وبلغ عدد القتلى فى صفوفهم نحو عشرة آلاف . وبالرغم من الجهود التى بذلهـا صلاح الدين فى تنظيف ميدان القتال ، وإلقاء جثث القتلى فى البحر ، فقد فسد الجو والهواء من نتن الجثث المـكدسة فى الميدان ، وانتشر من جراء ذلك وباء مريع وصلت عدواه إلى السلطان نفسه ، فأشار عليه الأطباء والقواد بالانسحاب بجيوشه إلى الخروبة ، ولـكنهم ما كادوا يغادرون ذلك الموقع حتى

---

(١) كان من أمراء عسكر صلاح الدين وهو من الأكراد الحطبية من بلدة أربيل .
(المعرب)

استولى عليه الفرنج واستأنفوا حصار عكا . و يقال إنهم لأجل أن يحموا أنفسهم من هجوم صلاح الدين حفروا خندقا عميقاً حول المعسكر ، وشيدوا وراءه سوراً عالياً ليتحصنوا به فيما إذا عاد المسلمون إلى قتالهم وأصابتهم الهزيمة . و بعد أن قضى صلاح الدين الشتاء فى الخروبة هبط فى ربيع سنة ١١٩٠ إلى سهول عكا وحصن فيها مواقعه الأمامية . أما الفرنج فكانوا فى مدة مقامهم على حصار عكا قد شيدوا أبراجا خشبية شامخة يملأونها بالجنود و يهاجمون بها حصون المدينة ، كذلك كان المحصورون قد استعدوا فى نفس الوقت لصد الهجوم بإشراف أحد المهندسين من أهل دمشق ، وأخذوا يقذفون الصليبيين بالقنابل الملآنة بالنفط المشتعل حتى اندلعت ألسنة النيران فى البروج المتحركة (الدبابات) ، كما هاجم أسطول مصر أسطول الفرنج وألحق به أفدح الخسائر بالقرب من ميناء عكا .

وتقول لنا الرواية إنه سرت إشاعة وقتئذ فى معسكر المسلمين أدخلت على قلوبهم الرعب والقلق ، وهى أن « فردريك بار باروسا » ملك الألمان أخذ يزحف بجيشه الجرار على فلسطين ، وأن التركمان يعرقلون سيره بمناوأة جناحيه إلا أنه برغم ذلك نجح أخيراً فى الوصول إلى بلاد الأرمن « كليكيا العليا » التى كان يحكمها ليون « الافون » بن أصفانه ؛ فبعث السلطان إلى حلفائه يستنصرهم ، كما أرسل وفداً إلى يعقوب المنصور سلطان مراكش ، ولكنهم جميعاً خذلوه وأعرضوا عن مساعدته ؛ وفيما كان الألمان يزحفون على أنطاكية اتفق أن غرق ملكهم فى نهر السلاف بالقرب من سلوقية ، فانتشرت الفوضى بينهم ، ورجع على الأثر عدد كبير منهم إلى بلادهم ، وعلى هذا لم يزحف على فلسطين إلا شرذمة قليلة بقيادة ابنه ، ومن ثم أقلعوا على إحدى السفن ، فغرق معظمهم فى اليم .

فردريك بارباروسا

١٠ — ٦ — ١١٩٠ م

١١٨١ — ١١٩٣ م

وفى العشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ خرج الفرنج من معاقلهم واقتتلوا مع المسلمين قتالا شديداً ، ولكنهم لم يلبثوا أن فروا هاربين ، تاركين وراءهم

٢٠ جمادى الآخرة ٥٨٦ هـ

٢٥ — ٧ — ١١٩٠ م

عدداً لا يحصى من القتلى والجرحى ، فازدادوا بذلك وهناً على وهن ؛ غير أنه لم يمض سوى يومين حتى أتت إلى الفرنج قوة هائلة من صوب البحر برئاسة (الكونت هنرى[1]) ابن أخى ملك الفرنسيس وقريب ملك الإنكليز . ولما وصل إلى الساحل أنزل جنوده على مقربة من عكا دون أن يلاقى أية مقاومة ، وشرع يوحد قواته مع قوات الصليبيين الذين كانوا وقتئذ معسكرين فيها . ولما حشد جنوده وأعلن عزمه على مهاجمة المسلمين ، ارتد صلاح الدين بجيشه إلى الخروبة ليكتسب الوقت الكافى ، ولكن جو ذلك الموقع كان قد فسد من تعفن الجثث فانسحب منه ؛ وعلى أثر ذلك شدد الصليبيون الحصار ، ولكن أهل المدينة أبدوا فى الدفاع عن مدينتهم بسالة منقطعة النظير ؛ كذلك أخذ الأميران قرقوش وحسام الدين يثيران الحماس فى قلوب الجنود حتى أبدى الجميع حمية وقوة إرادة جديرتين بالإعجاب ؛ واستخدما فى إدخال الميرة إلى المدينة ضروب الحيل والدهاء ، ولم يترك جنود المسلمين فرصة إلا انتهزوها للتنكيل بالفرنج ومباغتتهم[2] ، فكانوا يحرقون آلات المحاصرين ، وفى عدة معارك أجلوهم عن مواقعهم حتى شدد الكونت هنرى الحصار ، ولكن السلطان برغم ذلك كان يزود الميرة عن طريق البحر من بيروت . ولما يئس الفرنج من الموقف أرسلوا إلى البابا حاكم رومة الكبرى كتابا يستنجدونه فأرسل إليهم النجدات من كافة الأمصار ، وعندئذ كثرت جموعهم واشتد بأسهم ، ثم زحفوا بقيادة الكونت هنرى على مواقع السلطان الذى صمد لهم بأحسن تعبئة وأتم نظام ، وكان أولاده الأفضل على والظافر والغازى فى القلب ، بينما كان أخوه سيف الدين قائد الجيوش المصرية فى الميمنة ، كما كان أمراء حماه وسنجار والأمراء الآخرون فى الميسرة . واتفق أن كان صلاح الدين مريضاً فى ذلك اليوم المشهود ، فلم

وصول الكونت هنرى

٢٧ جمادى الآخرة ٥٨٦ هـ
١ — ٨ — ١١٩٠ م

٥٧٦ـ٥٨٩ هـ

---

(١) يسميه العرب « الكند هرى » .
(٢) ميشو .

يستطع سوى مراقبة المعركة من خيمته الصغيرة التى أمر بنصبها على تل مشرف على الميدان ، واستمرت الموقعة مدة طويلة ، ولكنها أسفرت عن هزيمة الفرنج ، ولولا المرض الذى طرأ وقتئذ على صلاح الدين لكانت تلك المعركة هى الحاسمة ؛ ويقال إن الفرنج بدأوا فى ذلك الحين يشعرون بهول المجاعة ، كذلك اضطرهم قرب حلول الشتاء إلى أن يرسلوا سفنهم إلى إحدى جزر اليونان القريبة . وكان من جملة الأمراء الذين دخلوا عكا « سيف الدين على » بن أحمد المشطوب قائد الحامية ، التى لسوء الطالع لم تستبدل بغيرها كما ينبغى ؛ وبالرغم من أوامر السلطان الحاسمة أضاع الأمراء تلك الفرصة ، وأهملوا إرسال المؤونة والأرزاق الكافية إلى المدينة ؛ فلما حل فصل الربيع عادت سفن الفرنج أكثر عدداً مما كانت قبلا ، وقطعت المواصلات بين السلطان وبين حامية عكا ، ولم يعد ثمة طريق لإرسال الكتب إلى السلطان إلا بواسطة الغواصين .

٩ — ٤ — ١١٩١ م

١١٨١ — ١١٩٣ م

وفى ١٢ ربيع الأول سنة ٥٨٧ جاءت إمدادات جديدة إلى الفرنج المعسكرين فى منطقة عكا ، وكان أول من وصل منهم « فليب » ملك فرنسا ، الذى يعد من أشرف ملوكهم نسباً ، وكان على رأس حملة قوية ، وفى الحال أرسل صلاح الدين الذى كان معسكراً « بشفرعم »[1] الأمداد إلى قواده ، ولكن ملك الإنكليز كان قد وصل فى عشرين[2] سفينة مملوءة رجالا وأموالا فعظم به شر الفرنج الذين اشتدت وطأتهم على المسلمين ، « وكان ملك الإنكليز رجل زمانه شجاعة ومكراً وصبراً » ؛ فلما وردت الأنباء بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز سفينة مجهزة بالرجال والعدد والأقوات ، وأرسلها من بيروت إلى عكا ، غير أن الصليبيين هاجموها وكادوا يستولون عليها ، لولا حذق ربانها[3] يعقوب

وصول ملك الإنكليز ١٣ جمادى الأولى ٥٨٧ هـ
٨ — ٦ — ١١٩١ م

(١) قرية تبعد ٣ أميال من عكا (معجم البلدان) .

(٢) يقول ابن الأثير : إن ملك انكلتره وصل إليهم فى خمس وعشرين قطعة . (المعرب)

(٣) كان ملك انكلتره وفرنسا قد أصيبا بالحمى عقب وصولهما إلى فلسطين . فلما سمع =

الحلبى الذى أغرقها فى الحال لئلا يظفر بها الأعداء ، وعندئذ بدأ حصار عكا يشتد ، غير أن الحامية قاومت مدى حين مقاومة شديدة ، وردت المحاصرين فى عدة معارك على أعقابهم مثقلين بالهزيمة . ومما يدعو إلى الأسف أن المسلمين بالرغم من هذه البطولة والتضحيات التى أبدوها لم تصلهم قوات جديدة من أمراء المقاطعات حتى تيقن السلطان بعد عدة معارك رائعة أنه لا يقوى على مقاومة الصليبيين ، وعلى هذا رفع الحصار وبدأ المحصورون ، وقد فتت فى عضدهم الحروب والأوبئة والمجاعات ، يشعرون بقسوة الكفاح الذى استمر سنتين متواليتين . ولما اشتدت عليهم الكوارث وعظمت المصيبة ، خرج مشطوب قائد الحامية إلى فليب أوغسطوس وخاطبه بقوله : « لقد قضينا أربع سنوات نحكم هذه المدينة ، وعند ما استولينا عليها فى بادئ الأمر أطلقنا سراح أهلها ، ومكناهم من الذهاب بأموالهم وعائلاتهم ، وإنا الآن نسلم إليكم المدينة بالشروط التى سبق أن منحناها لكم » ؛ فرفض ملك فرنسا الإبقاء على حياة السكان وأفراد الحامية ما لم يسلم المسلمون بيت المقدس وجميع المدن التى استولوا عليها من الصليبيين منذ موقعة طبرية ، فعاد الأمير إلى المدينة ، وقد وطد العزم على القتال حتى النهاية ، فإما النصر وإما الموت تحت أنقاض المدينة ، واستمر الكفاح اليائس مدى حين ، غير أن المجاعة كانت تفتك بالمحصورين فتكا ذريعاً ، بينما كان جيش السلطان عاجزاً عن مساعدتهم لقلة عدد جنوده ؛ وأخيراً سلم أهل المدينة على شرط الإبقاء على حياتهم ، وعلى أن يرد المسلمون من جهتهم صليب المسيح ، ويقدموا ألفاً وستمائة أسير ومائتى ألف دينار لرؤساء الصليبيين ؛ ولما حدث بعض التأخير فى دفع الفدية أخرج « ريكاردوس ملك انكلترا » جنود الحامية وذبحهم بمرأى ومسمع من إخوانهم . ويقال إن الصليبيين خسروا فى الاستيلاء على حلب ستين ألف مقاتل .

٥٧٦–٥٨٩ هـ

مذبحة الصليبيين

= السلطان صلاح الدين بمرضهما أرسل إليهما فى الحال الثلج من جبال لبنان والفواكه الطازجة فى أثناء مرضهما .

ويقول ميشو : « إن الصليبيين المنتصرين تمتعوا أخيراً فى مدينة «حلب» عندما استولوا عليها براحة لم يعهدوها منذ أن وصلوا إلى الشام ، فانغمسوا فى ملذات الترف ، ونعم الحياة ، ونشوة نبيذ قبرص ، ومغازلة النساء اللواتى أتين من الجزر المجاورة ، فكل هذه المباهج واللذائذ حملتهم على أن ينسوا إلى حين الغرض الذى جاءوا من أجله » . وبعد أن أنعشوا النفس زحفوا بقيادة « ريكاردوس » على عسقلان ، وكان السلطان يسايرهم حتى بلغ عدد المعارك التى نشبت على طول الطريق الذى لم يزد طوله عن المائة والخمسين ميلا إحدى عشرة موقعة ، وخسر صلاح الدين فى موقعة « أرسوف » وحدها ثمانيـة آلاف من أشجع جنوده ، ولما رأى أن جيشه أضعف من أن يحول دون تقدم القوات الصليبية الهائلة أسرع إلى « عسقلان » ، ونقل سكانها ثم خربها ولم يتركها إلا بعد أن أصبحت أرضاً يبابا ؛ فلما وصل ريكاردوس وشاهد بنفسه خرائب تلك القلعة التى كانت تعد من أقوى الحصون ، وأدرك أنه أمام خصم جبار عنيد أثرت فيه تلك الشخصية العظيمة أيما تأثير ، وفى الحال فتح معه باب المفاوضة لعقد معاهدة صلح بعد أن يئس من معارك غير مثمرة لا طائل تحتها ، وكان فوق ذلك يتوق إلى العودة إلى بلاده التى بدأت تعصف بها ريح الفوضى ؛ فأرسل وفداً يطلب المفاوضة مع أخى السلطان سيف الدين الملك العادل فتقابل الأميران ، وكان ابن همفرى[1] يترجم بينهما ، فأبدى ريكاردوس رغبة شديدة فى عقد الصلح ، وذكر شروطه ، ولكن السلطان رأى استحالة إجابتها ، ولهذا فشلت تلك المفاوضات وكان المركيز مونتفرات وقتئذ يسخط على تصرفات ريكاردوس ، فأرسل وفداً إلى السلطان يعرض عليه الصلح من جديد ، ويشترط لذلك أن يمنحه صيدا وبيروت ؛ فاستجاب السلطان لدعوته على أن يقوم هو أولا بتنفيذ الشروط ،

١١٨١ — ١١٩٣ م

الملك رتشارد يطلب الصلح

---

(١) يقول بهاء الدين ابن شداد إنه رآه فى يوم عقد الصلح ويصفه بأنه كان جميل الطلعة غير أنه كان يحلق لحيته على عادتهم .

ولـكن ما انقضت مدة وجيزة حتى وصلت الرسـل من ملك انكلترا يعرضون مقترحات أخرى ومعهم كتابان إلى « أخيه وصديقه » الملك العادل والسلطان .
وكانت الشروط الوحيدة التى عرضها الصليبيون هذه المرة هى أن يسمح لهم بالاحتفاظ بالمدن التى بأيديهم ، وأن يرد إليهم بيت المقدس ، وخشبة الصليب الحقيقية ؛ فرفض السلطان إعادة القدس رفضاً باتا إلا أنه أعرب عن استعداده إلى إعادة خشبة الصليب على شرط أن يعقد الصلح طبق رغباته .

٥٨٩-٥٧٦ هـ

المفاوضات

ولـكن ملك انجلترا لم يلبث أن استأنف مفاوضاته ثانية مع الملك العادل وتوصل معه إلى وضع مسودة اتفاق يعرض فيما بعد على السلطان ومجلسه للمصادقة عليه ، وكانت شروطه أن يزوج أخته « أرملة ملك صقلية » من الملك العادل ، وأن تعطى عكا وما بيد الفرنج من البلاد إلى أخته الآنفة الذكر ، وأن يعطى كذلك ما بأيدى المسلمين من بلاد الساحل إلى العادل ، بل أن يحكم الزوجان مدينة القدس بصفة كونها مدينة محايدة حرة لأتباع الديانتين ، وأن تستبدل الأسرى ، و يعاد الصليب للمسيحيين ، و يحتفظ الرهبان بامتيازاتهم . فرأى السلطان فى هذه المقترحات وسيلة لإعادة السلم بين أهل الديانتين ، ولهذا لم يتردد قط فى قبولها ، ولو أن الـكهنة سمحوا وقتئذ بتوقيعها لقربوا مسافة الخلف بين العالمين المسيحى والإسلامى . غير أنهم أثاروا اعتراضا شديداً على فكرة تزوج أميرة مسيحية من بطل شجاع وأمير كريم كسيف الدين وراحوا يهددون الملك بالحرمان ، كما أخذوا يضربون على وتر العقيدة الدينية والأوهام التقليدية حتى ضمنوا رفض الملـكة ، فروع ريكاردوس من تهديداتهم ؛ وأرسل وفداً إلى صديقه يطلب إليه أن يعتنق المسيحية ، ولـكن الأمير رفض بالطبع سماع مثل هذا الرأى السخيف رفضاً باتا .

مقتل كونراد
١ — ٥ —
١١٩٢ م

وفى تلك الأثناء وفدت على السلطان بعثة أخرى من المركيز ، غير أن ملك انكلترا كان قد أرسل مقدم الإسماعيليين يحرضه على الغيلة من حليفه المزعج ؛

١١٨١ —
١١٩٣ م

فلم يلبث رئيس الإسماعيلية أن انتدب فدائيين فقتلاه فى السادس عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٨ هـ[1] ، وعندئذ زحف ريكاردوس ملك انكلترا فى جيش كبير على بيت « المقدس » ، ولكنه منى بشر هزيمة فاشتدت بذلك رغبته فى مغادرة فلسطين ، وبعث وفداً آخر إلى السلطان يعرض عليه شروط الصلح . ومما قاله إنه يود أن تعقد بينهما أواصر الصداقة والود ، وإنه لا يطمع فى امتلاك أرض المسلمين ، ولهذا فإنه يقطع الكونت هنرى ابن شقيقته البلاد التى كانت بيده ويتركه فى رعاية السلطان . ومن قوله أيضاً : إن الكونت سيلبى أوامر السلطان ويصحبه فى غزواته فى الشرق ، وإنه لا يطلب من صلاح الدين غير كنيسة القدس وحدها . فأرسل السلطان بعد أن استشار قواده — ولا سيما أنه كان قد شعر بحاجة البلاد إلى الطمأنينة والهدوء ، ورغبة الجيش فى الراحة بعد هذا الضنك والبؤس الشديدين — جوابا وديا ، وعادت البعثة هذه المرة ومعها ابن الكونت هنرى يحمل الهدايا النفيسة من ملك الإنكليز ، وأعلنت تنازل الصليبيين عن بيت المقدس ، ولكنها طلبت مقابل ذلك منح الكونت المدن الثلاثة : عسقلان والداروم وغزة ؛ فرد السلطان عليهم أنه لا يمكنه إعطاء الملك غير مدينة « اللد » وحدها . ولما علم أن الصليبيين يزحفون على بيروت أمر جيشه بالزحف فاستولى على يافا ، وعندئذ طلب ملك إنكلترا ثانية إلى الملك العادل استئناف المفاوضات ، وألح عليه أن يرسل وفداً عنه ليقروا شروط الصلح ؛ وحالما وصل الوفد الإسلامى أخذ ملك إنكلترا يشيد بذكر السلطان ومزاياه ، ثم ناشد الأمراء أن يقنعوه بعقد الصلح فأجابهم صلاح الدين إلى طلبهم ، وأقطع ملك الإنكليز ساحل البحر من صور إلى قيصرية ، غير أن ريكاردوس طلب هذه المرة إعطاءه يافا وعسقلان ؛ فقبل السلطان أن يقطعه يافا وحدها رافضاً التنازل عن عسقلان مهما كلف الأمر .

---

(١) فون هامر فى كتابه تاريخ الحشاشين .

عقد الصلح فى ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ هـ ٢ أيلول سنة ١١٩٢ م

وأخيراً تنازل ملك إنكلترا عن المطالبة بعسقلان ، وفى الحال عقدت شروط الصلح ، « وصدر بيان بذلك فسادت الطمأنينة ، وانتشر الأمن فى ربوع البلاد وضمنت حرية الشعب فى التنقل ، وكان يوم إعلان الصلح يوما مشهوداً ففرح الناس فرحا شديداً ، وعادت الجنود إلى أوطانها بعد أن كانت قد جاءت من الأصقاع البعيدة لتعزيز الجيش المرابط فى فلسطين والشام » ، ولم يلبث ريكاردوس أن عاد إلى بلاده ؛ أما ما حدث له بعد ذلك فأمر لا يجهله قراء تاريخ إنكلترا .

نهاية الحرب الصليبية الثالثة

وهكذا انتهت الحرب الصليبية الثالثة التى هلك فيها عدد لا يحصى من الناس ، وخربت آلاف الدور العامرة فى الشرق والغرب ، وخسرت ألمانيا أحد براطرتها العظام ، كما فقدت فرنسا وإنكلترا زهرة فرسانها ، ولم تكسب المسيحية شيئا غير عكا ! !

وبعد سفر ريكاردوس استراح صلاح الدين قليلا فى القدس . ثم سار تحرسه كوكبة من الفرسان نحو الساحل ليتعهد الثغور ، وأمر بإصلاح ما خرب منها ، كما شيد فى القدس مستشفى ومدرسة وولى على المدينة سكرتيره[1] ومترجم حياته ، ثم عاد إلى دمشق ، وبقى فيها هو وأسرته حتى وافته منيته يوم الأربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ . ويقول كاتب مسلم : « كان يوم وفاته نكبة على الإسلام والمسلمين ، كما كانت مصيبة لا تعدلها إلا مصيبتهم بوفاة الخلفاء الراشدين ، فعم السراى والإمبراطورية بل العالم أجمع الحزن العميق ، وعلا الصياح والبكاء والنحيب فى المدينة على وفاته » .

وفاة صلاح الدين ٤ — ٣ — ١١٩٣ م

صفاته ومناقبه

وهكذا توفى عظيم من أشهر العظماء ، وبطل من الأبطال الذين قلما يجود بمثلهم الزمان . وتقول لنا الرواية : إنه كان قد أمر قبل وفاته بتوزيع المال على الفقراء دون تمييز بين الجنس والدين ، ويكفى دليلا على كرمه أنه لم يخلف فى

(١) اسمه حورديك . وهو من المماليك النورية . (المعرب)

خزائنه غير دينار واحد و ٣٦ درهما أرسلت إلى بغداد مع الرسول الذى نعاه إلى الخليفة . ويمكن الحكم على أخلاقه من وصف معاصريه له بأنه كان كريماً حليما حسن الأخلاق ، متواضعاً صبوراً على ما يكره ، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ، صديقاً للعلماء والأتقياء ، حريصاً على أن يكونوا فى معيته ، وكان يعاملهم دائما بالعطف والإحسان .

ومن مآثره أيضاً أنه شيد الكليات والمستشفيات فى جميع أنحاء الإمبراطورية وكان وزير السلطان القاضى الفاضل[1] — الذى استوزره ثلاثة سلاطين من آل بويه — يتنافس مع سيده فى تكريم العلماء وتشجيع العلم ، كذلك لم يكن مجلس صلاح الدين مؤلفاً من القواد أمثال قرقوش وحسام الدين ومشطوب فحسب بل كان للعلماء فى ذلك المجلس مكانة عظيمة ؛ ومن جملتهم القاضى والكاتب عماد الدين سكرتير السلطان والقاضى الحقارى الذى غالباً ما استبدل لباس القضاء الفضفاض ببزة الجندى[2] المتفانى .

---

(١) هو أبو على عبد الرحيم الملقب بالقاضى الفاضل ، وينتسب إلى عائلة عربية أصيلة اسمها « لخم » ؛ ومسقط رأسه مدينة عسقلان .

(٢) يصف الرحالة المشهور عبد اللطيف البغدادى السلطان بعد أن عقد الصلح مع الملك ريتشارد بقوله : إنه يستميل إليه القلوب . وإن أول مساء قضاه بصحبته رأى أنه محاط بالعلماء الذين كانوا يتناقشون فى كل فرع من فروع العلم ، وكان يصغى إليهم بفرح وسرور ، وغالباً ما كان يشترك معهم فى المناظرات ، وكان فى تلك الأثناء يهتم بتشييد أسوار بيت المقدس ، فكان يشرف على العمل بنفسه ، بل كثيراً ما كان يحمل الحجارة على كتفيه وكان يذهب إلى محل العمل قبل شروق الشمس ، ثم يعود عند الظهر فيستريح قليلا بعد تناول الطعام ، وفى العصر كان يذهب إلى محل العمل فلا يعود إلا على ضوء المشاعل . وكان يقضى معظم الليل فى النظر فى شؤون اليوم التالى .

الفصل الثالث والعشرون

العباسيون

٥٨٩ — ٦٦١ هـ ؛ ١١٩٣ — ١٢٦٨ م

إغارة التتر

أولاد صلاح الدين — قيام الملك العادل — الحرب الصليبية الرابعة — أولاد الملك العادل — نظرة عامة فى العالم الإسلامى فى المشرق — الخلافة — الخليفة الظاهر — الخليفة المستنصر — الخليفة المعتصم — إغارة التتر — سقوط بغداد — تقويض المدنية الإسلامية

أولاد صلاح الدين

توفى صلاح الدين لسوء الطالع دون أن يضع نظاماً خاصاً لولاية العهد ، فنجم عن هذا الإغفال وقصر النظر ، تقويض دعائم الإمبراطورية وخرابها ؛ ومما هو جدير بالذكر أن تلك الدولة انقسمت بعد وفاته إلى ثلاثة ممالك مستقلة على رأس كل واحدة منها ولد من أولاده ، فحكم « على الملك الأفضل » (أبو الحسن نور الدين) الشام وفلسطين ، وباستيلائه على دمشق عاصمة الإمبراطورية غدت له الأفضلية على أخويه ؛ كما نودى بالملك العزيز عثمان أبى الفتح عماد الدين — الذى كان يحكم مصر فى عهد والده — ملكا على تلك البلاد ؛ بينما ولى الملك الظاهر غازى (غياث الدين) إمارة حلب ؛ وقد كان الملك العادل (سيف الدين أبو بكر) أمير الكرك والشوبك أخو صلاح الدين الذى كان محبوباً من رجال الجيش ، يحكم قسما من الجزيرة وعدة مدن أخرى على الفرات ؛ كذلك كان أولاد شيركو قد احتفظوا بحمص ، كما احتفظ رؤساء آخرون من أعضاء الأسرة ببعض الإمارات ، وكان يحكم اليمن

تقسيم الإمبراطورية

الأفضل والعزيز والظاهر

٥٨٩-٦٦١هـ

الأخ الثانى[1] لصلاح الدين . فلو أن أولاد السلطان العظيم أجمعوا أمرهم ووحدوا صفوفهم عقب وفاة والدهم ، لاستطاعوا برغم انقسام الإمبراطورية أن يحتفظوا بملكهم ، غير أن المنازعات وقلة الكفاءة فتت فى ساعدهم ، وأعانت الملك العادل على الاستئثار بملك أخيه دونهم ، كما أدى النزاع الذى نشب بين الأفضل والعزيز ، إلى إخراج الأول من دمشق واستيلاء عمه العادل عليها . وعلى هذا اضطر الأفضل أن يكتفى بمدينة صرخد وحدها ، ولكن العزيز لم يلبث أن توفى بعد أن أعقب طفلا صغيراً[2] فاستدعى الأفضل لتولى الوصاية عليه ، ثم نشب خلاف بينه و بين العادل مما أدى إلى نفى الأفضل مع ابن أخيه المنصور من مصر ، ومنحهما بعض الإقطاعيات فى الجزيرة ، كما استقل العادل بملك مصر ، والشام ، وشرقى الجزيرة ، وخلاط ، وأرمينيا العظمى . وفى سنة ٦١٣ هـ ضم إليه بلاد اليمن واستعمل عليها حفيده يوسف[3] . وقد كان سيف الدين ملكا بعيد النظر ، وافر العقل ، عظيم الفطنة ، حسن السيرة ، جميل الطوية حازما . وكان كأخيه محباً للعلم ، مكرماً للعلماء ، فلم يلبث أن أصبح سيد الشام وأعالى الجزيرة ومصر وجزيرة العرب دون منازع ، وعلى الجملة أصبحت دولته فسيحة الأرجاء لا تقل شأناً عن إمبراطورية أخيه ، كما أخذت تقرأ له الخطبة على المنابر وتضرب السكة باسمه[4] .

الملك العادل ٢—٢ ١٢٠٠ م

١٢٠٧— ١٢٠٨ م

١٢١٥— ١٢١٦ م

١١٩٣— ١٢٦٨ م

الحرب الصليبية الرابعة

و بعد مضى سنتين على وفاة صلاح الدين أثار البابا كلاستين الثالث حملة شعواء منادياً بوجوب إرسال حملة أخرى على الشرق ، غير أن عهد حروب الأبطال كان قد انقضى بانتهاء النزاع بين صلاح الدين وريكاردوس ملك الإنكليز ، ولهذا كان الكفاح بين المسلمين والمسيحيين هذه المرة هزيلا عديم

(١) اسمه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب . (المعرب)

(٢) محمد الملقب « بالملك المظفر » .

(٣) الملقب بالملك المسعود .

(٤) أبو الفداء .

الفائدة ، وبالرغم من الانقسام الذى ساد معسكر المسلمين فقد برهنت إغارة الفرنج هذه المرة أيضاً على عقمها ؛ ويقول ميشو : « إن جميع دول الغرب فشلت فى محاولتها غزو حتى أصغر حصن فى الشام » . وكانت قد وصلت فى تلك الأثناء قوة كبيرة من الصليبيين إلى السواحل الفينيقية ، واستولت على بيروت نكثاً بشروط المعاهدة التى كانت قد عقدت مع صلاح الدين وتعهد فيها الأمراء النصارى فى الشام بمراعاتها واحترام شروطها ؛ وكان أولاد صلاح الدين فى تلك الآونة لا يزالون على رأس حكوماتهم ، غير أن الملك العادل بصفة كونه « حامى الإسلام » أسرع إلى صد هجمات الفرنج وفتح مدينة يافا عنوة ، بينما كان الصليبيون يحاصرون « تبنين » فانتهى ذلك القتال بفشل النصارى فشلا مريعاً بحيث اضطرهم إلى طلب الصلح ، فعقدت مهادنة مدتها ثلاث سنوات ، كما عرفت تلك الحملة بأروع ضروب الفتك والانتقام .

حصار « تبنين »

٥٩٤ هـ
١١٩٧ —
١١٩٨ م

وبعد ثلاث سنوات نهض البابا « أنوسينت الثالث » معلناً حربا صليبية أخرى ، حاضا الأمراء المسيحيين على الاشتراك فى تلك الحرب الهوجاء . ويقول كاتب أوروبى مشهور : « لم يكن للبابا « أنوسينت الثالث » هدف سوى جمع الأموال إشباعا لبخله وسدا لنفقات معيشته المترفة » ، وقد رفض ريكاردوس ملك انكلترا إعارة هذا النداء أى اهتمام ، بيد أن أمراء أوروبا الآخرين لم يبلغوا حكمته وبعد نظره ، فاجتمعت قوة كبيرة منهم لغزو الشرق من جديد ، ولكنها لحسن الطالع بدلا من أن تزحف على الشام جعلت طريقها القسطنطينية . وتتفق رواية ابن الأثير بشأن تلك الحملة مع رواية المعاصرين الأوربيين ، فيقول : « كان قد وثب على الملك أخ[1] له فقبض عليه وملك البلد منه ، وسمل عينيه وسجنه ، فهرب ولده[2] والتحق بالصليبيين الذين اجتمعوا ليخرجوا إلى بلاد

١٢٠٠ م

الحملة الصليبية الخامسة

٥٨٩ـ٦٦١هـ

---

(١) واسمه إيزاك انكلوس .
(٢) الكسيوس .

الشام لاستنقاذ البيت المقدس ، فاستنصر بهم على عمه الذى اغتصب الملك من أبيه » ، ويصف لنا أيضاً بعبارة مؤثرة غزو المدينة وإحراقها والأعمال الشنيعة التى ارتكبها حملة الصليب فى المدينة فيقول : إنهم أشعلوا فيها النيران ثانية حتى احترق ربع عمارتها[١] . ولم يكن هذا العمل غير بدء سلسلة الأعمال الوحشية التى ارتكبها هؤلاء المتعصبون الذين اشتد هوسهم عند رؤية الجوامع وكنائس اليهود التى لا يعبد فيها غير إله واحد « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » فاتخذوا هذه المرة خطة جديدة لمهاجمة الكافرين ، وأعملوا السيف فى رقاب السكان وأحرقوهم بالنار ، ولكن هؤلاء الكفار على زعمهم وزعم بعض جيرانهم المسيحيين أخذوا على عاتقهم الدفاع عن أنفسهم وأملاكهم ، فصب المتهوسون جام غضبهم على الأبنية الأثرية فراحت طعمة للنيران ، وكانت الحرائق فى خلال ثمانية الأيام يرتفع لهيبها ، فتشاهد على مسافة عدة فراسخ من الميناء ، وقد عقدت ضبابا كثيفاً على المدينة المنكودة الآهلة بالسكان[٢] .

— ١١٩٣
١٢٦٨ م

ولما استولى الصليبيون عنوة على المدينة أعملوا السيف فى رقاب جميع الروم ؛ ويقول المؤرخ فيلوهارديون : « كان من المناظر المروعة مشاهدة النساء والأطفال يركضون هنا وهناك ، وقد تملكهم اليأس القاتل والخوف المرعب ، ينتحبون ويتضرعون دون مجيب » . ويقول ميلز وغيبون المؤرخان المشهوران : « إن هذه الأعمال النكراء التى ارتكبها مخلصو القدس انتقدها البابا أنوسينت الثالث نفسه انتقاداً مرا ، وأنحى باللائمة على هؤلاء المتوحشين » . ولكن هذه الفظائع كانت على كل حال تفوق حد الوصف ؛ ويظهر أن الصليبيين كانوا مجردين من كل شفقة أو رحمة إذ ارتكبوا فى أثناء عدة أيام أروع المناظر المثيرة فى داخل المدينة وخارجها . ويقول ميشو : « أصبحت القرى والكنائس خرابا يبابا

---

(١) ابن الأثير .
(٢) إدوارد غيبون (تاريخ انحطاط وسقوط الدولة الرومانية) .

لا تصلح إلا للمحراث يشق ركامها ، وأخذت الطرق تزدحم بالجموع المروعة ، وهى لا تدرى أين تسير يلاحقها الخوف ، وقد ناء كاهلها بالمتاعب والأوصاب » .

كذلك أنحى عليهم المؤرخ « نيسيتاس البيزنطى » — الذى كاد الصليبيون يعتدون على عفاف ابنته — باللائمة و يقول : « إنهم فاقوا الأتراك وحشية وقسوة » ، ثم يقارن فى موضع آخر بينهم و بين جنود صلاح الدين الذين يقول فيهم : « إنهم عند ما استولوا على القدس لم يعتدوا على حرمة المنازل ، ولا على العذارى ولا الراهبات ، ولم يسيئوا قط إلى المسيحيين ، ولم يعملوا فى رقابهم السيف أو يلقوهم طعمة للنيران »(١) ، ثم يقول أيضاً : إن هؤلاء المتهوسين عقب دخولهم المدينة انتزعوا الجواهر من كؤوس الهياكل المقدسة ، وطفقوا يشربون بها الخمور ، وفرشوا المناضد التى كانوا يقامرون و يأكلون عليها بصور المسيح والقديسين ، وداسوا تحت أقدامهم التماثيل المقدسة ، ومزقوا فى كنيسة سان صوفيا ستارها المشهور ، وانتزعوا حواشيه الذهبية ، وحطموا المذبح المزين بالصور الفنيـة ، واقتسموا قطعه الصغيرة فيما بينهم ، ونقلوا على بغالهم وخيولهم التحف الفضية ، والمصنوعات الذهبية التى انتزعوها من الأبواب والمنابر والهياكل ، وكان كلما ناء حيوان بحمله الثقيل طعنه صاحبه بخنجره طعنة نجلاء حتى غدا الرصيف المقدس ملطخاً بدماء الحيوانات ؛ ومن مهازل القدر أيضاً أنهم نصـبوا تمثال الشيطان على عرش البطريك ، وأخذت المومسات يرقصن فى الـكنيسة رافعات عقيرتهن بأغنيات تثير الضحك والسخرية .

٥٨٩ـ٦٦١هـ

الحرب الصليبية السادسة ١٢١٦ — ١٢١٧م

وفى سنة ١٢١٦ — ١٢١٧ م أخذ البابا « أنوسينت الثالث » يخطب من جديد معلنا ضرورة إرسال حملة سادسة لإنقاذ البلاد المقدسة ؛ فانتظم فى عقدها النساء ، والأطفال ، والشيوخ ، والعرج ، والعمى ، والمجذومون ، كما التحق بهم ملك المجر ، ودوق النمسا ، وجميع رؤساء الإقطاعيات فى ألمـانيا السفلى ، وقصدوا

---

(١) ميشو .

الشرق وعددهم زهاء ٢٥٠ ألف ومعظمهم من الألمان ، فنزلوا أولا فى بلاد الشام و بعد أن خربوا قسما من الموانئ ساروا بحراً إلى مصر ، فوصلوا إلى فرع النيل الشرقى وحاصروا مدينة دمياط ، ففرع الملك العادل من شمالى الشام إلى مصر ، ولكنه توفى فى طريقه على مقربة[1] من دمشق ، وكانت مدة حكمه عشرين سنة هزم فيها الفرنج فى عدة مواقع ، وأحبط غزواتهم برا و بحراً . وعلى أثر وفاته قسم أولاده الإمبراطورية بينهم ، فولى محمد الملقب بالملك الكامل (أبو المعالى ناصر الدين) مصر ؛ وولى ابنه الثانى عيسى الملقب بالملك المعظم (شرف الدين) الشام ، وكانت هذه المملكة تمتد من حمص إلى العريش على الحدود المصرية ، وفى جملتها فلسطين والقدس والكرك و بعض المدن الأخرى ؛ كما ولى ابنه موسى الملقب بالملك الأشرف (مظفر الدين) إمارة حلب . و بعد حصار طالت مدته ١٨ شهرا سقطت دمياط فى أيدى الصليبيين الذين دخلوا المدينة بنفس الروح التى دخلوا بها بيت المقدس ؛ غير أن انتقامهم لم ينصب هذه المرة إلا على عدد قليل جداً من السكان ، إذ كانت دمياط قد استحالت بعد ذلك الحصار الطويل إلى مقبرة شاسعة تضم عظام أربعة آلاف شهيد من مجموع سكانها الذين كان عددهم سبعة آلاف نسمة ، وحتى هذا المنظر المروع لم يثر الشفقة فى قلوب الصليبيين إذ ذبحوا البقية الباقية . ثم واصلوا زحفهم على القاهرة ؛ ومع أن الملك الكامل كانت قد أتته النجدات من أخويه إلا أنه شعر أن لا قبل له بمناجزتهم ، ولهذا اقترح أن يرد إليهم جميع المدن التى كان صلاح الدين قد استولى عليها على شرط أن يتنازلوا له عن مدينة دمياط ، ولكنهم أبوا ذلك علماً منهم بأن فى استطاعتهم الاستيلاء على مصر بسهولة ؛ وكانت مياه الفيضان وقتئذ قد بدأت ترتفع فكسر المسلمون السداد ، وما هى إلا برهة حتى غمرت المياه البلاد برمتها ، ووجد الصليبيون

وفاة الملك العادل
٧ جمادى ٥ ٦١٥ هـ
٢١ — ٨ —
١٢١٨ م

أولاد الملك العادل

١١٩٣ —
١٢٦٨ م

حصار دمياط
١٠ رمضان
٦١٦ هـ
١٩ — ١١ —
١٢١٩ م

(١) جاء فى ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٩ : « انه توفى بعالقين ، ونقل إلى دمشق ، ودفن بالقلعة ، ثم نقل إلى المدرسة المعروفة به » . (المعرب)

أنفسهم قد انفصلوا عن قاعدتهم الحربية ، فانقض المسلمون على القوة التى كانت تنقل إلى الصليبيين المؤونة والأرزاق ومزقوها شر ممزق ، وعندئذ انتشرت المجاعة وأخذ المسلمون يواصلون الهجوم على الفرنج حتى اضطروهم إلى طلب الصلح ، فتبادل الفريقان الأسرى ، ووافق الصليبيون على إخلاء دمياط على أن يحميهم المسلمون فى طريقهم إلى الساحل ؛ كما نالوا أيضاً بعض الامتيازات للحجاج النصارى ، واستردوا خشبة الصليب الحقيقية « المشكوك » فيها .

هزيمة الفرنج
١٩ رجب ٦١٩ هـ
٨ — ٩ — ١٢٢١ م

وما كاد الصليبيون يغادرون البــلاد حتى نشب الخلاف بين أولاد الملك العادل ، وتحالف الملك المعظم مع جلال الدين الطموح بن علاء الدين خوارزم شاه وتم الاتفاق بينهما على عزل الملك الـكامل الذى أخذ يتفاوض مع فردريك الثانى إمبراطور ألمـانيا ، وقد كان يستعد إلى القيام بحملة صليبية أخرى لحسابه الخاص خلافا لرغبة البابا .

٥٨٩ — ٦٦١ هـ

وفى سنة ١٢٢٧ توفى الملك المعظم ؛ فخلفه ابنه « الملك الناصر داود » على الشام ، وما انقضت مدة وجيزة حتى اتفق الملك الكامل والملك الأشرف على الاستيلاء على دمشق ، وتعويض الناصر عنها حوران والرها والرقة . وفى سنة ١٢٢٩ م (٦٢٩ هـ) وصل فردريك (ويسميه العرب بالأنبرور[١]) إلى الشام ، وترددت الرسل بينه و بين الـكامل حتى عقدت بينهما نهائيا معاهدة صلح مدتها عشر سنوات وستة أشهر وعشرة أيام ، اشترط فيها أن يسلم إليه الملك العادل مدينة القدس و بيت لحم والناصرة ، وجميع المدن الواقعة بين يافا وعكا ، ولم يبق للمسلمين فيها غير حق تأدية المراسيم الدينية والاحتفاظ بجامع عمر ؛ ولـكن هذه المعاهدة لم تنل رضا المسلمين ولا موافقة المسيحيين ، إذ كانت بقدر ما هى

وفاة الملك المعظم
تشرين الأول وتشرين الثانى ١٢٢٧ م

٤ — ١١ — ١٢٢٩ م

---

(١) ويسميه أبو الفداء بفردريك . ويقول : إن القاضى جمال الدين الذى أرسله السلطان بيبرس بمهمة سياسية إلى أوربا قد أعلمه بأن الأنبرور كان يمتاز من بين ملوك الفرنج بالعلوم وميله الخاص إلى الفلسفة والمنطق والطب ، وحبــه إلى معاشرة المسلمين ، إذ أن الملك المذكور كان قد تلقى علومه فى صقلية حيث كان معظم سكانها من المسلمين .

مشينة للأولين الذين حرمتهم ما حصل عليه صلاح الدين ، بغيضة للمسيحيين ، لأنها سمحت للمسلمين بتأدية مراسيمهم الدينية ، ولكن لم يمض سوى قليل حتى عاد فردريك إلى أوربا للدفاع عن بلاده ضد البابا .

وفاة الملك الكامل ٢١ رجب ٦٣٥ هـ

وفى الثامن من شهر آذار سنة ١٢٣٨ توفى الملك الكامل ، فأجلس الأمراء ابنه أبا بكر على عرش أبيه ولقب بالملك العادل ، وكان شابا ضعيف الأخلاق يميل إلى اللهو والمجون ، فخلعه أخوه أيوب الملقب بالملك الصالح إذ كان أقدر منه على كبح جماح المماليك الذين كانت تتألف منهم الطبقة الأرستقراطية فى مصر .

إعادة الاستيلاء على القدس

وفى سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ — ١٢٤٠ م) استولى أبو ناصر داود أمير حران على القدس وهدم أسوارها ، وقد كانت آسيا الغربية فى ذلك الحين تعصف بها ريح الفوضى والانحلال ما عدا البقعة الواقعة تحت نفوذ الخليفة . ولأجل أن نفهم الحوادث التى وقعت إثر ذلك وأسباب الكارثة التى حلت بالمدينة العربية نرى لزاما علينا الرجوع القهقرى قليلا حيث نجد المكتفى والمستنجد والمستضىء قد نجحوا فى استعادة سلطتهم الزمنية على العراق وجنوب الجزيرة وفارس والأهواز كما غدت سلطتهم الروحية فى تلك الأثناء أقوى منها فى أى زمن كان منذ وفاة الواثق .

وفاة المستضىء ١١٧٩ — ١١٨٠ م
أحمد أبو العباس الناصر لدين الله ٦٢٢ هـ ١٢٢٥ م

وفى سنة ٥٧٥ توفى المستضىء وخلفه ابنه أحمد أبو العباس ولقب « بالناصر لدين الله » ، وكان حاكما قديراً ، ويقول الذهبى : إن عصره الطويل الذى دام سبعاً وأربعين سنة عصر رخاء وعظمة حربية ؛ فقد أسس جيشاً قويا ، ويظهر أنه كان محترما مرهوب الجانب من جميع الأمراء المجاورين ، وساد فى عهده السلم وانتشر الأمن فى ربوع البلاد ؛ ولما توفى ولى ابنه أبو نصر محمد الخلافة

أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله

ولقب « بالظاهر بأمر الله » ، ويقول ابن الأثير : « لما ولى الخليفة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين » ، وقد توفى بعد حكم لم يدم إلا سنة

أبو جعفر المنصور المستنصر بالله ١٠ — ٧ — ١٢٢٦م

واحدة فبويع بالخلافة بعده ابنه أبو جعفر المنصور ، ولقب « بالمستنصر بالله » ، وهو الذى أعاد إلى الخلافة هيبتها وفخامتها القديمتين ، وكان شهما جواداً شجاعا عادلا ورعا حكيما . وتقول الرواية إنه بنى على شط دجلة من الجانب الشرق المدرسة المستنصرية ، وجهزها بكافة اللوازم الضرورية لراحة الطلاب ، كما أسس جيشاً لجباً للدفاع عن مملكته ضد غارة التتر .

غارة التتر

لا يخفى أن أصقاع منغوليا الشاسعة ، أو البلاد المعروفة عادة بالتتر الصينية الممتدة من حدود فرغانة الشرقية إلى آمور كانت كما لا تزال إلى الآن تسكنها قبائل بربرية متوحشة تسمى بأسماء مختلفة ، ولكنها تنتسب إلى أصل واحد ، ويصفهم عبد اللطيف البغدادى الذى شهد الأعمال التى ارتكبوها فى مختلف حواضر العالم المتمدن بقوله : « إن نساءهم يحاربن كما يحارب الرجال وسلاحهم الرئيسى هو القوس والنشاب ، وهم لا يحرمون شيئاً إذ أنهم يأكلون جميع الدواب ، ولا يبقون على أحد فى حروبهم ، بل يذبحون النساء والأطفال على حد سواء ؛ وهم معتادون عبور الأنهار العميقة بالقِرَب ، أو بإمساك أذناب الخيول فيسبحون وراءها ، ولا يعرفون تعباً أو نصباً ، ويستقبلون الموت من غير ما خوف ولا وجل » . وفى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى اتحدت قبائل التتر

جنكيزخان (غضب الله)

برئاسة جنكيزخان الملقب « بغضب الله » ، وكانت ولادته سنة ١١٥٥ ، واسمه الحقيقى « تنوجين » ، ولما نودى به خاقانا أو رئيساً أعلى للقبائل سنة ١١٨٩ شرع فى زحفه على الغرب والجنوب ، وما كادت تمضى سنة ١٢١٩ حتى احتل الصين ، وكافة بلاد التتر ؛ وكان العالم الإسلامى وقتئذ يحكمه عدة أسر مستقل بعضها عن البعض الآخر ، وكانت الإمبراطورية السلجوقيــة قد انقرضت فى بلاد فارس ؛ أما السلطان سانجار فكان قد ثارت عليــه قبيلة تركمانية تسمى « أوغوز » ، وأستعرت بين الفريقين نار حروب دامية دارت فيها الدائرة عليه حتى وقع هو وزوجه الملكة « تركان خاتون » أسيرين فى أيدى الثوار الذين

١١٦٣ — ١٢٩٨م

أخذوا يتوغلون منذ ذلك التاريخ فى مرو ونيسابور ، و يعيشون فى البلاد نهباً وسلباً ، ولكن يظهر أن الأقدار قد أبقت على كثير من المدن والمزارع ليقوم بتخريبها قبائل التتر فيما بعد . ولقد بقى السلطان « سانجار » أربع سنوات أسيراً ولكنه بعد وفاة زوجه التى كانت المحرض الوحيد على بقائه فى الأسر — فر من سجنه ووصل إلى نيسابور حيث وجد عاصمة ملكه خرابا يبابا ، وإمبراطوريته قد تقوضت دعائمها فمات بعد قليل من شدة الحزن والأسى ، وولى بعده ابن أخيه طوغرل ، ولكنه قتل فاستولى على الملك من بعده أحد رجال البلاط .

السلطان سانجار

٥٥٢ هـ
١١٥٧ م
نهاية الدولة السلجوقية

وفى حوالى سنة ١١٥٠ م قامت دولة جديدة فى أفغانستان الشرقية وحلت محل الدولة الغزنية بعد أن قوضت دعائمها ، وأسقطتها من شاهق عزها ؛ وذلك أن علاء الدين حسين « جيهانسوز » مؤسس الدولة الغورية الجديدة كان قد انقض على غزنة واضطر أسرة سبكتكين إلى الالتجاء إلى لاهور ، فلم يمض عليهم سوى قليل حتى أصبحوا ملوكها الوطنيين .

٥٤٥ هـ
١١٥٠ م
علاء الدين حسين

ولما أراد « علاء الدين » إشباعا لطموحه أن يوسع رقعة بلاده من جهة الغرب صمد له الملك « سانجار » الذى كان حينئذ فى ذروة عظمته ، وصده عن التوغل والزحف فى بلاده ، ولهذا اضطر إلى تحويل وجهه شطر بلاد الهند ؛ ولما توفى فى سنة ١١٥٦ م خلفه ابنه « سيف الدين » الذى توفى هو أيضاً بعد مدة قصيرة ، و بموته آل العرش إلى ابن عمه « غياث الدين » . وما كادت تبدأ سنة ٥٦٩ هـ حتى ألحقت غزنة نهائيا بالمملكة الغورية ، وفى سنة ٥٧١ هـ استولى « شهاب[1] الدين » أخو غياث الدين وقائد جيوشه العام فى الشرق على مولتان وفى سنة ٥٨٢ هـ قتل « بحرو مالك » آخر ملوك الدولة الغزنية بعد أن كان قد ألقى القبض عليه بحيلة حربية . وفى سنة ٥٨٩ هـ زحف غياث الدين على الهند فدارت بينه و بين جيوشها الموحدة رحى القتال فى ميدان « ناراين » على ضفاف

الدولة الغورية
١١٦٣ م
١١٧٥ م
١١٨٧ م
١١٩٣ م

---

(١) يعرف فى التاريخ باسم معز الدين محمد بن سام .

« نهر ساراسواتى » ففرق شملهم وهزمهم هزيمة منكرة ، وبهـذا النصر الفريد أصبح المسلمون أسياد الهند الحقيقيين ، غير أن المنية عاجلته سنة ٥٩٩ ، فخلفه أخوه « شهاب الدين » الذى قتل غيلة بعد ثلاث سنوات دون أن يعقب ولداً ؛ فولى عرش الهند من بعده مملوكه « قطب الدين أيبك » ؛ بينما ولى غزنة أحد مماليكه المسمى بيلدز ، وقد خلف الأول ابنه « أبو المظفر آرام » ، غير أن حكمه لم يدم غير سنة واحدة ، إذ عزله صهره المسمى « آلتماش » (شمس الدين) الذى نادى بنفسه ملكا على الهند ، وظل فى الحكم ٢٥ سنة ، وكان أول ملك مسلم فى تلك البلاد استلم العقد من خليفة بغداد ، وهى الوثيقة التى طالما طمع الكثير من الحكام السابقين فى الحصول عليها : ثم أفضى الحكم بعد وفاته إلى أولاده حتى سنة ١٢٦٥ م حيث نادت « راضية » ابنة آلتماش بنفسها ملكة على الهند عام ٦٣٤ هـ بناء على رغبة والدها ، وبتتويجها شاهد الشرقيون لأول مرة ملكة سافرة : وكان مستهل حكمها محفوفا بالمخاطر والمشاكل ، وذلك أن الأمراء والحكام أحجموا فى أول الأمر عن إظهار ولائهم للملكة الجديدة ، ولكنها استطاعت بلباقتها وحسن سياستها أن تكتسب ودهم فنعمت البلاد بنعمة الطمأنينة والعدل ، واعترف الجميع بسلطانها من ديبال إلى لاخنوتى [1] غير أن حياتها مع ذلك انتهت بمأساة رائعة ، إذ بينما كانت تحاول قمع إحدى الفتن أسرها الهنود وفتكوا بها .

١٢٠٦ م

هندستان

١٢١٠ — ١٢٣٥ م

١٢٣٦ — ١٢٣٩ م

١١٩٣ — ١٢٦٨ م

خوارزم

وفى تلك الأثناء أقطع السلطان ملك شاه خادمه « نشتاكين » إمارة خوارزم فحكمها ردحاً من الزمن ، ثم خلفه ابنه « قطب الدين محمد » الذى نقبه « سانجار » فيما بعد بلقب خوارزم شاه ؛ غير أن « أدسيز » بن قطب الدين ثار على سيده السلطان سانجار فى أواخر عهده واستقل بمملكته . وبعد عدة سنين ضم طاقش حفيد أدسيز عراق العجم إلى مملكته كما أقطعه الخليفة بعد مقتل « طوغرل »

(١) منهج السراج .

ابن أخى سانجار آخر الملوك السلجوقيين بلاد فارس وخوارزم وخراسان . ولما توفى « طاقش » خلفه ابنه « علاء الدين محمد » الذى أصبح باحتلاله بلخ وهراة سيد خراسان دون منازع ؛ كذلك لم يلبث أن ضم إلى مملكته مازندران وكرمان وغزنة ، ثم بلاد ما وراء النهر التى كان يحكمها حاكم بالنيابة عن رئيس قبائل كرخيتى . وفى سنة ١٢١٤م زحف علاء الدين على عاصمة الخلافة ، غير أن عاصفة هوجاء ثارت فى جبال آسباد على مقربة من همدان فعرقلت زحفه واضطرته إلى أن يعود إلى عاصمة ملكه ؛ وما كادت تنقضى بعد ذلك أربع سنوات حتى اكتسحت البلاد قبائل مغولية ، كان هو السبب المباشر فى استفزازها لقسوته ووحشيته .

الموصل
٥٨٩ـ٦٦١ هـ

وفى ذلك الحين كانت أسرة « زنكى » قد انقرضت فى الموصل ؛ وكان آخر أمراء « الأتابكة[1] » قد أعقب طفلا صغيراً يدعى « مسعود » تولى تربيته مملوك أبيه « بدر الدين لؤلؤ » . وفى سنة ١٢١٨ م توفى مسعود ، ثم مات من بعده ابنه الصغير ، فأصبح بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل ؛ ودام حكمه سبعا وثلاثين سنة حتى إغارة المغول .

الروم
١٢٤٣ — ١٢٤٤ م

وفى سنة ١٢٣٥ — ١٢٣٧ م كان « علاء الدين قايقوباد » الحفيد السابع للسلطان سليمان متربعاً على عرش قونية ، عند ما زحف المغول لأول مرة على آسيا الصغرى فنشبت بينه و بينهم عام ٦٤١ هـ معركة رائعة دارت فيها الدائرة عليه ، ولكن الصلح تم بينهما على أن يدفع للمغول جزية سنوية و يستخدم رجلا منهم فى بلاطه يدعى « بروانة » .

مصر سنة
١٢٤٠ — ١٢٤١ م

ذكرنا فيما سبق كيف نادى « الملك الصالح أيوب » بنفسه ملكا على مصر سنة ٦٨٨ هـ ؛ وكيف أخذ يوسع رقعة مملكته تدريجياً ، حتى استولى على الشام وأجبر أمراء « آل بويه » حكامها الأصليين على الاعتراف بسيادته عليهم ؛

(١) نور الدين أرسلان شاه .

ولكنه بينما كان منهمكا فى نشر الأمن فى ربوع البلاد أغارت على الشام فلول جيش « خوارزم شاه » التى فرت من أمام جيوش المغول ؛ وأوغلت فى البلاد تعيث فيها نهباً وسلباً ، فانتهز أحد الأمراء إغارة هؤلاء الفلول واستخدمهم لمصالحه الخاصة ؛ ولكن لم يمض سوى قليل حتى استخدمهم زعيم آخر لمآر به الشخصية ، غير أنهم لم يلبثوا أن انقلبوا على جميع أمراء الشام ، وراحوا يعيثون فى البلاد فساداً و يعملون السيف فى رقاب أهلها ؛ فجمع « الملك الصالح » فلول جيشه وأثخن فيهم وظل يتعقبهم حتى استأصل شأفتهم سنة ٦٤٤ .

الحرب الصليبية الثامنة
٦٤٧ هـ
١٢٤٩ —
١٢٥٠ م

و بينما كان الملك الصالح منهمكا على هـذا النحو فى قمع تلك الاضطرابات والفتن ، أغارت على البلاد الإسلامية حملة صليبية ثامنة بقيادة « الملك لويس » التاسع ملك فرنسا الذى يسميه العرب « ريد فرانس » فنزل لويس فى مدينة دمياط بعد أن هجرها سكانها المسلمون ، وحول مساجدها إلى كنائس ، وراح الصليبيون يرتكبون أشنع الجرائم ، وطفق أمراؤهم يتبارون فى إقامة الولائم الباذخة كما استسلموا إلى أحط الرذائل وأسوأ الموبقات « فانتشر الفساد بين صفوفهم انتشاراً لم يستطع الملك لويس نفسه معالجته وتوقيف تياره الجارف » .

١١٩٣ —
١٢٦٨ م

و يقول ميشو : « كانت شهوة المقامرة قد تملكت نفوس الجنود والقواد على حد سواء ، حتى راحوا بعد ضياع أموالهم يقامرون على أسلحتهم وخيولهم . وهكذا استسلم الصليبيون تحت ظلال الصليب إلى أشنع ضروب الرذائل وتفشى الفساد فى صفوف جميع الضباط والجنود » . « ولأجل أن يشبعوا شهواتهم و يقتنصوا اللذائذ والمسرات ، التجأوا إلى ضروب العنف والاستبداد ؛ وراحوا يبتزون أموال التجار الذين كانوا يمدون المعسكرات بالأرزاق وفرضوا الضرائب الباهظة عليهم ، مما أدى إلى فرارهم ، فقل الطعام بين الصليبيين ، وطفقت الجنود تغير على القوافل وتنهب المدن وتأسر النساء المسلمات » . و يقول جونفيل « انحط الصليبيون إلى أسفل الدركات إذ راحوا يغتصبون العذارى والمتزوجات » .

١٥ شعبان
٦٤٧ هـ
٢٣ — ١١
١٢٤٩ م

وخلال وجود الفرنج فى دمياط توفى « الملك الصالح » أيوب[١] بعد أن قضى فى الحكم نحو عشر سنوات ؛ وكان ملكا عادلا مستقيما كبير النفس عظيم الهيبة متحفظاً لم يقدم على عمل قط من غير أن يستشير قواده ورجال بلاطه ، وإليه يعزى تأسيس فرقة المماليك البحرية[٢] . وقد خلفه ابنه الوحيد المسمى « تورانشاه » والملقب « بالملك المعظم » ، وكان مقيما عند وفاة أبيه على حدود الشام فأخفت زوجته « شجر الدر » — التى كانت على جانب عظيم من الشجاعة والدهاء — خبر وفاة زوجها حتى أقسم كبار القواد لابنها يمين الطاعة والولاء .

٥٨٩ــ٦٦١هـ

انتهز الفرنج فرصة وفاة «الملك أيوب» وتوغلوا فى البلاد المصرية ، ولكنهم منوا بشر هزيمة بعد أن قتل منهم عدد كبير ، كما وقع لويس نفسه وقواده أسرى فى قبضة المسلمين ؛ ولم يمض سوى قليل حتى سخط المماليك البحرية على تورانشاه لتحزبه إلى « البرجيه » وهى الفرق العسكرية المنافسة لهم فقتلوه . وبعدئذ نادت « شجر الدر » بنفسها ملكة عليهم كما دعى لها على منابر المساجد ، ونقش اسمها على العملة ، ولقبت بالمستعصمية أى (خادمة الخليفة المستعصم فى بغداد) والصالحة (زوجة الصالح أيوب) (وملكة المسلمين) و (أم الملك المنصور خليل[٣]) . وعندئذ قلدت « شاشنكير معز الدين أيبك » قيادة الجيش العامة[٤] ، ولكن ما هو إلا أن خلعها واعتلى العرش عوضاً عنها ، غير أن الأمراء أبوا الموافقة على توليته ، وأجمعوا على المناداة بأمير من الأمراء ملكا عليهم ، وفى الحال انتخبوا «موسى» حفيد الملك الكامل ، وكان شابا يافعا وتلقب « بالملك الأشرف » . وفى ذلك الحين كان الناصر يوسف حاكم دمشق وحلب هو فى الواقع الحاكم المسيطر على

١٢٥٠م

٥ — ٨ —
١٢٥٠م
٦٥١هـ

(١) الملقب « بنجم الدين » .
(٢) سموا كذلك لوقوع معسكراتهم على ضفاف النيل .
(٣) كان لها ابن يسمى خليل ، توفى فى سن الطفولة .
(٤) أتابك العساكر .

الشام ، وبتوسط الخليفة عقدت معاهدة صلح بينه وبين « أيبك » نائب «الملك الأشرف» نص فيها على جعل حدود مصر تمتد إلى نهر الأردن . ولكن لم تكد تنقضى سنة واحدة حتى عاد « معز الدين أيبك » واغتصب العرش من الملك الأشرف وأعاده إلى موطنه اليمن . ومما هو جدير بالذكر هنا أن الأشرف يعتبر آخر الملوك الأيوبين الذين قرئت باسمهم الخطبة فى جوامع مصر . ويقول لنا الرواة إن أيبك أخذ يمعن فى اضطهاد المماليك البحرية حتى أجبرهم على الالتجاء إلى الشام ، وبعدئذ نشب نزاع جديد بين « الناصر » « وأيبك » أدى إلى توسط الخليفة ثانية لعقد معاهدة صلح بينهما اكتفى فيها الناصر بأن تمتد حدود مملكته إلى العريش . ولما توفى « أيبك » خلفه ابنه « نور الدين على » ولقب « بالملك المنصور » ، وفى الحال أرسل إليه الخليفة العقد والتشريف التقليدين . ومع أن ملك الشام كان هو المسيطر الحقيق على البلاد الممتدة من الفرات إلى تخوم مصر إلا أنه كان ثمة أمراء آخرون يحكمون بعض الإقطاعيات داخل سلطنته ، فكانت حمص يحكمها وقت إغارة المغول « الملك الأشرف » موسى حفيد « شركو » الذى عزله « الناصر » سنة ١٢٤٨ وعوضه عنها منطقة تل باشر ؛ كما أقره المغول على ملكه وأنابوه عنهم فى الشام ، وكان يحكم «حماه» حفيد « تقى الدين عمر » ابن أخى صلاح الدين العظيم الذى كان قد ولاه بنفسه تلك المدينة ، واشتهر ابنه « محمد » الملقب « بالملك المنصور الأول » بشجاعته فى المعارك التى دارت رحاها مع الصليبيين ، وبتكريمه العلماء ؛ وكان يجلس على عرش حماه حفيد المنصور الثانى ؛ أما الكرك والشوبك ، فكانتا فى قبضة أحفاد « الملك العادل » (سيف الدين أبو بكر) أخو صلاح الدين ؛ وكان يحكمهما وقتئذ الملك المغيث تقى الدين عمر . وبجانب تلك الإمارات كان الأيوبيون لا يزالون محتفظين بقسم صغير من الجزيرة ، وكان أميرها وقتئذ «الملك الكامل» خامس ملوك تلك الأسرة الذى قتله المغول فى أثناء زحفهم المشهور .

١٢٥٣ — ١٢٥٤ م

آخر الملوك الأيوبين

١١٩٣ — ١٢٦٨ م

الشام

٥٨٩ — ٦٦١ هـ

حماقة خوارزم شاه

هكذا كانت حال الملوك والأمراء المسلمين عند زحف المغول ، ويقول لنا المؤرخون إنه عقدت فى سنة ١٢١٨م معاهدة صلح بين جنكيزخان وخوارزم شاه توثقت بموجبها العلاقات الودية بين الملك البربرى الذى كان يتحكم فى رقاب عدة ملايين من القبائل الرحل المسلحين ، وبين ملك التركان الطائش الذى ارتكب لسوء الطالع عملا يشف عن القسوة والحماقة ، فأثار على العالم الإسلامى عاصفة هوجاء حولت غربى آسيا خلال بضعة أعوام إلى مقبرة شاسعة وأرض يباب بلقع ، ويلخص الحادث ؛ أن ملك المغول كان قد أرسل جماعة من التجار لشراء بعض الأمتعة ، فلما أشرفوا على ما وراء النهر ، قتلهم نائب خوارزم شاه على مقربة من الحدود واستولى على ما معهم بحجة أنهم إنما جاءوا ليتسقطوا أخباره . ولما طلب ملك المغول تسليم النائب المجرم لينزل به ما يستحقه من عقاب أجابه خوارزم شاه بقتل رسوله تحديا له ، فثار عندئذ ثائر جنكيزخان ، وزحف بجيشه البالغ زهاء المليون على فرغانة سنة ٦١٥ هـ .

إغارة التتر ١٢١٨ م

كانت بلاد فارس وما وراء النهر فى تلك الآونة — بالرغم من الفتن التى كانت تنشب فيها من حين لآخر — مزدهرتين ، وكان أهلها يرفلون فى حلل السعادة والرفاهية ، كما كانت الحركة العلمية والصناعية والأدبية زاهرة زاهية ، وليس أدل على بلوغ هاتين المملكتين حد المدنية والرقى من مدنها العامرة ، ومزارعها النضرة ومبانيها المنيفة الذرى ، كما كان يبلغ عدد سكان كل من هراة وبلخ مليون نسمة ، أما بخارى وسمرقند ، فكان عدد سكانها يفوق هذا العدد بكثير .

١١٩٣ — ١٢٦٨ م

اكتسحت جيوش التتر جنود الملك خوارزم شاه كما تكتسح السيول ماتصادفه من الحصى والرمال ، وإذا أغفلنا ذكر المدن الصغيرة والقرى العديدة ، وأمعنا النظر فى وصف المؤرخين لحالة المدن الكبرى التى كانت مركزاً للمدنية وسوقا للتجارة ، لتبين لنا جليا ما حل بهذه الأصقاع من الدمار والخراب . فتقول

لنا الرواية إن هؤلاء المغيرين انقضوا على « خوجاند » انقضاض الصواعق ، وأعملوا فيها يد القتل والتخريب ، أما بخارى فقد استحالت ركاما وأنقاضاً ، ويصف ابن الأثير زحف التتر على هذه الحاضرة العظيمة الشأن بعبارات مؤثرة بليغة تذيب القلب حسرة وأسى .

تخريب بخارى

استمر المغول فى توغلهم فى وادى الصفد الجميل حتى أوفوا على سمرقند التى لم تكن عاصمة بلاد ما وراء النهر فحسب بل كانت أيضاً من أهم المراكز التجارية فى العالم ، وكانت تبلغ مساحتها ثلاثة أميال ، يحيط بها سور له اثنا عشر بابا من الحديد وحصون متفرقة ، كما كانت تتألف حاميتها من ١١٠ ألف جندى بينهم ٦٠ ألف من التركمان والكنكليس و٥٠ ألف من الفرس ؛ فلما أشرفت الجيوش الثلاثة التى اجتاحت بلاد ما وراء النهر على المدينة المنكودة الحظ ، بعث إليها قائد المغول سرية لارتكاب أروع الجرائم الوحشية .

حزيران ١٢١٩ م

ولقد ظن الجنود الأتراك لأول وهلة أن المغول سيعاملونهم معاملة المواطنين فهجروا المدينة مع عائلاتهم وأموالهم ، ولكن المغيرين انقضوا عليهم وذبحوهم على بكرة أبيهم .

وما إن علم أعيان المدينة وعلماؤها بمصير الجنود الأتراك حتى عرضوا طاعتهم على جنكيز خان ، ولكنه أباح برغم ذلك نهب المدينة وقتل السكان ، وأسر ٣٠ ألفاً من أمهر صناعهم وأرسلهم إلى أبنائه فى الشمال ، كما جند عدداً كبيراً لاستخدامهم فى الأشغال العسكرية والنقليات وما إلى تلك الأعمال ، ولم يبق إلا على ٥٠٠٠ من أهلها ليقصوا على الناس تفاصيل الفاجعة التى حلت بمدينتهم فذعر أهالى بلخ مما آلت إليه بخارى وسمرقند ، وفى الحال أذعنوا للمغيرين ؛ غير أن قائد المغول كان على مايظهر يخشى المدن العامرة ويتقى تركها آهلة بالسكان ، فلما اقترب من « بلخ » أخرج أهلها بحجة إحصائهم وقتلهم على بكرة أبيهم .

تخريب سمرقند

٥٨٩ــ٦٦١ هـ

وفى آيار سنة ١٢٢٠ م استولى على أوركانج بعد أن نشبت بينه وبين جيشها

معركة رائعة ، فأثخن فيهم حتى أفنام جميعاً ، وعندئذ أمر بكسر الأسداد القائمة على نهر سيحون ، ومن ثم شخص إلى نيسا وأسر منها ٧٠ ألفاً ، و بعد أن أوثقهم بالحبال أمر بطرحهم على الأرض ورشقهم بالنبال حتى أفنام على بكرة أبيهم . وفى نيسان سنة ١٢٢١ م انقض على نيسابور عاصمة دولة آل طاهر السلجوقية بفارس وعاث فيها نهباً وسلباً ، كما أرسل أصحاب الحرف وعددهم ٤٠٠ إلى الشمال . ويقول لنا ميرخوند : « يبلغ عدد من قتل فى مذبحة نيسابور والمناطق المجاورة ١٫٧٤٧٫٠٠٠ » .

مذبحة هراة

وفى هراة وضواحيها ظل هؤلاء المتوحشون يعملون معاول التخريب والسيف والنار أسبوعا كاملا . ويقال إن عدد الذين قتلوا فى تلك المذبحة بلغ ١٫٦٠٠٫٠٠٠ نسمة حتى أصبحت تلك البقعة قفرة موحشة . ومن ثم زحفوا على الرى وديناوار وهمدان فنهبوها وقتلوا معظم أهلها ، ثم واصلوا الزحف على بغداد عاصمة دار الخلافة العباسية ، ولكن جيوش المستنصر بعد معركة رائعة أوقعوا بهم وصدوهم عن التوغل فى البلاد .

الرى وهمدان

١١٩٣ — ١٢٦٨ م

ظل التتر يعيثون فى البلاد فساداً ، و يعملون فيها معاول الهدم والتخريب ، و يثخنون فى أهلها ، ويطاردون ملكها الذى كان أصل تلك البلايا والنكبات وهو يتوارى عن أعينهم ؛ وفيما كانوا يجدون فى البحث عنه قبضوا على جميع أفراد أسرته وقتلوا الذكور منهم ، غير أن أولاده الثلاثة استطاعوا الإفلات من قبضتهم ، كما تمكن أحدهم من مقاومتهم مدى حين . وفى تلك الأثناء كان خوارزم شاه قد اعتصم بإحدى الجزر فى بحر قزوين حيث توفى بمرض الرئة وحيداً مهجوراً ، كأنه أراد بذلك أن يكفر عن المصائب والويلات التى جلبها على العالم الإسلامى . أما ابنه الشجاع « جلال الدين » فقد تعقبه التتر من غير ما شفقة ولا رحمة ، فتراجع إلى خوارزم ثم هراة ، ومنها إلى غزنة حيث جمع حوله قوات جديدة استطاع أن ينتصر بها على المغول فى معركتين رائعتين ،

وفاة خوارزم شاه

١٢٢٠ م

ويلحق بهم أفدح الخسائر ، وعندئذ أخذ « جنكيزخان » يلاحقه بنفسه بحمية شديدة فعبر « الباميان » و « كابول » وجد فى السير حتى أتى على الموقع الذى اعتصم فيه الأمير على الضفة الغربية من نهر مهران ، فهجم عليه هجوما عنيفاً ، ولكن جلال الدين صمد له بشجاعته المعهودة ، وكاد يجليه عن موقعه لولا أن حاصره فى إحدى الشعاب ، وعندئذ قفز بفرسه من علو ٣٠ قدما إلى النهر ، وتمكن من العبور سالما إلى الضفة الأخرى حيث أمن جانبه ، وقد حالت جنود سلطان الهند المدعو « بلبان » دون عبور « جنكيزخان » الذى سحب جنوده بعد هذه الهزيمة وسار بها غربا ، وهكذا امحت معالم المدنية التى زهت عدة عصور فى بلاد ما وراء النهر وخراسان على أيدى هؤلاء المتوحشين ، وانحدرت البلاد إلى دركات الفاقة والجهل ، وتقوضت عظمتها ، وقفرت الطرق من القوافل التى كانت تخترقها لنقل حاصلات الصين والهند إلى غربى آسيا وأوربا ، واستحالت الأرض الزراعية المعروفة بخصوبتها إلى بلقع يباب ، واضمحلت الصناعات والفنون التى طبقت شهرتها الآفاق ، وغدت المدن والضياع أطلالا دارسة ، وقتل الفلاحون ، وأدخل من بقى منهم قسراً فى الجيش المغولى ، وحمل أصحاب المهن إلى أقاصى الشرق ليشتغلوا فى تجميل مسقط رأس الغازى ؛ وعلى الجملة قضت إغارة المغول قضاء مبرما على الحياة العقلية فى آسيا الوسطى ، ومع أن فارس والمغرب استردا تدريجيا ازدهارها العلمى إلا أن بخارى وسمرقند لم تنتعش حياتهما العلمية قط ، وظلت الدراسة العلمية فيها مقتصرة على التصوف والفقه .

٥٨٩–٦٦١هـ

وفاة جلال الدين

ويقول لنا المؤرخون إن جنكيزخان بعد أن قوض معالم المدنية فى أواسط آسيا وفارس وحولها إلى صحراء قاحلة عاد إلى وطنه حيث توفى بعد قليل ، وعندئذ تمكن جلال الدين من استرداد قسم من بلاده ، ولكن لم يمض طويل وقت حتى زحف المغول عليه ثانية قبل أن يتمكن من حشد قواته وينظمها ، فاضطر إلى الاعتصام بجبال كردستان التى اغتاله فيها أحد سكانها .

وفاة الخليفة المستنصر ١٠ جمادى الثانية ٦٤٠ هـ — ٥ — ١٢ — ١٢٤٢ م

وفى سنة ١٢٤٢ م توفى الخليفة المستنصر فى أحرج مواقف الدولة العباسية خصوصاً والمدنية العربية عموما ، وخلفه ابنه أبو أحمد عبد الله الملقب « بالمستعصم بالله » ، وكان ضعيف الرأى ، شديد البطش ، مغرما باللهو ، وقد عرف عهده بنشوب الفتن والاضطرابات فى الداخل والخارج حتى تجمعت عليه الإحن والمصائب ، وقوضت دعائم ملكه وسببت هلاكه .

المستعصم بالله ١١٩٣ — ١٢٦٨ م

وهكذا تجمعت عليه شتى النكبات التى جعلته يتبرم من الحياة و ينوء كاهله بعبئها ومن جملتها النزاع بين الحنفية والحنابلة ، وهما فئتان كانتا دائما مصدراً لإثارة الفتن والاضطرابات فى بغداد ، ولا ننسى أيضا الخلاف الذى طالما نشب بين أهل السنة والشيعة الذين كانوا يسكنون الجهة الغربية من بغداد ، هذا علاوة على التحاسد والتباغض بين السوقة والدهماء من جهة و بين الطبقة الغنية والأرستقراطية من الجهة الأخرى ، وقد زاد فى تحرج الموقف تلك السياسة الخرقاء التى سلكها الخليفة فى تسريح جنوده لمزاولة أعمال التجارة والزراعة . وتقول لنا الرواية إنه كانت قد نشبت فى عهده فتنة بين السنة والشيعة ، فأمر الخليفة ابنه أبا بكر وكاتبه بهدم الكرخ واضطهاد أهله ، فاستاء وزيره مؤيد الدين محمد ابن العلقمى الذى كان من رجال الشيعة ، ويقال إنه أراد أن يثأر للاضطهاد الذى كان يلقاه أهل مذهبه فكاتب هولاكو يحرضه على الشخوص إلى بغداد ، وقد اتهمه مؤرخو العرب أمثال ابن خلدون وأبى الفداء والمقريزى والسيوطى بخيانة وطنه وخليفته ، كما أيدهم فى هذا الاتهام «مرخونت» أحد كتاب ملوك المغول ؛ أما « رشيد الدين » وحده فيبعد عنه التهمة و يصفه بأنه كان خادما أمينا للخليفة ميالا إلى إنقاذ الدولة من الدمار المحدق بها ، ولكنه كان عاجزاً عن بلوغ وطره إزاء تصرفات الخليفة المتردد .

زحف هولاكو على بغداد ربيع الأول ٥٥٥ هـ

ومهما يكن من شىء فإن هولاكو — أخا جنكيزخان ونائبه فى منكوخان من أعمال فارس — بعد أن استأصل شأفة الباطنيين وهدم قلاعهم زحف على

تبريز ومن ثم أرسل وفداً إلى المستعصم يحمل إليه رسالة يقول فيها: « إنه كان قد تلقى منه كتابا خلال حروبه مع «الردبار» يعده فيه بالمدد والأقوات، ولكنه لم يبر بوعده للآن » ثم ختم رسالته بقوله: « يجب أن تغير خطتك وتعدل عن هذه المكابرة التي إن عادت عليك بشيء فإنما تعود بخراب دولتك وفقدان ثروتك» ، غير أن الخليفة مع ما كانت عليه الخلافة من وهن وضعف، ومع افتقاره إلى جيش يناضل به الأعداء وحاجته إلى المستشارين الأصفياء ، وبرغم انتشار الفوضى فى كل مكان أرسل إلى ملك التتر جوابا يدل على التشامخ والكبرياء بدلا من أن يطأطئ هامته أمام تلك العاصفة الهوجاء . ومما زاد الطين بله أن الرعاع أهانوا الوفد عند ما قدم على الخليفة ، فاشتد بذلك سخط الزعيم الوثنى وزحف على قاعدة الملك العباسى بجيوش جرارة لا قبل للعالم الإسلامى بها ؛ وقد حاول جنود الخليفة مقاومة الغزاة قبل وصولهم إلى بغداد ، بيد أن تفرق كلمتهم أدى إلى إحباط جهودهم وإلحاق الهزيمة بهم فى آخر الأمر . ولما وصل المغول إلى بغداد حاصروها أربعين يوماً حصاراً لا هوادة فيه ، ونصبوا المنجنيقات على جميع القلاع والحصون المشرفة عليها ، ثم طفقوا يمطرونها بوابل من الحجارة والغاز المشتعل حتى أحدثوا فى أسوارها فجوة كبيرة ، وأحرقوا منازلها ، وعندئذ أذعن الخليفة المتردد لطلب الصلح وفتح باب المفاوضات مع هولاكو الذى سرعان ما استدعى كبار ضباط المستعصم وقتلهم هم وخدامهم وأتباعهم ، فساء بذلك موقف الخليفة الذى أبدى فى الحال استعداده إلى الإذعان بالتسليم على شرط أن يبقى على حياته وحياة سكان المدينة ، كما استأذنه فى الخروج إلى معسكره وبصحبته أخوه وولداه وحاشيته المؤلفة من ثلاثة آلاف جلهم من القضاة والأعيان والأشراف ، ولكن هولاكو مع ذلك لم يسمح لأحد بالمثول بين يديه إلا للخليفة نفسه وأخيه وولديه وثلاثة من رجال البلاط ، وقد استقبلهم ذلك الوحش استقبالا ودياً برغم ما كان يضمر لهم من الخيانة والغدر ؛ ولما نجح فى تهدئة روع الخليفة

٥٨٩–٦٦١هـ

تسليم المستعصم
٤ صفر ٦٥٦هـ

وأدخل الطمأنينة على قلبه ، أمره أن يوعز إلى الأهالى المسلحين بإلقاء السلاح والوقوف خارج أبواب المدينة بحجة إحصائهم ، وما إن أذعنوا إلى أوامر الخليفة وتدفقوا خارج أسوار المدينة حتى هجم عليهم التتر وفتكوا بهم فتكا ذريعا .

نهب بغداد

وفى صباح اليوم التالى أصدر هولاكو أمره المشئوم بنهب المدينة وذبح أهلها وإنا لنرى أنا نحتاج فى وصف تخريب تلك المدينة إلى بيان كبيان « غيبون » المؤرخ المشهور لكى نستطيع أن نقرب الحقيقة إلى أذهان القراء ؛ فقد خرج الشيوخ والنساء والأطفال من منازلهم حاملين المصاحف على أكفهم وهم يتوسلون ويتضرعون إلى الجنود بلهجة تفتت الأكباد أن يبقوا على حياتهم . ولكن الغزاة لم يعبأوا باستغاثتهم كما وطئوا أجسادهم بحوافر خيولهم ، وهجموا على نساء الأشراف والنبلاء اللواتى لم يعتدن السير فى ازدحام طوال سنى حياتهن وجروهن إلى الشوارع كما أنزلوا بهن أروع ضروب الإهانات وأذلها . أما تلك الكنوز الأدبية والفنية ومخلفات المدنية الفارسية التى جمعتها أيد حريصة نشطة بإشراف الخلفاء فقد دمرت تدميراً فى خلال بضع ساعات ؛ وطفقت شوارع المدينة تنساب فيها الدماء طوال ثلاثة أيام حتى اصطبغ ماء دجلة لعدة أميال بصبغة الدم القانية وظلت ريح التخريب والذبح وانتهاك حرمة الإنسانية تعصف بالمدينة ستة أسابيع كاملة حتى انهارت القصور المنيفة الذرى ، وتقوضت الجوامع المقدسة والضرائح الفخمة إما بالنار أو بالمعاول من أجل قبابها الذهبية ، وأعملت السيوف فى رقاب المرضى فى المستشفيات وطلاب العلم والأساتذة فى المدارس والكليات ؛ ونبشت قبور الأولياء وأضرحة الأئمة الصالحين ، والتهمت النيران نتائج قرائح العلماء والأدباء ، وألقيت الكتب لتلتهمها ألسن النار أو تبتلعها مياه دجلة ؛ وهكذا فقدت الإنسانية كنوز خمسة قرون ، وفنيت زهرة الأمة فناء تاماً .

١١٩٣ — ١٢٦٨ م
المذبحة العامة

وفاة المستعصم
٢٠ محرم(١)٦٥٠ هـ
٢٧ — ١ — ١٢٥٨ م

وبعد أن استمرت ريح هذه المذابح الدامية تعصف بالمدينة طوال أربعة أيام قبض هولاكو على المستعصم وأمر بضربه هو وأولاده وأفراد أسرته ضربا

مبرحا حتى فارقوا الحياة ؛ ولم ينج من هـذا المصير المحزن سوى عدد ضئيل من أفراد الأسرة الخاملى الذكر . وهكذا أمست بغداد موطن العلم ومثابة العلماء ، وعاصمة الثقافة الإسلامية ، وحاضرة العالم العربى خرابا يبابا ؛ بعد أن كان عدد سكانها قبل هذه الطامة الـكبرى زهاء المليونين . ويقول ابن خلدون : « إن ١٫٦٠٠٫٠٠٠ هلـكوا فى تلك المذبحة فى خلال ستة أسابيع » . وبتدمير بغداد أرخى الظلام الدامس سدوله على غربى آسيا . ويروى المؤلفون العرب والفرس قصة هذا الخراب والتدمير بأسلوب مؤثر فياض ، فيقصون علينا تلك الأهوال التى أنزلها هؤلاء المتوحشون الوثنيون بالعالم الإسلامى فى منتصف القرن الثالث عشر ، ولا يستطيع أن يتمالك الإنسان غير المتعصب المكابر عن أن يذرف الدمع سخيا على تلك الأرواح وتلك الـكنوز العلمية التى ذهبت ضحيـة التوحش والقسوة .

٥٨٩ـ٦٦١هـ

ويقول ابن الأثير : « إن غارة المغول هى الحادثة العظمى والمصيبة الـكبرى ، التى عفت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لـكان صادقا ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها » . ويقول عبد اللطيف البغدادى : « إن إغارة المغول مصيبة تتضاءل دونها كل المصائب » . ويصف لنا جوينى مؤلف كتاب جاهان كوشا الذى كان فى خدمة جنكيزخان فى ذلك العهد : « إن الثورة التى اجتاحت العالم دمرت العلم ، وفتـكت بالعلماء ولاسيما فى خراسان التى كانت مثابة العلم ومجتمع العلماء ، ويمكننا أن نسمى هـذه الفترة بفترة لحط العلم وفقدان الفضيلة » .

وبعد أن أعملوا معاول التخريب فى بغداد ، وذبحوا سكانها عبروا نهر الفرات متجهين صوب الجزيرة يطاردون أهلها بالسيف والنـار ، فأفنوا جميع

٩ صفر ٦٥٨هـ
١٢٦٠م

سكان الرها وحران[1] ونصيبين ، وذبحوا فى حلب ٥٠،٠٠٠ من أهلها ، وسبوا عشرة آلاف من نسائها وأطفالها ، وكانت حران قد قدمت طاعتها على شرط أن يبقى المغيرون على مدينتهم ، إلا أنهم اقتحموها وقضوا عليها قضاء تاماً دون أن تأخذهم الشفقة حتى على الأطفال الرضع ؛ ومن ثم زحفوا كالسيل الجارف نحو الغرب يعيثون فساداً وتخريباً أينما ساروا يساعدهم فى ذلك انقسام كلمة المسلمين وانشقاقهم ، وواصلوا زحفهم حتى أقبل عليهم فى قرية « عين جالوت[2] » على مقربة من الناصرية السلطان بيبرس المشهور — الذى نادى بنفسه ملكا على مصر فيما بعد — فأوقع بهم شر إيقاع ، وأعملت جنوده الأسنة فى رقابهم حتى باءوا يتعثرون فى أذيال الهزيمة والخسران ، وظل يتعقبهم إلى ما وراء حلب ، وبذلك نظف الشام والجزيرة من ظلمهم . وكان ابن أيبك قد عزله أحد قواده المسمى « سيف الدين قوتوز » ، الذى نادى بنفسه ملكا ، غير أنه خر صريعاً فى موقعة عين جالوت ، وعندئذ اعتلى بيبرس العرش، ولقب « بالملك الظاهر » .

١١٩٣ — ١٢٦٨ م

١٥ رمضان ٦٥٨ هـ ١٢٦٠ م

٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ م

تشرين الأول ١٢٦٠ م

إحياء الخلافة

وظل العالم السنى طوال سنتين كاملتين يشعر بحاجته القصوى إلى زعيم دينى ، تلك الحاجة التى عبر عنها السيوطى بعبارات مؤثرة ، وقد أدرك بيبرس ضرورة إحياء الخلافة ، فاستدعى إلى القاهرة أحمد « أبا القاسم » العباسى الذى كان قد نجا من مذبحة المغول .

وعند وصول الأمير الفتى إلى ضواحى القاهرة استقبله السلطان والقضاة وموظفو الدولة بالترحاب والتعظيم ، وبعد أن أجريت المراسيم الرسمية بإثبات نسبه أمام قاضى القضاة ، بويع بالخلافة ولقب بالمستنصر بالله ؛ وكان أول من بايعه من الناس السلطان بيبرس ، ثم قاضى القضاة تاج الدين ثم كبار العلماء ،

---

(١) هى قصبة ديار مضر بين الرها والرقة ، ومنها ابن تيمية إمام عصره فى العلوم الإسلامية المتوفى سنة ٨٢٧ هـ . (المعرب)

(٢) لا ينسى العالم الإسلامى لمصر ذلك اليوم الأغر المحجل الذى رفعت فيه نير هؤلاء المتوحشين عن أعناق المسلمين . (المعرب)

فالأشراف حسب درجاتهم . وأجريت تلك الحفلة فى ١٣ رجب سنة ٦٥٩ هـ (١٢ آيار سنة ١٢٦١م) فى حفل حاشد ونقش اسم الخليفة الجديد على العملة ، ودعى له فى الخطبة ، وسار فى اليوم التالى بالموكب المعتاد يوم الجمعة (١٧ رجب) إلى الجامع لابسا البردة ثم ألقى الخطبة التقليدية . وبعد أن تمت له المبايعة الرسمية بالخلافة ، قلد بيبرس منصب السلطان ، وأعطاه العقد والخلعة اللازمتين.

١٣ رجب ٦٥٩هـ
آيار ١٢٦١ م
٥٨٩–٦٦١هـ

وهكذا ازدهرت الخلافة العباسية فى القاهرة برعاية ذلك السلطان المجاهد وظلت منذ ذلك الحين منصباً دينياً محضاً حتى دخول السلطان سليم الفاتح العثمانى المشهور ، فتنازل له آخر الخلفاء عن منصب الخلافة ، وقد اتخذ ملوك آل عثمان منذ ذلك العهد سمة الخلافة ، واعترف لهم العالم الإسلامى السنى بمنصبهم الشرعى .

الفصل الرابع والعشرون

نظرة عامة

الخلافة — البيعة — صفاتها المقدسة — الحكومة — دولاب الدولة — السياسة — الإدارة — الأمراء والعمال — الوزير — الدوائر — محاكم العدل — الزراعة — الصناعات — إيرادات الدولة — الجيش — الشؤون العسكرية — البحرية

رأينا فيما سبق كيف استأثر عرب الشام — فيما عدا خلافة عمر الثانى — بجميع المراكز الملحوظة فى السيادة منذ تولية الحجاج ، وكيف أنهم أقصوا جميع العناصر الأخرى عن مناصب الدولة . ولقد كانت سياسة الأثرة هذه المستندة إلى القوة المادية تتكلل دائما بالفوز والنجاح ، طالما كان أهل تلكم الأمصار يجهلون القوى الكامنة فى أنفسهم ، غير أن الثورة التى استخلصت السلطة من الأمويين ونقلتها إلى منافسيهم العباسيين قضت على هذا الاستئثار . ولا عجب إذا قلنا إن الموالى — باعتبارهم رعايا إمبراطورية متمدنة عظيمة الشأن — احتلوا إثر قيام الدولة العباسية المراكز اللائقة بهم كمواطنين فى العالم الإسلامى ، كما فتحت أمامهم أبواب المناصب العليا على مصراعيها حتى غدوا على قدم المساواة مع العرب الأصليين .

وفى الحق قلما نشاهد فى العصور القديمة أو الحديثة ، ثورة أشد خطراً من الثورة العباسية ، تلك الثورة التى أثرت تأثيراً بيناً فى روحية الشعب ، واعترفت بالمساواة والإخاء بين جميع الطبقات ؛ و إلى هذا المبدأ الديمقراطى تعزى على الأكثر حيوية الخلافة العباسية ودوام سيادتها الروحية ، حتى بعد أن فقدت الخلافة نفوذها الزمنى . ومما لاشك فيه أن هذا المبدأ الأساسى — مبدأ المساواة بين

الخلافة العباسية

رعايا الإمبراطورية — قد ساعد الخلفاء العباسيين الأولين على تأسيس دولة عاشت طوال خمسة قرون دون أن ينازعها أى منازع ، ولم تسقط صريعة إلا أمام الغزاة الفاتحين الذين زحفوا عليها من الخارج .

لم يكن الخليفة حاكما زمنيا فحسب ، بل كان كذلك الزعيم الروحى لدولة وعقيدة ، والرئيس الفعلى لحكومة دينية ؛ وما الاحترام وضروب الشرف والتوقير التى كانت تقترن باسم بعض الخلفاء — حتى بعد أن غدوا أداة صماء فى أيدى وزرائهم — وما الهالة القدسية التى كانت تحف بشخصياتهم ، إلا دليل ناهض على عبقرية المنصور مؤسس هذا النظام الذى جعل من الخليفة إماما روحيا ، وزعيما دينيا ، ومصدراً لجميع السلطات .

البيعة بولاية العهد

كان العباسيون ، شأنهم شأن الأمويين ، يعهدون بالخلافة لمن بعدهم ، ويأخذون لهم البيعة فى حياتهم من أشراف الإمبراطورية ، ومن جملتهم القضاة وقواد الجيش ، وصغار الضباط والموظفين ، ويسمى هذا الترشيح بالبيعة ؛ وكانت مراسيمها أن يجعل المبايع يده فى يد الأمير ويعاهده على الطاعة والولاء ، وكان العمال وكبار الموظفين يأخذون البيعة على من يأتى بعدهم ، ولكى تصطبغ التولية بالصبغة الشرعية كانت تجدد عند مبايعة ولى العهد بالخلافة . ويصف لنا المؤرخ[1] الأندلسى المشهور إحدى هذه الحفلات فى قرطبة وصفاً شيقاً يدلنا على أنها فى معظم تفاصيلها كانت صورة طبق الأصل لمراسيم بلاط الخلافة فى بغداد فيقول : « كان الخليفة يجلس على سرير الملك فى قبة التاج المذهبة ، وكانت تمتلئ جميع الأبهاء على رحبها بكبار رجال الدولة الذين يحق لهم حضور مجالس الاحتفال ، وكانت البيعة تبدأ أولا بالأمراء الذين يتقدمون إلى العرش ، ويقرأون صحيفة البيعة « ويلتزمون الأيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها » ، ويبايع بعدهم الوزراء وأولادهم ، ثم أصحاب الشرطة وطبقة أهل الخدمة ؛ وبعد أن يتم ذلك يصطف

(١) المقرى .

إخوة الخليفة والوزراء والأشراف فى شكل دائرة على جانبى العرش ، ثم يقف الحاجب بالباب ويأخذ البيعة من الناس أثناء دخولهم » .

الخلافة

كانت مبايعة الخليفة تكسب انتخابه صبغة قدسية ، وكانت تلقى على شخصه هالة روحانية لا نستطيع — ونحن فى العصر الحاضر تحيط بنا ظروف تختلف عن الظروف الغابرة — إدراك مداها إدراكا جليا ، وكان مما يزيد فى روعة تلك القدسية الصلاة التى كانت تقام فى جوامع الحرمين بالدعاء للخليفة الجديد ؛ إقراراً بالقول المأثور « صوت الشعب من صوت الله » (Vox Populi Vox Dei) ، وقد كانت تلك الصبغة الروحانية التى تقترن بالبيعة مبنية على الفكرة القائلة : « بأن جميع القوانين والأحكام التى يسوس بها الخليفة أمته هى من صوت الله ، وتعرف « بإجماع الأمة » ، فإذا ما انتخب الشعب — بالإجماع أو شبه الإجماع — زعيما روحياً ، ورئيساً للمسلمين اقترن نفوذه الروحى بالرضا السماوى ، وأصبح أمير المؤمنين مصدر الحكومة الشرعية ، وله وحده حق تعيين الولاة وتفويضهم النظر فى الأحكام أو الإمامة فى الصلاة . وكان من نتيجة تغلغل هذا النفوذ الدينى فى قلوب الناس أن كان السلاطين والملوك أمثال محمود ملك غزنة يلتمسون من الخليفة — حتى بعد تدهور شأن الخلافة العباسية وزوال مجدها الزمنى — أن يجهزهم بالعقد التقليدى ، ذلك أن مصادقة الخليفة كانت تصبغ سلطة هؤلاء الملوك بالصبغة الشرعية ، وتسم أى ثائر ضدهم بميسم الكفر والزيغ ، أما هاته المصادقة فكانت عبارة عن عقد وتشريف يتألف غالباً من عمامة منضدة بالجواهر وسيوف وأعلام .

الإدارة الحكومية

أما النظم الإدارية التى استحدثت فى عهد الخلافة العباسية وأخذت بها الدول الأخرى التى انفصلت عنها فيعزى الفضل فى إنشائها إلى عبقرية المنصور ؛ ويمكننا أن نقول إن الحكومة فى عهد الدولة الأموية كانت حكومة استبدادية (autoucracy) يخفف من شدتها حرية الرأى المأثورة عن عرب الصحراء ،

أو العلماء ، أو الأتقياء الصالحين الذين كانوا بتلاوة آية من آيات الذكر الحكيم أو الاستشهاد ببيت مشهور يلينون من شكيمة الخليفة ، ويخففون من حدته .

وقد ظلت الدولة العباسية فى أثناء حكم الخلفاء الخمسة الأولين حكومة استبدادية بالرغم من المجلس الاستشارى غير الرسمى ، الذى كان يتألف من الوزراء وأفراد الأسرة المالكة البارزين ؛ وفى الحق كان الخليفة هو مصدر جميع السلطات ، وعنه تصدر جميع الأوامر الخاصة بشؤون الدولة ؛ وكان الوزير فى الواقع هو نائب الخليفة و يستعمل السلطة المطلقة باسمه ، ويهيمن على جميع الرسائل الرسمية ، كما كان يشرف على إيرادات الدولة ومصروفاتها ، وعلى تعيين الموظفين وعزلهم ؛ وصفوة القول كان بمثابة المندوب المفوض الذى يجمع فى شخصه رئاسة الإدارتين العسكرية والمدنية ، كما كان إلى جانب ذلك يؤدى أعماله الاعتيادية من مساعدة الخليفة فى تصريف الأمور إلى إسداء المشورة إليه .

تلكم هى واجبات الوزراء فى أوائل العهد العباسى ، ولا مشاحة أنهم كانوا يستمدون السلطة من الخلفاء ، ويدعون بأنهم إنما ينفذون أحكامهم . ولكن لم يمض طويل وقت حتى غدت تلك الواجبات من الخطورة بحيث لم يستطع شخص واحد القيام بها بمفرده ، فأصبح من الضرورى الاستعانة ببضع موظفين آخرين يكل إليهم إدارة الدوائر العديدة على أن يكونوا ملحقين بشخصه . وفى عهد المأمون تطورت الحكومة الأتوقراطية إلى حكومة دستورية ، وأنشئ لأول مرة مجلس شورى نظامى للدولة يمثل جميع الطوائف التى تعترف بسلطان الخليفة وأصبح لنواب الأمة مطلق الحرية فى إبداء ما يعن لهم من الآراء ، ويلوح أنه لم يحل قط بينهم و بين حرية التعبير والمناقشات .

الحكومة الدستورية فى عهد المأمون

كذلك استحالت تلك المجالس فى العهود الأخيرة — حينما فقد الخلفاء السيادة الزمنية واعتمدوا فى بسط نفوذهم على مركزهم الروحى — إلى مجمع دينى ولكن لم يلبث آل بويه والسامانيون والسلجوقيون والأيوبيون أن أنشأوا برغم

ذلك مجالس ينتظم فى عقدها نواب يمثلون الأمة بعض التمثيل . ويحدثنا المؤرخون أن مجلس صلاح الدين الأيوبى كان ينعقد بانتظام سواء برئاسة السلطان نفسه أو برئاسة وزيره « القاضى الفاضل » للنظر فى شؤون الدولة ، وكان أعضاء ذلك المجلس يصحبون السلطان حتى فى أثناء الحروب والغزوات .

وفيما عدا «الأمين» السيئ الحظ ، كان الخلفاء الثمانية الأول من خلفاء الدولة العباسية يمتازون بكفاية منقطعة النظير ، ويسيطرون تمام التسيطر على الولاة فى أنحاء الإمبراطورية ، حتى أصبح من السياسة المتبعة وقتئذ عدم إبقاء أى والٍ أو حاكم فى منصبه ردحاً من الزمن ، كما كان للخلفاء مكاتبون سريون فى الحواضر العديدة لموافاتهم بتفاصيل الحوادث التى كانت تقع يومياً فى مناطقهم .

كذلك كان يقوم صاحب البريد[1] فى بعض الأحيان بمهمة جمع الأخبار ؛ كما كان يوجد بجانب هؤلاء الوكلاء والمندوبين الرسميين هيئة كبيرة من المخبرين أو (الشرطة السرية) فى جميع أنحاء الإمبراطورية لمراقبة شؤون الناس مراقبة دقيقة ؛ وقد قيل إن أعمالهم كانت تمتد أحياناً إلى الممالك الأجنبية ، كما حدث فى أيام المهدى والرشيد والمأمون والمعتصم الذين أوفدوا المخبرين السريين إلى بلاد الروم وغيرها من الممالك لأجل موافاتهم بكل حركة من حركات البراطرة والملوك ؛ وكانوا يستخدمون هؤلاء المخبرين من كلا الجنسين فقاموا جميعاً بأداء واجباتهم — على ما يلوح — أحسن أداء . ولكن يظهر أن هذه الوظائف قد ألغيت فى عهد استبداد الحرس التركى وانتشار نفوذ آل بويه وقت أن كان الخلفاء آداة صماء فى قبضة القواد العسكريين ؛ ولكن سرعان ما أعيد النظام القديم حينما استردوا بعض نفوذهم الزمنى . ويقال إن الخليفة « الناصر لدين الله » كان

---

(١) كان يسمى أيضاً بصاحب الأخبار .

مطلعاً على كل شاردة وواردة تقع فى بلاده والبلاد المجاورة لها ، بحيث اعتقد الناس أن له اتصالا بالجن[١] .

كان الخليفة — يتذرع كما هو الشأن فى الحكومات العصرية — بأشخاص لاصبغة رسمية لهم لاستخدامهم فى تلك المهام ، وكان ينتخبهم من جميع الطبقات ، وخاصة من طبقة التجار والباعة المتجولين الذين كانوا يوافونه بالتقارير الوافية عما يقع من الحوادث مهما قل شأنها . ولما استقل العمال بإماراتهم واقتصرت الخلافة على السيادة الدينية فحسب تحولت وظائف هؤلاء المخبرين إلى مندوبين ينوبون عن الخليفة فى بلاط نيسابور ومرو والموصل ودمشق ، شأنهم فى ذلك شأن سفراء « البابا » فى أواخر العصور الوسطى فى أوربا . ومما هو جدير بالذكر أن هؤلاء الوكلاء كانوا يصحبون الملوك فى الحروب ، كما أقاموا فعلا فى معسكرات ألب أرسلان ، والملكشاه ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين ، وغدوا يؤدون أعمالهم بنشاط عجيب ، حتى أصبحوا يتدخلون بعض الأحيان فى تدبير شؤون الإمارات كما حدث فعلا فى أواخر عهد الدولة الأيوبية ، حيث حسم أحدهم الخلاف الذى استعر أواره بين الأمراء المتنازعين[٢] .

كذلك كان الملوك يعينون فى بلاط الخليفة مندوبين عنهم ، ويطلقون عليهم اسم « شاهناس » لمراقبة حركات خصومهم ، إذ كان التنافس على بسط النفوذ على البلاط الخلافى — مصدر جميع السلطات الشرعية — قد اشتد فى بغداد كما حصل فى روما البابوية ، كذلك كانوا يعينون سفراء عنهم فى واسط والبصرة وتكريت وغيرها من الحواضر المهمة .

السياسة

لقد كان من أهداف الدولة العباسية فى أوائل عهدها توطيد دعائم

---

(١) الذهبي .

(٢) يقول لنا أبو الفداء : إن مندوب الخليفة حسم ذات مرة الخلاف الذى نشب بين أبناء الملك المعظم .

الإمبراطورية ، وتحقيقاً لهذه الغاية أقلع الخلفاء عن الغزو والقيام بفتوحات جديدة ولهذا لم يبعث الخلفاء بالجيوش إلى مصر العليا والديلم وكابول إلا لقمع فتن القبائل المتوحشة ، التى كانت تعيث فسادا فى تلك الأصقاع . أما الحروب التى اشتعل أوارها مع الروم فلم يكن مبعثها إلا نكث الأخيرة بالعهود .

الإدارة

وكانت الإدارة تسير على أسس منظمة تضارع أنظمة الممالك الحديثة ، ويمكننا أن نقول إنها كانت من بعض الوجوه أرقى مما عليه الآن بعض الدول العصرية ، إذ كانت أبواب جميع المناصب مفتوحة أمام الجميع على السواء المسلمين منهم واليهود والمسيحيين والهنود ، وليس أدل على الفرق بين عهدى الدولة العباسية والدولة الأموية من كثرة تشكيلات الدولة العباسية ، تلك التشكيلات التى أخذت بها الدول الإسلامية المتعاقبة وسارت على نمطها .

الأمراء والعمال

ولم تختلف إدارة الولايات فى العهد العباسى عنها فى عهد الدولة الأموية ، إذ كان يقوم بإدارة تلك الولايات أمراء[1] يعينهم الخلفاء ، غير أن سلطتهم كانت محدودة ، فلم يكن المنصور يحتفظ بخدمات أى أمير فى ولاية واحدة لمدة طويلة من الزمن ، وإذا ما عزل الخليفة أحد الولاة كان أول مايقوم به هو التحقيق معه ، ومطالبته بتقديم حساب دقيق عن الأموال التى جمعها ، ولا تنسى أن أقل

---

(١) كانت الإمارة على أنواع ثلاث :

أولا — إمارة الاستكفاء ، أو إمارة التفويض ، وهى التى كان يسندها الخليفة لمن يتوسم فيه الكفاءة فيفوض إليه الإمارة ويجعلها عامة فى كل أموره . ويشتمل نظره فيها على سبعة أمور :

١ — تدبير الجيش . ٢ — النظر فى الأحكام وتقليد القضاة . ٣ — جباية الخراج . ٤ — حماية الدين والدفاع عن الحريم . ٥ — إقامة حدود الشرع . ٦ — الإمامة الصلاة . ٧ — تسيير الحج .

ثانياً — إمارة الاستيلاء ، وتسمى كذلك لأن الخليفة يضطر إلى توليته بعد أن يكون الأمير استولى على الولاية بالقوة .

ثالثاً — الإمارة الخاصة يكون فيها الأمير مقصوراً على تدبير الجيش وسياسة الرعية ، وليس له أن يتعرض للقضاء أو لجباية الخراج أو الصدقات . (المعرب)

ارتياب فى أمانته كان يؤدى به حتما إلى مصادرة أملاكه ، ووضعه تحت طائلة العقاب الصارم .

وفى عهد المنصور كان الأمراء والعمال محدودى السلطة ، غير أنهم فى عهد أخلافه انفسح لهم المجال للعمل والابتكار ، وقد كانوا فى ذلك الحين هم ورؤساء الإدارة وقواد الجيش معرضين دائما للعزل وفقاً لأهواء الخليفة ؛ أما السلطة القضائية فكانت تعهد إلى قاضى الولاية الأكبر ، الذى كان يساعده قضاة فى شتى المدن . ويحدثنا المؤرخون أن بعض الأمراء كانوا قد نالوا امتيازات خاصة على أثر خدمات قاموا بها للدولة أو لولائهم الخاص للخليفة ؛ ومثال ذلك أن أفريقية الغربية فيما وراء صحراء ليبيا مع جزيرة صقلية كانت فى عهد السفاح تؤلف حكومة واحدة شبه مستقلة يرأسها عبد الرحمن بن حبيب ، بينما كانت مصر يحكمها أبو العيون المشهور بإخلاصه للخليفة ؛ أما بقية أجزاء الإمبراطورية فكانت تتألف من الجزيرة وأذربيجان وأرمينيا والمدينة ومكة واليمامة واليمن والكوفة وما جاورها (السواد) والبصرة ، والبحرين ، وعمان ، وعراق العجم ، وخراسان وبلاد ماوراء النهر ، والسند ، والبنجاب ، والأهواز ، وجنوب فارس ، وإمارة الموصل ، والشام ؛ وقد فصل السفاح فيما بعد فلسطين عن الشام ، واستعمل عليها أميراً مستقلا . غير أن الرشيد عدّل التقسيمات الإدارية ، وفصل تخوم الشام وكليكيا عن إمارة الجزيرة وقنسرين وجعلها إمارة واحدة وأطلق عليها اسم « العواصم » ؛ وعند ما كان الخليفة يستعمل أميراً من أمراء البيت المالك على إحدى تلك الولايات كان يعين معه ضابطاً كبيراً يكون له بمثابة المستشار ، وينوب عنه فى غيابه . وكان أمير العواصم — الذى اتخذ طرسوس حاضرة له — مكلفاً بحراسة التخوم والممرات الجبلية . ولما كان الرشيد — كجده — مولعاً بتشييد المدن ، فقد أسس طرسوس وأدنه ومرعش وعدة مدن أخرى ، وأقام فيها الحاميات القوية ، كذلك بنى المنصور مدينة المصيصة .

الإمارات

الوزير

وبالرغم من أن منصب الوزير[1] كان من جملة مناصب دولة الفرس ومعروفا عند العرب ، إلا أنه لم يسند رسمياً لأحد قبل العهد العباسى ، كذلك لم يفقد أهميته أو يستبدل عنه بمنصب أمير الأمراء إلا بعد اضمحلال نفوذ الخلافة وكان « بنو بويه » حينما استفحل أمرهم يسندون هذا المنصب إلى سكرتيرهم ، والمعروف أنهم لم يتركوا للخليفة إلا كاتبا باسم رئيس الرؤساء ، غير أن الخلفاء عندما استردوا نفوذهم الزمنى فى أيام السلاجقة أحيوا هذا المنصب من جديد .

أستاذ الدار

كان « أستاذ الدار » أو « ناظر القصر » شخصية لها خطرها وأهميتها ، وفى عهد الخلفاء الضعفاء استأثر أمير الأمراء بهذا المنصب علاوة على وظيفته الأصلية كذلك لم يتردد أمراء آل بويه من تلقيب أنفسهم بهذا اللقب ، ولكن عندما فقد الخلفاء نفوذهم تماماً انحطت وظيفة « أستاذ الدار » إلى ما يدل عليه مدلولها ؛ ويقال إن الخليفة « المستنجد » عهد بهذا المنصب بعد انحطاط شأنه إلى عبد الله ابن المظفر ومن بعده إلى ابنه عماد الدين حفيد رئيس الرؤساء .

السلطان

وكان الواثق أول من لقب قائده « أشناص » بلقب السلطان ، ووضع على مفرقه تاجا مرصعاً ، وقلده قلادة وسوارين ؛ ويلوح أن هذا المنصب بقى مهملا حتى تأسست دولة آل بويه فأخذ الخلفاء يقلدونهم ويحتفلون بتوليتهم احتفالا رائعاً حيث كان يلبس الأمير حلة حريرية مزركشة ، ثم يتوجه الخليفة بنفسه تاجا مرصعاً وسوارين ، ويقلده سيفين ، ودلالة على حصر السلطة العسكرية والمدنية فى شخصه كان يعقد له لوائين ، أحدهما مزركش بالفضة على مثال ما يمنح للأشراف ، والآخر بالذهب على شاكلة ما يعطى لأولياء العهد ، وكانت وثيقة التولية تقرأ فى حشد حافل ، ومن ثم يلثم السلطان يد الخليفة وينصرف .

---

(١) قال ابن خلكان : « لم يكن قبل أبى سلمة حفص بن سليمان الهمدانى وزير « أبى العباس السفاح » من يعرف بهذا النعت لا فى دولة بنى أمية ولا فى غيرها » .
(المعرب)

لم يكن لقب السلطان مع ذلك مقصوراً على أمراء آل بويه فحسب ، بل كان الخليفة يسند هذا اللقب أيضاً إلى الغزاة الفاتحين أمثال محمود غزنى وطوغرل وألب أرسلان ، والملكشاه ، وصلاح الدين ومن إليهم ، وعندما كان الخليفة يمنح هذا اللقب لأحد الأمراء كان يغدو وراثياً على شرط أن يقدم إليه الأمير عند التولية طلباً رسمياً ، وكان الخليفة بطبيعة الحال يوافق على التعيين ويخلع عليه التشريف .

لقب الملك

أنشأ الخليفة لقباً جديداً أطلق عليه اسم « الملك » وكان يمنحه أحيانا مع لقب السلطان ، ويمنحه أحيانا أخرى من غيره ، ولكنه كان إذا ما أنعم به على أحد قرنه عادة بعبارة تتناسب وصفات الملك البارزة ؛ وأول من أنعم عليه بهذا اللقب هو « نور الدين محمود زنكى » الذى لقب « بالملك العادل » .

الوزارة

يقسم علماء التشريع الإسلامى والاقتصاد السياسى الوزارة فى العهد العباسى إلى وزارتين :

(١) وزارة تفويض . (٢) ووزارة تنفيذ .

فوزارة التفويض هى أن يستوزر الخليفة شخصاً يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضائها على اجتهاده[١] ، وله أن يقوم بأى تدبير على أن يعلم الخليفة به فيما بعد ، ولم يكن قد وجد هذا المنصب فى عهد السفاح ولا المنصور ولا المهدى .

أما وزراء التفويض فيعرف منهم فى زمن الرشيد « جعفر البرمكى » ، وفى زمن المأمون « الفضل بن سهل » ، ولم يكن يتمتع وزير التنفيذ بمثل تلك السلطة الواسعة التى كان يتمتع بها وزير التفويض ، إذ لم يكن يصدر شيئاً عن اجتهاده إنما كان عمله مقصوراً على تنفيذ أوامر الخليفة ، كما كان من واجباته أن يلم إلماما

(١) يتولى وزير التفويض كل شيء يمضيه عن الخليفة إلا ثلاثة أشياء وهى :
أولا — ولاية العهد . ثانياً — ليس للوزير أن يعزل من قلده الخليفة .
ثالثاً — للخليفة أن يستعفى الأمة من الإمامة وليس ذلك للوزير .

صحيحاً بشؤون الإدارة والضرائب وأحوال الولايات واحتياجاتها ومطاليبها ، وكان الذميون يسمون إلى هذه المرتبة ، غير أن المتدينين لم يكونوا ينظرون إلى هذا التعيين بعين الرضا[١] .

كانت مراسيم التعيين بالغة حد الروعة والبهاء ، فكان من يستوزره الخليفة يأتى إلى القصر بعد أن يصله الكتاب الرسمى الذى كان يحمله إليه أميران من أمراء الدولة ، وعند وصوله إلى باب الحجرة كان يقدمه الحاجب إلى الخليفة وبعد أن يؤدى الطاعة كان يتحادث معه قليلا ، ثم يذهب إلى حجرة أخرى حيث يلبس التشريف ، ثم يعود فيقبل يد الخليفة وينصرف إلى الديوان ممتطياً فرساً مطهما ، وكان يسير بين يديه كبار الموظفين والجيش والأمراء وموظفو البلاط وخدام الخليفة والحجاب ، وعند مايصل إلى ديوانه كان يستقبل استقبالا حافلا ويقرأ عليه مرسوم التعيين[٢] .

ديوان العزيز

كان مجلس الخليفة يسمى « بديوان العزيز » كما كانت الحكومة العثمانية تسمى بالباب العالى ، وكان يرأس المجلس الوزير الأكبر ، ولهذا سمى الوزير « مجلس العزيز[٣] » . ويمكننا أن نقول إن إدارة الدولة فى العهد العباسى بتقسيماتها الفعالة وإشرافها الدقيق لم تكن لتقل شأنا عن أحسن النظم العصرية وفيما يلى أسماء الدواوين الرئيسية للدولة :

(١) لم يكن هذا الشعور معروفا عند العرب إذ كان لأسد الدولة من آل بويه وزير مسيحى اسمه (نصر بن هرون) وكان يتمتع بنفوذ واسع ، كما أن الفاطميين فى مصر استوزروا بعض اليهود والمسيحيين .

(٢) من جلة الوزراء المشهورين أبو أيوب المروانى ، وربيع بن يونس وزير المنصور وجعفر وزير الرشيد ، والفضل والحسن وزيرا المأمون ، وفخر الدولة بن طاهر وزير المقتدى ، والقائم بن هبيرة وزير المستنجد ، والعميد وزير طغرلبك ، ونظام الملك وزير ألب أرسلان وملكشاه ، والقاضى الفاضل وزير صلاح الدين .

(٣) كان رؤساء الدواوين المختلفة يسمون بالوزراء ولكنهم كانوا أقل درجة من الوزير الأكبر الذى كان فعلا رئيس الإدارة ، وكان يعرف رئيس الوزراء بالوزير الأعظم أو لصدر الأعظم .

دواوين الدولة

ديوان الخراج — ديوان الضياع السلطانية (مكتب الخاصة الملكية) — ديوان الزمام (قلم مراقبة الحسابات) ديوان الجند — ديوان الموالى والغلمان — ديوان البريد — ديوان زمام النفقات — ديوان الرسائل — ديوان التوقيع — ديوان النظر فى المظالم — ديوان الأحداث والشرطة — ديوان العطاء أو مايشبه دائرة حسابات الجيش — وكان الإشراف على مصالح الذميين موكلا بديوان خاص يرأسه موظف يدعى كاتب الجهبذة[1] . وعلاوة على هذه الدواوين الرئيسية كان هناك بضع دوائر صغرى سواء فى الإدارة أو السياسة أو القضاء ، ومن جملتها ديوان العطايا ويسمى « بديوان المقاتيات » وآخر يشرف على أعمال الرى والجداول ويسمى « بديوان الأقرحة » ؛ وكانت فى مجموعها تنهض دليلا على أن الحكومة فى عهد الخلفاء أقل استبدادا ، وأقل تمسكا بالرسميات من الدولة البيزنطية ، كذلك كانت تتبع سياسة عدم التدخل فى شؤون الطوائف المختلفة ، ولعل الحكومة كانت تغالى أحيانا فى اتباع سياسة الحياد حتى ألحقت الضرر بمصالحها ، فقد كانت كل قرية وكل مدينة تقوم بشؤونها الخاصة إلى درجة كبيرة وكانت الحكومة العليا لا تتدخل إلا إذا نشبت اضطرابات أو رفض الأهلون دفع الخراج ، ومع ذلك كانت تراقب كافة الأمور المختصة بالزراعة مراقبة دقيقة وتشرف على تشييد الجداول وترميمها ، وعلى جميع أعمال الرى التى تتوقف عليها الحاصلات الزراعية ثم الخراج ؛ وقد كتب أبو يوسف قاضى قضاة الإمبراطورية فى عهد الرشيد كتابا عنونه إلى الخليفة يبين فيه أن من واجب الحكومة تشييد الجداول الجديدة على نفقتها الخاصة لتحسين الزراعة وتنظيف الجداول الحالية وترميمها ، والاشتراك فى التعاون مع الشعب فى تحمل نفقات الصيانة وتوزيع المياه ؛ ثم يوصى على تشكيل شرطة نهرية ذات كفاية ممتازة ، والعمل على إزالة العقبات التى تعرقل الملاحة فى الأنهر الكبيرة وبالأخص فى دجلة والفرات .

---

(١) كان يسمى فى الدولة الأسبانية بكاتب الزمام .

ديوان الزمام

كان من أهم التدابير الفعالة لتمشية دولاب الدولة ديوان الزمام ، وقد أنشأه الخليفة المهدى فى المدن الكبرى ، وكان يشبه ديوان الخراج فى عهد الدولة الأموية باعتباره أكثر دوائر الدولة خطورة ؛ ومن مهامه جمع الخراج فى العراق أغنى ولايات الإمبراطورية ، ومسك حساب الضرائب فى الولايات الأخرى ، وجمع الضرائب عينا .

ديوان الرسائل

وكان ثمة دائرة أخرى تسمى « بديوان الرسائل » وكان رئيسها — الذى كان يعتبر من أجل كتاب السر شأنا — يضطلع بتحرير المراسيم ووثائق التولية والعقود والرسائل الرسمية والسياسية ، وكان بعد أن يرفعها إلى الخليفة وتقترن بموافقته يختمها بالشمع الأحمر ، ثم يوشحها بالتوقيع الخلافى ؛ كذلك كان يتولى أيضاً تصحيح وختم الكتب الرسمية بنفسه ، كما كان يحضر المجالس العامة التى كان يرأسها الخليفة لسماع المظالم والنظر فى شكاوى الناس ، ويقوم بتسجيل ما يعن للخليفة من الملاحظات على الطلبات والالتماسات ، وكان غالبا ما يسلم إلى صاحب الشكوى نسخة من أوامر الخليفة على أن يحتفظ هو بالأصل فى سجلات الدولة .

كذلك كانت طبيعة العمل وأسلوب التحرير يتطلبان اختيار كاتب السر وسائر الكتاب من أهل المعارضة والبلاغة ومن أرقى الطبقات الاجتماعية . وكان يلى ذلك المنصب ديوان التوقيع وهو أشبه « بمكتب الختم » فى عهد الدولة الأموية ، وكان يتولى رئيسه تحرير الأجوبة المناسبة وتسجيلها وتذييلها بالختم الملكى ، كما كان يحليها بشعار الخليفة أو بآية من آيات الذكر الحكيم .

ديوان البريد

وكان يعين فى حواضر الولايات صاحب بريد مهمته الإشراف على المؤسسات البريدية ، ولم يكن يقتصر عمله على مراقبة توزيع المكاتبات الرسمية فحسب ، بل كان يتعداها إلى موافاة الخليفة بكافة الأخبار والحوادث التى يمده بها أعوانه المنتشرون فى أنحاء الأقاليم ، وكان يشغل فى الواقع منصب وكيل الحكومة

المركزية ، ويقوم بجمع التقارير السرية عن أحوال الولاية وسير الإدارة وحالة الفلاحين ومزارعهم ، وتصرف السلطات المحلية ، ودار ضرب النقود ومبلغ ما يسك فيها من الذهب والفضة ، كذلك كان يراقب دفع رواتب الجنود ، ومما لا شك فيه أن الكتب الخصوصية كانت تنقل مع الرسائل الرسمية ، وتسلم إلى أصحابها .

لقد كان الغالب فى العرب اتخاذ الجمال وسيلة لنقل بريدهم ، فى حين كان الفرس يستخدمون الخيل والبغال لهذا الغرض . ويقال إن عدد مراحل البريد فى مستهل الدولة العباسية بلغ ٩٣٠ مرحلة ، ولا ريب فى أن عدد ما كان يستعمل من الخيل والجمال فى كل مرحلة كان عظيما ؛ إذ كثيراً ما كان يستخدم المسافرون تلك الدواب التماساً للسرعة ، كما كان يستخدم الأمراء وبطاناتهم وسائل البريد فى أسفارهم ، وحتى الجنود كانوا ينقلون من بلد إلى آخر على هذا النحو ، وقد كانت تعلق فى دواب البريد علامات فارقة[1] تميزها عن غيرها ؛ وبلغت نفقاتها وأثمانها ورواتب رجالها فى العراق وحده ١٥٤ ألف دينار أو ما يعادل الآن مائة ألف جنيه ، على حين كانت تبلغ فى عهد هشام الأموى أربعة ملايين درهما . وكان على صاحب البريد أن يرفع إلى الخليفة خلاصة التقارير التى كانت ترده من الجهات وسائر الأنحاء ، وبجانب ذلك كان يبت فى تعيين موظفى البريد فى الحواضر والمدن ، ويشرف عليهم وعلى دفع رواتبهم . وكانت تحفظ فى دوائر الحكومة معلومات بريدية دقيقة تشتمل على أسماء المحطات وبعد المسافات بين بعضها والبعض الآخر . ويقال إن استخدام الحمام الزاجل كان معروفاً عند اليونان والرومان[2] ،

---

(١) كانوا يعلقون فى أعناقهم جلاجل أو سلاسل إذا تحركت سمعت جلبتها وتعرف عندئذ بقعقعة البريد . (المعرب)

(٢) يقال إن « تورستينس » استخدم حمامة لنقل خبر فوزه فى الألعاب الأولمبية =

ولكنه استخدم رسميا لأول مرة فى عهد المعتصم عند ما طيرت إليه أخبار أسر بابك الخرمى[1] ، ثم لم يلبث أن انتشر استعماله فى الأمور البريدية العادية ؛ وكان نور الدين محمود يستخدمه للأغراض العسكرية ، كما أنشأ له فى كل محطة حظيرة خاصة .

ديوان عرض الجند

وفى ذلك العهد أنشئ ديوان يسمى « بديوان العرض » ، وكان متصلا أو بالأحرى ملحقاً بديوان الحرب . أما دار الأسلحة فكانت مسندة إلى ضابط خاص يسمى « بالمشرف على الصناعات بالمخزن » ، وكان كل ديوان يعهد بإدارته إلى مدير يسمى بالرئيس أو الصدر ، أما التفتيش فكان يقوم به مفتشون يسمون « بالمشرفين » أو « النظار » . وكان مفتش الرى والزراعة يسمى « بمشرف الأقرحة » ، ومفتش الضرائب التى تدفع عيناً « بمشرف الإقامات المخزنية » ؛ ومفتش مخازن الحكومة « بالمشرف بالمخزن » ، ومدير الأعطية « بناظر ديوان المقاتيات » ؛ أما نائب رئيس الحسابات فكان يسمى « بالنائب عن ديوان الزمام » . وبجانب تلك المناصب كان ثمة منصب يسمى « بمشرف المملكات » ، ويضطلع من يتولاه بالتفتيش من حين لآخر على دواوين الدولة ورفع التقارير الوافية عنها إلى الخليفة . وكان ترتيب المناصب من حيث الأهمية والخطورة على النحو التالى : الوزير فالحاجب ، ثم رؤساء الدواوين ، فقاضى القضاة ؛ ويليهم فى المرتبة رئيس الحرس ، ثم كتاب السر الخ . وكان الحاجب يقوم[2] بتقديم السفراء والأمراء والأعيان للمثول بين يدى الخليفة ، ولهذا كان يتمتع بنفوذ عظيم .

الشرطة

كان بكل مدينة شرطة خاصة برتب عسكرية خاضعة لرئيس يسمى « صاحب

= إلى والده ؛ ويقال أيضاً إن هريتوس وبروتس كانا يخابران بواسطة الحمام أثناء حصار « مودينا » .

(١) المسعودى .

(٢) أسند هذا المنصب فى عهد المقتدى إلى أبى غالب الأصباغى ، الملقب بتاج الرؤساء .

الشرطة » ، وهى تختلف — كما كان الشأن فى العصر الأموى — عن الشرطة المدنية فى الواجبات التى تقوم بها ، وتنقسم من حيث الاختصاص إلى فرق أو أقسام على حسب أحياء المدينة ، وكانت كل فرقة منها تقوم بحماية أرواح وأملاك سكان منطقة معينة ، وكانوا يعسون ليلا بين المنازل والشوارع برئاسة ضباطهم وتدفع لهم رواتب حسنة ، ومن هذا ترى أنهم كانوا يقومون بأعمالهم بكل أمانة وإخلاص ؛ وكان منصب رئيس شرطة بغداد يعادل مرتبة الحاكم أو الوالى ، وقد شغل المدعو طاهر هذه الوظيفة فى عهد المأمون حيناً من الزمن حتى استعمل على خراسان . وقد غدا هذا المنصب فى أواخر العهد العباسى يعتبر بمثابة ترشيح للوزارة .

الحسبة

كان الموظف الذى يشغل هذا المنصب يسمى « بالمحتسب » وهى وظيفة أنشأها المهدى ، وظلت من جملة التشكيلات التى أخذت بها الممالك الإسلامية فيما بعد ، وكان يضطلع المحتسب بمراقبة الأسواق ، وحمل الناس على المحافظة على الآداب ، كما كان يطوف مع توابعه فى الشوارع ليلا ونهاراً للتأكد من تنفيذ تعليمات الشرطة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومعاقبة من يحاول الغش فى المقاييس والمكاييل والموازين . ويذكر لنا أبو الحسن الماوردى[١] أن الحسبة درجة وسط بين القضاء والقوة التنفيذية[٢] .

نقابة التجار

وفى ذلك العهد أنشأ التجار لأول مرة نقابة مسؤولة عن مراقبة المعاملات التجارية ومنع التدليس ؛ وكان رئيسها ينتخب من بين الأعضاء الممتازين ويسمى « برئيس التجار » كما كان يسمى أعضاء النقابة « بالأمناء » . ولم يقتصر الأمر على إنشاء تلك النقابات فى المراكز التجارية فحسب ، بل أنشئت أيضاً فى معظم الحواضر مجالس تسمى « بديوان الشورى » ، وكان ينتخب أعضاؤها

---

(١) فى كتابه الأحكام السلطانية .

(٢) هى واسطة بين القاضى وصاحب النظر فى المظالم . (المعرب)

من أعيان المدينة ، ومن بعض الأشخاص الذين يرشحهم الوالى أو الخليفة تحت رياسة « الصدر » الذى ينتخبه الأعضاء ، ومن هنا يتضح كيف كانت الحكومة المركزية تبث فى الرعية روح الحكم الذاتى ، وتشجع المؤسسات البلدية .

وقد لاحظ مؤلف (Culture under caliphate) أن العالم الإسلامى لحسن الطالع لم يعرف البيروقراطية المطلقة ، إذ كانت الإدارة تسير على أبسط النظم ولم يكن هناك ما تفرضه السلطة العليا على الأهلين سوى دفع الضرائب ، ويمكننا أن نضيف إلى هذا القول بأنها كانت أيضاً تراقب أعمال الرى مراقبة دقيقة ، وليس أدل على عدم تدخل السلطة العليا فى شؤون المدن من النظام الذى كان متبعاً فى فارس ، حيث كانت تقوم كل مدينة بشؤونها الخاصة إلى درجة كبيرة ، وتجبى الضرائب كما تريد ، على أن تدفع الخراج المعين للدولة ؛ وقد كانت السلطة العليا فوق ذلك تستشير الأمراء عند ما تفكر فى فرض ضرائب جديدة أو حينما ينشب خلاف بين المدن المتجاورة .

وقد كانت هاته المدن تؤلف إمارات شبه مستقلة يكاد يشبه وضعها وضع المدن الحرة فى أوروبا ، فكانت مساحة بلخ وملحقاتها تزيد على العشرة فراسخ وتحوطها الأسوار لحمايتها من الاعتداء الخارجي ؛ وكانت تضارعها فى الفخامة صغد وسمرقند وهراة وبخارى وخوارزم[1] والرى وهمدان ، و بعض المدن الأخرى ، تلك المدن التى غدا أمر بلدياتها من الخطر بحيث أخذت تفرض نفوذها على ثقافة الشعب واتجاهاته ؛ أما الحكومة المركزية فقد كانت تكتفى بتدخلها بتعيين القاضى ، وكبار الموظفين والحكام الذين كانت تختارهم من أعيان الجهة ؛ وقد كان منصب الحاكم من الأهميه بحيث كانت تختار له أحيانا أميراً من أمراء البيت المالك .

سبق أن أتينا على ذكر تشييد الخانات ودور الاستراحة وحفر الآبار على

(١) مدينة الفيل .

طول الطريق الممتد من مكة إلى بغداد ، ومن بغداد إلى المدن المهمة الأخرى حيث كان المسافرون يبيتون ليلا ويتزودون بالماء . كما أنشأت الحكومة — لأجل حماية الحجاج من اعتداء البدو — منصباً هاماً يسمى « برئيس الحج » (أمير الحج) الذى كان يصطحب الحجاج إلى البلاد المقدسة فى قوة من الجيش . أما إدارة العشائر الرحالة والإشراف على شؤونها فكانت مسندة إلى موظف كبير يسمى « بأمير العرب » ، ويعتبر مسؤولا عن سلوكهم والنظر فى شؤونهم .

أمير الحج

إدارة القضاء

كانت إدارة القضاء على جانب عظيم من الخطورة ، وكانت كل القضايا المدنية لغير المسلمين توكل لقضاتهم ورؤساء دياناتهم ، أما المسلمون فكان يفصل بينهم القضاة ، وكان فى كل حاضرة قاض ينوب عنه قضاة فى النواحى التابعة للمدينة ، وكان قاضى بغداد الأكبر يسمى « بقاضى القضاة[1] » ، وهو فى الواقع رئيس قضاة الإمبراطورية ؛ وتسهيلا لأعمال القضاة أنشئت وظيفة أخرى تشبه ما يسمى فى العصر الحاضر « بكاتب العدل » .

وكانت القضايا الجنائية تعهد على ما يظهر إلى صاحب المظالم . أما المحكمة العليا ، فكانت تسمى « بديوان النظر فى المظالم » ، وكانت تعقد جلساتها برئاسة الخليفة نفسه — وينوب عنه فى غيابه أحد كبار الموظفين — وأعضاؤها قاضى القضاة والحاجب وكبار رؤساء الدواوين ، كما كان يدعى إليها بعض رجال الإفتاء . ومما لا ريب فيه أن هذه المجالس ملأت فراغا كبيراً فى عالم القضاء فضلا عن أنها ساعدت على تنفيذ قرارات المحكمة التى كانت تصدرها بحق العظماء ؛ ولم يكن أحد يجرؤ على عدم الخضوع إلى قراراتها إذ لم يكن أحد من القوة بحيث يستطيع التخلص من عقابها . وبدهى أنه لم تنشأ محكمة عليا منظمة إلا فى عهد نور الدين محمود ، الذى كان أول من أسس داراً للعدل وجمع فيها المحاكم كافة ، ونظم القضاء وأصلحه بعد أن كان قد تعطل فى زمن انحلال

---

(١) كان أبو يوسف أول من تقلد هذا المنصب .

الخلافة العباسية ، وكان من العادة المألوفة ألا تسمع الحاكم شهادة الشهود إلا إذا كانوا متصفين بحسن الخلق ، وطيب الأحدوثه ، ولكن كثيراً ما كان يساء استعمال ذلك الشرط الحكيم ، شأن غيره من الشروط الأخرى التي يبتدعها عقل الإنسان .

الزراعة

كانت الولاية المحصورة بين نهرى دجلة والفرات تعتبر أخصب بقاع الإمبراطورية على وجه الإطلاق ، ولما كانت تلك المنطقة تضطلع بإدارتها الحكومة العليا مباشرة فقد نالت حظا وافراً من العناية ، وتحسنت زراعتها وامتدت بها شبكة واسعة النطاق من الترع والمصارف بحيث « أصبح ما بين دجلة والفرات سواداً مشتبكا غير مميز[1] » ، ورشحت المستنقعات بنظام ترشيح دقيق ، وحفر المهدى جدولا فى منطقة واسط ، كما حفر أحد أعمام المنصور جدولا من الأنبار على الفرات إلى غربى بغداد ، وطفقت تمخر فى عبابه السفن الكبيرة ؛ وتفرع من جدول دجيل الذى يأخذ من المجرى الأصلى من تكريت عدة نهيرات لرى المناطق الواقعة فى شمالى بغداد ، ولم تحرم بقية المناطق الواقعة شرقى دجلة من مثل هذه العناية ، إذ أن كافة المسلمين يعتبرون ازدهار الزراعة وفلاحة البساتين من أول الواجبات التى يفرضها الدين . ويقول لنا المؤرخون : « كان العراق وجنوب فارس يبدوان فى ذلك العهد روضة غناء ، فكانت تلك الأقاليم — ولا سيما الإقليم الواقع بين الكوفة وبغداد — عامرة بالمدن الفخمة والقرى المزدهرة والضياع الجميلة . وقد وجه العرب جهدهم لفحص موارد البلاد المعدنية واستغلالها ، ونشطوا إلى استخراج الحديد والرصاص والفضة من فارس وخراسان وأسندوا إدارة المناجم إلى ملاحظين أكفاء ، كما استخرجوا الخزف والرمر من تبريز ، والملح والكبريت من شمال فارس ، والقير والنفط من كورجيا » .

المصنوعات

كذلك كانوا يشجعون الصناعات فى العهد العباسى أيما تشجيع ، فاشتهرت

---

(١) الاصطخرى ٨٣ . (المعرب)

البصرة فى كافة أنحاء العالم المتمدن بصنع الصابون والزجاج ، وعظم شأن هاتين الصناعتين فى عهد المعتصم ، حتى شيد لهما مصانع جديدة فى بغداد وسامرا وبعض المدن الأخرى ، كما أسس مصانع للورق فى عدة مدن ، وجلب لها الأساتذة والعمال من مصر التى كانت مشهورة عندئذ بهاته الصناعة منذ أقدم العصور ؛ كذلك أسست مصانع ملكية للتطريز فى المدن الفارسية الكبرى وتفوق العرب فى صناعة الحرير والأطلس والأنسجة الحريرية المشجرة والسجاجيد التى كانت تعرض فى الأسواق فى أحسن صنع وأتم إتقان . وليس أدل على تفوق العرب فى الصناعة من تلك المنسوجات النفيسة التى كانت الأنوال الهائلة تخرجها فى فارس والعراق والشام ، وقد امتازت الكوفة بكوفياتها الحريرية وغير الحريرية كما تفوقت خوزستان بمنسوجاتها ، وقد كانت المنسوجات الحريرية المشجرة الجميلة المصنوعة فى مصانع توستار وسجاجيد كوركوب النفيسة وحرائر سوس ، تحتل مكاناً سامياً فى أسواق العالم ؛ ومما يسترعى الانتباه أن مختلف الصناعات كانت قد شاعت فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، فامتازت سوسانكرد بزركشة الدمقس بالذهب وصناعة الأنسجة الوبرية والسجاجيد والحرير المزركش المصنوع من دود القز لقصور السلاطين ، والحرير الخام والوبر ؛ وكانت تنسج العباءات النفيسة من حرير القز ، فبزت بذلك عباءات شيراز الصوفية المخططة ؛ كما اشتهرت المدن الغنية فى خراسان بصناعة الأنسجة الحريرية المزركشة والسجاجيد والبسط والستور والأغطية والمصنوعات الصوفية على مختلف أنواعها ، وعلى الجملة كانت لكل مدينة من مدن الإمبراطورية شهرة صناعية خاصة سواء فى المعادن أو الزجاج أو الصوف أو الحرير أو الكتان ، واشتهرت الشام بصنع الزجاج وشرعت تصدر فى مستهل القرن الثانى الهجرى الزجاج الملون المطلى بالميناء إلى كافة أنحاء العالم ، وبلغت فى نقشه بالذهب والألوان الأخرى درجة عظيمة من الكمال ؛ وقد ذكر لنا المؤرخون انتشار صناعة نوع من البلور المزخرف وما ينطوى عليه

من آيات الفن وضروب الجمال ؛ ويقال إن قدحاً من النفائس الفاطمية بيع وقتئذ بثلثمائة وستين ديناراً ، وكانت تعلق المصابيح البلورية المزدانة بالنقوش الجميلة والآيات القرآنية الكريمة أو الأحاديث النبوية الشريفة بالميناء ذات اللون الأبيض أو الأزرق فى الجوامع والسفن والقصور ، وكانت تصنع تلك المصابيح على مختلف الحجوم والأشكال ، وتباع إما للاستعمال أو الزينة .

كذلك كانت البلاد غنية بالمنتوجات الخام فكان الأهلون يزرعون الشعير والحنطة والأرز والنخيل وأشجار الفاكهة والقطن كما وجهوا عنايتهم إلى صناعة الحلوى من الفاكهة ، واشتهرت الأهواز وبلاد الجبل بزراعة قصب السكر وأصبحت المصانع فى هذين الإقليمين تصدر قسما عظيما منه إلى آسيا وأوروبا ؛ وتأسست فى جندسابور جامعة اشتهرت فى كافة أنحاء العالم بالعلوم الطبيعية والأساتذة الذين طبقت شهرتهم الآفاق فى الطب ، ولعل تلك الجامعة كانت من أهم العوامل التى شجعت الصناعة والتجارة ، إذ كانت تمد أصحاب الحرف بما تتوصل إليه من أحدث المخترعات كعملية تكرير السكر التى عممتها فيما بعد على أسس تجارية فى خوزستان نفسها ، ومنها انتقلت كما انتقلت غيرها من الحرف إلى أسبانيا .

أما صادرات الإمبراطورية فكانت تشتمل على الشعير والحنطة والأرز والفاكهة وزهور مازندران المشهورة والسكر والزجاج والحرير والأقمشة الصوفية والكتانية والحريرية والزيت والعطور كماء الورد والزعفران وماء السوسن ونوار التمر والبومادة (دهان عطرى للشعر) وشراب العنب وزيت البنفسج وما إلى ذلك ، فى حين كانت الواردات تشمل التوابل والأدوية من الهند وجزائر الأرخبيل ، وكذلك خشب الصندل والأحجار الثمينة والمجوهرات والغاب الهندى والآبنوس والعاج .

وكانت فارسستان غنية بالمعادن كالملح والفضة والحديد والقصدير والنفط ، كما كانت « يزد » مشهورة بالفضة أيضاً .

الإيرادات أو الدخل

أما إيرادات الدولة فكانت تجبى من المصادر التالية :

(١) الخراج .
(٢) الأعشار أو ضريبة الدخل (العشر والزكاة والصدقة) .
(٣) أخماس المعادن والمرعى .
(٤) الجزية .
(٥) المكوس .
(٦) الملاحات والأسماك .
(٧) الضرائب التى تؤخذ من أصحاب الحوانيت لاستعمالهم المحلات العامة كالشوارع والميادين .
(٨) ضرائب الصناعة وغيرها .
(٩) ضرائب الكماليات .
(١٠) الجمارك .

وقد ألغى الواثق الضريبة الأخيرة تشجيعاً للتجارة البحرية .

ويقول فون كريمر : « من هذا كله نرى أن الماليين لم يكونوا من الجهل كما قد يتصور البعض » ، فكانت طبقة الفلاحين موضع رعاية الخلفاء العباسيين الذين كانوا يبذلون أقصى العناية لتخفيف الأعباء الملقاة على عواتقهم . ويقال إن المنصور ألغى ضريبة الحنطة والشعير التى كانت تدفع نقداً ، وأحدث نظام المقاسمة وهو أن يفرض الخراج على الأرض بنسبة مئوية من غلتها ، على حين أبقى الضريبة النقدية على المحاصيل الأخرى ؛ ولكن المهدى عند ما رأى أن الجباة يبتزون أموال الفلاحين ألغى الضريبة النقدية ، ونص على جعل المقاسمة بالنصف فيما يخص الأرض التى تسقى سيحاً أى بدون تعب ، أما إذا كانت الأرض

تسقى بالإرواء[1] الذى يتطلب شيئاً من النفقات ، فعندئذ تستوفى الحكومة ثلث المحصول ، وفى بعض الأحيان الربع ، وفى الأحيان الأخرى الخمس ، كذلك جعل خراج النخيل والكروم والأشجار على حسب المساحة ، فكانت تقدر قيمة المحصول ، ثم يؤخذ نصف غلتها أو ثلثها ، وكان يسمى هذا النظام « بالمقاسمة »[2] تمييزاً له عن النظام القديم المسمى بالمحاسبة .

وفى سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ — ٨٢٠ م) أعاد المأمون تخفيض الخراج بأن جعله خمسين بدلا من النصف حتى فى أخصب الأراضى الزراعية . وكان يوجد فى بابل وكلدة والعراق والجزيرة وفارس كثير من الملاكين والفلاحين اللذين كانوا يدفعون ضريبة محدودة على أساس اتفاق كتب بينهم و بين قواد العرب فى إبان احتلال العرب لبلادهم ؛ وكان يتمتع بمثل هذه الامتيازات أهل القرى فى شمالى فارس وخراسان ؛ وعلى هذا نستطيع تقسيم الخراج إلى ثلاثة أقسام :

(١) المساحة (المحاسبة) وهى ضريبة معينة سواء أكانت تدفع نقداً أم من عين المحصول أم من كليهما .

(٢) المقاسمة : وتفرض على حسب كمية الغلة وتستحصل عيناً .

(٣) « المقاطع » : وهى ضريبة معينة تدفع على أساس الاتفاق أو الإيجار المعقود بين الحكومة والفلاح ، وكان معظم أرض الصنف الثالث من الضياع التابعة للحكومة ؛ وكثيراً ما كان الخلفاء يعفون الأهلين من الضرائب حتى فى أسوأ العهود وأشدها ظلما . ومثال ذلك أن المعتضد أعفى الناس من ربع الضرائب بتأجيل بدء السنة المالية من منتصف آذار إلى ١٧ حزيران ، كما يلوح أيضاً أنه منح إعفاء آخر بتأجيل موعد الضريبة إلى ٢١ تموز ؛ وإذا علمنا ما كانت

---

(١) يقول الماوردى والفخرى والبلاذرى : « فجعل المقاسمة بالنصف فى الأرض التى تسقى سيحاً أى بدون تعب ، وبالثلث فى الأرض التى تسقى بالدوالى ، وبالربع فى الأرض التى تسقى بالدواليب » . (المعرب)

(٢) لايزال هذا النظام مستعملا فى الهند .

عليه الإمبراطورية من ازدهار الصناعة والتجارة والثروة ، فلا بدع أن تبلغ إيرادات الدولة فى عهد الرشيد ٢٧٢ مليون درهم ، وأربع ملايين ونصف مليون دينار سنويا ، وفى عهد المأمون ستة آلاف دينار يوميا .

تنظيم جند العرب

وعلى أثر احتلال الشام اضطر العرب إلى اتخاذ إجراءات حاسمة لحماية الحدود الشمالية من هجمات الدولة البيزنطية ، ومع أنهم كانوا قد باشروا فعلا هذا العمل فى عهد عمر بن الخطاب ، واستمروا على تنفيذه فى عهد الدولة الأموية ، إلا أن تلك السياسة لم تتخذ لها شكلا منظما ثابتاً إلا فى عهد المنصور الذى وفق إلى احتلال جميع المراكز الواقعة على الحدود ، أو فى منتهى المفاوز الجبلية التى يخشى كمون الأعداء فيها ، فحصن طرسوس وأَدَنَة والمصيصة ومرعش وملطية ، وأقام فيها حاميات قوية . ولما كان جيش الروم قد خرب مدينة ملطية سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ — ٧٥١ م) فقد أعاد المنصور بناءها سنة ١٣٩ هـ وأبقى فيها حامية مؤلفة من أربعة آلاف جندى كانوا يعسكرون فى ثكنات توفرت فيها جميع أسباب الراحة ، وكان يتناول الجندى الذى يعسكر فى تلك الأنحاء عشرة دنانير علاوة على المخصصات السنوية البالغة مائة دينار ؛ كذلك أمر « المنصور » بتشييد الحصون فى هراة بكليكيا و بطرة باللاذقية ، وعدة مدن أخرى فى أفروجيا وكبدوكيا ، وحصن مرعش ، و بنى طرسوس الواقعة على نهر البردان[1] ، وشيد قلعة الهارونية على مقربة من مرعش ، كما أمرت الست زبيدة بإعادة بناء الإسكندرونة .

ذكرنا فيما سبق الإجراءات التى اتخذها الرشيد لصيانة الحدود ، ولاسيما عزل قنسرين عن المنطقة المؤلفة من أنطاكية ومنبج ودلوك ، وتنظيمها على أسس عسكرية جديدة ، وإقامة الحاميات فى جميع النقاط الخطيرة . أما الجنود الذين كانوا يعسكرون فى مثل تلك المراكز فكانوا يتناولون الأرزاق والمكافآت

---

(١) واسمه بالتركية قره صو . (المعرب)

علاوة على الأجور الاعتيادية ، وكان من جملة الواجبات التى يقومون بها هى حراسة الأسلحة ، وحفظ المهمات ورعاية الخيول ، وغالباً ما كانت تقطع لهم ولعائلاتهم الأرض لزراعتها . وتقول لنا الرواية العربية إن المأمون والمعتصم كانا يأخذان بهذا النظام ، غير أنه رؤى فيما بعد — على أثر غزوات الروم المتواصلة ، وأعمال الهدم والتخريب التى كانوا ينزلونها بالبلاد — أنه من الضرورى تعزيز تلك الأصقاع بسكان من المسلمين ، فنقلت قبائل برمتها من الولايات البعيدة إلى تلك الأقاليم . ويوضح لنا تاريخ العواصم الأدوار التى مرت على الدولتين اللتين طفقتا تشتبكان فى حروب دامية شديدة مدة قرون ، ولعله لا يوجد على وجه الغبراء — حتى على حدود الرين ، وسهول لمباردى تلك البلاد التى رويت كل بقعة منها بالدماء البشرية — مكان نشبت على أديمه معارك مروعة مثل ما نشبت على الأرض الواقعة بين الشام والأناضول ؛ ففى عهد الخلفاء الأمويين الذين عرفوا بالكفاية والنشاط توغل العرب فى داخل كليكيا وكبدوكيا ، ولكن الدولة البيزنطية فى عهد يزيد الثانى وخلفائه الضعفاء استردت المدن التى كان قد احتلها المسلمون ، بيد أنه ما طال الزمن حتى اكتسبت الإمبراطورية العربية بقيام الدولة العباسية حيوية جديدة ، فلم تلبث أن استردت العواصم ، واضطر الخلفاء العباسيون على أثر غزو الجيش البيزنطى ونقضه العهود إلى إرسال الجيوش الجرارة لقتالهم ، فكانت الغزوات السنوية المسماة بالصائفة تتطور أحيانا إلى معارك شديدة ، وفى الأحيان الأخرى لا تتعدى نطاق المناورات ، غير أن نظام تشييد الحصون أو الرباط لم يقتصر على كليكيا أو حدود الشام فحسب ، بل شمل أيضاً بلاد ما وراء النهر و بورجيا وأرمينيا ، كما شيدت الحصون فى جميع المراكز الدفاعية الأخرى .

الجيش

كان الجيش يتألف فى أثناء الخدمة الفعلية من قسمين : المرتزقة أى الذين يتناولون الرواتب من الدولة ، والمتطوعة وهم الذين كانوا يهرعون إلى الانخراط فى

الجيش كلما دعا داعى الجهاد ، ولم يكن يعطى لهم خلال مدة تطوعهم غير الأرزاق ، بينما كانت تمنح عوائلهم المخصصات من الدولة إما عيناً أو نقدا . وكان جيش المرتزقة يتألف من عدة فرق وهى : (١) المشاة أو (الحربية) ، وأسلحتهم الرماح والحراب والسيوف والتروس . (٢) ورامية السهام أو (الرامية) ، وأسلحتهم السيوف والتروس والأقواس والنشاب .

أما الحربية فكان لباسهم الخوذ ، والدروع التى تقى الصدور ، ولها أجزاء للساعدين والساقين ، وكانت فى كل فرقة فصيل من « النفاطين » مهمته رمى مقذوفات النفط ، وفصيل آخر من المعماريين الذين يحملون المعاول علاوة على السيوف والتروس ، ويقال إن النفاطين كانوا يرتدون الملابس المقاومة للنار ويقتحمون بها الحصون المشتعلة من غير أن يصيبهم أدنى ضرر ؛ وكان على رأس كل عشرة آلاف جندى « أمير » ، وعلى رأس كل ألف جندى « قائد » ، كما كان يسمى رئيس كل مائة جندى « نقيباً » ، ورئيس كل عشرة جنود « عريفا » ، وكان يختلف لباس الجنود باختلاف الفرق والأسلحة التى يخدمون فيها . وقد أخذت المرتزقة فى عهد المتوكل تعلق السيف على نحو ما كانت تعلقه الفرس فى حزام فى الوسط ؛ وأنشئت فرقة خاصة من الأجانب[1] ، وجعلت رواتبهم أعلى من رواتب الجنود العادية ، ولباسهم أبهى وأفخم . ولما أراد المعتصم أن يميز رجال الحرس من غيرهم ألبسهم الدمقس المزركش بالذهب .

وعلاوة على الحرس الإمبراطورى أنشئت وحدة أخرى للاشتغال — على مايلوح — بوظائف أقل أهمية ، وسميت « جنود المنزل » ، ثم أطلق عليهم فيما بعد اسم « الجاندار » ، وكان المرافقون فى العهد العباسى يسمون « بالغلمان الحجرية »[2] ، وكانوا يستخدمون فى بادئ الأمر كخدام خصوصيين للخليفة ،

---

(١) وكانوا يسمون بالرجال المصفيات ، وفى عهد المنتصر لعبوا دوراً هاماً فى مصائر الدولة .

(٢) كانوا يسمون فى العهد الفاطمى « بصبيان الحجرية » .

ثم يعينون عند بلوغ سن الرشد كراقبين بعد أن يتلقوا علومهم فى البلاط ، ويتدربوا على الفنون الحربية ، وكانوا يعيشون فى ثكنات منفصلة عن ثكنات باقى الجيش بمقتضى نظام عسكرى خاص أشبه بنظام الرهبنة .

المهندسون

وكان يصحب الجيش فى جميع الحركات العسكرية فئة منتخبة من المهندسين[1] الذين كان يعين البعض منهم فى الحصون والحواضر ، وكان يطلق على رئيس المهندسين اسم « أمير المنجنيقيين » ، ويبدأ هؤلاء حياتهم العملية بالانخراط فى الجيش ، ثم يعينون إما فى الفرق أو فى المدن ؛ ومن أكفئهم المهندس يعقوب بن صابر المنجنيق ، وقد بدأ كغيره حياته العسكرية بالانخراط فى جيش المرتزقة ، ثم تدرج فى المراتب العسكرية حتى رقى إلى وظيفة رئيس المهندسين ، وعين فى بغداد ، وعلا كعبه فى الدراسات العلمية والفنون العسكرية ، وألف كتابا اسمه « عمدة المسالك »[2] فى الهندسة ، ويحدثنا ابن خلكان « أن صاحبه عالج فيه كل ناحية من نواحى الحرب كالتعبئة ، والاستيلاء على الحصون ، وتشييد القلاع ، والفروسية والهندسة والحصار ، وتركيب المكائن الحربيـة ، وصفات الخيول وأنواع الخيالة » .

مستشفيات الميدان

وكان يصحب الجيش فى أثناء المعارك الحربية هيئة طبية ، ومستشفى تام العدد والأجهزة ؛ أما النقالات فكانت عبارة عن محفات تحملها الجمال ، ويقال إن لوازم مستشفى الميدان كالخيم والأدوات الطبية كانت تنقل فى أيام الرشيد والمأمون على عدد كبير من البغال والجمال ، وحتى فى العصور المتأخرة فى عهد الملوك الضعفاء أمثال السلطان محمود السلجوقى كانت لوازم المستشفى تنقل على أربعين جملا .

---

(١) ويسمون « بالمنجنيقيين » .

(٢) اسمه الكامل « عمدة المسالك فى سياسة الممالك » .

وكان بكل مركز خطير مستودع للأسلحة ودار للصناعة[1] يقوم بإدارتها ضباط يسمون « بالنظار » . أما أسلحة الخيالة فى العهد العباسى فلم تختلف عنها فى العهد الأموى ، وهى تشتمل على السيوف والفؤوس والحراب والرماح ؛ وكان معظم هؤلاء الجنود يلبس الخوذ الفولاذية والدروع ، وكانت تشتمل كل فرقة على فصيلة من رماة السهام الخيالة ، ويجند هؤلاء إما من الخراسانيين أو من سكان شمالى فارس المشهورين منذ الأزمنة القديمة بتسديد السهام وإصابة المرمى على متن الخيل . وقد أدخل المهلب المشهور « الركاب الحديدى » فى الجيش العربى منذ عهد « عبد الملك » .

سبق أن ذكرنا أن كل عربى صحيح الجسم كان عرضة دائما للانتظام فى عقد الجيش ، وأن جنود الاحتياط كانوا فى معظم الحالات يلتحقون بفرقهم ليس عن طواعية فحسب بل بنشاط وسرعة جديرين بالإعجاب ، وإذا ما حدث أن رجال الاحتياط لم يلبوا داعى الجهاد كان الأمراء يلتجئون إلى تطبيق نظام الخدمة الإجبارية ، وقد استخدم الحجاج فعلا ذلك النظام ذات مرة فى البصرة .

انحطاط قوة العرب العسكرية

بدأ انحطاط قوة العرب العسكرية فى عهد المقتدر ، ويعزى ذلك على الأغلب إلى التغيير الذى طرأ على نظام دفع الرواتب ، فبعد أن كانت تدفع رأساً مع خزينة الحكومة العليا غدت تدفع من خزينة الولاة أو قادة الجيش الذين كانت تقطع لهم بعض الولايات بدلا من الرواتب ؛ ويرجع هذا التغيير فى الواقع إلى عجز الخزينة العامة وفراغها ، ولا سيا أن بعض الولاة كان قد امتنع عن دفع الخراج كله أو بعضه ، ولأجل مراعاة البذخ والتبذير فى البلاط الخلافى لم يستطع الخليفة سد نفقات الدولة بالإيرادات الاعتيادية ، ولهذا أقطع المقتدر كبار الأعيان بعض الولايات على شرط أن يجمعوا كامل الإيراد لحسابهم الخاص ويسددوا منها

---

(١) إن كلة arsenal آرسينال مشتقة فى الواقع من اللغة العربية .

نفقات الإدارة ورواتب الجنود ، ثم يدفعون مبلغاً سنويا معيناً إلى بلاط بغداد وكانت تسمى هذه الهبات بالإقطاعيات ، ولقد تركت تلك السياسة الحمقاء أعمق الأثر ، ونجم عنها انحلال الإمبراطورية انحلالا سريعاً . كما أن آل بويه بدلا من أن يدفعوا الرواتب للجنود أخذوا يمنحونهم إقطاعيات لزرعها ، وكانت هذه الإقطاعيات العسكرية هى ومحصولاتها معفية من الضرائب ، الأمر الذى أدى إلى تقلص ظل المدنيـة ، وخراب أخصب الولايات ، و إقصاء السكان العرب تدريجيا عن أراضيهم .

أما الأحوال السياسية والاجتماعية فى آسيا الغربية — قبل نشوب الحروب الصليبية—فكانت تشبه ما كانت عليه أوروبا من عدة وجوه ، إذ كانت مقسمة إلى عدة ولايات صغيرة ، و إمارات تعترف كلها بسلطة الخليفة باعتباره الرئيس الدينى الأعلى ؛ وكثيراً ما كان الأشراف يناوئ بعضهم بعضاً دون أى هدف أو غاية حتى أضعفوا شوكة الإمبراطورية بمنافساتهم وأنانيتهم .

نظام الإقطاع العسكرى

وفى عهد السلاجقة ازداد نظام الإقطاع العسكرى انتشاراً عظيما ، فكان الأمير أو الحاكم الذى يستقل بمدينة أو ولاية يحكمها حكما مطلقاً ، و يمارس فيها سلطة الرئيس الإقطاعى أى « صاحب المعقل » ، وكان سيد الأرض يدفع إلى السلطان جزية سنوية على شرط أن ينضوى هو وعدد من جنوده تحت لوائه عندما يخوض السلطان غمار الحرب ، كذلك كان عليه أن يجهز جنوده بالمؤونة والعتاد على نفقته الخاصة ؛ وكان فى العراق وحده أربعون سيداً إقطاعيا ينتسب القليل منهم إلى الأسر العربية .

لقـد كان نظام الإقطاع العسكرى ينتشر أينما ساد نفوذ التتر أو الأتراك الذين أصبحوا فى تلك الآونة العنصر المسيطر على أنحاء آسيا الغربية ، ومصر ، وأفريقيا ، وفارس ، والهند ، وحتى أوروبا الشرقية ؛ ومن المعروف أن ذلك

النظام لم يبلغ فى تركيا إلا بعد الإصلاحات التى أدخلها السلطان محمود ، وبخاصة عند تأسيس الجيش النظامى .

روانب الجنود

كان مرتب الجندى الراجل فى العهد الأموى مائة درهم شهريا أى قرابة الأربعين ديناراً سنويا ، ويلوح لنا أن السفاح كان قد خفضه إلى ٨٠ درهما فى الشهر ، أما الفارس فكان يتناول ضعف ذلك المرتب علاوة على الإكراميات التى كانت تعطى له ولغيره من زملائه الجنود فى فترات معينة ؛ وعلى الجملة كانت مرتبات الجنود تختلف باختلاف الولايات التى كانوا يعسكرون فيها ، ومثال ذلك أن المأمون خصص للرجالة فى العراق[1] عشرين درهما فى الشهر علاوة على الأرزاق ، كما خصص للفارس أربعين درهما مع المخصصات المعتادة ، فى حين كان يتناول الجندى الراجل فى فرقة دمشق ٤٠ درهما والفارس ١٠٠ درهم ؛ وتعزى أسباب تخفيض مرتبات الجنود فى الأزمنة المتأخره إلى سببين :

(١) تحديد قيمة الذهب[2] .

(٢) اتساع رقعة الإمبراطورية الخاضعة لسلطان الخليفة .

الموالى

ساعد المبدأ الديمقراطى العظيم القائل « بأن كل أجنبى يعتنق الإسلام يصبح على قدم المساواة مع العربى الأصيل فى التمتع بالحقوق السياسية والمدنية » نم ساعد هذا المبدأ على انتشار الدين الإسلامى ، كما أن طريقة انتماء أفراد الأمم المحتلة إلى المحتلين لها أعمق الأثر فى ذلك ، ويسمى هذا النظام « بالولاء[3] » ، فكان

---

(١) كان عدد جيش الاحتلال فى العراق فى عهد المأمون (٢٠١ هـ ، أو ٨١٦ — ٨١٧ م) يبلغ ١٢٥ ألف .

(٢) كان الدينار فى عهد الخليفة عمر يساوى عشرة دراهم ، وفى زمن المأمون يساوى ١٥ درهما ، وكان يساوى الدينار حوالى ١٣ شلناً وست بنسات .

(٣) الموالى : وهم يشبهون ما كان فى الدولة الرومانية من العبيد المحررين Liber tines وينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

١ — مولى عتاقه : وهو من كان أسيراً أو عبداً وأعتق .

٢ — مولى الرحم : وهو ينتمى إلى القبيلة التى تزوج منها . =

الفارسى أو الرومى أو البربرى على أثر اعتناقه الإسلام ينتمى إلى عشيرة عربية عظمى ، أو ينتسب إلى زعيم من زعماء العرب ، أو حتى إلى الأسرة الحاكمة ، الأمر الذى كان يجعلهم متصلين اتصالا مباشراً بالمولى ، ولهذا لم تقتصر جنود الخلفاء المتأخرين على أفخاذ الجزيرة وبطونها فحسب ، بل أخذ الفرنج والفرس واليونان والبربر والسودانيون الذين كان يجذبهم حب المرتب ينضوون تحت لواء الخلافة . ولا شك أن هذا النظام الجديد وإن أفسح المجال للتجنيد وزيادة عدد الجيش ، إلا أنه أضعف الروح العصبية وقضى عليها قضاء مبرماً ؛ ذلك أن هؤلاء المسترزقين لم يكونوا أهلا للوثوق بهم والركون إليهم ، فأضعفوا معنوية الجيش الذى أصبح نهباً للانقسامات والمنازعات فى عهود الخلفاء المستضعفين .

عناصر الجيش

كان الجيش الإسلامى فى عهد المنصور يتألف من فرق ثلاث وهى : المضريون والحميريون والفرس ، فأضاف المعتصم إليهم فرقة رابعة لا يدخلها غير الترك وأهل أفريقيا ، وقد أطلق عليها اسم فرقة « المغاربة » .

وكان الجيش يتكون منذ أقدم العصور سواء فى ميدان القتال أو فى أثناء المسير من خمسة [1] أقسام وهى : (١) القلب ، ويحتوى على القيادة العامة . (٢) والميسرة . (٣) والميمنة . (٤) والطليعة . (٥) والساقة .

وكانت الطليعة تتقدم الجيش عادة بعدة أميال ، وهى عبارة عن سرية من الفرسان يلبسون الدروع اللامعة والخوذ الفولاذية ، ويحملون الرماح المربوط بأسنتها باقات من ريش النعام . أما الكشافة فكانت معروفة عندهم أيضاً ؛ ويقال إن « قتيبة » لم يستخدم فرقة الكشافة فى الاستطلاع فحسب ، بل

= ٣ — مولى عقد ، أو حلف أو اصطناع : ينتمى الرجل إلى رجل آخر بالخدمة . أو بالمحالفة ، أو المخالطة ، أو الملازمة على أن يتعاقب ذلك أجيالا ، ومن هذا القبيل أكثر موالى العرب بعد الإسلام فينسبون أهل البلاد إلى العرب ، ويسمون ذلك « ولاء الموالاة » أما اليهود والنصارى بعد الإسلام فسموا « بأهل الذمة » . (المعرب)

(١) ولهذا سمى الجيش بالخميس . (المعرب)

استخدمها أيضاً فى استحضار خرائط الأقاليم التى كان ينوى غزوها ؛ وقد جرت العادة منذ ذلك الحين أن يطلب القائد إعداد الخرائط إما بواسطة فرق الكشافة أو مركز القيادة العامة .

ومما لا شك فيه أن منظر الجيش العربى ، وهو يشق طريقه فى صفوف لا نهاية لها فى بلاد الأعداء كان بالغاً حد العظمة والبهاء ، فكانت الخيالة تسير فى المقدمة ، وعلى جناحيها حملة النبال ، ثم يأتى بعدهم الرجالة الذين كانوا يسيرون فى صفوف كثيفة بانتظام عجيب ، ويليهم صفوف الجمال المحملة بالعدد والخيم والعتاد ، ثم يجىء بعدهم المستوصفات الصحية والنقالات لحمل المرضى والجرحى ، ثم آلات الحرب كالمنجنيقات والعرادات محملة على ظهور الجمال والخيول والبغال وهى تسير فى المؤخرة ؛ أما إذا سار الخليفة أو أحد أفراد الأسرة المالكة على رأس الجيش فلا شك أن المنظر كان يبدو أكثر روعة وبهاء ، إذ كان جنود الحرس الخلافى يتشحون بالبزات الزاهية ويحملون الأعلام ذات الشعار الملكى المنقوش بالذهب ، كما كان القواد والزعماء يرتدون الملابس الفخمة . وعلى الجملة كان هذا المنظر يبدو فخما رائعاً ، وكانت الطايعة حالما تصل إلى الموقع المقصود تأخذ بحفر الخنادق ، إذ كان نظام الجيش يقضى ألا يعسكر الجنود قبل أخذ الحيطة من الهجوم المفاجىء ، فإذا ما وصل الجيش الرئيسى نصبت الخيم فى نظام بديع ، وأقيمت الشوارع والأسواق والميادين كما لو كان المعسكر مدينة عامرة ، وكانت توزع الأرزاق فتوقد المطابخ ، وتنصب عليها القدور ؛ وبعد تناول العشاء كان الخليفة أو قاضى العسكر يؤم الجنود فى الصلاة ، ومن ثم يجلس الجميع فى حلقات يستمعون إلى أقاصيص الحروب والمخاطرات ، أو إلى القصائد الحماسية المصحوبة بصوت الناى ، وكانوا لا ينامون إلا بعد الهزيع الأول من الليل .

تعبئة الجيوش

كانت أقدم تعبئة للجيوش العربية سواء أكانت للهجوم أم الدفاع على شكل صفوف مفردة أو مزدوجة ، بيد أنه طرأ فى زمن مروان الثانى تطور هام على

نظام القتال ، فأصبحت تجرى التعبئة فى حالة الهجوم على هيئة كتل كثيفة متراصة ، وقد اتبع الفريقان المتحاربان ذلك النظام فى موقعة الزاب . أما الملحمة الثانية المروعة التى يصفها لنا ابن الأثير وصفا دقيقا فقد وقعت فى ميدان نصيبين حيث سحق « أبو مسلم » جيش « عبد الله بن على » ، وفى الواقع إن مهارة القائد الخراسانى فى تلك المعركة والطريقة التى استخدم بها جيوشه لتنهضان دليلا على التقدم الحربى الذى بلغته الشعوب الإسلامية فى ذلك العصر ، فقد قيل إنه « كان يشرف من عريش على حركات الجيش ويراقب سير المعركة ، فإن رأى خللا فى الجيش سده وأمر مقدم تلك الناحية بالاحتياط وبما يفعل ، فلا تزال رسله تختلف إليهم حتى ينصرف الناس بعضهم على بعض » .

كان الرجالة فى الجيش العربى إذا ما توقعوا هجوم الأعداء ، اصطفوا على هيئة مربعات ، ثم جثوا على ركبهم شاهرين الرماح وواضعين الدروع على الأرض ، وكان يأتى بعدهم رماة النبل ، أما الخيالة فكانوا يحملون على العدو الزاحف حملة رجل واحد ، وعلى هذا النحو كانوا يحرزون النصر ؛ وحينما كان يلوح التقهقر على العدو كان العرب يركبونه إما بالقوة الأصلية أو بالاحتياط كما كانت تناط مطاردته بالخيالة ، كذلك كانت تتبع نفس التعبئة فى حالة الهجوم ، ويقال إن تفوق العرب على الشعوب المجاورة لم يكن يرجع إلى تنظيم جيشهم فحسب ، بل كان لسرعة الحركة ضلع كبير ، إذ بينما كان الروم ينقلون أمتعتهم وعتادهم على عربات تجرها البغال والحمير والخيول ، كان العرب على الأغلب يستخدمون الجمال فى حمل الأثقال ، ولهذا كان يتم نقل الجيوش والمؤونة والأمتعة والعتاد بسرعة منقطعة النظير .

ويقول لنا أحد المؤرخين العصريين : « لم يحتل العرب الشام بهذه السرعة المدهشه إلا بفضل الجمال » .

ويحدثنا أحد خصوم العرب المدعو « ليو السادس [١] » الملقب بالحكيم ، ومن معاصرى المعتمد والمعتضد والمكتفى والمقتدر فى أثناء تدهور الإمبراطورية العربية وانحلالها ، عن دقة حركة الجيش العربى ، فيقول فى وصف هؤلاء البربر — على زعمه — : إن تعبئتهم فى حومة الوغى كانت على هيئة مربع طويل يصعب اختراقه . وكانوا بهذ النظام العجيب يتمتعون بأعظم مزايا الدفاع سواء أكان فى المسير أم فى ميدان القتال ، وكانوا يقفون فى مراكزهم بثبات مستبسلين بحيث لا يستطيع العدو إغراءهم بالتسرع فى الهجوم أو بإنهاء المعركة بعد نشوبها ما لم يحوزوا النصر ، وكانوا على الأغلب يؤثرون هجوم العدو الذى متى زحف عليهم صدوه فى أول هجوم بكل قواهم ، وكانوا يستخدمون تلك الوسائل فى البر والبحر على السواء . كما كانوا فى بادئ الأمر يسددون السهام ، ويرمون العدو بالنبال ثم يلصقون دروعهم ملاصقة شديدة ، ويبدأون هجومهم فى جنود صفوف متراصة [٢] . وفى حومة الوغى كانت جنود العرب تمتاز عن جميع الشعوب الأخرى بشدة الحذر والاحتياط ، وفضلا عن ذلك كانوا يسيرون إلى ميدان القتال بمحض إرادتهم ، إذ لم يكن ثمة تجنيد إجبارى ، فكان الغنى يلتحق بالجيش للدفاع عن وطنه والموت فى سبيله ، والفقير ينتظم فى عقده للحصول على الغنائم والفيء ، وكان الرجال والنساء يشتركون فى تجهيز الفقير بالأسلحة والعتاد . ويقول مؤلف (الثقافة فى عهد الخلفاء [٣]) : « لم يكن إمبراطور الروم يعتقد على ما يظهر أن العرب الذين كان يسميهم بالبرابرة والكفرة أرقى من رجال دولته المضمحلة ، كذلك كان يجهل أنهم رسل المدنية » ، ويقول أيضاً فى موضع آخر : توجد ثمة أدلة كثيرة تبرهن على أن البيزنطيين أنفسهم كانوا يستحقون لقب البرابرة ذلك اللقب

---

(١) توفى عام ٩١٢ م

(٢) عملا بالآية : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وفى الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » . (المعرب)

(٣) فون كرامر .

الذى ألصقوه بغيرهم افتراء وبهتانا ، ويحدثنا ليو أيضاً « أن البيزنطيين هجموا على العرب وخاصة على الخيالة ، وأخذوا يرشقونهم بالسهام المسمومة ، ولكن العرب كانوا يحبون خيولهم ويؤثرونها على أنفسهم ، ففضلوا التقهقر على قتلها بتلك السهام » ، وكان من نظام الدولة البيزنطية أن يطلقوا أيديهم سلبا وتخريبا فى قرى الأعداء ، بينما كان المسلمون لا يقدمون على هذا العمل إلا بحكم الاضطرار .

أما فيما يخص الغنائم فلم يكن للدولة البيزنطية أنظمة معينة بينما تنص الديانة الإسلامية على مبادئ دقيقة بهذا الشأن ، وليس ثمة دليل أوضح على تفوق معنوية المسلمين على الروم من الخدمة العسكرية التى كانت عندهم اختيارية وكانوا فوق ذلك يمتازون بمهارة عظيمة فى تسلق الجبال واختراق وديانها ، ولقد أثبتوا هذا التفوق فعلا فى حملة أفشين العسكرية ضد بابك الخرمى ، إذ كان الثائرون يجيدون استعمال المتاريس وآلات قطع الحجارة التى كانوا يرمون بها جنود الخليفة من قلل الجبال ، فاستخدم الأفشين — فى تنظيف تلك الناحية — رماة النبال ، ومن ثم أخذ يزحف تدريجيا على مركز العدو .

وكانت آلات الحصار التى يستعملها المسلمون هى المنجنيق والدبابة ، كما كانت لهم مهارة فى صنع آلات قوية لخرق الأسوار المشيدة حتى بالصخور ، وقد اخترع العرب البارود فى منتصف القرن الثالث عشر ، وكان للسلطان بيبرس الذى هزم التتر فى موقعة عين جالوت سرية تستعمل القربينات .

البحرية

وباحتلال العرب لمصر والشام خضع لسلطانهم جزء كبير من ساحل البحر مما حدا بهم إلى التفكير فى تشييد أسطول كبير لحماية الثغور البحرية ومقابلة العدو فى عرض البحار ، فوجهوا همهم إلى تشييد أسطول بحرى وإلى تجهيزه فى بادئ الأمر ببحارة من المدن الفنيقية ، ثم من الشام ومصر وسواحل آسيا الصغرى . وفى سنة ٢٨ هـ سير العرب على قبرص جيشاً كبيراً استعملوا فى نقله أسطولهم الجديد . وفى سنة ٣٤ هـ استطاع أمير مصر بأسطوله المؤلف من مائتى

سفينة أن يلحق الهزيمة بسفن الفرنج البالغة ستمائة سفينة عدًّا . وتقول لنا الرواية إن العرب اشتبكوا فى القتال من غير ما خوف ولا وجل برغم قلة عددهم ، ولكنهم أدركوا فى الحال أن اشتباك سفينة بعد أخرى فى القتال قد يؤدى إلى تحطيم أسطولهم برمته ، فأجمعوا أمرهم على تطويق أسطول الأعداء بسلاسل من حديد ، ثم انقضوا عليهم يعيثون فيهم بالسيف والنار حتى انتصروا عليهم انتصاراً باهراً وحطموا أسطولهم شر تحطيم ، وكادوا يفتكون بقائدهم لولا أنه لاذ بالفرار . ومنذ ذلك الحين أصبحت تقاليد الأسطول العربى أن يتجنب الاشتباك مع سفن الأعداء عن كثب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وقد كانت السفن فى بادئ الأمر تشيد فى ترسانات الشام ومصر والأبلة وأبى شهد . ومع أنها كانت أكبر حجما من سفن الروم إلا أنها كانت أقل سرعة وأبطأ حركة . أما السفن التجارية فكانت بالغة حد الفخامة والنشاط كما كانت تقابل بالتشجيع أينما ولت دفتها . والمعروف أن الحكومة الخلافية شيدت فى كل ميناء فناراً أسمته « خشابا » ويلوح أن أسطول الدولة لم يكن يتشكل من سفن الحكومة المركزية فحسب ، بل كانت الولايات تجهزه بما لديها من السفن إذا دعا داعى الجهاد ، وقد حدث ذلك فعلا فى عهد الفاطميين وصلاح الدين وحذا حذوهما خلفاء الأندلس . وكان يرأس كل سفينة حربية قائد أو مقدم وهو المسؤول المباشر عن السفينة وبحارتها ، ثم يليه فى المرتبة ضابط يسمى « الرئيس » ويقتصر واجبه على العناية بالأمور البحرية ، أما قائد الأسطول العام فكان يسمى « بأمير الماء » أو « أمير البحر » المشتقة منها كلمة ادميرال الإنكليزية .

الفصل الخامس والعشرون

نظرة عامة (تتمة)

بغداد — عمائرها — نمط البناء — بلاط الخليفة — الحياة الاجتماعية — الملابس — النساء — مركزهن — الموسيقى — الآداب — الفلسفة — العلوم والفنون — المذهب العقلي — إخوان الصفا

مدينة المنصور

كانت بغداد مركزاً للإدارات المدنيـة والعسكرية التي أتينا على وصفها فيما سبق ، كما كانت قلب الإسلام النابض ، وعين العراق ، ومقر الخلافة ، ومركز الفنون ، ومثابة الثقافة [1] والجمال .

ويقول لنا ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان : إن المنصور خط المدينة التي سماها باسمه مدوّرةً وجعل لها أربعة أبواب ، وحفر حولها الخنادق ، وبنى على كل باب قبة بالغـة حداً من العلو يسمح بدخول الفارس وهو شاهر رمحه ، كما شيد حولها سورين من الداخل ، وبنى في الوسط قصره الذهبي المعروف بالخلد ذي الباب الذهبي .

كذلك بنى على مقربة من قصر الخلافة المسجد الجامع ، وقصور الأمراء والأشراف ودواوين الحكومة ، فأصبحت المهدية والمنصورية في الواقع شبه دائرتين الواحدة على الشاطئ الأيمن لدجلة ، والأخرى على الشاطئ الأيسر ، وكان قطرهما يبلغ اثني عشر ميلا ، كذلك كانت ضواحي المدينتين مليئة بالحدائق المونقة ، والقصور المنيفة الذرى ، والمتنزهات البديعة ، والأسواق العامرة ، والحمامات الجميلة ، والجوامع الفخمة ، وجميعها تقع على جانبي النهر ، وكان سكان

---

(١) ياقوت الحموي .

بغداد وضواحيها — وهى فى أوج عظمتها — يبلغون المليونين عدًا ، وكانت المهدية أفخم من المنصورية . أما قصر الخلافة فكانت تكتنفه حديقة غناء تبلغ مساحتها مسير عدة ساعات ، وعلاوة على معرض الوحوش الكاسرة ، والأطيار المغردة الملحق بحديقة القصر ، كان ثمة حظيرة للحيوانات الوحشية المعدة للصيد والقنص ؛ أما فناء القصر فكان مزدانا بالحدائق الحاوية كل منظر رائق من النباتات والأزهار والأشجار والأحواض ، وقد نصبت حولها التماثيل الفخمة .

وكانت تخترق المدينة على جانبى النهر الشوارع الفسيحة بعرض لا يقل عن الأربعين ذراعا . وتحدثنا الرواية العربية أن بغداد كانت مقسمة إلى مربعات يقوم على رأس كل مربع « ناظر » يضطلع بالإشراف على النظافة وراحة السكان كذلك كان يقف فى زاوية كل شارع حارس مسؤول عن حفظ النظام ، والمعروف أن أحد الشوارع الكبيرة أطلق عليه اسم المأمونية ، وقد كان فى غاية الاتساع يمتد من نهر المعلا إلى باب الأزج .

أبواب المدينة

ومن بين الأبواب العديدة التى كان ينفذ منها الداخل إلى المدينة الغربية : (١) باب الشماسية (٢) باب القز (٣) باب البصرة (٤) باب الدير (٥) باب الشام (٦) باب البستان (٧) باب الطاق (٨) باب شيراز (٩) باب الخيزران (١٠) باب الصبيان (١١) باب التبن (١٢) باب الأزج .

كذلك شيدت فى ناحية المهدية خمسة أبواب أسمها : (١) باب الغرابة (٢) باب سوق التمر (٣) باب النوبى ، وهو الباب الذى كان يقبل عتباته السفراء (٤) باب العامة (٥) باب المراتب .

وكانت جداول المياه ، وأبواب المدينة يقوم على حراستها ليل نهار جنود يقفون فى الأبراج المشيدة على كلا جانبى النهر . وكانت الدور تأخذ كفايتها من الماء الذى كان ينساب فى الجداول الممتدة على طول المدينة ، كما كانت الشوارع تكنس وترش بأحسن انتظام ، ولم يكن ليسمح قط بإلقاء الأقذار على جانبى

الطرق أو الأزقة ؛ وكان يعلو إيوان قصر الخلد قبة خضراء يبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعا ، تبدو كأنها تاج العاصمة وشعار العباسيين ، وقد ركب فوقها تمثال فارس وبيده رمح طويل [1] .

الميدان

كان القصر الملكى المنيف الذرى يطل على ميدان فسيح يسمى «بالمربعة» وكان يستعمل لاستعراض الجيش والتفتيش والحلبة ، وكان ذلك الميدان وجميع الشوارع تضاء بالمصابيح ليلا ؛ والمعروف أن المنصور كان يستعرض الجيش وهو لابس حلتــه العسكرية الكاملة ، إما واقفاً على مصطبة او جالساً على عرش ينصب خصيصاً لأجل هذه الغاية ؛ أما الرشيد والمأمون والمعتصم فكانوا يعرضون الجيش وهم ممتطون صهوة جيادهم . وكان العرب مولعين أشد الولع بالحلبة التى لم يكن شغف أهل بغداد بها يقل عن شغف أهــل دمشق فى العصر الأموى ، كذلك كانوا يلعبون لعبة البولو الفارسية (الشوكان) فى بغداد .

وكان فى المهدية ميدان فسيح تعرض فيــه الجنود الذين كانت ثكناتهم تطل على الضفة اليسرى للنهر ، وكانت المصاطب الطويلة الممتدة على جانبى أبواب المدينة يجلس عليها الأهلون ليأخذوا فى المسامرة والمحادثة ، أو لمشاهدة جموع المسافرين والقرويين الذين كانوا يتدفقون على العاصمة من كل حدب وصوب . وكان لكل طائفة من طوائف الأجانب فى العاصمة رئيس أعلى يمثلهم عند الحــكومة من جهة ، ويسدى إليهم المساعدة من الجهة الأخرى كلما هرعوا إليه كذلك كان مسؤولا عن سلوكهم وحسن سيرتهم وتصرفهم .

قصور بغداد

كانت بغداد تسمى بحق مدينة القصور المشيدة بالمرمر ، وكانت العمائر —

---

[1] كانت ثمة خرافة هى أن السلطان إذا رأى أن ذلك الصنم قد استقبل بعض الجهات ومد الرمح نحوها علم أن بعض الخوارج يظهر فى تلك الجهة فلا يطول الوقت حتى ترد عليه الأخبار بأن خارجيا قد نجم فى تلك الجهة .

غير أن ياقوت يقول بأن هذه القصــة ليست إلا خرافة ومحض أكاذيب ، وقد انهارت القبة والتمثال فى ليلة ماطرة شديدة الرعد فى زمن المتقى (٣٢٩هـ — ٩٤٠م) بعد أن قاومت مائة وتسعين سنة .

وإن لم تكن تختلف فى تشييدها ونمط بنائها عن عمائر دمشق — مؤلفة من عدة طبقات ، وكان تأثير الذوق الفارسى ظاهراً جليا فى زخرفها ، وكانت تعلق على النوافذ والأبواب ستور مزركشة وحرائر مشجرة ؛ أما الغرف فكانت مزدانة بالدواوين النفيسة ، والمناضد الثمينة ، والمزهريات الخزفية ، والمرصعات والمذهبات البالغة حد الإتقان والإبداع . وكانت قصور الخليفة تتألق بالجواهر البراقة ، وقد سميت إيواناتها البديعة بأسماء زينتها ، فعرف أحدها بدار الشجرة لاحتوائه على شجرة مصنوعة من الذهب ، مكللة بأنواع الجواهر على شكل الثمار ، وقد وقفت على أفنانها أنواع الطيور المصنوعة من الذهب والفضة ، كذلك كان ثمة إيوان آخر يسمى « بإيوان الفردوس » تتدلى من سقفه الثريات الفخمة المطعمة بالجواهر ذات الألوان والنقوش البالغة حد السحر والبهاء . وقد كانت قصور العظماء المنيفة[1] تطل على النهر من كلا الجانبين ، وقد اكتنفتها الحدائق الغناء والبساتين المونقة ، والسلالم المرمرية المؤدية إلى حافة النهر الذى يفعم النفوس بالفتنة والإعجاب ، وذلك أن العين لم تكن لتقع إلا على ألوف الزوارق المزدانة بالأعلام التى تنعكس ألوانها على مرآتها المجلوة ، وهى تحمل ركابها المرحين من محل إلى آخر ، فى حين كانت ترسو على الأرصفة الممتدة إلى عدة أميال على ضفاف النهر الأساطيل الكاملة والسفن البحرية والنهريه من كافة الأحجام والأنواع .

الجوامع

اشتهرت المساجد الجامعة فى ذلك الحين بفخامة البناء ، وقد نافست إن لم تكن قد بزت مسجد الوليد بدمشق فى الإبداع الهندسى وفخامة الزخرف ، وقد كان فى كل حى من أحياء المدينة — علاوة على المسجد الجامع — مسجد خاص كما كان لكل مدينة فى جميع أنحاء الإمبراطورية مسجد جامع بالغ حد الإبداع فى الزخرف والبناء .

---

(١) يقول ناصرى خسرو وذلك فى القرن الحادى عشر : إن جانبى النهر حتى مدينة الأبله كانا مزدانين بالقصور والحدائق والبساتين .

الكليات والمستشفيات

كذلك أنشأ العرب فى العاصمة والحواضر كليات ومستشفيات وملاجئ[1] لكلا الجنسين ، وكان برأس الكلية عميد مستقل فى عمله . أما مستشفيات الدولة فكانت تحت إشراف أطباء مشهورين ، وقد كان أبو بكر الرازى[2] يشغل هذا المنصب فى عهد المكتفى ؛ ويلوح لنا أنه كان لكل ملجأ قاض غير أنه يصعب علينا فى الوقت الحاضر معرفة كنه الواجبات التى كانت ملقاة على عاتق هؤلاء القضاة ، كما بلغت الكلية النظامية التى شيدت فى عهد نظام الملك فى سنة ١٠٦٧ م والمستنصرية التى شيدها المستنصر بالله سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) شأواً عظيما من الشهرة والكمال فى العالم الإسلامى ، هذا عدا الكليات القديمة التى لم تكن لتقل عنهما شهرة ، وكان الطلاب يفدون عليها وعلى الكليتين الجديدتين من سائر أنحاء العالم ، كذلك كانت حواضر الولايات الأخرى تنافس العاصمة فى كلياتها التى كانت تشيد تحت رعاية الخليفة أو أحد أعيان[3] المدينة .

وكانت مواكب العباسيين تتشح دائماً بأثواب من الروعة والبهاء ، وتحدثنا الرواية العربية أنها فاقت مواكب الخلفاء الأمويين مع ما اشتهرت به من الرونق والبهاء ، إذ كان رجال الحرس الملكى يسيرون ببزاتهم الفخمة فى بادئ الأمر بين يدى الخليفة ، ثم صاروا يمشون بعد ذلك بين يديه بالسلاح ؛ وكان الهادى العباسى أول من أدخل هذا النظام ، ولكن الرشيد والمأمون كثيراً ما كانا يجنحان إلى البساطة فلم يكن يصحبهما غير حارس أو حارسين . وكان موكب

(١) دار الشفاء أو المارستان ، وكان المستشفى الذى بناه نور الدين محمود فى دمشق وسمى باسمه المارستان النورى بالغاً حد الفخامة كذلك كانت توجد مستشفيات للأمراض العقلية فى سائر أنحاء البلاد .

(٢) توفى سنة ٩٢٣ م .

(٣) وكان فى كل من هراة ونيسابور كلية نظامية أسسها نظام الملك ، كما أن صلاح الدين كان قد أسس كلية فى القدس وسميت بالناصرية ، وكان فى دمشق عدة مدارس أشهرها مدرسة الرواحية ومدرسة ست الشام أسستهما أخت صلاح الدين ، وكان فى الموصل المدرسة النورية والمدرسة الزينية والمدرسة العلية الخ .

الخليفة وعلى الأخص فى يوم الجمعة[1] والأعياد عند ما كان يقصد المسجد الجامع للصلاة تغمره الأبهة والجلال ، فكان يتقدم الموكب الغلمان أى (رجال الحرس) على اختلاف طبقاتهم يحملون الأعلام والمقارع والطبر زينات المحلاة[2] بالذهب ثم يليهم أمراء البيت المالك على الخيول المطهمة ، ثم الخليفة ممتطياً جواداً ناصع البياض و بين يديه الأشراف وكبار رجال الدولة ، ثم يأتى بعدهم بقية الغلمان .
وكان الخليفة فى تلك المواكب يلبس القباء الأسود أو البنفسجى الذى يصل إلى الركبة و يتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، و يتشح بعباءة سوداء ، و يلبس قبعة عالية مدببة تسمى بالقلنسوة[3] وقد زينت بجوهرة غالية و بيده قضيب النبى (ص) والخاتم ، وتتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر الثمينة ، أما القباء فكان مفتوحاً عند الرقبة فيبدو القفطان من تحته زاهياً ، كما كانت أكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم الذى أمر بجعلها فضفاضة ، و يقال إن عرض الأكمام بلغ ثلاثة أذرع .

حفلات الاستقبال

وكانت مجالس الخلفاء التى كان يقلدها الأشراف والولاة فى جميع الأمصار تعتمد فى فيض من البذخ والروعة والبهاء ، ولم تكن مراسيمها تختلف عما كانت عليه فى العصر الأموى ؛ فكانت الإيوانات الثلاثة المخصصة للاستقبال يجلس فيها رجال البلاط والأعيان ، وقد علقت على أبوابها الستور المزركشة ، وكان الخليفة يجلس فى الصدر على العرش و بين يديه مائة من صفوة الحرس فى أثواب زاهية وأزياء باهرة شاهرى السلاح ، كما كان يقف حوله يمنة و يسرة أشراف

---

(١) كان الخلفاء العباسيون لا ريب أكثر ثقافة من الأمويين ، إذ كانوا باستثناء عدد ضئيل جدا يرأسون صلاة الجمعة ويلقون الخطبة المعتادة .

(٢) كانت آلات الفرقة الموسيقية عبارة عن النفير (البوق) والدف والطبل والمزمار .

(٣) قد استرعى حجم وشكل لباس الرأس انتباه المستشرقين أمثال دوزى ولين ودسلين ونعتقد أنها كانت قبعة عالية مدببة من جلد الغنم سوداء اللون ، وقد أخذت القلنسوة على ما يظهر عن القبعة الفارسية القديمة ، وكان المنصور أول من لبسها وقد صغر المستعين بالله حجمها فيما بعد ، ويقول الزمخشرى بأن القلنسوة هى الكلة الفارسية .

الدولة والأمراء والأعيان ، وعند ما كان يرفع الستار الشفاف كان ينادى الحاجب باسم من يريد إدخاله فيقوم بتأدية الخدمة [١] والدعاء بحضرة الخليفة ، ثم يقف جانبا . أما المجالس الخاصة فكانت مقصورة على الأشراف وأمراء البيت المالك والعلماء ، وكان يراعى فى هذه المجالس خلوها من الحرس ورجال الجيش المسلحين وفيها كان يجلس ولى العهـد على أريكة تنصب له خصيصاً بالقرب من عرش الخليفة ، بينما كان رجال البلاط يجلسون فى صفين على جانبى العرش حسب درجاتهم ، وكان الخليفة يحادثهم أحسن محادثة ، كذلك كان الأطباء والفلكيون يروون أحدث اكتشافاتهم ، والشعراء ينشدون قصائدهم ، كما كان السياح يقصون أعجب ما رأوه فى رحلاتهم . ومما جرت به العادة فى شهر رمضان أن يدعو الخليفة إلى مائدته كبار موظفى الدولة أو يكلف وزيره أن يقيم لهم المآدب الفخمة ، كما كان يدعو فى عيد الفطر أشراف العاصمة فتنصب الأرائك فى صدر البهو لكى يجلس عليها بعض كبار الدولة ، أما إذا حضر الخليفة فكان أمراء البيت هم الذين يقومون بخدمته .

الملابس

كذلك كان العظماء والأشراف بطبيعة الحال يقلدون الخلفاء فى طرز اللباس غير أن الفقهاء والقضاة [٢] كانوا يلبسون العمامة والطيلسان إقتداءً بالنبى (ص) أما العلمانيون — إذا جاز لنا أن نسميهم كذلك — فكانوا يلبسون القلنسوة وحدها ، وتحتها كلوتة من الحرير الأبيض ، ولكنهم اقتصروا فى لبسها على داخل البيت فحسب ، وقد استعاضوا عنها فيما بعد بكلوتة خفيفة بنفسجية ، ثم استبدلوها فى العصور المتأخرة بالطربوش . وكان اللباس العادى للطبقة الراقية

(١) كان من عادة العرب أن يحيوا الخليفة بوضع اليد اليمنى على الصدر وإحناء الرأس قليلا ثم رفع اليد إلى الجبهة ولم يمارسوا العادة الفارسية بإحناء الرأس والتطامن والبلوغ إلى حد الركوع وتعفير الوجه وتقبيل الأرض لأنها لا تتناسب وروحهم الاستقلالى .

(٢) كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص مبطنة وطيلساناً أسود ، وأول من غير لباس العلماء أبو يوسف قاضى الرشيد (ابن خلكان ص ٢٠٣ ج ٢) . (المعرب)

فى العهد العباسى يشتمل على سروال فضفاض وقميص ودراعة وسترة وقفطان ، وقباء وقلنسوة مع عباءة أو جبة ، وكان الأغنياء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد و يسمونها «موزاج» ، وكانت ثمة فروق ملحوظة فى ملابس أصحاب المهن المختلفة . أما لباس العامة فكان يشتمل على إزار (بنطلون) وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى « قمر بند » ، وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال . أما الجنود خاصة فكانوا يلبسون الأحذية فى حين كان بعض الأعيان ينتعل كليهما فى وقت واحد ، غير أنهم كانوا يخلعون الحذاء الخارجى المسمى « بالجرموك » عند دخول المساجد أو القصور .

ملابس النساء

تطورت ملابس النساء فى العهد العباسى تطوراً محسوساً عما كانت عليه فى العصر الأموى[١] إذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية لغطاء الرأس « البرنس » المنضد بالجواهر والمحلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة ، و يعزى ابتكار هذا الغطاء إلى « علية » أخت الرشيد ؛ وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب[٢] بزنار البرنس للزينة ؛ أما نساء الطبقة الوسطى فكن يزين رؤوسهن بحلية مسطحة من الذهب ، و يلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ، وكان هذا اللباس بالغاً حد الأناقة والبهاء ، ولهذا ظل مستعملا حتى زمن متأخر جداً كذلك كن يلبسن الخلاخل فى أرجلهن والأساور فى معاصمهن وأزنادهن ، ولم يكن يجهلن أدوات التجميل ؛ ومن الجلى أنهن أخذن فن صبغ الشفاه والخدود عن الفارسيات اللواتى كن يستعملنه منذ أقدم العصور ، مع أن نقطة الحسن الاصطناعية كانت مما يتجمل بها الأعرابيات . وكان من أوصاف الفتاة الجميلة

(١) كانت الست زبيدة كزوجها تؤثر على طرز اللباس فى عصرها ، ويعزى إليها اختراع الأحزمة والنعال المرصعة بالجواهر .

(٢) مع أن ملابس الرجال تغيرت تغييراً عظيما فى القرون السالفة ، فإن طراز لباس النساء لم يدخل عليه تغيير يذكر .

أن تكون طويلة القامة ، نحيفة القوام ، متناسبة أعضاء الجسم ، بيضاء البشرة ، ذات عينين واسعتين سوداوين [١] .

مركز المرأة

لم يكن مركز المرأة فى العهد العباسى يختلف عما كان عليه فى العهد الأموى ، إذ لم يعمم فى الواقع نظام إقصاء النساء إلا فى عهد « القادر بالله » الذى عمل أكثر من غيره من الخلفاء المتأخرين على تعطيل نهضة العالم الإسلامى ، وتحدثنا الرواية العربية أن ابنتى عم المنصور سارتا فى عهده إلى ميدان القتال ، واشتركتا فى إحدى المعارك الفاصلة التى دارت بين الجيش العباسى و بين مروان الأموى ، كذلك كانت بعض السيدات فى عهد الرشيد يمتطين صهوات الجياد ، و يقدن الجنود إلى ميدان الوغى ؛ والمأثور عن أم المقتدر أنها كانت ترأس بنفسها المحكمة العليا ، كما كانت تجلس للمظالم ، وتستقبل الأشراف والسفراء الأجانب . والمعروف أن المجالس التى كانت تعقدها النساء المثقفات لم تعطل إلا فى عهد « المتوكل » ؛ وتقول لنا الرواية : إن النساء فى عهدى الرشيد والمأمون كن يناظرن الرجال فى شتى نواحى الثقافة والفكر ، و يشتركن فى نظم القصائد و بعث روح الحياة فى المجتمعات بكمالهن و بهائهن ، وكانت الملكة زبيدة سيدة موهوبة ، وشاعرة مثقفة ، وكثيراً ما كانت تبعث برسائلها المفرغة فى أبيات شعرية إلى الرشيد ، وتدل القصيدة [٢] التى أرسلتها إلى المأمون بعد مصرع ولدها الأمين

(١) غير أن شهرة زرقاء اليمامة تؤيد لنا إعجاب العرب بالعيون الزرقاء .

(٢) ينسب ابن الأثير (ص١١٨ ج ٦) هذه القصيدة إلى خزيمة بن الحسن الذى رثى الأمين على لسان أمه زبيدة وهى تخاطب المأمون ، وفيما يلى بعض أبياتها :

لخير إمام قام من خير عنصر ... وأفضل سام فوق أعود منبر
لوارث علم الأولين وفهمهم ... وللملك المأمون من أم جعفر
كتبت وعينى مستهل دموعها ... إليك ابن عمى من جفون ومحجر
وقد مسنى ضر وذل كآبة ... وأرق عينى يا ابن عمى تفكرى
وهمت لما لاقيت بعد مصابه ... فأمرى عظيم منكر جد منكر
سأشكو الذى لقيته بعد فقده ... إليك شكاة المستضيم المقتر
... ...

(المعرب)

على ذكاء خارق ، وشعور فياض . أما « بوران » فقد سبق أن ذكرنا خصالها .
ويصف لنا مؤلف الأغانى عبيدة الطمبورية[1] التى عاشت فى عهد المأمون والمعتصم بأنها كانت على جانب عظيم من الجمال والفضيلة والذكاء ، وكانت تعزف بمهارة على الآلة التى عرفت باسمها ؛ كذلك تألق نجم « فضل » الشاعرة المشهورة فى عهد المتوكل ، ويلوح أنها عاشت فى قصره ردحا من الزمن حتى أعتقها فتزوجت وعاشت فى بغداد ، ويأتى شعرها فى الطبقة الأولى من الشعراء ؛ كما كانت فخر النساء « شهدة الكاتبة » — التى تألق نجمها فى القرن السادس الهجرى — تحاضر فى بغداد فى التاريخ والشعر ؛ وكانت أم المؤيد زينب التى عاشت فى حوالى مستهل القرن الثانى عشر الميلادى ، ومنتصف السادس الهجرى[2] معدودة من أشهر الفقهاء ، وقد أدركت جماعة من أعيان العلماء ، وأخذت عنهم رواية وإجازة ؛ وفى عهد صلاح الدين اشتهر ذكر تقية بنت أبى الفرج الشاعرة المشهورة ، وكانت تحاضر فى الحديث .

وبالرغم من الانحطاط الذى عم البلاد فى القرن الحادى عشر ، وانحلال الروابط الاجتماعية والسياسية فى آسيا الغربية كانت المرأة لا تزال ، وخاصة فى شيراز ، مثار إعجاب الفرسان ، ومحط العناية والاهتمام ، إذ كانوا يعتبرون الزواج رابطة مقدسة ، كما كانوا يعتبرون الأطفال وبالأخص البنين منهم نعمة من نعم الله ، وكان يوكل أمر تربيتهم إلى الأم فى بادئ الأمر ، فإذا ماشبوا عن الطوق أرسلوا إلى المدرسة أو الكتاب ، أما البنات فكن ينشأن على الفضيلة وصفاء السريرة[3] .

الموسيقى

لم تكن الموسيقى فى العهد العباسى قد قاومها الفقهاء بعد ، فكان الرجال والنساء يعملان على رفع شأنها ، وكانت الأميرة علية ، وهى معروفة بفضلها

(١) كتاب الأغانى الجزء ٩ ص ١٣٤ .
(٢) ولدت سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠م) وتوفيت سنة ٦١٥هـ (١٢١٨ — ١٢١٩م) .
(٣) كتاب الاعتبار ص ١٠٠ .

وورعها إحدى شهيرات عصرها فى الموسيقى ، ولها ذوق سليم فى وضع الأنغام والألحان ، وقد شاد صاحب كتاب الأغانى[١] بتآليفها ، ولم يكن أخوها إبراهيم يقل عنها نبوغا وحذقا ، كما كان الخليفة الواثق عالما بالموسيقى مشهوراً بالعزف ، وكثيراً ما كانت الأميرات وسيدات الطبقة الراقية يشتركن فى حفلات موسيقية خاصة تسمى « بنو بات الخاتون » ، وكانت فرقة العزف تتشكل من مائة عازف يديرها رئيس كما يديرها رئيس « الأوركسترا » فى العصر الحاضر ، أى بطريقة التلويح بالعصا طبق الألحان .

الأثاث والرياش

كان قد ذاع استعمال الكراسى والمقاعد فى العهد الأموى ، واقتنى العباسيون النمارق والديوان وهو عبارة عن مصليات بمخادها ومساندها ومطارحها تفرش على جوانب الغرفة ، وكانوا يجلسون إلى الطعام على الديوان أمام مناضد مصنوعة من الأبنوس أو الصدف أو المحار . وكان للواثق خوان من الذهب توضع عليه صينية كبيرة مستديرة من الفضة أو النحاس ، مغطاة بقماش أبيض فيه صحاف الفضة الصينى ، فى حين كانت تستعمل عامة الناس صحاف النحاس ، وكانت توضع بجانب كل صحفة معالق من الصين أو الأبنوس مع الخبز ، أما الأشواك — التى كانوا يسمونها أمجال (وبالفارسية جنكال) — فلم يكن يستعملها سوى الأغنياء ، وكان يقدم (الشربت) وهو الشراب الاعتيادى فى أكواب من الزجاج ذات أغطية ، ويصنع من الماء والسكر الممزوج بمسحوق زهر البنفسج أو الورد والتوت أو القرصيا ، أما الخمر فكانوا يستحضرونها من التمور أو الزبيب . ويحدثنا المؤرخون أن الوزراء كانوا يعقدون فى منازلهم مجالس يحضرها القضاة والفقهاء لارتشاف كؤوس القهوة[٢] . وقد استعملت كلمة (النديم) لأول مرة فى عهد الرشيد ولم تكن تحمل فى أطوائها أى معنى يحط من قيمتها ، وكان

---

(١) وهو أيضاً مؤلف تراجم الموسيقيات (كتاب القيان) .

(٢) يقال إن القهوة المصنوعة من البن لم تكتشف إلا فى سنة ٦٥٦ هـ من قبل شخص اسمه الشيخ عمر على مقربة من مخا غير أنه لم يعم استعمالها إلا فى القرن التالى .

من أول واجباته تسلية مولاه بكياسته وظرفه وحسن تصرفه .

الألعاب

ومن بين الألعاب التى كانوا يتلهون بها داخل المنازل لعبة الشطرنج التى أدخلها الرشيد فى آسيا الغربية ، وانتشرت بسرعة عند العرب حتى حلت محل الورق والزهر ، ومنها أيضاً الرمى بالنشاب والصيد بالبندق ولعبة الجوكان والصولجان والجريد ، وكذلك سباق الخيل والمصارعة والمبارزة والقفز سواء على الأقدام أو على متون الخيل فى الميادين العامة أو المباراة (بالجريد) ، وكان للمبارزة والسباق فى الحلبة شأن وأى شأن فى العاصمة والحواضر الكبرى .

كذلك كانوا يلعبون الصولجان والكريكيت والتنس ويسمونها لعبة « القراح » . أما النساء فكن يمارسن لعبة الرمى بالسهام ، ولم يكن الرقص فى بادىء الأمر مقصوراً على الطبقات المحترفة فحسب ، بل كثير من فتيات الطبقة الراقية كن يشتركن فى الرقص أيضاً ، بيد أن تكاثر الجوارى والراقصات المحترفات أدى إلى انحطاط مستوى الشعب بسرعة .

الصيد

كان الصيد تسلية الملوك والأعيان ، فكان الخلفاء العباسيون — ما عدا القليل منهم — مولعين بهذا الضرب من الرياضة ، وتدلنا الكتب التاريخية على أنهم كانوا إلى عهد « المستنجد » يقومون برحلات صيد منظمة ، ويقال إن حب صلاح الدين للصيد كاد يوقعه هو وأولاده ذات مرة فى قبضة الصليبيين ، وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير والفهود والغزلان على أنواعها والطيور والجوارح .

المجالس

وكانت المجالس الاجتماعية والحلقات الأدبية تعقد فى منازل الأعيان حيث كان يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة ، وفى عهد المأمون نشأت النوادى الأدبية التى كان يؤمها العلماء للبحث والمناظرة وبخاصة فى المواضيع الفلسفية ؛ ومع أنهم كانوا يلاقون ضروب الاضطهاد وبالأخص فى عهدى المتوكل والمعتضد إلا أنهم ظلوا يواصلون الاجتماعات ويزيدون فى ثروة الفكر الإنسانى حتى سقوط

بغداد ؛ وكان (الوراقون) بائعو الكتب يحتلون مركزاً مهماً فى الهيئة الاجتماعية فى ذلك الحين ، إذ كانت مكتباتهم ملجأ يقصده طلاب العلم والعلماء ، وفى تلك المكاتب بصفة كونها أماكن محايدة كان يجتمع فيها المعتزلة والأشعرية و يتجادلون فى القضاء والقدر والتجسيم و بعث الأرواح فى أشكالها الجسدية وما إلى ذلك ؛ ولم يكن أصحاب المكاتب يقتصرون على بيع الكتب فحسب بل كانوا أيضاً يعملون على نشرها بين الجمهور ، إذ كان فن الكتابة قد وصل إلى درجة عظيمة من الكمال ، بحيث أصبح فى الإمكان عرض أحسن الكتب على الجمهور بأثمان زهيدة لا تزيد على الدينار الواحد أو ما يساوى ثلاثة عشر شلنا وست بنسات .

ليس من السهل أن نلم فى الصفحات القليلة من هذا الكتاب بما أسداه العرب من الخدمات الجليلة إلى الفكر الإنسانى فى خلال الخمسة القرون ، ولكنا نرى مع ذلك أن هذا البحث لا يكون كاملا ما لم نأت على وصف موجز لما قام به العرب من الأعمال فى ترقية العالم ونهضته . وقد ذكرنا فيما تقدم مبلغ ازدهار الفنون والآداب والعلوم فى عهدى الرشيد والمأمون ، وسنقتصر فى البحث التالى على أهم خصائص الناحية الفكرية فى التاريخ العربى .

البوصلة البحرية

اخترع العرب البوصلة البحرية التى ساعدتهم على القيام برحلات إلى جميع أنحاء العالم طلباً للعلم أو الاتجار ، فأسسوا المستعمرات من شاطىء أفريقيا حتى جزائر الأرخبيل الهندى وعلى سواحل الهند وجزيرة مالايا ، وتوغلوا فى بلاد الصين ، وغدت البصرة ثغراً تجاريا هاماً تتجر مع الهند وكاثاى ، واخترقت قوافلهم شمالى أفريقيا وصحراءها عن طريق المغرب ، ونقلوا البضائع من ثغور البحر الأبيض المتوسط إلى أسبانيا وصقلية و إيطاليا وفرنسا ، وأصبحت طرابزون حلقة التجارة مع الدولة البيزنطية ، ونشطت قوافل بغداد إلى أواسط آسيا وشمال الهند بحذاء الخليج الفارسى ، وامتدت تجارتهم إلى بحر قزوين والبحر

الأسود ، وتغلغلوا فى روسيا حتى وصلت النقود العباسية إلى شواطىء البلطيق وداخل السويد .

اكتشافات العرب

كذلك اكتشفوا الآزور ، والمظنون أنهم وصلوا إلى أمريكا وقاموا فى القارات القديمة بحركة لم يسبق لها مثيل فى تشجيع مختلف النشاط الإنسانى ، وقد أوصى النبى العربى (ص) بأن يعمل المسلم لدنياه كأنه يعيش أبداً ، وذكر أن الاجتهاد من الإيمان ، كذلك أوصى بمزاولة التجارة والزراعة ، وقد أثرت هذه التعاليم والأحاديث تأثيرها الطبيعى فى قلوب المؤمنين ، وكانت طبقات التجار والصناع والزراع ينالون ضروب الاحترام والتوقير ، ولم يكن الحكام والقواد وكبار رجال الدولة يستنكفون من أن يسموا بأسماء مهنهم التى كانوا يمتهنونها من قبل .

أما رهط العلماء والأدباء الذين تألق نجمهم فى ذلك العهد الطويل ، فقد وجهوا همهم إلى جميع فروع الدراسات ، ولم يتركوا موضوعا إلا وأشبعوه بحثاً وتمحيصاً ، فألفوا فى النحو والآداب والبلاغة وفلسفة اللغات والجغرافية والحديث والرحلات ، كما ألفوا معاجم اللغة والتراجم ، وزادوا فى ثروة العالم التاريخية والشعرية ، وأضافوا إلى كنوز العلم أبحاثا جديدة ، كما شجعوا الحركة الفكرية بمناقشاتهم الفلسفيه ؛ وإنا نجد المسيو « سيديو » لا يعدو الواقع فى قوله « إن الكنوز الأدبية العظيمة التى أوجدها العرب فى ذلك العصر ونتاج نبوغهم العلمى واختراعاتهم الثمينة تنهض دليلا على نشاطهم الفكرى ، وتؤيد الرأى القائل بأن العرب هم أساتذتنا فى كل شىء ، إذ أنهم زودونا بمواد جليلة القيمة فى تاريخ العصور الوسطى ، وبأسفار مجيدة فى التراجم ، وتركوا لنا صناعة لا مثيل لها ، وفنا معماريا آية فى الروعة والجمال ، واكتشافات هامة فى الفنون والصناعات » . ومما هو جدير بالذكر أن العرب فى أثناء ذلك العهد واصلوا بحوثهم العلمية المختلفة بنشاط عظيم ، كما وجه أقدر العلماء جهودهم إلى الكيميا وعلم النبات والجيولوجيا والتاريخ الطبيعى ؛ ويعتبر أبو موسى جعفر الكوفى هو المؤسس الحقيقى لفن

الـكيميا الحديثة ، وقد حذا حذوه رجال تثير أعمالهم الجيدة و إبداعهم وغزارة معلوماتهم ودقة ملاحظاتهم إعجاب أشهر علماء العصر الحاضر . و يقال إن علم الطب وفن الجراحة قد تطوروا على أيديهم تطوراً هاما ؛ ولا ننسى كذلك أنهم هم الذين اخترعوا علم القربزين ، و إليهم يرجع تأسيس العيادات الخارجية ، وتشييد المستشفيات العامة التى أطلقوا عليها اسم دار الشفاء أو مارستان (مختصر بمارستان) .

كذلك أنشئت فى بغداد وفى معظم الحواضر حدائق فسيحة لدراسة علم النبات والأزهار، حيث كان أشهر العلماء يلقون المحاضرات على الطلاب . فكأن نهضة إحياء العلوم فى الدولة العباسية لم تكن إلا مظهراً من مظاهر النهضة العامة التى وسعت كل شؤون الحياة فيما بعد ، شأن نهضة (Reneissance) القرن التاسع عشر فى أوربا ، إذ قام العلماء برحلات إلى البلاد الأجنبية ودونوا حقائق هامة عن أهلها وأرضها ؛ ومن أشهرهم مسلم بن حمير(١) وجعفر بن أحمد المروى وابن فضلان وابن خرداذبة(٢) وجيهانى والمسعودى والأصطخرى(٣) وابن حوقل(٤) والبيرونى(٥) وياقوت الحموى(٦) صاحب معجم البلدان ، والبكرى والمقدسى والإدريسى .

وقد زار البيرونى(٧) بلاد الهند وأقام ردحا من الزمن بين أهلها حيث درس

---

(١) سنة ٨٤٥م .

(٢) عاش فى زمن المعتضد وتوفى حوالى سنة ٩١٢م .

(٣) عاش حوالى سنة ٩٩١م .

(٤) توفى حوالى سنة ٩٧٦م .

(٥) توفى فى غزنة سنة ١٠٣٨ م .

(٦) ولد مؤلف معجم البلدان سنة ١١٧٥م ، وتوفى سنة ١٢٢٩م .
كان البكرى (أبو عبيد عبدالله) أندلسيا وقد توفى سنة ١٠٩٤م . وتوفى الأدريسى سنة ١١٦٤م .

(٧) كان أبو ريحان محمد بن أحمد من أهالى خوارزم ، وقد تألق نجمه فى عهد محمود ملك غزنة .

شتى لغاتهم ومختلف علومهم وفلسفاتهم وآدابهم ، وأطلع على تباين عاداتهم وأخلاقهم وقوانينهم وتعدد دياناتهم وخرافاتهم ، وأحوال بلادهم الجغرافية والطبيعية ، ثم صنف كتابا جمع فيه ما عن له من الملاحظات السديدة ، ومزجها بأقوال فلاسفة اليونان أمثال هوميروس وأفلاطون ، كذلك له عدة تواليف فى الفلك والرياضيات والجغرافية الطبيعية والكيميا والتاريخ والطبيعيات .

كذلك نبغ الرحالة المشهور والأديب المعروف ناصرى خسرو المولود فى قرية كوبديان ، فقد قام برحلته المشهورة فى سنة ١٠٤٦ م فزار نيسابور ، وقُم ، وتبريز ، وخلاط ، وحلب ثم الشام ، ومنها عرج على صور وصيدا والقدس ، ثم سافر إلى مصر فالحرمين والأحساء والبصرة ، ومن ثم قفل راجعاً إلى بلخ ، ويعد كتابه المسمى بالسفرنامه[1] (Safar Nameh) من أشهر كتب الرحلات فى جميع اللغات .

التاريخ

وقد كانت كتب التاريخ فى ذلك الحين من الضرورى أن تشتمل على علم الآثار والسلالات البشرية وخصائصها ، وقد تفرغ بعض قادة الفكر إلى هذه الدراسات ، ومنهم البلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ — ٨٩٢م وهو مولود فى بغداد ، وفيها وضع كتبه العديدة ولا سيما « فتوح البلدان » الذى وضعه بأسلوب بارع يدل على أنه خطا خطوات واسعة فى تفهم روح التاريخ ؛ كذلك ألف الهمذانى الذى تألق نجمه فى أواخر القرن الثالث ومستهل القرن الرابع الهجرى — تاريخاً شاملا لجنوب جزيرة العرب فصل فيه أحوال القبائل وآثارها ، وعقد فصلا خاصا عن جغرافية اليمن ، وبحث فى سلالة سكانها ؛ وبالرغم من كل ذلك فإن نشاط الفكر العربى فى ذلك العهد يبدو لنا واضحاً جليا فى مؤلفات المسعودى والطبرى وابن الأثير ، وقد نبغ هؤلاء ومن خلفهم[2] من المؤلفين المشهورين

(١) طبع المسيو شيفر (Schefer) متنه بالفارسية وترجمته بالفرنسية مع الحواشى والتعليقات .

(٢) أمثال المقريزى وابن خلدون وأبى الفداء وأترابهم .

أمثال المقريزى وابن خلدون وأبى الفداء فى وضع الموسوعات والمصنفات الفلسفية والرياضية والجغرافية والتاريخية . وتقول الرواية : إن « المسعودى » من أسرة نشأت فى بغداد ، وإن كانت تنتسب فى الأصل إلى قبيلة من قبائل الشمال ، وتقوم معظم شهرته على طوافه فى أوائل شبابه فى معظم أنحاء العالم الإسلامى ، فزار الهند ومولتان والمنصورة وفارس وكرمان ، ثم قفل راجعاً إلى الهند حيث أقام مدى حين فى كمباجة والدكن ، ومنها شد الرحال إلى جزيرة سيلان ، ثم أبحر إلى كمبالو (مدغشقر) وعاد إلى عمان ، ولعله وصل إلى شبه جزيرة الصين الهندية و بلاد الصين ، ثم توغل فى أواسط آسيا ووصل إلى بحر قزوين ، و بعد أن قام برحلاته العديدة عاش مدة بطبرية وأنطاكية ، ثم عاد إلى البصرة حيث ألف كتابه المشهور « مروج الذهب » ، ثم نزل الفسطاط (القاهرة) حيث وضع « التنبيه ومرآة الزمان » وهو كتاب ضخم لم يبق منه إلا النزر اليسير ، وهو يذكر لنا فيه اختباراته الواسعة بأسلوب شيق جذاب ، يدل على أن صاحبه جاب أكثر أنحاء العالم واختبر الحياة حلوها ومرها ، كذلك اعتنى بوجه خاص بأن يكون كتابه خلواً من الأسانيد والإسهاب الممل ، كما ضمنه كثيراً من الحوادث المدهشة الجذابة ، وصور لنا أحوال الأمم وأخلاقهم ونوادرهم بمهارة نادرة المثال .

الطبرى وهو يلقب « بأبى جعفر محمد بن جرير » المتوفى فى بغداد سنة ٩٢٢ م . وتاريخه مرتب على السنين ينتهى إلى حوادث سنة ٩١٤ م وقد زاد عليه ابن الأثير ما حدث بعده إلى نهاية القرن الثانى عشر .

ابن الأثير وهو يلقب « بعز الدين » من أهالى جزيرة بنى عمر فى العراق ، ولكنه كان يقيم بضواحى الموصل حيث كانت داره الجميلة موئل الأدباء والعلماء . أما تاريخه العام المشهور « بالكامل » فينتهى إلى حوادث سنة ١٢٣١ وهو يضارع أحسن كتب التاريخ العصرية فى أوربا ، وللمؤلف أيضاً تاريخ «أتابكة» الموصل .

النجوم والفلك نبغ العرب فى جميع مناحى الدراسات العلمية فاشتهر «ماشاء الله» و «أحمد

ابن محمد النهاوندى » أقدم فلكيي العرب فى عهد المنصور ، كذلك برع فى عهد المأمون فلكيون مشهورون أمثال « سند بن على » و « يحيى بن أبى منصور » و « خالد بن عبد الملك » ؛ ومن أعمالهم المأثورة أنهم رصدوا الكسوف والخسوف والاعتدال الشمسى وشبح المذنبات ، وظاهرات فلكية أخرى أضافت معلومات جديدة إلى ثروة الفكر الإنسانى ؛ و بأمر المأمون ترجم محمد بن موسى الخوارزمى كتاب السيد هنتا[1] أو الجدول الهندى بحركات الكواكب ؛ وألف الكندى مائتى كتاب فى مختلف المواضيع كالحساب والهندسة والفلسفة وعلم الظواهر الجوية والبصريات والطب ؛ وقد تخصص أبو معشر البلخى فى الرياضيات ، وتعمق فى علم النجوم وألف فيه كتباً كثيرة ، وظل حسابه المشهور باسمه من أعظم مراجع العلوم الفلكية ؛ وكان «موسى بن شاكر» مهندساً بارعا فى عصر الرشيد ، كما نبغ أولاده فى عهد المأمون والمعتصم والواثق ، واشتهروا فى علم النجوم وقاسوا للمأمون درجة خط نصف النهار ، واستعملوا فيها محيط الأرض ، وقاموا باكتشافات مدهشة فى حركة الشمس و بعض الكواكب الأخرى ، وتحققوا من حجم الأرض وانحراف سمت الشمس ؛ أما « أبو الحسن » فقد اخترع آلة الرصد (التلسكوب) الذى يصفه بأنه أنبوب مثبت فى طرفيه عدسات . وقد واصل « النايزيرى » و « محمد بن عيسى أبو عبد الله » أبحاث « بنى شاكر » ، كذلك كان « البتانى »[2] فلكياً مشهوراً ترجمت حساباته الفلكية إلى اللغة اللاتينية ، واعتمد عليه العلماء فى أوربا عدة قرون ؛ ومن جملة الفلكيين المشهورين الذين عاشوا فى بغداد فى نهاية القرن العاشر « على بن أماشور » ، و « أبو الحسن على بن أماشور » المعروفان « ببنى أماشور » ، ومن مآثرهما

---

(١) جاء فى كتاب تراجم الحكماء « أن المنصور أمر بنقل كتاب « السيد هنتا » إلى العربية وأن يؤلف فيه كتاب يتخذه العرب أصلا فى حركات الكواكب ، فتولى ذلك محمد بن إبراهيم الفزارى » . (المعرب)

(٢) توفى سنة ٩٢٩م .

احتساب حركات القمر . كذلك نبغ فى عهد « آل بويه » رهط من الفلكيين والأطباء والرياضيين أشهرهم « الكوهى » وأبو الوفاء ، فدرس الأول منهما حركة الكواكب ، وتعد اكتشافاته على أعظم جانب من الأهمية العلمية . أما أبو الوفاء فهو من أهل خراسان ولد سنة ٩٣٩ ، ووفد إلى العراق سنة ٩٥٩ ، وتفرغ لدراسة الرياضيات والفلك ، وهو الذى ابتكر الخط المماس المستعمل فى حساب المثلثات والرصد الفلكى .

وكان ابن يونس المتوفى سنة ١٠٠٩ فلكياً مشهوراً ورياضيا بارعا ، وقد واصل اكتشافاته كل من ابن النابدى المتوفى فى القاهرة سنة ١٠٤٠ ، والحسن ابن الهيثم المعروف فى أوربا بالهازن ، وقد تألق نجمه فى أواخر القرن الحادى عشر وكان فلكيا مشهوراً وعالما كبيراً ، ولد فى الأندلس ولكنه عاش فى مصر ، واشتهر فى أوربا بتآليفه فى علم البصريات التى ترجم أحدها إلى اللغات الأوربية ؛ ولا ننسى فى ختام هذا البحث عمر الخيام ، الشاعر العظيم ، والرياضى الفلكى المشهور .

الفلسفة

أما الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة فقد برع فيها العرب براعتهم فى علوم الفلك والرياضيات ، وأشهر من درس الفلسفة من العرب وأذاعها فى المشرق الكندى والفارابى وأبو على بن سينا ، ويعرف هؤلاء بأنهم أشهر فلاسفة العرب على وجه الإطلاق ؛ ويسمى « الكندى يعقوب بن أسحق[1] المتوفى سنة ٨٦١م بفيلسوف العرب ، ويعرف « أبو نصر الفارابى[2] المتوفى سنة ٩٥٠ عند العرب بأرسطو الثانى وهو معلم ابن سينا[3] الذى كان من أعظم أبطال الفكر وأشهر الأطباء الذين أنجبهم العالم ، وهو معروف فى أوربا باسم (avicenna) وله شهرة عالمية واسعة .

(١) توفى سنة ٨٦١م .
(٢) توفى سنة ٩٥٠م .
(٣) توفى سنة ١٠٣٧ م .

الشعر

يصعب أن نقدم مجموعة تاريخية من الشعراء الذين نبغوا فى ذلك العصر ، ونظموا القصائد بالعربية والفارسية ، ويستطيع القارىء أن يراجع «الأغانى» و «ابن خلكان» لمعرفة جميع الشعراء المشهورين ، ولكننا نكتفى فى هذا المقام بسرد أسماء بعض الشعراء لندلل على خصوبة الفكر العربى[١] .

تألق نجم أبى نواس[٢] فى عهد الأمين وهو يعد فى طبقة امرىء القيس أحد الشعراء المشهورين فى الجاهلية ، ويليه فى المرتبة أبو تمام حبيب[٣] الذى يقول فيه «ابن خلكان» : «لقد فاق معاصريه فى صفاء الأسلوب وحسن الديباجة وبلاغة العبارة» ؛ كذلك نبغ البحترى فى القرن التاسع عشر ، فجمع ديوان الحماسة كأبى تمام ؛ غير أن أبا الطيب المتنبى[٤] فاق معظم المتقدمين من الشعراء وكان يتمتع بعطف سيف الدولة أمير الدولة الحمدانية فى الموصل . ومن بين الشعراء الذين نظموا بالفارسية الدقيقى والفردوسى فى عهد السلطان سنجار ، وفريد الدين الصيدلى الذى قتله التتر ، وجلال الدين الذى تألق نجمه فى عهد السلطان إبراهيم سلطان غزنة .

---

(١) تقسم الشعراء إلى أربع طبقات :

١ — الجاهليون ويمتازون بالبساطة والخشونة وأشهرهم أصحاب المعلقات .

٢ — المخضرمون وهم وسط بين البداوة والحضارة وأشهرهم حسان بن ثابت وكعب ابن زهير وجرير والأخطل والفرزدق . ويقول ابن خلدون : «لما جاء القرآن وشاع حفظه وعنى الناس بجمع الآداب ارتقت أذواقهم فى البلاغة ، ولذلك كان الشعراء الإسلاميون أعلى طبقة فى البلاغة من شعراء الجاهلية ، فشعر حسان بن ثابت ، وعمر بن أبى ربيعة ، والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وذى الرمة والأحوص أرفع طبقة فى البلاغة والتفنن فى أساليب التعبير من شعر النابغة الذبيانى وعنترة العبسى وابن كلثوم وزهير وعلقمة وطرفة .

٣ — المولدون وهم معاصرو الرشيد والمأمون ، ويمتازون بالرقة والخلاعة وأشهرهم بشار بن برد وأبو العتاهية وأبو نواس وأبو تمام والبحترى .

٤ — وأما الطبقة الرابعة فهم الذين اشتهروا بعد انتشار الفلسفة اليونانية وعلم الكلام وفى شعرهم صبغة فلسفية مثل المتنبى والمعرى والشريف الرضى وصفى الدين الحلى .
(المعرب)

(٢) ولد سنة ٧٦٣ م .

(٣) توفى سنة ٨٤٥ م .

(٤) قتل سنة ٩٦٥ م .

وكان أول من كتب فى التراجم « أبو الفرج محمد بن إسحق[١] » الملقب بابن النديم ، فأودع كتابه الفهرست ضروبا شتى من العلوم والمعارف ، وذكر عدة مؤلفين ومؤلفات مدللا على خصب الإنتاج الأدبى عند العرب ؛ ويعد كتاب ابن خلكان[٢] — المسمى بوفيات الأعيان — مجموعة فريدة من التراجم الممزوجة بمختلف الفوائد الأدبية والعلمية ؛ وكان سيف الدولة من أعظم مشجعى أبى الفرج على بن الحسين الأصفهانى[٣] مؤلف كتاب الأغانى المشهور ، وليس هذا الكتاب كما يدل اسمه مجموعة من الأغانى فحسب ، بل يحتوى أيضاً على تراجم جميع الذين ألفوا فى الأصوات وأشعارهم ، ويشتمل فوق ذلك على فوائد ذات بال فى تاريخ العرب وآدابهم .

الخط العربى

كان فن الخط العربى معروفا عند قريش قبل انتشار الإسلام بقليل ويقال إن الذى اخترعه هو « مورامير بن مراسا » من أهالى الأنبار قرب الحيرة ، ولما انتقل الخط إلى الحيرة تعلمه حرب[٤] بن أمية خلال زيارته لعاصمة المناذرة[٥] ثم علمه لجماعة من أهل مكة فانتشر بين قريش ، ويظهر أنه كان لسكان اليمن الحميريين أسلوب خاص فى الكتابة لعله كان صوتياً . ويقول ابن خلكان إن آل حمير كانت لهم كتابة خاصة تسمى بالمسند حروفها منفصلة غير مرتبطة ، وكانوا يمنعون العامة من تعلمها ، ولم يكن ليجرؤ أحد على استعمالها دون إجازة ؛ فلما جاء الإسلام لم يكن فى اليمن من يعرف القراءة والكتابة .

وفى نهاية العهد الأموى تطور الخط الكوفى إلى عدة أشكال كان أعمها الخط النسخى ، وفى نهاية القرن العاشر ، ومستهل القرن الحادى عشر أدخل

---

(١) سنة ٩٨٧ م .
(٢) ولد سنة ١٢١١ م وتوفى سنة ١٢٨٢ م :
(٣) توفى سنة ٩٦٧ م .
(٤) هو جد معاوية بن أبى سفيان .
(٥) يقال إن معلمه اسمه اسلام بن سدرة .

الخطاطان العربيان المشهوران أبو الحسن المعروف بابن البواب وأبو طالب المبارك تحسينات جمة على الخط النسخى ، وفى عهد صلاح الدين ذاع خط عريض يسمى بالثلثى ، ويظهر أنه مأخوذ عن الخط النسخى والخط النستليق الفارسى .

المذاهب

تعددت المذاهب — كما كان متوقعاً — خلال ذلك العصر ، غير أن المذهب الرسمى للدولة كان المذهب الحنفى أو « الأشعرى » كما كان يسمى فى تلك الأيام ، غير أن الحنابلة كانوا يتغلبون على علماء الحنفية إذ كانوا يميلون إلى الشعب فاحتلوا بذلك مكانة سامية فى قلوب رعاع بغداد ، وأصبح لهم عليهم نفوذ لا يقاوم ، وكان المذهب الشافعى ينتشر بين المتعلمين ، كما اعتنق الكثير من أهالى الشام وثغور فينيقية المذهب الشيعى ، وطفقوا يكتسحون أمامهم المذهب الحنبلى الصارم . ومن أعظم ميزات تاريخ الفلسفة الدينية فى القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) انتعاش حركة المذهب العقلى انتعاشاً غير اعتيادى ، ويرجع ذلك على الأرجح إلى تآليف المفكرين أمثال المسعودى والزمخشرى وإلى الفلاسفة أمثال الكندى والفارابى .

المعتزلة

حاول رجال المعتزلة أن يوفقوا بين العقيدة والعقل ، وبين الدين والفلسفة ، وقد صادفت هذه الحركة — بطبيعة الحال — هوى عند المستنيرين ، فأقبل أهل المذهب الحنفى الذين كانوا قد تمسكوا بعقيدتهم متأثرين ببعض النقاط المذهبية الاعتيادية على اعتناق مذهب المعتزلة [1] بباعث الآراء الفلسفية ، وقد

---

(١) يقول العالم المستشرق الفريد جيوم Alfred Gullaume فى رسالته عن الفلسفة والإلهيات فى كتاب Legacy of Islam حول مذهب الاعتزال مايلى :

وإن أجل خدمة قدمها المعتزلة للعالم المتمدين ، قامت على جهرهم بإخضاع الدين للنظر العقلى أكثر مما قامت على إصرارهم على اعتناق مذاهب معينة كالمبدأ الخالد الذى يقول بالعدل الإلهى ، فلم يكونوا ليرضوا بالصمت إذا قيل لهم « قال الله تعالى » مثلا ، بل أخذوا يتساءلون عن معنى « الله » ومعنى « قال » — وقد تجلى خطر مثل هذا الاتجاه عند هؤلاء النفر من الغلاة الذين ساروا فى منحى المعتزلة شوطا أبعد مما ينبغى حتى ترددوا فى اللاأدرية — أى الإلحاد الصريح . (المعرب)

كان الميل برغم ذلك ينحو منحى الرجعية ، وبالأخص فى نهاية ذلك العصر .

جمعية إخوان الصفا

وفى تلك المرحلة الحرجة تألفت أول جمعية لنشر العلوم والفلسفة ، ذلك أن بعض المفكرين الذين يهمهم رفع منار الإسلام وشأن المسلمين رأوا أن علماء الدين قد تمسكوا بالقشور دون اللباب ، وأن الأغنياء قد ترددوا فى لذائذ الحياة والشهوات ، وأن الفقراء غدوا متعصبين تعصباً أعمى ، فألفوا جمعية سرية [1] يستطيعون بواسطتها أن يرفعوا صوت الحق داويا بين الأهلين ، ويحولوا دون تدهور العالم الإسلامى وانحداره فى تيار الجهالة والتعصب ، وأطلقوا على جمعيتهم اسم (جمعية إخوان الصفا) ، وكان أول تأليفها فى البصرة ، وشروط [2] الانتماء إليها أن يكون العضو معروفا بحسن الأخلاق واتساع أفق التفكير ، وكانوا يعقدون اجتماعاتهم بأدب وتواضع فى منزل رئيس الجمعية « زيد بن رفاعة » للبحث فى المواضيع الفلسفية على أنواعها بحرية فكر ، ورحابة صدر نادرتى المثال حتى فى العصور الحديثة ، ثم أسسوا فروعا للجمعية فى جميع المدن والحواضر حيث يوجد المفكرون الذين يمتازون بالمؤهلات الكافية للاضطلاع بالعمل طبق طريقتهم العملية ؛ وكان نظامهم نظاما صوفياً راقياً ، كما كانت آراؤهم فى القضايا الاجتماعية والسياسية عملية اجتهادية ، فدونوا فلسفتهم وخلاصة آرائهم فى رسائل مستقلة جمعت فى كتاب فيما بعد ، وسمي « رسائل إخوان الصفا » ، وقد تضمنت هذه الرسائل شتى العلوم والدراسات كالرياضيات ، وتشتمل على الفلك والجغرافية الطبيعية ، والموسيقى والميكانيكيات والفيزيا ، وتشتمل على الكيمياء ، وعلم النجوم ، وتكوين المعادن ، وعلم النبات ، وأوصاف الحيوانات (ومسقط النطفة ،

---

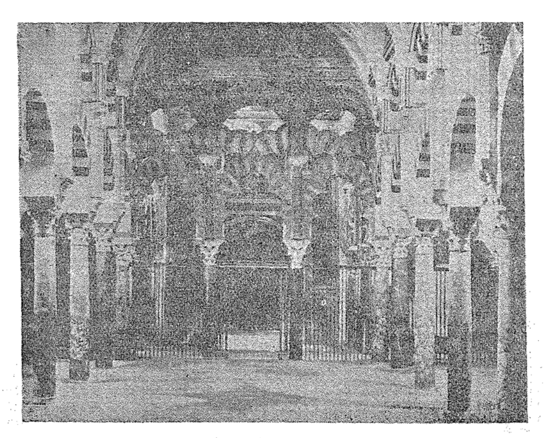
(١) جاء فى كتابهم أن أساس مذهبهم أن الشريعة الإسلامية تدنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية الحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية . (المعرب)

(٢) جاء فى ذيل الرسائل فصل فى كيفية عشرة إخوان الصفا وتعاونهم بصدق المودة والشفقة ، وأن الغرض منها التعاضد فى الدين . (المعرب)

وكيفية رباط النفس بها ، وتركيب الجسد ، والحاس والمحسوس) والمنطق ، وقواعد اللغة ، وما وراء الطبيعة ، وعلم الأخلاق ، والبعث والنشور ، وعلى الجملة فإنهم جمعوا فى تلك الرسائل سائر أنواع العلوم والفلسفة المعروفة فى ذلك الزمان .

تدهور الممالك الإسلامية

وهكذا عندما تألق نجم ابن سينا فى الأفق ، وأقبل العالم الإسلامى يرتشف من معين آرائه العصرية فى العلوم الاجتماعية وفى غيرها من العلوم ، وعندما طفقت طلائع النهضة (الرنسانس) فى القرن الحادى عشر تبشر بأحسن النتائج وأوفرها خصوبة نشبت الحروب الصليبية الهائلة ، فحصر العالم الإسلامى جميع نشاطه فى ناحية واحدة ، وهى المحافظة على النفس ، ولكن لم تكد انتصارات زنكى ، ونور الدين ، وصلاح الدين تنقذ العالم الإسلامى من أخطار غزو الفرنج حتى هبت عاصفة التتر الهوجاء مكتسحة أمامها مدنية الشرق فقوضت أركانها وطمست معالمها .



المحراب فى جامع قرطبة (انظر ص ٤١٠)

الفصل السادس والعشرون

العرب فى أسبانيا — دولة بنى أمية

١٣٨ — ٣٠٠ هـ ، ٧٥٦ — ٩١٢ م

عبد الرحمن الأول (الداخل) — هشام — الحكم —
عبد الرحمن الثانى (الأوسط) — محمد — المنذر — عبد الله

عبد الرحمن وعبوره إلى الأندلس — موقعة المصعرة — ثورة الأشراف — دسائس الفرنج — غزوة شرلمان — موقعة رونج فال — أخلاق عبد الرحمن ووفاته — هشام الأول — أخلاقه — قتال عبد الرحمن للفرنج — المذهب المالكى — وفاة هشام — الحكم الاول — أخلاقه — سخط الفقهاء عليه — الثورة فى قرطبة — قمع الثورة — نفى الثوار — طليطلة — وفاة الحكم — عبد الرحمن الثانى — غارات قبائل النصارى — قمع الثورة — ظهور النورمان — تعصب النصارى فى قرطبة — وفاة عبد الرحمن — ولاية محمد — أخلاقه — قمع ثورة النصارى — ثورة النورمان — انهزام الثوار وفاة محمد — ولاية المنذر — وفاته — ولاية عبد الله — انتشار الثورة وفاة عبد الله — العرب فى بيومون وسافوا وسويسره

عبد الرحمن الأول الملقب (بالداخل)

وما كادت تنقضى ست سنوات على موقعة الزاب حتى قامت دولة أموية جديدة فى الغرب ، وكان ممن نجا من فتك السفاح ، وشدة بطشه حفيد هشام المدعو عبد الرحمن الذى يعد فراره من الشام ونزوله فى المغرب الأقصى ، ثم فراره منها ونزوله على نفر من البرابرة حادثة روائية مليئة بالمفاجآت التى تحرك العواطف وتثير الإعجاب ، فبينما كان مختفيا عند البربر لم يكن ليستطيع مقاومة ذلك الطموح الذى ملك عليه حسه فى الاستيلاء على تلك المملكة الجميلة التى كانت ذات يوم ملكا لأسلافه ، فلما وطد العزم نهائياً على امتلاكها أرسل أحد مواليه ليجمع كلمة أنصار بنى أمية فيها ، فقوبلت دعوته بحماس شديد ،

وطلبوا إليه أن يحضر بنفسه . وفى أيلول سنة ٧٥٥ م عبر هذا الأمير الفتى من أمراء الأسرة الأموية المنكودة إلى شواطئ أسبانيا ، ونزل ببقعة تعرف « بالمنكب » ، وقد كان اليمانيون وقتئذ يئنون من تعسف منافسيهم المضريين ، فانحازوا إليه فى الحال وانضووا تحت لوائه ، واستطاع بذلك أن يواجه حاكم الجزيرة « يوسف » الذى كان يحكم تلك البلاد كملك مستقل ، وإن كان تابعا اسميا للخليفة العباسى ، ودارت المعركة التى أعطت لعبد الرحمن العرش ببقعة تعرف « بالمصعرة » ، وكانت لا تقل شأنا عن موقعة مرج راهط ، فهزم يوسف شر هزيمة ، واضطر إلى التسليم ، ولكنه فى سنة ١٤١ هـ نكث العهد وثار على عبد الرحمن ، فدارت بينهما معركة هزم فيها يوسف وركن إلى الفرار ؛ واغتاله بعض أصحابه .

وقد حقق الآن الأمير الطريد البائس أمنيته ، وأصبح أمير مملكة قوية ، ولكنه لم يتمتع بنتيجة فوزه وانتصاراته بسلام ، إذ أن رؤساء القبائل لم يرقهم — كعادتهم دائما — الخضوع للسلطة والإذعان لأمير مطلق ، وشاطرهم البربر ذلك الشعور ، وكان كلاهما نظراً لميله الجمهورى يرمى إلى تقسيم إسبانيا العربية إلى إمارات صغيرة تكون حرة فى محاربة بعضها البعض ، على أن تتحد وقت الخطر لرد غارات المسيحيين فى الشمال ؛ ونظرا لهذا الشعور ذهبت مساعى عبد الرحمن فى إعادة النظام والأمن سدى ، وتصدى له البربر ورؤساء القبائل ، ونال ثوار العرب كما نال الثوار المسيحيون فى ليون وكتالونيا ونافارا مساعدة وتعضيد ببين القصير وولده شرلمان ، وكانت سياسة هذين الأميرين ترمى إلى تأييد كل ثورة ترمى إلى الاستقلال عن ملك قرطبة ، ولطالما حرض ملوك الفرنجة على إثارة تلك الفتن ، ولكن عبد الرحمن تهيأ لإخماد هذه الثورات بنشاط لا مثيل له ، واتخذ الدهاء رائده فى المحافظة على السلام والأمن ، واتبع سياسة قد لا نحبذها لبعدها عن المروءة والاستقامة ، ولكنها كانت على كل حال ملائمة كل الملاءمة

لتلك الظروف ، إذ كانت المعركة معركة الإمارات والملكة . ولحسن طالع عبد الرحمن لم يكن ثمة اتحاد بين رؤساء القبائل العربية ولا من يجمع كلمتهم ، ولم تمض سنوات قلائل حتى مزق الأمير الأموى شمل أعدائه وثبت قدمه فى البلاد ، غير أنه أصبح الآن يعتمد فى سلطانه على الجنود المرتزقة ، فلم يصبح ذلك الملك المحبوب ، ولا البطل الشاب الذى استقبل استقبالا حماسياً عند وصوله ، ولم يعد يستطيع أن يتجول فى شوارع قرطبة دون أن يحيط به رهط من الحرس فاضطر إلى استخدام عدد كبير منهم ، وإلى اصطناع القبائل ليحموه من انتقام منافسيه الذين لقوا على يديه أهول الخطوب .

وبينما كان عبد الرحمن مشتغلا بهزيمة أعدائه أغار المسيحيون على البلاد الإسلامية الشمالية وأحرقوا مدنها ، وخربوا معاهدها وضياعها ، وقتلوا وأسروا كثيراً من سكانها ، فعم بهم البلاء والفوضى فأضاع المسلمون قسما كبيراً من ممتلكاتهم الشمالية ؛ فانتهز (فرويلة[1]) ابن الفونسو (الأدفنوش) فأغار على لوكو (لك) ، وأوبورتو ، وشلمنقة ، وقسطيلة[2] ، وزامورا (سمورة) ، وسيكوفيا

---

(١) ويسميه ابن الأثير تدفيليا .

(٢) يسمى مؤرخو العرب ولايتى قسطيلة وآلفا (ألبا والقلاع) محرفة عن اللاتينية القديمة Alva ét castella Vetula أما نافارا فيسمونها بلاد البشكنس Bascons ، وأحيانا يطلقون ذلك الاسم على بلاد غسقونية Gascogne المجاورة لجبال البرنيه التى يسمونها جبل البرت أو الممرات وكان بها خمس ممرات توصل من أسبانيا إلى فرنسا كان العرب يستعملونها فى عبور الجبال حين الغزو وهى :

١ — ممر بربنيان الموصل من برشلونه إلى أربونة .

٢ — بايكارديا الموصل إلى سردانيه .

٣ — الممر الموصل من بنبلونة إلى سان جان دى بيدبور من مفاوز رونشفال ، ويسميه الأدريسى باب الشرزى .

٤ — الطريق إلى تولوز من بايونة .

٥ — الطريق الموصل إلى جاكا عن طريق بيارن . ويسمى مؤرخو العرب كذلك طليطلة وأعمالها فى دولة بنى أمية بالثغر الأدنى ، ويسمون سرقسطه وجهاتها بالثغر الأعلى (ولاية أراغون الحديثة) .

(سيقوبيا) . وفى سنة ٧٧٧ م عبر أحد الخارجين[١] على عبد الرحمن جبال البرنيه ، واستنصر بشارلمان[٢] ، فوجد إمبراطور الفرنجة الفرصة سانحة لمد سلطانه على الجزيرة بتفريق كلمتها وتغليب أمير على آخر ، فحشد جيشاً ضخما عبر به الجبال مكتسحاً أمامه كل مقاومة حتى وصل أسوار سرقسطة ، فدافع عنها حسين بن يحيى الأنصارى[٣] الذى أنزل بشرلمان خسارة فادحة ، وعندئذ عاد بفلوله ، ولكنه حين اخترق البرنيه هاجم مؤخرة جيشه مطروح وعيشون ابنا سليمان ، فمزقا مؤخرة الفرنج كل ممزق ، وهلكت فى تلك الموقعة زهرة الجيش الفرنجى[٤] . ثم عقدت معاهدة سلم[٥] بين شرلمان وعبد الرحمن ، وهكذا شيدت دعائم ملك بنى أمية فى وطنه الجديد ، ومع أن حكمه تخللته الفتن والمؤامرات حتى من أفراد أسرته إلا أنه تغلب على جميع أعدائه ، وأسس سلطته على دعائم قوية ، وقد توفى فى سنة ١٧٣ هجرية[٦] ، وكانت مدة حكمه ثلاثة وثلاثين سنة ؛ ومع أنه كان يلجأ فى قمع الثورات إلى القسوة والشدة فإنه كان بطبيعته لين العريكة رقيق الحاشية[٧] محباً للعلوم والفنون . ويصفه ابن الأثير : « بأنه طويل القامة ، نحيف القوام ، حاد الخلقة ، عالى الهمة ، ذكى الفهم ، وافر النشاط والكرم وبعد النظر ، آية فى الصراحة وحرية القول ، وكان يقاس بالمنصور فى حزمه وضبط المملكة[٨] ، فجمل قرطبة بالمبانى الفخمة

---

(١) سليمان بن يقضان الكلبى .

(٢) ويسميه ابن الأثير قارلة .

(٣) من أحفاد سعد بن عبيدة .

(٤) ابن الأثير المجلد السادس .

(٥) يقول ابن حيان فى الجزء الأول ص ١٥٥ إن عبد الرحمن لجأ إلى مداراة شرلمان ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابه إلى السلم ولم تتم المصاهرة . (المعرب)

(٦) يقول ابن الأثير إنه توفى سنة ١٧١ هـ .

(٧) رينود ص ٩٨ .

(٨) نذكر فيما يلى ألفاظ ابن الأثير حرفياً « كان فصيحا لسناً ، شاعراً ، عالما ، حليما ، حازما ، سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه . لايخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة ، =

والحدائق الغناء ، وشرع فى إنشاء مسجدها الجامع ، غير أنه توفى قبل إتمامه ، وكان قد أمر بعدم الدعاء فى الخطبة للخليفة المنصور العباسى ، ولكنه لم يتخذ لقب أمير المؤمنين احتراما منه لكرسى الخلافة الذى كان لا يزال مهد الإسلام ومجتمع القبائل[١] العربية ، واكتفى بلقب الأمير[٢] .

استخلاف هشام

وخلف عبد الرحمن ابنه هشام ، « وكان حازما ، ذا رأى وشجاعة وعدل وخير ، محباً لأهل الخير والصلاح ، شديداً على الأعداء راغباً فى الجهاد[٣] » ، وفى الواقع كان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز[٤] ، وكان يلبس الملابس العادية ويطوف شوارع قرطبة مختلطا بالرعية يسمع المظالم بنفسه ، ويعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، وربما كان يخرج فى الليالى المظلمة الباردة لإغاثة البائس والملهوف ، وتعزية المصاب والمنكوب ؛ وكان فوق ذلك حكيما حازما ، فقمع الفتن بيد من حديد ، وأدب الأشقياء ، وساد الأمن فى عصره ، وجدد الجسر الذى كان السمح بن مالك قد شيده ، وأتم بناء المسجد الجامع الذى أسسه أبوه وزين مدن مملكته بالمبانى الجميلة الفخمة .

غير أن شدة شكيمته ورقة حاشيته لم تحولا دون خروج الأمراء عليه ، إذ حقد عليه إخوانه ، وبعد أن قمع ثورتهم زحف على ضفاف الأبرو لقمع فتنة مطروح بن سليمان بن يقضان الذى استنصر بشرلمان ، فقتل الثائر واستعاد سرقسطه وبرشلونة ، وبعد أن استتب له الأمر فى الولايات الداخلية حول جهوده

= لا يكل الأمور إلى غيره ، ولا ينظر فى الأمور برأيه ، شجاعا مقداما ، بعيد الغور ، شديد الحذر سخيا جواداً — وكان يقاس بالمنصور فى حزمه وشدته وضبط المملكة » (ابن الأثير ج ٦ ص٣٨) . (المعرب)

(١) هـذا قول المقرى . أما المسعودى فيذكر أن بنى أمية بالأندلس ، لم يتخذوا ذلك اللقب طالما كانت المدن المقدسة فى حوزة العباسيين .

(٢) يسميه ابن الاثير دائماً بصاحب الاندلس .

(٣) دوزى .

(٤) ابن الأثير ج٦ ص١٠٢ .

صوب المقاطعات الشمالية التى كان أهلها يكثرون من الغارة على البلاد الإسلامية و يفتكون بأهلها ، وطالما شجعهم الفرنج على إضرام نار الفتن وحرق المدن ، والتنكيل بالمسلمين ؛ فأصبح الآن ذلك النزاع نزاعا بين المدنية والبربرية ، ولسوء الطالع كان حملة مشعل المدنية يلاقون عنتاً من الثوار والخارجين ، بينما كان الآخرون ينالون المساعدات الخارجية باستمرار . فرأى هشام من الضرورى أن يلقى درساً على الفرنج الذين اتخذ أمراؤهم إلى ذلك الحين خطة عدائية نحو أسبانيا العربية ، وشجعوا أهلها على إثارة الفتن ؛ فجهز لأجل هذه الغاية جيشين سار أحدهما إلى فرنسا مخترقا كتالونيا ، فعبر سردانية واستولى على أربونة وعدة حصون أخرى ، وأوقع بجيوش الكونت طولوز الذى بعث به شرلمان لحماية سبتمانية هزيمة منكرة على ضفاف الأوربينا بموقع يعرف بفيلدين ، ونال الجيش الثانى نجاحا عظيما ، إذ سار إلى جليقية لمحاربة ثوارها الذين انضووا تحت لواء زعيمهم برمودة فهزمهم واضطرهم إلى طلب الصلح .

المذهب المالكى وانتشاره فى أسبانيا

كان هشام يحترم مذهب الإمام مالك[1] مؤسس أحد مذاهب السنة الأربعة ، وقد بذل الملك الجديد جهده فى حمل الناس على اعتناق ذلك المذهب وأصبح منذ ذلك الحين المذهب الرسمى للأندلس ، وقوى نفوذ الفقهاء الذين كانوا يجمعون إلى وظائف الفقه مناصب حكام الشرع ، وكان هشام يبدى لهم احتراما عظيما فكثر تدخلهم فى مصالح الناس .

وفاة هشام وتولية الحكم الملقب بالمنتصر

وفى سنة ١٨٨ هـ توفى هشام ، نخلفه ابنه الحكم الملقب بالمنتصر ، و يصفه ابن الأثير : « بأنه كان صارما حازما ، وهو أول من أظهر فخامة الملك وأسرف فى تأييد هيبته » ، ومع ذلك لم يخل حكمه من الاضطرابات الداخلية ، فلم تتفق ميوله الدنيوية مع حياة التنسك التى كان يريدها له الفقهاء والعلماء ، وكان ميالا إلى اللهو مولعاً بالصيد ، يؤثر مجالس الشعراء والمغنيين والفلاسفة على مجالس

(١) كانوا قبل ذلك يأخذون بمذهب الأوزاعى . (المعرب)

الفقهاء والعلماء ، ولكن كانت ثمة أسباب أخرى تحملهم على عدم الرضا ، إذ كان نفوذهم قد اشتد فى عهد هشام ، أما سياسة « الحكم » فكانت ترمى إلى إقصائهم عن التدخل فى مصالح الدولة بالرغم مما كان يبديه دائما نحوهم من ضروب الاحترام وتنفيذ الأحكام التى كانوا يصدرونها ؛ فأبى كبرياؤهم الدينى احتمال ذلك ، وأخذوا يندددون بالأمير من على المنابر ، ويتهمونه بالكفر والزيغ ، ويبتهلون إلى الله أن يهديه سواء السبيل ، وحاولوا بهذه الطريقة تحريض مسلمى الأسبان الذين كان لهم عليهم نفوذ لا حد له ، وكان الأسبانيون المعتنقو الإسلام حديثاً يؤلفون القسم الأعظم من السكان ، وكان هؤلاء المسلمون فى قرطبة وأشبيلية وطليطلة ومدريد ينتسبون إلى كبار الأسر ، وكانت المصاهرة شائعة فى ذلك الحين بين العرب والبربر من جهة ، والأسبان المسلمين منهم والمسيحيين وبالأخص فى الولايات الشمالية ، وسمى نسل هذا التزاوج بالمولدين أو البلداويين وكان العرب الأصليون يقابلون هؤلاء المولدين بالكبرياء والأنفة ، وحاولوا كما كان شأنهم فى فارس فى العهد الأموى أن يقصوهم عن الوظائف الكبرى ولهذا نشأوا على بغض العرب والبربر معاً ، ولطالما ثار الأسبان المسلمون بين الفينة والفينة ضد السلطة الحاكمة ، وبدلا من أن يقضى الفقهاء على هذه الفروق العنصرية انحازوا إلى أهل البلاد وشجعوهم على القيام فى وجه الأمير .

وفيما كانت ريح هذه الشرور تعصف ببلاد الأندلس ، ثار سليمان وعبد الله عمّا الحكم مرة أخرى بعد أن كان قد عفا عنهما هشام ، فسار عبد الله إلى شرلمان فى إكسلا شابيل يطلب مساعدة ذلك الملك الطموح الذى أوفد فى الحال مع الثائر جيشا استولى به على طليطلة ، بينما استولى سليمان على بلنسية ، وفى الوقت نفسه زحف لويس وشارلس ابنا شرلمان على الولايات الشمالية ، وأعملا السيف فى رقاب أهلها وأحرقا بيوتهم ، وأغار الفونسو أمير جليقية على ولاية أراغون ، فأظهر « الحكم » فى تلك الظروف العصيبة نشاطا عظيما ، فأسرع

بالزحف على أراغون بعد أن سير إلى طليطلة جيشا صغيراً للمحافظة عليها ، ثم غزا جليقية وافتتح حصونها ، ثم عاد إلى الفرنج وأجلاهم إلى ما وراء البرنيه ، و بعدئذ عاد إلى طليطلة ونشبت بينه و بين سليمان معركة حامية قتل فيها سليمان ، وسلم عبد الله فعفا عنه . و بينما كان الحكم منصرفا إلى هذه الحروب استولى الفرنج على برشلونة ، ويرجع ذلك إلى خيانة حاكمها الذى استدعى الفرنج طمعا فى الاستقلال بها ، وهكذا أصبح شرلمان قابضا على حصن من أكبر الحصون الإسلامية فى أسبانيا ، وانقسمت بذلك أملاكه الأسبانية إلى ولايتين إحداهما تشمل كتالونيا وحاضرتها برشلونة ، وتشتمل الأخرى على غسقونية والمدن الفرنجية فى نافارا وأراغون ، وفى سنة ١٨٩ هـ استولى الحكم على كتالونيا .

الفتنة فى قرطبة

وفى سنة ٨٠٩ نشبت فتنة فى قرطبة فأخمدها الحكم بالرأفة واللين ، ولكنه بينما كان فى السنة التالية مشغولا بإخماد ثورة ماردة جاءته الأخبار بأن أهل قرطبة ثاروا عليه من جديد ، فأسرع بالعودة إلى العاصمة ، وفى تلك المرة قمع الفتنة بكل شدة مما زاد فى غضب الشعب عليه ، وفى سنة ٨٠٧ زحف الفرنج على طرطوشة بقيادة لدوغ بن شرلمان وحاصروها ، بيد أن عبد الرحمن بن الحكم خلصها من أيديهم ، وفى سنة ٨١١ زحف بنفسه على الفرنج وأثخن فيهم وتغلب عليهم .

طليطلة

لم ينس أهل طليطلة قط أن بلدهم كانت عاصمة أسبانيا ، وظلت ذكرى مجدهم الماضى تضطرم فى أفئدتهم ، وتزيد فى عدائهم وسخطهم على العرب ، ولما كانوا يعتزون بثروتهم وكثرة عددهم شقوا عصا الطاعة ، ورفضوا الاعتراف بسلطة أى حاكم لايرضون على تعيينه ، فثاروا لأول مرة سنة ١٨١ هـ ، ولكن ثورتهم أخمدت دون مشقة ، وكان الذى أخمد تلك الثورة قائد الحكم « عمروس ابن يوسف » وهو أحد المولدين ، فانحاز إليه بعض وجهاء المدينة ، واستعان بهم على استمالة أهلها [١] والإقرار بسلطة الحاكم ، ولكنهم استأنفوا الثورة ثانية بعد

(١) بنو مخشى .

عشر سنين ، وعندئذ لم ير الحاكم وسيلة لإخضاعهم بعد أن أعيته الحيل سوى تعيين « عمروس » حاكما عليهم ، وكان قائد الولاية الشمالية ، فآنس به أهل طليطلة وتظاهر أمامهم بالبغض للأمويين والموافقة على خلع طاعتهم . وقد بلغت ثقتهم فيه أن سمحوا له بأن يبنى بظاهر المدينة قلعة حصينة دعا إليها وجهاء المدينة ذات يوم وقتلهم عن آخرهم[1] ، فألفت المدينة نفسها بعد ذلك مجردة من زعمائها ، فركنت إلى السكون سبع سنين أخر .

هياج أهل قرطبة

وفى سنة ١٩٨ هـ وصل هياج القرطبيين أشده ، وفى ذات يوم بلغت الحماقة بأحد العامة أن أهان الأمير وهدده فى المسجد فأمر الحكم بقتله ، فأدى ذلك إلى هياج الشعب فى ضاحية قرطبة المسماة شقونده ، وحاصر الثوار الأمير فى قصره وتفاقمت الأمور ، بيد أن « الحكم » عالج الموقف بالنشاط وهدوء البال المعروفين عنه ، ففرق شملهم وقتل رؤساءهم ، وأمر بنفى من بقى منهم ، فعبر البعض إلى فاس ، وسافر معظمهم إلى الإسكندرية ، ثم أبحروا إلى كريت (قرتيش) وظلوا بها حتى استعادها اليونان منهم . وفى سنة ٨١٦ م عقد الصلح بين ابن شرلمان الذى خلف أباه على عرش فرنسا و بين الحكم ، ولكن هذا الصلح لم يدم إلا سنوات قليلة ، وتوفى الحكم فى سنة ٢٠٦ هـ ، وكانت مدة حكمه ٢٦ سنة ، فخلفه ابنه عبد الرحمن الملقب بالأوسط ، و يقول المؤرخ العربى : إن فى عهده ساد الأمن فى الولايات الأندلسية ، وحسنت حال الرعية وكثر الخراج ، وكان ميالا للآداب والفنون مولعاً بمجالس العلماء والأدباء ، و بدأ حب الموسيقى ينتشر بين طبقات الشعب حتى أصبح فيما بعد من مميزات الأندلسيين العرب ، وقد وصل البلاط فى عهده إلى درجة لم يسبق لها مثيل من الفخامة والرونق ، وأشرقت فيه جمال الأخلاق العربية ورقة شمائلها وظرفها ، ذلك الجمال الذى حاول فرسان النصرانية

---

(١) ابن الأثير .

أن يحتذوا حذوه ، ويقتبسوا من نوره منذ ذلك الحين[١] .

وبعد أن تولى عبد الرحمن الحكم بقليل أغار أمير ليون « الفونسو الثانى »[٢] على مدينة سالم من أعمال الثغر الأعلى ، وحذت حذوه بعض القبائل المسيحية الأخرى ، فأغارت على البلاد الإسلامية ، فسير عبد الرحمن قوة كبيرة لتأديبهم ، فسارت إليهم وهزمتهم فى عدة مواقع فخربت حصونهم ، واشترط عليهم أن يدفعوا جزية فادحة علاوة على الجزية المعينة ، وأن يطلقوا أسرى المسلمين ، وأن يسلموا بعض زعمائهم كفالة لحسن طاعتهم . وقد انتهز الفرنج تلك الفرصة وأغاروا على البلاد الإسلامية فى كتالونيا ، وأعملوا فيها يد التخريب والقتل ، ولكن الأمير بعث بجيش ضخم فزحف عليهم وشتت جموعهم وأجلاهم إلى ماوراء الحدود .

أول ظهور النورمان

وفى ذلك العهد ظهر النورمان (ويسميهم العرب بالمجوس) على السواحل الأسبانية ، وعاثوا فساداً فى عدة مواضع قريبة من البحر ، ولكنهم لاذوا بالفرار عند اقتراب جيش ملك قرطبة وأسطوله ، ثم ثار مسيحيو مارده بتحريض لويس ملك الفرنجة عدة مرات ، ولكنهم كانوا يعلنون خضوعهم بسهولة ، وقامت ثورة أخرى فى طليطلة اشترك فيها اليهود والمسيحيون معا ، ولكنها قمعت فى الحال .

وفى نهاية عهد عبد الرحمن استحال تعصب نصارى قرطبة إلى عداوة نكراء وبدت منهم البوادر التى تنذر بالانفجار ، ولم يكن فى نظام العرب ما يسوء النصارى عموما ومتنورى العاصمة وغيرها خصوصاً ، بل بالعكس كانت قد توفرت جميع الأسباب لإسعادهم ، فلم يحدث قط ما يكدر صفو عيشهم ، أو يحول دون إقامة شعائرهم أو اتباع شرائعهم ، ولكم حارب الكثير منهم مع المسلمين فى الجيش جنباً لجنب ، وعينوا فى أرقى الوظائف السياسية والحربية ، وأرسل

---

(١) سديو (تاريخ العرب) .

(٢) ويسمية العرب لذريق أو لودريك .

المسيحيون المستعربون

الكثير منهم بمهمات خاصة إلى الدول الأجنبية ، واشتغل علماؤهم فى مزارع الأمراء المسلمين . ولطالما بهرت الآداب العربية الطبقة المثقفة ، وبالأخص أصحاب الذوق السليم منهم ، فتكلموا بها ووضعوا مؤلفاتهم بلغة المحتلين ، ولكن ذلك الفريق المستعرب كان موضعاً لبغض الفريق الآخر المتعصب الذى كان يرميه بالكفر والإلحاد ؛ ويقول كاتب مسيحى مشهور : « كان هؤلاء يبغضون المسلمين أشد البغض ، ويحملون أفكاراً خاطئة عن محمد (ص) وتعاليمه ، مستعينين على تلك المعرفة بوجودهم بين العرب ، وكانوا يأبون ولوج أبواب التعرض للحجج التى كانت تسطع أمام دورهم مكتفين بالظواهر منها فحسب ، فكانوا يقنعون بالاعتقاد السطحى ثم ينشرون الخرافات السخيفة التى أحاطت بظهور نبى مكة[١] ولم يك بغضهم قاصراً على دين العرب فحسب ، وإنما كانوا يبغضون فخامة الطبقة الحاكمة ورقتها ، وقد قوى دعائم ذلك البغض فى قلوبهم ما كانوا يعانونه من خشونة عامة قرطبة كما يفعل أهل المدن الحديثة إزاء الأجانب ، فتحول حماسهم الدينى فى عهد « عبد الرحمن » إلى اضطراب شديد ، « وأضحوا فى قلل الجبال لصوصاً وسفاكين ، وفى العاصمة شهداء وقديسين » وجاهروا بالاجتراء على مقام النبى العربى ودينه ، ودخلوا الجوامع فى أثناء الصلاة ورفعوا عقيرتهم بتلك الشتائم المنكرة وعبثوا بدين الشباب المتحفز .

وكان الاجتراء على مقام الرسول جريمة شنعاء بمقتضى قانون الدولة الإسلامى باعتباره يؤدى إلى الفتن وإراقة الدماء ، وعلى هذا قدم القاذفون إلى المحكمة حيث جاهروا بجريمتهم أمام القاضى فعوقبوا بالإعدام ؛ ولما قدم قرار المحكمة إلى المجلس الأعلى ، رؤى من الرحمة أن يعفى عنهم على شرط أن يسحبوا كلامهم ويعتذروا عن جريمتهم ، ولكن هؤلاء المجرمين بدلا من أن ينزلوا على ذلك الرجاء أخذوا يكررون جريمتهم الشنعاء ، فسمح للقانون بأن يتخذ مجراه ، وأدرك

(١) دوزى (تاريخ دولة المسلمين فى أسبانيا) .

عبد الرحمن خطورة المأزق ؛ فعقد مجلساً من القسس من جميع أطراف المملكة وعين للإنابة عنه فى ذلك المجلس أحد زعماء المسيحيين ، ومستشارى الحكومة النبهاء[1] فأصدر الأساقفة قراراً يمنعون فيه المجاهرة بسب النبى ، وقرروا اتخاذ إجراءات صارمة ضد المجرمين ، ولكن لم يكن ثمة من يستطيع تسكين ذلك التعصب الأعمى ، فتحدى هؤلاء المكابرون سلطة أساقفتهم ؛ وقد بلغ التهوس المفرط ببعضهم أن دخل المسجد الجامع وصاح بأعلى صوته : « إن ملكوت السماء آتية لا ريب فيها ، وإن جهنم أعدت للكافرين وبئس المصير » ، فثار المسلمون وهموا بقتل القاذفين ، غير أن القاضى تدخل فى الأمر وأنقذهم من انتقام المصلين ، وقد كان مطران العاصمة حازماً والحكومة ساهرة على راحة الشعب فأودع كثير من المتعصبين غيابات السجن ، ولكن هؤلاء المتهوسين ظلوا مصدرا للاضطراب حتى وفاة عبد الرحمن سنة ٨٥٢ م .

ولاية محمد بن عبد الرحمن

تولى محمد بن عبد الرحمن الملك بعد وفاة أبيه ، ويقول ابن الأثير « إنه سار على أثر أبيه من العناية بالإصلاح ، وإنه أول من أقام أبهة الملك بالأندلس ، ورتب رسوم المملكة ، وعلا عن التبذل للعامة ، وفى ذلك شبه بالوليد بن عبد الملك » . وعلى أثر وفاة عبد الرحمن استأنف أهل طليطلة الثورة يعضدهم فى ذلك جيش كان الأمير ليون قد أرسله إليهم ، فأسرع محمد بنفسه على رأس قوة كبيرة ، والتقى الفريقان فهُزم الثوار وحلفاؤهم الفرنج فى مكان يعرف بوادى سليطة ، فأعلنوا طاعتهم على أن يحتفظوا ببعض مظاهر الحكم الذاتى ، وأخذ الخائنون والمحرضون فى قرطبة يشعرون بوطأة الأمير العادل الذى اتخذ الإجراءات الكافية لقلع بذور الفتنة فى العاصمة ، وقتل جميع المحرضين المتعصبين والذين كانوا يتكاتبون مع الأعداء خارج الحدود ، ورأى أهالى البلدة أنهم قد حرموا

(١) اسمه كومز بن أنتونى بن جوليان وكان النصارى المتعصبون يلعنونه لاشتراكه فى ذلك المجلس .

من زعمائهم الذين سيطروا على البلد عدة سنوات « نخضعوا بالتدريج إلى القانون العام ، ولم يمض سوى قليل حتى أصبح ذلك الحماس أثراً بعد عين ، ولم يبق منه سوى ذكراه »[١] .

وقد انتهز الفرنج فرصة الحروب الداخلية على عاداتهم وأغاروا على الولايات الشمالية ، فأقام محمد فى تلك الجهة جيشا لحمايتها .

وفى سنة ٢٤٥ هـ ظهر النورمان بعد أن نهبوا شاطئ البروفانس ، وأخذوا فى نهب الثغور الواقعة على السواحل الأسبانية ، فتعقبهم الأسطول الأندلسى وطردهم من الشواطئ بعد أن حطم كثيراً من سفنهم ، وأرسلت الجيوش إلى جليقية ونافارا وليون لتأديب أمرائها المسيحيين ، وفى سنة ٨٦١ زحف عامل طرطوشة على نافارا ، وهاجم بمبلونة وخرب حصونها ، وبعد أربع سنوات طلب أمير ليون الصلح دون قيد أو شرط ، ولكن فى نهاية حكم محمد انفجرت ثورات أعظم شأنا وأكثر خطورة فى مختلف أنحاء البلاد ، ففى أرغونه ثار مسلم أسبانى[٢] من ذرية القوط ، فاستولى على سرقسطة وتطيلة ووشقا ، واتخذ لنفسه لقباً ملكيا كما خرج فى الولايات الغربية فى ماردة عبد الرحمن بن مروان[٣] وتحالف مع الفونس الثالث أمير ليون ؛ وظهر فى ذلك الحين بمقاطعة بيشتر ثائر أكثر خطراً وأشد بطشا ، وكانت سلسلة الجبال الواقعة بين رنده ومالقه مأوى اللصوص والقتلة والثائرين ، وفيها لاقى قواد نابليون فيما بعد مقاومة شديدة من الأعداء ، وفيها نهض عمر بن حفصون الذى فر من جيش الأمير ، فانضمت إليه عصابات عديدة من اللصوص ، وأسس ولاية مستقلة ، وقد اشتهر أمر الثائرين فى المقاطعات ، واندلع شرر الثورة فى معظم المدن بتحريض الأمراء المسيحيين من

---

(١) دوزى .

(٢) يسمى موسى من قبيلة بنى قصى .

(٣) يسميه ابن الأثير الجليقى .

جهة ، وملك الفرنج من الجهة الأخرى ، ومما يدهش حقا أن هذه المملكة العربية ظلت تقاوم تلك الفتن والدسائس دون أن تمزق أوصالها أو ينهار بنيانها .

ولما كان محمد بن عبد الرحمن قد ضعفت قواه وطعن فى السن بحيث لم يعد يقوى على العيش فى ميدان القتال جهز ابنه وولى عهده « المنذر » بجيش ضخم لقمع تلك الفتن الخطرة ؛ فزحف على الولايات الشمالية ، وقصد سرقسطة وروتا وقرطجنة ولارده فافتتح حصونها ، وأسر عبد الواحد الروتى « أشجع أهل عصره »[1] ، وقدم إسمعيل بن موسى الثائر بأرغونة الطاعة فأجابه إلى طلبه . وفى سنة ٢٧١ هـ زحف المنذر ثانية على ابن مروان وهزمه شر هزيمة وخرب معقله ، وكانت سرقسطة قد سقطت ثانية فى أيدى محمد بن لب بن موسى وحليف ابن حفصون ، فسير الأمير محمد جيشاً عليهما وحاصر الحامية حصاراً شديداً ، ففر الثائران إلى الجبال ، ولكنهما ظهرا ثانية بعد عودة الجيش . وفى سنة ٨٨٦ تجهز المنذر لمقاتلة عمر بن حفصون الذى استعصم بمدينة الحاما ، وبعد حصارها مدة طويلة هدمها . وفى ذلك الحين توفى محمد بن عبد الرحمن فترك المنذر الحصار وأسرع بالعودة إلى قرطبة ليضمن اعتلاءه عرش أبيه ، فانتهز عمر تلك الفرصة واستولى على عدة قلاع ، وكان محمد محباً للعلم مترويا حكيما عارفا برسوم المملكة ؛ وكان المنذر الذى خلفه حازما نشيطا شجاعا فطناً ، ولو أمد الله فى حياته لنجح فى تنظيم مملكته وأعاد الأمن إلى نصابه ، فتأهب لإتمام العمل الملقى على عاتقه ، وسار بنفسه على رأس جيش كبير لإخضاع الثوار ، فاستولى على أرشدونة وحاصر « ببشتر » التى استعصم بها عمر ثم شدد عليه الحصار حتى أذعن لطلب الصلح ، ولكنه سرعان ما نكث عهده فعاد المنذر لقتاله ، ولكنه خر صريعاً[2] على مقربة من ببشتر ، ومع أن

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٢٥٨ .

(٢) ذكر دوزى أنه مات مسموماً بيد طبيبه . (المعرب)

حكمه لم يدم أكثر من سنتين إلا أن البلاد ازدهرت وزهت فى عهده وازدادت ثروة أهليها .

تولى عبد الله

فلما توفى المنذر خلفه أخوه عبد الله بن محمد . ويقول ابن الأثير : « إن فى أيامه امتلأت الأندلس بالفتن ، وسار فى كل جهة متغاب ، ولم يزل الأمر كذلك طول ولايته » ، فارتقى عبد الله العرش فى أحرج الظروف إذ كان العداء العنصرى يمزق أوصال المملكة ، ولم يكن يفت فى عضد أمير قرطبة ثوار الجبل فحسب ، بل أخذت الأرستقراطية العربيـة تناوئه العداء أيضاً ، إذ رأوا الفرصة سانحة للاستقلال والزعامة .

عهده الممتاز

نشبت الثورات والفتن فى كل مكان ، ووقعت بين العرب والمولدين فى أشبيلية وألبيرا معارك دموية هائلة ، واستعصم كثير من زعماء البربر بالحصون المنيعة وتحدوا سلطان الأمير ، واستولى أمراء العرب على منتسا ومدينة بنى سالم ولارقة وسرقسطة ؛ بينما سار إبراهيم بن الحجاج أحد أحفاد الأميرة سارة القوطية التى ورثت أسرته عنها أملاكا طائلة فى منطقة أشبيلية ، وأنشأ بها إدارة مستقلة ، وكان حكمه شديداً صارما حتى أنه فاق شدة حكم الملك ، فقمع كل أعمال الفتن والنهب بقسوة عظيمة ، وشجع التجارة والصناعة والفنون ، وصرفت الجهود لإصلاح ما خربته الفتن ؛ واستقل زعماء المولدين بباجه وجيان ومرسية وغيرها من المدن ، واستقر ابن مروان ببطليوس [١] ، وأنشأ محمد بن لوبس فى أراغون (الثغر الأعلى) إمارة مستقلة .

وانتهز عمر بن حفصون فرصة هـذه الاضطرابات ليؤيد سلطته ويوسع أملاكه ، وطمحت نفسه حتى إلى الاستيلاء على قرطبة . ولـكن السلطان الذى كان يتبع كل هذه المدة سياسة الوفاق والتردد اعتزم أن يكافح فى سبيل عرش

---

(١) اسمها القديم (باكس أوغسطا) وكان بها ابن عبدون وزير بنى الأفطس وشاعر الأندلس المشهور . (المعرب)

انهزام ابن حفصون

أجداده الذى كانت تعصف به رياح الثورات والفتن . فنجح قائده عبيد الله فى إلحاق الهزيمة بابن حفصون بالقرب من بولى ، وكانت هذه المعركة حاسمة ، إذ أنقذت العرش من الانهيار ، ثم استولى بعد ذلك على بولى واستيجا وأرشيدونا وألبيرا وجيان . وكان الوزير الأمين « بدر » قد أشار على السلطان بخطة عادلة فقدم ابن الحجاج طاعته مختاراً ، وبدأ بخضوع هذا الزعيم عصر جديد فى عهد السلطان الذى أخذ نفوذه ينتشر بالتدريج فى مناطق الثائرين ، وقدمت المناطق الواقعة بين الجزيرة ونيبلة طاعتها دون قتال وحذت حذوها البلاد الأخرى الخطيرة حتى أن بنى قصى زعماء أرغونة أبدوا استعدادهم إلى الطاعة .

وفى تلك المرحلة توفى الأمير الكهل فى السادسة والثمانين بعد أن حكم ستاً وعشرين سنة حكما ملؤه الاضطراب والفتن .

دخول العرب فى سافوى

ولا يستطيع السائح المتأمل أن يمر على سواحل ليجوريا وفى هضاب الألب فى بلاد بيوموند ودوفينيه من غير أن يلاحظ آثار الطابع العربى الدارس . ولعله يتساءل أوجود مثل هذا الأثر يعزى إلى الصدفة أو إلى سبب آخر ؟ فنى العصر الذى نتحدث عنه سنة (٨٨٩ م) دخل العرب ثانية جنوبى فرنسا ، ولكنهم دخلوا فى هذه المرة من طريق خليج سان تروبيه وانتشروا فى بروفانس ودوفينيه وكانت هذه الحملة مستقلة عن أية حكومة عربية ، إذ قام بها بعض أهل الموانى الأسبانية والإفريقية تحرضهم فى ذلك روح المخاطرة والمجازفة . وفى سنة ٩٠٦ اخترقوا هضاب دوفينيه ثم عبروا جبل سنيس ثم استولوا على بيوموند وليجوريا وتوغلوا فى سويسرا حتى بحيرة كونستانس ، حيث أنشأوا مستعمرة كبيرة واستولوا فى فرنسا على فريجوس ومرسيليه وكرينوبل ، وبقيت نيس فى قبضتهم مدة طويلة ، ومن آثار حكمهم أن جزءاً من هذه المدينة لا يزال يسمى بحى العرب (كانتون دى سراسينس) .

الفصل السابع والعشرون

عرب الأندلس

الأمويون

٣٠٠ — ٣٦٦ هـ ، ٩١٢ — ٩٧٦ م

عبد الرحمن الثالث (الناصر) — الحكم الثانى (المستنصر)

ولاية عبد الرحمن الثالث — قمع الثوار — الحروب مع قبائل النصارى — تلقيبه بأمير المؤمنين — ثورة الجلالقة — إدخال الصقالبة فى الجيش — موقعة الخندق — القبائل تطلب الصلح — مد الحدود إلى إبرو — الحرب فى أفريقيا — استئناف الحرب مع الجلالقة — طرد سانكو — سانكو يستنجد بعبد الرحمن — ليون — قشتالة — نافارا — وفاة عبد الرحمن — أخلاقه — ولاية الحكم الثانى — حكمه — انتصاره على الجلالقة وأهل نافارا — غزو أفريقيا — حب الحكم للعلم — قرطبة — عظمة قرطبة — حدودها — الزهراء — الفروسية

عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)

توفى الأمير عبد الله نخلفه حفيده عبد الرحمن (١) غير متجاوز الثانية والعشرين من عمره ، وكان قد ولى الملك برغم وجود أعمامه وأقارب به وهم أكبر منه سناً وأكثر خبرة ، ففرحوا به واتخذوه فألا حسناً . ويقول المؤرخون (٢)

---

(١) يقول ابن الأثير : إن أباه محمد قتل بأمر عبد الله ، وكان ابنه محمد لم يكن قد جاوز الثلاثة أسابيع من عمره ، غير أن جده الكهل اعتنى بتربيته اعتناء كبيراً ليعوض الطفل الصغير من القسوة التى عومل بها أبوه .

(٢) وفى ذلك يقول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد :

بدا الهلال جديداً والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدى إن كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر فأنت للدهر عيد

(المعرب)

إن أهله توسموا فيه آيات العظمة والبطولة ، ورأوا فيه خير ناهض بالإمبراطورية الأموية المزعزعة الأركان .

السياسة الرشيدة

فاعتزم أن يتخلى عن سياسة المسالمة والتردد التى اتبعها أجداده ، واتخذ لنفسه خطة جريئة حازمة فى معاملة الثائرين والعصاة ، ولم يرض أن يسلك فى ذلك سبيلا وسطاً ، بل أعلن لجميع الثائرين الأسبانيين والبربر والعرب أنه لايقنع منهم بالجزية بل يريد الاستيلاء على حصونهم ومدنهم ، فإذا قدموا خضوعهم عفا عنهم ، وإذا أبوا تعقبهم واشتد فى عقابهم ، فأذعنت معظم المدن الخطيرة من تلقاء نفسها .

وفى نيسان سنة ٩١٣ م ظهر عبد الرحمن فى الجيش فأثار ظهور الأمير الفتى فى صفوفهم حماسة شديدة ، وبالأخص عند ما علموا أنه لا يرغب فى مشاطرتهم الانتصارات فحسب ، بل أقدم على مشاطرتهم الآلام والمشاق ، وقد أثر هذا العمل المجيد أيما تأثير فى معنوية الجنود ، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى أخضع عبد الرحمن ولاية ألبيرا وجيان ، ثم استولى على أمنع المعاقل وأباد اللصوص والعصاة فى هاتيك المناطق ، كذلك كان نجاحه فى جبال سيارانفادا الشامخة لا يقل عن نجاحه فى السهول المنبسطة ، وكان يفرق شمل العصاة أو يقتل زعماءهم ، وما هى إلا لحظة حتى عرض محمد بن إبراهيم بن حجاج الذى خلف أباه فى ولاية أشبيلية طاعته . وقد بدأ أهلها فى بادئ الأمر يدافعون عن المدينة ، ولكن بعد أن حاصرها عبد الرحمن مدة قصيرة سقطت فى قبضته ، ثم سار الأمير لقتال الثوار فى سيارا دى ريجيو (يسميها العرب ريه) ، وأخضع زعماءهم ، وألقى المسيحيون الأسبانيون الذين كانوا أشد أعداء الملك سلاحهم متأثرين بكرم الأمير وحزمه ؛ ويقول أحد المؤرخين المسيحيين « ومهما يقل عن تصرف الحكومة فإنها أبدت تسامحاً وكرماً فى معاملة النصارى »[1] . وتوفى ابن حفصون سنة ٩١٧ م ، غير أن

(١) دوزى .

الحرب لم تنته بوفاته إذ ظل الأمير محتفظاً بجيشه الكبير فى سلسلة تلك الجبال لمدة عشر سنوات كاملة . وفى سنة ٩٢٨ استولى الأمير على بيشتر و بعض القلاع الأخرى ودمرها تدميراً ، وقدم الأمراء فى الغرب طاعتهم كذلك ، ولما اطمأن الأمير إلى الأحوال فى الجنوب سير جيوشه على الثائرين فى الولايات الشمالية والشرقية ، ثم استولى على بطليوس بعد حصار دام أكثر من سنة . وكانت طليطلة قد ثارت مرة أخرى بتحريض من زعيم قبائل ليون المسيحى ، فأرسل الأمير إلى تلك البلدة الثائرة المتصلبة وفداً من العلماء يدعوهم إلى الطاعة والولاء فرفضوا إجابة طلبه بإباء معتمدين على مساعدة الليونيين ، ولما وجد الأمير أنه ليس ثمة ما يفيد مع أهل المدينة سوى القوة ، اتخذ على الفور إجراءات حازمة وجدّ فى حصارها مدى عامين ، فلما كادت تنفد مواردها سلمت دون قيد أو شرط وأخيراً استأصل عبد الرحمن بذور الفتن وأصبح أمير البلاد دون منازع .

الاستيلاء على بيشتر

ولكنه لم ينس فى أثناء انهماكه فى إخضاع الثوار داخل المملكة أن ينتهز الفرص لمقاتلة عدوين ، كان هو على يقين من عدوانهما وسوء نياتهما نحو الأندلس : أولهما الوطنيون المسيحيون أو قبائل الشمال ، وثانيهما الفاطميون فى أفريقيا .

وفى أواسط القرن الثامن عصف بأسبانيا قحط مخيف دام خمس سنوات ، وهاجر بسببه كثيرون إلى أفريقيا ومعظمهم من العرب الذين كانوا قد استوطنوا تلك الجهات عقب الفتح الإسلامى .

نصارى الشمال

فانتهز الثوار من أهالى جليقية هذه السانحة وثاروا على الأمير ، ثم فتكوا بجمع غفير ممن بقى حيا من العرب وانتخبوا الفونسو زعيما أو ملكا عليهم ، ولم تكد تمضى بضع سنوات حتى استوحش البربر لفقد مواطنيهم ، ولا سيما أنهم أصبحوا الآن قلة فى تلك الأصقاع ، فأخلوا عدة مدن مهمة مثل استورقة وليون وسموره (زاموره) وشلمنقه وأسقوبيه وميرانده ، ولم يحاول الفونسو مع ذلك الاستيلاء

على البلاد المهجورة ، فاكتفى بقتل من بقى فيها من المسلمين القلائل ثم ارتد إلى جباله . وانتهز من خلفه من أمراء ليون فرصة الحروب الداخلية التى كانت تمزق أوصال الدولة الإسلاميـة ليجعل بها مقاطعة ليون حاضرة دولتهم . وفى منتصف القرن التاسع لما فاضت الأندلس بالثورات الداخلية دفعوا حدودهم إلى نهر دورو وأنشأوا هنالك أربع قلاع منيعة كانوا يتخذونها قاعدة للإغارة على الحدود الإسلامية ومطاردة المسلمين العُزّل بالسيف والنار ، وقد كانوا من الفقر والهمجية بحيث كانوا يتعاملون فى البيع والشراء بالمقايضة ، فكانوا لهذا ينظرون إلى ثروة الأندلس الوافرة وخيراتها الجزيلة بعين الطمع ويعدونها فريسة سائغة يمكن التقامها ، وكانوا على الجملة متعصبين قساة القلوب ، وكانوا كلما استولوا على مدينة من المدن قتلوا النساء والأطفال والشيوخ من غير ما شفقة ولا رحمة ، ولم يكونوا يعرفون قط معنى للتسامح الذى اشتهر به العرب فى معاملتهم للمسيحيين فأى مصير كان ستؤول إليه حالة المسلمين فيما إذا كان هؤلاء القوم القساة يحتلون تلك البلاد .

الإغارات المتواصلة

لقد كانوا يمقتون الحضارة العربية التى كان يبهر ضياؤها أعينهم ، فكان على عبـد الرحمن أن ينقذ مملـكة الأندلس وحضارتها الزاهرة ، كذلك كان الأمير الشاب يفهم جيداً المهمة الملقاة على عاتقه ، ولقد عمل على ذلك بعزم لا يقل عن العزم الذى قمع به الثائرين فى داخل البلاد .

ولم يك عبد الرحمن ينوى محاربة ثوار الشمال ، بل كان يفضل دوام الصلح بينه وبينهم غير أنهم اضطروه إلى الحرب . وفى سنة ٩١٤ م ثار الليونيون بقيادة زعيمهم أوردونو الثانى واجتاحوا مقاطعة ماردة ونهبوها وعاثوا فيها بالسيف والنار وأسروا وذبحوا سكانها ، ثم استولوا على قلعة ألَينْا وقتلوا جميع سكانها الذكور وسبوا النساء والأطفال ، ثم عبروا نهر الدورو مثقلين بالغنائم والأسرى .

سنة ٩١٤م

واكتفى عبد الرحمن بالرغم من انهماكه فى محاربة الفاطميين فى أفريقيا

بإرسال جيش بقيادة وزيره أحمد بن أبي عبيدة لمعاقبة ملك ليون فهزم المسيحيين وغنم منهم غنائم كبيرة ، ولكنهم أصيبوا بهزيمة منكرة بالقرب من سانت استيفان ، فتشجع أردونو وحليفه سانكو (شانجه ملك نافارا) فعاث فى ضواحى ناجيرا وطليطلة ، واستولى سانكو على منطقة فالتيرا . وفى العام التالى عاد أردونو فعاث فى منطقة لافيرا وأحرق مدنها وضياعها ، فضج المسلمون من ذلك ، وعزم عبد الرحمن على أن يلقى درساً مهما كلفه الأمر على القبائل المسيحية لن ينسوه ؛ وفى تموز سنة ٩١٨ أرسل جيشاً كبيراً بقيادة حاجبه « بدر » على الثوار الذين كانوا معتصمين فى الجبال فهزمهم وألحق بهم خسائر فادحة .

انهزام أردونو

ولما تأكد عبد الرحمن أن أهل ليون لم تضعف شوكتهم سار فى حزيران سنة ٩٢٠ على رأس جيشه فاستولى على أوسمه وسان استيفان وككونيا وعدة قلاع أخرى ، وبعد أن ترك حامية صغيرة فى منطقة ليون سار إلى نافارا ، فألحق قائده محمد بن لوك بسانكو زعيم أهالى نافارا خسائر فادحة ، ولما لم يستطع سانكو صد جيوش الأمير بنفسه استنجد بأخيه زعيم الليونيين ، واعتزم الملكان عندئذ أن يوحدا صفوفهما ويهاجما المسلمين واستعصما بالجبال الواقعة على الحدود وانقضا على الجيش الإسلامى حين مروره فى مفاوز البرنيه الضيقة وألقوا عليه من علٍ الحجارة الضخمة والحصباء ، وشعر الجيش الإسلامى بالخطر المحدق به ، وحالما وصل بجيشه إلى جونكيرا حيث يتحول الممر إلى سهل متسع أمر جنوده بأن تعسكر هناك ؛ ويقول دوزى : « إن النصارى ارتكبوا هنالك غلطة فاحشة ، فإنهم بدلا من البقاء فى حمى الجبال نزلوا إلى السهول وقبلوا محاربة المسلمين بجرأة دفعوا ثمنها هزيمة منكرة ، وطاردهم المسلمون حتى أخفاهم ظلام الليل عن أعينهم وأسروا كثيراً من زعمائهم ومن بينهم أسقفان كانا يحاربان كجنديين » .

وبعد هذا النصر المبين لم يلق الأمير أية مقاومة فاقتحم نافارا وخرب قلاعهم وحصونهم ، ووصل عاصمة ملكه على رأس جيشه المظفر فى ٢٤ أيلول .

وفى سنة ٩٢١ م ثار من جديد أردونو وسانكو ، فانقضا فجأة على ناجيرا وفجويرا وقتلا كل من فيها ، ومنهم كثير من العرب الذين ينتمون إلى أشهر الأسر ؛ ولم يكن ثمة مناص من مجاراة الرأى العام فى طلب الانتقام ، ومع أن الأمير لم يكن يود إثارة الحروب إلا أن قلبه كان يفيض سخطاً لما يرتكبه المسيحيون من التدمير والسفك المستمرين فى المقاطعات الشمالية ، فلم يصبر على انتظار فصل الربيع بل سار توًّا إلى ميدان القتال فدخل نافارا فى العاشر من تموز ، وكان اسمه كافياً لإلقاء الرعب فى قلوب المسيحيين . ففر العدو عند اقترابه من قلاعهم وحصونهم ، وحاول سانكو عدة مرات صد الأمير عن زحفه ولكنه باء بالفشل والهزيمة ، وتوصل عبدالرحمن إلى بمبلونه عاصمة سانكو التى فر سكانها رعباً منه ، فدمرها وخرب قصور الملك والأمراء عقاباً لهم ، وبذا تم إخضاع زعيم البشكنس الذى أصبح بعد هذا عاجزاً عن أن يلحق بالمسلمين أذى ، ونال الأمير نجاحاً مماثلا بالقرب من ليون ، وقد ساعدته الحروب الأهلية التى نشبت بين أبناء أردونو سنة ٩٢٥ على أن يوطد سلطته و يقمع الفتن والثورات داخل بلاده ؛ وهكذا استطاع أن يوطد الأمن فى كافة أنحاء البلاد . وكان الأمراء الأمو يون فى الأندلس قد اكتفوا بلقب الأمير أو السلطان ويرون أن لقب الخليفة وأمير المؤمنين مقتصر على حامى الحرمين[1] ، فلم يتخذوا سمة الخلافة ما دام العباسيون يملكون مكة والمدينة وتقرأ الخطبة باسمهم فيهما ، ولكن الحوادث تغيرت تغيراً يذكر ، إذ أن دولة العباسيين دخلت فى دور الانحلال وأصبح الخليفة الراضى أسيراً فى قصر بنى بويه ، واستولى المعز الفاطمى على الحرمين ، فرأى أمير قرطبة بطبيعة الحال أن الاحترام الذى كان يبديه أمويو أسبانيا نحو خلفاء بغداد فى غير محله ، فأباح لنفسه عندئذ أن يتخذ سمة الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين ، وأجريت البيعة له فى حفل حاشد يمثل جميع طبقات الأمة ، ولقب بالناصر لدين الله .

اتخاذ لقب أمير المؤمنين

(١) المسعودى .

وفى سنة ٩٣٣ استولى رامير الثانى على ولاية ليون بعد أن سمل عينى أخيه الفونسو الرابع وعيون عدد كبير من أقاربه ، وكان رامير يحمل حقداً بالغاً على المسلمين ، وحالما استولى على السلطة بدأ يزحف على البلاد الإسلامية .

هجوم رامير

فسار عبد الرحمن فى الحال على رأس جيشه لمقابلته ، وبذل جهداً كبيراً فى سحبه إلى ميدان القتال ، ولكن رامير رأى من إصالة الرأى أن يظل وراء أسوار وشحه ، فترك الخليفة فرقة تراقب رامير فى تلك المدينة ، وواصل سيره نحو الشمال حيث كان الليونيون والجلالقة قد وحدوا صفوفهم ، وكان سانكو قد توفى واستولى ابنه كارسيا على نافارا تحت وصاية أمه تيودا التى كانت تحمل فى قلبها بغضا نحو العرب لا يقل عن بغض رامير لهم . فاكتسح الخليفة قلعة ألبه ، وهدم قلاع الجلالقة وحصونهم حتى أصبحت أطلالا دارسة ، وأصبح رامير عديم الحول لا يستطيع أن يوقف العرب عن تدمير برغش أهم نقطة فى تلك المعاقل . وفى تلك المرحلة اكتسب مسيحيو الشمال حليفا عظيم القيمة فى شخص حاكم سرقوسه الثائر (محمد بن هشام[1]) الذى ثار على سيده لما لحق به من الحيف على زعمه . وهكذا أصبح الشمال كله ثائراً على عبد الرحمن وتحرج الموقف ، غير أنه عالجه بنشاطه المعهود ، فحاصر سرقوسة محاصرة لا هوادة فيها حتى قدم الثائر طاعته فصفح عنه وأعاده إلى مركزه السابق ، ولكن رجال القبائل لم يعاملوا بنفس الرحمة التى عومل بها زعيمهم ، فاكتسح الخليفة بلاد البشكنس ، وفرضت الجزية على المدن والقرى ؛ وبعد أن قاومت الملكة تيودا جيش الخليفة الذى أوقع بها الخسائر مرة تلو المرة طلبت بعد مدة قليلة الصلح فأجيبت إلى ذلك ، وتم للخليفة الاعتراف بسلطانه فى نافارا ؛ وكان رامير قد لحقت به هزائم شديدة بحيث لم يجسر على مجابهة جيش الخليفة فى ميدان القتال ، وتوارى فيما وراء التلال ، وفيما عدا ولاية ليون ، وقسم من كتالونيا التى كانت تابعة لفرنسا

(١) يسميه ابن خلدون هشام ويسميه دوزى هاشم .

أصبحت أسبانيا برمتها الآن تحت أقدام ملك قرطبة العظيم .

إدخال السلافيين في خدمة الدولة

أخذ عبد الرحمن نظراً لسخطه على الأرستقراطية العربية يعهد بالمناصب إلى الأجانب ، وكان معظمهم من الأرقاء والمماليك كالألمان والفرنج والإيطاليين والإسكندناويين والروسيين وما إليهم ، ولما كان هؤلاء يؤتى بهم أطفالا بواسطة تجار من البندقية وجنوه وبيزا ليباعوا بيع الأرقاء لعرب أسبانيا ، فقد كانوا يعتنقون الإسلام ويتعلمون اللغة العربية بسهولة ويربون تربية راقية حتى كان يعهد إليهم بعد بأهم الوظائف ، وكان الناصر يحيط نفسه برهط منهم ، فأطلق عليهم اسم الصقالبة أو السلافيين ، وقلدهم أهم المناصب في الجيش والحكومة ، وكان الناصر يرغم أشراف العرب ورؤساء القبائل ذوى النفوذ والعصبية على الخضوع لهؤلاء الصقالبة ، فأثارت هذه المحاباة سخط القبائل العربية وأشرافها . وفي سنة ٩٣٩ ثار الجلالقة وأهل البشكنس على الخليفة ، فحشد جيشه وتأهب لحاربتهم ، ولكنه ارتكب خطأ فاحشا إذ عهد بالقيادة إلى صقلبي اسمه «نجدة» ، فسخط عليه ضباط العرب وثار كبرياؤهم وتغيرت نفوسهم ، فأقسموا أن يتركوا الصقالبة وحدهم عند نشوب المعركة الحاسمة ، وهنا تختلف الروايات اختلافا بيناً في سبب موقعة الخندق وهزيمة جيش المسلمين ، فيقول المسعودى والمقرى : «إن عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف على زامورا (سموره) عاصمتها ، وكانت في غاية المناعة يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان قد أحكمتها الملوك السالفة ، وبين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ، فافتتح المسلمون منها سورين ، واحتمى النصارى بداخل المدينة ، ثم لحق المسلمين الإعياء من امتناع المكان وحصانته ، فكر عليهم النصارى بشدة وحماسة ، وساد الاختلاف بين المسلمين ، فهزموا هزيمة شديدة (حتى قدر بعض المؤرخين قتلاهم بخمسين ألف) ؛ ويقول المسيو كوندى : «إن العرب بالرغم من المقاومة التي لاقوها أمام الخندق ، وبالرغم من هزيمة بعض جيوشهم استمروا على الهجوم واخترقوا الخنادق فوق جثث زملائهم

إذ انقضوا على المسيحيين الذين تراجعوا أمامهم وفروا هاربين إلى المدينة يطاردهم المسلمون ؛ وأصبح ذلك المكان ميدانا مملوءاً بالأشلاء ، ولم ينج من هذا المصير المروع سوى النساء والأطفال » ، وتعرف هذه الموقعة التى نشبت داخل أبواب زامورا بموقعة الخندق ؛ غير أن دوزى يروى رواية أخرى تختلف اختلافا بينا عن الرواية العربية ، وهو يستقى معلوماته من التواريخ الأسبانية المسيحية ، فيقول : « إن جيش المسلمين هوجم من قبل الأعداء بظاهر قرية الخندق على مقربة من سلمنقة ، فانهزم العرب وانكشف جناحاهم ، فهجم عليهم الليونيون والنافاريون على القلب الذى كان مؤلفاً من جنود الخليفة ، فحارب الصقالبة باستبسال عظيم حتى كادوا أن يفنوا على آخرهم » .

غير أن الهزيمة التى لحقت بالخليفة داخل أسوار زامورا لم تثبط من عزمه أو تقلل من نشاطه ، فجهز فى الحال جيشاً آخر وسار به على الجلالقة والبشكنسيين فانتقم منهم شر انتقام . وفى تشرين الثانى سنة ٩٤٠ م ألحق حاكم بطليوس براميرو هزيمة منكرة وأعمل السيف والنار فى بلاده ، وظلت هذه الحملات متصلة الحلقات بضع سنوات حتى ضعفت معنوية القبائل . وفى سنة ٩٥٥ م طلب أردونو الثالث ابن راميرو المتعصب وخليفته الصلح ، فأجيب إلى ذلك ، وعقدت معاهدة سلم بينه و بين الخليفة بشروط شريفة للطرفين اعترف فيها زعيم الجلالقة بسلطان الخليفة ، وأن يتجنب أى عمل عدائى أو التآمر مع مسيحى الأندلس أو أى دولة أجنبيــة أخرى ، وأن يهدم فى خلال مدة معينة حصونه الرئيســية القريبة من ثغور المسلمين ، وألا يغزو الأراضى الإسلامية ، وتعهد الخليفة من جهته بأن يحترم استقلال نافارا وليون ، وأن يكتفى منه بالجزية والطاعة ، و بنتيجة هذه المعاهدة أعيدت الحدود الإسلامية إلى الأبرة وأصبحت تمتد من طرطوشة على نهر أبرة قرب مصبه ببحر الروم ، وهى تعد من أشهر المعاقل ، ثم تمتد إلى حصن أفراغة ثم إلى لريدة على ساحل المحيط الأطلنطيق .

الحروب فى أفريقيا

و بينما كان عبد الرحمن منهمكا فى محاربة قبائل الحدود حدثت بالمغرب الأقصى حوادث اضطرته إلى دخول ميدان القتال هنالك ، فلأجل أن يصون بلاده من الدعوة الفاطمية ، و يحول دون انتشار نفوذ المهدى فى المغرب الأقصى شرع منذ سنة ٩١٧ م يسدى المساعدات اللازمة للإمارات الصغيرة فى غربى أفريقيا ، ولم يكن يخامره أدنى شك فى أن المهدى كان يكاتب الثائر عمر بن حفصون ، وقد لاقى الخليفة نجاحا فى بادئ الأمر ؛ ولكن المعز عندما اعتلى عرش الخلافة الفاطمية سير جيشاً على القوات الأندلسية الصغيرة التى كانت باقية فى أفريقيا بعد أن تركها معظم الجيش الأندلسى للاشتراك فى محاربة القبائل المسيحية وطردها بسهولة من أفريقيا ، ولم يبق فى يد خليفة الأندلس غير ميناء كيوتا ، وهى مفتاح القسم الشمالى من المغرب الأقصى (موريتانيا) . و بعد عقد معاهدة سلم مع أردونو الثالث رأى الخليفة المنهوك القوى أنه أصبح فى وضع يستطيع معه توجيه جهوده الكاملة شطر أفريقيا ، غير أن وفاة أردونو جعلته يقلع عن غزو الدولة الفاطمية ، وذلك أن سانكو الذى خلف أردونو فى إمارة جليقية وليون ، رفض أن يتقيد بالمعاهدة التى وقعها أخوه ، فاضطر الخليفة إلى أن يستخدم الجيش ضد العشائر الثائرة بعد أن كان قد اتخذ عدته للزحف به على أفريقيا ، فعهد إلى قائده الشجاع أحمد بن علاء حاكم طليطلة بقيادة الجيش ، وفى شهر تموز سنة ٩٥٧ م نال نصراً باهراً على الجلالقة والليونيين .

إبعاد سانكو

وكان سانكو قد سلك مسلكا سيئاً مع رعيته فثاروا عليه وساعدهم فرديناند ملك قشتاله فأبعدوه من مملكته ، فالتجأ إلى جدته الملكة طوطه فى نبلونة ، وفى تلك الأثناء انتخب الليونيون ابن عمه أردونو ملكا عليهم ، ولما كانت طوطه نفسها عاجزة عن مساعدة حفيدها فقد استنجدت بالخليفة وتوجه كلاهما إلى قرطبة حيث استقبلا استقبالا باهراً ، وأجابهما عبد الرحمن إلى طلبهما وسير جيشاً مع سانكو لاسترداد إمارته فهزم أردونو الذى اعتصم بالجبال ، وفى شهر

الاستنجاد بالخليفة

نيسان سنة ٩٥٩ م أعيدت لسانكو سلطته ، وأصبحت بذلك ليون وقشتالة وجليقية ونافارا خاضعة لنفوذ خليفة قرطبة .

وفاة عبد الرحمن الناصر ٣٥٠ هـ ١٦ تشرين الأول ٩٦١ م)

ولكن هذا الخليفة العظيم الشأن لم يتمتع بانتصاره إلا سنتين ، إذ أنه توفى فى ١٦ تشرين الأول سنة ٩٦١ م وعمره ٧٣ سنة بعد أن حكم البلاد نصف قرن كامل .

كان عبد الرحمن الناصر أعظم ملوك بنى أمية بالأندلس دون منازع ، إذ اعتلى عرش مملكة تعصف بها رياح الفوضى والفتن وتفيض بالبغضاء والحسد بين الأمراء ، حتى غدت فريسة للفوضى والحروب الأهلية وظلت معرضة لغزو مسيحى الشمال المستمر ، ولكنه بالرغم من الصعوبات العديدة أنقذ الأندلس وجعلها أقوى وأعظم من ذى قبل ، فساد الأمن وازدهرت البلاد فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، وبلغ نظام الشرطة حدا يستطيع معه الأجنبى أو التاجر السفر فى أى طريق مهما كان وعر المسالك دون خوف أو وجل ؛ وكان رخص تكاليف الحياة وانتشار عادة ركوب الخيل حتى من قبل أفقر الطبقات ، وطلاوة ملابس الفلاحين ، براهين ساطعة على رفاهية الشعب ؛ كما كان ازدهار الحقول وينوع الثمار وكثرة الأشجار الوارفة آية من آيات اعتناء الحكومة بالفلاحة ، أما الأعمال المائية الفخمة ونظام الرى الفنى البديع الذى أخصب الأراضى القاحلة فكانت تثير إعجاب السائح فى تلك البلاد . ولكن الزراعة لم تكن وحدها هى كل ما اعتنى به الناصر ، إذ نالت التجارة والصناعة والعلوم والفنون أيضاً على يديه أكبر تشجيع ، وكان لكل من قرطبة والمرية وأشبيلية وبعض المدن الأخرى شهرة فى عدة صناعات أغنت السكان وزادت فى ثروة البلاد . وقد نمت تجارة أسبانيا نموا عظيما حتى كانت الرسوم الجمركية تؤلف أكبر جزء من إيرادات الدولة التى بلغت فى عهد الناصر زهاء ١٢ مليون دينار ؛ وكانت الغنائم والأفياء التى يستولى عليها جيش الناصر هائلة جدا ، كما أنه بنى أسطولا نافس به

الفاطميين فى النفوذ على بحر الروم وأسس جيشاً منظماً يقول فيه دوزى « ولعله كان أحسن جيش فى العالم » ساعده على التسيطر على مسيحيي الشمال ؛ وكان ما أثار هيبته فى نفوس ملوك النصرانية وأمرائها أن توالت عليه وفودهم وسفراؤهم[1] فى طلب المهادنة والسلام والتحالف ، ووفدت عليه رسل ملك ألمانيا وفرنسا و إيطاليا ، قال دوزى : « لقد كانت هذه نتائج باهرة ، ولكننا نجد إذا ما درسنا ذلك العهد الزاهر أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة أكثر مما يثيرهما المصنوع ، وهذه العبقرية الشاملة التى لم يفلت شىء منها تدعو إلى الإعجاب فى تصرفها نحو الصغائر كما تدعو إليه فى أسمى الأمور . إن ذلك الرجل الحكيم النابه الذى استأثر بمقاليد الحكم وأسس وحدة الأمة ووحدة السلطة معاً وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسى ، والذى اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى مجلس استشارته رجالا من كل دين لأجدر بأن يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث لا خليفة من خلفاء القرون الوسطى » ؛ غير أن الرواية العربية تصف لنا عبد الرحمن ضعيفاً متقلباً[2] .

الحكم الثانى الملقب بالمستنصر بالله

ولما توفى الناصر خلفه ابنه الحكم الملقب بالمستنصر بالله ، وكان قد اشترك قبل وفاة والده ببضع سنوات فى إدارة شؤون الدولة ، ولهذا ذاعت شهرته فى البلاد النائية بالعدل والحكمة ، وبدلا من أن يحترم زعما ليون ونافارا وفاة الخليفة

---

(١) عرفت سنة ٩٤٧ م (٣٣٦ هـ) بسنة وفود ملوك النصرانية على قرطبة ، فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة ، ورسل الملك أوتو الكبير ، ورسل ملك فرنسا ، وأمير آخر فى ماوراء جبال البرنيه يسمى أوكو (هوكو) .

(٢) عرف عن هذا الملك أنه قال ذات يوم : إنه فى حكمه الطويل لم يحرم من السعادة إلا أربعة عشر يوماً فقط ، وذلك أن ابنه اشترك مع الثائرين فحكم عليه بالقتل . ويقال إن أخاه وولى العهد سجد أمام والده يذرف الدمع متوسلا إليه أن يعدل عن قرار المجلس ، فأجابه : إنى كوالد سأذرف الدمع سخياً طوال حياتى ، ولكنى ملك أيضاً ، فإذا تدخلت فى هذه القضية تمزقت أوصال الإمبراطورية . وهكذا نفذ فى الابن حكم الإعدام ، ومنذ ذلك اليوم لم يشاهد عبد الرحمن يبتسم قط .

العظيم الذى أسدى لهما تلك الخدمات الجليلة و يعتبرا موته خسارة لا تعوض ، انتهزا تلك السانحة للتملص من شروط المعاهدات والتخاص من سيادة العرب .

خيانة زعيم ليون

وقد ظن سانكو وكارسيا أن « الحكم » الذى كان معروفا بميله للعلم وحبه للسلم قد لا يصر على تنفيذ شروط المعاهدات ، وأنه إذا نشبت بينه و بينهم حرب فلا ينجح فيها نجاح والده ، فاتخذا خطة عدائية دات على الخيانة والغدر فتماهلا فى هدم الحصون الواقعة على الحدود وتذرعا بكل وسيلة ، كما أن فرديناند كونزاليس كونت قسطيلة شرع فى ذلك الحين فى غزوه ؛ وقد انخدع الزعماء الناكرو الجميل فى فهم حقيقة أخلاق الملك الجديد ، إذ لم يكد يشترك معهم فى مناوشة صغيرة حتى أثبت لهم أن العالم يستطيع أن يكون جندياً ماهراً وأن يتقن الضرب بالسيف كما يتقن الكتابة بالقلم ، فقاد الحكم أول حملة على كونزاليس وألحق بالثائر خسائر فادحة اضطرته إلى الفرار خارج الحدود . وعند عودته منتصراً على كونت قسطيلة وفد عليه أردونو الثالث الذى كان قد عزله سانكو بمساعدة الخليفة السابق ، فاستقبله الحكم استقبالا عظيما ورضى بمحالفته على أن يعيش بسلام مع المسلمين ، وأن يسلم ابنه كارسيا رهينة وأن يقاطع الأمير الثائر كونزاليس ، ووضع الخليفة عندئذ جيشاً بقيادة القائد غالب تحت تصرفه لطرد سانكو من ليون وجيلقية وليقيم أردونو فى مكانه ، ولما كان مركز سانكو متزعزعاً فقد خشى تلك الاستعدادات وأرسل إلى قرطبة وفداً من كبار الأكليروس وأشراف إمارته يتوسل إلى الخليفة أن يعفو عنه ، و يعد الخليفة بالتمسك بالمعاهدات وعدم نكث شروطها ، ولكن لما توفى أردونو بعد بضعة أشهر جنح إلى التمرد ثانية معتمداً على مساعدة زعيم نافارا وقسطيلة وكتالونيا ، رافضاً التمسك بأحكام المعاهدة ، الأمر الذى اضطر الحكم على أن يعلن الحرب على القبائل المسيحية ، وتفرغ فى بادئ الأمر إلى محاربة قسطيلة ، وفتح عنوة سان اشتيبان واضطر كونزاليس على طلب الخضوع فأجاب طلبه ، ولكنه لم يلبث قليلا حتى

نكث العهد ، فبعث « الحكم » بجيشه وعلى رأسه غالب إلى ليون ، فسار عن طريق مدينة سالم حتى أتى إلى موضع يسمى أستا فى منطقة سانكو حيث قابلته قوة ضخمة من الجلالقة فأوقع بهم واكتسح جليقية ، و بعد أن عقد الخناصر مع يحيى بن محمد حاكم سرقوسه غزا بلاد البشكنس التى كان زعيمها قد نكث العهد ، وهزم زعيم نافارا واستولى على أخطر مدنه ، « ووقوع قلعة الحرة فى أيدى غالب فى منطقة البشكنس كانت تعد من أخطر الفتوحات » ، فأعاد الحكم تشييد قلاعها وأقام فيها وفى عدد غيرها من المواقع فى نافارا وجليقية وقسطيلة وألبا الحاميات ؛ وبالاختصار أجبر الحكم — مع ما عرف عنه من كره الحرب ودخوله الحرب على غير رغبته — الأعداء فى داخل بلاده أن يطلبوا الصلح ، فقدم سانكو زعيم ليون خضوعه سنة ٩٦٦ م ، وحذا حذوه أمراء كتالونيا و باريل ومونيرا الذين منوا بهزائم منكرة ، وطلبوا تجديد المعاهدات ، وتعهدوا بتخريب القلاع والحصون التى على الحدود الإسلامية والتى كثيراً ما اعتصم بها قطاع الطرق ، وتعهدوا أيضاً أن يمتنعوا عن مساعدة بنى جلدتهم فى الحروب مع العرب وأن يحولوا دون اتحاد العشائر والأمم المسيحية على المسلمين ؛ فأرسل كارسيا زعيم البشكنس سفراء تصحبه هيئة من أشراف بلاطه وأساقفته لطلب الصلح ، ولم يسمح لهم الحكم بمقابلته إلا بعد أن انتصر غالب انتصاراً رائعاً على أهل نافارا فمنحهم نفس الشروط التى منحها لهؤلاء ؛ وفى ذلك الحين وفدت أم أحد الأمراء الأقوياء المسمى بلوذريق بن بلاكاش التى تقع ولايته على تخوم جليقية تطلب الصلح بالنيابة عن ابنها ، فأحسن الخليفة استقبالها وغمرها بالعطايا وأجابها إلى سؤلها ، و بوفاة كونت قسطيلة الثائر سنة ٩٧٠ م استتب السلم فى تلك الولاية .

خضوع سانكو

و بعد سنتين من ذلك التاريخ أرسل الحكم حملة إلى المغرب الأقصى والأوسط لقطع دابر الحركة الفاطمية التى أخذت شكيمتها تقوى فى تلك البلاد ، و يلوح أن غالب القائد قد نجح فى إعادة نفوذ السلطة الأموية فى أفريقيا الغربية ،

٣٦٢ هـ
تشرين الأول
٩٧٢ م
إرسال حملة
إلى المغرب

ونبذت قبائل زناتة ومغراوة ومكناسة طاعة الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، وقرأوا الخطبة باسم الحكم على المنابر ، ووفد كثير من أمراء العلويين الذين سكنوا منذ مدة طويلة فى فاس على أسبانيا حيث أحسنوا وفادتهم ، ونقل الأدارسة إلى منطقة الريف ومنها إلى قرطبة ، ولكنه عاد ونفى بعضاً منهم إلى الإسكندرية .

حب الحكم للعلوم

ويقول ابن خلدون : « فى عهد الحكم زهت الآداب والعلوم » ، وكان الأمير نفسه إماماً لتلك النهضة ، فافتتح معاهد العلم والتربية ، وأنشأ المكاتب العامة فى المدن والعواصم ، وكان له شغف عظيم باقتناء الكتب وإرسال الوفود فى طلبها من جميع الأقطار ، ولاسيما بغداد والقاهرة ودمشق مهود الآداب والعلوم العربية فى المشرق ، وكان يبذل من أجل ذلك أموالا طائلة حتى اجتمع له منها مالم يجتمع لدى غيره من الخلفاء أو أمراء المسلمين فى عهده ، وعين موظفاً لإدارة خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان التى بلغ عدد فهارسها فقط ٤٤ مجلداً[1] ؛ وقد حول « الحكم » بلاد الأندلس إلى سوق يرد إليها إنتاج الممالك الأدبى ، كذلك كان يبذل الأموال الطائلة للحصول على النسخة الأولى من الكتب ، ويقال إن أبا الفرج الأصفهانى أرسل إليه نسخة من كتابه الموسوم بالأغانى قبل ظهوره فى العراق فاشتراه منه بألف دينار ، ويقال إنه أفرد فى قصره عدة غرف لأعمال النسخ والتجليد واستخدم لها أمهر النساخين ؛ ولم يكن محباً لجمع الكتب فحسب بل كان أيضاً عالما مولعاً بالدرس ، فلم يكن ليكتفى بالقراءة السطحية ، إذ قلما نجد كتابا فى خزائنه دون أن يعلق على هوامشه بالملاحظات السديدة ؛ وكان مولعاً بتشجيع العلماء والمصنفين والفلاسفة ، فلجأ إليه العلماء والبحاثون والفلاسفة فأكرم مثواهم وحماهم من اضطهاد المتعصبين ، كذلك زهت فى عهده كافة فروع العلم والآداب . وكان أسلافه قد أسسوا المدارس الأولية وحبسوا عليها الأوقاف « فكان كل فرد فى الأندلس يعرف القراءة والكتابة ، بينما كانت أوربا المسيحية

---

(١) قدر بعض المؤرخين مكتبة الحكم بأربعمائة ألف مجلد .

تتخبط فى دياجير الجهل إذا استثنينا منهم رجال الدين ، وعلى الجملة كان أفراد الطبقة الراقية فى جهل عام وظلام دامس »[١]. ولما كان « الحكم » من المجددين والآخذين بناصر العلم والعلماء ، فقد أسس فى العاصمة وحدها سبعاً وعشرين مدرسة لتعليم أولاد الفقراء ، وكانت الدولة تجهزهم جميعا بالكتب مجانا . ولا ننسى أن جامعة قرطبة[٢] أخذت مكانتها السامية بين أشهر جامعات العالم ، وبخاصة الأزهر الشريف فى القاهرة والنظامية فى بغداد .

وفاة الحكم

وتوفى هذا الأمير الفاضل بقصره بقرطبة فى تشرين الأول سنة ٩٧٦ ، وبموته انتهت عظمة الدولة الأموية فى أسبانيا .

قرطبة

كانت كردوفا أو كما يسميها العرب « قرطبة » واقعه فى سهل خصب واسع على سفح جبال سيرامورينا تؤلف مدرجا بشكل نصف مستدير على الشاطىء الأيمن لنهر الوادى الكبير ، وقد تفنن ملوك العرب فى تجميلها بالأبنية الفخمة الشامخة ، غير أنه لم يبدأ بنظام تجميلها على أصول هندسية بارعة ، والتفنن فى إتقانها بما يعجز عن فهمه مهندسو هذا العصر ، إلا فى عهد عبد الرحمن الداخل ، وكان أول ما قام به « الحكم » عند توليه إقامة القناة التى تحمل الماء العذب من جبل قرطبة إلى المدينة ، وقد واصل خلفاؤه زيادة عدد تلك القنوات حتى فاق نظام جلب ماء الشرب وتوزيعه فى غيره من المدن ، فأجروا المياه العذبة فى قنوات نحاسية فى كل ساحة من ساحات البلد ، وكانت الأحواض والصهاريج مصنوعة من المرمر المنقوش أو من النحاس ، كما كانت فى بعض القصور تصنع من الذهب الإبريز أو الفضة . وكان العرب مغرمين برؤية المياه تجرى على مختلف الأشكال والأنواع ولهذا أنشئت حول القصور حدائق غناء ورياض أنيقة تجرى من تحتها الجداول

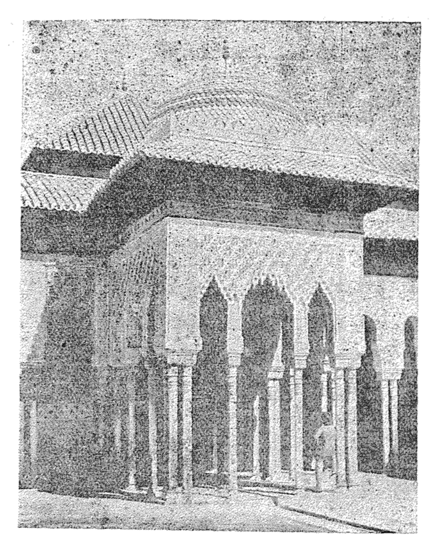
---

(١) دوزى .

(٢) ومن أساتذتها إذ ذاك ابن القوطية إمام النحو ، والقالى أستاذ الآداب ، وصاحب الأمالى الكتاب المشهور فى الأدب العربى ، وأبو بكر بن معاوية القرشى النابغة فى علم الحديث . (المعرب)

العذبة . وفى سنة ٩٤٠ شيد « عبد الرحمن الثالث » قناة عظيمة فاقت غيرها فى الصنع والإبداع ، تجرى فيها المياه العذبة من الجبل المجاور إلى المدينة على حنايا معقودة ينساب ماؤها إلى بحيرة عظيمة ، قد أقيم عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنع شديد الروعة يجوز الماء إلى مؤخره فيدفعه إلى البحيرة ، وبجانبه تمثال لإنسان هائل يصب الماء على الأسد ، ومن ثم يتحول الماء الزائد إلى النهر بعد أن تنال المدينة كفايتها . وكان عبد الرحمن الأول قد بنى حديقة الرصافة المشهورة التى أصبحت أنموذجا فى كافة ممالك أوروبا المتمدنة ، إذ كانت زاخرة بالزهور النادرة والأشجار الوارفة التى كانت تجلب إليها من سائر أنحاء العالم ، ومما زاد فى رونق تلك الحديقة الغناء القصر المنيف الذرى الذى كان يطل عليها ، غير أن الخليفة لم يكتف بتهيئة أسباب الراحة لنفسه فحسب ، بل شيد أيضاً الجوامع والحمامات ، وأقام الجسور والقلاع فى كل ولاية من مملكته . ويقال إنه شرع فى بناء المسجد الكبير بقرطبة الذى أصبح آية من آيات الفن والإتقان فى الأندلس ، وأتم بناءه ابنه من بعده ؛ وليس أدل على عظمة قرطبة وفخامتها فى تلك الأيام من قول أحد مؤلفى ذلك العصر : « بأن المسافر يستطيع أن يسير عشرة أميال فى طريقها على ضوء المصابيح » ، ويقول كاتب آخر : « إن المدينة امتدت ٢٤ ميلا طولا و ٦ أميال عرضاً ، وكانت كل هذه المساحة زاخرة بالقصور والجوامع والمنازل والحدائق على ضفاف الوادى الكبير ، وكانت ضواحيها مقسمة إلى ٢٧ حياً يسكنها أفراد الطبقة الغنية ورجال الدولة ، وكان لكل حى جوامعه وأسواقه وحماماته .

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير الذى بناه الداخل وأتمه «هشام الأول» وجمله « الناصر » ، فكان بناء فخماً محلى بالذهب والفضة ومزيناً بأرقى ذوق وأتم إتقان . وكانت قرطبة تحتوى على مكاتب عديدة ، ولم يأل الأغنياء برغم جهلهم جهداً فى جمع الكتب بغية أن يذاع ذكرهم ويشاع خبرهم . ومن القصور الفخمة



بهو السباع فى قصر الحمراء بغرناطة

الزهراء

فى قرطبة « الزهراء » ، بدأ بإنشائها الخليفة الناصر على أربعة أميال من العاصمة فكانت أعجوبة الزمان ، وهى مصنوعة كلها من المرمر الخالص — الأبيض والأخضر والوردى والمجزع — الذى حمل إلى قرطبة من سائر أنحاء العالم . وكان المجلس الشرقى المعروف (بالمؤنس) منصوباً فيه حوض منقوش بتماثيل الحيوانات المصنوعة من الذهب والمرصعة بالدر النفيس يجرى الماء من أفواهها[1]

---

(١) جاء فى نفح الطيب ٢٤٨ و ٢٦٧ ج١ وابن خلكان ٢٩ ج٢ ما يلى :
« وأحواض الرخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب ، فى جملتها حوض منقوش بتماثيل الإنسان جىء به من القسطنطينية ، ونصبه الناصر فى بيت المنام بالمجلس =

باستمرار . وكان إيوان الاستقبال قطعة نادرة من صناعة المرمر والذهب المرصع بالجواهر ؛ ويقول المؤرخون المعاصرون : « إن القلم ليعجز عن وصف دقة الإتقان وجمال التناسب وبهاء الزخرف ، سواء أكان فى المرمر المنقوش أم فى الذهب المصهور ، وتلك العواميد التى تبدو كأنها صبت فى القوالب فخرجت آية فى الإتقان والصقل ؛ ثم النقوش التى تضاهى ألوان التعاريش ، والبحيرات الواسعة والنافورات المزدانة بالصور البديعة » .

وألحق بالحدائق حظائر للوحوش الكاسرة فسيحة البناء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، وكان يعلو بابها الأوسط تمثال الملكة التى سميت المدينة باسمها ؛ وكان بقرب قصر الزهراء وحدائقه الناضرة عدة أبنية خصصت لحاشية الخليفة واختط بقربها مدينة الزهراء[١] .

ضاهت قرطبة فى عهد ملوكها الأمويين العظام بجوامعها الثلاثة الآلاف والثمانمائة ، وقصورها الستين ألفاً ، ومنازلها المائتى ألف ، وحوانيتها الثمانين ألفاً وفنادقها ، مدينة بغداد فى اتساعها وعظمتها ، وقد طار صيتها إلى أقاصى البلاد الألمانية فدعتها الراهبة السكسونية هورسويتا[٢] « بزينة العالم » ، وقد بلغ عدد سكان قرطبة فى أيام عظمتها مليون نسمة فى حين أنها لا تزيد فى الوقت الحاضر عن ٣٥ ألف .

= الشرقى المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه ١٢ تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى ، مما صنع بدار الصناعة فى قرطبة بصورة أسد بجانبه غزال إلى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفى المجنبتين حمامة ، وشاهين ، وطاووس ، ودجاجة ، وديك ، وحدأة ، ونسر ، وكلها من ذهب مرصع بالجوهر يجرى الماء من أفواهها . (المعرب)

(١) كان يتصرف فى عمارة الزهراء كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ١٥٠٠ دابة ، وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة . (المقرى)

(٢) يقول دوزى إنها كاتبة اشتهرت فى النصف الأخير من القرن العاشر بأشعارها ورواياتها باللغة اللاتينية .

غير أن قرطبة لم تكن مركز الثقافة والعلم والصناعة والتجارة فحسب بل كانت أيضاً الموطن الذى ازدهرت فيه الفروسية التى تعد من خصائص الخلق العربى ، غير أنها لم تحدد قواعدها وتعين أنظمتها وتلمع مبادئها إلا فى قرطبة فى عهد الناصر وابنه[1] ، ففى ذلك العهد أخذت تتطور مبادئ الفروسية من تلقاء نفسها مقترنة بالنخوة واحترام الجنس اللطيف . ويقول كاتب مبدع آخر إن الفروسية بأصولها التى انتشرت فى الأمم المسيحية فى الغرب كانت قد زهت بين المسلمين فى عهد الناصر والحكم والمنصور ، فكان الفرسان الأجانب يفدون مطمئنين إلى بلاد الأندلس لمبارزة الفرسان المسلمين ، كما بطلت العادة القديمة التى كان يتبعها الفرسان عند دخول حومة الوغى والمناداة بأسماء أخواتهم أو حبيباتهم وأخذ الفارس يدخل الحلبة لابساً على صدره أو خوذته شيئاً من ذكرى محبوبته وأخذت السيدة المسلمة تؤلف عنصراً بارزاً بين النظارة فى مشاهدة المبارزة التى كانت تقام فى العاصمة ، وكان حضورها فى تلك الاحتفالات العامة يكسب المنظر هيبة ووقاراً ؛ وأدى الاختلاط الشريف إلى رقة العاطفة وتصفية الأخلاق الأمر الذى لا يستطيع الهندى المسلم فى الوقت الحاضر أن يدرك مداه . وقد بلغ العرب إلى آخر عهدهم فى أسبانيا أرفع درجات النخوة[2] ورقة الشمائل ، وكانت الصفات العشر التى يجب أن يتحلى بها الفارس هى : التقوى والشجاعة ورقة الشمائل والبسالة ونظم الشعر والبلاغة والمهارة فى ركوب الخيل واستعمال السيف والرمح والنشاب .

الفروسية

---

(١) رينو .

(٢) لما حاصر المسلمون الملكة الفونس السابعة فى قلعة أزيكا سنة ١١٣٩ عنفت الملكة الفرسان المسلمين على ما أبدوه من الخشونة فى مهاجمتهم قلعة تحميها امرأة فتقبلوا توبيخها بصدور رحبة وطلبوا إليها أن تطلع عليهم من شرفة قصرها ، وعند ما ثبت لهم صحة ادعائها أدوا لها واجب التحية ورفعوا الحصار .

الفصل الثامن والعشرون

العرب فى أسبانيا

بنو أميـــة

٣٦٦ — ٤٢٨ هـ ، ٩٧٦ — ١٠٣٧ م

هشام الثانى — المهدى — سليمان — عبد الرحمن الرابع — محمد الثانى — هشام الثالث

تولية هشام الثانى — الحاجب المنصور — مؤامراته — قبضه على السلطة — انتصاره على قبائل النصارى — وفاته — خلافة ابنه المظفر — حكومته — وفاة المظفر — الحاجب عبدالرحمن — المهدى — تنازل هشام الثانى عن العرش — الفتك بالمهدى — ثورة قرطبة

ترك « الحكم » العرش لابنه الوحيد هشام الذى لم يكن قد جاوز الحادية عشرة بعد ، وكان قد تذرع بجميع الوسائل فى حياته لكى يضمن لابنه الخلافة ، وقبل أن تدركه المنية ببضعة أشهر عقد مؤتمراً حضره جميع الأشراف ورجال الدولة الذين حلفوا يمين الطاعة لهشام ، كما وقعوا على الوصية التى أسند فيها الخليفة ولاية العهد إلى ابنه المحبوب . ولما كان « الحكم » على فراش الموت عهد بالعناية به إلى الحاجب المصحفى و إلى وزيره محمد بن أبى عامر ، وبذلك اعتقد أن ابنه الطفل سينجح فى حكمه تحت وصاية أمه الملكة صبح — وكانت حازمة نافذة العزم — بمساعدة وتعضيد هذين الخادمين الوفيين ، فبويع هشام بمقتضى وصاية أبيه بالخلافة ولقب « بالمؤيد بالله » ؛ غير أن الخليفة المتوفى كان قد أساء التقدير ، ووثق كثيراً بمحمد بن أبى عامر الطموح النفس ، إذ لم ينقض طويل وقت حتى عزل الحاجب المصحفى والأشراف الذين كانوا يعترضون على توليته ، كما قتل

بعض الولاة والأعيان ؛ « ولما أفنى جميع من يصلح للرئاسة »[١] قبض على السلطة وحجب الخليفة الفتى فى قصره ، ومنع رجال الدولة من الاتصال به إلا فى الأعياد أو الحفلات الرسمية حيث كانوا يؤدون طاعتهم ويخرجون على الفور . وبعد أن استولى على الوزارة وتلقب «بالحاجب المنصور» أمر ببناء مدينته المعروفة بالزهراء ، « كما نقش اسمه على العملة ، وصدرت الأوامر والمراسيم بختمه ، وقرن اسمه باسم الخليفة فى خطبة الجمعة » ؛ وبعد أن تخلص من المنافسين والمرشحين للرئاسة وجه التفاته للجيش فأعاد تنظيمه ، وأقصى العنصر العربى وأحل محله جنود البربر المرتزقة الذين كان يستطيع الاعتماد عليهم ، « كما أقصى زعماء العرب عن مناصبهم[٢] » ، ويقول ابن خلدون : « إن المسلمين بقيادته غزوا اثنتين وخمسين غزوة لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش » .

وكان الجلالقة والبشكنس على أثر وفاة الحكم قد شقوا عصا الطاعة على العرب واستأنفوا حروبهم ، فبدأ المنصور (كما يجب أن نسميه الآن) حروبه بغزو ليون ونافارا وأخضعهما وجعلهما ولايتين تابعتين له ، ثم سار بجيشه إلى كتالونيا وخرب برشلونة وطرد منها الأمراء الفرنسيين ؛ وهكذا امتدت حدود الإمبراطورية للمرة الثانية إلى ما وراء جبال البرنيه ، كذلك نال نجاحاً كبيراً فى المغرب الأقصى ، فأخضع قواده قسما كبيراً من أفريقيا الغربية . وفى سنة ٩٩١م فكر فى مشروعه الجرىء بجعل منصب الحجابة وراثياً فى عائلته ، وكان يود لو يستطيع أن يزيح ابن حبيبته من العرش وينادى بنفسه ملكا حقيقياً (Dejure) على البلاد ، ولكنه كان يخشى الشعب الذى كان يحرص كل الحرص على شرعية وراثة العرش ؛ ولعل الأشراف كانوا يرون فى تغيير الأسرة المالكة فائدة لهم ، غير أن الشعب وبالأخص أهل أسبانيا الأصليين كانوا يرون

---

(١) ابن خلدون .

(٢) ابن خلدون .

غير ذلك ، « إذ كان حب العائلة المالكة قسما من كيانهم لا يقل عن عاطفتهم الدينية ، ومع أن البلاد قد ازدهرت فى عهد المنصور ازدهاراً لم يسبق له مثيل قط ، إلا أن الشعب مع ذلك كان يكرهه لأنه كان يخفى عنهم الخليفة و يستأثر بالحكم دونه » ، ولما كان عالماً بهذا الشعور وليس له أمل فى تغيير الأحوال إلا بمضى الزمن ، فقد اكتفى بإعلان ابنه عبد الملك خلفاً له فى الوزارة بتصديق الخليفة ولقبه فى سنة ٩٩٦ م «بالسيد» والملك الكريم .

وفاة الحاجب المنصور ١٠٠٢ م

توفى الحاجب المنصور سنة ١٠٠٢ م ودفن[1] بمدينة سالم ، ولم يسبق أن هاب مسيحيو الشمال أمراء الأندلس مثلما هابوا الحاجب المنصور ؛ وكان شهماً شجاعا قوى النفس ذا عقل وشجاعة ، فاستمال الجند وأحسن إليهم ونظم الجيش على أحسن نظام وترتيب ، « وبذلك أكسب أسبانيا قوة لم تعرفها من قبل حتى فى عهد عبد الرحمن الثالث[2] » ، ولم يكن ذلك كل أعماله التى قام بها نحو الشعب بل كان فوق ذلك يعطف على أحرار الفكر والفلاسفة ، ولم يتردد قط فى حمايتهم دون أن يجرح أوهام المتعصبين ، فازدهرت فى حكمه الزراعة والصناعة ، وزهت العلوم والآداب وفاضت خزائن قرطبة بالأموال ، وكانت أيامه أيام فخار وظفر وسعادة ورخاء ، و بالرغم من أنه استخدم فى نيل سلطته أساليب غير شريفة فمن الواجب أن نعترف بأنه استخدمها فى سبيل الخير العام .

الحاجب عبدالملك المظفر

ولما توفى المنصور خلفه ابنه عبد الملك فى منصب الحجابة وتلقب «بالمظفر» وجرى على سنن أبيه فى سياسة الدولة ، ونال عدة انتصارات على القبائل المسيحية ، وكانت ولايته عهد سلام ورغد أو « أعيادا ومواسم » كما يصفها مؤرخو العرب

---

(١) وكتب على قبره هذان البيتان :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تا الله لا يأتى الزمان بمثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه

(المعرب)

(٢) دوزى .

ومع ذلك كان بنو عامر غير محبو بين من الشعب ؛ ولو أنهم اكتفوا بحكم البلاد باسم الخليفة لظلوا فى الوزارة مدة طويلة من الزمن ، غير أن طموحهم الوثاب لم يعرف حدوداً يقف عندها ، فلم يرموا إلى الاستيلاء على السلطة الحقيقية تحت ظل العرش فحسب ، ولكنهم طمحوا أيضاً إلى الاستيلاء على العرش نفسه ، فاكتسبوا بذلك عداوة أمراء البيت المالك وجميع الأمويين ، وأقصوا الفقهاء وباعدوا الشعب ، وفى نفس الوقت أدى التغيير الذى طرأ على شبه الجزيرة منذ تولية الناصر إلى تحبيذ نشوب الثورة الداخلية ، وذلك أن المجتمع العربى « بفضائله وأخطائه » أخذ فى الاختفاء ؛ وتم توحيد الشعب الذى كان غاية الناصر والحاجب الأكبر ، غير أن هذا التوحيد تم على حساب العناصر الأرستقراطية القديمة التى لحق بها الخراب والاضمحلال ، فأخذت تتوارى بسرعة ، وامحت من ذاكرة الناس بالتدريج الأسماء التاريخية المشهورة . ومع أن كبار الدولة الذين كانوا مرتبطين بالبيت الأموى بالولاء قاوموا تلك الهزة العنيفة ، وحافظوا على ثروتهم ونفوذهم ، إلا أن قواد البربر والصقالبة الذين أثروا فى عهد الحاجب المنصور كانوا أقوى الناس شكيمة على الإطلاق . وقد خلق التطور المادى طبقة اجتماعية جديدة وهى الطبقة الوسطى المثرية والتجار والطبقة العاملة ، كل هؤلاء شرعوا يلعبون دورا خطيرا فى اقتصاديات البلاد ، غير أن هذه الثروة خلقت صعوبات جديدة بدأت بالكفاح بين الطبقات ، ويستطيع المرء أن يتصور فى مرآة تاريخ تلك العصور كل المتاعب التى تصادف سياسيى العصر الحاضر ، وهى النفور المتبادل بين رجال الجيش والمدنية ، والبغضاء التى يحملها المستخدمون إلى أصحاب الأعمال ، وحسد العامة للطبقة العليا ، ففى عاصمة الأندلس كانت الأحوال الاجتماعية قد بلغت حدا يخشى منه إذا حصلت أقل فتنة صغيرة أن تؤدى إلى كفاح مخيف بين الأغنياء والفقراء ، « إذ كانت قرطبة وقتئذ عبارة عن مصنع هائل يزخر بألوف العمال المتهيئين عند أقل سانحة

أن يهبوا جميعاً لإعلان الثورة التى تجلب لهم الغنائم والكنوز ، غير أن الطبقات الغنية أدركت الخطر المحدق بهم لو تمادوا فى بغض بنى عامر »[١] .

وفاة المظفر

وبوفاة المظفر فى زهرة شبابه[٢] حلت الكارثة التى كان يخشاها البعض ويتمنى وقوعها البعض الآخر ، وهكذا سقط بنو عامر من شاهق عزهم ، ولكن سقوطهم كان كسقوط شمشون الجبار الذى قوض بسقوطه دعائم الإمبراطورية فخلفه أخوه عبد الرحمن المسمى سانكول[٣] ، وكان يكرهه الشعب لفسقه ومجونه ، ولكنه كان برغم ذلك طاغية يستأثر بالسلطة ، فاستقر رأيه على المناداة بنفسه خليفة ، فأجبر هشام الثانى أن يوليه عهده ، وكان لاغتصابه ولاية العهد على هذا النحو أثر عظيم فى قرطبة . فلم يكد سانكول يغادر العاصمة لقمع إحدى الفتن فى الشمال ، حتى وثب أمير من بنى أمية يدعى هشام على قرطبة ، ثم نفذ الثوار إلى قصر بنى عامر (الزهراء) ونهبوه ثم أشعلوا فيه النار ، وتنازل هشام إلى محمد بالخلافة ، ولقب « بالمهدى » ، ثم عزل سانكول من ولاية العهد والوزارة ، وسرى الحماس من العاصمة إلى الولايات ، وأخذ الناس يتطوعون فى جيش المهدى ، كما حصل فى الثورة الفرنسية ، وانضم تحت لوائه أفراد الطبقة الوسطى أو رجال الشعب من أطباء وقصابين وسروجية ، وانفض الناس من حول سانكول الذى أسر وقتل ؛ غير أن الخليفة الجديد لم يبق فى الحكم طويلا إذ لم يلبث أن جلب سخط جميع الأحزاب بسوء تصرفه ، فتخلى عنه البربر وولى مكانه خليفة آخر كان هو أيضاً من الأسرة الأموية واسمه سليمان ،

(١) دوزى .

(٢) ذكر ابن الأثير (ج ٨ ص ٢٢٥) عن سبب وفاته أن أخاه عبد الرحمن سمه فى تفاحة قطعها بسكين كان قد سم أحد جانبيها فتناول أخوه مما يلى الجانب المسموم وأخذ هو ما يلى الجانب الصحيح فأكله بحضرته فاطمأن المظفر وأكل ما بيده منها فمات .

(المعرب)

(٣) ويسميه العرب سانجول ، ويقول دوزى إنه كان يسمى سانكو الصغير أو سانكول لأن أمه كانت ابنة سانكو ملك نافارا أو كونت قشتالة .

وأصبحت قرطبة الآن مسرحا للاضطرابات المروعة ، واستعمل فيها الطرفان أروع ضروب السفك . ولما هزم المهدى أخرج هشاما الثانى ووضعه على كرسى الخلافة ، واستنصر سليمان عندئذ مسيحيى قسطيلة وليون ، بينما استنجد المهدى بالكتالونيين ، وهكذا فى خلال بضعة أشهر منذ وفاة المظفر أخذ المسلمون يستنجدون بالجلالقة والقبائل الأخرى بعد أن كانوا يملون إرادتهم عليهم ، وقد اشترط هؤلاء فى مساعدتهم أن يردوا لهم كافة البلاد التى كان الناصر والحاجب الأكبر قد استوليا عليها ، فاسترد المسيحيون على هذا النحو زهاء مائتى مدينة وقلعة ، ووقعت قرطبة فريسة بين رجال سليمان والمهدى اللذين أخذا يستوليان عليها بالمناوبة ويعملان فيها معاول النهب والتخريب ؛ وفى تلك الأثناء أصيبت مدينة الزهراء التى شيدها عبد الرحمن الثالث بأخطار فادحة ؛ وأخيرا قتل المهدى ، فألقى سليمان القبض على « هشام » المسكين ؛ ولم يعرف ما حل به الدهر ، إذ يقال فى رواية إنه قتل ، بينما يقال فىرواية أخرىإنه غادر إلى مكة ، أما المغتصب الذى لقب « بالمستعين بالله » فلم يتمتع بثمرة انتصاره طويلا ، إذ نجم عن ثورة أخرى انهيار سيادته وقتله . وعندئذ لم يلبث أحد أفراد الأسرة الإدريسية أن استولى على الحكم ، ولكنه قتل بعد مدة وجيزة ، وخلفه أخوه القاسم ، وكانت إدارته مشربة بروح العدل والإنصاف ، ولكن البربر تخلوا عنه بعد مدة غير طويلة ، ودارت بينه وبين ابن أخيه معارك رائعة أسفرت عن إقصائه من قرطبة ، وعندئذ نصب القرطبيون أحد أمراء البيت الأموى فى كرسى الخلافة ، غير أنه مع ذلك لم يبق طويلا فى الحكم ، فأعقبه أمويان آخران ختمت بهم الأسرة الأموية ، وعلى هذا أذعنت قرطبة إلى يحيى بن على ابن حمود ردحا من الزمن ، وبعد اغتياله سنة ١٠٣٥ قامت جمهورية فى المدينة حتى قوض أركانها ملك أشبيلية بعد أربعين سنة .

الفصل التاسع والعشرون

العرب فى أسبانيا (تتمة)

٤٢٨ — ٨٧١ هـ ، ١٠٣٧ — ١٤٦٦ م

ملوك الطوائف — انقساماتهم ومنازعاتهم — توسع سلطان النصارى
الملثمون أو المرابطون — يوسف بن تشفين — موقعة زلاقة — وفاة
يوسف بن تشفين — ولاية ابنه على — وفاته — تدهور سلطان
دولة الملثمين — الموحدون — عبد المؤمن — أبو يعقوب يوسف —
أبو يوسف يعقوب (المنصور) — موقعة الأرك — وفاة يعقوب —
ولاية محمد الناصر — موقعة العقاب — انهيار دولة الموحدين —
ظهور بنى الأحمر — مملكة غرناطة

أدى توتر الأحوال السياسية فى العاصمة إلى أن ينتهز الحكام والأمراء هذه السانحة ويعلنوا استقلالهم ، فوقعت ملقا والجزيرة الخضراء والمناطق المجاورة فى أيدى بنى حمود الذين لقبوا أنفسهم بأمير المؤمنين ، وطفقوا يحكمون هذه البلاد حتى اغتصبها منهم ملك غرناطة سنة ١٠٥٧ م ، ثم آلت فيما بعد إلى زعيم البربر « الزاوى » ، وظل الحكم وراثياً فى أسرته حتى عام ١٠٩٠ م ، كما استولى على على أشبيلية والمناطق الغربية بنو عباد ، ويعتبر مؤسس هذه الأسرة قاضى قضاة أشبيلية أبو القاسم محمد الملقب « بابن عباد » ، وكان آخرها المعتمد الذى أقصاه يوسف بن تشفين إلى أفريقيا ؛ وكانت طليطلة فى قبضة بنى ذنون الذين ازدهرت المدينة فى عهدهم ، وكان آخر تلك الأسرة « القادر » الذى سلم المدينة إلى ألفونسو السادس سنة ١٠٨٥ م . وكان بنو هود الذين ينتسبون إلى أحد قواد عبد الرحمن الثالث قد استقلوا بسرقسطة حتى سنة ١١١٨ م عندما استولى عليها المسيحيون بقيادة رامير ؛ كذلك استقل عـدة أمراء آخرون ببطليوس و بلنسية ومرسية

بنو هود
١٠٨٥ م

مجاهد العامرى

والمرية ؛ واستقل مجاهد بن عبد الله العامرى[1] الملقب بأبى الجيوش بدانية وجزائر البليار ، وكان العامرى جنديا شجاعاً وبحاراً خبيراً ، كما كان لديه أسطول كبير على أتم استعداد لغزو سواحل فرنسا وإيطاليا ، وطالما هو كان على قيد الحياة لم تتجرأ السفن المسيحية على الإبحار فى بحر الشام ، وكان هؤلاء الولاة يسمون « ملوك الطوائف » ، وكانوا جميعهم يشجعون العلم ويكرمون العلماء ، ويتنافسون فى تشجيع الأدب والفنون ، ويقول مؤرخ عربى : « لما انفرط عقد تلك الدولة وتقسمت إلى ملوك صغار لم يخسر العلم والأدب بانقراض بنى أمية ، إنما كسب بهذا الانقسام ربحا كبيراً » .

انقسام ملوك الطوائف

لو أن هؤلاء الملوك وحدوا صفوفهم ، أو لو كانت لديهم غاية واحدة لاستطاعوا تكوين جبهة قوية لصد غارات مسيحيى أسبانيا التى أخذت تشتد وطأتها فى ذلك الحين ، غير أن انقسامهم وحسدهم مهد الطريق لانقراضهم . وقد بلغ بالبعض ضعف النفس وخور العزيمة أن اتحد مع المسيحيين ضد منافسيه المسلمين .

فرديناند الأول

وفى سنة ١٠٥٥ انقض ملك قشتالة وليون فرديناند الأول على المسلمين المتنازعين بجميع قواته ، وأقصاهم عن كثير من المواضع المهمة . وقد أنقذ المعتضد ملك أشبيلية ولايته بدفع جزية إلى أمير ليون ، وتوفى سنة ١٠٦٩ م تاركا الملك لابنه المعتمد الذى استولى فى سنة ١٠٧٥ على قرطبة ، ولم يلبث أن أخضع طليطلة والمنطقة الواقعة من وادى الحجارة إلى وادى أنة . ولما توفى فرديناند الأول سنة ١٠٦٥ خلفه ابنه الفونسو السادس فى عرش قشتالة ، وكان طموح النفس لا يهاب شيئاً فأقصى إخوانه عن مملكته ، وأعلن نفسه الحاكم الأعلى لليون وقشتالة وجليقية ونافارا ولقب بالإمبراطور ، ولم يرض بالجزية التى كان يدفعها له مواليه العرب عن يد وهم صاغرون ، بل وطد العزم على إخضاع شبه الجزيرة برمتها وجعلها تحت سيادته المباشرة ، وكان جل اعتماده على جيشه العظيم الذى كان

---

(١) كان العامرى مولى الحاجب المنصور .

ينضوى تحت لوائه محاربون أشداء من سائر أنحاء أوربا ، فأعلن استعداده إلى منازلة الأعداء « بشياطين وملائكة السماء » . وفى سنة ١٠٨٥ م سلم إليه القادر آخر ملوك ذى النون مدينة « طليطلة » المشهورة ، فغدا كبرياؤه بذلك التسليم لا يعرف حداً . واستشعرت غرناطة و بطليوس وأشبيلية ، والمدن القليلة الأخرى التى كانت فى أيدى المسلمين المصير الذى خبأته لها الأقدار ، وأخذت تتلفت ذات اليمين وذات اليسار تطلب العون على هذا الخطر الداهم ، ومع ذلك كانت الخلافات الداخلية والمنازعات المحلية تجعل من المستحيل توحيد الصفوف ضد العدو المشترك ، فحولوا أنظارهم إلى الخارج .

إقامة دولة الملثمين

و بينما كانت الإمبراطورية الإسلامية فى أسبانيا تتردى فى هاوية الانحلال والتفكك ، قامت دولة جديدة فى أفريقيا الغربية باسم المرابطين ؛ وقصة نشأتها أن عدة قبائل من الصحراء الكبرى والملقبين بالملثمين كانوا قد اعتنقوا الإسلام حديثاً ، فحرضهم الزعماء الدينيون الملقبون بالمرابطين على الجهاد فى سبيل الله ، فانتصروا لهم وأسسوا مملكتهم الجديدة التى امتدت رقعتها من سنغامبيا إلى الجزائر ، وسمى ملوكهم بالمرابطين أو الملثمين .

يوسف بن تشفين أمير المسلمين

ولما استولى على تلك البلاد يوسف بن تشفين الذى أنعم عليه الخليفة بلقب أمير المسلمين ، وجه إليه ملوك الأندلس أبصارهم واستنجدوا به فأجابهم إلى طلبهم ، وعبر البحر إلى أسبانيا فى تشرين الأول سنة ١٠٨٦ م ، فانضوى تحت لوائه بالقرب من أشبيلية قوات المعتمد وجنود زعماء الأندلس الآخرين ، وزحفوا على بطليوس ، وأتى الفونسو[١] فنزل موضعاً يقال له الزلاقة على بعد أربعة فراسخ من جنوب بطليوس ، وكان جيش العرب لا يزيد على العشرين ألف مقاتل ، بينما كان عدد جيش الفرنج بقيادة الفونسو زهاء الستين ألفاً ، فدارت معركة دموية هائلة بينهم يوم الجمعة ٢٣ تشرين الأول ، وأثخن المسلمون فيهم ووضعوا السيف

---

(١) يسميه العرب الأدفونش (المعرب)

فى رقابهم ، فلم يفلت منهم أحد غير ألفونسو فى ثلثمائة فارس ، ومنذ تلك الموقعة جنحت مملكة ليون المسيحية إلى السلم ردحاً من الزمن . ولم يلبث يوسف بن تشفين أن رجع إلى أفريقية ، ولكنه عاد فى السنة التالية إلى الأندلس وأقصى ملوكها واستولى على إماراتهم وضمها إلى مملكة المرابطين ؛ وبذلك أصبحت أندلوسيا إلى حدود نهر تاجة فى قبضة سلطان صاحب المغرب . وقد أخذ الفقهاء الذين أعانوا المرابطين على الاستيلاء على الملك يتمتعون وقتئذ بنفوذ واسع ؛ ويقول دوزى : « إن المرء ليجد نفسه فى تلك الأثناء أمام سلطة دينية قوية على رأسها فقهاء المسلمين فى عهد حكم الملثمين ؛ وقد أدى بهم ضيق أفق التفكير إلى تحريم كتاب الغزالى المسمى بإحياء العلوم » .

وبينما كان يوسف على قيد الحياة كان المسيحيون يخشون سطوته ، ولكنه توفى سنة ١١٠٦ م وخلفه ابنه على الملقب بأبى الحسن ، وقد اقتفى آثار أبيه وإن كان قد عجز عن اللحاق به فى عدة أمور ، ولكنه مع ذلك هزم القبائل المسيحية فى عدة مواقع ، واستولى منهم على تلافيرا ومدريد ووادى الحجارة وعدة حصون ومدن مهمة أخرى ، بينما استولى قائده « سير بن أبى بكر » على مدن شنتريم وبطليوس والبرتغال ولشبونة ، غير أن المسلمين فقدوا فى الوقت نفسه سرقسطة وقلعة أيوب وبعض المدن المهمة الأخرى فيما وراء نهر تاجه ، تلك المدن التى استولى عليها جيوش المسيحيين المؤلفة من الأراغونيين والكتالونيين والفرنج فيما وراء جبال البرنيه ؛ وبينما كان المرابطون منهمكين على هذا النحو فى بلاد الأندلس تطورت الأحوال فى أفريقية وأصيب ملكهم بكارثة عظيمة .

الموحدون سنة ١١٢٠ م

وفى سنة ٥١٤ هـ ظهر رجل يدعى محمد الملقب بابن تومرت من أهالى السوس من بلاد الغرب بين سكان البربر القاطنين سلسلة الجبال الممتدة فى المغرب الأقصى ، وينتسب محمد المذكور إلى أسرة عربية ، وكان قد رحل فى شبابه إلى بلاد الشرق فى طلب العلم ، فقرأ الفلسفة والشرع على عدة علماء كالغزالى

محمد بن تومرت المهدى

وأبى بكر الطرطوشى وغيرهم ، وعند عودته إلى بلده سخط على انحلال الأخلاق المتفشية فى جميع الطبقات و إغراق العامة فى تقديس الأضرحة ، ومن هذا بدأ يعظ أهل جبال الأطلس المتوحشين و يحضهم على التمسك بأهداب الفضيلة كما أعلن بأنه هو المهدى المنتظر ، والتف حوله عدد عظيم من الأتباع ؛ وانتخب ابن تومرت نائباً عنه شاباً اسمه « عبد المؤمن » ابن أحد التجار الأغنياء ، وسمى أتباعه وتلاميذه بالموحدين ، وأخذت تقوى شوكتهم تدريجياً فلم ينقض طويل وقت حتى أسسوا مملكة فسيحة الأرجاء على حساب دولة المرابطين ، وطالما كان علىّ ابن تشفين على قيد الحياة ، كان سلطانهم مقتصراً على مراكزهم الأصلية ، ولكنه لما توفى سنة ١١٤٣ م وخلفه ابنه لم يستطع الحاكم الجديد صد الموحدين الذين فتكوا به سنة ١١٤٥ م ، وما هى إلا برهة حتى انتقلت مراكش إلى عبد المؤمن ؛ وقد انتهز مسيحيو أسبانيا فرصة الكفاح بين المرابطين والموحدين وانقضوا على الولايات الإسلامية فى أسبانيا يثخنون فى أهلها و ينكلون بالمسلمين شر تنكيل ، ونادى الفونسو السابع بنفسه إمبراطوراً ، وأعمل السيف والنار فى قرطبة وأشبيلية وكرمونه ، ونهب وأحرق مدينة شريش واكتسح البلاد حتى وادى عاش ، ولم تكد تنقضى بعد ذلك خمس سنوات حتى أعمل أيدى التخريب فى مناطق جيان و باجه وأبده وأندوجار ، فاستنجد مسلمو الأندلس ثانية بإخوانهم فى أفريقية . وفى سنة ٥٤١ هـ أرسل عبد المؤمن جيشاً وأسطولا لمساعدتهم (١) ، فهزموا المسيحين وأخضعوا الملوك المرابطين الذين كانوا قد استقلوا بعدة ولايات ؛ وكادوا أن يخضعوا بلاد الأندلس برمتها إلى سلطانه ، و بعد أربع سنوات قسم الإمبراطورية إلى ولايات ، وعين أولاده حكاماً عليها (٢) . وفى سنة ٥٥٤ هـ استولى من الفرنج على المهدية وتلقب بلقب أمير المؤمنين ، و باستيلائه على هذه

(١) ابن الأثير .

(٢) مثال ذلك أن أبا محمد عبد الله الذى خلفه كان متولياً مقاليد الملك فى بجاية وملحقاتها وأبا الحسن على فى فاس ، وأبا سعيد فى سبتة والجزيرة الخضراء .

المدينة المهمة أصبح سيد أفريقية الشمالية دون منازع من صحارى برقة إلى المحيط الأتلنطيق غرباً .

وفاة عبد المؤمن

وفى عام ١١٦٣ م توفى عبد المؤمن بعد أن بقى فى الحكم ٣٣ سنة ، وكان أبيض البشرة أزرق العينين حكيما عادلا شجاعاً نشيطاً محباً للعلم ، فازدهرت العلوم فى عهده فى سائر أنحاء الإمبراطورية و بخاصة فى أسبانيا ، وقد أسس عدة كليات عامة ومدارس فى مراكش . و بعد وفاته اعتلى ابنه « محمد » عرش الخلافة ، ولكن الأمراء ورجال الدولة عزلوه لضعفه وكسله ، وبايعوا أخاه أبا يعقوب يوسف ، وكان شهماً كريماً فاستبشر الشعب بولايته خيراً وأملوا على يديه نجاحاً وسعادة ، وزار أسبانيا عدة مرات واحتل عدة مدن من بينها ترا كونة وشنترين ؛ وتوفى فى سنة ١١٨٤ م نخلفه ابنه يعقوب المشهور الذى بلغت إمبراطورية الموحدين فى عهده ذروة مجدها وفخامتها ، و يوصف بأنه كان حاكما عاقلا مدبراً مثقفاً ، وقد دارت بينه و بين الفونسو التاسع ملك قشتالة معارك شديدة انتهت بعقد صلح بينهما لمدة خمس سنوات ، ولكن ما كادت تنتهى هذه المدة حتى غزا الجيش القشتالى — الذى تضخم بانضواء مسيحيى ما وراء جبال البرنيه تحت لوائه — بلاد الأندلس « وأعملوا النهب والقتل وارتكبوا أروع ضروب السفك والتخريب » ، فلما علم يعقوب بالخبر عبر البحر ، وكان المسيحيون من جهتهم قد جمعوا جيشاً لجباً « من جميع أنحاء العالم المسيحى » لمقاتلة ملك الموحدين بموضع يعرف (بالأرك) على مقربة من بطليوس ، فهاجمهم يعقوب وألحق بهم خسائر فادحة ؛ و يقال إن عدد قتلى المسيحيين بلغ زهاء ١٤٦٫٠٠٠ علاوة على الأسرى الذين بلغ عددهم ثلاثين ألفاً ، ففرت فلول الجيوش المسيحية إلى كالاترافا حيث اعتصموا بها ، غير أن المسلمين استولوا عليها وأمعنوا فى تخريبها ، ففر الفونسو إلى طليطلة حيث التف حوله جيش آخر سار به لمقاومة ملك الموحدين ، ولكنه منى فى هذه المرة أيضاً بهزيمة شديدة ، واستولى المسلمون ثانية على كالاترافا

ووادى الحجارة ومدريد وسلمنقة وعدة مدن وحصون أخرى فى أسبانيا والبرتغال كانت قد سقطت فى أيدى المسيحيين من قبل . وفى تشرين الثانى سنة ١١٩٦ حاصر يعقوب مدينة طليطلة حصاراً شديداً حتى ضاق أهلها ذرعاً بتحمل مصاعب الحصار ، « فخرجت أم الفونسو مع زوجاته و بناته وتوسلوا بيعقوب وهن يذرفن الدموع أن يبقى على المدينة ، فنالت توسلاتهن من قلبه ومست موضع الرحمة والإشفاق من نفسه ، فلم يجبهن إلى طلبهن فحسب ، بل أغدق عليهن العطايا والهدايا النفيسة أيضاً » . و بعد أن أنقذ مدريد التى كان يحاصرها أهل أراغونه الذين ولوا الأدبار حالما اقترب منهم ، عاد إلى أشبيلية حيث قضى سنة يتفاوض مع سفراء الأمراء المسيحيين « الذين وفدوا عليه يطلبون الصلح »[1] فأجابهم إلى ما يريدون ، وقام بعدة إصلاحات فى إدارة حكومة الأندلس . وفى نهاية سنة ١١٩٧ عاد إلى أفريقية حيث ظل باقيا فيها إلى أن وافته منيته سنة ١١٩٩م وكان يعقوب معاصراً لصلاح الدين الذى كان قد أوفد إليه سفيره ابن أخى الأمير أسامة يستنجده على الصليبيين ، وقال فيه أحد المؤرخين « إنه كان مكرماً للعلماء ويقربهم وهم أهل خدمته وخاصته ، وكان ديناً قيما للحدود فى الخاص والعام » ورتب ثغور الأندلس وشحنها بالرجال ، ورتب الحاميات فى سائر البلاد ، كما أصلح أحوال الدولة وشؤونها ، وأسس عدة مستشفيات (و بمارستانات) فى كل مدينة لمعالجة المرضى مجاناً ؛ وقد نبغ فى عهده الطبيب المشهور ابن زهر وابن باجة ، والفيلسوف العالم « ابن رشد » الذى كان متوليا منصب القضاء فى قرطبة . وكان « يعقوب » كالرشيد والمأمون وكخلفاء أسبانيا الأمويين يهتم اهتماما عظيما بالرى وتوفير أسباب الراحة والأمن للتجار والمسافرين ، كما جمل المدن بالأبنية الفخمة ، وهو الذى بنى المرصد المشهور فى أشبيلية ، وعرف بعد موقعة الأرك باسم « كيرالدة » .

---

(١) ابن خلدون .

محمد الناصر لدين الله

ولما توفى يعقوب المنصور خلفه ابنه محمد الذى لقب بعبد الرحمن الناصر لدين الله ، وكان يختلف عن أبيه فى المقدرة والأخلاق ، إذ كان محباً للهو عاطلا من كل مقدرة ، وفى الواقع كان المسبب الحقيقى لخراب دولة الموحدين وضياع دولة العرب فى أسبانيا ، فكانت وفاة يعقوب المنصور إيذانا للأمراء المسيحيين باستئناف الهجوم على بلاد الأندلس ؛ وما لبث ألفونسو التاسع ملك قشتالة (ابن أتفونش) أن غمر الأراضى الواقعة حول أشبيلية وقرطبة بجنوده وأعمل فيها النار والسيف ولأجل أن يثأر الناصر لرعيته عبر البحر من سبتة بجيش لجب ، ولم يطل عليه الزمن فى أشبيلية حتى أعدم يوسف بن قادس حاكم قلعة الرباح عقابا له على تسليمها إلى ألفونسو ، ولم يثر تنفيذ الإعدام فى هذا الحاكم الذى كان يحترمه جميع مسلمى الأندلس سخط الأهالى فحسب ، بل أدى إلى انتشار الخلل فى صفوف جنودهم فى ساحة الوغى ، وقد أثارت أخبار الناصر واستعداده غضب الشعوب المسيحية . والآن بعد أن أقصى صلاح الدين جموع الصليبيين من آسيا ، وجه هؤلاء المغامرون وجوههم شطر أسبانيا ، فأعلن الأناسونت الثالث حربا صليبية أخرى على المسلمين فى الأندلس ، وأخذ رودركيو أسقف طليطلة الذى سافر إلى روما مستنجداً بالبابا يدعو يوميا إلى حرب مقدسة على المسلمين . فما هى إلا برهة حتى التحق بملوك قشتالة ، وأراغون ، والبرتغال ، وليون ، ونافارا جموع الصليبيين الذين زحفوا من فرنسا ، وإيطاليا ، وألمانيا على الموحدين ، وتقابل الجيشان فى الموضع المعروف بالعقاب ، ويسميه الأسبانيون « لانافاس دى طولوسو » ، وفى أول معركة انهزم الأندلسيون وسلم البعض الآخر إلى العدو ؛ أما الجنود الإفريقية فقد حاربوا بشجاعة وبطولة عظيمتين ، ولكن العدو تغلب عليهم بكثرته وأفناهم عن آخرهم ، ولم يترك الناصر الميدان إلا بعد إلحاح شديد ، فغادره إلى مراكش حيث توفى سنة ١٢١٤ م من الحزن والكمد ؛ فتولى بعده ابنه يوسف ولقب بالمستنصر بالله ، ولم يكن قد ناهز بعد السادسة عشرة من عمره ،

موقعة العقاب سنة ١٢١٢ م

يوسف المستنصر بالله

وبطبيعة الحال استولى على زمام الحكم شيوخ دولة الموحدين ، وتوفى الخليفة الجديد سنة ١٢٢٣ فاعتلى بعده العرش سيدى أبو محمود عبد الواحد ، وفى عهده استقل الأمراء الموحدون والولاة فى أسبانيا ، وعلى أثر مقتله فى السنة التالية انتخب الموحدون ابن المنصور المسمى بأبى محمد ولقب بالعادل . وفى سنة ١٢٢٧ م خرج عليه الثائرون وقتلوه فانتخب بعده أخوه إدريس حاكم أشبيلية ، وأعلن نفسه خليفة ولقب بالمأمون ؛ ومع ذلك فقد فلتت من سلطته مرسية ، والقسم الأعظم من الأندلس الشرقية برئاسة ابن هود . وفى سنة ١٢٢٨ عاد المأمون إلى أفريقية مع عدد من الجنود المسيحيين الذين جهزه بهم ملك قشتالة ، وكان سفره إيذانا بنشوب ثورة فى أشبيلية انتهت بخلع سلطة الموحدين والاعتراف بسلطان ابن هود الذى أصبح سيد القسم الأعظم من الأندلس ، وفتك الثوار بالأمراء الموحدين ، فقتلوا البعض وأقصوا البعض الآخر من البلاد ؛ غير أن ابن هود لم يكن العربى الأسبانى الوحيد الذى أعلن نفسه ملكا على أنقاض دولة الموحدين ، إذ أن الزيان (أبا جميل) نادى بنفسه ملكا على بلنسية ، بينما استولى محمد ابن يوسف المعروف بالأحمر على مدينة أرغونة وقلاعها ، ولم يبلغ أحد من هؤلاء الولاة الطموحين إلى العرش ما بلغه ابن الأحمر من النجاح ؛ فأسس مملكة أصبحت فى خلال المائتين والخمسين سنة التالية مركزاً عظيما لمدنية العرب . ويصف لنا ابن خلدون الذى كان يعيش فى غرناطة فى بلاط أحد أخلاف ابن الأحمر سرعة نهوض هذا الحاكم المغامر ، فيقول إن أسلافه كانوا يعيشون فى أسبانيا باسم بنى نصر ، وكانوا فى عهد الخلفاء الأمويين يتقلدون مناصب خطيرة فى الجند ، وكان محمد المعروف بالشيخ فى ذلك العهد رئيس الأسرة ، واكتسب بمتانة أخلاقه ومقدرته نفوذاً عظيما على بنى جلدته ؛ فلما طفق سلطان الموحدين ينهار وضعفت شوكتهم وسلم الزعماء حصونهم إلى العدو لقب ابن الأحمر نفسه بالسلطان[1] .

أبو محمد العادل

محمد بن الأحمر

(١) يقول ابن خلدون إن رؤساء الإقطاعيات كانوا يسمون بأصحاب المعقل .

« وأصبحت بلاد الأندلس برمتها فى تلك الأثناء فريسة للحروب الداخلية » .

واتهز أهل قسطيلة فرصة انقسام الزعماء المسلمين ، وحرضوا الواحد على الآخر ، ثم قتلوا الباقين . ولكن ابن الأحمر تحالف فى مستهل حكمه مع ملك قسطيلة ليضمن مساعدته على ابن هود الذى سلم للمسيحيين من جهته ثلاثين قلعة ليساعدوه على ابن الأحمر ، وهكذا بدأ ذلك النزاع على هذا النحو المشين . وفى سنة ١٢٣٦ م استولى القشتاليون على قرطبة ، و بعد ذلك بسنتين سقطت بلنسية فى أيديهم ، وفى سنة ١٢٣٩ احتلوا عسيرة ، وفى سنة ١٢٤٦ استولوا على مرسية وأخيرا أخرجوا الزيان ونفوه إلى تونس ، وفى سنة ١٢٤٨ م حاصروا مدينة أشبيلية حصاراً شديداً دام خمسة عشر شهراً حتى أذعنت المدينة إلى التسليم .

القشتاليون يستولون على قرطبة

و بينما كان القشتاليون يفتكون بمنافسيهم استولى ابن الأحمر على جريش وجيان وغرناطة ومالقة والمرية ، و بمهارته وحسن تدبيره وحد سلطته فى تلك المملكة الصغيرة التى استطاعت أن تقاوم الأعاصير حولها زهاء ٢٠٠ سنة ، وأن تصمد للقوات المسيحية الأسبانية والبرتغالية التى كانت تأتيها النجدات الصليبية من حين لآخر من وراء البرنيه ، ولكن هذا النزاع كان منذ البدء غير متكافئ ، وأصبح انهيار دولة بنى الأحمر موكولاً للزمن ، كما أنها برغم ذلك كافحت كفاحا مستميتاً حتى النهاية .

الغالب بالله

لما استولى ابن الأحمر على غرناطة جعلها قاعدة ملكه ، ولقب « بالغالب بالله » ، وشيد لنفسه هنالك القلعة المشهورة المسماة قصر الحمراء الذى عمل أخلافه على توسيعها وتجميلها .

وكانت سياسة ابن الأحمر مبنية على الاتصال الوثيق بملوك بنى مرين فى المغرب الأقصى ، وتوطيداً لتلك الصداقة جعل اسمهم مقرونا باسمه فى خطبة الجمعة فى كافة أنحاء بلاده . وفى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) نشبت حرب بينه و بين حليفه السابق ملك قشتالة المسيحى الذى غزا مملكة غرناطة ، ولكنه هزم

هزيمة شديدة ، وأقصى إلى خارج الحدود ، وتوفى ابن الأحمر فى سنة ١٢٧٢ ؛ فخلفه ابنه أبو عبد الله محمد ، وكان عالما فقيهاً محباً للعلوم ؛ فلم يلبث حاكم قشتالة أن غزا تلك المملكة ثانية فى سنة ١٢٧٤ بقيادة قائد يسميه العرب دون نونو ، غير أن محمداً بمساعدة ملك بنى مرين هزمهم فى معركة قتل فيها قائد الجيش القشتالى نفسه . وبعد إحدى عشرة سنة نشبت حرب أخرى بين ملك قشتالة والمسلمين وقد دامت هذه المرة حتى نهاية تلك المائة سنة ، ولكن محموداً انتصر فى تلك المعارك انتصاراً لا يقل روعة عن انتصاره الأول ، وتوفى فى سنة ١٣٠٢ م بعد أن حكم ٣٠ سنة حكما عادلا تمتعت فيها البلاد بالرغد والرفاهية . وخلفه ابنه ولقب بنفس الاسم فحكم البلاد بالحكمة والمهارة الفائقتين حتى سنة ١٣٠٧ م عند ما خرج عليه أخوه ناصر وعزله عن الحكم ، غير أن الملك الجديد كان سيىء الطالع ، إذ ما كاد يعتلى العرش حتى غزا بلاده ملكا قشتالة وأراغون ، ولم ينقذ البلاد منهما إلا بإذعانه إلى دفع جزية سنوية لهما . وفى سنة ١٣١٤ م اضطر إلى التنازل عن العرش لإسمعيل أحد أحفاد إسمعيل أخى ابن الأحمر مؤسس تلك الأسرة . وفى سنة ١٣١٦ م انتزع منه أمير قشتالة عدة مدن ، وإن كان قد ألحق بها بعد ثلاث سنوات هزيمة خالدة فى الفيرا . وفى سنة ١٣١٩ م بعث ملك قشتالة جيشاً ضخما بقيادة ابنه « بذرو » لإخضاع غرناطة نهائيا ، وكان يصحب تلك الحملة ٢٥ أميراً من بينهم أمير انكلترا ، الذى التحق بالجيش القشتالى على رأس قوة انكليزية كبيرة ، فسقط جميع الأمراء مجندلين فى حومة الوغى ، ومن ضمنهم قائد الحملة « بذرو » .

اغتيال إسمعيل

ولما اغتيل إسمعيل سنة ١٣٢٥ م اعتلى العرش ابنه أبو عبد الله محمد فأظهر عزما وشدة فى تصريف الأمور ، وفى سنة ١٣٣٣ م استخلص جبل طارق من المسيحيين الذين كانوا قد استولوا عليه . وبينما كان السلطان محمد عائداً من إحدى الحصون هجمت عليه جماعة من المتآمرين كانوا مختبئين وراء إحدى

أبو الحجاج يوسف

الصخور وفتكوا به ؛ فخلفه أخوه أبو الحجاج يوسف وهو من أذكى وأشهر ملوك بنى ناصر ، وكان عهده عهد أمن ورخاء ، وكان كأسلافه محباً للعلوم مشجعاً للعلم مكرما للعلماء ، ولكن حكمه لم يطل لسوء طالع المسلمين فى الأندلس ، إذ فى سنة ١٣٥٤ طعنه مجنون بخنجر طعنة نجلاء عند ما كان فى مسجد القصر يؤدى فريضة الصلاة فتوفى على أثرها . وولى من بعده ابنه محمد الملقب « بالغنى بالله » وكان

محمد الغنى بالله

كأبيه مثقفاً عالما مكرما للعلماء ، وكان وزيره ابن الخطيب المشهور الملقب بلسان الدين الذى دون تاريخ أسرة بنى ناصر . وبينما كان « الغنى بالله » متغيباً عن العاصمة اغتصب أخوه إسمعيل منه الملك ، فغادر الغنى أفريقيا واستوطن مدينة فاس . غير أن حكم إسمعيل لم تطل مدته ، إذ قتل فى أثناء الثورة التى قام بها أبو سعيد الملقب أيضاً « بأبى عبد الله محمد » ، وقد فتك به ملك قشتالة بعد سنتين واستولى على ثروته . وبموت أبى سعيد عاد « الغنى بالله » إلى غرناطة واستقبله شعبه المتقلب الأهواء استقبالا حماسياً ؛ فقضى بقية حكمه دون أدنى مقاومة ، وساد السلام فى ربوع البلاد بفضل المهارة التى عالج بها الموقف مع ملوك قشتالة ، فتمتعت البلاد بظرف ساعدها على التقدم والثراء ، وانتعشت فى عهده الفنون والصناعة وجلب التجار إليها من أقاصى الشرق وموانئ البحر الأبيض المتوسط مختلف السلع

وفاة الغنى

والبضائع ، وخصبت البلاد بفضل مشاريع الرى الجديدة . وفى سنة ١٣٩١م توفى الغنى فحزن الشعب لوفاته . وخلفه ابنه أبو عبد الله يوسف الذى لم يكن حكمه سعيداً كحكم والده ، وإن كان ميالا إلى احتذاء حذو أبيه فى الاحتفاظ بالعلائق الودية مع ملوك قشتالة . غير أن الرأى العام كان ميالا فى ذلك الحين إلى محاربة المسيحيين فرضخ للأمر الواقع ، ولكنه لم ينل نجاحا يذكر ، إذ لم يلبث حماس أهل غرناطة أن خمد فاستطاع يوسف بعد حين أن يعقد معاهدة صلح مع الملك الشاب هنرى الثالث بشروط شريفة . وكان يوسف الثانى قبل وفاته قد أوصى بالملك لابنه الأكبر المسمى أيضا يوسف والمشهور بحدة الذكاء ومتانة الخلق ،

ولـكن الابن الأصغر واسمه محمود على أثر وفاة أبيه فى سنة ١٣٩٦ استولى على مقاليد الحـكم واستأثر بالملك دون أخيه الذى سجنه فى قلعة سارو برينا .

وفى سنة ١٤٠٥ غزا جيش قشتالة منطقة غرناطة ، ولـكن يوسف بدلا من أن يلتجئ إلى ملك قشتالة أخذ على عاتقه إنزال العقاب بالمعتدين ، فدارت معركة بينه وبينهم كان فيها الحرب سجالا . وبموت محمود السادس سنة ١٤٠٨ أخرج سيدى يوسف من السجن وأعلن ملـكا على البلاد ، وأول عمل قام به هو الحصول من أمير قشتالة على تمديد عقد الهدنة ، وبعد سنتين نشب حرب غير حاسم بين الشعبين ، وأعقب ذلك هدنة أخرى انتهت بعقد صلح دام طيلة أيام حكم يوسف ، وكان قد نودى فى تلك الأثناء بالطفل ابن هنرى الثالث ملـكا على قشتالة تحت وصية أمه التى كانت تقدر الملك العربى حق التقدير ، وكانت العلائق بين الاثنين على غاية الود والصفاء ، ولما كانا يتبادلان فى كل سنة أثمن الهدايا ، ويتراسلان بكتب ودية للغاية . ويقال إن فرسان قشتالة وأراغونة الذين كانوا يسخطون على حكومتهم راحوا يلتجئون إلى بلاط يوسف . وكثير منهم كان يفد على غرناطة لحسم بعض المشاكل التى لها مساس بالشرف ، وكانوا غالباً ما يتقدمون إليه للبت فى مسائلهم ، فـكان الملك العربى يتدخل أحياناً فى توقيف المبارزة ويسوى الخلاف بين الطرفين المتنازعين ، فأحبـه الأجانب والوطنيون على حد سواء لعطفه وعدله وكرمه وفضله ، وساد فى عهده الوئام بين القشتاليين والعرب ، فأقدمت غرناطة على إصلاح ما فسد ، وأخذت تتمتع بنعمة السلام الذى لم تعرفه منذ أمد طويل .

وفاة الملك يوسف الثالث

توفى هذا الملك الطيب بعد حكم خمس عشرة سنة ، وحزن الشعب عليـه حزنا عميقاً ، وبموته انتهت أيام غرناطة السعيدة . نخلفه ابنه محمد الملقب بالأيسر ، وكان متكبراً حاد الطبع فـكرهه جميع أهل غرناطة ؛ ويقال إنه أبطل الأعياد العامة والبرجاس الذى كان يتعشقه أهل غرناطة ، وأصدر عدة أنظمة لا تلائم

مزاج الشعب المرح ، فثاروا عليه وأقصوه عن العاصمة ، ولـكنه لم يلبث أن استدعى إليها ثانية ؛ غير أن الشعب غضب عليه وطرده من العاصمة ، فاستولى على أعنة الحكم أحد الأشراف واسمه يوسف بمساعدة جون الثانى[1] ملك قشتالة ، غير أنه لم يلبث أن توفى بعد بضعة أشهر ، فاسترد محمد السابع ملـكه ثانية . وفى سنة ١٤٣٣ غزا ملك قشتالة غرناطة ، ومع أنه أصيب بهزيمة رائعة عند أسوار أرشيدونة إلا أن جيشه برغم ذلك أعمل معاول التخريب فى قسم كبير من منطقة وادى عاش وسهول غرناطة . وفى سنة ١٤٤٤ أقصى نهائياً محمد عن الحكم من قبل ابن أخيه ابن الأحنف ، وسمى كذلك بمحمد الذى كسب قلوب الشعب بإنعاماته فاعترفوا به ملكا عليهم ؛ غير أن قسما كبيراً من الأشراف قصدوا إلى قشتالة وبايعوا « أسداً » الملقب بابن إسماعيل ابن عم ابن الأحنف الذى كان قد التجأ إلى جون الثانى ، فعاد الملك الجديد على رأس قوة من القشتاليين والأمراء الموتورين وغزا غرناطة . وفى خلال الخمس سنوات التالية نشب بين العرب حروب داخلية مروعة ، فانهزم ابن الأحنف نهائياً فى سنة ١٤٥٤ م ، ونادى ابن إسماعيل بنفسه ملكا على مملـكة بنى الأحمر ، وكان أول ما قام به هو إرسال السفراء والهدايا إلى هنرى الرابع ملك قشتالة لتجديد معاهدة الصلح ؛ غير أن القشتاليين مع ذلك رفضوا إجابة طلبه وغزوا غرناطة ، فدامت الحرب سبع سنوات ، وأمعنوا فى تخريب المدينة وأحرقوا بيوت المسلمين ، وخربوا المزارع وهدموا القصور الجميلة وجداول الرى . وفى هذا النزاع كانت كفة المسيحيين هى الراجحة ، إذ لو اكتسب العرب الموقعة لما كان ذلك النصر يغنيهم فتيلا ، لأن مراكز القشتاليين الآهلة بالسكان كانت بعيدة عن متناولهم ، وأصبحت غرناطة الآن محصورة بين البحر وجبال الفيرا وسلسلة جبال البُشرات ، فاستولى جيش قشتالة عنوة على أرشيدونة وجبـل طارق ، فأضعفت هـذه المصائب عزيمة

(١) اعترف هذا الغاصب بسلطان ملك قشتالة .

ابن إسماعيل ، ورأى أن الحروب لو استمرت على هذا المنوال لتقوضت دعائم ملكه ، فضحى بكل مرتخص وغال فى سبيل الصلح ، واعترف بسلطان هنرى الرابع وتعهد بدفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دينار ، وأبرمت هذه المعاهدة شخصياً فى اجتماع حضره الملكان على مقربة من غرناطة ، ودام الصلح الذى عقد بين الاثنين حتى توفى ابن إسماعيل سنة ١٤٦٦ .

الفصل الثلاثون

العرب فى الأندلس (تتمة)

٨٧١ — ١٠١٦ هـ ، ١٤٦٦ — ١٦١٠ م

الكفاح الأخير — حصار غرناطة — تسليم غرناطة — غدر فرديناند وأزابلة — اضطهاد مسلمى أسبانيا وإخراجهم — العرب يفقدون أسبانيا

تولية أبى الحسن على

لما توفى ابن إسمعيل خلفه ابنه الأكبر على الملقب بأبى الحسن ، وكان بطلا شجاعا موهوباً ، ولو كان يؤازره شعب موحد لضارع أسلافه فى البهاء والفخامة والحافظ على مملكته ، ولكن الواجب الذى كان ملقى على عاتقه فى تلك الظروف السيئة وانقسام شعبه ، كان يدعو إلى اليأس والقنوط ، ومما زاد فى قرب وقوع الكارثة والخراب إهماله شؤون الدولة وسرعة غضبه وثورة ابنه .

وفى سنة ١٤٦٩ تزوج فرديناند من أزابلة فتوحدت بهذا الزواج قوات قشتالة وأراغون وليون وأصبحوا تحت راية واحدة ، وكان الزوجان متعصبين يريان من واجبهما الدينى حرق الهراطقة الكفار ، فاستقر رأيهما على وضع حد للبقية الباقية من المدنية فى أسبانيا ، فترقبا بصبر ذاهب انتهاء مدة الهدنة التى كانت قد عقدت بينهما و بين أبى الحسن بناءً على طلبهما للاضطرابات التى كانت ناشبة وقتئذ فى بلديهما ؛ غير أن ملك غرناطة برفضه دفع الجزية التى كان متفقاً عليها بين والده و بينهما أثار حقدهما وخلق بذلك الفرصة التى كانا يتوقان منذ أمد طويل إلى انتهازها ، فما كادت تنتهى مدة الهدنة حتى بدأ أبو الحسن نفسه بالزحف على مدينة الزهراء فى يوم عاصف ماطر ، ففتح باستيلائه على هذه المدينة هُوة سحيقة من التعصب والوحشية انهارت سيولها عليه وعلى مملكته ، ولم يحل

دون صب جام غضب فرديناند وزوجته على غرناطة إلا المنازعات التى كانت ناشبة فى شمالى أسبانيا . وقد رأى المفكرون العرب فى طيش الملك نذيراً للخراب وأعرب أحد الفقهاء فى حضرة الملك عما يجيش بصدورهم بقوله : « إن قصور الزهراء سوف تنهار على رؤوس المسلمين ، وإن أيام دولة المسلمين فى أسبانيا أصبحت معدودة ! » . ولما رأى ملك قشتالة صعوبة الاستيلاء على الزهراء حيث تقيم قوة كبيرة من جيش أبى الحسن ، هجم فجأة فى الليل على مدينة الحما الواقعة على سفح الجبل على بعد خمسة عشرة فرسخاً من العاصمة ، وكانت فى موقعها تحمى الطريق الممتد إلى منطقة غرناطة ؛ ولكن القشتاليين بالرغم من دفاع المدينة المستميت استولوا عليها عنوة ، وأعملوا السيف فى رقاب أهلها ، وأسروا النساء والأطفال الذين كانوا قد اعتصموا بالجامع . وهكذا سقطت الحما التى كانت يوما ما مدينة زاهرة فاستحالت الآن إلى مقبرة شاسعة ، وأصبحت شوارعها الجميلة التى كانت متنزهاً لشعب سعيد أكواماً تكدست فوقها أشلاء الموتى فاتضح بسقوط الحما مصير غرناطة وارتفع عويل المسلمين على ما خبأ لهم القدر فصبوا لعناتهم على مسبب هذه الكارثة ؛ ولكن أبا الحسن لم ييأس ، فقام بمحاولتين للاستيلاء على المدينة انهزم فى المحاولة الأولى ، وكاد ينال النصر فى الثانية لولا أن جاءته الأخبار بنشوب فتنة فى العاصمة بقيادة ابنه أبو عبد الله محمد[1] ، فتوقف الجيش عن مواصلة القتال وظهرت مساوئ تعدد الزوجات فى تلك الأزمة الطاحنة ، وتقرر مصير المسلمين الأسبانيين ، إذ كان لأبى الحسن زوجتان ، واحدة بنت عمه واسمها عائشة والأخرى أسبانية (مسيحية) من بيت كريم واسمها أزابيل ويسميها العرب بالزهراء ، وكان أبو الحسن يميل إليها ولأطفالها فحسدتها عائشة الزوجة الثانية ، وحرضت ابنها أبا عبد الله على الخروج على أبيه ، ورشت قسما من الحامية وبعض رجال الدولة ، فنادوا بابنها الفتى ملكا

(١) واسمه بالأسبانية بو أبدل ويسميه أهل غرناطة بالسلطان الصغير .

عليهم ، وفى الحال أسرع أبو الحسن إلى غرناطة التى أصبحت الآن ميـدانا للقتال بين الطرفين ، وعقد مع ابنه مهادنة قصيرة تمكن على أثرها الملك الـكهل أن ينقذ مدينة (لوجا) أو لوشا التى كان يحاصرها القشتاليون و يستولى على مدينة كانيت ، غير أن هذا النجاح لم يكن له فائدة تذكر ، إذ علم أن ابنه الثائر نجح فى الاستيلاء على قلعـة الحمراء ونادى بنفسه ملـكا على كافة غرناطة ، وعندئذ ارتد أبو الحسن إلى مالقه ، حيث كان أخوه أبو عبد الله محمد الملقب بالزغال والياً عليها ، ولم يبق فى قبضته غير مدينتى وادى آش والبستة .

أراد فرديناند و إزابلة أن يثأرا للهزيمة التى لحقت بجيوشهما بظاهر مدينة لوكسا ، فسيرا قوة كبيرة على ولاية مالقة ، ونجحا نجاحا كبيرا فى بادئ الأمر ، « إذا جاز لنا أن نطلق كلمة النجاح على حرق المزارع ، وقطع أشجار الزيتون والـكروم ، وتخريب القرى المزدهرة ، وسلب المواشى ، وذبح السكان الآمنين »[1] . و بينما كان جيش قشتالة منهمكا فى أعمال التخريب على هذا النحو ، مطمئناً آمناً ، هاجمه الزغال وقائده رضوان فى الجبال الشرقية وأوقع به مذبحة فظيعة ، ولم تكن قضية العرب قد بلغت حدا يحمل على اليأس والقنوط ، غير أن حادثة جديدة وقعت فى تلك الأثناء كان سببها « أبو عبد الله » فغيرت مجرى الحوادث ، وذلك أن هذا الخائن السيئ الحظ ، أراد أن ينافس عمه « الزغال » الذى كان اسمه الآن على أفواه جميع أهل غرناطة ، فهجم على مدينة لوسينا التابعة لحـكومة قشتالة ، ولـكنه أصيب بهزيمة مروعة ووقع أسيرا فى أيدى الأعداء ، وفى تلك المرحلة كان أبو الحسن قد تنازل عن العرش لأخيه الزغال وانسحب مع عائلته إلى مدينة اللورة ، ثم انتقل منها إلى المونيكار حيث توفى بعد مدة قصيرة .

رأى فرديناند و إزابلة فى أسر أبى عبد الله معونة إلهية ساقتها إليهما

---

(١) كوندو .

الأقدار لنجاح قضيتهما ، إذ وجدا فيه أليق أداة لبث بذور الشقاق فى غرناطة وتقسيم قواها العسكرية إلى شيع وأحزاب ، فتقوضت بذلك دعائم تلك المملكة التعسة . ولما كان أبو عبد الله متقلباً ضعيف الرأى ، صغير النفس ، فقد غدا آلة صماء فى أيدى فرديناند الحاد الذكاء ، الذى « حالما شعر بأنه هو والملكة قد استوليا على إرادة ذلك الأمير المنكود ، أرسله إلى غرناطة مجهزا بالرجال والأموال والعتاد ، فاستطاع أبو عبد الله بمساعدة القشتاليين — الذين كان يتألف منهم حرسه — وعدد من أهل غرناطة الذين رشتهم عائشة ، أن يستولى على ضاحية البزين ، وهكذا وقعت غرناطة مرة أخرى فى حرب داخلية طاحنة ، فاقترح الزغال على ابن أخيه أبى عبد الله أن يحكما البلاد سوية ويشتركا فى صد العدو المشترك ، ولكن هذا الفتى المتهوس الضعيف رفض كل اقتراح . وانتهز ملك قشتالة فرصة هذا الكفاح بين الزغال وأبى عبد الله واستولى بالتتابع على اللورة وقصر بونيله ورنده ، وبعض المدن الأخرى المهمة ، أما لوكسا التى عجز جيش قشتالة عن فتحها من قبل ، فقد أذعنت فى سنة ١٤٨٦ بالتسليم ، وبعد سنة سقطت مدينة مالقة ؛ ولما حاول الزغال إنقاذ المدينة صمد له أبو عبد الله الذى كان من الدناءة بحيث هنأ فرديناند على احتلاله إياها ، ومع أن أهالى تلك المواقع سلموا على شرط صيانة أرواحهم ، إلا أن فرديناند حالما استولى عليها لم يتردد قط فى نكث عهوده معهم ، وأمر بإدخال جميع السكان فى ربقة العبودية أو نفيهم من ديارهم ، ولم يبق فى أيدى الزغال غير بابزه وألميره وفيره وخوسكار وقليل من المدن الأخرى ، وقد تحالف فرديناند سرا مع أبى عبد الله على أن يعطيه كافة البلاد التى يستولى عليها من عمه الزغال ، وركن هذا الخائن البائس إلى تلك المواعيد الخلابة ، خشية أن يطرده عمه من غرناطة لو هو أمسك عن مساعدة ملك قشتالة ، وهكذا تمكن فرديناند من الزحف بقواته الكاملة على بابزه ؛ ولما يئس الزغال استنجد بملوك أفريقية

١٤٦٦—
١٦١٠م

المسلمين الذين كانوا يتقاتلون مع بعضهم البعض فلم يلبوا طلبه ؛ ومع ذلك فقد دافع المسلمون دفاعا مستميتاً ، ونجح الزغال عدة مرات فى إجلاء جيش قشتالة عن أسوار عاصمتـه ؛ غير أن فرديناند بمهارته العسكرية اضطر المدينة إلى الإذعان بالتسليم ، ولـكن القشتاليين ، على ما جرت به عادتهم ، نقضوا الشروط التى كانوا قد عقدوها مع أهل المدينة وطردوهم من منازلهم ، واستولى الملك والملـكة الصالحان على أموالهم ومواشيهم ، واستطاعا ، بفضل المال والرشوة ، أن يستوليا شيئاً فشيئاً على قلاع مدن البُشرات ، وما هو إلا أن التجأ الزغال الذى كان يحارب إلى ذلك الحين محاربة الأبطال إلى تقديم خضوعه إلى فرديناند و إزابلة اللذين أقطعاه منطقة أنداراكس ولقباه بالسلطان ، ولـكنهما لم يسمحا له بالبقاء مدة طويلة ، إذ أمرا بنفيه بعد سنة إلى أفريقية ؛ وعندئذ لم يصبح فى أيدى المسلمين غير غرناطة وضواحيها ، ولم يلبث أبو عبد الله الذى فرح بسقوط الزغال أن أدرك خطأه فى الاعتماد على أصدقائه المسيحيين ، فما كاد الزغال يرحل إلى أفريقية حتى أمر « فرديناند » عبـد الله بتسليم غرناطة ، ولما رفض طلبه أعمل السيف والنار فى منطقة غرناطة الخصبة ، وحول منطقة فيغا إلى أرض بلقع ، ثم ارتد منها إلى قرطبة ، وأصبح القتال الآن أروع من ذى قبل ، إذ كان يتوقف على هذه المعركة مصير المسلمين الذين هبوا بزعامة موسى بن أبى الغزان من أشهر فرسانهم إلى القتال بعد أن شدد عزائمهم ، وأخذوا يزحفون على بلاد العدو ونجحوا فى الاستيلاء على بعض المواقع الأمامية ، غير أن فرديناند هجم على سهول غرناطة فى أربعين ألف راجل وعشرة آلاف خيال وشرع من جديد يعيث فى البلاد بالنار والسيف ، فأتلف المحاصيل الزراعية والأشجار المثمرة وأحرق المنازل وذبح السكان الآمنين ، وشدد الحصار على آخر معقل من معاقل المدنية فى أسبانيا ، فاعتصم أهل فيغا بالعاصمة وصمدوا للعدو عشر سنوات وناضلوه على كل شبر من أرضهم ، وكانوا يواجهونه باستبسال

حصار غرناطه

عظيم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، غير أنه لم يبق لهم الآن سوى العاصمة التى تحصنوا داخل أسوارها فى يأس ممض ، وقاوموا العدو ردحاً من الزمن ، ونظراً لسهولة المواصلات بين العاصمة والبُشرات كانت ترد المؤونة إلى المحصورين من منطقة سيرانيفادة ؛ وفى تلك الأثناء أخذ موسى يناوش الأعداء ويقتل منهم يوميا عدداً من أحسن جنودهم مما أثار سخط فرديناند الذى أمر بتشديد الحصار على العاصمة فضاق أهلها ذرعاً بذلك ؛ ولم يكد يحل شهر صفر حتى عمت المجاعة وحاول الأهالى للمرة الأخيرة الذود عن حريتهم ، غير أن الحامية كان قد أنهكها الجوع ، فاستقر رأيهم على التسليم بعد أن فتكت المجاعة بالسكان فتكا ذريعاً وعملت فيهم ما لم تعمله القوة المغيرة طوال هذه السنين ؛ وفى الحال أرسلوا وفداً إلى معسكر قشتالة لوضع شروط التسليم ، وبعد مفاوضات طويلة تم الاتفاق على الشروط التالية ، وهى : إذا لم ترد للمسلمين نجدة من البر أو البحر خلال شهرين سلموا المدينة للمسيحيين على أن يؤدى السلطان والقواد والوزراء والأعيان وجميع أفراد جيش المسلمين يمين الطاعة والولاء لملك قشتالة ؛ وأن يمنح أبو عبد الله بعض الأملاك فى البكراس ؛ وأن يؤمن ملك قشتالة المسلمين على أرواحهم وأملاكهم وأسلحتهم وخيولهم دون قيد أو شرط ؛ ويسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية ، وأن تبقى جوامعهم ومؤسساتهم الدينية مصونة سالمة ؛ وأن يحتفظ المسلمون بعوائدهم ولغتهم وزيهم ، وأن يفصل فى خصوماتهم قضاة من بنى جلدتهم ، وأن تنظر فى معاملاتهم مع المسيحيين هيئة مختلطة من القضاة المسيحيين والمسلمين ؛ وألا يجبروا على دفع ضريبة فوق الضريبة الرسمية ؛ وألا يدخل المسيحيون عنوة منازل المسلمين ؛ وأن يفك سراح أسراهم ، ويسمح للذين يرغبون فى الهجرة إلى أفريقية بالسفر فى خلال مدة معينة ، وأن تنقلهم سفن قشتالة دون استيفاء أجور علاوة على أجور السفر الاعتيادية ، وألا يمنع أى مسلم بعد انقضاء المدة القانونية من اللحاق بإخوانهم المهاجرين إذا دفع أجرة السفر وعشر أمواله المنقولة ؛ وألا

يضطر أو يعاقب المسلم بجريمة غيره ؛ وألا يجبر أى مسيحى اعتنق الإسلام من قبل على التخلى عن إيمانه الجديد ، وإذا رغب مسلم فى اعتناق المسيحية يجب أن يناقشه قاض مسلم بحضور حاكم مسيحى بضعة أيام ؛ وأن يحرم على الجنود المسيحيين إساءة معاملة المسلمين ، وأن تحمى الحكومة المسلم الذى يرغب فى السفر أو السكنى بين المسيحيين وأن تحافظ على أملاكه وسلامته ، وألا يحمل المسلمون علامات فارقة كما يحملها اليهود .

ولم يعترض على هذا الإذعان والتسليم غير موسى الذى حذرهم من الاعتماد على مواعيد القشتاليين الكاذبة ، وحرضهم على أن يهبوا دفعة واحدة لفك الحصار ومما خاطبهم به : « إن الموت أعذب من الذل والإسار ، وإن من المحال أن يفى القشتاليون بوعودهم لأنهم متهيئون للبطش بالمسلمين ، ثم قال : إن الموت فى ساحة الوغى أعذب مما أعدته لنا الأقدار من إهانة وتحقير وإذلال ونهب وتدنيس للجوامع وانتهاك لشرف النساء ، ثم ختم كلامه قائلا : سيكون مصيرنا الاضطهاد والظلم والاستبداد لأن الأعداء آلوا على أنفسهم أن يستأصلوا شأفتنا » . ولما رأى موسى أن كلماته لم تستنهض همم الحاضرين الذين جاءوا ليسلموا المدينة نظر إليهم نظرة احتقار وامتطى صهوة جواده ثم خرج من باب المدينة لا يلوى على شىء ، ويقال إنه لاقى فى طريقه جماعة من الفرسان المسيحيين وكاد يتغلب عليهم لولا أنه سقط من على ظهر جواده ، ولكنه مع ذلك أبى أن يستعطفهم فظل يمعن فيهم وهو جاث على ركبتيه حتى وهنت قواه فألقى بنفسه فى النهر وابتلعته الأمواج على الفور .

وكان المسلمون قد بعثوا بالرسل يستنجدون سلطان مصر والروم ، غير أن مدة الإنذار كانت قد مضت دون أن يلبى أحدهم داعى الغوث ، وفى ثلاثة كانون الثانى سنة ١٤٩٢ استولى ملك قشتالة على غرناطة ، وفى الواقع كانت ساعة استبدال الهلال بالصليب على قلعة غرناطة من أهول الساعات التى مرت

على المسلمين ، إذ كانت نذيراً بالقضاء على الحياة الفكرية والنشاط الصناعى فى بلاد الأندلس .

وبعد هذه المأساة الدامية سار أبو عبد الله — أوبو أبدل كما يسميه الأسبان — مع أسرته فى الطريق قاصدين البكراس حيث كان ينوى الإقامة فلما وصل جبال بادول ألقى نظرة طويلة على غرناطة ثم أجهش بالبكاء فقالت له أمه المشهورة بالدسائس : لماذا تذرف الدمع كامرأة على فقد ما لم تستطع الدفاع عنه كرجل ! وهنالك فى « اندارة » عاش قليلا من الزمن ، غير أن فرديناند رأى وجوده فى أسبانيا خطراً يهدد مملكته ، وفى الحال أمر بنفيه إلى أفريقية فقصد الأمير البائس مدينة فاس وظل بها حتى وافته منيته سنة ١٥٣٨ م[١] .

وفاة أبي عبد الله

لم ينو فرديناند الورع ولا إزابلة الصالحة التقيد بشروط المعاهدة ، إذ لم ينقض طويل وقت على المسلمين حتى تحقق لديهم قول بطلهم الشجاع ، وبالأخص عند ما شاهدوا ما حل باليهود الذين عاشوا فى رخاء ورفاهية فى ظل الحكومة العربية وأصبحوا الآن هدفا لأطماع ملوك قشتالة . وفى سنة ١٤٩٣ بينما كان فرديناند الذى كان يخفى سياسة الخيانة والغدر تحت رداء الدين والتقوى ويسرف فى وعوده للمسلمين أصدر مرسوما يخير فيه اليهود بين التنصر والهجرة ، وطفق يمعن فى اضطهادهم وتعذيبهم وحرقهم ؛ ثم بدأ يسحق العهود التى كان قد قطعها على نفسه مع المسلمين ، ولم يدخر وسعاً فى استعمال جميع وسائل الوحشية ، فحظر عليهم اتباع قوانينهم الشرعية وتأدية طقوسهم الدينية ، وأكره الكثير منهم على التنصر ففاضت قلوبهم لوعة وسخطا ، وشق أهل البزين عصا الطاعة ، غير أن الحكومة اعتزمت هذه المرة سحق الثورة بما تملك من قوة فامعنت فى التقتيل والتخريب . وفى سنة ١٤٩٨ عرضت عليهم إما التنصر أو الإعدام ، فاستكان

(١) ترك ولدين اسمهما يوسف وأحمد ، وقد زار أحد كتاب العرب تلك المدينة فى القرن السابع عشر فرأى أحفادهما فى غاية من الفقر والعوز يعيشون على الصدقات التى كانوا ينالونها من إدارة الأوقاف .

البعض ، ولـكن الأغلبية تمسكت بدينها واعتصمت بجبال الألب ؛ فأرسلت الحـكومة إليهم جيشاً مزقهم شر ممزق ، ونسف الجامع الذى كان قد التجأ فيه النساء والأطفال ، وبالرغم من جميع هذه النكبات التى حلت بهم ، فقد دافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال ، وفى سـنة ١٥٠١ هزموا الأعداء فى جبل بلنسيه ، فصدر قرار بنفيهم إما إلى مراكش أو تركيا أو مصر ، ومصادرة أملاكهم المنقولة وغير المنقولة ، وخيرت البقية الباقية منهم بين السيف وبين اعتناق المسيحية ؛ ومع أنهم أكرهو على التنصر اكراهاً ، فقد ظلوا فى قرارة نفوسهم مسلمين مخلصين ، يواظبون على الصلوات الخمس ، ويؤدون الوضوء فى أوقاتها[1] ، وكانوا يعتنون جد العناية بغسل أطفالهم من الماء المقدس حالما يبتعدون عن أعين رجال الدين ، وكانوا يعقدون النكاح سرا بعد أن تجرى لهم المراسيم الـكنسية . ولو كان ثمت حكومة شريفـة تحترم العهود التى قطعتها على نفسها عنـد الاستيلاء على مدينة غرناطة ، لما أقدمت على إثارة خواطرهم بهذه الصورة الشنيعة ؛ غير أن ملوك أسبانيا لم يكونوا من شرف النفس والأمانة بحيث يوفون بعهودهم مع الموريسكيين ، وقد وضعت الحـكومة هؤلاء « المسيحيين بالاسم » تحت رقابة شديدة ، وكانت أية تهمة توجه إلى أحدهم كفيلة بأن توقعه تحت طائلة العقاب وتعذيب ديوان التحقيق ، فسطعت محارق ديوان غرناطة وقرطبة وأشبيلية لتلتهم يومياً عدداً من الرجال والنساء والأطفال ، ولأجل أن تحول الحـكومة دون قيامهم بأية ثورة أصدرت قانونا جديداً تحرم فيه حمل السلاح على الموريسكيين ؛ وهكذا قدر على أخلاف الشعب الذى احتل أسبانيا أن يتحمل الاضطهاد بصبر ممض . وفى سنة ١٥٦٨ أصبحت حالتهم لا تطاق ، إذ لم يكتف المسيحيون بتدمير أملاك المسلمين فحسب ، بل أخذوا يعاملونهم معـاملة الأرقاء فى الأراضى التى كانوا حكامها ، « وحاول

---

(١) المقرى .

المسيحيون جهدهم استئصال شأفتهم والقضاء على آخر المظاهر والتقاليد التى تربطهم بماضيهم وتراثهم القومى » . وكان فيليب الثانى المتهوس الأخرق متربعاً فى تلك الأثناء على عرش أسبانيا ، وكان رئيس أساقفة غرناطة لايقل عنه تهوساً وبربرية ، فحرضه على إصدار قانون يحرم عليهم أن يتكلموا العربية أو يتعاملوا بها ، وألزمهم بلبس القبعات وارتداء الملابس الأوربية ، كما حظر عليهم الاستحمام واتخاذ الأسماء العربية ، وارتداء الثياب الوطنية ، ومزاولة التقاليد العربية والمظاهر القومية ، وعدم استعمال سوى القشتالية فى التخاطب والتعامل ، وعندئذ بلغ اليأس بأحفاد المنصور ذروته ، فالتجأوا إزاء هذا العسف المضنى إلى السلاح مؤثرين الموت مسلمين مخلصين لدينهم ، ولكن كفاحهم كان لا أمل فيه ولا رجاء . وبعد أن دامت الثورة ثلاث سنوات اجتاحهم دونجوان بجيوشه ، فأمعن فيهم التقتيل والتخريب وذبحهم ذبح الأنعام ، فقتل الرجال والنساء والأطفال على حد سواء ، وغدت قرى ووديان البكراس مقابر شاسعة لعظام المسلمين ، حتى إن الذين التجأوا إلى الكهوف لم ينجوا من هول المذبحة ، إذ أشعل المتهوسون النار على أبواب المغارات وقتلوا من بداخلها خنقاً بالدخان ، وبالرغم من كل هذه المذابح المروعة ظلت بقية منكودة من هؤلاء العرب المستنصرين أو كما يسمونهم بالموريسكيين فى بلنسية ومورسية .

وفى سنة ١٦١٠ م أنجز فليب الثالث العمل الذى كان قد بدأ به والده ، وهو نفى زهاء نصف مليون من هؤلاء البائسين إلى أفريقية ، فأمر بإنزالهم على الساحل . أما سكان الشمال وكان لا يقل عددهم عن مائتى ألف نسمة ، وهم البقية الباقية من ذلك الشعب القوى الباسل ، فقد طردوا من غير ما شفقة ولا رحمة إلى فرنسا حيث اضطر من بقى منهم حياً بعد مذابح الأسبان وأهوال الطريق إلى النزوح إلى البلاد الإسلامية . وبلغ عدد الذين طردوا من أسبانيا

منذ سقوط غرناطة حتى عهد الملك فليب الثالث ثلاثة ملايين نسمة ، وهكذا اختفى من أرض الأندلس شعب ذكى مستنير شجاع بعث بجده واجتهاده الحياة فى أسبانيا التى كانت تئن تحت نير القوطيين ، فحول بلاد الأندلس جنة فيحاء وحمل مشعل العلم والعرفان ، بينما كانت الممالك حولها تتخبط فى دياجير الجهل ، كما نشر الثقافة و بث المدنية ووضع أسس الفروسية ، بل لا نعدو الحق إذا قلنا إن الشعب العربى خلق أوربا الحديثة خلقاً . والآن يحق لنا أن نتساءل ما الذى استفادته أسبانيا من طرد العرب ؟ وجواب ذلك أن الأندلس الجميلة التى ظلت بضعة قرون موطن الثقافة ومركز العلوم والفنون تدهورت ثانية إلى حالة العقم وأصبحت علماً على تدمير الثقافة والأخلاق ، فاكتنفتها وحشية أبدية بعد أن كان العرب قد أضاءوها بنورهم ، وفى الواقع لم تتغير الطبيعة إنما الذى تغير هو الشعب الأسبانى وديانته . ومع ذلك فلا يزال بعض آثار العرب تعلو الخرائب التى ملأت تلك البلاد المقفرة ، ومن وسط التماثيل والخرائب الصامتة يرتفع صوت الحق ينادى بمجد وحضارة العرب المنهزمين ، وانحلال وتدهور الأسبان المنتصرين[1] . ويصف كاتب أوربى آخر الخسارة الفادحة التى حلت بأسبانيا وكان سببها التهوس الدينى فيقول : « لم يعرف الأسبان عندئذ ماذا كانوا يفعلون ، إذ أنهم فرحوا أشد الفرح وطربوا أشد الطرب بنفى العرب ، وذلك لأنهم سئموا الحياة الرتيبة ، وأخذ « لوب دى فيغا » يغنى أغنيته المثيرة التى مطلعها « الحكم العادل » ، ولم يدروا أنهم قتلوا إوزتهم الذهبية » . لقد كانت أسبانيا منذ قرون مهد المدنيــة ومركز العلوم والفنون وكافة ضروب النشاط الفكرى ، ولم تبلغ دولة فى أوربا ما بلغته أسبانيا على أيدى العرب من ثقافة ورقى ، فتضاءلت عظمة عصور فرديناند و إزابلة وشارلس الخامس إزاء ما بلغته دولة

---

(١) المسيو كوندو وقد كان أسبانيا .

العرب من البهاء والفخامة ، وظل نور أسبانيا بعد نفى العرب ساطعاً برهة من الزمن ، ثم سادت فى أرجائها ظلمة حالكة ؛ وأعظم ذكرى لهذا المجد الغابر هى تلك الأراضى القاحلة التى استحالت إليها أسبانيا بعد أن كانت فى عهد المسلمين جنة ملآنة بأنواع المزروعات والكروم ، وذلك الجهل المطبق المخيم على أهلها بعد أن كانت مثالا للذكاء والعلم ، وعلى الجملة فإن أهل أسبانيا المسيحية يستحقون ما وصلوا إليه من التدهور والانحطاط .

الفصل الحادي والثلاثون

نظرة عامة

مملكة غرناطة — مدينة غرناطة — الحمراء — الزهراء — الفنون والعلوم فى غرناطة — الملابس — نظرة عامة فى أسبانيا تحت حكم العرب — الحكومة — الإدارة — الحالة الاقتصادية — الصناعة — الزراعة — الفنون الجميلة — العلم — مركز النساء — الأديبات والمثقفات — الملاهى

مملكة غرناطة

كانت مملكة غرناطة تتألف من القسم الواقع فى الركن الجنوبى الشرقى من الجزيرة ؛ ولم تكن مساحتها وهى فى أزهى عصورها لتزيد على السبعين فرسخا طولا من الشرق إلى الغرب ، وخمسة وعشرين فرسخاً عرضاً من الشمال إلى الجنوب . وفى داخل هذه الرقعة الضيقة كانت غرناطة تجمع مختلف المصادر الطبيعية التى قد تحتاجها إمبراطورية عظيمة الشأن ، فكانت تتخلل وديانها الفسيحة الأرجاء جبال غنية بالمعادن ، كما كان سكانها يزودون الدولة بالفلاحين والجنود ذوى السواعد القوية والبأس الشديد ، وكان يخترق مروجها جداول المياه الصافية ، وتزين سواحلها عدد كبير من الثغور التى كانت تعد أعظم أسواق البحر الأبيض المتوسط على وجه الإطلاق ، وكانت مدنها تبلغ الثلاثين عداً ، وقصباتها الثمانين ، وجميعها محصنة أقوى تحصين ، أما القرى فكان يبلغ عددها بضعة آلاف ؛ وكان وادى القوطة وغرناطة الذى يسمى الآن « الفيكاد كرافادة » مسرحا لأروع ضروب الكفاح ، ومع ذلك لم تكن رقعته لتزيد على الثلاثين فرسخاً ، وكان يشقه نهرا « شينيل[1] » و « الدورو[2] » ، وثلاثة أنهر أخرى

---

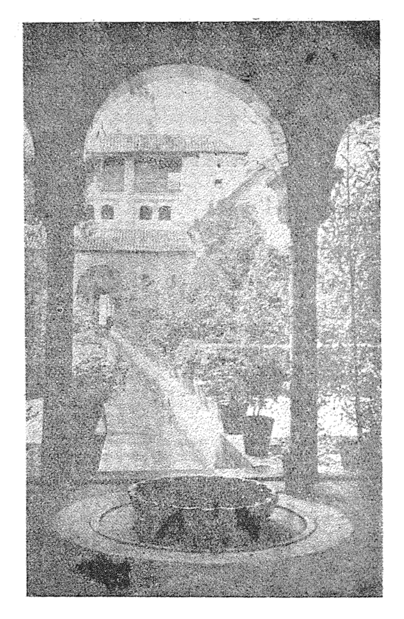
(١) ويسمى أيضاً شنجيل .

(٢) وهو نهر الحدارة الذى كتب عنه ابن الخطيب ويسميه الرومان بنهر صالون .

تنبع من جبال شوليز بجوار (سيرانيفادة) ، وكان ذلك الوادى يزخر بالأحراش النضرة والقصور المنيفة الذرى ، والدور الجميلة و بساتين الكروم والزهور والحقول الدائمة الاخضرار تحيط بها الحدائق الفيحاء . وقد وجه العرب جهدهم لاستغلال وادى الفيحاء ودرسوا صلاحية التربة للنباتات ، ووزعوا مياه نهر الشنيل والدورو فى جداول لا حصر لها ؛ وضمنوا الحصول على الفواكه والغلال طوال أيام السنة ونجحوا أيما نجاح فى زرع نبات المناطق الحارة ، كما كانوا يصدرون كميات عظيمة من الحرير والكتان من الميرة ومالقة إلى المدن الإيطالية التى بدأت تنتعش منذ ذلك الحين ، وكانت مصنوعات غرناطة كثيرة منوعة ، وعرفت كل مدينة بصناعة خاصة ، وكانت ثغور « مملكة بنى الأحمر » تضم دائما أكبر عدد من السفن الأوروبية حتى أصبحت العاصمة بصفة كونها أكبر مركز للنشاط التجارى مدينة أممية . واشتهر أهل غرناطة بالأمانة والصدق فى المعاملة . وأصبحت كلمتهم مضرب الأمثال فى الأمانة والوفاء ؛ وكانوا يصدرون علاوة على تلك المنسوجات والمعادن الثمينة كميات كبيرة من المنتوجات الخام ، وبالأخص الحرير والقنب اللذين كانت فلورنسا تستورد منهما أكبر كمية من ثغرى الميرة ومالقة .

كانت غرناطة تبدو شامخة كالبرج فى وسط الغوطة فيمتد قسم منها كما لا يزال يمتد إلى الآن فى أحشاء وادى فيغا ، ثم يتدرج القسم الآخر على سفح التلال التى شيدت عليها عدة ضواح ريفية ، وكان نهر الدورو بعد أن يزود القصور والأسواق والطواحين والحمامات بالأمواه الكافية ينساب فى السهل الفسيح .

وفى عهد « بنى ناصر » كانت غرناطة يحيط بها سور متين به اثنا عشر بابا ويعلوه ١٠٣٠ برجا ، وكانت قصور المدينة مزينة بحدائق مسوجة بالعرائش ، وزاخرة بأشجار الفاكهة كالبرتقال والليمون والطرنج والآس واللوز ، والخمائل الناضرة ذات الشذا العطرى ؛ وفوق ذلك كان ينساب فى المنازل غدران صافية



غرناطة — حدائق جنة العريف

ويتوسط الشوارع النوافير الجميلة التى ينبثق منها الماء ، فتبعث فى النفس غبطة وفرحا عظيمين . أما المنازل فكانت بالغة حد الروعة والإبداع الهندسى ، وبلغ عدد سكان المدينة فى منتصف القرن الخامس عشر زهاء أربمائة ألف نسمة .

وكانت تقع على قمة أحد التلال مقابل غرناطة قلعة ابن الأحمر أو المدينة الحمراء ، التى كانت تستوعب مساحتها أربعين ألف شخص ، ومن الصعوبة بمكان أن نوفى الآن هذا العمل الذى سمى بعمل الجن حقه من الوصف والإبداع

إذ أن القلاع والحصون والقصور بفنها المعمارى الدقيق وأروقتها وأعمدتها الفخمة ، وقبابها وسقوفها ذات الزخرفة والنقوش البديعة التى لم تفقد شيئاً من رونقها الأصلى إلى الآن ، وأبهائها الهوائية المشيدة ليمر بها النسيم المعطر بشذا الورد ؛ والبرك التى أحكم المهندسون تشييدها فأصبح انبثاق الماء فيها تابعاً لإرادة الإنسان ، إن أراد رفعه وإن أراد أنزله من علو شاهق فى أشكال هندسية بديعة ، كذلك كانت الأبنية المنقوشة بالأصباغ والمزدانة بالفسيفساء على أجمل صنع وأتم إتقان فتنعكس عليها الأضواء والألوان ، منها الذهبي والقرمزى والأزرق والأرجوانى ؛ ومختلف التماثيل وبهو السباع المشتمل على ١٢٨ عموداً فخماً ، وأرصفتها البيضاء والزرقاء ، وتناسق الألوان القرمزية والذهبية وتماثيل السباع[١] التى يجرى الماء من أفواهها ، والبركة المرمرية[٢] ، وإيوان الموسيقى البديع حيث كان يجلس الأمير ورجال بلاطه يستمعون إلى عزف الموسيقى الشجية ، وانسجام النغمات فى الألحان الجميلة ؛ وسراى الحريم البهجة بمشبكاتها النحاسية الفاخرة وسقوفها البديعة ، والأشكال الزخرفية والتصاوير والزخارف البارزة ، والتماثيل الناطقة ،

---

(١) جاء فى نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٣ أن لابن حمديس الشاعر الأندلسى قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود قال منها :

وضراغم سكنت عرين رياسة	تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها	وأذاب فى أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك	فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما	أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها	ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول	ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه	درعاً فقدر سردها تقديرا

(المعرب)

(٢) جاء فى سراج الملوك ص ٥٠ ما يلى : « وكان من عجائبه أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة وساق الماء تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطاً بها متصلا بعضه ببعض فكانت القبة فى غلال من ماء سكباً لا يفتر » . (المعرب)

وأحواض الرخام التى تمتاز بعمق الرسوم وما تحدثه من بديع الأثر ، والحشوات الخشبية الصغيرة المصنوعة فى غاية الدقة والجمال ، كل ذلك يحتاج إلى قلم فنان ليوفيه حقه من التصوير والإبداع . كذلك شيد على حدود الجبل مقابل «الحمراء» القصر الملكى المعروف «بالجامع العارف» ؛ وهو كقصر الحمراء تكتنفه الأسوار المتينة ، وإذا جاز لنا أن نستعمل عبارة أحد الكتاب المشهورين ، فنقول إنه تحفة فنية جميلة تتخلله البرك والأحراش والأزهار ، وإن لم يبق إلا القليل من أدواحها الباسقة كشجر السرو والآس ؛ وكان فى البساتين شرف تهبط درجات يتخللها مجار تنبعث من قمة الجبال ، ثم تؤلف شلالات عديدة تختفى بين الأشجار والأعشاب المزدهرة .

الجامع العارف

وكان أمراء غرناطة وخلفاء قرطبة يتسابقون فى تشجيع العلم وحماية العلماء وتشييد المبانى العامة ، فأصبحت غرناطة فى عهدهم موئل العلماء الأعلام والشعراء الأفذاذ والجنود الأبطال ، وبالإجمال أصبحت مثابة لأولئك الذين يستحقون أن يكونوا مثلا أعلى فى كافة مناحى الحياة .

العلوم والفنون

ولم تكن فتياتها أقل شهرة فى الأدب من رجالها ، ومنهن زينب وحمدة وحفصة والقلاية ومارية اللواتى أكسبن بلادهن وموطن رأسهن شهرة لا تمحوها الأيام . ولم يتقدم الأدب وحده فى عهد الملوك العرب ، بل ازدهرت أيضاً ضروب العلم والتاريخ والجغرافية والفلسفة والفلك والطب والموسيقى ؛ وقد كانت توكل إدارة الجامعة إلى رئيس ينتخبه الأساتذة الممتازون ؛ وفى منتصف القرن الثالث عشر أسند منصب رئاسة جامعة غرناطة إلى سراج الدين أبى جعفر عمر الحكمى ، ولم يكن يراعى دين معين فى تعيين الأساتذة والمحاضرين ، إذ كثيراً ما كان يسند هذا المنصب إلى علماء من اليهود والمسيحيين .

النساء المثقفات

وقد جرت العادة فى الجامعات العربية الأسبانية أن تعقد احتفالات سنوية ودورية يدعى إليها الجمهور ، ويلقى فيها أساتذة الجامعة الخطب والقصائد .

الفتوة أو البطولة

لما سقطت قرطبة تحولت حركة البطولة إلى غرناطة حيث ازدهرت ووصلت إلى منتهى ذروتها ؛ وكانت النساء كما كن فى عاصمة الخلفاء العباسيين يتمتعن بمركز سام فى الهيئة الاجتماعية ويغشين مجتمعات الرجال فيكسبنها روعة وبهاء ، كما كان حضورهن فى سائر الاجتماعات يدخل البهجة والسرور على قلوب الغرناطيين ، وتعزى روح الفتوة التى عرف بها عرب غرناطة إلى نفوذ المرأة ، فقد كان العربى الذى ينتظم فى صفوف الجيش أو يسير إلى حومة الوغى يرسم على ساعده قلباً أدمته سهام (الحب) أو نجماً يرشد السفين ، أو أول حرف من اسم حبيبته . وكان الفرسان يقدرون أيما تقدير الانتصار الذى يحرزونه فى ميدان البطولة بمرأى ومسمع من النساء اللواتى كن يشتركن معهم فى الرقص فى معظم الأحيان ؛ ويقال إنهن كن مشهورات بالقسامة والرشاقة وحدة الذكاء وطلاوة الحديث ، وكانت ملابسهن تتألف من الأثواب الغالية المصنوعة من الحرير أو الكتان أو القطن ، ويتألف أيضاً من الحزام والمنديل ، وفوق ذلك كان لهن ميل خاص إلى العطور بشذا الزهور . وكانت نساء الطبقة الراقية مغرمات بتزيين أنفسهن بالخزامى والزبرجد والزمرد والجواهر الثمينة الأخرى والحلى الذهبية والأحجار الكريمة ، وهكذا كنت تبصرهن فى أيام الجمعة كأنهن الأزهار المفتحة فى المروج الخضراء .

لباس الرأس للرجال

وقد أقصيت العمامة من لباس الجنود فى الأندلس منذ زمن طويل ، أما زى أهل بلنسية ، ولا سيما شرقى الأندلس ، فالغالب عليهم ترك العمائم وكثيراً ما كان سلاطينهم وقضاتهم يتزيون بزى النصارى . ويقول كاتب معاصر[1] إن عالماً مشهوراً بمرسيه دخل فى ذات يوم على السلطان وهو حاسر الرأس ، ويقول أيضاً : « إن ابن هود وابن الأحمر كانا بدون عمامة » .

كان القضاة فى المناطق الغربية كقرطبة وأشبيلية يلبسون العمائم ، « وهذه

(١) اسمه ابن سعيد وهو معاصر لابن الأحمر .

الأوضاع التى بالمشرق فى العمائم لا يعرفها أهل الأندلس ، وإن رأوا فى رأس مشرق داخل إلى بلادهم شكلا منها أظهروا التعجب » . وكثيرا ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم وأشرافهم بزى[1] النصارى المجاورين لهم ، فسلاحهم كسلاحهم ، وكذلك أقبيتهم وأعلامهم وسروجهم ومحاربتهم بالتراس والرماح الطويلة للطعن ، كما كانوا يلبسون فوق الدروع سترة قصيرة قرمزية مزركشة .

ويقال إن المسلمين الأسبان كانوا أشد خلق الله اعتناء بنظافة لباسهم وفراشهم وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وكان منهم من لا يملك غير ما يسد به رمقه ، ولكنه مع ذلك كان يطوى يومه صائما ليبتاع صابونا يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها .

نظرة عامة

قد عالجنا فيما تقدم شؤون قرطبة وغرناطة ، فلم يبق لدينا الآن غير الإلمام بالشؤون الإدارية ، ونوع الحكومة ، والأحوال الاقتصادية فى أسبانيا ، وكذلك مستوى الثقافة فى البلاد ونهضتها الاقتصادية .

الحكومة

كان السلطان هو الرئيس الأعلى للدولة ، وكان الوزراء كما كان الشأن فى الشرق ، يتولون إدارة الحكومة ، فقسموا الوزارة إلى أربعة أقسام اختص بكل واحد منها وزير ، وهم : (١) وزير المالية ، (٢) وزير الخارجية ، (٣) وزير إدارة القضاء والنظر فى حوائج المتظلمين ، (٤) وزير لإدارة الجيش ودفع رواتبه . ويظهر أن مستشارى السلطان كانوا يسمون أيضاً بالوزراء ، ولكنهم لأجل أن يميزوا الوزراء الذين كانوا يديرون شؤون الدولة عن أعضاء مجلس الخليفة كانوا يسمون الوزير من القسم الأول بالوزير ذى الوزارتين ، وكان كبير الوزراء يسمى « بالحاجب » وهو يتصل رأساً بالسلطان ، ويتلقى منه الأوامر ، وكانوا يجلسون فى إيوان واحد ، غير أن كرسى الرئيس كان أعلى من

---

(١) لعل القبعات كانت قلنسوات مصغرة الحجم ، وقد جاء فى قاموس دوزى « أن النويرى يقول بأن القلنسوة كانت مستعملة فى أسبانيا » .

كرامى بقية الأعضاء ، أما المستشارون الخاصون فكانوا كالوزراء يجلسون مع الخليفة فى إيوان الخلافة .

وكان ثمة وكلاء أو كتاب دولة من جملتهم كاتب الرسائل وكاتب الزمام ، وكان يعهد إليه العناية بالذميين ، وآخر يعهد إليه الإشراف على الحسابات العامة ويسمى « بصاحب الأشغال » ، وكان منصبه يعادل اليوم منصب « وزير المالية » ، إذ كانت وزارته تختص بقبض الدخل وفرض الضرائب وصرف النفقات ، وكان يسمى صاحب هذه الوظيفة فى مملكة غرناطة «بالوكيل » ؛ ولم يكن فى دولة غرناطة مناصب وزارية ، إذ كان يقوم الوزير بمهمة كتابة الرسائل ، بينما كان السلطان نفسه يوقع الرسائل ويختم المراسيم ، وفى عهد بنى الأحمر وبنى مرين كان عمل « صاحب الأشغال » مقتصرا على جباية الخراج .

القضاة — وكان منصب القضاء فى أسبانيا على جانب عظيم من الهيبة والوقار ، وكان قاضى القضاة يسمى « بقاضى الجماعة » .

الشرطة — وكان يسمى رئيس الشرطة فى الأندلس : كما كان يسمى فى الشرق « بصاحب الشرطة » ، ولكنه كان أوسع نفوذا فى قرطبة ؛ غير أنه أصبح فى عهد الملوك المتأخرين « ضابط شرطة » فحسب ، وكان يسمى الحاكمان « بصاحب المدينة » ، و « صاحب الليل » يرأسهما القاضى، أما « المحتسب » فكان يؤدى وظيفته على نحو ما يؤدونها فى مدن آسيا وأفريقيا ، فيتعين عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما كان يعزر ويؤدب ، ويراقب الغش والتدليس فى أمور المعيشة والمكاييل والموازين . وكان حراس الليل يسمون « بالدرابين » ، ومهمتهم إقفال أبواب المدينة الداخلية بعد صلاة العشاء ، وكانوا مسلحين دائماً ويحملون الفوانيس وتصحبهم كلاب الحراسة .

وكان القائد البحرى فى العصور الأولى يسمى « بأمير الماء » ، وقد أخذها

عنهم الفرنج والأسبان وحرفوها ، فقالوا « الميرانت » ، ثم أخذها عنهم العرب مشوهة باسم « الميلاند » وسمى هذا المنصب فى عهد عبد الرحمن الناصر وأخلافه بقائد الأسطول ؛ وكان الأمويون والموحدون يملكون أسطولا حربياً يبز جميع أساطيل الدول المسيحية فى النظام والاستعداد الحربى ، ولا شك أن اضمحلال سلطان العرب يعزى على الأغلب إلى ضياع تفوقهم البحرى ، كما أشار إلى ذلك ابن خلدون .

الزراعة

لم تتمتع أى دولة فى العالم بازدهار الزراعة كما تمتعت أسبانيا فى عهد العرب الذين ألموا بخواص الزراعة ، وجعلوا فلاحة الأرض علماً قائماً بذاته ، فاستطاعوا بأمثل الطرق والمهارة والعلم أن ينموا محصولاتها و يستخرجوا كنوزها ، كما عرفوا ملاءمة التربة والطقس لزرع النباتات المختلفة ، ولا ننسى أن نشير بهذا الصدد إلى أن الأسبان مدينون للعرب بإدخال زراعة الأرز وقصب السكر والقطن والزعفران والأسبيناغ ومختلف أنواع الفاكهة إلى أسبانيا التى اشتهرت بها فيما بعد ، وعنها أخذ الغرب هذه المزروعات ، كذلك استغلوا موقع كل منطقة وزرعوا فيها المزروعات الملائمة كأحراش النخيل فى ولاية بلنسية ، والأرز فى البوفيرا ، وقصب السكر والقطن فى أوليفا وكندية ؛ وكانت الكروم تبدو من أبدع ما تقع عليه العين فى شريش وغرناطة ومالقة ، بينما كانت أراضى أشبيلية والقسم الأعظم من أندلوسيا مزروعة بالزيتون ؛ وقد أقيمت فى كافة البلاد القناطر الكبيرة ، وحفرت الترع والمصارف العديدة لاستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية ؛ وكان صنع الفولاذ فى أسبانيا مشهوراً فى كافة أنحاء العالم ، أما سيوف غرناطة فكانت تفضل على غيرها لحسن صنعها و إتقانها ؛ كذلك يقال إن العرب أدخلوا فى أسبانيا صناعة الحرير والقطن والمنسوجات الصوفية ، ومهروا بالأخص فى الصباغة ، كما اخترعوا الصباغة بالنيلة ؛ ولا يخفى أن المزهريات التى لا تزال محفوظة فى قصر الحمراء والقراميد الزاهية التى تزين تلك العمارة الفخمة تنهض دليلا على إزدهار

صناعة الخزف . أما صادراتهم فكانت تشتمل على الذهب والفضة والنحاس والحرير الخام والمصنوع ، ودودة القز والزئبق وحديد الزهر ، والحديد والزيتون والمصنوعات الصوفية ، والعنبر وصمغ العنبر ، وحجر المغنطيس ، والإثمد والطلق والبلور والزيت والسكر ، ومعدن الكبريت والزعفران والزنجبيل والمر والأدوية الأخرى ، والصدف واللؤلؤ والياقوت المستخرج من مناجم مالقة وبيجا والجمشت (حجر كريم أزرق) المستخرج بالقرب من قرطجنة .

كذلك كانوا مشهورين على الأخص بدباغة الجلود والصباغة ، وتزيين الجلود بالنقوش البارزة ؛ وقد قضى على هذه الصناعة فى أسبانيا منذ خروج العرب ، ونقلت منها إلى فاس ، ثم إلى انكلترة حيث أطلق عليها اسم الموروكو ، كما أدخلوا فى أسبانيا صناعة البارود والسكر والورق .

الفنون الجميلة

لم يهمل العرب فى أسبانيا الفنون الجميلة ، ولا مشاحة أنهم فاقوا جيرانهم النصارى فى صناعة نحت التماثيل والتلوين ، وكانت قصور الخلفاء فى قرطبة وبالأخص الزهراء مزينة بالتماثيل والألوان الجميلة ، كما تشهد تماثيل السباع والأصباغ الباقية إلى الآن فى قصر الحمراء تطور هذين الفنيين فى غرناطة ؛ ولم تخل المدن الصغيرة الأسبانية من الكليات أو المدارس ، بينما كان للمدن الكبيرة الأخرى أمثال قرطبة ومالقة وأشبيلية وسرقوسة ولشبونة وجيان وسلمنقة جامعات تتمتع بمركز ممتاز فى جميع أنحاء العالم .

ومن جملة المؤرخين الذين تألق نجمهم فى سماء أسبانيا الإسلامية: ابن حيان[١] وابن العبار[٢] وأبو عبد الله البكرى ، وابن البشكوال (أبو القاسم خلف[٣] بن عبد الملك بن مسعود بن موسى) ، وابن السعيد (أبو الحسن على[٤]) ، والأشقندى

(١) ألف كتابين فى تاريخ أسبانيا واحداً فى عشر مجلدات والآخر فى ستين مجلداً .

(٢) توفى سنة ١٠٧٦ م .

(٣) ولد فى قرطبة سنة ١١٠١ م وتوفى سنة ١١٨٣ م .

(٤) ولد فى غرناطة سنة ١٢١٤م وتوفى سنة ١٢٨٦ — ١٢٨٧م ودرس فى أشبيلية .

(أبو الوليد إسماعيل من أهل أشقونده[1]) ، وابن الخطيب (لسان الدين[2]) .

أتينا فيما تقدم على ذكر شاعرات قرطبة وأديباتها ، ونستعرض الآن أسماء زميلاتهن فى غرناطة وهن : حسانة التميمية ابنــة أبى الحسن الشاعر المشهور ، وأم العلا التى تألق نجمها فى القرن السادس الهجرى فى وادى الحجارة ، وأمة العزيز وقد لقبت بالشريفة لشرف نسبها ، والغسانية من أهالى باجينة التى نبغت فى القرن الخامس ، والعاروزية وقد اشتهر اسمها وذاع صيتها فى بلنسيه فى البلاغة والنحو ، وتوفيت فى دينية سنة ٤٥٠ هـ ، وحمصة الراقونية المشهورة بقسامتها وحدة ذكائها ونبل محتدها وواسع ثروتها ، وقد تألق نجمها فى دولة الموحدين ، وابنة حمدون من أهالى وادى الحجارة وكانت من أشهر شاعرات عصرها ، وزينب المرابية من وادى عاش ، ومريم بنت أبى يعقوب الأنصارى من أشبيلية ، وكانت أديبــة شاعرة جمعت إلى حسن الصفات غزارة العلم ومتانة الأخلاق ، وعلى هذا اجتمع حولها كثيرات من طالبات العلم ، وقد توفيت فى أواخر القرن الرابع ؛ ومن جملة اللواتى تألق نجمهن أسماء العامرية من أشبيلية ، وأم الهنا بنت القاضى أبى محمد عبد الحق بن عطية الفقيهة المشهورة ، وبهجة من قرطبة وهى صديقة الولادة ابنة المستكفى ، وكانت قد اشتهرت بقسامتها ورقة شمائلها ؛ أما بثينة زوجة المعتمد وابنته فكانتا تحتلان أسمى مكانة بين العلماء والأدباء . ولعل هذا الوصف لأسبانيا المسلمة لايبدو كاملا مالم نضف إليــه أسماء الأطباء والفلاسفة الممتازين الذين ألقوا شعاعا ساطعاً على الأندلس وهم :

« أبو بكر محمد » بن يحيى الملقب بابن الصائغ المعروف بابن باجه وهو من سرقوسة ، وقد نبغ فى الطب والفلسفة والرياضيات والفلك ، وكانت له فوق ذلك دراية واسعة بالموسيقى ، وتوفى فى فاس سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) .

---

(١) توفى سنة ١٢٣١ — ١٢٣٢ م .

(٢) ولد سنة ١٣١٣ م وكان وزيراً ليوسف أبى الحجاج سابع ملوك غرناطة وقتل سنة ١٣٧٤ م متهما بالخيانة .

وابن طفيل (أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل) وكان من أشهر فلاسفة العرب فى أسبانيا ، ولد فى وادى عاش ، وتوفى فى مراكش سنة ١١٨٥ م واشتهر بالطب والرياضيات والفلسفة والشعر ، وكان أبو يعقوب يوسف ثانى ملوك دولة الموحدين ممن يعرف قدره ، والمأثور أن يعقوب المنصور بن يوسف وولى عهده اشترك فى تشييع جنازته ، ولعل كتاب « حى بن يقظان » الذى يعد أول كتاب فى الفلسفة الطبيعية هو أشهر كتبه على وجه الإطلاق .

وابن زهر ، وكان من أهالى أشبيلية من عائلة اشتهرت بالعلم والسياسة ، ونبغ منها الأطباء والعلماء والوزراء ، وحاز الكثير منهم مناصب رفيعة ، وتمتعوا برضاء الملوك ، وكان أكبر أطباء أبى يوسف يعقوب المنصور وتوفى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٩ م) .

وابن رشد[1] (أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد) ولد سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وقد شغل جده وأبوه منصب قضاء الأندلس فى دولة المرابطين ، وكان صديقاً حميا لأبى مروان بن زهر وابن طفيل ، وقد قدمه الأخير إلى « يعقوب بن يوسف » الذى عينه قاضياً لأشبيلية سنة ١١٠٩م ، وفى سنة ١١٨٢ عين قاضياً فى قرطبة ، وتوفى فى ٩ صفر سنة ٥٩٥ (كانون الأول سنة ١١٩٨) .

---

(١) يقول البارون كارا دى ڤو Carra De vaux فى مقاله عن ابن رشد فى دائرة المعارف الإسلامية : « إن الإعجاب بشروح ابن رشد كان عظيما حتى بين رجال الدين الذين كانوا يرون فى مذهبه خطراً يهدد العقيدة » . (المعرب)

الفصل الثانى والثلاثون

العرب فى أفريقيا

١٦٩ — ٥٦٧ هـ ؛ ٧٨٥ — ١١٧١ م

دولة الأدارسة — الأغالبة — غزو صقلية — احتلالها — سقوط دولة الأغالبة — الفاطميون — احتلال مصر — تأسيس القاهرة — احتلال الشام والحجاز واليمن — تدهور الدولة الفاطمية — انقراضها — محفل الإسماعيلية الأكبر

كانت الممتلكات الأفريقية إلى عهد المهدى ثالث الخلفاء العباسيين تعترف بسيادة الخلافة العباسـية . وفى عهد الهادى فر « إدريس[1] » حفيد الحسن الأول إلى المغرب ، وهنالك بمساعدة قبائل البربر الذين استجابوا له أسس مملكة قوية الدعائم ، ازدهرت حينا من الزمن فى أفريقية الشمالية ، كما ابتنى مدينة فاس وجعلها عاصمة ملكه ، فأصبحت مركزا مهماً للعلم والثقافة . ويقال إن الخليفة العباسى أرسل من[2] دس له السم ؛ فخلفـه ابنه الطفل إدريس تحت وصاية أمه والوزير غالب ، وقد برهن إدريس على أنه بطل شجاع قام بعـدة حروب فى الجنوب ، ويقول ابن خلدون : « إن الدولة العباسية كانت قد امتدت فى المغرب الأقصى من سوس إلى شلف » . ولمـا توفى فى سنة ٢١٣ هـ اعتلى ابنه محمد كرسى الخلافة ، ويلوح أن السياسة التى اتبعها فى إسناد مناصب الولاة إلى أفراد أسرته نجحت نجاحا باهراً ، إذ ظل جميع إخوانه — إذا استثنينا واحـداً منهم — موالين له إلى النهاية .

وفاة إدريس الثانى سنة ٢١٣ هـ

ولمـا توفى محمد سنة ٢٢١ هـ خلفه ابنه على وكان عمره تسع سنوات ، فبايعه

وفاة محمد

---

(١) إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . (المعرب)

(٢) إدريس الشماخ اليمامى مولى المهدى . (المعرب)

الجميع وأخلص له كبار الدولة ، وقد علق أحد المؤرخين المعاصرين على ذلك ، بقوله : « إن فى عهده حسنت حال الرعية » . وتوفى وله من العمر ٢٢ سنة دون أن يعقب ولدا ، فاعتلى أخوه « يحيى بن محمود » العرش . وفى خلال عهده الطويل انتشر سلطانه فى سائر أنحاء البلاد ، وتقدمت المملكة تقدما باهرا فى الثروة والرخاء ، وجملت مدينة فاس التى تدفق عليها الناس من جميع الأنحاء .

وفاة يحيي

وفى سنة ٢٦٤ ﻫ توفى يحيى وخلفه ابنه المسمى بهـذا الاسم ، وأدى ظلمه إلى نشوب اضطرابات انتهت بإقصائه عن الحكم ، ففر إلى الأندلس حيث لاقى حتفه . ولما عزل يحيى الثانى استولى على الملك من بعده ابن عمه « على بن عمر » الذى لم يبق فى الحكم مدة طويلة ، إذ اضطرته ثورة الخوارج على الفرار إلى الأندلس ، وعندئذ بايع أهل فاس يحيى حفيد إدريس الثانى بالخلافة ، وكان عالماً فقيهاً ملماً بالحديث فنجح مدى حين فى نشر سلطانه على الدولة الإدريسية القديمة ، غير أن حكمه انتهى بسرعة سنة ٣٠٩ ﻫ ، حيث طرده حاكم مكناسة الفاطمى فى السنة عينها ، فاعتزل الاشتغال بالمسائل العامة وعاش فى المهدية حتى توفى سنة ٣٣١ ﻫ . وبعزله انقرضت الخلافة الإدريسية فأدعى عمال الولايات البعيدة بالإمارة . وفى سنة ٣١٩ ﻫ أرسل عبد الرحمن الثالث حملة عسكرية على رأسها الناصر إلى أفريقية ، فاستولى على المغرب الأقصى ونفى معظم أمراء الأدارسة إلى قرطبة ، وهكذا سقطت مراكش الغربيـة فى أيدى خلفاء الأندلس بينما اعترف القسم الشرقى منها بسلطان الفاطميين .

بنو الأغلب

لا مشاحة أن مؤسس هذه الدولة هو «إبراهيم بن الأغلب» المشهور بحسن الإدارة وواسع الذكاء ؛ وقد ابتنى فى ضواحى القيروان مدينـة جديدة سماها بالعباسية وجعلها قاعدة لملكه ، وبلغت مدة حكمه اثنى عشرة سنة ؛ ولما توفى ولى بعده ابنه عبد الله ، فاستقامت له الأمور ، وتمتع الناس فى ظله بنعمة الطمأنينة

والعدل[1] ؛ وتوفى سنة ٢٠١ هـ فخلفه أخوه زيادة الله ، وكان طموح النفس حازما شجاعا محباً للعلم مكرما للعلماء ، ولكنه كان متكبراً مهملا لأمور الرعية فخرجوا عليه ، ولكنه بعد قتال عنيف مزق شملهم ووطد الأمن ثانية فى ربوع البلاد .

الاستيلاء على صقلية

لقد ظل فى قبضة العرب منذ عهد طويل قسم من جنوب صقلية ، ولم يبدأوا فى الواقع بإخضاع الجزيرة برمتها إلا فى عهد الأغالبة ، ففى سنة ٢١١ هـ أرسل (زيادة الله) جيشاً إلى صقلية على رأسه أسد[2] بن الفرات قاضى القيروان . وقد اختلفت الروايات المسلمة والنصرانية فى سبب هذا الغزو ، ففى الرواية النصرانية : « أن شابا بيزنطيا اسمه يوفميلوس غرر بإحدى الراهبات وأخرجها من الدير ، فحكم عليه الإمبراطور بقطع لسانه ، وفى الحال التجأ إلى المسلمين فى أفريقية وحرضهم على غزو الجزيرة » . ولكن ابن الأثير لم يذكر شيئاً عن الراهبة بل قال : « إن سبب إرسال الجيش هو أن ملك الروم بالقسطنطينية استعمل على جزيرة صقلية بطريقاً اسمه قسطنطين عام ٢١١ هـ ، فلما وصل إليها عين روميا اسمه فيمى قائداً على الأسطول ، وقد كان حازما شجاعا فغزا أفريقية وأعمل فيها يد النهب والتخريب ؛ ولكن ملك الروم لم يلبث أن كتب إلى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمى وتعذيبه ، فلما انتهى هذا الخبر إلى مسامعه شق عصا الطاعة ، وفى الحال سار إليه قسطنطين واقتتل الفريقان حتى حلت الهزيمة بقسطنطين الذى لم يلبث أن فر إلى مدينة قطانية ، وعندئذ زحف عليه فيمى بجيش كبير طفق يقاتله حتى قبض عليه وفتك به ، ثم نادى بنفسه ملكا على تلك الجزيرة ، كما استعمل على أحد أقسامها رجلا اسمه بلاطه لم يلبث هو الآخر أن شق عصا الطاعة مع ابن عم له اسمه ميخائيل حاكم مدينة بلرم ، فجمع الاثنان جيشاً لجباً وقاتلا فيمى وألحقا به هزيمة منكرة ، واستولى بلاطة على مدينة

---

(١) ابن الأثير .

(٢) وهو مصنف الأسدية فى الفقه على مذهب مالك . (المعرب)

سرقوسة ؛ ولـكن لم تمض مدة وجيزة حتى أرسل فيمى إلى الأمير زيادة الله يستنجده و يعده بملك جزيرة صقلية ، فسير معه جيشاً فى ربيع الأول عام ٢١٢ ﻫ فوصلا إلى مدينة « مازر » حيث تقابلا مع جمع حاشد من الروم ، ودارت بين الفريقين معركة هائلة أسفرت عن هزيمة الروم واستيلاء المسلمين على أموالهم ودوابهم » ، وعندئذ هرب بلاطة إلى قلورية حيث قتل بها واستولى المسلمون على عدة حصون فى الجزيرة وحاصروا سرقوسة ، غير أن وباء شديداً انتشر فى معسكر المسلمين فهلك به كثير منهم ، ومن جملتهم « أسد بن الفرات » الذى ولى مكانه محمد بن أبى الجوارى . وعند ما رأى المسلمون استفحال الوباء وانتصار الروم ، قصدوا تواً إلى مدينة « ميناو » واستولوا عليها عنوة ، فقويت بذلك شوكتهم ، ثم ساروا إلى مدينة « قصريانة » ومعهم « فيمى » الذى فتك به سكانها . ولـكن « محمداً بن أبى الجوارى » لم يلبث أن توفى وولى مكانه زهير بن غوث . وتقول لنا الرواية : إن الروم حاولوا يومئذ أن يطردوا المسلمين من الجزيرة فحاصروهم فى ميناو ، وما إن وصلت قوات جديدة إلى المحصورين من الأندلس وأفريقية حتى انسحب الروم إلى سرقوسة ، وزحف المسلمون فى رجب سنة ٢١٦ على بلرم واستولوا عليها عنوة . ويعد فى الواقع الاستيلاء على تلك المدينة بدء احتلال الجزيرة ، ومع أن قسما كبيراً منها أذعن بالتسليم للقائد العربى ، إلا أن الإدارة المنظمة لم تؤسس فيها إلا بعد أن وصل إليها حاكمها الجديد «أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله » من أسرة زيادة الله الذى فى عهده تم الاستيلاء على المناطق المجاورة لجبل أتنه (جبل النار) .

وفى عام ٢٢٣ ﻫ توفى زيادة الله وولى مكانه أخوه أبو عنان الأغاب ، وكان عهده عهد رخاء ، « فأحسن إلى الجند وأزال مظالم كثيرة ، وزاد العمال فى أرزاقهم » ، كما سير فرقة إلى صقلية واستولى على عدة معاقل على ساحل كلابريان فى جنوبى إيطاليا .

وفاة الأغلب سنة ٢٢٦ هـ

وفى سنة ٢٢٦ هـ توفى الأغلب بعد أن حكم البلاد سنتين وسبعة أشهر ، وولى بعده ابنه أبو العباس محمد ، وكان إداريا حازما مولعاً بالعمارة . وفى سنة ٢٢٨ هـ سار الفضل بن جعفر الهمدانى حاكم صقلية ، فنزل « مسينى » وبث السرايا وقاتل سنتين ، ولكنه لم ينجح فى فتحها لاعتماد أهلها على المساعدات التى كانت تردهم من نابولى ، ولكنهم سلموا أخيراً بشروط سخية . وفى سنة ٢٣٢ هـ استولى الفضل على مدينة لنتينى ، وتغلغل بجيشه فى الأرض الكبرى مكتسحا كلابريا وكامبانيا ، و بلغ عدد المدن التى فتحت عنوة أو قدمت طاعتها ١٥٠ مدينة ؛ وفى تلك الأثناء دخل أسطول العرب نهر التيبر وعاث تخريباً فى فاندى وضواحى روما ، وحاصر «غيطة» ، غير أن انقسام العرب وانشقاقهم حال دون استيلائهم عليها . وفى سنة ٢٣٣ هـ نزلوا مدينة « تارنتو » ، وفى سنة ٢٣٤ أخضعوا مدينة « راغوس » ، كما زحفوا فى سنة ٢٣٥ على روما ثانية فثارت زوبعة شديدة تغلبت على مهارة البحارة الأبطال وأنقذت مدينة البابا من أيدى العرب الذين تحطم أسطولهم على شواطئ الجزر والصخور الناتئة . وفى رجب سنة ٢٣٦ توفى أمير صقلية فى « بلرم » فولى الناس عليهم العباس بن الفضل وكتبوا إلى أمير أفريقية بذلك ، فلما قدم العهد إلى الوالى الجديد واصل غزوه بنشاط وحزم عظيمين ، فأخضع فى سنتى ٢٣٩ و ٢٤٠ هـ « قطانية » و « قلعة أبى ثور » وعدة مدن أخرى .

وفى سنة ٢٤٧ توفى «العباس» أمير صقلية فنادى السكان بابنه «عبد الله» حاكما عليهم وكتبوا بذلك إلى أمير أفريقية فأقره على الولاية ، ولكنه لم يلبث أن ولى مكانه خفاجه بن سفيان . وفى سنة ٢٥٠ هـ فتح العرب مدينة «نوطس» كما أخضعوا بعد بضع سنين « سرقوسة » التى قاومت ردحاً من الزمن ، كذلك استولوا على أبا ، وساتاس ، وقصر الجديد ؛ وفى سنة ٢٥٤ هـ حاصر « محمد بن خفاجه » مدينة غيطة وأخضع ضواحى مدينة روما . وفى سنة ٢٥٥ هـ توفى

خفاجه[١] وخلفه ابنه محمد فسير أسطولا إلى مالطة بقيادة أحمد بن عمر ، ولكنه لم يلبث أن قتل فى قصره فى ثلاثة من رجب سنة ٢٥٧ . ولأجل أن يستكمل البحث عن احتلال المسلمين لجزيرة صقلية يجب أن نلم بشىء عن الحوادث التى وقعت فى إمارة أفريقية منذ سنة ٢٤٨ هـ حيث توفى محمد وولى بعده ابنه أبو إبراهيم أحمد الذى حكم البلاد حكما مرضياً ، وقد كان عادلا عاقلا حسن السيرة حازماً ؛ ويقال إنه شيد عشرة آلاف حصن بالحجارة والآجر لصد غزوات الأعداء . وفى سنة ٢٤٩ هـ توفى « أبو إبراهيم أحمد » وتولى بعده « أبو محمد زيادة الله» وجرى على سنن سلفه ولم تطل أيامه فتوفى ، وكانت مدة ولايته أكثر من سنة ونصف سنة[٢] ؛ وولى بعده أخوه عبد الله ويقول فيه ابن الأثير : « إنه كان أديباً عاقلا عادلا حسن السيرة » ، وفى عهده تغلب الروم على مواضع من صقلية ، فشيد بها «محمد» كثيراً من الحصون والمعاقل ، ويقال إنه استولى على أرض تعرف بالأرض الكبيرة ، وتوفى أبو عبد الله محمد سنة ٢٦١ هـ وتولى بعده أخوه إبراهيم .

وقد عرف فى مستهل حكمه بالعدل والإحسان ، غير أنه أصيب أخيراً بمرض سفك الدماء فذبح أبناءه الأحد عشر مما أثار سخط الخليفة « المعتضد » عليه فعزله فى الحال وولى مكانه ابنه « أبا العباس عبد الله » الذى كان يحارب وقتئذ فى صقلية ، فعبر إبراهيم على أثر عزله إلى تلك الجزيرة واشترك فى محاربة الروم حتى وافته منيته بعد أمد قصير .

وقد كان « أبو العباس عبد الله » طيب القلب عادلا شجاعاً ذا مقدرة وكفاية فى إدارة شؤون الدولة ؛ ولكن ابنه « مضر » أغرى به من اغتاله

---

(١) يقول ابن الأثير ص ٤١ ج ٧ : « اغتاله رجل من عسكره إذ طعنه طعنة فقتله وهرب إلى سرقوسة » . (المعرب)

(٢) يقول ابن الأثير ص ٢١٣ ج ٦ : « كانت ولايته سنة واحدة وستة أيام » . (المعرب)

وبموته انتهى حكم تلك الأسرة على أفريقية . وتقول لنا الرواية العربية إن مضراً بعد أن حرض عبيده على الفتك بأبيه استسلم لضروب اللهو والاستمتاع فتردت البلاد على عهده فى مهاوى الدمار والخراب ، كما نشبت ثورة فى أفريقية الشمالية كان لها أكبر الأثر فى تغيير مجرى الحوادث التى وقعت فيما بعد فى تلك البلاد .

قيام الدولة الفاطمية

أتينا فيما تقدم على وصف الانشقاق الذى حصل بين الشيعة على أثر وفاة الإمام جعفر ، وقبول الأغلبية إمامة موسى الكاظم الذى كان قد أوصى به أبوه على أثر وفاة إسمعيل أكبر أبنائه ، فى حين كان البعض الآخر يتمسك بإمامة « محمد بن إسمعيل » الملقب بالمكتوم ، وقد أدخل الإسماعيليون على مذهبهم كثيراً من الآراء السرية التى أخذوها عن الفلسفة المانية ، وكانوا يرون أن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلا ، وكانوا يختلفون عن المسلمين فى اعتقاداتهم إذ يعتبرون العبرة بالإيمان وليس بالأعمال ، فسميت هذه الفئة المتطرفة من الإسماعيلية بالباطنية [1] ، وأثارت تعاليمهم السرية شكوك الخلفاء العباسيين فبثوا حولهم الأرصاد والعيون ونكلوا بهم شر تنكيل .

جعفر الصادق

ولما توفى محمد المكتوم خلفه فى الإمامة الإسماعيلية ابنه « جعفر الصادق » ، الذى بعد أن توفى خلفه ابنه محمد الملقب « بالحبيب » ، وكان رجلا عالى الهمة كبير الآمال والأطماع ذا مقدرة وكفاية وفيه شبه بالسفاح والمنصور ، وكان يقيم فى البلدة المعروفة « بالسلمية » من أرض « حمص » ، حيث كان دعاته فى كافة الأمصار يكاتبونه سرا ويبشرون بالآراء الإسماعيلية ، فانتشرت مبادئ تلك الجماعة بسرعة عجيبة فى اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر وأفريقية الشمالية ، وكان من أخلص دعاته وأكثرهم حماساً أبو عبد الله الحسينى الذى كان محتسب البصرة من قبل وعرف فيما بعد « بالشيعى » .

---

(١) قد تفرع من الباطنيــة قسمان : القرامطة والحشاشون ، ويسمى العرب القسم الثانى بالباطنية .

وفى سنة ٢٨٨ ﻫ توجه « أبو عبد الله » إلى أفريقية فقوى نفوذه بين البربر السريعى التأثر بخطبه العجيبة ، وشدة شكيمته وقوة إرادته فوق تقواه وتقشفه ، فانحازت إليه قبيلة كتامة القوية . وفى ذلك العهد كان يحكم أفريقية إبراهيم بن محمد فحاول قمع الحركة الإسماعيلية ، ولكنه فشل إزاء نشاط أبى عبدالله ، كما أن تولية « زيادة الله » الضعيف مهدت السبيل لنشر الدعوة . وفيما كان الحاكم الأغلبى « غارقا فى ملذاته كان نفوذ « أبى عبد الله » يقوى ويشتد فى البلاد ، كما كان دعاته يبشرون بقرب ظهور المهدى » ، وما هى إلا برهة حتى سيّر « زيادة الله » جيشين على أتباع « الشيعى » فالتقى الفريقان ، وبعد قتال شديد انهزم أصحاب « زيادة الله » الذى فر إلى طرابلس ومنها إلى آسيا[1] ، وكانت للسياسة الرشيدة التى أتبعها « عبد الله » أكبر الأثر فى استمالة العامة وتهيئتهم لاستقبال الإمام صاحب الدعوة .

عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين

وفى نهاية القرن الثالث الهجرى توفى « محمد الحبيب » ، وعند ما بايع ابنه « عبيد الله » خاطبه قائلا : « أنت المهدى المنتظر ، وستهاجر بعدى هجرة بعيدة وتلقى محنا شديدة » ، ولكن عبيد الله ظل برغم ذلك يعيش حياة هادئة فى بلدة « السلمية » حتى ضمن الشيعى مؤازرة قبيلة كتامة ، وبعث بالرسل إلى المهدى ليخبروه بما فتح الله عليه وبأنهم ينتظرونه ، فخرج عبيد الله فى الحال مع ابنه أبى القاسم وأبى العباس (أخى الشيعى) وبعض خاصته ومواليه متنكرين بزى التجار ، وبالرغم مما أحاط عبد الله به سفره من التكتم الشديد ، فقد تسرب الخبر إلى الخليفة العباسى الذى لم يلبث أن كتب إلى عماله بأوصافه وأمرهم بالقبض عليه وعلى كل من يشتبه فيهم ، وفى طرابلس ترك « أبو العباس » المهدى وتوجه إلى القيروان حيث اكتشف أمره فقبض عليه وزج فى السجن ، غير أن عبيد الله وابنه تمكنا من الفرار ووصلا سالمين سنة ٢٩٦ ﻫ إلى « سجلماسة »

---

(١) يقول ابن عساكر إنه توفى فى الرقة سنة ٢٩٦ ﻫ (٩٠٨ — ٩٠٩م) .

وهى مدينة على سفح جبل الأطلس ، وكانت عندئذ عاصمة بنى مدرار ، وهنالك تخلى عنهما الحظ ، إذ أن « اليسع » أمير سجلماسة بعد أن كان قد أحسن استقبالهما اعتقلهما على أثر وصول كتاب من « زيادة الله » ، فجهز « الشيعى » جيشاً كبيراً وزحف به على القيروان فأنقذ أخاه «أبا العباس» ، ثم أسرع إلى مقابلة اليسع[1]، و بعد أن قتله أسرع إلى المكان الذى فيه عبد الله هو وولده ، ثم أركبهما ومشى مع رؤساء قبيلة كتامة ، وطفق يبكى من شدة الفرح و يقول للناس : « هـذا مولاكم ! » حتى وصل إلى الفسطاط المعد لهما ، و بعد أن مكثوا أر بعين يوما «بسجلماسة» ساروا إلى «رقادة»[2] حيث بايعه أهل القيروان بالخلافة ، وانتشرت سيادته فى أفريقية ، واعترف به جميع أهلها باستثناء نفر قليل منهم ، واستعمل العمال على الولايات ومن جملتها صقلية ؛ فلما باشر الأمور بنفسه واستقامت له البلاد داخل أبا العباس الحسد بعد أن كان قد منى نفسه بأن يكون هو صاحب الأمر والنهى ، فسخط لفقده السلطة وأخذ يتآمر مع بعض رؤساء قبيلة « كتامة » على خلع الخليفة الفاطمى ، ولم يزل بأخيه « عبد الله » الخادم الأمين حتى استماله إليه فحاول « المهدى » أن يصالحهما ، غير أنهما رفضا التفاهم معه رفضاً باتا ، ولما تيقن من عزمهما على اغتياله أمر بهما فقتلا عند باب القصر ؛ ومع ذلك لم يحل قتلهما دون أن يواصل الغزو ، فقد تمكن من نشر سلطته على القسم الأعظم من صحراء ليبيا حتى المغرب الأقصى . و بالرغم من سعيه فى تدعيم الأمن وكبح شكيمة البربر الذين كانوا يؤلفون القسم الأعظم من الجيش ، فقد ارتكبوا أروع أعمال السفك فى أثناء قمع تلك الفتنة ، مما أدى إلى إثارة فتنة أخرى دعت المهدى بعد أن استقامت له الأمور إلى أن يفكر فى إنشاء عاصمة محصنة تحصيناً قويا خشية

المهدى

---

(١) يقول ابن الأثير ص ١٩ ج ٨ : إن اليسع هرب وأهله وبعد أن خرج المهدى ووصل إلى الفسطاط أمر بطلب اليسع فطلب فأدرك فضرب بالسياط ثم قتل . (المعرب)

(٢) يقول ابن خلدون إن رقادة على مسافة ثلاثة أميال من القيروان .

الخروج عليه ، فغادر تونس وأخذ يستطلع المواقع على الساحل ، وأخيراً انتخب موقعاً على لسان البحر ، وابتنى المدينة التى سماها المهدية ، إلا أنه لم يتم بناؤها إلا بعد خمس سنوات ؛ ويقال إنه شيد حول تلك المدينة سوراً قويا وجعل له أبوابا حديدية ، وبنى بداخلها القصور ذات السراديب الفسيحة التى اختزن فيها كميات عظيمة من المؤونة ، وبعد أن أكمل تشييدها خاطب نفسه قائلا : « إنى لأشعر الآن باطمئنان عظيم على مصير الدولة الفاطمية الناشئة » ، وكان حكمه شديداً حازماً ؛ وحتى السيوطى يقول فيه : إنه نشر العدل فى الناس فمالوا إليه . وفى سنة ٣٠٩ أخضع الدولة الإدريسية ، غير أنه فشل فى غزو مصر ، ولكنه مع ذلك وجه اهتمامه شطر أسبانيا فعاجله الموت قبل تحقيق أمنيته .

وفى سنة ٣٢٢ هـ توفى « عبد الله » وكانت ولايته أربعاً وعشرين سنة ، وخلفه ابنه « أبو القاسم محمد نذار » ولقب « بالقائم بأمر الله » ، وكان جنديا باسلا تولى بنفسه قيادة الجيوش ، وكان أول خليفة فاطمى شيد أسطولا قويا استطاع به أن يستولى على زعامة البحر الأبيض المتوسط ، وبعد أن وطد دعائم ملكه فى المغرب الأقصى — ما عدا منطقة فاس — حول بصره شطر أوربا ليوقف سير الغارات التى كانت تشنها على ثغور مملكته البحارة الإيطاليون من سكان لفريان وبيزا وبعض الموانئ الأخرى ؛ فاحتل جنوبى إيطاليا حتى مدينة جائيتا ، واستولى بسفنه الحربية على جنوه التى بقيت فى قبضة العرب ردحا من الزمن ، كما أخضع جزءاً من لومباردى (الأنكابوردة) ؛ ولولا نشوب الفتن الداخلية التى استنفدت جميع مصادره وجهوده الحربية لأخضع إيطاليا برمتها . ولسوء الطالع اشتد تذمر الناس من أعمال البربر الوحشية ، وتطور غضبهم إلى فتنة هائلة فى الوقت الذى كانت أوربا قد فتحت فيه أبوابها أمامهم ، وكان على رأس الفتنة أحد الخوارج واسمه « أبو يزيد مخلد بن كيراد[١] » ، وكان مدرساً

---

(١) يقول ابن الأثير (ص ١٦٤ ج ٨) : إن اسم والده كنداد . (المعرب)

وخطيبا مفوها استطاع بخطبه الرنانة وتعاليمه الشيقة أن يجمع حوله عددا كبيرا من البربر من جبال أوراس ، كذلك كاتب الخليفة الأندلسى ورغبه فى الزحف على أفريقية لسحق الدعى الفاطمى . وفى سنة ٣٣٣ هـ زحف أبو يزيد — الذى أطلق عليه أتباعه اسم « شيخ المسلمين » — من الجبال فى قوة كبيرة من القبائل المتوحشة ، وأوقع بالجيش الفاطمى هزائم منكرة ، ثم استولى عنوة على مدن القيروان مرتكباً فى ذلك أروع ضروب السفك ؛ وما انقضت مدة وجيزة حتى تحققت تنبؤات المهدى ، إذ وقع القسم الأعظم من البلاد فى قبضة الفقيه الثائر وأصبح نفوذ القائم وسلطانه مقتصرا على المهدية ، وقليل من المدن المحصنة على الساحل . وقد حاول أبو يزيد أن يستولى على العاصمة ، ولكنه كان يبوء بعد كل هجوم بالفشل المريع ، وأخيرا حاصرها حصارا شديدا حتى منع عنها المدد ؛ كذلك يقال إنه زحف على « سوس » لكى يستولى عليها عنوة .

وفاة القائم

وبينما كان « أبو يزيد » يضيق الحصار على « سوس » توفى « القائم » ، وخلفه ابنه « أبو الطاهر إسماعيل » الملقب « بالمنصور بأمر الله » ، وكان شابا قوى العزم شديد البطش ، فأنزل بالقبائل المتعصبة هزائم منكرة ، ولما كان هؤلاء لا يظهرون أية رحمة نحو أعدائهم فقد عاملهم بالمثل . أما أبو يزيد فلم يلبث أن فر إلى جبل « سالات » وهو جبل وعر صخرى قائم فى الصحراء ، ويستغرق اختراقه أحد عشر يوما ، فتعقبه « المنصور » وحاصره فى قلعة كتامة ، ودارت رحى القتال بينهما ردحا من الزمن . ويقال إن أبا يزيد حاول فى خلالها أن يفلت من الحصار عدة مرات ، غير أنه وقع أسيرا فى قبضة عدوه الذى فتك به فى الحال ؛ وبالرغم من أن ابن أبى يزيد وبعض أتباعه ظلوا مدة يثيرون الفتن والقلاقل ، إلا أن أفريقية برمتها أذعنت بالتسليم للحاكم الفاطمى كما اعترفت صقلية وقلورية بسلطة العرب .

وفى سنة ٧٢٩ م ولّى المنصور الحسنَ بن على ابن أبى الحسين الكلبى على

صقلية ، وظل هذا المنصب وراثيا فى أسرته ردحا من الزمن . ويقال إنه سير عدة سفن على الفرنج الذين كانوا قد توغلوا فى قلورية ، وأنزل بهم خسائر فادحة على سواحل إيطاليا ؛ غير أن المغرب الأقصى برغم تلك الانتصارات أفلت من يد المنصور ، وذلك أن الخليفة الأموى فى الأندلس انتهز فرصة نشوب فتنة أبى يزيد وقوض حكم الأدارسة فى تلك البلاد .

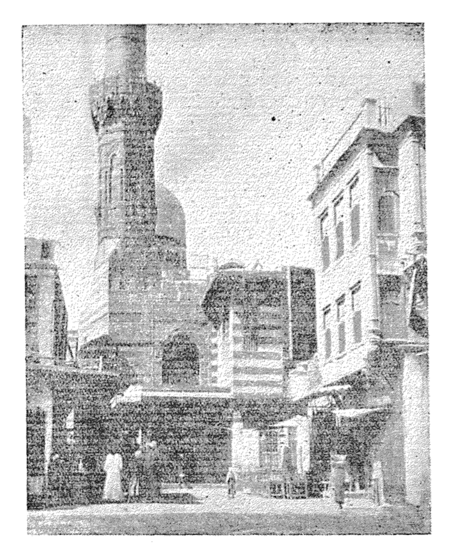
وفاة المنصور

وفى سنة ٣٤١ هـ توفى المنصور فخلفه ابنه «أبو تميم معد» الملقب «بالمعز لدين الله» ويصفه المؤرخون حتى أعداء أسرته بأنه حاكم شهم عاقل عظيم الهمة ، وكان عالما ملما بالفلسفة والعلوم ، ومحبا للعلم مكرما للعلماء ، ويمكن أن نسميه بمأمون المغرب وفى عهده بلغت أفريقية الشمالية شأوا عظيما فى المدنية ، فقد حسن حال الرعية ، ورد المظالم ، وقمع الفتن بيد من حديد ، ونظم شؤون الإدارة وسن القوانين ، وقسم الولايات إلى مناطق وعهد بإدارتها إلى الأكفاء وجهزهم بالجنود والشرطة لحفظ النظام ، وأعاد تنظيم الجيش والأسطول ، وشجع التجارة والصناعة ؛ وكان فوق ذلك شهماً لبقاً إلى حد كبير ، فاكتسب صداقة الزعماء الذين كانوا من ألد أعداء أبيه وجده ، وكان يستقبلهم استقبالا حافلا ، ويعاملهم بالعطف واللطف حتى أصبحوا من أعوانه المخلصين ؛ وفى تلك الأثناء استرد قائده جوهر « بلاد المغرب الأقصى » من الخليفة الناصر الذى كان منهمكا وقتئذ فى حروبه مع الثوار المسيحيين فى شمال أسبانيا ؛ كذلك سحق « زيرى بن مناد » رئيس صنهاجة الثائرين فى منطقتى أوراس وبوغيا ، وبذلك « توطدت دعائم سلطان المعز فى أفريقية والمغرب واتسعت رقعة دولته » . وفى سنة ٣٤٤ هـ استولت السفن الأندلسية على سفينة من سفن المعز كانت مقلعة إلى المغرب ، فسخط الخليفة الفاطمى ، وفى الحال أمر عامل صقلية « الحسن بن على » أن يقلع إلى الأندلس ويدمر ساحل المرية ، ولكن الناصر لم يقف مكتوف اليدين إزاء هذا التصرف العدائى ، فأمر جيشه أن يزحف على سوسة ومرسية ويعمل فيهما

يد التخريب والنهب ، وهكذا أصبح الملكان المسلمان عدوين لدودين بدلا من أن يوحدا صفوفهما و يخضعا أوربا برمتها . أما العرب الذين أخرجوا من قرطبة فكانوا قد استولوا على جزيرة كريت فى عهد المأمون واستوطنوا بها ونشروا فيها معالم المدنية حتى زهت فيها العلوم والصناعات . وفى سنة ٣٥٠ ﻫ نزل الروم على الجزيرة لاستردادها ، وكان عدد السفن التى نقلتهم سبعمائة سفينة ، فاقتتل الفريقان ، واستبسل المسلمون ولكن دون جدوى ، فمزق الأعداء جموعهم وتغالوا فى السلب والاغتصاب ، وارتكبوا أروع ضروب السفك ؛ و يقال إنهم كانوا يلقون على الرجال سائلا من القطران ثم يحرقونهم وهم أحياء ، كما كانوا يذبحون الأطفال والنساء على حد سواء من غير ما شفقة ولا رحمة ؛ غير أن العرب استعاضوا عن ضياع أفريقية بالقضاء على سلطان الروم فى صقلية ، فزحف « أحمد ابن الحسن » حاكم الجزيرة على بقية الحصون التى كانت بأيدى الأعداء ، وأوقع بالجيش الذى أرسل لإنقاذ حاميتهم شر إيقاع حتى اضطرهم إلى الفرار بسفنهم ، غير أنهم مع ذلك ما كادوا يرفعون الشرع و يتأهبون للرحيل حتى باغتهم العرب وأعملوا السيف فى رقابهم ومزقوهم شر ممزق ، فأغرقوا البعض ، وقتلوا البعض الآخر ، وبذلك أذعنت الجزيرة نهائيا بالتسليم فى سنة ٣٥١ ﻫ ، وتمتعت بما لم تتمتع به فى عهد الأمراء الكلبيين من السعادة والاستقرار ؛ فشيدت الجوامع والمدارس والكليات ، وشجعت العلوم والفنون ، كما أخذت جامعة الطب فى بلرم تضارع مثيلاتها فى قرطبة و بغداد .

مصر

وفى سنة ٣٥٦ ﻫ عصفت بمصر ريح الاضطرابات فكتب بعض أشرافها إلى الخليفة المعز يدعوه إلى فتح مصر لتوطيد الأمن و إقامة العدل ، فبعث قائده المشهور جوهر (الصقلى) فى جيش كبير فدخل القائد الفاطمى الفسطاط دون مقاومة . وفى ١٥ شعبان سنة ٣٥٨ ﻫ قرئت الخطبة باسم المعز على منابر المسجد الجامع . وفى سنة ٣٥٩ ﻫ أمر جوهر بأن يؤذن « بحى على خير العمل »



أحد شوارع القاهرة

وتوطدت دعائم الحكم الفاطمى كما أمر بتشييد مدينة القاهرة التى أصبحت فيما بعد عاصمة دولة المعز وأخلافه ، وأخضع الحجاز والشام وقرأ الخطبة باسم المعز فى الحرمين الشريفين ، وسحق القرامطة الذين كانوا أداة تخريب وفساد فى معركة واحدة بالقرب من الفسطاط . وكان المعز إلى ذلك الحين مقيما فى أفريقية ولكنه تلبية لطلب قائده جوهر عزم على السفر إلى مصر ، وقبل أن يقدم على ذلك قام بالطواف فى ملكه الشاسع ، وعين « بلوكين بن زيرا » والياً على أفريقية ولقبه باسم « سيف الدولة » ، ثم أقر « أحمد » على ولاية صقلية ، و بعد أن اتخذ كل التدابير لإدارة شؤون أفريقية الشمالية توجه إلى الشرق فى صفر سنة ٣٦٢ ودخل

القاهرة فى شهر رمضان ، وفى ١٥ منـه جلس على العرش الذهبى وتقبل بيعة أشراف مصر والشام والحجاز . غير أن القرامطة كان قد اشتد ساعدهم فى ذلك الحين برغم الهزيمة التى أوقعها بهم « جوهر » وقد كانت دمشق مهداً لتلك الفتن والاضطرابات ، ويقال إنهم ثاروا على نائب الخليفة الفاطمى وانتزعوا منه الشام ثم قتلوه وزحفوا على مصر ، فلقيهم جيش المعز فى موقع يعرف بعين شمس (هليوبوليس الجديدة) وأوقع بهم شر إيقاع ، ومنذ ذلك الحين لم تقم لهم أية قائمة . وبينما كانت الجيوش الفاطميـة منهمكة فى الحروب مع القرامطة نادى أحد مماليك « بنى بويه » معز الدولة واسمه « أفتكين » بنفسه سلطاناً على دمشق وما جاورها .

وفاة المعز وتولية العزيز بالله

وفى يوم الجمعة ١٥ ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ توفى المعز فخلفه ولده «أبو منصور نذار » الملقب « بالعزيز بالله » ، ويصفه المؤرخون بأنه كان كريماً شجاعا حكيما شهماً ميالا للتسامح حتى مع أعدائه . فأقر « بلوكين بن زيرا» والموظفين الآخرين الذين عينهم والده فى مناصبهم ، وألحق « بأفتكين » الذى حاول نشر سلطانه فى فلسطين وسواحل فينيقية هزيمة شديدة وأسره ، ولـكنه عفا عنه وعامله معاملة حسنة بحيث أصبح تابعاً مخلصا للخلافة الفاطمية حتى وافته منيته .

وفى عهد « العزيز » استولى الفاطميون على الشام وقسم من الجزيرة وأخذت تقرأ الخطبة باسمه ، ليس فى الحجاز فحسب بل فى اليمن والموصل وحلب وحماه وبعض المدن الأخرى ، فامتدت حدود الدولة الفاطمية من الفرات شرقا إلى المحيط الأتلانطيق غربا ، واشتملت كذلك على القسم الأعظم من جزيرة العرب . وكان الجيش الفاطمى منـذ نشأته حتى عهد « المعز » يتألف من المغاربة الذين قامت على كواهلهم تلك الدولة ، ويظهر أنه عظم نفوذهم ، ولما أراد العزيز أن يحول دون تسيطرهم ، أنشأ فرقة من الأتراك والديلم .

وفاة العزيز

وفى سنة ٣٨٦ هـ توفى العزيز فى مدينة بلبيس[1] فى طريقه إلى الشام ، وبموته انتهت عظمة الدولة الفاطمية . وكان قد أوصى قبل موته قاضى القضاة « محمد بن النعمان » « وأبى محمد حسن بن عمار » الملقب « بأمين الدولة » بأمر تربية ولده وتثقيفه . وبويع المنصور بالخلافة والإمامة ولقب «بالحاكم بأمر الله»

الحاكم بأمر الله

ولكنه لم يلبث أن وقع تحت نفوذ شخص طموح الفؤاد ميال إلى المؤامرات اسمه «برجوان» فاشتدت المنافسة بينه وبين «ابن عمار» ، وأخذ كل من الفريقين يتحين الفرص للإيقاع بخصمه . فاختلت الأمور فى مصر والشام ، ولم يمض سوى قليل حتى ظهرت على الحاكم[2] عوارض الجنون ، إذ كثيراً ما أصدر الأحكام الغريبة المتناقضة ، وكان أقل إهمال يعرض المذنب إلى عقوبة القتل ؛ وبمضى الزمن استحال هذا الشذوذ إلى شغف حاد بسفك الدماء ، فقتل عدداً كبيراً من كبراء الدولة من غير ما سبب ، ولكنه فى لحظات صفائه كان جواداً سمحاً محباً للعلم ، فشيد عدة جوامع وكليات ومراصد فى مصر والشام ، وقد حكم البلاد ٢٥ سنة ، وهو على هذا النحو من اضطراب العقل ، غير أن هذه النزعات قضت عليه ؛ والمعروف أنه شغف بالوحدة والطواف بالليل ؛ وكان يقصد غالباً إلى جبل المقطم ليرصد النجوم ويستطلعها أو يجوب الفضاء الواسع طلباً للوحدة والتنسك ،

---

(١) وهناك رواية أخرى هى أن العزيز توفى بالقاهرة قبل خروجه إلى الشام . (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢١) . (المعرب)

(٢) يصفه ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠ : « إن حاله كان مضطرباً فى الجور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة » . ويصفه ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ بأنه « كان جواداً سمحاً ، خبيثاً ماكراً ، ردىء الاعتقاد ، سفاكا للدماء ، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً ، وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها . أما ميللر Miller فيقول : « إن هذه التصرفات ليست كلها تنم عن الحماقة ، وإذا كنا لا نستطيع أن نعلل كل أعماله فليس ذلك مما يحملنا على أن نعتبر تصرفاته فورة أهواء مستبد . ولا سيما ونحن نراها فى نواح أخرى سليمة معقولة » . ويقول دوزى : « ولقد أراد الحاكم أن يكافح الانحلال الشامل الذى سرى إلى مجتمع عصره بقوانين بوليسية صارمة وأحياناً غريبة شاذة » . (المعرب)

وفى ذات ليلة فى ٢٧ شوال سنة ٤١١ ذهب كعادته إلى الجبل ومعه ركابيان ، وبعد أن صرفهما عند سفح الجبل ، سار متوغلا فى شعب المقطم[1] ولكنه لم يعد قط ، فأثار اختفاؤه هلعاً وخرج الناس للبحث عنه ، ولكنهم لم يجدوا فى أعلى الجبل غير حمار الحاكم معرقباً ، وعلى بعد مسافة قصيرة منه عثروا بثيابه وفيها أثر الطعان ، غير أنهم لم يعثروا على جثته فعندئذ أيقن الناس باغتياله .

كان الحاكم المؤسس الحقيقى لمذهب جديد يدور حول شخصه ، فكان يدعى تجسم الإله فى شخصه ، وقد اعتقد أتباعه ودعاته بأنه اختفى مؤقتاً ليظهر ثانية متى أراد ، ولا يزال دروز[2] جبل لبنان يؤمنون بهذه العقيدة .

وبعد وفاة الحاكم ولى ابنه أبو هاشم[3] على ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله ، وكانت عمته « ست الملك » الوصية عليه فى السنوات الأربع الأولى من حكمه ، وبعد وفاتها استولى على مقاليد الدولة « ميزاد » و « نافر » ، وفى عهدهما فقدت الدولة الفاطمية الجزء الأكبر من الشام ، واستقل أحد أمراء العرب واسمه « صالح بن مدراس » بحلب وما جاورها . وتوفى الظاهر وعمره ٣١ سنة ، وكانت

---

(١) أخذ كثير من المؤرخين بالرواية العامة القائلة باتهام ست الملك التى كان قد هددها بالقتل لسلوكها المريب ، غير أن المقريزى يأبى أن يأخذ بتلك الرواية ويقول : « إنه فى سنة ٤١٥ هـ قبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الأعلى فأقر أنه قتل الحاكم بأمر الله فى جملة أربعة أنفس تفرقوا فى البلاد غيرة لله وللإسلام » . (المعرب)

(٢) نسبة إلى محمد بن إسمعيل الدرزى . ويقول لنا ابن العميد « إن الدرزى أول من أذاع الدعوة بألوهية الحاكم » وقد شرح دعوته وأصول مذهبه فى رسالة قدمها إلى الحاكم فقربه إليه ، واشتد نفوذه وسمى الدرزى نفسه « بسند الهادى » و « حياة المستجيبين » . وتقول دائرة المعارف الإسلامية فى مقال الدرزى ما يأتى : « وفى رسائل الدروز السرية ما يشعر بأنه قتل فى سنة ٤١٠ هـ بتحريض حمزة ، وقتل معه عدة من الدعاة الخوارج » . وجاء فى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤ : دبر الحاكم للدرزى سبيل الفرار فسار إلى الشام ونزل ببعض قرى بانياس وأذاع فى الناس دعوته فكانت أصل مذهب الدروز الشهير الذى سمى باسمه (وأساسه القول بالتناسخ وحلول الروح وأن الروح القدس انتقلت من آدم إلى على بن أبى طالب ، ثم انتقلت روح على إلى الحاكم بأمر الله) . (المعرب)

(٣) ذكر ابن الأثير ص ١٣١ ج ٩ أن اسمه أبو الحسن على . (المعرب)

خلافته ست عشرة سنة . وولى بعده ابنه أبو «تميم معد» ولقب «بالمستنصر بالله» وعمره سبع سنين فوقعت الحكومة فى أيدى جماعة من المتآمرين ، فاضطرب حبل الأمن بسبب سوء الإدارة . وفى سنة ١٠٤٧ م انفصل الحجاز عن الخلافة الفاطمية ، كما أوقف صاحب أفريقية المسمى «بالمعز بن بادس» والملقب «بشرف الدولة» الدعاء للخليفة «المستنصر» ، وجعل الخطبة للخليفة العباسى ، غير أن ثورة «البساسيرى» وفرار «القائم» من بغداد أديا إلى الخطبة «للمستنصر» لمدة سنة فى العراق وتوابعها حتى قام «طغرلبك» وأعاد السيادة الدينية للخلافة العباسية فى أسيا الغربية ، واستطاع السلاجقة فى عهد «ألب أرسلان» — خليفة طغرلبك — طرد الجيوش الفاطمية إلى ما وراء العريش ، كما عصف فى ذلك الحين بمصر ريح قحط شديد استمر سبع سنين حتى زاد فى نكبة الأهلين ، وتوقف بذلك دولاب الإدارة وهاجر معظم الناس وتحولت البلاد إلى خراب بلقع.

ولما ضاق «المستنصر» ذرعا بالإدارة استقدم (بدرًا الجمالى) حاكم عكا وأطلق يده فى جميع الأمور ، فبرهن «بدر» على أنه منقذ البلاد الحقيقى ، فأعاد النظام فى البلاد واطمأن الناس تحت حكمه العادل ووطد سلطة الخليفة فى أنحاء مصر ، ولكنه عجز عن استرداد دمشق و إن كان قد أخضع الموانئ الفنيقية ، وتوفى سنة ١٠٩٤م ومات المستنصر بعده بشهر واحد بعد أن اقى شدائد وأهوالا حتى أصبح لا يملك غير السجادة التى يجلس عليها . وكان المستنصر قد أوصى بولاية العهد لابنه الأكبر نزار[١] فخلعه «الأفضل بن بدر الجمالى» الذى خلف أباه فى الحكم وبايع بعرش الخليفة «أخا نزار» الأصغر «أبا القاسم أحمد» الملقب «بالمستعلى بالله» ، فهرب نزار إلى حاكم الإسكندرية الذى بايعه بالخلافة

(١) يقول لنا ابن الأثير ص٩٨ ج ١٠ : «إن الحسن بن الصباح رئيس الطائفة الإسماعيلية قصد المستنصر فى زى تاجر وخاطبه فى إقامة الدعوة له ببلاد العجم ، وقال للمستنصر : من إمامى بعدك ؟ فقال ابنى نزار ؛ وهو أكبر أولاده ، والإسماعيلية إلى يومنا هذا يقولون بإمامته» .
(المعرب)

فسار إليه الأفضل وحاصر المدينة وأسرها ، ثم أمر بقتل الحاكم ولم يعرف بعد ذلك ما حل بنزار[١] . وفى سنة ١٠٩٦ م استولى الأفضل على القدس التى كان يحكمها « بنو أرتق » التابعين لملك دمشق السلجوقى ، غير أنه لم يلبث إلا مدة قصيرة حتى عصفت الريح الصليبية ثانية بالشام وفلسطين وقوضت دعائم الحكم السلجوقى والفاطمى ، وتوفى المستعلى فى صفر سنة ٤٩٥ هـ ، فبايع الأفضل — حاكم الدولة الفاطمية الفعلى — ابن الخليفة المتوفى أبا على المنصور ولقب « الآمر بأحكام الله » ، وقام الأفضل بتدبير الدولة وحكمها حكما مطلقا حتى بلغ الآمر بأحكام الله سن الرشد ، وكان عهده عهد أمن ورخاء ؛ وبالرغم من الانتصارات التى نالتها الجيوش الفاطمية على أيدى ابن الأفضل الملقب « بشرف المعالى » فقد انتزع الصليبيون من مصر الموانئ الفنيقية التى كان الجمالى قد استولى عليها.

وعند ما بلغ « الآمر » سن الرشد أساء السيرة وانغمس فى الملاذ ، ويصفه المؤرخون بأنه كان محبا للهو والطرب يميل إلى الاستبداد طموحا للفخار مهملا مهام الدولة ، ولأجل أن يتخلص من وزيره أمر بقتله ، غير أنه بعد تسع سنوات لاقى حتفه هو الآخر على أيدى بعض الفدائيين (الحشاشين[٢]) الذين دبروا اغتياله .

أبو الميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله

ولما كانت زوج « الآمر » على وشك الوضع فقد أسندت مقاليد الحكم مؤقتاً إلى أبى الميمون عبد المجيد ولقب « بالحافظ لدين الله » ، غير أنها وضعت ابنة فبويع الحافظ بالخلافة ، ولكنه لم يلبث أن حجر عليه وزيره أبو على أحمد ابن الأفضل المعروف بطموح النفس والكفاية النادرة وقوة الشكيمة ، وكان من شيعة الأئمة الاثنى عشرية ؛ فلأجل أن يصبح الحاكم المطلق فى مصر من

---

(١) يقول البعض إنه قتل سرا غير أن الفئة الإسماعيلية الشرقية تدعى أنه فر إلى آسيا وأصبح الجد الأصلى لأئمة الإسماعيلية فى قلعة آلاموت .

(٢) يسميهم ابن الأثير بالباطنيين .

جهة ولأجل أن يشبع أغراضه الطائفية من الجهة الأخرى أمر بأن يستبدل اسم الخليفة الفاطمى على السكة باسم الإمام الطفل الذى كان قد اختفى فى أحد سراديب سامراء وألقيت الخطبة باسمه أيضاً ؛ غير أن الحافظ وهو فى سجنه أغرى بالوزير من قتله فى ١٥ محرم سنة ٥٢٦ ﻫ فى البستان الكبير خارج العاصمة .
وعلى أثر اغتيال « أبى على أحمد » استقامت أمور « الحافظ » ، غير أن البلاد لم تجن ثمرة من استرداد سلطته ، إذ كان سيئ الخلق خاضعاً لوزيره أمير الجيوش « يانس الحفيظى » الذى كان عظيم الهيبة بعيد الغور كثير الشر ؛ ويقال إن الحافظ احتال على قتله فى ذى الحجة سنة ٥٢٦ ﻫ واستوزر مكانه أرمنيا اسمه « بهرام » . وأدى التنافس بين « بهرام » و « رضوان » أحد رؤساء الدولة إلى نشوب الفتن والمنازعات ، فأمر الحافظ بإلقاء القبض على بهرام وحبسه ثم استوزر رضوان الذى لم يلبث أن خرج عليه ، غير أنه قتل فى المعركة التى دارت بينه وبين جنود الخليفة . وقد أدى سلوك هؤلاء القواد إلى أن يستولى الخليفة بنفسه على مقاليد الحكم ويصرف أمورها كيف شاء دون أن يستوزر أحداً حتى توفى سنة ١١٤٩ م ، وفى أواخر عهده لم يعد للخلافة حول ولا طول ، وطفق زعماء العاصمة يتنازعون على السلطة . ويقول ابن الأثير : « إنه كان ضعيفاً منقاداً لبطانته ووزرائه » . ولما توفى ولى مكانه أبو المنصور إسمعيل ولقب بالظافر بأمر الله ، وكان مستسلماً للهو ، منغمساً فى الملذات يقضى أوقاته فى مصاحبة الندماء ، تاركاً حبل الأمور على غاربها لوزيره أبى الحسن على الملقب بالملك العادل ، ولكن ربيبه (ابن زوجه) قتله سنة ١١٥٣ م وولى الوزارة بعده . ويقول ابن الأثير فى الخلافة المصرية : « كانت الوزارة فى مصر لمن غلب ، والخلفاء وراء الحجاب ، والوزراء كالمتملكين ، وقلّ أن وليها أحد بعد الأفضل إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك » . ولم تعد سلطة الحكم تمتد خارج قصر الخليفة ، كما أدت كثرة المنافسات وشدة الخصام وانتشار الفوضى فى القاهرة التى أصبحت ميداناً فسيحاً

لأروع السفك إلى انحلال الدولة وانقراضها . وكان المصريون إلى ذلك الحين يملكون « عسقلان » غير أن الصليبيين لما رأوا ضعف المصريين وانقسامهم على أثر قتل « الملك العادل » اغتنموا هذه الفرصة وفتحوها عنوة . وفى محرم سنة ٥٤٩ هـ اغتال نصر بن عباس « الخليفة الظافر » ؛ ولأجل أن يرفع الوزير الخائن الشبهة عن نفسه وعن ولده « نصر » قتل أخوى الظافر وهما « جبريل » و « يوسف » بتهمة اشتراكهما فى اغتيال الخليفة ، ثم أجلس القاسم عيسى بن الظافر ولقب « بالفائز بنصر الله » محاولا بذلك أن يحكم البلاد حكما مطلقاً ، ولكن القدر لم يمهله طويلا إذ علمت أخوات الظافر بخبر الجريمة ، فأرسلن إلى « طلائع بن رزيك »[1] حاكم مصر العليا شعورهن طى كتاب يستغثن به ، فزحف طلائع على القاهرة فى قوة كبيرة من الجند وعرب البادية بأعلام وثياب سود حزناً على الظافر ، ولما هجر الجيش الوزير العباس وابنه ناصر فر الاثنان بثروتهما إلى الشام وكان يصحبهما الأمير أسامة وعدد كبير من الحاشية ، وكانت أخوات الظافر فى ذلك الحين قد أرسلن إلى الصليبيين فى عسقلان يعرضن عليهم مالا كثيراً مقابل القبض على العباس وابنه ، فطمع الفرنج بالجائزة وخرجوا من القلعة للقبض عليهما ، فدارت معركة شديدة بين الطرفين قتل فيها العباس وكثير من أتباعه وأسر « الناصر » ، وعندئذ وضعوه فى قفص من حديد وأرسلوه مخفوراً إلى القاهرة حيث عذب ثم قتل وصلب ، ولم يلبث أن استقر « طلائع » فى دست الحكم وخلع عليه خلع الوزارة كما لقب « بالملك الصالح » وعين وصيا على الخليفة الطفل .

وفاة الفائز

توفى الفائز قبل بلوغه سن الرشد ، غير أن الوزير بدلا من أن يولى أحد أفراد الأسرة المالكة الكبيرى السن — وهم كثيرون وقتئذ — اختار محمد عبد الله بن يوسف أخا الظافر وبايعه بالخلافة ولقب « بالعاضد لدين الله » ، وكان

(١) كان من أصل أرمنى .

صغير السن فقبض الصالح على زمام الحكم بيد من حديد واستبد بالأمر والنهى ولكن لم يمض سوى قليل حتى قتل[١] بدسائس القصر حسب قول ابن خلدون ولكن فى رواية المقريزى « أن أحد الباطنية اغتاله فى سنة ١١٦١م » . فخلفه ابنه « العادل رزيك » ، ولم يمض طويل وقت حتى تغلب عليه « شاور » وقتله . إلا أن « شاور » لم يمكث طويلا فى الوزارة حتى نازعه فيها « ضرغام » من بنى سعد « صاحب الباب » ، وهى وظيفة تشبه وظيفة « الحاجب » فى البلاط العباسى ؛ ففر شاور إلى نور الدين محمود سلطان دمشق واستنجد به ، فعاد على رأس جيش بعث به « ابن الزنكى » فقتل ضرغام فى الموقعة التى دارت بينه و بين جنود الشام و بعدئذ نصب شاور وزيراً . وتوفى العاضد سنة ١١٧١ م وانقرضت بوفاته الدولة التى أسسها عبيد الله المهدى .

تأسيس القاهرة

وضع جوهر أساس القاهرة فى ٢٤ جمادى الثانية سنة ٣٥٩ هـ (١٤ آيار سنة ٩٦٩ م) ، وقد تم بناء السور المحيط بها قبل وصول الخليفة المعز ، وشيدت العمائر الفخمة على كلا الجانبين فأكسبت مدينة القاهرة رونقا وفخامة وأنشئت فيها الطرق والشوارع التى كانت تسمى قبلا بالحارات ، وهى تؤدى إلى الضواحى والأخطاط . أما قصر الخليفة و يقع فى الجانب الشرقى من القاهرة فكان يتألف من اثنى عشر بهوا ، وسمى بالقصر الكبير الشرقى أو القصر المعزى ، وكان له عشرة أبواب يحرسه ١٥٠٠ جندى رجالة ومثلهم من الفرسان ، وكان يبلغ عدد الخدم والحشم اثنى عشر ألفا ، وكان ثمة نفق تحت سطح الأرض يؤدى إلى قصر فخم على الضفة الأخرى من النهر و يسمى بالقصر الغربى أو قصر البحر ، كما كان للخليفة عدة قصور فخمة ودور فى المدينة وضواحيها مزينة بأحسن زينة . وكانت قصور الأمراء لا تقل عنها فخامة وبهاء ، وكانت الحدائق الغناء تحيط بمنازل الأغنياء

---

(١) ثم إن الصالح زوج ابنته من العاضد فعاداه أيضاً الحرم فأرسلت عمة العاضد الأموال إلى أمراء المصريين ودعتهم إلى قتله . (المعرب)

والأثرياء ، ويلوح أن جمال هذه الحدائق وكثرتها وفخامة المنازل أثارت إعجاب السياح العربيين الذين كانوا يؤمون القاهرة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر[١] ، إذ كانت الجوامع والكليات والمستشفيات والعمارات الهائلة تزيد فى جمال المدينة وفخامتها ؛ كذلك كانت الجوامع الأربع الكبرى بالغة حد العظمة والجمال ؛ وكان من أهم عمائر القاهرة فى عهد الفاطميين « الحسينية » وهو بناء فسيح الأرجاء تقام فيه ذكرى مقتل « الحسين » فى موقعة كربلاء ؛ كما شيدت الحمامات العامة الجميلة فى كافة أنحاء المدينة ، وخصص بعضها للنساء والبعض الآخر للرجال ؛ وكانت أسواقها تشتمل على عشرين ألف حانوت ملآنة كلها بشتى المنتوجات . كذلك كان يحيط بالمدينة سور متين عليه عدة أبواب[٢] .

ومن أهم الألعاب التى كان الأشراف والأعيان يتلهون بها صيد الغزال على أنواعه كما كان الفلاحون يتلهون بصيد الأسماك . وكانت الإدارة تسير على نمط الإدارة العباسية [٣] ، ولم يكن ثمة فرق بين النظامين غير منصب قائد الجيوش العام الذى كان يجمع إلى قيادة الجيش منصب الوزارة . ويقال إن اضمحلال الدولة الفاطمية بدأ منذ عصر المستنصر ، إذ حلت المؤامرات محل السياسة ، وانحطت الأخلاق انحطاطا عظيما حتى أصبحت المؤامرات كافية لرفع المرء إلى أعلى مناصب الدولة ، كما استبدل طلاب العلم والعلماء بالمخبرين والجواسيس ، وحل التملق

---

(١) كتب جهان تينود الدكتور فى اللاهوت وأستاذ فى الفنون الذى صحب أندرى لروا رسول الملك لويس الثانى عشر إلى السلطان الغورى ، وصفاً شيقاً عن القاهرة وحدائقها وقصورها .

(٢) ومن أهمها باب النصر وباب الفتوح وباب القنطرة وباب زويلة وباب الخليج .

(٣) كان الموظفون قسمين : رجال السيف ورجال القلم ، أما رجال السيف فمن جملتهم الوزير عادة ، والحاجب وهو يلى الوزير فى المرتبة وقائد الجيوش العام ، وحامل مظلة الخليفة ، وحامل سيفه ، وحامل رمحه ، وصاحبا شرطة القاهرة والفسطاط .

أما رجال القلم فمن جملتهم الوزير أحياناً وقاضى القضاة ، وكان يشرف على ضرب النقود ويجلس للقضاء فى جامع عمرو يومى السبت والثلاثاء ، وداعى الدعاة ، والمحتسب وخازن بيت المال ، ويتبع هؤلاء صغار الموظفين فى مصالح الحكومة غير العسكرية . (المعرب)

والرياء محل الولاء واستقلال الشخصية ، وتذرع الحكام للبقاء فى كراسى الحكم يبث بذور الشقاق والخلاف بين أبناء الشعب .

دار الحكمة

كان الفاطميون فى أول عهدهم كالبطالسة الأولين يشجعون العلم ويكرمون العلماء ؛ فشيدوا الكليات والمكاتب العامة ودار الحكمة ، وحملوا إليها مجموعات عظيمة من الكتب فى سائر العلوم والفنون والآلات الرياضية لتكون رهن البحث والمراجعة ، وعينوا لها أشهر الأساتذة ، وكان التعليم فيها حراً على نفقة الدولة ، كما كان الطلاب يمنحون جميع الأدوات الكتابية مجانا . وكان الخلفاء يعقدون المناظرات فى شتى فروع العلم كالمنطق والرياضة والفقه والطب ، وكان الأساتذة يتشحون بلباس خاص عرف بالخلعة[١] أو العباءة الجامعية ، وأرصدت للإنفاق على تلك المؤسسات وعلى أساتذتها وطلابها وموظفيها أملاك بلغ إيرادها السنوى ٢٥٧ ألف دوكان (٤٣ مليون درهم) ، ودعى الأساتذة من آسيا والأندلس لإلقاء المحاضرات فى دار الحكمة فازدادت بهم روعة وبهاء .

لا يمكن أن نوفى تاريخ الفاطميين حقه من البحث دون أن نتحدث قليلا عن الدعاية المذهبية التى وضعوا خططها واتخذوا نشر العلم بين الكافة سبيلا لغزو الأذهان تحقيقاً لغايتهم السياسية ، فألحقوا بدار الحكمة « المحفل الأكبر » الذى كان يتلقى فيه المدعوون سر المذهب الإسماعيلى ؛ وكان المحفل يعقد اجتماعاته يومى الاثنين والأربعاء من كل أسبوع برئاسة « داعى الدعاة » ، ويحضره النساء[٢] والرجال على السواء مرتدين الملابس البيضاء ، وكانت تسمى هذه المجامع بمجالس الحكمة ، وكان داعى الدعاة[٣] يلقى هذه الدروس الخاصة على الراغبين بعد

(١) لاتزال الجامعات الإنكليزية تستعمله كلباس الجامعة الرسمى .

(٢) يقول المقريزى ج٢ وصبح الأعشى ج٣ : « إنه كانت تعقد للنساء مجالس خاصة بمركز الداعى بالقصر وهو المسمى « بالمحول » وكان من أعظم الأبنية وأرحبها » .
(المعرب)

(٣) جاء فى صبح الأعشى ج ١٠ ص٤٣٤ واجبات الداعى وطرق تلقين الدعوة نوردها فيما يلى : =

مراجعة الخليفة وموافقته ؛ فإذا ما انتهت القراءة أقبل المؤمنون والمؤمنات على الداعى فيمسح على رؤسهم بعلامة الخليفة . وقد انتهت إلينا بعض تفاصيل هذا المحفل على يد المقريزى فنراها تجرى على نسق الجمعيات السرية فى مراتب متدرجة ، ولقد أسست المحافل فى العالم المسيحى على نمطه .

أما دار الحكمة الفاطمية كأداة سياسية فقد فقدت نفوذها بانقراض الأسرة الفاطمية التى كانت تدين لها بالوجود ، ولكنها طفقت مع ذلك تسطع بنورها على المدن المصرية حتى أصبحت أثراً بعد عين فى عصر المماليك الاستبدادى ؛ أما روحها السرية فقد قاومت صروف الدهر ، وأخذ تأثيرها يظهر فى ممالك وطوائف تختلف بعضها عن البعض الآخر من حيث المواهب والاستعداد .

انتهى

= « وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل منقاد ظاهر ، ممن يظهر لك إخلاصه ويقينه ، ويصح عندك عفافه ودينه ، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه . . ، ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول فى بيعتك . . . ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحب إلا فى مزرعة لا تكدى على الزارع ، وتوخ لغرسك أجل المغارس ، وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين ، وتقربهم بقربان المخلصين ، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات ، إلى نور البراهين والآيات ، واتل مجالس الحكم التى تخرج إليك فى الحضرة على المؤمنين والمؤمنات ، والمستجيبين والمستجيبات ، فى قصور الخلافة الزاهرة والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة ؛ وصن أسرار الحكم إلا عن أهلها ، ولا تبذلها الا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا تستقل أفهامهم بتقبله ؛ واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول ، ودل على اتصال المحتل بالمنون ، فإن الظواهر أجسام والبواطن أشباحها والبواطن أنفس والظواهر أرواحها . . . » . (المعرب)

ثبت المراجع

الكتاب	المؤلف
الكامل	ابن الأثير
تاريخ الدولة الأتابكية فى الموصل	« «
مروج الذهب	المسعودى
كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر	ابن خلدون
تاريخ الخلفاء	السيوطى
تاريخ الإسلام	الذهبى
النجوم الزاهرة	ابن تغرى بردى
مورد اللطافة	« « «
تاريخ الدول	فخر الدين الرازى
أخبار البشر	أبو الفدا
كتاب الخطط	المقريزى
كتاب السلالة	«
حسن المحاضرة	السيوطى
فتوح الشام	الواقدى
عمدة الطالب	
نفح الطيب	المقرى
زبدة التواريخ	كمال الدين
كتاب الاعتبار	أسامة بن منقذ
جماع التواريخ	
منتخب التواريخ	
روضة الصفا	
منهاج السراج	

محاسن اليوسفية	ابن شداد
وفيات الأعيان	ابن خلكان
معجم البلدان	ياقوت
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم	
الأغانى	الأصفهانى
مرشد الاعتلال	«
سفر نامه	ناصر خسرو
أعلام الناس	
نهج البلاغة	
رسائل إخوان الصفا	
نوادر الأخبار	
جنة الخلد	
تاريخ الأندلس	القبى
تاريخ المسجل	ابن عربشاه
عجائب المقدور	ابن الفرج
تاريخ مختصر الدول	بيرمان
الأعصار الباقية فى تحقيق ملة الهند	طفر على آزار
سيشنامة	نظام الملك
مقامات الحريرى	
الحاج خليفة	
كشف الظنون	ابن حوقل
كتاب المسالك والممالك	
منتهى الأرب	

المراجع الافرنجية

Hist. des Arabes — C. de Perceval.
Hist. des Arabes — Sedillot.
Decline and Fall of the Roman Empire — Gibbon.
The Later Roman Empire — Bury.
Hist. de Bas Empire — Lebeau.
History of the Saracens — Ockley.
Culturgeschichte des Orients unter den Caliphen. — Von Kremer.
Historiens Occidentaux des Croisades.
Literatur-Geschichte der Arabes. — Von Hammer Purgstall.
Landerver-waltung unter den Califate' — Von Hammer.
History of the Assassins.
History of the Moguls — Howorth,
Hist, des Huns. — De Guignes.
Storia dei musulmani di sicilia. — Amari.
Extraits des Historiens Arabès relatifs aux Croisades. — Reinaud.
Invasions des Sarrazins.
Hist. des Musulmans d'Espagne — Dozy.
Hist. des Noms des Vetements chez les Arabès. — Dozy.
Hist. des Croisades. — Michaud.
History of the Crusades. — Mills.
History of the Italian Rèpublics. — Sismondi.
History of the Crusades — Archer & Kingsford
Hist. of Spain. — Watt.
History of the Mohammedan Dynasties in Spain. — Gayangos.
Arabian Antiquities in Spain. — Murphy.
Mahemetan Empire in Spain. — Ditto.
History of the Moors in Spain. — Lane Poole.
Hist. of the Caliphate. — Muir.

Translation of Ibn Khallikan's Biographical Dictionary.	De Slane.
Ferdinand and Isabella.	Prescott.
Domination des Arabes en Espagne.	Conde.
Hist. of Bokhara.	Vambery.
Hist. of the Afghans.	
Hist, of Ghazni.	Malleson.
Hist. des Sultans Mamlukes.	Quatremere.
Bible Lands.	Van Lennep.
Tableaux Generale de l'Empirė Ottomane.	d'Ohsson.
Bibliotheque Orientale.	d'Hèrbelot.
Travels in Arabia	Burckhardt.
Travels in Cėntral Arabia.	Palgrave.
Pigrimage to Nejd.	Blunt.
Travels in Persia.	Frasėr.
Travels of Ibn Batutah.	
Etude sur le Monuments, etc.	Rėy.
Scenes des moeurs Arabes en Espagne au dixiems Siecle.	Viardot.
Recueil des Historiens de France.	Viardot.
Hist. Generale du Languedoc.	Vaissette.
Hist. de la Chute de l'Empire Roman.	Sismondi.
l'Histoire de l'Afrique et de la Sicile.	Noel dės Vergers.
Relatione des Voyages des Arabes.	Reinaud.
Relation de l'Egypte, etc., trad. de Sacy.	Abdul Latif.
La propriete Territoriale et l'impot Foncièr sous les Premiers Califes.	Berchem.
Voyage en Sicile	Mohammed ibn Jubair.
Chrestomathie Arabe.	De Sacy.
Hist. of the Popes.	Ranke.
Middle Ages.	Hallam.
Mellanges des Philosophie Juive et Arabe.	Munk.

جدول الخطأ والصواب

خطأ	صواب	صفحة	سطر
عمرا	عمرَ	٢٦	٥
يعزا	يعزى	٣٧	١٠
ثلاث بنون	ثلاثة بنين	٤٨	١
مفتوحة	مفتوِح	٥٩	١٨
وإن تنسى	وإن تنس	٦٧	٦
غريقريوس	غريغريوس	٦٨	١١
يبلغ	يبلع	٨٢	١٣
الغلبة	الغلو	١١٩	٧
عن	على	١٣٨	٢١
ورحمة	ولا رحمة	١٥٧	١٦
العرب	الغرب	١٥٩	١٢
أولياه	أولياء	١٦٢	٥
فى	من	١٦٢	٧
بنية	بغية	١٦٤	٢١
أحواش	أحراش	١٦٩	١٥
يزيدا	يزيد	١٧٠	١٨
العينى	العنبى	١٧٥	١
التشيع	الشيع	١٧٨	٢٠

خطأ	صواب	صفحة	سطر
لاولون	الأول	١٨٠	١١
يزيدا	يزيد	١٨٢	٢
لسكن	لسكنى	١٩٣	١٤
خمسة عشر	خمس عشرة	١٩٥	٧
لهم	لها	٢٠٢	٨
عشر	عشرة	٢٠٥	١٦
المغالبين	المغالين	٢٤١	١٠
يستدلون	يستولون	٢٥٨	١٢
ولقب	ولقبه	٢٦١	١٣
مغالبة	مغالية	٢٧٥	٢٢
بمغبة	مغبة	٣٠١	٨
إلى إشهار	إشهار	٣٠٢	١٧
ليقروا	ليقر	٣١٨	٧
الثلاثة	الثلاث	٣١٨	١٤
ثلاثة	ثلاث	٣٢١	٣
سبعة	سبع	٣٢٦	١٤
ألف	ألفاً	٣٣٧	٩
أبى شهد	أبى شهر	٣٨١	١٠
ثلاثة	ثلاثاً	٤٠٩	١٢
ألف	ألفاً	٤٤٠	١٦
عشرة	عشر	٤٦٤	٧


Bibliotheca Alexandrina
04332464